الدعوة إلى الإسلام

بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية

تأليف

السير توماس. و. أرنولد

Sir Thomas W. Arnold

ترجمه إلى العربية وعلق عليه

الدكتور حسن إبراهيم حسن الدكتور عبد المجيد عابدين

إسماعيل النحراوي

الطبعة الأولى ١٩٤٧

مكتبة النهضة المصرية

إهداء الكتاب

إِلى السير تيودور موريسون

الذي يرجع إِليه الفضل في نشر الطبعة الأولى
أهدي هذه الطبعة الثانية
رمزًا للصداقة الطويلة

مقدمة المترجـــمين

مقدمة ترجمة الطبعة الأولى

هذا كتاب جليل الفائدة؛ غزير المادة، يتناول الكلام على ناحية من نواحي التاريخ الإسلامي، كانت من قبل غامضة مهملة. وقد ترجم إلى عدة لغات. وكانت المكتبة العربية في حاجة ماســة إلى ظهــوره بــين أسفارها، واستشرفت نفوس كثيرين للاضطلاع بنقله إليها لنفاسته.

وإذا كنا قد عرفنا فضل مؤلف هذا الكتاب من مؤلفاته العديدة، فإن أحدنا، الدكتور حسن إبــراهيم حسن، قد عرفه معرفة شخصية، وتتلمذ له في جامعة لندن خمس سنين، وعرف قدره، وأفاد من علمه. ولمــا قدم المؤلف إلى مصر في سنة ١٩٣٠، أذن للدكتور حسن إبراهيم حسن في ترجمة هذا الكتاب إلى العربيــة. ثم نشأت في نفس الزميلين الآخرين رغبة شديدة في ترجمته إلى العربية، وعلمًا أن تلك الرغبة عند الدكتور حسن إبراهيم حسن أيضاً، فعرضا عليه معاونتهما له في أداء هذه الخدمة العلمية، فلقيت فكرتهمــا عنــده قبــولاً، وتضافرت الجهود الثلاثة على إخراجه.

أما مؤلف هذا الكتاب، وهو العالم المحقق السير توماس آرنولد، فلا نستطيع أن نقدره قدره، ولا أن نصفه بأحسن مما وصفه به الأستاذ نيكلسون، إذ يقول في كلمته القيمة التي صدر بها الطبعة الإنجليزية الثالثــة: "إنه لم يتحدث إليه أحد، إلا أحس فيه عقلاً على جانب عظيم من الحيوية والقوة، وتمتع منه بخلــق متواضــع رضي سريع الاستجابة"، وبقوله يصف هذا الكتاب: "إنه يفوق حد الوصف من كل ناحية".

كان سير توماس آرنولد، فوق ما امتاز به من صفات العالم الضليع المحقق المنصف، مثــالاً للوداعــة والتواضع وهدوء النفس وحلاوة الحديث وطيب العشرة.

يُضفى على تلاميذه كل ألوان الرعاية والعطف والتشجيع.

وكان سير توماس آرنولد ملمًا بالعربية والفارسية والأردية، إلمامه بمعظم اللغات الأوروبية. وقد أورد في هذا الكتاب نصوصًا يونانية ولاتينية وإيطالية وأسبانية وهولندية وفرنسية. لهذا كان لزامًــا أن نرجــع إلى المتخصصين في دراسة هذه اللغات لينقلوا هذه النصوص إلى العربية. ولذلك نرى واجبًا علينا في هذا المقام، أن نقدم أجزل الشكر لحضرات الأساتذة الدكتور حسن عثمان والأستاذ موريس عبود لترجمة النصوص الطليانية، والدكتور دوب لترجمة النصوص الهولندية، والدكتور حسين مؤنس لترجمة النصوص الأسبانية، والدكتور محمد عبد الهادي أبي ريدة لترجمة النصوص الألمانية، والأستاذ أمين سلامة ملطى لترجمة النصوص اليونانية واللاتينية.

ونخص بتقديم أجزل الشكر والثناء حضرة الأستاذ مصطفى السقا. الأســتاذ بكليــة الآداب بجامعــة القاهرة لتفضله بالمراجعة العربية لترجمة الكتاب، فوق ما أفدنا منه من تحقيقات لغوية وأدبية وتاريخية.

وقد علقنا على بعض عبارات، رأينا ألا نمر عليها من غير إيضاح. كما حرصنا على دقـــة الترجمـــة، والرجوع إلى المصادر العربية والفارسية التي أشار إليها المؤلف في كتابه، ونقلنا النصوص من مراجعها الأصلية، وذيلنا الكتاب بفهرس عام يعين القارئ على الوصول إلى أغراضه في سهولة ويسر.

ومن الله نستمد العون والتوفيق

حسن إبراهيم حسن عبد المجيد عابدين إسماعيل النحراوي

الجيزة في ٢٣ من يوليه سنة ١٩٤٧

مقدمة ترجمة الطبعة الثانية

هذه هي الطبعة الثانية من كتاب "الدعوة إلى الإسلام"، نقدمها إلى القراء، بعد أن نفدت الطبعة الأولى منذ زمن غير قصير. وقد قمنا بإعادة طبع هذا الكتاب للمرة الثانية، استجابة لرغبة كثير من الباحثين، وتلبية لحاجة كثير من الدارسين.

و لم ندخر وسعًا في أن نزيد في هذه الطبعة ما استطعنا من التحسين والتنسيق؛ فوضعنا في كل باب من أبوابه عناوين جزئية لكل موضوع من موضوعات الباب، وأضفنا بعض التعليقات في المواضع التي وجدنا أنها بحاجة إلى مثل هذه التعليقات.

وإننا لنتقدم في هذه المناسبة، بجزيل الشكر وجميل الحمد للمؤتمر الإسلامي الذي قدم لنا كبير عونه في إخراج هذه الطبعة، وفي السماح لنا بنشر خريطته "المسلمون في العالم"، التي يجدها القارئ في آخر هذا الكتاب. وقد أدخلنا عليها بعض تعديلات يقتضيها المقام.

والله نسأل أن يوفقنا إلى ما فيه الخير للعروبة والإسلام

حسن إبراهيم حسن عبد المجيد عابدين إسماعيل النحراوي

القاهرة في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٥٧

مقدمة الطبعة الأولى

هذه صفحات أنشرها في شيء كثير من التردد؛ فالموضوع الذي تتناوله تلك الصفحات متسع جـــدّاً، و لم يكن بد من أن أجد في تحصيل هذا البحث في ظروف غير موفقة، حتى إنني لا أستطيع أن أؤمل إلا في قدر يسير من النجاح. وإذا ما أتيح لي أن أكون أكثر استعدادًا لهذا العمل، وبعد أن يمكنني التوفر على الدراسة من ملء الثغرات[١] التي تركتها في هذا الكتاب، أرجو أن يكون عملاً جديرًا بأن يفيد هذا الجانب المهمـــل مـــن التاريخ الإسلامي. وفي سبيل تحقيق هذه الغاية، سأكون شاكرًا أجزل الشكر لما تقدمه إلى أيـــة طائفـــة مـــن العلماء، قد تتفضل بالنظر في هذا الكتاب، من نقد وتصويب. وإلى أمثال هؤلاء قد نسوق الكلمات التي فـــاه بها القديس أوغسطين حين قال: "إن من يقرأ ذلك ويقول، إني أفهم ما يقال حق الفهم، وهو ليس من الصدق في شيء، إنما يعبر عن وجهة نظره هو، ويعارض رأيي. على أنه إذا فعل ذلك عن محبة وإخلاص، وتـــوخّى أن يجعل هذا الأمر مفهومًا لدىّ أيضًا (لو مد الله لي في أسباب الحياة)، فإني سأجني خـــيراً كثـــيراً مـــن عملـــي هذا"[٢].

وإني إذ أستطيع أن أدعى أنني لست بثقة ولا متخصص في أية فترة من فترات التـــاريخ الـــتي تناولـــت الحديث عنها في هذا الكتاب، وإذا صار كثير من الحوادث التي أشرت إليها فيه، موضوع جدل ونقاش بـــين الباحثين، أوردت إشارات كاملة للمصادر التي رجعت إليها. وفي هذا المقام، رأيت أن من الخـــير أن يكـــون خطئي من جانب الإفراط والمبالغة، أكثر من أن يكون من جانب النقص. ولقد تحملت كثيرًا جدّاً من العنـــاء، وأضعت كثيرًا جدّاً من الوقت في تبيين الإشارات إلى الكتب التي يكتنفها شيء من الغموض أو اللبس، رغبـــة في وقاية الآخرين أن يقعوا في مثل ما وقعت فيه من مضايقة، وعلى حين يراني القارئ العادي متحـــذلقًا، أرى أنني قد أرفع بذلك بعض العناء عن العالم، الذي يريد أن يختبر دقة أحد النصوص، أو يتتبع أي جانـــب مـــن جوانب البحث على نحو أكثر استقصاء.

وإن الطريقة التي اتبعتها في هذا الكتاب من كتابة الكلمات العربية بحروف إفرنجية، هي التي وضـــعتها جمعية مؤتمر المستشرقين الدولي العاشر، الذي انعقد في جنيف سنة ١٨٩٤، للكتابة بحروف إفرنجية، لا تستثني إلا إدغام لام التعريف في الحروف الشمسية. و لم تنطبق طريقة الكتابة هذه على كتابة الأسماء الجغرافيـــة تمـــام الانطباق —وكذلك كثير من الحالات، لأني لم أتبين مادة اللفظ العربية، وفي حالات أخرى (كمـــا في لفظـــي مكة والمدينة)، لأن الاستعمال يكاد يكون قد جعل لها لقبًا اكتسبته بتعاقب السنين.

---

(١) من ذلك انتشار الإسلام في صقلية، وأعمال الدعوة التي قام بها أولياء المسلمين على اختلافهم.

(٢) De Trinitate, i.5. (Migne, tom. Xlii. P. 822).

ومع أن هذا المؤلَّف —وهذا أمر مسلم به كما يتضح في التمهيد– عبارة عن سجل لجهود نشر الدعوة، وليس تاريخًا للاضطهاد[١]، حاولتُ أن أكون غير متحيز البتة، وأن أؤيد ذلك المثل الأعلى الذي بسطه المؤرخ المسيحي[٢] الذي أرخ انتصارات العثمانيين وسقوط القسطنطينية بقوله: "لابد للمؤرخ من أن يسجل التاريخ، لا حبّاً في أن يعترف الناس له بالجميل، ولا مدفوعًا بباعث الحقد والضغينة، أو الكراهية وإرضاء المشاعر، بل لأجل التاريخ وحده، ولكيلا تنطوي في عالم النسيان صفحات التاريخ التي يعرف الزمن كيف ينشرها".

وإني أحب أن أقدم الشكر إلى سمو الأميرة بوبريني، وسمو الأمير تشيجي Chigi، والجدير بالتبجيل الدكتور بول جوتالس Goethals رئيس أساقفة كلكته، والموفور الاحترام فرانسيس پسكي Francis Pesci أسقف الله أباد، والمحترم س. س. أولنت Allnut، أحد أعضاء إرسالية كمبردج في دهلي، وإلى أمناء مكتبة دكتور وليامز بميدان غوردن بلندن، إذ تفضلوا فسمحوا لي باستعمال مكتبة كل منهم استعمالاً سخيّاً.

وإني لمدين بالفضل بنوع خاص للسيد چيمس كنيدي J. Kennedy الموظف بقسم الخدمة المدنية بالبنغال سابقًا، فإنه لم يأل جهداً في إبداء أية رغبة تنطوي على العطف نحو كتابي. وإني مدين لعلمه الغزير واطلاعه الواسع بكثير من المعلومات التي لولاه لبقيت مجهولة لدي، ولا يقل عن ذلك فضلاً ما أدين به لقوته الدافعة في حبه للعلم في حماسه وغيرة، وروحه الودي الذي مد إليَّ يد العون والمساعدة. وإني كذلك مدين بالفضل لرعاية كونت أوجو بلتزاني Conte Ugo Balzani، الذي لولا معونته لكان من المحال أن أحصل على أجزاء معينة من بحثي هذا. وإني مدين للمرحوم البروفسور روبرتسن سمث بآرائه القيمة في عناصر البحث التي كان ينبغي أن يُبنى عليها تاريخ الكنيسة الإفريقية الشمالية، وحالة المسيحيين في ظل الحكم الإسلامي؛ وإن الحزن العميق الذي أحسه علماء الدراسات السامية جميعًا على فقده ليتضاعف في نفسي، لاعتقادي بأن ذلك هو الاعتراف الوحيد الذي أستطيع التعبير كفاء مساعدته الكريمة وتشجيعه.

كذلك أحب أن أعترف بشكري العميق إلى السير سيد أحمد خان بهادر (**KC, SI, LL.D.**) وإلى صديقي وزميلي العالم شمس العلماء مولوي محمد شبلي النعماني، الذي أعانني في سخاء جم من فيض علمه بتاريخ صدر الإسلام، وإلى تلميذي القديم مولوى بُهادر على (**M.A**).

وأخيرًا، وفوق ذلك كله، ينبغي أن أشكر زوجتي العزيزة، التي لولاها لما برز هذا المؤلف من فوضى المواد المفككة المتنافرة، والتي كان عطفها وقبولها خير مكافأة لي على أعمالي.

عليكرة (الهند) ١٨٩٦ المؤلف

---

(١) ومن ثم لن يجد القارئ أي خبر عن تاريخ أرمينية أو إقريطش الحديث، أو في الواقع عن تاريخ أي جزء من إمبراطورية الأتراك في خلال القرن الحالي – وهي فترة تنفرد بخلوها من مهمة نشر الدعوة من جانبهم.

(٢) Phrantzes, p. 5.

مقدمة الطبعة الثانية

لما نفدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب منذ عدة سنوات، وكثر سؤال الناس عن نسخ منه، أعدت هذه الطبعة الجديدة، وبذلت مجهودًا في مراجعة الكتاب على ضوء المواد الجديدة التي تجمعت لدي في خلال السنوات الست عشرة الأخيرة. على أني لا أستطيع أن أدعي أنني قد ألممت بجميع الكتب الشاملة الخاصة بهذا الموضوع، التي دونت بما يزيد على عشر لغات مختلفة، والتي نشرت في خلال هذه الفترة ويمكن أن نتصور مدى نمو البحث في الإسلام وفروع الدراسة المختلفة التي تتصل به، من تلك الحقيقة وهي أن خمس مجلات قد ظهرت منذ سنة ١٩٠٦، لتتوفر على دراسات قريبة الصلة من موضوع هذا الكتاب؛ ومن هذه المجلات:

Revue de Monde Mouslman, publiée par La Mission Scientifique du Marco (Paris, 1906); Der Islam. Zeitschrift für Geschichte und Kultur des islamischen Orients (Strassburg, 1910); the Moslem World, a quarterly review of current events, literature and thought among Mohammedans, and the progress of Christian Missions in Moslem lands (London, 1911); Mir Islama (St. Petersburg, 1912); and Die Welt des Islams, Zeitschrift der dutschen Gesellschaft für Islamkunde (Berlin, 1913).

وتبذل جمعيات التبشير المسيحية الآن كذلك اهتمامًا زائدًا بموضوع نشاط الدعوة الإسلامية، ومن ثم يحتل فيما تنشره هذه الجمعيات جانبًا أعظم نسبيًا مما كان من قبل.

وكان من الممكن أن تنجز الطبعة الثانية منذ عدة سنوات، لولا تلك السياسة المخالفة للحرية التي أوصدت قاعة المطالعة في المتحف البريطاني في الساعة السابعة؛ وبذلك لم تكن القراءة فيها ميسورة لدي من الناحية العملية إلا في أيام السبت(١). ولذلك أحب أن أعبر عن شكري الجزيل لهؤلاء الأصدقاء الذين يسروا أعمالي بإعارتي كتبًا من مكتبات جامعة ليدن وجامعة أوترخت (عن طريق المعاونة الكريمة التي قدمها إلى البروفسور فنسنك)، ومدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس:- وإني لمدين لمستر ج. أ. أولدهام Oldham، محرر مجلة البعوث الدولية The International Review of Missions لإعارته إياي مجلدات مجلة Allgemeine Missions-Zeitschrift، ولم أكن أستطيع أن أجد هذه المجموعة في لندن. وأقدم شكري بنوع خاص إلى دكتور ف. و. توماس الذي سمح لي بدراسة الكتاب الأثري "حوليات الإسلام لليوني كيتاني Leone Caetani, Principe di Teano فترات طويلة (بالإضافة إلى كتب أخرى من مكتبة India Office Library" –وهو مؤلف له قيمة لا تقدر في دراسة تاريخ صدر الإسلام، ولكنه لسوء الحظ بعيد عن متناول يد العالم العادي بسبب غلاء ثمنه.

---

(١) يجد طالب كتب العلوم أو الفنون الجميلة المكتبات في كنسنجتون الجنوبية مفتوحة حتى الساعة العاشرة في ثلاث ليال من كل أسبوع، ولكن المكتبة الوحيدة في تلك البلاد التي تهدف إلى أي لون من الكمال، ليست إلا في متناول هؤلاء الطلبة الذين يفرغون من أعمالهم في أثناء النهار.

كذلك أدين بالفضل الجزيل لهؤلاء العلماء الذين نقدوا الكتاب عند ظهوره للمرة الأولى على ما أبـــدوه من إيضاحات قيمة عديدة، – وأحق هؤلاء جميعاً بالذكر، البروفسور جولدتسيهر الذي أبدى من العناية الـــتي تنم عن العطف والمودة بهذا الكتاب ما شجعني على إتمامه.

(لندن ١٩١٣) **المؤلف**

مقدمة الطبعة الثالثة

طوت وفاة السير توماس أرنولد في التاسع من شهر يونيه سنة ١٩٣٠ سجلاً طويلاً رائعًا من الخدمة في كثير من ميادين العلم المتنوعة، وخاصة في تلك الميادين الواسعة من التاريخ والثقافة والفن الإسلامي. ولا حاجة بي إلى الكتابة عن هذه بالتفصيل؛ فهي من الشهرة والتقدير بحيث أستطيع أن أقتصر في هذا المقام عن بعض ملاحظات خاصة بهذا الكتاب، وأن أشير إشارة عابرة إكرامًا له، إلى مؤلفات ثلاث أخرى، كل منها يعد طرفة فريدة في بابها —أعني بها رسالته في الخلافة Caliphate، وفكرته الإجمالية عن الإسلام بعنوان العقيدة الإسلامية The Islamic Faith، وكتابه الفخم "التصوير في الإسلام، Painting in Islam". ولما كان أرنولد عالمًا كامل العلم بلغات كثيرة، ملمّاً بالعربية والفارسية إلمامه بمعظم اللغات الأوروبية، فقد أوتي مفاتيح لا عداد لها لعالم العصور الوسطى الذي أحبه، ولم يمل مطلقًا الكشف عن مجاهله. ومع ذلك، ففي الوقت الذي نراه يجدّ في حماسه ونشاط في البحث وجمع المواد لإعادة بناء هذه العصور، نجده كذلك يعني أشد العناية، وهو نفسه يمثل دورًا فعالاً ملهمًا، في حياة عصره وتفكيره. وقد كان زميلاً يدخل في النفوس البهجة والسرور. لم يتحدث إليه أحد إلا أحس فيه عقلاً على جانب عظيم من الحيوية والقوة، وتمتع منه بخلق متواضع رضي سريع الاستجابة. وإني إذ أختتم هذه التقدمة الموجزة إلى ذاكره، أوجه نظر القارئ إلى ذلك الوصف الرائع المسهب الذي كتبه عن توماس أرنولد العالم والرجل، سير أوريل ستين Sir Aural Stein في أعمال الأكاديمية البريطانية سنة ١٩٣٠ Proceedings of the British Academy ص ٤٣٩ — ٤٧٤، وكان يعرفه معرفة وثيقة.

ظهر كتاب الدعوة إلى الإسلام في سنة ١٨٩٦، وكان أرنولد قد تجاوز الثلاثين بقليل. وقبل ذلك بثماني سنوات، كان قد ترك كمبردج ليشغل منصبًا في الكلية الإنجليزية الإسلامية في عليكره Anglo-Muhammadan College. وكانت قد تأسست حديثًا. وإن ما تميزت به علاقته مع المسلمين دائمًا من تعاطف وفهم لحالتهم، سرعان ما حببه إلى الطلاب والمعلمين على سواء. وهنا وضع خطة هذا الكتاب وأتم ما وصفه في هذا العنوان "تاريخ نشر العقيدة الإسلامية" وهذا الكتاب يفوق حد الوصف من كل ناحية. وقد أوتي أرنولد موهبة، وكانت عادة جرى عليها في معظم أيام حياته، جمعت بين التوفر على الأعمال الإدارية، والغيرة على البحث. وهو كما يلاحظ سير أوريل ستين. "ومع ذلك إذا قدرنا كيف بذل بمحض إرادته العون والوقت للآخرين، وكيف كان في عليكره بعيدًا عن المكتبات العظيمة، لاستولى علينا الدهش كيف استطاع أن يجمع وأن ينقد، هذا القدر الهائل من المواد المتنوعة التي تتعلق بالكتب والمراجع التي استخدمها في الطبعة الأولى من كتاب "الدعوة إلى الإسلام"، وإن نظرة واحدة في المراجع التي اعتمد عليها المؤلف، تكفي لنتحقق قيمة الكتاب باعتباره مستودعًا وصورة للحقائق التي تتعلق بموضوعه. على أن سعة الاطلاع أمر أساسي أكثر من أن يكون صفة حيوية، وأن هذا الكتاب زاخر بالحياة. وعلى الرغم من أن المؤلف، على حد تعبيره "قد

حاول أن يكون غير متحيز البتة"، فليس معنى ذلك أن سرده للحوادث والأخبار لم يكن شخصيّاً البتة. وبينما نجد الكتاب ينقلنا على التوالي من بلاد العرب إلى آسيا الغربية وإفريقية وأسبانيا وفارس والهند والصين والملايو، نحس من وراء سطحه الهادئ عمق الحجج المقنعة وقوتها التي تبعث فيه الحياة. ومنذ قرنين قال جورج سيل Sale، وهو الذي ترجم القرآن إلى الإنجليزية، "**إنه لن يتحرى الأسباب التي من أجلها صادفت شريعة محمد ترحيبًا لا مثيل له في العالم لأن هؤلاء الذين يتخيلون أنها قد انتشرت بحد السيف وحده إنما ينخدعون انخداعًا عظيمًا**" ويوضح الباب الأخير من كتاب "الدعوة إلى الإسلام" في دقة ما هي هذه الأسباب. وإن الكتاب من أوله إلى آخره، برغم طابعه التاريخي ومنهجه العلمي، إنما هو حجة أرنولد أقامها على الجور والتعصب. وإن آراءه في الجملة خليقة بأن تؤثر حتى في هؤلاء الذين قد يظنون أن هذا الكتاب مصدر خطر، عندما يقدرون بواعث الحماسة في نشر الدعوة ونتائجها، تاركين بصفة قاطعة مظهرًا من نشاط هذه الدعوة لم يحسبوا له حسابًا، كما فعل أرنولد.

وإني لأذكر جيدًا تلك المتعة والبهجة التي أحسستها حين قرأت كتاب "الدعوة إلى الإسلام" عندما ظهر لأول مرة. وستمكن إعادة طبع هذا الكتاب في الصورة التي روجع بها وزيد عليها كما ظهر في طبعة سنة ١٩١٣ كثيرًا من الطلاب أن يضيفوا إلى مكتباتهم مؤلفًا لا يمكن الاستغناء عنه، ويعد حجة ثابتة. أما وقد عجزنا عن إدخال التعديلات لجعل الكتاب متمشيًا مع العصر، لم يكن بد من أن يظهر الكتاب دون تغيير. وهذه مسألة تبعث على الأسف، ولكن إذا نحينا تلك التوافه جانبًا، من مثل ما ذكره المؤلف ص ٤٢٦ من أن حركة الإصلاح الوهابية "قد فقدت كل معنى سياسي خارج حدود نجد زمنًا طويلاً"، فإن الصعوبات التي كانت تنطوي على استدراك مثل هذا المؤلف بعد ظهوره بأكثر من عشرين سنة، عظيمة، كما يظهر ذلك في وضوح وجلاء.

(ر. أ. نيكلسون)

كمبريدج سنة ١٩٣٥

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
إهداء الكتاب	**٣**
مقدمة المترجمين	**٤**
مقدمة ترجمة الطبعة الثانية	**٦**
مقدمة الطبعة الأولى	**٧**
مقدمة الطبعة الثانية	**١١**
مقدمة الطبعة الثالثة	**١٣**

الباب الأول: تمهيد

تعريف دين الرسالة	**٢٥**
انتشار الإِسلام	**٢٦**
القرآن يأمر بالدعوة إِلى الإِسلام وينهي عن الإِكراه	**٢٧**

الباب الثاني: دراسة حياة محمد باعتباره داعية إِلى الإِسلام

محمد نموذج الداعي المسلم	**٣٧**
جهوده الأولى في نشر الدعوة	**٣٧**
أوائل المسلمين	**٣٨**
اضطهاد الداخلين في الإِسلام	**٣٩**
مقدمات الهجرة إِلى المدينة	**٤٥**
الهجرة إِلى المدينة: بداية الحياة القومية للإِسلام	**٥٢**
محمد مؤسس هيئة سياسية منظمة	**٥٨**
انتشار الإِسلام بعد الهجرة إِلى المدينة	**٥٩**
مُثل الإِسلام العليا ومُثل الجاهلية	**٧٠**

الباب الثالث: انتشار الإِسلام بين الشعوب المسيحية في آسيا الغربية

فتوح العرب وتوسع الجنس العربي بعد وفاة محمد ٧٣
تحول البدو المسيحيين إِلى الإِسلام ٧٥
التسامح يشمل هؤلاء الذين ظلوا على المسيحية ٧٨
إِخفاق محاولة هرقل في التوفيق بين الفرق المسيحية ٨٢
فتح العرب بلاد الشام وفلسطين ٨٥
تسامح العرب وعهودهم ٨٦
عهد عمر ٨٨
الجزية ٩١
الغرض من فرض الجزية ٩٢
على من فرضت؟ ٩٣
المسيحيون في ظل الحكم الإِسلامي ٩٥
أسباب تحول المسيحيين إِلى الإِسلام ١٠٤
تأثير فكرة إِنكار الوحي والأخذ بالعقل وحده ١١٠
طابع السيادة في الحضارة الإِسلامية ١١٢
الاضطهادات التي عاناها المسيحيون ١١٢
جهود نشر الدعوة بين المسيحيين ١٢٠
تفصيلات التحويل إِلى الإِسلام ١٢٤
حالات التحول إِلى الإِسلام بين الصليبيين ١٢٩
الكنائس الأرمنية والجورجية ١٤٠

الباب الرابع: انتشار الإِسلام بين مسيحيي إفريقية

فتح مصر على أيدي العرب وترحيب القبط بهم لإنقاذهم من الحكم البيزنطي ١٤٩
حالة القبط في عهد المسلمين ١٤٩
فساد رجال الدين المسيحي كان من أسباب اعتناق الإسلام ١٥٦
بلاد النوبة والعلاقات بينها وبين الدول الإسلامية ١٥٨
هجرة العرب إلى بلاد النوبة ١٦٠
الانحلال التاريخي للعقيدة المسيحية ١٦١
بين الحبشة والنوبة ١٦٤
الإسلام بين الأحباش ١٦٤
غزوة أحمد القرين وحالات التحول إلى الإسلام في عهده ١٦٦
بقاء الإسلام يعد مقتل القرين ١٦٨
الإسلام في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ١٧٠
شمال إفريقية واتساع نطاق المسيحية فيه ١٧٤
كيف انتشر الإسلام في شمال إفريقية ١٧٥
أسباب تدهور المسيحية ليست راجعة إلى تعصب المسلمين ١٧٥
انحلال الكنيسة التدريجي دليل على تسامح المسلمين ١٨٢

الباب الخامس: انتشار الإسلام بين مسيحيي أسبانيا

المسيحية في أسبانيا قبل الفتح الإسلامي ١٨٩
تسامح العرب وأثرهم في المسيحيين ١٩٣
استشهاد بعض المسيحيين بمحض إرادتهم ٢٠٣
تعصب بعض المسلمين لا ينفي فكرة التسامح ٢٠٥

الباب السادس: انتشار الإسلام بين شعوب أوروبا المسيحية في عهد الأتراك

علاقات الأتراك برعاياهم المسيحيين قائمة على التسامح ٢٠٩
استثناء من التسامح: ضريبة الأبناء ٢١٥
ضريبة الرأس ٢١٨
الجهود التي بذلها الأتراك في نشر الإِسلام ٢٢٧
العوامل التي ساعدت على نشر الإِسلام ٢٢٨
الكنيسة الإِغريقية ٢٣١
تفوق العثمانيين الأدبي ٢٤٢
تحول الأرقاء المسيحيين إِلى الإِسلام ٢٤٦
غزو الأتراك بلاد ألبانيا ٢٥٣
طابع الشعب الألباني ٢٥٣
الانحلال التدريجي للعقيدة المسيحية ٢٥٥
الإِسلام في الصرب ٢٧٤
الإِسلام في الجبل الأسود ٢٧٩
الإِسلام في إِقريطش ٢٨٤

الباب السابع: انتشار الإِسلام في فارس وأواسط آسيا

حالة فارس الدينية في زمن الفتح العربي ٢٩١
جماعات كثيرة من الأهالي يرحبون بالإِسلام ٢٩٣
الإِسلام في أواسط آسيا وأفغانستان ٣٠٠

الباب الثامن: انتشار الإِسلام بين المغول والتتار

وصف فتوح المغول ٣٠٨
تنافس الأديان في اكتساب صداقة المغول ٣١٠
عقبات في سبيل الإِسلام ٣١٥
أوائل المسلمين ٣٢٠
إسلام إِيلخانات المغول ٣٢٢
إِسلام أسرة جغطاي ٣٢٩
الإِسلام في عهد القبيلة الذهبية ٣٣٦
تاريخ الإِسلام في روسيا ٣٣٩
الإِسلام بين تتار سيبريا ٣٥١

الباب التاسع: انتشار الإِسلام في الهند

توزيع الأهالي المسلمين ٣٥٥

حكام المسلمين وأثرهم في نشر الإِسلام ٣٥٦

تحول إِلى الإِسلام عن طريق الإِكراه ٣٦٢

الإِسلام في جنوب الهند ٣٦٥

الإِسلام في عهد حيدر علي وتيبو سلطان ٣٧٠

في الدكن ٣٧٢

في السند ٣٧٥

في البنغال ٣٨٠

الإِسلام في جهات أخرى في الهند ٣٨٣

في قشمير والتبت ٣٩٥

الباب العاشر: انتشار الإِسلام في الصين

بواكير الإِسلام في الصين ٣٩٩

الإِسلام في عهد دولة تانج ٤٠٢

أثر الفتح المغولي ٤٠٣

الإِسلام في عهد دولة منج ٤٠٥

في عهد دولة منشو: ثورة المسلمين ٤٠٩

بين المسلمين ومواطنيهم في الصين ٤١٣

الباب الحادي عشر: انتشار الإِسلام في إِفريقية ٤٢١

العرب في شمال إفريقية ٤٢١
إسلام البربر ٤٢١
في السودان الغربي ٤٢٨
محمد عثمان الميرغني ٤٣٩
القادرية والتيجانية ٤٤١
السنوسية ٤٤٨
الإسلام على الساحل الغربي من إفريقية ٤٥٣
الإسلام على الساحل الشرقي من إفريقية ٤٥٦
الإسلام في أوغندا ٤٦٠
الإسلام في إفريقية الشرقية ٤٦١
قبائل الجلا والسومال ٤٦٤
في مستعمرة الكاب الساحلية ٤٦٩
أساليب الدعاة في نشر الدعوة ٤٧٢
الباب الثاني عشر: انتشار الإسلام في أرخبيل الملايو ٤٨٥
بين الملايو والعرب والهند ٤٨٥
أساليب نشر الدعوة ٤٨٧
الإسلام في سومطرة ٤٨٨
في شبه جزيرة الملايو ٤٩٦
في جاوة ٥٠٢
في ملوكس ٥١٦
في بورنيو ٥٢٠
في سليبيس ٥٢٣
في الفلبين ٥٣٢
في سولو ٥٣٤
بين البيوان ٥٣٦
دعاة المسلمين: التجار وطبقة الحاجي ٥٣٩
الباب الثالث عشر: خاتمة ٥٤٥

دعاة المسلمين – عدم وجود هيئة منظمة لهم ٥٤٥
المهمة ملقاة على عاتق الأفراد ٥٤٥
عوامل نجاحهم ٥٤٩
ملحق (١) ٥٦٥
رسالة الهاشمي إلى الكندي يدعوه إلى الإِسلام
ملحق (٢) ٥٧٠
كتب الجدل بين المسلمين وأتباع الديانات الأخرى
ملحق (٣) ٥٧٢
جمعيات الدعوة الإِسلامية
مراجع الكتاب ٥٧٥
مراجع عربية وفارسية – مذكورة بالإشارات المختصرة
مراجع إِفرنجية ٥٨٠
(عناوين المراجع التي ذكرت مرة واحدة في هذا الكتاب قد اكتفينا بإِيرادها كاملة في الهوامش)
خريطة: المسلمون في العالم- في ذيل الكتاب.

الباب الأول

تمهيد

تعريف دين الرسالة: منذ أن ألقى الأستاذ مَكس ملّر Max Mûller محاضرة في كنيسة وستمنستر في لندن، في يوم الشفاعة من أجل الرسل، وذلك في ديسمبر ١٨٧٣، أصبح من المعروف علميًا أن الأديان الستة الكبرى في العالم يمكن تقسيمها إلى دين مختص برسالة ودين غير مختص. فاليهودية والبرهمية والزرادشتية من القسم الأخير، أما البوذية والمسيحية والإسلام فهي من القسم الأول. وقد وفق في تحديد ما ينبغي أن يدل عليه اصطلاح "دين الرسالة" بقوله إنه الدين "الذي يسمو فيه نشر الحق، وهداية الكفار إلى واجب مقدس، على يد مؤسس الدين أو خلفائه من بعده... إنها روح الحق في قلوب المؤمنين التي لا تستقر حتى تتجلى في الفكر والقول والعمل، ولا تقنع حتى تؤدي رسالتها إلى كل نفس إنسانية، وتعترف أفراد الجماعة الإنسانية بما تعتقد أنه الحق"(١).

الإسلام دين رسالة: وإن الذي دفع المسلمين إلى أن يحملوا رسالة الإسلام معهم إلى شعوب البلاد التي دخلوها، وجعلهم ينشدون لدينهم بحق مكانًا بين ما نسميه أديان الرسالة، لهي حماسة من ذلك النوع، من أجل صدق عقيدتهم. وليس موضوع هذا الكتاب إلا صورة من تاريخ ظهور هذه الحماسة في تبليغ الدعوة ودوافعها وألوان نشاطها. وإن انتشار مائتي مليون من المسلمين في العالم في الوقت الحاضر لهو الشاهد على ما كان لهذه الحماسة من أثر خلال الثلاثة عشر قرنًا التي تلت ظهور الإسلام.

انتشار الإسلام: وكان ظهور مبادئ هذه العقيدة لأهالي بلاد العرب في القرن السابع الميلادي، على يد النبي العربي الذي انضوى تحت لوائه شتى القبائل العربية فأصبحت بذلك أمة واحدة. فلما امتلئوا من آثار هذه الحياة القومية الجديدة، ومن هذه الحماسة، وتلك الحماية التي أمدت جنودهم بقوة لا تقهر تدفقوا في أنحاء ثلاثة، يفتحون البلاد ويخضعون العباد. وكان أسبق البلاد إلى التسليم سورية وفلسطين ومصر وشمال إفريقية وفارس. وبعد انقضاء مائة عام على وفاة الرسول، وصل أتباعه غربًا إلى أسبانيا، وشرقًا إلى أن عبروا نهر السند، فما لبثوا أن وجدوا أنفسهم سادة على إمبراطورية أعظم من إمبراطورية روما في أوج قوتها.

ومع أن هذه الإمبراطورية العظمى قد تصدعت أركانها فيما بعد، وتضعضعت قوة الإسلام السياسية، ظلت غزواته الروحية مستمرة دون انقطاع. وعندما خرَّبت جموع المغول بغداد (١٢٥٨م) وأغرقوا في الدماء مجد الدولة العباسية الذاوي، وطرد فرديناند ملك ليون وقشتالة المسلمين من قرطبة (١٢٣٦م) ودفعت غرناطة، آخر معاقل الإسلام في أسبانيا الجزية للملك المسيحي —كان الإسلام قد استقرت دعائمه وتوطدت أركانه في

---

(١) تعليق على مقال الأستاذ ليال LYALL (Missionary Rellgions) في مجلة fortnightly Review, July, 1874.

جزيرة سومطرة، وكان على أهبة أن يحرز تقدمًا ناجحًا في الجزائر الواقعة في بلاد الملايو. وفي هذه اللحظات التي تطرق فيها الضعف السياسي إلى قوة الإسلام، نرى أنه قد حقق بعض غزواته الروحية الرائعة. فهنالك حالتان تاريخيتان كبريان، وطئ فيهما الكفار من المتبربرين بأقدامهم أعناق أتباع الرسول، أولئك هم الأتراك السلاجقة في القرن الحادي عشر، والمغول في القرن الثالث عشر؛ وفي كلتا هاتين الحالتين نرى الفاتحين يعتنقون ديانة المغلوبين. وقد حمل دعاة المسلمين الذين كانوا خلواً كذلك من أي مظهر من مظاهر السلطان الزمني، عقيدتهم إلى إفريقية الوسطى والصين وجزائر الهند الشرقية. وتمتد العقيدة الإسلامية اليوم من مراكش إلى زنجبار، ومن سيراليون إلى سيبريا والصين، ومن البوسنة إلى غينيا الجديدة.

وفي خارج البلاد الإسلامية الصميمة، والمناطق التي تضم عدداً كبيراً من السكان المسلمين، كالصين وروسيا، طوائف صغيرة قليلة العدد من أتباع النبي، يؤيدون الدين الإسلامي بين صفوف قوم من الكفار، من أمثال هؤلاء طائفة من المسلمين الذين يتكلمون البولندية، وينحدرون من أصل تتري في لتوانيا، ويقطنون مقاطعة كڤنو Kovno وڤلنو Vilno وجردنو Grodno[1]، وطائفة أخرى من المسلمين الهولنديين في مستعمرة الكاب، وثالثة من الرعاة الهنود نقلوا معهم عقيدة الإسلام إلى جزائر الهند الغربية وإلى غينا البريطانية والهولندية. ثم أصبح للإسلام أيضاً في السنين الأخيرة أشياع في إنجلترا، وأمريكا الشمالية واستراليا واليابان.

ويرجع انتشار هذا الدين في تلك الرقعة الفسيحة من الأرض، إلى أسباب شتى: اجتماعية وسياسية ودينية؛ على أن هنالك عاملاً من أقوى العوامل الفعالة التي أدت إلى هذه النتيجة العظيمة، تلك هي الأعمال المطردة التي قام بها دعاة من المسلمين، وقفوا حياتهم على الدعوة إلى الإسلام، متخذين من هدي الرسول مثلاً أعلى وقدوة صالحة.

القرآن يأمر بالدعوة والإقناع وينهى عن الإكراه: و لم تجئ مهمة تبليغ الرسالة في تاريخ الإسلام بعد تريث وتفكير، ولكنها كانت ملقاة على عاتق المؤمنين منذ البداية. وقد نرى ذلك واضحاً في هذه الآيات القرآنية، التي ننقلها هنا مرتبة بحسب تاريخ نزولها:

﴿**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ (سورة النحل: آية ١٢٥).

﴿**وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ من بَعْدِهِمْ** (أي اليهود والنصارى) **لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ فَلِذَلِكَ فَادْعُ**[2] **وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ من كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ**﴾ (سورة الشورى: الآيات ١٣- ١٤).

---

(١) Reclus, Vol. v.p. 433. Gaztowit, p. 320 sqq.

(٢) أي أدعوهم إلى الدين

وفي الآيات المدنية أيضًا نجد مثل هذه التعاليم، وقد نزلت على محمد بعد أن أصبح على رأس جيشه الكبير وفي ذروة سلطانه.

﴿**وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾ (سورة آل عمران: الآية ٢٠)

﴿ **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (سورة آل عمران: الآيات ١٠٣- ١٠٤).

﴿**لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ (سورة الحج: الآيات ٦٧-٦٨).

وهذه آيات ننقلها من سورة قيل إنها كانت آخر ما نزل من السور: ﴿**وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ**﴾ (سورة التوبة: آية ٦).

أما الكفار الذين نكثوا عهدهم ﴿**اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ**﴾ و ﴿**لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً**﴾ و﴿**فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ (سورة التوبة: آية ١٠،٩، ١١).

وهكذا كان الإسلام منذ بدء ظهوره دين دعوة، من الناحية النظرية، أو الناحية التطبيقية. وقد كانت حياة محمد تمثل هذه التعاليم ذاتها، وكان النبي نفسه يقوم على رأس طبقات متعاقبة من الدعاة المسلمين، الذين وفقوا إلى إيجاد سبيل إلى قلوب الكفار. على أنه ينبغي ألا نلتمس الأدلة على روح الدعوة الإسلامية في قسوة المضطهد، أو عسف المتعصب، ولا حتى في مآثر المحارب المسلم، ذلك البطل الأسطوري الذي حمل السيف في إحدى يديه، وحمل القرآن في اليد الأخرى(١)—وإنما نلتمسها في تلك الأعمال الوديعة الهادئة، التي قام بها الدعاة وأصحاب المهن، الذين حملوا عقيدتهم إلى كل صقع من الأرض. على أن هؤلاء الدعاة لم يلجئوا إلى اتخاذ مثل هذه الأساليب السلمية في نشر هذا الدين عن طريق الدعوة والإقناع، بخلاف ما زعم بعضهم، حينما جعلت الظروف القوة والعنف أمرًا مستحيلاً، يتنافى مع الأساليب السياسية، فلقد جاء القرآن مشددًا في الحض على هذه الطرق السلمية، في غير آية منه، مثال ذلك:

---

(١) وقد نشأ هذا التأويل الخاطئ للفتوحات الإسلامية مما ذهب إليه بعضهم من أن الحروب التي نشبت لبسط السيادة الإسلامية على بلاد الكفار، قد دلت على أن الغاية المنشودة منها، كانت ترمي إلى تحويلهم إلى الإسلام. وقد أحسن "جولدتسيهر" حين أشار إلى هذا التمايز في كتابه "Vsrlesnngen uber den Islam" بقوله: لقد "خلف محمد ما صنعه من محيطه العربي أول الأمر وصية لمستقبل أمته: ألا وهو توسيع نطاق السيادة الإسلامية، التي هي سيادة الله. ولم يكن الغرض فيما يتعلق بالجهاد الإسلامي يتجه أول الأمر إلى تغيير عقيدة الناس، بإدخالهم في الإسلام بقدر ما كان يرمي إلى إخضاع الكفار" ص ٢٥.

﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ (سورة المزمل: آية ١٠-١١).

﴿إِلاَّ بَلاَغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ (سورة البقرة: آية ٢٣).

﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِما كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (سورة الجاثية: آية ١٣).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَاء اللّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (سورة النحل: آية ٣٥).

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾ (سورة النحل: آية ٨٢)

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (سورة العنكبوت: آية ٤٦).

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاَغُ ﴾ (سورة الشورى: آية ٤٨).

﴿وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ (سورة يونس: آية ٩٩).

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سورة سبأ: آية ٢٨).

و لم تكن هذه التعاليم مقصورة على السور المكية، وإنما وردت أيضًا بكثرة في الآيات المدنية كقوله تعالى:

﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (سورة البقرة: آية ٢٥٦).

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (سورة التغابن آية ١٢).

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (سورة النور: آية ٥٤).

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (سورة الحج: آية ٤٩).

﴿وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة المائدة: آية ١٣).

وإن الغرض مما سنذكر في الصفحات التالية، هو بيان كيف تحقق هذا المثل الأعلى في التاريخ، وكيف كان أئمة الإسلام يطبقون مبادئ نشاط الدعوة. وينبغي أن يعلم القارئ منذ البداية، أننا لم نضع هذا الكتاب لدراسة تاريخ الاضطهادات الإسلامية، وإنما وضعناه لدراسة الدعوة الإسلامية في أنحاء العالم. فليس الغرض تاريخ الحالات التي استعملت فيها القوة لإدخال الناس في الدين الإسلامي، مما نجده منها مفرقًا في صفحات التاريخ الإسلامي.

وقد عنى الكتاب الأوروبيون ببيان هذه الحالات، حتى لم يعد ثمة خوف من إغفالها. وإن من الصعب إدراجها في نطاق تاريخ الدعوات. وفي بعض تواريخ البعثات المسيحية يؤثر المرء بطبيعة الحال الإصغاء إلى ما فعله القديس ليودجر Liudger والقديس ويليهاد Willehad بين السكسونيين الوثنيين، أكثر مما يصغى إلى أخبار التعميدات المسيحية، التي كان شارلمان يفرضها عليهم بحد السيف[١]. وكان المبشرون في بلاد الدانمرك، وهم القديس أنسجار Ansgar وخلفاؤه، أحق بصفة التبشير من الملك كنوت Cnut الذي استأصل الوثنية من ممتلكاته بالقوة والإرهاب[٢]. وعلى الرغم مما صادفه القسيس جوتفريد Gottfried، والأسقف كريستان Christian من نجاح في تنصير البروسيين الوثنيين، وكان نجاحهما أقل مما صادفه من سبقهما، كانوا بحق أكثر تمثيلاً لنشر الدعوة من جماعة إخوان السيف Bretheren of the Sword وغيرهم من الصليبيين، الذين أدوا رسالتهم بالسيف والنار. ولقد فرض فرسان Ordo Fratrum Miltitae Christ المسيحية على شعب ليفونيا فرضًا.

ولكن الرسل الحقيقيين للعقيدة المسيحية في هذه البلاد، هم رهبان ماينهارد وتيودوريك Meinhard and Theodoric، وهم في ذلك أشد أثرًا وأعظم شأنًا من أولئك الفرسان المجاهدين، الذين قامت دعوتهم على القوة العسكرية. وإن الوسائل العنيفة التي كان يلجأ إليها أحيانًا الرسل اليسوعيون[٣]، لا يمكن أن تنقض الشرف الذي يتصف به أمثال القديس فرانسيس كسافير Francis Xavier وسائر المبشرين من هذه الطائفة. كذلك لم يكن فالنتين Valentyn بأقل من رسل أمبويا Amboyna في هذه السبيل؛ فقد وجه في سنة ١٦٩٩م إلى راجوات Rajas هذه الجزيرة مرسومًا يأمرهم فيه بإعداد طائفة معينة من الوثنيين لتعميدهم، إذا ما طاف بهم راعي الكنسية[٤].

وإذا تتبعنا تاريخ الكنيسة المسيحية، فإننا نجد نشاط الدعوة في اطراد مستمر. وقد يلي عصر الحماسة التي أظهرها الرسل في نشر الدين، فترة جمود وعدم اكتراث، وربما حل الاضطهاد والتنصير الإجباري محل الدعوة الهادئة إلى "كلمة الله". كذلك كانت الدعاية الإسلامية في شتى عهود التاريخ الإسلامي بين مد وجزر. ولكن لما كانت الغيرة التي عرفها هؤلاء العاملون على نشر الدين، ظاهرة جلية في بث كل من الديانتين، رأينا من المناسب أن نفرد لتاريخ الدعوة دراسة خاصة، بحيث لا ينأى بنا ذلك الاتجاه، عن ذكر غير ذلك من

---

(١) انظر Enhardi Fuldensis Annales عام ٧٧٧م "ولما ضعف السكسونيون بعد معارك كثيرة وحروب عديدة اعتنقوا المسيحية آخر الأمر وخضعوا لحكم الفرنجة". راجع Monumenta Germaniae Historica, G. H. Pertx Vol. 1. p. 349 (انظر أيضًا: pp. 156. 159).

(٢) "ومن ثم أخضع الأمم المغلوبة على أمرها للقانون المسيحي بعد أن اشتبك مع الممالك المتبربرة في حرب طاحنة مدفوعًا بما كان يضطرم في نفسه من الشوق إلى نشر العقيدة" (Breviarium Romanum Lun. 19.)

(٣) Histoire du Christianisme des Indes, pp. 529- Mthurin de la crose, 531. (The Hague, 1724).

(٤) Revue de L´Histoire des Religions, vol. Xi p. 89.

المعلومات التي تتعلق بالحياة الدينية، على أن نحصر عنايتنا في دراسة مظهر من مظاهره، يكـــون لـــه مميزاتـــه الخاصة. وعلى ذلك ففي مقدورنا أن ندرس الأخبار التاريخية المتعلقة بهذه الـــدعوة، منفصـــلة عـــن أخبـــار الاضطهاد، في تاريخ الكنيسة المسيحية أو في تاريخ العقيدة الإسلامية، ولو أنه قد يكون هناك ما يبرر الخلـــط بين هاتين الديانتين أحيانًا. فكما أن الدين المسيحي لم يكن انتشاره على الدوام بمثل الوسائل التي اتخـــذها في فيـــكن Viken (القسم الجنوبي من النرويج) الملك أولاف ترايجفيسون Olaf Trygvesson ، الذي كان يقوم بذبح هؤلاء الذين أبوا الدخول في المسيحية، أو بتقطيع أيديهم وأرجلهم، أو بنفيهم وتشريدهم، وبهذه الوسائل نشر الدين في فيـــكن بأسرها[١]– وكما أن وصية القديس لويس لم تتخذ أصلاً لمهمة التبشير المسيحي، تلك الوصية التي تقول: "عندما يسمع الرجل العامي أن الشريعة المسيحية قد أسئ إلى سمعتها، فإنه ينبغي ألا يـــذود عن تلك الشريعة إلا بسيفه الذي يجب عليه أن يطعن به الكافر في أحشائه طعنة نجلاء"[٢]، فكذلك ظهر دعاة مسلمون، لم يكن شعارهم في وسائل دعايتهم تلك العبارة القاسية التي فاه بها مروان آخر خلفاء بـــني أميـــة بقوله: "كل من لا يدخل في ديني، ويصلي صلاتي، ويتبع رأيي من أهل مصر، قتلته وصلبته"[٣]. كذلك لا يعد المتوكل والحاكم وتيبو سلطان رسلاً مثاليين في الإسلام، بقدر ما يعد مولانا إبراهيم رسول جـــاوه وخواجـــة معين الدين خشتي في الهند، وغيرهما من كثيرين ظفروا بمعتنقين للإسلام بالوسائل السلمية دون غيرها.

ومع أنه قد يمكن الوقوف على ما هنالك من فرق واضح بين أســـاليب التحـــول إلى الـــدين بتـــأثير الاضطهاد، وبين الدعاية السلمية بطريق الإقناع، فإنه ليس من اليسير أن نتحقق البواعث التي حملت الـــداخلين في الدين على تغيير عقيدتهم، أو الوقوف على حقيقة أن الدعوة منبعثة حقًا عن محبة للنفوس، وعن ذلك المثـــل الأعلى الذي بيناه في الفقرة الأولى من هذا الباب. وكان هنالك في كل حين، في المسيحية والإســـلام علـــى السواء، نفوس جادة حازمة، تتخذ من دينها الحقيقة السامية لحياتها. وإن تلك اللذة التي تشبعوا بها في المســـائل المتعلقة بالروح قد وجدت تفسيرها في تلك الحماسة الدائبة على تبليغ الحقائق الأثيرة لديهم، المحببـــة إلـــيهم، وعلى التمسك بالأصول والقواعد، التي وجدوا فيها الكمال، والتي تكوِّن القوة الدافعة في حركات الـــدعوة. وكان هنالك أيضًا أولئك الخارجون عن حظيرة الإسلام الذين استجابوا لدعواتهم، واعتنقوا الدين الجديد بمثل تلك الحماسة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الإسلام، كالمسيحية، قد عد من بين أشياعه كثيرين مـــن الناس، لم تكن التعاليم الإسلامية في نظرهم إلا مظاهر لنظام سياسي، أو صوراً من التنظيم الاجتماعي، قبلوها إما على أنها ضرورات مبغضة إلى نفوسهم، أو حلول ملائمة للمشاكل العارضة، التي لا يهمهـــم أن يجعلوهـــا موضع تفكير لأنفسهم، نجد أمثال هؤلاء بين الذين دخلوا في كل من هاتين الديانتين؛ ونجد كلا من المســـيحية

---

(١) Konrad Maurer: Die Bekehrung des norwegischen Stammes zum Chrisrenthume vol. 1 p. 284. (München, 1855).

(٢) Jean, Sire de Joinville: Histoire de Saint Louis, ed.N. de Wailly, p. 30 (§ 53).

(٣) سويرس ص ١٩١ (ص٢١– ٢٢).

والإسلام قد أضاف إلى أشياعه عدداً من الأتباع، مدفوعين إلى قبول الدين، متأثرين بمطالب وأحوال اجتماعية وسياسية واقتصادية، لا علاقة لها بمثل ذلك الظمأ الروحي الذي يدفع الداعي المخلص لدعوته. زد على ذلك أن الأخبار التاريخية التي طالما تتحدث عن أعمال الدعوة قد سجلت دخول الناس في الدين من غير أن تحاول تحليل البواعث التي حملتهم على تغيير دينهم، ولا سيما أن هناك نقصاً واضحاً في المادة التي تتعلق بتاريخ الدعوة إلى الإسلام، إذ أن الكتب الإسلامية قد انفردت بنقص في تدوين حالات معتنقي الإسلام الذين يحتل أمثالهم في المسيحية مكاناً كذلك المكان الفسيح في كتب الكنيسة. وليس من المستطاع فيما نذكره من وصف إجمالي لنشاط الدعوة الإسلامية، أن نتبين دائماً هل كانت تلك الدوافع التي دفعت إلى ذلك التحول سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، أو أنها كانت دينية محضة. وسنشير من حين إلى حين إلى ما كان لكل من هذه البواعث من أثر في هذه السبيل.

الباب الثاني

دراسة حياة محمد باعتباره داعية إلى الإسلام:

محمد نموذج الداعي المسلم: ليس من غرضنا في هذا الباب أن نضيف شيئاً جديداً إلى ما ورد في كتب السير المتعددة عن حياة محمد، وإنما آثرنا أن ندرس حياته من ناحية واحدة، وهي التي يظهر لنا فيها النبي داعية ورسولاً إلى الناس بدين جديد. ولعله من المتوقع، بطبيعة الحال، أن تكون حياة مؤسس الإسلام ومنشئ الدعوة الإسلامية، هي الصورة الحق لنشاط الدعوة إلى هذا الدين. وإذا كانت حياة النبي هي مقياس سلوك عامة المؤمنين؛ فإنها كذلك بالنسبة إلى سائر دعاة الإسلام. لذلك نرجو من دراسة هذا المثل أن نعرف شيئًا عن الروح التي دفعت الذين عملوا على الاقتداء به، وعن الوسائل التي ينتظر أن يتخذوها. ذلك أن روح الدعوة إلى الإسلام لم تجئ في تاريخ الدعوة متأخرة بعد أناة وتفكير، وإنما هي قديمة قدم العقيدة ذاتها، وفي هذا الوصف الموجز سنبين كيف حدث ذلك، وكيف كان النبي محمد يعد نموذجًا للداعي إلى الإسلام. ومن ثم لن يدخل في نطاق هذا البحث وصف أيامه الأولى، ولا المؤثرات التي خضع لها منذ نعومة أظفاره حتى بلغ سن الرجولة، فلا نتحدث عنه سياسيًا ولا قائدًا، وإنما الذي يعنينا أن نتعرض لحياته داعيًا إلى الإسلام فحسب.

جهوده الأولى في تشر الدعوة: ولما اقتنع محمد آخر الأمر، بعد قلق ونزاع نفسي طويل، بأنه مكلف بحمل رسالة دينية من قبل الله، وجَّه أول جهوده إلى إقناع قومه بصدق الدين الجديد. فمن هذه الحقائق البسيطة التي طلب أن يبايعوه عليها، وحدانية الخالق، ونبذ عبادة الأصنام، والتسليم لإرادة الله. وكانت خديجة زوجه المخلصة الودود أول من آمن به –وكانت قد طلبته لنفسها قبل مبعثه بخمسة عشر عامًا، حين كان ذلك الشاب الفقير الذي يمت إليها بالقرابة يشتغل في تجارتها أجيرًا موفقًا في عمله– وقالت له: "يا بن عم، إني قد رغبت فيك لقرابتك. وسطتك في قومك، وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك"[1]. وقد نشلته من الفقر وساعدته على أن يصل إلى مستوى الطبقة الاجتماعية التي أهلته لها عراقة نسبه. بيد أن هذا لم يكن شيئًا مذكورًا بالنسبة إلى مشاركتها إياه في حالات قلقه النفسي في إخلاص وولاء، وشدة أزره ومعاونته بأرق ما يكون من التعاطف والتشجيع في ساعة اليأس.

أوائل المسلمين: وكانت خديجة إلى أن توفيت سنة ٦١٩م (بعد أن قضت في حياة الزوجية خمسة وعشرين عامًا)، تظهر على الدوام استعدادها لأن تواليه بعطفها، وتخفف عنه، وتغمره بتشجيعها، كلما قاسى من اضطهاد خصومه وأعدائه، أو عذبته الشكوك والهواجس. قال صاحب السيرة: "وكانت أول من آمن بالله

(١) ابن إسحاق ص ١٢٠.

ورسوله وصدق بما جاء منه، فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ لا يسمع شيئًا مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له، فيحزنه ذلك، إلا فرج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتخفف عنه، وتصدقه، وتهون عليه أمر الناس"[1].

وممن اعتنق هذا الدين أول الأمر وآمن برسالة محمد، زيد بن حارثة وعلي بن أبي طالب، وكان الرسول قد تبناهما□، والصديق أبو بكر، وطالما كان النبي يشيد بذكره قائلاً: "ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما عَكم[2] عنه حين ذكرته له وما تردد فيه" وكان أبو بكر تاجرًا موسرًا مبجلاً في قومه، لكمال خُلقه ورجاحة عقله وكفايته، أنفق بعد إسلامه جل ثروته في شراء الموالي من المسلمين الذين اضطهدهم سادتهم لمشايعتهم دين محمد. وكان لأبي بكر أثر كبير في تحول خمسة من المسلمين الأولين إلى هذا الدين، وهم: سعد بن أبي وقاص، الذي تم على يديه فيما بعد فتح بلاد الفرس، والزبير بن العوام أحد أقرباء النبي وزوجته، وطلحة بن عبيد الله الذي اشتهر فيما بعد بفروسيته، وعبد الرحمن بن عوف التاجر الموسر، وعثمان بن عفان ثالث الخلفاء الراشدين، الذي تعرض في حياته الأولى للعذاب، فقد أخذه عمه فأوثقه وقال: "أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث؟ والله لا أحللك أبدًا حتى تدع ما أنت عليه من هذا الدين". فقال عثمان: "والله لا أدعه أبدًا ولا أفارقه"، فلما رأى عمه صلابته في دينه حل وثاقه.

وبفضل هؤلاء وجماعة أخرى من الموالي والفقراء بوجه خاص، أفلح النبي في أن يجمع حوله فئة قليلة من أتباعه في السنين الثلاث الأولى من البعثة. وكان لنجاح محمد في هذه الجهود الخاصة ما حفزه على التفكير في اتخاذ أساليب أقوى أثرًا من الأساليب الأولى، فبدأ يجهر بدعوته، وجمع عشيرته ودعاهم إلى دينه الجديد بقوله: "والله ما أعلم شابًّا في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به. إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر؟" فأحجم القوم عنه جميعًا إلا عليّاً فقد صاح في حماسة الصبي: "أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه". فقام القوم يضحكون.

و لم يثن النبي إخفاقه في هذه المناسبة بل مضى في دعوة قومه في مناسبات أخرى، ولكن إنذاره لم يزدهم إلا سخرية وازدراء.

اضطهاد الداخلين في الإسلام: وقد حاول الكفار مرارًا إقناع عمه أبي طالب زعيم بني هاشم الذين ينتسب إليهم محمد، ليمنعه ويكفه عن سب آلهة آبائهم، وإلا اضطروا إلى اتخاذ وسائل أشد عنفاً. وهنا حاول أبو طالب إقناع ابن أخيه ألا يجلب الشر على نفسه وعلى قومه، فرد عليه النبي: "يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك دونه، ما تركته. "فأثر ذلك في نفس أبي طالب وقال له: "اذهب يا بن أخي فقل ما أحببت فو الله لا أسلمك لشيء أبداً".

---

(١) ابن إسحاق، ص١٥٥.

□ الذي تبناه هو زيد لن حارثة فقط ثم أبطل الإسلام التبني، أما علي بن أبي طالب فقد كان في كفالته ورعايته فقط.

(٢) ما تأخر وانتظر.

ونظرت قريش إلى ما أحرزه الدين الجديد من تقدم بعين تزداد سخطاً وكراهية يوماً بعد يوم، فلجئوا إلى كل ما أمكن من وسائل الوعد والوعيد، وعرضوا عليه كثيراً من شرف الدنيا وجاهها، لعله يعدل عما عقد العزم عليه. وقد قيل إن ما لقى محمد من سوء المعاملة كان سبباً في أن يجتذب إلى جانبه شخصاً عظيماً دخل في الإسلام، ذلك هو عمه حمزة. فإنه عندما سمع قصة الإهانة التي لحقت بابن أخيه واحتملها صابراً، تملكت عاطفة الغضب روحه التي جبلت على البطولة والفروسية، فأحالته من عدو عنيد إلى متعصب غيور على الإسلام. ولم يكن هذا الحادث هو المثل الوحيد لما أثاره التنكيل بالمسلمين من شفقة في نفوس هؤلاء الذين شاهدوا ما قاساه أولئك من اضطهاد. ولا شك أن كثيراً من الناس كانوا قد دخلوا سراً في الدين الجديد، ولكنهم لم يجهروا بإسلامهم حتى حين يوم انتصار الدين.

واشتدت عداوة قريش للدين الجديد اشتداداً مرّاً، حين رأوا كثرة عدد المشايعين للإسلام، وأيقنوا أن انتصار الدين الجديد معناه تحطيم دين العرب الموروث والعبادة القومية، وضياع ما كان يتمتع به سدنة الكعبة المقدسة من ثروة ونفوذ. وكان محمد نفسه في حماية أبي طالب وبني هاشم، فهؤلاء وإن كانوا لم يظهروا أية عاطفة نحو التعاليم التي أذاعها قريبهم في الناس، إلا أن قوة العصبية للقبيلة التي يتميز بها العرب قد حمته من أية محاولة اعتداء على حياته، وإن كان قد ظل معرضاً لأذى واعتداء كثير. أما الفقراء الذين لم يكن لهم من يقوم بحمايتهم، وكذلك الموالي، فقد تحملوا أقسى ألوان الاضطهاد، فسُجنوا، وعُذبوا، كي يرتدوا عن هذا الدين الجديد. في ذلك الحين اشترى أبو بكر بلالاً[1] وأعتقه، وهو عبد حبشي كان يصفه محمد بأنه "أول ثمار الحبشة". وكان يقاسي أشد العذاب، فيعرض لأشعة الشمس المحرقة يوماً بعد يوم، فيطرح على ظهره ثم يؤمر بالصخرة الكبيرة فتوضع على صدره ثم يقال له: لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، أو تعبد اللات والعزى، فيقول بلال: "أَحد أَحد". ولقد مات اثنان من المسلمين من جراء ما تعرضا له من عذاب. وضعفت عزائم فئة قليلة بتأثير هذه المحنة، علي حين ساعد هذا الاضطهاد على إذكاء روح الحماسة الدينية في نفوس فئة أخرى. فقد برهن عبد الله بن مسعود على جرأته حين قرأ القرآن في فناء الكعبة نفسها – وكان العمل ينطوي علي أشد مظاهر الجرأة التي لم يجسر عليها أحد من أتباع محمد من قبل– فتعرض له قوم من قريش كانوا في أنديتهم وجعلوا يضربونه في وجهه، ولكنه استمر يتلو القرآن وقتاً مًّا قبل أن يضطروه إلى السكوت. ورجع إلى رفاقه، وقد أظهر استعداده للجهر بالإسلام بمثل هذه الطريقة في اليوم التالي. ولكن أصحابه أقنعوه بالعدول عن ذلك قائلين، "حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون".

وربما كانت شدة معارضة قريش السبب الذي من أجله اتخذ محمد مقره في السنة الرابعة من البعثة في دار الأرقم، وهو أحد السابقين إلى الإسلام. وكانت هذه الدار في مركز متوسط يؤمها الحجيج والغرباء. وقد استطاع الرسول أن يواصل فيها نشر مبادئ الإسلام بين الذين كانوا يقصدونه في هدوء وطمأنينة. وتعد الفترة

---

(١) وقد ذاعت شهرته في العالم الإسلامي باعتبار أول مؤذن في الإسلام.

التي قضاها محمد في هذه الدار فترة هامة في الدعاية الإسلامية بمكة، حتى إن كثيراً من المسلمين يؤرخون دخولهم في الإسلام من تلك الأيام التي كان الرسول يبث فيها الدعوة بدار الأرقم.

ولما لم يستطع محمد أن يدفع الأذى عن أتباعه أشار عليهم بالهجرة إلى بلاد الحبشة. وفي السنة الخامسة للبعثة (٦١٥م) عبر إليها أحد عشر رجلاً وأربع نسوة حيث لقيهم النجاشي، وكان يدين بالمسيحية، بالعطف والقبول. وكان من بينهم مصعب بن عمير صاحب القصة التي تلفت النظر، لأنها قصة الرجل الذي لم يكن بد أن يتحمل ما يقاسيه حديث العهد بالإسلام من محن مريرة، وهي كراهة الذين أحبهم وأحبوه من قبل. وقد هدى مصعبًا إلى الإسلام ما استمع إليه في دار الأرقم من تعاليم للإسلام، إلا أنه كان يخشى أن يظهر إسلامه مخافة أن يصل الخبر إلى أمه وعشيرته الذين كانوا يكنون له حبّاً خالصاً ويناوئون هذا الدين الجديد مناوأة شديدة؛ فما أن اكتشفوا حقيقة الأمر حتى أخذوه فحبسوه ولكن أفلح في الهرب إلى أرض الحبشة.

ويقال أن سخط قريش قد لحق بهؤلاء الهاربين حتى بأرض الحبشة، فأرسلوا الرسل يطلبون من النجاشي إخراجهم من هذه البلاد. ولكنه بعد أن سمع من المسلمين قصتهم أبى أن يكف عنهم حمايته؛ فقد قالوا له رداً علي ما وجه إليهم من أسئلة عن حقيقة دينهم: أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء إلى الجار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبده نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان. وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة؛ وأمرنا أن نعبد الله وحده وبالصلاة والزكاة والصيام. فصدقناه وآمنا به وأتبعناه على ما جاء به من الله، فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان. فلما قهرونا وضيقوا علينا خرجنا إلى بلادك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك". عندئذ قبل النجاشي شكايتهم ورجع رسل قريش مقهورين[1] وفي تلك الأثناء قام المكيون بمحاولة جديدة لإغراء النبي بالمال والجاه حتى يترك دعوته، ولكن تلك الوعود لم تجد نفعاً في هذا السبيل.

وفي الوقت الذي كان المسلمون في مكة يرقبون بأمل كبير نتيجة بعثة قريش إلى الحبشة، أسلم رجل كان من أشد أعداء محمد وأصلبهم مقاومة وتعصباً- رجل تضافرت الأسباب لدى المسلمين على أنه أخطر أعدائهم وألدهم، ومع ذلك فقد سطع ذكره فيما بعد، وكان من أنبل الرجال في صدر الإسلام- ذلك الرجل هو عمر بن الخطاب. ففي ذات يوم خرج في صورة الغضب متوشحاً سيفه يريد قتل النبي، فلقيه أحد أقاربه وهو في طريقه إلى النبي وسأله أين يريد؟ فقال "أريد محمدا هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله". فقال له: "أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟" قال: "وأي أهل بيتي؟"

---

(١) ابن إسحاق ص ٢١٩- ٢٢٠. ولم يتعرض الطبري لذكر هذه البعثة، ومن ثم يزعم كيتاني Caetani (في الجزء الأول ص ٢٧٨) أنها وضعت فيما بعد.

قال: "ختنك وابن عمك سعيد وأختك فاطمة فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه" -فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه وعندهما خبّاب (بن الأرتّ) أحد أتباع محمد، وكان يقرئهما آيات من القرآن. فدخل عمر عليهما فقال: "ما هذه الهينمة التي سمعتها عندكم؟" قالا: "ما سمعت شيئاً" قال: "بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه". وبطش بختنه سعيد، فقامت إليه أخته فاطمة لتكفه عن زوجها وصاحت في وجهه: "نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك". وكانت فاطمة قد جرحت، فلما رأى عمر ما بأخته من الدم من أثر ضربته رق لحالها، وسألها أن تعطيه هذه الصحيفة التي سمعهم يقرءونها آنفاً. وبعد تردد أعطته إياها، وهي تشمل على السورة العشرين من القرآن، فقرأها عمر وقال: "ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!" وإذا بالإيمان يغمره فيصيح: "دلني على محمد حتى آتيه فأسلم"[1].

ويعد إسلام عمر نقطة تحول في تاريخ الإسلام: فقد استطاع المسلمون أن يسلكوا منذ ذلك الحين مسلكاً أشد جرأة، فترك محمد دار الأرقم، وبدأ المؤمنون يجهرون بتأدية شعائر الإسلام جماعات حول الكعبة. وقد يتوقع المرء أن يكون هذا الموقف سبباً قويّاً في إثارة مخاوف أشراف مكة. ذلك أنهم أصبحوا لا يطيقون الحياة مع شرذمة من المنبوذين، المحقرين، المضطهدين الذين يجاهدون لكي يعيشوا عيشة ضعف وبؤس. إنهم كَوّنوا عصبة قوية، يكثر عددهم يوماً بعد يوم بمن ينضم إليهم من المواطنين من أصحاب النفوذ والسلطان. ويعرضون استقرار الحكومة القائمة للخطر بما عقدوه من تحالف مع ملك أجنبي قوى.

فلما رأت قريش ذلك عقدت النية على القيام بعمل حاسم يحول دون نمو هذه الحركة الجديدة في مدينتهم، فتحالفت قريش على مقاطعة بني هاشم وهم الذين حموا النبي لما بينه وبينهم من صلة القربى، وتعاهدوا على ألا يتزوجوا منهم ولا يزوجوهم من أنفسهم، ولا يتجروا معهم، وأن يقطعوا كل صلة تربطهم بهم. وقد قيل إن بني هاشم أقاموا على ذلك ثلاث سنين محصورين في شعب من شعاب مكة، إلا في الأشهر الحرم حيث حُرم القتال في كافة أنحاء بلاد العرب، وعقد حلف بين الفريقين حتى يتمكن الحجيج من زيارة الكعبة المكرمة التي كانت تعد مركز ديانة العرب في ذلك الحين.

وكان محمد يجعل من موسم الحج فرصة لنشر الدعوة بين شتى القبائل التي كانت تتدفق إلى مكة وما جاورها من الأسواق. ولكنه لم يصادف نجاحاً في هذه السبيل، لأن عمه أبا لهب كان قد تعود أن يتعقبه ويصيح بأعلى صوته: "إنه لصابئ يريد أن تسلخوا دين آبائكم إلى ما جاء من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا له". فيردون عليه ردّاً قبيحاً ويقولون له: إن قومك وذوى قرابتك هم أعرف الناس بك، فلِمَ لَمْ يؤمنوا بك ويتبعوك؟ وكان ما ذاقه محمد وذوو قرابته من العذاب والحرمان قد آثار آخر الأمر شفقة جماعة كبيرة من القرشيين فنقضوا حلفهم.

---

(١) ابن إسحاق ص ٢٢٥- ٢٢٦.

وفي هذا العام أصيب الرسول بوفاة خديجة؛ تلك الزوجة الوفية التي ظلت خمسة وعشرين عاماً تمده بالرأي والتأييد، فاستولى عليه اليأس وحزن عليها حزنًا عميقًا. وبعد ذلك بقليل توفى عمه أبو طالب، فحُرم بموته من أشد حُماته ثباتاً وقوة وأصبح عرضة لإهانة قريش وأذاها من جديد.

ولما قُوبلت دعوة محمد بالإهانة والسخرية من أهل مكة الذين حمل رسالته إليهم زهاء عشر سنوات دون أن يصادف فيها نجاحاً يذكر، عزم على البحث عن قوم آخرين يكونون أكثر استعداداً لقبول دعوته، ويجد في بلدهم تربة أشد خصباً وصلاحية يستطيع أن يلقى فيها بذور هذا الدين، فانطلق على هذا الأمل إلى مدينة الطائف، وهي على سبعين ميلاً من مكة، ودعا فريقاً من أشرافها إلى وحدانية الله، وأخبرهم أنه أرسل من قبل الله نبيّاً لينشر هذا الدين، وطلب في الوقت ذاته أن يحموه ممن اضطهدوه في مكة. إلا أن عدم التناسب بين مطالبه السامية (التي لم تتقبلها عقول أهل الطائف الوثنيين) وبين حالته التي أصبحت تبعث على اليأس، لم تثر في نفوسهم غير السخرية والاستهزاء، فرموه بالحجارة في غير رحمة وأخرجوه من ديارهم.

وقد وجد محمد عند عودته من الطائف أن أمله في النجاح قد أصبح أضعف منه في أي وقت مضى، وتجلت مرارة نفسه في تلك الآيات التي أوردها على لسان نوح: ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا**[1] **وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا** ﴾ (سورة نوح: آية ٥-٧).

مقدمات الهجرة إلى المدينة: وكان من عادة النبي أن يتردد في موسم الحج على القبائل العربية المختلفة في خيامهم ويحدثهم في الدين. وكان بعضهم يقابل عبارته بشيء من عدم الاكتراث، ويقابلها البعض الآخر بالسخرية والاستهزاء، حتى أتاه الفرج من جهة لم يكن يتوقعها. فد التقى بفئة قليلة، ستة نفر أو سبعة. وعرف أنهم قادمون من المدينة أو يثرب، كما كانت تسمى في ذلك الحين. فقال لهم مخاطباً: "من أنتم؟" قالوا: "من الخزرج" قال: "أمن موالي يهود؟" فأجابوا: "نعم"، قال: "أفلا تجلسون حتى أكلمكم؟"، قالوا: "بلى". وعندئذ جلسوا فدعاهم إلى الله الحق، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. وكان مما صنع الله بهم لأجل الإسلام أن يهوداً كانوا معهم ببلادهم. وكانوا أهل كتاب وعلم، وكان أولئك أهل شرك وأصحاب أوثان. وكان اليهود قد غلبوهم في بلادهم، فكانوا إذا شجر بينهم نزاع قالوا لهم: "إن نبيّاً الآن مبعوث قد أظل زمانه نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم". فلما كلم رسول الله أولئك النفر ودعاهم إلى الله وقال بعضهم لبعض: "تعلمن والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه". فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا له: "إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم غير العداوة والشر ما بينهم،

---

(١) أي على خطيئتهم.

وعسى الله أن يجمعهم بك، وسنقدم عليهم وسندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين". وهكذا رجعوا إلى بلادهم يغمرهم الإيمان[1].

تلك هي القصة السائرة عن هذا الحادث الذي كان نقطة التحول في بعثة محمد. فقد لقي الآن قوماً كان أسلافهم قد هيئوا عقولهم إلى حد مَّا لتقبل تعاليم النبي، وكانت أحوالهم إذ ذاك، كما دلت الحوادث فيما بعد، ملائمة لقبول دعوته.

وقد أقام اليهود بمدينة يثرب زمناً طويلاً، ولا يبعد أن يكونوا قد نزحوا من بلادهم على إثر هذه الكارثة القومية التي نزلت بهم باضطهاد أدريان Hadrian لهم، وفي ذلك الوقت وصلت إلى يثرب طائفة من البدو المهاجرين، وهم الأوس والخزرج من قبائل العرب؛ وسمح لهم بالإقامة في رقعة من هذه المنطقة. ولما كثر عددهم أخذ تعديهم على سلطة حكم اليهود يزداد شيئاً فشيئاً حتى استطاعوا آخر الأمر أن ينقلوا زمام الحكم كله إلى أيديهم، وذلك في نهاية القرن الخامس الميلادي.

وكانت طائفة من العرب قد اعتنقت اليهودية، وظل كثير من سادة المدينة الأصليين يقيمون فيها في خدمة هؤلاء الفاتحين؛ حتى إن المدينة كانت في زمن محمد تضم عدداً عظيماً من اليهود. وكان أهل يثرب قد ألفوا فكرة المسيح الذي ينتظرون عودته، ومن ثم كانوا أقدر على فهم دعوة نبوة محمد من أهل مكة الوثنيين. فقد كانت مثل هذه الفكرة غريبة عليهم كل الغرابة، ومبغضة إلى قلوب القرشيين منهم بخاصة؛ وهم الذين كانت سيادتهم على سائر القبائل وحالة الرخاء المادي التي تمتعوا بها راجعة إلى أنهم قد ورثوا حراسة هذه المجموعة من الأوثان العربية التي احتفظوا بها في حرم الكعبة المقدسة.

زد على ذلك أن مدينة يثرب كانت مشغولة بنزاع دائم بسبب الخصومة التي قامت بين الأوس والخزرج. وعاش أهل يثرب في قلق واضطراب. وما من شيء يمكن أن يربط هذه الأحزاب المتناحرة برباط من المصلحة المشتركة إلا كان خيراً لهذه المدينة. وكما أن جمهوريات إيطاليا الشمالية في القرون الوسطى قد آثرت أجنبيّاً ليقبض على زمام الأمور في مدنهم حفظاً للتوازن بين قوة الأحزاب المتنافسة، ومنعاً للصراع الداخلي الذي كان مفسداً للتجارة والشئون العامة، كذلك لم ينظر أهل يثرب إلى قدوم أجنبي نظرة تنطوي على شيء من الريبة، حتى ولو قدر أن قدومه كان بقصد اغتصاب حكومة البلاد الشاغرة أو كسب رضاهم بتسليم زمام هذه السلطة.

بل على العكس من ذلك نرى أن أسباب الترحيب الحار الذي لقيه محمد في المدينة أن الدخول في الإسلام، قد بدا للطبقة المستنيرة من أهالي المدينة علاجاً لهذه الفوضى التي كان المجتمع يقاسيها، وذلك لما وجدوه في الإسلام من تنظيم محكم للحياة، وإخضاع أهواء الناس الجامحة لقوانين منظمة قد شرعتها سلطة تسمو على الأهواء الفردية[2].

---

(١) ابن إسحاق ص ٢٨٦- ٢٨٧.

(٢) Caetani, t. 1, p. 334-5.

وإن هذه الحقائق لتفسر لنا إلى حد بعيد كيف استطاع محمد أن يدخل مكة بعد ثماني سنوات من الهجرة على رأس عشرة آلاف من أتباعه، تلك المدينة التي جاهد فيها من قبل جهاداً قليل الثمرة مدة عشر سنوات.

وكان محمد قد رغب من قبل في أن يصحب الحجاج من الخزرج، الذين تحولوا حديثًا إلى الإسلام على يديه إلى يثرب، ولكنهم وعدوه ذلك بعد أن يتم الصلح بينهم وبين الأوس.

وقالوا: "دعنا نرجع إلى قومنا عسى الله أن يجعل السلم بيننا وسنعود إليك، وموعدنا موسم الحج في العام المقبل". وهكذا رجعوا إلى ديارهم ودعوا قومهم إلى الإسلام، فاستجاب لهم كثير، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله.

حتى إذا وافى موسم الحج وافاه وفد من يثرب يتألف من عشرة رجال من الخزرج واثنين من الأوس عند العقبة، وهي المكان السِّري المتفق عليه، وتعاهدوا على بيعته. وهذا هو نص بيعة العقبة الأولى: "على ألا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا؛ ولا نعصيه في معروف". ورجع هؤلاء الاثنا عشر رجلاً إلى يثرب دعاة إلى الإسلام؛ وقد انتشر هذا الدين الجديد فيها انتشاراً سريعاً، من دار إلى دار، ومن قبيلة إلى قبيلة بفضل استعداد هذه المدينة لقبول الدعوة، وما أبداه هؤلاء الدعاة من حماسة وغيرة في تأدية رسالتهم.

وقد صحبهم مصعب بن عمير وهم راجعون إلى المدينة، وفي رواية أن الرسول أرسله إجابة لكتاب بعثة الأنصار من يثرب. وكان هذا الشاب من السابقين إلى الإسلام، وقد عاد أخيرًا من الحبشة، ومن هنا كسب خبرة واسعة. وإن التجربة القاسية التي لاقاها في مدرسة الاضطهاد لم تضعف حماسته، بل علمته كيف يقاوم الاضطهاد، وكيف يعامل هؤلاء الذين كانوا يغضون من شأن الإسلام قبل أن يتبينوا روحه وتعاليمه. واستطاع محمد أن يوليه كل ثقته، ويعهد إليه في هذه المهمة الشاقة، وهى مهمة إرشاد الذين دخلوا حديثاً في هذا الدين، وتعليمهم، وتعهد بذور الحماسة والعبادة الدينية التي ألقيت من قبل حتى آتت ثمارها، واتخذ مصعب دار أسعد بن زرارة مقاماً له، وكان يجمع المسلمين للصلاة وقراءة القرآن في تلك الدار أحياناً، وأحياناً أخرى في دار بني ظفر، في حي من أحياء المدينة حيث كانت تقيم فيه هذه الأسرة مع أسرة بني عبد الأشهل.

وكان سعد بن معاذ وأُسيد بن حُضير شيخي بنى عبد الأشهل في ذلك الحين. وقد حدث ذات يوم أن مصعباً كان يجلس مع أسعد في دار بني ظفر، وكانا مشغولين بنشر تعاليم الدين بين من دخلوا فيه حديثاً، إذ قدم عليهم سعد بن معاذ ليعرف مكانهم، وقال لأسيد بن حضير: "لا أبالك؛ انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارنا ليسفها ضعفائنا فازجرهما وانهما أن يأتيا دارنا، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة مني حيث قد علمت لكفيتك (وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد). عندئذ تناول أسيد حربته، وانطلق إلى أسعد ومصعب، ثم صاح بهما: "ما جاء بكما إلينا؛ أتسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما في نفسيكما حاجة". فأجاب

مصعب في هدوء: "أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته وإن كرهته فكف عنه". فركز أسيد حربته في الأرض وجلس إليهما يسمع، ومصعب يشرح له مبادئ الإسلام الأساسية ويقرأ بعض آيات من القرآن. وصاح بعد برهة مأخوذًا: "كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟" فأجاب مصعب: "تغتسل فتطهر ثوبيك، ثم تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله"، فاستجاب لساعته، وردد شهادة الإسلام ثم قال: "إن ورائي رجلاً (يشير إلى سعد بن معاذ) إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن".

عند ذلك انصرف، وما لبث أن جاء سعد بن معاذ نفسه ثائراً غضباً على أسعد لما قدمه لدعاة الإسلام من تأييد، فرجا منه مصعب ألا يحكم على الدين قبل أن ينظر فيه. وعندئذ رضي أن يصغي إلى كلام مصعب. وسرعان ما أثر فيه، وحمل الإقناع إلى قلبه، فدخل في الدين، وأصبح من المسلمين. ثم رجع إلى قومه يلتهب حماسة وقال لهم: "يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟" قالوا: "سيدنا وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة"، فقال سعد: "فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله". ومنذ ذلك اليوم أسلم كل آل عبد الأشهل[1].

وبمثل هذه الحماسة وتلك المثابرة ونحوهما سارت الدعوة الدينية قدماً، فلم ينقض عام حتى كانت كل أسرة من عرب المدينة قد قدمت بعض أفرادها ليزداد به عدد المؤمنين، لا نستثني إلا فرعاً من الأوس ظلوا بمعزل عنهم خاضعين لنفوذ أبي قيس بن الأسلت الشاعر.

وما إن وافى موسم الحج التالي حتى خرج من يثرب ثلاثة وسبعون شخصاً من المسلمين الذين أسلموا حديثاً قاصدين مكة، وكان يصحبهم مواطنوهم من المشركين. وقد عهد إليهم في دعوة النبي بالمهاجرة إلى يثرب اعتصاماً بها من حنق الخصوم، وقد قدموا ليبايعوا على أنه نبيهم وزعيمهم. وفي هذه المناسبة العظيمة عاد إلى مكة كل المسلمين الأولين الذين اجتمعوا بالنبي في الموسمين السابقين، وكان يرافقهم شيخهم مصعب، وقد بادر على إثر وصوله بالذهاب إلى النبي، وإخباره بما أصابه من نجاح نشر الإسلام. ويقال إن أمه لما سمعت بمقدمه بعثت إليه تقول: "يا عاق، أتقدم بلداً أنا فيه لا تبدأ بي؟ فقال: ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله ﷺ. فلما سلم على رسول الله ﷺ وأخبره بما أخبره ذهب إلى أمه فقالت: إنك لعلى ما أنت عليه من الصبأة بعد، قال: أنا على دين رسول الله ﷺ وهو الإسلام الذي رضى به الله لنفسه ولرسوله. قالت: ما شكرتَ ما رثيتك مرة بأرض الحبشة ومرة بيثرب فقال: أفر بديني أن تفتنوني. فأرادت حبسه فقال: لئن حبستني لأحرضن على قتل من يتعرض لي، قالت: فاذهب لشأنك، وجعلت تبكي، فقال مصعب: يا أمَّه إني لك ناصح، عليك شفيق: فأشهدي أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، قالت: والثواقب لا أدخل في دينك فيُزرى برأيي، ويضعَّف عقلي: ولكني أدعك وما أنت عليه وأقيم على ديني".

---

(١) ابن إسحاق ص ٢٩١ وما يليها.

وقد دبر اجتماع سري بالعقبة، وهو ذلك المكان الذي لقي فيه النبي أهل يثرب من المسلمين في العام الماضي. وإنما اختار النبي هذا الموضع حتى لا يثير شك قريش ولا يستهدف لعداوتها. جاء محمد لا يرافقه إلا عمه العباس الذي كان يعلم أمر هذا الاجتماع مع أنه كان لا يزال على الشرك. وكان العباس أول من تكلم في الاجتماع، فأثنى على ابن أخيه وذكر أنه في عز من قومه ومنعة في بلده. على أنه أبى إلا الانحياز إلى أهل يثرب، فينبغي أن يتدبروا ملياً قبل أن يأخذوا على عاتقهم الوفاء له، ومنعه ممن يخالفونه، وأن يعقدوا العزم على ألا يرجعوا عن عهدهم إذا ما استهدفوا لخطر. عندئذ أكد البراء بن معرور أحد الخزرج أنهم صادقون في عزمهم، وأنهم عولوا على منع نبي الله، وطلب إلى النبي أن يتكلم في صراحة وأن يأخذ لنفسه ولربه ما أحب.

وبدأ محمد بتلاوة بعض آيات القرآن، ودعوتهم إلى الله ورسوله، وترغيبهم في الإسلام، ثم طلب منهم أن يمنعوه وأصحابه مما يمنعون منه أزواجهم وأبناءهم. وعلى أثر ذلك أمسك البراء بن معرور بيده وقال: "والذي بعثك بالحق، لنمنعك مما نمنع به أُزُرَنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل حرب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر". وهكذا بايعوه واحداً بعد واحد.

و لم تكد قريش تفطن إلى ما يجري في الخفاء حتى استأنفوا التنكيل بالمسلمين من جديد. فنصحهم محمد بالفرار من مكة، قائلاً: "هاجروا إلى يثرب؛ فإن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون فيها". ومن ثم هربوا مستخفين مثنى وثلاث إلى المدينة. وهناك قوبلوا بترحاب عظيم، وتسابق إخوانهم في الدين إلى شرف رعايتهم وقضاء مآربهم. و لم يمض شهران حتى كان عامة المسلمين تقريباً قد غادروا مكة، وكانوا نحو مائة وخمسين عدا الذين أُخذوا وحبسوا والذين لم يستطيعوا الخلاص من الأسر. وقد حكى عن أحد هؤلاء المسلمين، وهو صهيب، وكان النبي يطلق عليه "أول ثمار الروم" (وكان عبداً رومياً، فلما أعتقه مولاه احترف التجارة وجمع منها ثروة كبيرة) لما شرع في الهجرة قال له أهل مكة: "أتيتنا ها هنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا وبلغت ما بلغت، ثم تنطلق بنفسك ومالك، والله لا يكون ذلك، فقال: أرأيتم إن تركت مالي أتخلون أنتم سبيلي؟ قالوا: نعم، فجعل لهم ماله أجمع، فبلغ النبي ﷺ فقال: ربح صهيب، ربح صهيب".

وتخلف محمد فلم يهاجر (ولا شك أنه كان يقصد بذلك صرف الأنظار عن أتباعه المخلصين) حتى حدثت مؤامرة مدبرة لاغتيال حياته، فتنبه أنه سيعرض نفسه للموت إن أطال مكثه بعد ذلك، فاحتال للفرار[1].

الهجرة إلى المدينة: بداية الحياة القومية للإسلام: وكان أول ما عنى به محمد بعد أن دخل يثرب (المدينة) كما سميت منذ ذلك الحين –أي مدينة النبي– أن يبني مسجداً ليكون مقاماً للصلاة ومجمعاً عاماً لأصحابه الذين كانوا حتى ذلك الحين يجتمعون لهذا الغرض في بيت واحد منهم. وكان المصلون قد تعودوا العهد الأول أن يولوا وجوههم شطر بيت المقدس، وربما كان المقصود من ذلك استمالة اليهود. وقد حاول

[1] لقد أذن الله له بالهجرة وأمره بذلك، فهو هاجر بأمر من الله تعالى وليس فراراً أو رعباً، وهو يدرك صلوات الله عليه وسلم أن الله عاصمه من الناس.

محمد استرضاءهم بوسائل أخرى كثيرة، فدأب على الاستشهاد بكتبهم المقدسة، ومنحهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية، وساوى بينهم وبين المسلمين في الحقوق السياسية، ولكنهم قابلوا صنيعه باستهزاء وسخرية. فلما أن أخفقت آماله في استمالتهم إليه وأصبح من الواضح أن اليهود لا يقبلون محمداً نبيّاً لهم، أمر صحابته بأن يولوا وجوههم شطر الكعبة بمكة. (سورة البقرة: آية ١٤٤)[١].

وكان لتحويل القبلة مغزى أبعد مما قد يبدو لأول وهلة، إذ كان ذلك في الواقع بداية للحياة القومية في الإسلام: فجعل من الكعبة في مكة مركزاً دينياً للمسلمين كافة، كما كانت تماماً في الأزمان الغابرة مقصداً لحج القبائل العربية جميعاً. ونظير ذلك في الأهمية ما كان من جعل الحج إلى مكة، تلك العادة العربية القديمة من بين فرائض الإسلام، فأصبحت فريضة يؤديها كل مسلم مرة على الأقل في حياته.

الإسلام دين عالمي: وفي القرآن آيات كثيرة توجه الأنظار إلى منشأ هذا الشعور القومي، وتحث أهل بلاد العرب على إدراك ما منحوه من فضل بنزول الوحي الإلهي بلغتهم، وعلى لسان واحد منهم.

﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ (سورة الزخرف: آية٣).

﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا**﴾ (سورة الشورى: آية ٧).

﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ**﴾ (سورة فصلت: آية ٤٤).

﴿**وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ (سورة الزمر: آية ٢٧-٢٨).

﴿**وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ... بلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾ (سورة الشعراء: آية ١٩٢، ١٩٥).

﴿**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا**﴾ (سورة مريم: آية ٩٧).

ولم تكن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب، بل إن للعالم أجمع نصيباً فيها[٢]. ولما لم يكن هناك غير إله واحد، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى إليه الناس كافة. ولكي تكون هذه الدعوة عامة، وتحدث أثرها المنشود في جميع الناس وفي جميع الشعوب، نراها تتخذ صورة عملية في الكتب التي قيل إن محمداً بعث بها في السنة السادسة من الهجرة (٦٨٨م) إلى عظماء ملوك ذلك العصر. وفي هذه السنة أرسل الرسول

---

(١) ولا شك أن فرض صيام رمضان (سورة البقرة: ١٧٩- ١٨٤) مظهر آخر من مظاهر نبذ مودة اليهود إذ به أبطل فرض صيام يوم عاشوراء.

(٢) "ولكن الرسالة الإلهية ليست مقصورة على العرب، بل إن إرادة الله تشمل جميع المخلوقات، ومعنى ذلك خضوع الإنسانية كلها خضوعاً مطلقاً. ولقد كان لمحمد، بوصفه رسولاً من الله، حق المطالبة بهذه الطاعة، وقد كان عليه أن يطالب بها، وهذا ما ظهر من أول الأمر جزءاً لا ينفصل من جملة ما أراد تحقيقه من مبادئ".

(Sachau, pp. 203- 4), Goldziher (Vorlesungen über den Islam، p. 25 sqq) and Nöhdeke (WZKM, vol. Xxi. Pp. 307-8)

وكل منهما يرى رأياً مماثلاً لما زعمه سخاو.

كتباً إلى هرقل قيصر الروم، وإلى كسرى فارس، وإلى حاكم اليمن، وإلى حاكم مصر، وإلى النجاشي. وقد قيل إن الكتاب الذي أرسل إلى هرقل كان كما يلي "بسم الله الرحمن الرحيم؛ من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل قيصر الروم، السلام على من اتبع الهدى. أما بعد أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين وإن تتول فإن إثم الأكارين عليك. يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضًا أرباباً من دون الله؛ فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون". على أنه، إن كانت هذه الكتب قد بدت في نظر من أرسلت إليهم ضرباً من الخرق، فقد برهنت الأيام على أنها لم تكن صادرة عن حماسة جوفاء[1]. وتدل هذه الكتب دلالة أكثر وضوحاً وأشد صراحة على ما تردد ذكره في القرآن من مطالبة الناس جميعاً بقبول الإسلام، فقد قال الله تعالى:

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (سورة ص: آية ٨٧– ٨٨).

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (سورة يس: آية ٦٩– ٧٠).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة الأنبياء: آية ١٠٧).

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (سورة الأنبياء: آية ١).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة سبأ: آية٢٨).

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (سورة الصف: آية١).

وفي ساعة من ساعات اليأس العميق، عندما كان أهل مكة يمعنون في النفور من كلام النبي (سورة النحل: آية ٤٣، ١١٤ إلخ)، وعندما عذبوا من هداهم النبي إلى الإسلام حتى كفروا من بعد إيمان (سورة النحل: آية ١٠٨)، وعندما لجأ آخرون إلى المهاجرة في الله من بعد ما ظلمهم مضطهدوهم (سورة النحل: آية ٤٣، ١١١)، عند ذلك تلقى النبي الوعد ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ (سورة النحل: آية ٨٩)[2].

---

(١) انظر caetani١: ٧٢٥ وما يليها للوقوف على مدى الشك في صحة هذه الكتب.

(٢) ومن الغريب أن ينكر بعض المؤرخين أن الإسلام قد قصد به مؤسسه في بادئ الأمر أن يكون ديناً عالمياً برغم هذه الآيات البينات ومن بينهم السير وليم ميور إذ يقول: "إن فكرة عالمية الرسالة قد جاءت فيما بعد، وإن هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيدها، لم يفكر فيها محمد نفسه، وعلى فرض أنه فكر فيها، فقد كانت الفكرة غامضة، فإن عالمه الذي كان يفكر فيه إنما كان بلاد العرب، كما أن هذا الدين الجديد لم يهيأ إلا لها، وأن محمداً لم يوجه دعوته منذ بعث إلى أن مات إلا للعرب دون غيرهم. وهكذا نرى أن نواة عالمية الإسلام قد غرست، ولكنها إذا كانت قد اختمرت ونمت بعد ذلك، فإنما يرجع هذا إلى الظروف والأحوال أكثر منه إلى الخطط والمناهج" .The Caliphate. Pp. 43-4 وكيتاني آخر من يؤيد هذا الرأي .Aannali dell Ialum Vol.v. pp. 323-24.

وإن ما يعبر به النبي في تلك الآيات من مطالبة البشرية كلها بارتضاء الإسلام ديناً ليزداد وضوحاً في قول محمد متنبئاً إن بلالاً " أول ثمار الحبشة "، وإن صهيباً " أول ثمار الروم". أما سلمان، وهو أول من أسلم من الفرس. فقد كان عبداً نصرانياً بالمدينة اعتنق الإسلام في السنة الأولى من الهجرة. وهكذا صرح الرسول بكل وضوح وجلاء أن الإسلام ليس مقصوراً على الجنس العربي قبل أن يدور بخلد العرب أي شيء يتعلق بحياة الفتح والغزو بزمن طويل، وإن القصة التالية الخاصة بإرسال البعوث إلى كل الشعوب للدعوة إلى الإسلام لتشير إلى دعوى عموم الرسالة، وهى أن رسول الله قال لأصحابه: " وافوني بأجمعكم بالغداة، وكان إذا صلى الفجر حبس في مصلاه قليلاً، يسبح ويدعو، ثم التفت إليهم فبعث عدة إلى عدة وقال لهم، انصحوا الله في عباده، فإنه من استرعى شيئاً من أمور الناس ثم لم ينصح لهم حرم الله عليه الجنة؛ انطلقوا ولا تصنعوا كما صنعت رسل عيسى بن مريم، فإنهم أتوا القريب وتركوا البعيد. فأصبحوا-يعني الرسل- وكل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين أرسل إليهم، فذكر ذلك للنبي فقال: "هذا أعظم ما كان من حق الله عليهم في أمر عباده"(١).

ويؤيد دعوى عموم الرسالة والحق في المطالبة بأن يستجيب لها جميع الناس أن الإسلام كان الدين السماوي الذي اختاره الله للجنس البشرى كافة ثم أوحى به إليهم من جديد على لسان محمد "خاتم النبيين" (سورة الأحزاب: آية ٤٠) كما أوحى به من قبل على لسان غيره من الرسل.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (سورة يونس: آية ١٩):

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنْ الرُّسُلِ﴾ (سورة الأحقاف: آية٩).

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (سورة البقرة: آية ٢١٣).

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (سورة النحل: آية ١٢٣).

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(سورة الأنعام: آية ١٦١).

﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (سورة البقرة: آية ١٣٥).

---

(١) ابن سعد ١٠. وقد يشك البعض، وربما كانوا على حق، في صحة هذه القصة، ولكنها على أقل تقدير تدلنا على إدراك السابقين للصفة التبشيرية في الإسلام.

﴿قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (سورة آل عمران: آية ٩٥- ٩٦).

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ (سورة النساء: آية ١٢٥).

﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾(سورة الحج: آية ٧٨).

محمد مؤسس هيئة سياسية منظمة: ولنعد الآن إلى تتبع حياة محمد في المدينة ولكي نقدر موقفه بعد الهجرة تقديراً حقيقياً، ينبغي أن نذكر ما اتصف به المجتمع العربي في ذلك الحين من طابع خاص، فيما يتعلق بهذا الجزء على الأقل من شبه الجزيرة. لم يكن يوجد إطلاقاً أي منهج منظم للإدارة أو القضاء كالذي نعرفه عن فكرة الحكومة في العصر الحديث. كانت كل قبيلة أو عشيرة تؤلف جماعة منفصلة ومستقلة تمام الاستقلال وينسحب هذا الاستقلال أيضاً على أفراد القبيلة، فكل فرد لا يعتبر زعامة شيخ قبيلته أو سلطته إلا رمزاً لفكرة عامة شاءت الظروف أن يأخذ هو منها بنصيب، بل كان له مطلق الحرية في أن يرفض ما اجتمع عليه رأي الأغلبية من أبناء قبيلته. وأبعد من هذا أنه لم يكن هناك نظام لتنقل سلطة الرئيس، إذ كان يختار لها غالباً أكبر أفراد القبيلة سناً، وأكثرهم مالاً، وأعظمهم نفوذاً، وأجدرهم بكسب الاحترام الشخصي. وإذا ما تضخمت القبيلة تشعبت فروعاً كثيرة، يتمتع كل منها بحياة منفصلة ووجود مستقل، ولا تتحد إلا في ظروف غير عادية، اشتراكاً في الدفاع عن القبيلة أو قياماً بغارات بالغة الخطورة. ومن ثم نستطيع أن ندرك كيف تمكن محمد من أن يجعل نفسه في المدينة، على رأس جماعة من أتباعه كبيرة العدد آخذة في النمو، يتطلعون إليه زعيماً وقائداً، ولا يعترفون بسلطان غير سلطانه،- دون إثارة أي شعور من القلق، أو خوف من التعدي على السلطة المعترف بها، كما كان ينتظر أن يحدث في مدينة إغريقية قديمة أو في أي مجتمع منظم يماثلها. وهكذا باشر محمد سلطة زمنية كالتي كان يمكن أن يباشرها أي زعيم آخر مستقل مع فارق واحد هو أن الرباط الديني بين المسلمين كان يقوم مقام رابطة الأسرة والدم.

وعلى هذه الصورة أصبح الإسلام ولو من الوجهة النظرية على الأقل، كما سن دائماً، نظاماً سياسياً بقدر ما هو نظام ديني.

كانت رغبة محمد ترمى، إلى تأسيس دين جديد. وقد نجح في هذا السبيل، ولكنه في الوقت نفسه أقام نظاماً سياسياً له صفة جديدة متميزة تميزاً تاماً. وكانت رغبته بادئ الأمر مقصورة على توجيه بنى وطنه إلى الاعتقاد بوحدانية الله. إلا أنه بجانب ذلك عمل على هدم نظام الحكومة القديم في مكة مسقط رأسه، وأقام

حكومة دينية مطلقة، وقام وهو على رأسها خليفة لله في الأرض بدلاً من حكومة الأرستقراطية القبلية، التي كانت الأسر الحاكمة تتوزع سياسة الشئون العامة تحت لوائها .

انتشار الإسلام بعد الهجرة إلى المدينة: "وقبيل وفاة محمد نرى جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية تقريباً تدين له بالطاعة، وإذا ببلاد العرب التي لم تخضع إطلاقاً لأمير من قبل تظهر في وحدة سياسية وتخضع لإرادة حاكم مطلق. ومن تلك القبائل المتنوعة، صغيرها وكبيرها ذات العناصر المختلفة التي قد تبلغ المائة والتي لم تنقطع عن التنازع والتناحر خلقت رسالة محمد أمة واحدة وجمعت فكرة الدين المشترك تحت زعامة واحدة شتى القبائل في نظام سياسي واحد، ذلك النظام الذي سرت مزاياه في سرعة تبعث على الدهش والإعجاب وإن فكرة واحدة كبرى هي التي حققت هذه النتيجة، تلك هي مبدأ الحياة القومية في جزيرة العرب الوثنية. وهكذا كان النظام القبلي، لأول مرة وإن لم يقض عليه نهائياً (إذ كان ذلك مستحيلا)، شيئاً ثانوياً بالنسبة للشعور بالوحدة الدينية، وتكللت المهمة الضخمة بالنجاح، فعندما انتقل محمد إلى جوار ربه كانت السكينة ترفرف على أكبر مساحة من شبه الجزيرة بصورة لم تكن القبائل العربية تعرفها من قبل، مع شدة تعلقها بالتدمير وأخذ الثأر، وكان الدين الإسلامي هو الذي مهد السبيل لهذا الائتلاف(١).

حتى عند وفاة المسلم نرى دعوى القرابة تطرح جانباً، فيرث الأخ في الدين كل ما يملك صاحبه المتوفى، ثم ألغى هذا النظام بعد غزوة بدر حين لم يعد هذا الرباط المصطنع ضرورياً لتوحيد الكلمة بين أتباع الرسول، وإنما كان مثل هذا النظام لازماً حينما كان عدد المسلمين قليلاً وكانت حياة التضامن الإسلامي ظاهرة جديدة، زد على ذلك أن محمداً كان قد قضى في المدينة فترة قصيرة جدّاً قبل أن يكثر عدد أتباعه كثرة سريعة جعلت هذه الاشتراكية في النظام الاجتماعي أمراً ليس باليسير تحقيقه من الناحية العملية. ولم يكن يتوقع المرء من نمو جماعة سياسية مستقلة تتألف من مهاجري مكة، وتقيم في مدينة تضمر لهم العداء، إلا أن يؤدي هذا النمو إلى قيام النزاع بين الفريقين. وكما هو مشهور ومعروف فإن كل كتاب من كتب السيرة حافل بروايات تتعلق بسلسة طويلة من المناوشات الصغيرة والمعارك الدامية التي قامت بين أتباعه وبين القرشيين من أهل مكة، وانتهت بدخوله المظفر في هذا البلد سنة ٦٣٠م. كما حفلت هذه الكتب بما كان بين الرسول وبين القبائل الأخرى من علاقات عدائية ظلت قائمة حتى انتقل إلى جوار ربه سنة ٦٣٣ م (١١ هـ).

 يبدو أن الكاتب متأثر هنا بالواقع الكنسي من خلال الحكومة الإلهية والسلطة الدينية من خلال التجربة المسيحية في الغرب.

(١) A. Von Kremer 3, pp. 309, 310.

وإن وصف هذه الغزوات لا يدخل في نطاق هذا الكتاب، وإنما المهم أن نبين كيف أن محمداً عندما رأى أنه على رأس جماعة مسلحة من أتباعه لم يتحول دفعة واحدة، كما قد يريدنا البعض على الاعتقاد، من داعية مسالم إلى متعصب يحمل سيفه بيده ويفرض دينه على كل من استطاع[1].

وقد أكد الكتاب الأوربيون مراراً أن النبي سلك مسلكاً جديداً تمام الجدة منذ أن هاجر إلى المدينة ومنذ أن تغيرت ظروف حياته هناك، وأنه لم يعد ذلك البشير النذير المرسل إلى الناس الذي كان قد أقنعهم بالحجة بصدق الدين الذي أوحي إليه، وإنما ظهر الآن أقرب إلى أن يكون متعصباً مندفعاً يستغل كل ما في سلطته من قوة ومهارة سياسية في فرض نفسه وفرض آرائه.

على أنه من الخطأ أن نفترض أن محمداً في المدينة قد طرح مهمة الداعي إلى الإسلام والمبلغ لتعاليمه، أو أنه عندما سيطر على جيش كبير يأتمر بأمره، انقطع عن دعوة المشركين إلى اعتناق الدين، فهذا ابن سعد يعرض طائفة من الكتب التي بعث بها النبي من المدينة إلى الشيوخ وغيرهم من أعضاء القبائل العربية المختلفة بالإضافة إلى هذه الكتب التي أرسلها إلى الملوك والأمراء في خارج الجزيرة العربية يدعوهم إلى اعتناق الإسلام. وسنجد في الصفحات التالية أمثلة من البعوث الدينية التي أرسلها لتبلغ الإسلام إلى الذين لم يسلموا من قبائلهم، تلك البعوث التي يدل مجرد إخفاقهم في بعضها على أن الجهود التي بذلت كانت ذات صبغة تبشيرية خالصة، كما تدل على أنها لم تكن تميل إلى استخدام القوة. ومن الأمثلة الواضحة على إخفاق تلك البعثات، تلك البعثة التي أرسلت إلى بني عامر بن صعصعة في السنة الرابعة من الهجرة. فقد زار أبو البراء بن عامر شيخ هذه القبيلة محمداً في المدينة، واستمع إلى تعاليمه، ولكنه لم يشأ أن يعتنق الإسلام. ومع ذلك أظهر شيئاً من العطف نحو هذا الدين الجديد، وطلب إلى النبي أن يرسل بعض أتباعه إلى نجد لينشر تعاليم الدين بين أهالي هذه البلاد. فأرسل النبي جماعة تتألف من أربعين مسلماً معظمهم من شباب المدينة، الذين حذقوا تلاوة القرآن واعتادوا أن يجتمعوا ليلاً للدرس وإقامة الصلاة، ولكنهم قتلوا غدراً بالرغم من الأمان الذي عرضه عليهم أبو البراء عامر، ولم ينج بحياته إلا ثلاثة منهم[2].

ومع ذلك فقد كانت انتصارات الجيوش الإسلامية تجذب كل يوم أفراداً من شتى القبائل؛ ولا سيما من كان يقيم منهم في جوار المدينة لتزداد بهم صفوف أتباع النبي. وإن "المعاملة الحسنة التي تعودها وفود هذه العشائر المختلفة من النبي واهتمامه بالنظر في شكاياتهم، والحكمة التي كان يصلح بها ذات بينهم، والسياسة التي

---

(١) ويظهر أن هذا الرأي قد صرح به بعض الباحثين ولا سيما الأستاذ ميور عندما تحدث عن مذبحة بنى قريظة التي وقعت في السنة السادسة للهجرة فقال: "إن الدعائم التي سار عليها محمد قدماً كانت سياسية محضة إذ أنه لم يكن قد أقر حتى ذلك الحين طريقة إكراه الناس على اعتناق الإسلام أو معاقبتهم على رفضه (Mui" 2" , vol. Iii. P. 282)

(٢) ابن إسحاق ص ٦٤٨ وما يليها.

أوحت إليه بتخصيص قطع من الأرض مكافأة لكل من بادر إلى الوقوف في جانب الإسلام وإظهار العطف على المسلمين – كل ذلك جعل اسمه مألوفاً لديهم، كما جعل صيته ذائعاً في كافة أنحاء شبه الجزيرة سيداً عظيماً ورجلاً كريماً"(١).

وكثيراً ما كان يفد أحد أفراد القبيلة على النبي بالمدينة ثم يعود إلى قومه داعياً إلى الإسلام جاداً في تحويل إخوانه إليه. وفى القصة التالية مثل من أمثلة ذلك التحويل إلى الإسلام، وذلك في السنة الخامسة للهجرة:

بعثت بنو سعد بن بكر واحداً منها يقال ضمام بن ثعلبة رسولاً إلى النبي، فقدم وأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله. ودخل المسجد حيث كان النبي جالساً في أصحابه، فأقبل حتى وقف عليهم وقال: "أيكم ابن عبد المطلب" فقال النبي: "أنا ابن عبد المطلب" قال: "أمحمد؟" قال: "نعم" قال: "إني سائلك ومغلظ عليك في المسألة فلا تجدنّ في نفسك". قال: "لا أجد في نفسي فسل عما بدا لك" قال: "أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك آلله بعثك إلينا رسولاً؟" قال محمد: "اللهم نعم"، قال: "فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك الله أمر أن تأمرنا أن نعبده وحده ولا نشرك به شيئاً وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه؟" قال محمد "اللهم نعم" وبعد ذلك سأل النبي عن فرائض الإسلام كلها، عن الصلاة والصيام والحج إلخ، وهو يستحلفه مثل ما سبق. وأخيراً قال "...فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وسأؤدي هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتني عنه ثم لا أزيد ولا أنقص". ثم انصرف وأطلق بعيره ورجع إلى قومه. فلما جمعهم كان أول ما قال لهم: "بئست اللات والعزى"! قالوا: "مه يا ضمام اتق البرص، اتق الجذام، اتق الجنون"! قال ويلكم إنهما والله لا ينفعان ولا يضران. إن الله قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه". وما زال يقص عليهم حتى لم يأت المساء إلا وقد أسلم كل من في الحي رجالاً ونساء(٢).

وقد كان عمرو بن مرة أحد أفراد قبيلة بنى جهينة التي تقيم بين المدينة والبحر الأحمر مثلاً آخر لهؤلاء الدعاة، فقد كان إسلامه قبل الهجرة من العام نفسه(٥ هـ). وقد وصف إسلامه بقوله: كان لنا صنم وكنا نعظمه، وكنت سادنه، فلما سمعت بالنبي كسرته وخرجت حتى أقدم المدينة على النبي، فأسلمت وشهدت شهادة الحق وآمنت بما جاء من حلال وحرام، فذلك حين أقول:

---

(١) Muir (2). , vol, iv, pp. 107-8. See also Caetani, vol. I. "إن إزدياد عدد المؤمنين يجب أن يعزى إلى الانتصارات العسكرية أكثر من أن يعزى إلى تأثيردعوة النبي وجودة التعاليم الإسلامية. وقد أصبحت سرعة انتشار الإسلام بنوع خاص ملموساً بسبب ما أظهره النبي من هيبة وما أبداه من روح التسامح والحرية وتحين المناسبات في علاقاته مع الذين تحولوا إلى الإسلام".

(٢) ابن إسحاق ص ٩٤٣– ٩٤٤ وتعتمد هذه القصة على بعض مصادر مشكوك في صحته، انظر Catani, vol. I. P. 610.

شهـــدت بأن الـــله حـــق وأننـــي لآلهـــة الأحـــجـــار أول تـــارك
وشمرت عن ساقي الإزار مهاجراً إليك، أجوب الوعث بعد الدكادك
لأصحب خير الناس نفساً ووالداً رسول مليك الناس فوق الحبائك

فبعثه رسول الله إلى قومه يرغب في الإسلام، فتكللت جهوده بالنصر حتى لم يبق هناك إلا رجل واحد هو الذي استعصى عليه الترغيب(١).

ولما جعل صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة الصلات الودية مع أهل مكة أمراً ممكناً، خـــرج إلى المدينة لاعتناق الإسلام كثيرون من أصحاب هذا البلد الذين كانوا قد أتيحت لهم فرصة الاستماع لدعوة محمد في مستهل بعثته. ومن هؤلاء الرجال من هم ذوي النفوذ والسلطان.

وكانت الحروب المتصلة التي شنها الرسول على أهل مكة قد جعلت حتى ذلك الحين القبائل التي كانت تقيم جنوبي مكة بعيدين بعداً يكاد يكون تاماً عن سلطان الدين الجديد، ولكن هذه الهدنة قد جعلت الاتصال مع بلاد العرب الجنوبية أمراً ميسوراً في ذلك الحين. فجاء وفد صغير من قبيلة بنى دوس من تلك الجبال الـــتي تتاخم بلاد اليمن الشمالية وانضموا إلى النبي في المدينة. ونجد قبل ظهور محمد بقليل جماعة من هـــذه القبيلـــة مزودين بلمحات من ديانة أرقى من الوثنية التي كانت منتشرة فيمن حولهم، وكانوا يرون أن هذا العالم لابد له من خالق، ولو أنهم لم يهتدوا إليه. فلما بعث محمد من قبل هذا الخالق، قدم أحدهم واسمه طفيل بن عمـــرو، إلى مكة ليقف على حقيقة هذا الخالق.

وبالرغم من أن قريشًا حذرته مما قد يتركه محمد في نفسه من تأثير خطير إذا ما تحدث إليه، فقـــد تبـــع النبي إلى بيته بعد أن رآه يصلى في الكعبة، فشرح له النبي تعاليم الإسلام، وقد أصبحت نفس طفيـــل تفـــيض تحمساً لهذا الدين الجديد. فلما رجع إلى بلده أفلح في هدي أبيه وزوجه، ولكنه وجد قومه غير راضين في ترك عبادتهم الوثنية القديمة. فعاد إلى النبي وقد استولى عليه اليأس مما أصابه من الإخفاق في دعوته، وطلب منـــه أن يستنزل لعنة الله على بني دوس، ولكن النبي شجعه على المثابرة بقوله: "ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهـــم" وفي الوقت نفسه دعا لهم النبي بقوله: "اللهم اهد دوساً". وقد بلغ من نجاح طفيل في بث الدعوة إلى الإســـلام أنه وفد على المدينة في السنة السابعة للهجرة ومعه عدد يتراوح بين السبعين والثمانين أسرة من قومـــه كـــان الإسلام قد ظفر بانضمامهم إليه. وبعد أن دخل النبي مكة دخول الظافر أشعل طفيل النـــار في كتلـــة مـــن الخشب، وهى الصنم التي كانت قبيلته تنظر إليه نظرة التبجيل والتعظيم حتى ذلك الحين(٢).

---

(١) ابن سعد ١١٨.

(٢) ابن إسحاق ص ٢٥٢- ٢٥٤.

وفي السنة السابعة للهجرة دخل خمس عشرة قبيلة أخرى في طاعة النبي، ثم تمت الغلبة للإسلام بعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة، وبادر إلى مبايعته على هذا الدين الجديد هؤلاء العرب الذين كانوا قد تخلفوا عن الدعوة وكانوا يقولون: "دعوا محمداً يقاتل قومه فإن نجح فهو نبي حقاً"(١).

ومن هؤلاء الذين وفدوا على النبي بعد فتح مكة طائفة كانوا أشد الناس اضطهاداً للنبي في أيامه الأولى من بعثته، ولكنه بوأهم بصبره الجميل وعفوه الكريم مكاناً من الأخوة الإسلامية. وشهدت السنة التالية استشهاد عروة بن مسعود أحد زعماء أهل الطائف، تلك المدينة التي حاول المسلمون أن يستولوا عليها دون جدوى. فقد كان عروة في ذلك الحين غائباً باليمن، ثم رجع من رحلته بعد الحصار بقليل. وكان قد قابل النبي في الحديبية قبل ذلك بعامين وبالغ في تعظيمه، والآن يفد على المدينة ليعتنق الدين الجديد، وقد تطوع بدافع حماسته الملتهبة للذهاب إلى الطائف لتحويل عشيرته إلى الإسلام. وعلى الرغم مما بذله النبي من جهود في ثنيه عن هذه المهمة الخطيرة، رجع إلى بلده، وأعلن نبذ عبادة الأصنام، ثم دعى الناس إلى الإقتداء به. وبينما كان يقوم بنشر دعوته إذا بسهم يصيب منه مقتلاً، فمات وهو يحمد الله على أن وهب له شرف الاستشهاد. وبعد سنة تقريباً قام صحابي آخر بنشر الدعوة في اليمن، وكان أكثر توفيقاً في هذه السبيل. وفيما يلي وصف دقيق عن هذه الدعوة: "كتب رسول الله إلى الحارث ومسروح ونعيم بن عبد كلال من حمير: "سَلم أنتم ما آمنتم بالله ورسوله، وأن الله وحده لا شريك له بعث موسى بآياته وخلق عيسى بكلماته. وقالت اليهود "عزير ابن الله"، وقالت النصارى "ثالث ثلاثة، عيسى ابن الله". (قال): وبعث بالكتاب مع عياش بن ربيعة المخزومي، وقال: وإذا جئت أرضهم فلا تدخلن ليلاً حتى تصبح، ثم تَطَهر فأحسن طهورك وصلى ركعتين، وسل الله النجاح والقبول، واستعذ بالله وخذ كتابي بيمينك، وادفعه بيمينك في أيمانهم فإنهم قابلون وأقرأ عليهم: ﴿ **لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ**﴾ إلخ (سورة البينة). فإذا فرغت منها فقل آمن محمد وأنا أول المؤمنين. فلن تأتيك حجة إلا دُحضت ولا كتاب زخرف إلا ذهب نوره. وهم قارئون عليك فإذا رطنوا فقل "ترجموا"، وقل "حسبي الله آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم، الله ربنا وربكم، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم، لا حجة بيننا وبينكم، الله يجمع بيننا واليه المصير". فإذا أسلموا فلهم قُضُبهم الثلاثة التي إذا حضروا بها سجدوا وهى من الأثل، قضيب ملمع ببياض وصفرة، وقضيب ذو عُجَر كأنه خيزران، والأسود البهيم كأنه من سأسم؛ ثم أخرجها فحّرقها بسوقهم". قال عياش: فخرجت أفعل ما أمرني رسول الله حتى إذا دخلت إذا الناس قد لبسوا زينتهم. قال: فمررت لأنظر إليهم حتى انتهيت إلى ستور عظام على أبواب دور ثلاثة، فكشفت الستر ودخلت الباب الأوسط، فانتهيت إلى قوم في قاعة الدار فقلت: أنا رسول رسول الله، وفعلت ما أمرني فقبلوا، وكان كما قال النبيﷺ"(٢).

---

(١) Caetani voi. ii. T. p , 341.

(٢) ابن سعد §٨٥.

وفي السنة التاسعة للهجرة وفد على النبي ثلاثة عشر رجلاً من بني كلاب، وهم فرع من بني عامر بن صعصعة، وأخبروه أن أحد صحابته وهو الضحاك بن سفيان قد سار فيهم بالقرآن وسنة الرسول، وأن قومهم قد استجابوا بدعوته للدين الجديد. كذلك أسلم فرع آخر من القبيلة نفسها وهو بنو رؤاس بن كلاب، على يد واحد منهم يقال له عمرو بن مالك وكان في المدينة واعتنق الإسلام، ثم عاد بعد ذلك إلى عشيرته وحضهم على الاقتداء به[١].

وفي هذه السنة نفسها قام رجل حديث العهد بالإسلام وهو واثلة بن الأسقع بمحاولة لم تصادف نجاحاً كبيراً؛ إذ أخذ يرغب قومه في الإسلام، وكان قد اعتنقه بعد أن لقي النبي مرة، وكان قد طرده أبوه في احتقار وازدراء وقال له: "والله لا أكلمه كلمة أبداً"، ولم يجد راغباً فيما دعا إليه من تعاليم إلا أخته التي جهزته للرجوع إلى النبي بالمدينة[٢]. وكانت تسمى هذه السنة التاسعة للهجرة بعام الوفود لأن عدداً كبيراً من القبائل العربية وأهالي المدن أرسلوا إلى النبي وفادات تعلن خضوعها وتسليمها. وكان دخول مبدأ جديد من الوحدة الاجتماعية في ظل الأخوة الإسلامية في المجتمع العربي قد بدأ منذ حين في إضعاف القوة الرابطة لفكرة القبيلة القديمة، تلك الفكرة التي أقامت بناء المجتمع العربي على أساس قرابة الدم. وكان إسلام الفرد ودخوله في المجتمع الجديد هدماً لأهم قوانين الحياة العربية الأساسية، كما كانت كثرة دخول العرب في الإسلام من العوامل القوية التي أدت إلى تفكيك النظام القبلي وتركه ضعيفاً أمام حياة قومية شديدة التعصب قوية التماسك، كتلك الحياة التي صار إليها المسلمون. وهكذا اضطرت القبائل العربية إلى أن تذعن للنبي، لا لمجرد أنه رئيس لأقوى قوة عسكرية في بلاد العرب، بل لأنه رمز لمذهب حياة اجتماعية كان يجعل كل خارج عليه ضعيفاً عديم التأثير[٣]. وكان محمد قد أفلح في أن يدخل في مجتمع عصره الذي كان مليئا بالفوضى وسوء النظام شعوراً بالوحدة القومية وإدراكاً للحقوق والواجبات، كل نحو الآخر، على نحو لم يعرفه العرب من قبل[٤]. وبهذه الطريقة كان الإسلام يوحد بين عشائر كانت حتى ذلك الحين في نزاع مستمر بعضها مع بعض. وبينما كان هذا الاتحاد العظيم ينمو ويطرد، نراه في الوقت نفسه يجتذب المستضعفين من قبائل العرب شيئاً فشيئاً. وكثيراً ما نجد في القصص التي وردت عن إسلام القبائل العربية ذكر ما كان يعدهم به النبي من حمايته إياهم من أعدائهم، تلك الوعود التي كانت تبذل لهم في حالة تسليمهم لدعوته. وقد عبر أحد أفراد القبائل العربية عن حزنه عندما بلغه خبر وفاة النبي بقوله: وأسفاه على محمد! لقد عشت في سلام وأمن من أعدائي ما كان حيّاً.

---

(١) نفس المرجع §٨٦.

(٢) ابن سعد §٩١.

(٣) انظر Sprenger, vol,iii, pp. 360- 361

(٤) Caetani. Vol. ii. Pp. 433.

ولابد أن تكون هذه الصيحة قد وجدت صدى بعيداً في كافة أرجاء الجزيرة العربية.

وربما كان انتشار الردة بين قبائل عربية كثيرة انتشاراً واسعا بعد وفاة الرسول مباشرة دليلاً على مدى سطحية مشايعة هذه القبائل للإسلام. والظاهر أن قبولهم للإسلام كان في أحوال كثيرة أقرب إلى أن يكون وليد اعتبارات سياسية ومساومات ناشئة عن ضغط القوة والعنف، أكثر منه وليد حماسة ويقظة روحية. فقد سمحوا لأنفسهم أن ينجرفوا في هذا التيار الذي كان قد أصبح في ذلك الحين حركة قومية عظيمة. وهنا لا نلمس في هؤلاء الذين أسلموا بعد فتح مكة تلك الحماسة الدافقة التي كنا نجدها لدى السابقين إلى الإسلام. إلا أنه ظهر حتى من بين هؤلاء كثيرون زادوا في صفوف المؤمنين الخلص مدفوعين بحماسة حقيقية في إعلاء شأن الدين، ومستعدين، كما رأينا، لبذل نفوسهم في سبيل بث الدعوة بين إخوانهم.

" كان هؤلاء الرجال ورثة النبي الصادقين الصالحين، ورسل الإسلام فيما بعد، والأصفياء والأوفياء على كل ما أنزله الله للناس على محمد. لقد تغلغل في نفوسهم خلال ملازمتهم للنبي وولائهم له لون جديد من الوجدان والتفكير. هو الواقع أسمى وأرقى مما ألفوه من قبل، إنهم انتقلوا في الحقيقة إلى حالة أحسن مما كانوا عليها من جميع الوجوه. وفي أحرج أوقات الغزوات التي وقعت فيما بعد، قدم الساسة والقادة منهم دليلاً رائعاً لا سبيل إلى إنكاره على أن أفكار محمد وتعاليمه كانت قد ألقت بذورها في تربة خصيبة، فأنتجت جماعة من أعظم الرجال قدراً، فكانوا الحفظة على نصوص القرآن المقدسة، وهم وحدهم الذين وعوها عن ظهر قلب، وهم الحراس المتحمسون لحفظ كل ما روي عن النبي من كلام ووصايا، والأمناء على تراث محمد الأدبي. ولقد تألفت من هؤلاء الرجال جماعة الإسلام المبجلة الذين انبثقت منهم يوماً طبقة الأجلاء من أوائل الفقهاء والأصوليين والمحدثين في المجتمع الإسلامي[1].

وكان طبيعياً أن نرى حركة واسعة كهذه الحركة لا تستطيع أن تؤلف بين هؤلاء الناس جميعاً. وقليل جداً الذين سلموا من الصدمة التي منيت بها هذه الحركة بوفاة النبي، إذ لا يعزب عن البال كيف ظهر جليّاً إن الإسلام حركة حديثة العهد في بلاد العرب الوثنية، وكيف كانت تتعارض المثل العليا في هذين المجتمعين تعارضاً تامًا[2]. ذلك أن دخول الإسلام في المجتمع العربي لم يدل على مجرد القضاء على قليل من عادات بربرية وحشية فحسب، وإنما كان انقلاباً كاملاً لمثل الحياة التي كانت من قبل.

وهنا الدليل القاطع على ما تتسم به تعاليم محمد من صفة تبشيرية أساسية. ذلك النبي الذي أصبح بذلك رمزًا لأسلوب جديد. فمن المحقق أن محمداً لم يجد المجتمع في عصره مهيأ لقبول دعوة معلم جديد، فضلاً عن دعوة من يأتيهم بلقب رسول الله (الذي لم يكن مفهومًا لديهم).

---

(١) Caetani, vol. ii. P. 429.

(٢) وليس هناك بحث لهذه المسألة أكثر شمولاً وأعظم قيمة مما كتبه الأستاذ إجناتس جولدتسيهر في مؤلفه العلمي النفيس (Muhammedanische Studein, vol. I). وقد استقينا عنه ما سنذكره من معلومات.

مثل الإسلام العليا ومثل العصر الجاهلي: وكذلك كانت المساواة بين المؤمنين في الإسلام وما ساد بينهم جميعاً من أخوة مشتركة لا تسمح بوجود فوارق بين عربي وعجمي أو بين حر وعبد ممن اعتنقوا الإسلام، فكرة عارضت في الصميم نعرة الشعور القبلي عند العربي الذي بنى احترامه الشخصي على شهرة أجداده، وأخذ يقتدي بهم في إثارة النزاع الدموي الدائم الذي كان يلتمس فيه اللذة والسرور. والواقع أن المبادئ الأساسية في دعوة محمد كانت تعارض كثيراً ما كان ينظر إليه العرب نظرة ملؤها التقدير والإجلال حتى ذلك الحين، كما أنها كانت تعلم حديثي العهد بالإسلام أن يعدوا من الفضائل صفات كانوا قبل إسلامهم ينظرون إليها نظرة الاحتقار.

وكانت الصداقة والعداوة في نظر العربي الجاهلي ديناً يجدّ في أدائه عن رغبة، وكان يتباهى برد الشر بالشر، وينظر إلى كل من يسلك خلاف ذلك نظرته إلى كل نذل ضعيف:

إذا أنت لم تنفع فضر فإنما يرجَّى الفتى كيما يضر وينفعا

ولقد خاطب النبي أمثال هؤلاء بقوله: **﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾**(سورة المؤمنون: آية ٩٦)، **﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا﴾** (سورة النور: آية ٢٢)، "إذا أحبوا أن يغفر الله لهم. **﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾** (سورة آل عمران آية: ١٣٣، ١٣٤).

وكان مجرد فرض الصلاة مثار سخرية بين هؤلاء العرب الذين وجه إليهم محمد رسالته أول الأمر. وكان من أشق مراحل رسالته أن يوجه تفكيرهم وجهة دينية نحو الخالق، الشيء الذي كان يغرسه الإسلام في النفوس كما كانت اليهودية والمسيحية، إلا أنه لم يكن في الواقع معروفاً لدى الوثنيين من العرب، فإن ما اتصفوا به من هذا الاعتماد على النفس، وذلك النقص في الروح الدينية، فضلاً عن مباهاتهم البالغة بالجنس، لم يجعلهم مهيئين تمام التهيؤ لتلقى تعاليم الرجل الذي خاطبهم قائلاً: **﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾** (سورة الحجرات: آية ١٣).

و لم يعد هؤلاء يحتملون هذه القيود التي جد الإسلام في فرضها على حريتهم في الحياة، فالخمر والنساء والغناء كانت من أحب الأشياء إلى قلب العرب في الجاهلية، وكان النبي صارماً شديداً في نواهيه الخاصة بكل منها.

وهكذا حمل الإسلام منذ البداية طابع الدين الذي يقوم على الدعوة ويسعى لجذب قلوب الناس لتحويلهم إليه وحثهم على الدخول في زمرة المؤمنين. وكما كانت الحال في مبدأ الأمر كذلك ظلت على هذا النحو إلى اليوم؛ وهذا هو الغرض الذي قصدنا إلى توضيحه في الصفحات التالية.

الباب الثالث

انتشار الإسلام بين الشعوب المسيحية في آسيا الغربية

فتوح العرب وتوسيع الجنس العربي بعد وفاة محمد: بعد وفاة محمد أرسل أبو بكر الجيش الذي كان النبي قد عزم على إرساله إلى مشارف الشام، على الرغم من معارضة بعض المسلمين، بسبب الحالة المضطربة في بلاد العرب إذ ذاك، فأسكت احتجاجاتهم بقوله: "لا أرد قضاء قضى به رسول الله، ولو ظننت أن السباع تختطفني لأنفذت جيش أسامة كما أمر النبي". وكانت هذه هي أولى تلك السلسلة الرائعة من الحملات التي اجتاح العرب فيها سوريا وفارس وإفريقية الشمالية، فقوضوا دولة فارس القديمة وجردوا الإمبراطورية الرومانية من أجمل ولاياتها. ولا يدخل في نطاق هذا الكتاب أن نتتبع تاريخ هذه الحملات المختلفة، بل يجدر بنا، فيما يتعلق بانتشار العقيدة الإسلامية التي تبعت الفتوحات العربية، أن نكشف عن هذه الظروف التي جعلت مثل هذا التوسيع أمرًا ممكنًا.

وقد أجاد مؤرخ كبير، عرض المشكلة التي تواجهنا هنا في الكلمات الآتية[1]: هل كانت الحماسة الدينية الخالصة، تلك القوة الجديدة لعقيدة كانت إذ ذاك ولأول مرة آخذة في الازدهار، صافية تمام الصفاء هي التي أمدت جيوش العرب بالنصر في كل موقعة من المواقع وأقامت في مثل هذا الزمن القصير أعظم إمبراطورية شهدها العالم؟ لكن الدليل يعوزنا لنثبت أن الحالة كانت كذلك. إذ كان عدد هؤلاء الذين بايعوا النبي، وقبلوا تعاليمه عن حرية واقتناع صادق ضئيلاً جداً، على حين نجد من ناحية أخرى أن الأكثرية كانت تتألف من هؤلاء الذين لم ينضووا تحت لواء المسلمين، إلا عن طريق الضغط عليهم أو طعمًا في نفع دنيوي. وقد عبر خالد، وهو سيف من سيوف الله، في أسلوب جد مؤثر عن هذا المزيج من القوة والإقناع، الذي أسلم عن طريقه هو وكثير من قريش حين قال: إن الله أخذ بهم من قلوبهم ونواصيهم، وأرادهم على أن يتبعوا النبي. وكذلك كان لشعورهم بالاعتزاز بقومية مشتركة أثر كبير – وكان ذلك الشعور أشد حيوية بين العرب في ذلك الوقت منه بين أي شعب آخر، وقد حمل هذا الشعور وحده آلافاً مؤلفة، على أن يؤثروا مواطنهم ودينه على غيره من الغرباء الداعين إلى أديان أخرى.

وكان أقوى من ذلك جذبًا لهم إلى الإسلام أملهم الوطيد في الحصول على غنائم كثيرة في جهادهم في سبيل الدين الجديد، ثم أملهم في أن يستبدلوا بصحاريهم الصخرية الجرداء التي لم تتح لهم إلا حياة تقوم على البؤس، تلك الأقطار ذات الترف والنعيم وهي فارس والشام ومصر. ومن المؤكد أن هذه الفتوح الهائلة التي وضعت أساس الإمبراطورية العربية لم تكن ثمرة حرب دينية قامت في سبيل نشر الإسلام، وإنما تلتها حركة ارتداد واسعة عن الديانة المسيحية، حتى لقد ظُن دائمًا أن هذا الارتداد كان الغرض الذي يهدف إليه العرب.

---

(١) Döllnger, pp. 5-6.

ومن هنا أخذ المؤرخون المسيحيون ينظرون إلى السيف على أنه أداة للدعوة الإسلامية وفي ضياء النصر الـــذي عزى إليه، حجبت مظاهر النشاط الحقيقي للدعوة. ولكن الروح التي دفعت جحافل العرب الغازيـــة، الـــتي تدفقت على حدود دولتي الروم والفرس، لم تكن روح تحمس وغيرة ترمى إلى تلقين الدعوة ابتغاء تحويل الناس إلى الإسلام، بل كان الأمر على العكس من ذلك، فإن البواعث الدينية، كما يظهر، لم تكن قد تســـربت إلا قليلاً في نفوس أبطال الجيوش العربية[١]. ويعتبر توسع الجنس العربي على أصح تقدير هجرة جماعة نشيطة قوية البأس دفعها الجوع والحرمان إلى أن تهجر صحاريها المجدبة، وتجتاح بلاداً أكثر خصباً كانت ملكـــاً لجـــيران أسعد منهم حظاً[٢].

وقد ظلت الحكومة الدينية قائمة في المدينة، ومن بعدها الدولة الجديدة التي أنشأها صحابة النبي الأصفياء وأمناء دعوته الأوفياء، هؤلاء الذين استطاعوا بفضل غيرتهم وخلقهم القوي أن يحفظوا الإسلام حيّـــاً كـــدين رسمي، بالرغم من فتور أولئك العرب الذين لم يكن إسلامهم إلا إسلاما اسميّاً[٣]. ومن أجل هذا يجـــب أن لا تتلمس الأسباب التي أدت إلى مثل هذا الانتشار السريع للعقيدة الإسلامية في أخبار الجيوش الفاتحة، بل الأجدر أن نفتش عن ذلك في الظروف التي كانت تحيط بالشعوب المغلوبة على أمرها.

تحول البدو المسيحيين إلى الإسلام: وقد كان الطابع القومي لهذا التوسع الجنسي يجذب، بطبيعة الحـــال إلى جيوش الغزوات العربية، ممثلي العنصر العربي الذين كانوا يقيمون في أطراف الجزيرة، والذين كانت جيوش الفتح تتخذ في بلادهم ممراً تنفذ منه إلى البلاد التي يريدون غزوها. ومن ثم لم يكن غريباً أن نجد كثيراً من البدو والمسيحيين ينجرفون في التيار الدافع لهذه الحركة الضخمة، وأن نجد كثيراً من القبائل العربيـــة الـــتي دانـــت بالمسيحية قروناً قد نبذتها في ذلك الوقت لتدين بالإسلام. وكان من بين هؤلاء قبيلة بني غسان الذين بســـطوا نفوذهم على الصحراء الممتدة شرقي فلسطين وجنوبيّ سورية، والذين كان يقال عنهم إنهم "أرباب في الجاهلية نجوم في الإسلام"[٤]. وبعد موقعة القادسية (سنة ١٤ هـــ) التي انهزم فيها الجيش الفارسي بقيادة رستم هزيمـــة منكرة، وفد على قائد المسلمين كثير من المسيحيين الذين ينتمون إلى قبائل البدو التي كانت تقيم على ضفاف نهر الفرات، وقالوا إن القبائل الذين سبقوا إلى الإسلام، كانوا أصوب منا رأياً، واليوم وقد قتل رستم فلندخل في الدين[٥].

---

(١) Caetani, Stndi di Storia Orientale, I, p. 365 sqq. (Milano, 1911).

(٢) وقد أجاد كيتاني إجادة فائقة في تفسير هذه الفتوحات العربية على أنها آخر هجرة من الهجرات السامية. جـــ٢ ص ٨٣١- ٨٦١.

(٣) (Caetani vol.ii. P. 455 vol. V. p. 511) تكونت في المدينة جماعة دينية لا يستهان بها تتألف من عناصـــر مختلفة. ولكن السواد الأعظم منها كان من أهل المدينة الذين اعتنقوا الإسلام عن يقين وإخلاص فأخذوا يحـــافظون على التعاليم الجديدة اعتقاداً منهم بأنهم بذلك يرضون ضمائرهم ويحترمون إرادة النبي.

(٤) المسعودي جـــ ٤ ص ٢٣٨.

(٥) Muir`s Caliphate, pp. 121- 122.

وشبيه بهذا، أنه بعد فتح شمال الشام انضمت معظم القبائل البدوية بعد شيء من التردد إلى أتباع النبي[١].

ويمكننا أن نحكم من الصلات الودية التي قامت بين المسيحيين والمسلمين من العرب بأن القوة لم تكن عاملاً حاسماً في تحويل الناس إلى الإسلام. فمحمد نفسه قد عقد حلفاً مع بعض القبائل المسيحية، وأخذ على عاتقه حمايتهم ومنحهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية، كما أتاح لرجال الكنيسة أن ينعموا بحقوقهم ونفوذهم القديم[٢] في أمن وطمأنينة. وقد وحد حلف كهذا بين أتباع النبي وبين مواطنيهم الذين كانوا يدينون بالوثنية دينهم القديم، والذين تقدم كثير منهم عن طواعية لمؤازرة المسلمين في حملاتهم الحربية، وأظهروا للحكومة الجديدة نفس روح الولاء التي جعلتهم يقفون بمنأى عن الردة التي رفعت لواء العصيان في كافة أرجاء بلاد العرب على إثر وفاة النبي[٣]. وقد زعم بعض الباحثين من العرب المسيحيين الذين كانوا يخفرون حدود الإمبراطورية البيزنطية الواقعة على أطراف الصحراء، ألقوا بجموعهم مع جيش الفتح الإسلامي حين رفض هرقل دفع الجزية التي تعود إعطاءها إياهم مقابل خدماتهم الحربية التي كانوا يؤدونها باعتبارهم حراساً للحدود[٤].

وفي موقعة الجسر (سنة ١٣هـ) حين أوشكت الهزيمة المنكرة أن تحل بالعرب الذين أخذ الفزع منهم كل مأخذ، وقد حصروا بين الفرات والجيش الفارسي، إذا بزعيم مسيحي من بني طيئ، ينضم إلى المثنى القائد المسلم كما انضم سبوريوس لارتيوس **Spurius Lartius** إلى جانب هوراتيوس **Horatius** من قبل ليساعد في الدفاع عن الجسر الذي كان يتألف من القوارب، والذي استطاعوا عن طريقه وحده أن يرتدوا ارتدادًا منظمًا. وحينما جمعت جموع جديدة لترد عار هذه الهزيمة، كان من بين الإمدادات التي تدفقت من كل فج قبيلة بني النمر النصرانية التي كانت تقيم داخل أراضي الدولة البيزنطية. وفي موقعة "بويب" التي تلتها سنة ١٣ هـ وقبيل هجوم العرب الأخير الذي حول مصير المعركة إلى جانبهم، استوى المثنى على فرسه وتوجه إلى القائد المسيحي وقال له: "إنك امرؤ عربي فإذا حملت فاحمل معي"، فارتد الفرس أمام هجومهم المروع وأضيف بذلك نصر كبير إلى سلسلة الانتصارات الإسلامية الرائعة. وفي ذلك اليوم قام بأعظم الأعمال بسالة غلام من قبيلة نصرانية أخرى من قبائل البدو، وكان قد جاء مع أصحابه، وهم وجماعة من فرسان البدو في الوقت الذي كان الجيش العربي يتهيأ للقتال. فألقوا بأنفسهم في المعركة في جانب قومهم، وبينما الصراع يزداد عنفًا إذا بهذا

---

(١) Caetani, vol. ii. Pp. 260, 299, 351.

(٢) Id. Pp. 792- 3; vol. iii. P. 253 (§ 8).

(٣) Id. Pp. 111-15.

(٤) Caetani, vol. iii. P. 814 (§323).

الغلام يندفع إلى قلب الفرس، ويقتل قائدهم، ثم يستوي على فرسه المطهمة ويرجع بها ركضًا وسط إعجاب صفوف المسلمين صائحًا في انتصار وهو يمر بهم: "أنا الغلام التغلبي، أنا قتلت المرزبان"[١].

التسامح يشمل هؤلاء الذين ظلوا على المسيحية: وكانت القبيلة التي أفتخر هذا الشاب بانتسابه إليها إحدى القبائل التي آثرت أن تظل على المسيحية بينما أسلمت قبائل أخرى من تلك التي كانت تسكن بلاد ما بين النهرين مثل بني النمر وبني قضاعة. وقد بادرت بنو تغلب فأرسلت وفدًا إلى النبي في سنة ٩هـ. واعتنق أفراد هذا الوفد الذين كانوا يدينون الوثنية الدين الإسلامي، وعقد النبي مع المسيحيين منهم معاهدة سمح لهم فيها بأن يحتفظوا بدينهم القديم. ولكن هذه المعاهدة لم تسمح لهم بتعميد أبنائهم. وإن مثل هذا الشرط الذي يختلف تمام الاختلاف عن سياسة التسامح التي تعود النبي أن يسير عليها إزاء العرب المسيحيين الذين سمح لهم بأن يختاروا بين الإسلام ودفع الجزية و لم يرغموا قط على ترك دينهم، قد بعث على الظن بأن الأسر المسيحية من بني تغلب هي التي اقترحت هذا الشرط من تلقاء نفسها بدوافع اقتصادية[٢]. ويدل بقاء المسيحية طويلاً في هذه القبيلة على أن هذا الشرط لم يكن معمولاً به في حقيقة الأمر. وقد حرم الخليفة عمر استخدام أية وسيلة من وسائل الضغط عليهم عندما أظهروا أنهم لا يرغبون في ترك دينهم القديم، وأمر بترك الحرية لهم في إقامة شعائرهم الدينية، على ألا يقفوا في سبيل أي فرد من أفراد قبيلتهم يرغب في التحول إلى الإسلام أو يعمِّدوا وليدًا ممن أسلم آباؤهم[٣]. وقد طلب إلى بني تغلب أن يدفعوا الجزية[٤] أو الضريبة المفروضة على الرعايا من غير المسلمين، ولكنهم شعروا أن من الإذلال لكبريائهم والحط من كرامتهم أن يدفعوا ضريبة فرضت عليهم مقابل حمايتهم وحماية أموالهم، فالتمسوا من الخليفة أن يسمح لهم بأن يعاملوا معاملة المسلمين في دفع الضرائب، لذلك نراهم يؤدون في مقابل الجزية صدقة أو زكاة[٥] مضاعفة – وهي ضريبة كانت تجبى من المسلمين على أراضيهم وماشيتهم وما إلى ذلك، لتنفق على الفقراء[٦]. وقد ضايق المسلمين وحز في نفوسهم

---

(١) Muir,: caliphate, pp. 90-4.

(٢) Caetani, vol. ii. Pp. 299 Wellhausen, iv. P. 156 (N. 5).

(٣) الطبري جـ١، ص ٢٤٨٢.

(٤) ولدراسة الجزية دراسة مستفيضة مبنية على ترتيب فذ واختيار دقيق لكل المواد التاريخية التي أمكن الحصول عليها، راجع كيتاني جـ٥، ص ٣١٩ وما يليها. ولدراسة مصر في خلال القرن الأول من الحكم الإسلامي فليراجع ما ذكره بل Bell ص ١٦٧ وما يليها. وبكر Becker في كتابه:
- Beiträge zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam, p. 81 sqq.

(٥) يعتقد كيتاني (جـ ٤ ص ٢٧٧) أن هذه القصة من اختراع عصر متأخر، وضعت لتفسير استثناء هذه القبيلة المسيحية في معاملتها معاملة المسلمين من الناحية المالية.

(٦) وقد جمع لامانس الإشارات القليلة البسيطة التي تتعلق بهذه القبيلة من كتب مؤرخي العرب وذلك في كتابه (J.A. Le Chantredes Omie des (ix. Sér, tome iv. Pp. 97- 9, 438- 59 وراجع أيضًا كيتاني جـ٤ ص ٢٢٧ وما بعدها.

بوجه خاص أن يروا أي فرد من العرب يسمح له بأن يظل مخلصًا للمسيحية. وقد أسلم السواد الأعظم من بني تنوخ في السنة الثانية عشرة للهجرة عندما أذعنوا لخالد بن الوليد[١] مع غيرهم من قبائل العرب المسيحية، ولكن يظهر أن بعضهم ظل على عقيدته القديمة قرابة قرن ونصف قرن، إذ قيل إن الخليفة المهدي (١٥٨-١٦٩هـ) رأى نفرًا منهم يقيمون بظاهر حلب، فلما علم أنهم من المسيحيين أمرهم، وهو في سورة من الغضب، أن يعتنقوا الإسلام فأجابوا، وكان عددهم خمسة آلاف شخص، وآثر أحدهم الاستشهاد على الارتداد عن دينه[٢]. أما فيما يتعلق بالسواد الأعظم من هؤلاء المسيحيين فإن الأخبار الخاصة بزوال المسيحية من بين القبائل العربية النصرانية التي كانت تقيم في بلاد العرب الشمالية لا تزال بحاجة إلى شيء من التفصيل؛ والظاهر أنهم قد انتهوا إلى الامتزاج بالمجتمع الإسلامي الذي كان يحيط بهم عن طريق ما يسمونه (الاندماج السلمي) الذي تم بطريقة لم يحسها أحد منهم؛ ولو أن المسلمين حاولوا إدخالهم في الإسلام بالقوة عندما انضووا بادئ الأمر تحت لواء الحكم الإسلامي لما كان من الممكن أن يعيش المسيحيون بين ظهرانيهم حتى عصر الخلفاء العباسيين[٣].

كذلك قاوم أهل الحيرة كل الجهود التي قام بها خالد لحملهم على قبول العقيدة الإسلامية. وكانت هذه المدينة من أشهر المدن في تاريخ بلاد العرب، فبدا لبطل الإسلام المغوار أن الإهابة بدمهم العربي كافية لإغرائهم بأن ينتظموا في أتباع نبيٍّ الجزيرة العربية. ولما أرسل أهل هذه المدينة المحاصرون سفراءهم إلى قائد المسلمين للنظر في شروط تسليم مدينتهم، سألهم خالد: "ما أنتم، أعرب؟ فما تنقمون من العرب؟ أو عجم؟ فما تنقمون من الإنصاف والعدل"؟ فقال له عدي، وقد فوض إليه الوفد أن يتحدث بلسانهم: "بل عرب عاربة وأخرى متعربة". قال خالد: "لو كنتم كما تقولون لَمَ تحادّونا وتكرهوا أمرنا". قال عدي: ليدلك على ما نقول أنه ليس لنا لسان إلا بالعربية". قال له خالد: صدقت، اختاروا واحدة من ثلاث: ١- أن تدخلوا في ديننا فلكم ما لنا وعليكم ما علينا إن نهضتم وهاجرتم، وإن أقمتم في دياركم؛ ٢- أو الجزية؛ ٣- أو المنابذة والمناجزة. فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة". فقال عدي "بل نعطيك الجزية" قال خالد: تبّاً لكم! ويحكم! إن الكفر فلاة مضلة، فأحمق العرب من سلكها، فلقيه دليلان، أحدهما عربي فتركه واستدل الأعجمي"[٤].

وقد أمد الخليفة هؤلاء الذين دخلوا حديثاً في الإسلام بما ينبغي أن يمدهم به من علماء يلقنونهم مبادئ الدين، لأنه لما كانت القبائل بأجمعها تدخل في الإسلام بمثل هذه السرعة كان من الضروري أن يأخذوا الحيطة اتقاء ما يحدث من أخطاء سواء من ناحية العقيدة أو الشعائر الدينية، وكان من الطبيعي أن تكون هذه الأخطاء

---

(١) كيتاني جـ٢ ص ١١٨٠.

(٢) ابن العبري (٣) ص ١٣٤- ١٣٥.

(٣) Caetani, vol. ii, p. 828.

(٤) الطبري جـ١ ص ٢٠٤١.

مصدر خوف إذا ما ترك هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام لا يعرفون تعاليم هذا الدين معرفة صحيحة. ومن ثم نرى الخليفة عمر يعين في كل بلد معلمين مهنتُهم أن يعلموا الناس القرآن ويفقهوهم في الدين. وكذلك أمر العمال أن يستيقنوا من أن جميع المسلمين صغاراً وكباراً يواظبون على حضور صلاة الجماعة لاسيما في أيام الجمع وفي شهر رمضان. ونستطيع أن نحكم على ما كان لتفقيه من دخلوا في الإسلام حديثاً من أهمية من أن هؤلاء الذين عهد إليهم بهذا العمل في مدينة الكوفة كانت شخصيتهم لا تقل عن شخصية من عهد إليهم بالولاية على بيت المال(١).

ومن هذه الأمثلة التي قدمناها آنفًا عن ذلك التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون إلى العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة، واستمر في الأجيال المتعاقبة، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة(٢). وإن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح؛ يقول لايارد **Layard** إنه صادف مخيمًا من العرب المسيحيين في مدينة الكرك، شرقي البحر الميت، لا يختلفون عن العرب المسلمين بحال ما، سواء في الزي أو في العادات(٣). وقد أخبر رهبان طور سينا بُرْكارْت **Burckhardt** أنه كان لا يزال هناك في القرن الماضي بعض أسر من البدو المسيحيين الذين لم يدخلوا في الإسلام وأن آخرهم كانت امرأة عجوزاً ماتت سنة ١٧٥٠، ودفنت بحديقة الدير(٤).

ولا يزال كثيرون من قبيلة بني غسان الشهيرة يدخلون في الديانة المسيحية، وهم من أشد القبائل أصالة في العروبة، دخلوا في المسيحية حول نهاية القرن الرابع الميلادي، ولا يزالون متمسكين بالدين المسيحي. ومنذ خضوعهم لكنيسة رومة منذ قرنين تقريبًا، وهم يستخدمون اللغة العربية في طقوسهم الدينية(٥).

وإذا ما تركنا الكلام على البدو لننظر في موقف الأهالي الذين استقروا في المدن وموقف المجتمع غير العربي من الدين الجديد، وجدنا أن الفتح العربي لم يعقبه مثل هذا التحول السريع إلى الإسلام، ويظهر أن نصارى المدن الكبرى في الولايات الشرقية التابعة للدولة البيزنطية قد ظل أكثرهم على ولائهم لعقيدة آبائهم وأجدادهم التي لا تزال جموع ضخمة منهم تتعلق بأهدابها.

---

(١) المسعودي جـ٤، ص ٢٥٦.

(٢) "لم يضطهد العرب أحداً في السنوات الأولى من أجل الدين كما أنهم لم يعملوا على ضم أحد إلى دينهم، ومن ثم تمتع المسيحيون الساميون في ظل الإسلام، بعد الفتوح الأولى، بحرية لم يتمتعوا بها من قبل طيلة أجيال عديدة". (انظر Caetani, vol. v. p. 4.).

(٣) Sir Henry Layard: Early Adventures in Persia, Suslans, and Babylonia, vol. i, p. 100. (London, 1887); R. Hartmann: Die Herrschaft von al-karak (Der Islam, vol. ii. P.187).

(٤) Burchhardt (2), p. 564.

(٥) W. G. Palgrave: Essays on Eastern Questions, pp. 206-8 London. 1872.

ولكي نستطيع أن نقدر حالة هؤلاء البدو الذين عاشوا في ظل الحكم الإسلامي تقديرًا كاملاً ونقف على قيمة المؤثرات التي أدت إلى تحول الناس إلى الإسلام من حين إلى حين، يحسن بنا أن نجتزئ بالإشارة إلى حالتهم في ظل الحكم المسيحي في عهد الدولة البيزنطية التي ولت الأدبار أمام السيوف العربية.

إخفاق محاولة هرقل في التوفيق بين الفرق المسيحية: ولقد أفلح جستنيان **Justinian** قبل الفتح الإسلامي بمائة عام في أن يكسب الإمبراطورية الرومانية مظهرًا من مظاهر الوحدة. ولكنها سرعان ما تصدعت بعد موته، وأصبحت في حاجة ماسة إلى شعور قومي مشترك يربط بين الولايات وحاضرة الدولة. أما هرقل فقد بذل جهودًا لم تصادف نجاحًا كاملاً في إعادة ربط الشام بالحكومة المركزية، ولكن ما اتخذه من وسائل عامة في سبيل التوفيق قد أدى لسوء الحظ إلى زيادة الانقسام بدلاً من القضاء عليه. ولم يكن ثمة ما يقوم مقام الشعور بالقومية سوى العواطف الدينية، فحاول بتفسيره للعقيدة تفسيرًا يستعين به على تهدئة النفوس، أن يقف كل ما يمكن أن يشجر بعد ذلك بين الطوائف المتناحرة من خصومات، وأن يوجد بين الخارجين على الدين وبين الكنيسة الأرثوذكسية، وبينهم وبين الحكومة المركزية. وكان مجمع خلقيدونية قد أعلن في سنة ٤٥١م "أن المسيح ينبغي أن يعترف بأنه يتمثل في طبيعتين، لا اختلاط بينهما ولا تغير، ولا تجزؤ، ولا انفصال، ولا يمكن أن ينتفي اختلافهما بسبب اتحادهما، بل الأحرى أن تحتفظ كل طبيعة منهما بخصائصها، وتجتمع في أقنوم واحد وجسد واحد، لا كما لو كانت متجزئة أو منفصلة في أقنومين، بل متجمعة في أقنوم واحد، هو ذلك الابن الواحد والله والكلمة؛ وقد رفض اليعاقبة هذا المجمع، وكانوا لا يعترفون في المسيح إلا بطبيعة واحدة، وقالوا إنه مركب الأقانيم، له كل الصفات الإلهية والبشرية، ولكن المادة التي تحمل هذه الصفات لم تعد ثنائية، بل أصبحت وحدة مركبة الأقانيم. وكان الجدل قد احتدم قرابة قرنين من الزمان بين طائفة الأرثوذكس وبين اليعاقبة الذين ازدهروا بوجه خاص في مصر والشام والبلاد الخارجة عن نطاق الإمبراطورية البيزنطية، في الوقت الذي سعى فيه هرقل في إصلاح ذات البين عن طريق المذهب القائل بأن للمسيح مشيئة واحدة **Monotheletism**. ففي الوقت الذي نجد هذا المذهب يعترف بوجود الطبيعتين إذا به يتمسك بوحدة الأقنوم في حياة المسيح البشرية، وذلك بإنكاره وجود نوعين من الحياة في أقنوم واحد، فالمسيح الواحد الذي هو ابن الله يحقق الجانب الإنساني والجانب الإلهي بقوة إلهية إنسانية واحدة، ومعنى ذلك أنه لا يوجد سوى إرادة واحدة في الكلمة المتجسدة[١]".

لكن هرقل لقى المصير الذي انتهى إليه كثيرون جدّاً ممن كانوا يأملون أن يقيموا دعائم السلام. ذلك أن الجدل لم يحتدم مرة أخرى كأعنف ما يكون الاحتدام فحسب، بل إن هرقل قد وُصم بالإلحاد وجر على نفسه سخط الطائفتين على السواء.

---

(١) I. A Dorner: A System of Christian Doctrine, vol. iii. Pp. 215- 16. (London, 1885). J. C, Robertson: History of the Christian Church. Vol. ii. P. 226 (London, 1875).

والواقع أن الشعور الذي أثاره هذا الإمبراطور قد بلغ من المرارة مبلغًا يبرر الاعتقاد بأنه حتى السواد الأعظم من الأرثوذكس من رعايا الدولة البيزنطية الذين كانوا يقيمون في البلاد المفتوحة في عهد هذا الإمبراطور هم الذين رحبوا بالعرب، وقد نظروا إلى الإمبراطور نظرة الكراهية باعتباره خارجًا على الدين، وكانوا يخشون أن يأخذ في اضطهادهم وإرغامهم على القول بوحدة مشيئة المسيح[1]. ومن أجل هذا استقبلوا بالرضى –بل بالحماسة– هؤلاء السادة الجدد الذين وعدوهم بالتسامح الديني، وأظهروا رغبتهم في تسوية مركزهم الديني واستقلالهم القومي لو أنهم استطاعوا أن يخلصوا أنفسهم من الخطر العاجل الذي كان يحدق بهم.

وقد استطاع ميخائيل الأكبر **Michael the Elder** بطريق أنطاكية اليعقوبي أن يحبذ فيما كتبه في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ما قرره إخوانه في الدين، وأن يرى إصبع الله في الفتوح العربية. حتى بعد أن خبرت الكنائس الشرقية الحكم الإسلامي خمسة قرون. وقد كتب يقول بعد أن سرد اضطهادات هرقل: "وهذا هو السبب في أن إله الانتقام الذي تفرد بالقوة والجبروت، والذي يديل دولة البشر كما يشاء، فيؤتيها من يشاء، ويرفع الوضيع –لما رأى شرور الروم الذين لجأوا إلى القوة فنهبوا كنائسنا وسلبوا أديارنا في كافة ممتلكاتهم، وأنزلوا بنا العقاب في غير رحمة ولا شفقة، أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم. وفي الحق إننا إذا كنا قد تحملنا شيئًا من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا وإعطائها لأهل خلقيدونية فقد استمرت هذه الكنائس في حوزتهم. ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التي وجدت في حوزتها. (وفي ذلك الوقت كانت قد انتزعت منا كنيسة حمص الكبرى وكنيسة حران). ومع ذلك لم يكن كسبًا هيناً أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا، وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام"[2].

فتح العرب بلاد الشام وفلسطين: ولما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن: وعسكر أبو عبيدة في فحل، كتب الأهالي المسيحيون في هذه البلاد إلى العرب، يقولون: "يا معشر المسلمين، أنتم أحب إلينا من الروم، وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا. ولكنهم غلبونا

---

(١) ومن الممكن أن نحكم على أن مثل هذه المخاوف لم يكن لها أساس على الإطلاق مما أظهره الإمبراطور من تصرفات تنطوي على التعصب إزاء كثير من أفراد الطائفة اليعقوبية، وذلك في أثناء تقدمه في بلاد الشام بعد أن أحل الهزيمة بالفرس سنة ٦٢٧م. (انظر Caetani, vol. ii, p. 1049- Michael the Elder, vol. ii. P. 412). وإذا أردت الإطلاع على ما ارتكبه الجنود البيزنطيون من الفظائع ضد إخوانهم في عهد كونستانس الثاني فراجع Michael the Elder vol. ii. P. 448.

(٢) Michael the Elder, vol. ii, pp. 412-13.

على أمرنا وعلى منازلنا[١]". وغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب إليهم من ظلم الإغريق وتعسفهم[٢].

وهكذا كانت حالة الشعور في بلاد الشام إبان الغزوة التي وقعت بين سنتي ٦٣٣، ٦٣٩م والتي طرد فيها العرب جيش الروم من هذه الولاية تدريجياً. ولما ضربت دمشق المثل في عقد صلح مع العرب سنة ٦٣٧، وأمنت بذلك السلب والنهب، كما ضمنت شروطًا أخرى ملائمة، لم تتوان سائر مدن الشام في أن تنسج على منوالها. فأبرمت حمص ومنبج (**Hieroplis**) وبعض المدن الأخرى معاهدات أصبحت بمقتضاها تابعة للعرب؛ بل سلم بطريق بيت المقدس هذه المدينة بشروط مماثلة. وإن خوف الروم من أن يكرههم الإمبراطور الخارج على الدين على اتباع مذهبه، جعل الوعد الذي قطعه المسلمون على أنفسهم بمنحهم الحرية الدينية أحب إلى نفوسهم من ارتباطهم بالدولة الرومانية وبأية حكومة مسيحية. ولم تكد المخاوف الأولى التي أثارها نزول جيش فاتح في بلادهم تتبدد حتى أعقبها تحمس قوي لمصلحة العرب الفاتحين[٣].

تسامح العرب وعهودهم : أما ولايات الدولة البيزنطية، التي سرعان ما استولى عليها المسلمون ببسالتهم، فقد وجدت أنها تنعم بحالة من التسامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة بسبب ما شاع بينهم من الآراء اليعقوبية والنسطورية فقد سمح لهم أن يؤدوا شعائر دينهم دون أن يتعرض لهم أحد، اللهم إلا إذا استثنينا بعض القيود التي فرضت عليهم منعاً لإثارة أي احتكاك بين أتباع الديانات المتنافسة، أو إثارة أي تعصب ينشأ عن إظهار الطقوس الدينية في مظهر المفاخرة حتى لا يؤذي ذلك الشعور الإسلامي[٤]. ويمكن الحكم على مدى هذا التسامح –الذي يلفت النظر في تاريخ القرن السابع– من هذه العهود التي أعطاها العرب لأهالي المدن التي استولوا عليها وتعهدوا لهم فيها بحماية أرواحهم وممتلكاتهم وإطلاق الحرية الدينية لهم في مقابل الإذعان ودفع الجزية[٥].

وليس من السهل أن نستخلص تفاصيل هذه العهود الدقيقة مما أصبح يشوبها من زيادات. وسواء أكانت هذه التفاصيل صحيحة بلفظها أم لم تكن، فهي على جانب من الأهمية من حيث إنها تمثل الرواية التاريخية التي

---

(١) الأزدي ص ٩٧.

(٢) البلاذري ص ١٣٧.

(٣) Caetani, vol. iii. P. 813; vol. v. p. 394. ("قبل السكان عن رضى ظاهر تغيير الحكومة، وذلك بمجرد أن علموا أن العرب سيحترمون حقوقهم الشخصية، وسيتركون لهم الحرية العامة في إقامة شعائرهم الدينية. وفي سورية أسرعت مدن ومقاطعات بأكملها إلى التفاهم مع العرب حتى قبل أن تقع هزيمة الروم النهائية، وفي السواد أذعنوا دون أية معارضة، وقبلوا السيادة الجديدة دون شرط ولا قيد. ومن المحتمل أن يكون هذا قد تم في سورية أيضاً بالنسبة إلى كثير من المناطق النائية عن طريق المواصلات الكبرى).

(٤) وقد جمع جوتهيل Gottheil مجموعة قيمة من الشواهد المدعمة بالوثائق التاريخية فيما يتعلق بحالة الشعوب التي دخلت في حماية الحكم الإسلامي وذلك في بحثه "Dhimmis and Moslems in Egypt".

(٥) البلاذرى ص ٧٤ (في آخر الصفحة)، ١١٦، ١٢١ (في وسط الصفحة).

أخذ بها المؤرخون المسلمون في القرن الثاني الهجري- وهي رواية كان من العسير أن تستقر دعائمها لو أن هناك دليلاً يقوم على إثبات عكسها. ولا بأس من أن نورد هنا الشروط[١]. التي قيل إن الخليفة عمر بن الخطاب قد وضعها حين سَلَّم له بيت المقدس: "بسم الله الرحمن الرحيم! هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان. أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم"[٢].

وفرض عليهم الخراج خمسة دنانير من الموسرين وأربعة من الطبقة الوسطى وثلاثة من الفقراء. وقد زار عمر الأماكن المقدسة يصحبه البطريق، وقيل إنه بينما كانا في كنيسة القيامة وقد حان وقت الصلاة، طلب البطريق إلى عمر أن يصلي هناك، ولكنه بعد أن فكر أعتذر وهو يقول: إنه إن فعل ذلك فإن أتباعه قد يدّعون فيما بعد، أنه محل لعبادة المسلمين.

ومما يتفق مع هذه الروح التي تنطوي على حسن معاملة عمر لرعاياه من أصحاب الديانات الأخرى، ما أثر عن عمر من أنه أمر أن يعطي قوم مجذومون من النصارى من الصدقات وأن يجرّى عليهم القوت[٣]. وهو لا ينسى الذميّين (وهم أصحاب الديانات الأخرى الداخلون في حماية المسلمين) حتى في آخر وصاياه، إذ عهد فيها إلى من يخلفه بما ينبغي القيام به في هذا المنصب السامي فقال: "وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفي لهم بعهدهم وألا يكلفوا إلا طاقتهم"[٤].

عهد عمر: وتنسب بعد الأجيال المتأخرة إلى عمر عدداً من القيود التي حالت بين المسيحيين وبين إقامة شعائرهم الدينية في حرية وطلاقة، إلا أن دي غوية **De Goeie**[٥] وكيتاني **Caetani**[٦] قد أقاما الدليل الذي لا يدع مجالاً للشك على أن هذه القيود قد استحدثت في بعض العصور المتأخرة؛ ومع ذلك فقد قَبِل فقهاء المسلمين الذين عاشوا في أزمان أقل تسامحًا هذه العهود على أنها صحيحة، ومن ثم كانت على جانب من الأهمية في تكوين حكم عن حالة الكنائس المسيحية في ظل الحكم الإسلامي. وإليك هذا العهد الذي أطلق عليه عهد عمر بنصه: "بسم الله الرحمن الرحيم! هذا الكتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا، أنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا ألا

---

(١) وللاطلاع على مناقشة كيتاني لهذه الوثيقة، انظر .Caetani, vol. iii. P. 952 sqq -

(٢) الطبري جـ١، ص ٢٤٠٥.

(٣) البلاذري ص ١٢٩.

(٤) ابن سعد جـ٣ قسم ١ ص ٢٤٦.

(٥) Mémoire sur la conquéte de la Syrie, p. 143 sq.

(٦) Annali dell´Islam, vol. iii, p, 957.

نحدث في مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب[١]؛ ولا نجدد ما خرب منها، ولا نحيي ما كان منها في خطط المسلمين؛ وألا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين في ليل ولا نهار؛ وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل؛ وأن نترل من مر بنا من المسلمين ثلاثة أيام نطعمهم؛ ولا نؤوي في كنائسنا ولا منازلنا جاسوساً ولا نعلم أولادنا القرآن[٢]؛ وألا نظهر شركاً ولا ندعو إليه أحداً؛ وألا نمنع أحداً من ذوى قرابتنا الدخول في الإسلام إن أرادوه؛ وأن نوقر المسلمين؛ وأن نقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس؛ ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم في قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر؛ ولا نتكلم بكلامهم[٣] ولا نكتني بكناهم، ولا نركب السروج، ولا نتقلد السيوف ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا؛ ولا ننقش خواتيمنا بالعربية، ولا نبيع الخمور، وأن نجز مقاديم رؤوسنا، وأن نلزم زيّنا حيث ما كنا؛ وأن نشد الزنانير على أوساطنا؛ وألا نظهر الصليب على كنائسنا؛ وألا نظهر صُلبنا وكتبنا في شيء من طرق المسلمين ولا أسواقهم[٤]؛ وألا نضرب بنواقيسنا[٥] في كنائسنا إلا ضرباً خفيّاً؛ وألا نرفع أصواتنا بالقراءة في كنائسنا في شيء من حضرة المسلمين؛ وألا نخرج شعانين ولا باعوثاً، وألا نرفع أصواتنا على موتانا، ولا نظهر النيران عليهم في شيء من طرق المسلمين وأسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين وأن نرشد المسلمين ولا نطلع في منازلهم..... ولا نضرب أحداً من المسلمين. شرطنا لكم على ذلك على أنفسنا وأهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان، فإن نحن خالفنا عن شيء مما شرطناه لكم وضمناه على أنفسنا فلا ذمة لنا، وقد حل لكم منا ما يحل لكم من أهل المعاندة والشقاق"[٦](†).

وأول من ذكر هذه الوثيقة ابن حزم المتوفي حول منتصف القرن الخامس الهجري؛ وتمثل شروطها ما كان في العصور المتأخرة من تصرفات أشد تعصباً وأبعد عن التسامح. والحق أن هذه الشروط لم تعد أن تكون

---

(١) رأى بعض الثقات في الشرع الإسلامي أن هذه القاعدة لم تنسحب على القرى والضياع التي لم يكن بناء الكنائس فيها محظوراً (الهداية جـ٢ ص ٢١٩).

(٢) "تختلف آراء العلماء في مسألة تعليم القرآن فهو محظور في مذهب مالك، ومباح عند أبي حنيفة، أما الشافعي فله في هذا الموضوع رأيان: فهو من جهة يحبذ دراسة القرآن من حيث إن في ذلك إشارة إلى الرغبة في الإسلام، وهو من جهة أخرى يحظره لأنه يخشى أن يكون الكافر الذي يدرس القرآن مصراً على إثمه وعناده فلا يقصد بقراءته إلا أن يتخذه هزواً ما دام هو عدواً لله والرسول الذي أنزل عليه الكتاب. والآن فليس للشافعي، وقد رأينا له فكرتين تناقض إحداهما الأخرى، رأي حاسم في هذه المسألة من الوجهة الشكلية". (Belin, p. 508).

(٣) كعبارات التحية وغيرها مما يستعمله المسلمون بعضهم مع بعض دون غيرهم.

(٤) يقول أبو سيف (ص ٨٢) أنه لا مانع من خروج النصارى بصلبانهم في أيام عيدهم خارج المدينة بلا رايات ولا بنود يوماً في السنة، فأما داخل البلد بين المسلمين ومساجدهم فلا تظهر الصلبان.

(٥) الناقوس في اللغة قطعة طويلة من الخشب تقرع بخشبة أخرى قصيرة.

(٦) Gotteil, pp. 382-4 حيث أورد الإشارات إلى النصوص المختلفة لهذه الوثيقة.

(†) راجع كتاب المذمة في استعمال أهل الذمة لابن النقاش –مخطوط بدار الكتب رقم ٣٩٥٢ ورقة ٣ – ٤.

نظماً قد طبقت بصفة غير مطردة، وكان الأمر بوجه عام يتطلب سورة من التعصب الديني لإجابة أي مطلب لتطبيق هذه الشروط. وهناك شواهد كثيرة تبين أن المسيحيين قلما كانوا في عهد الفتوح الإسلامية الأولى يشكون مما يضعف من قوة دينهم. والواقع أن تمسكهم بدينهم القديم هو الذي عرضهم لدفع الجزية – وهي كلمة كانت تدل أصلاً على الضريبة من أي نوع يدفعها غير المسلمين من رعايا الدولة العربية إلا أنها أصبحت أخيراً تدل على ضريبة الرأس حين وضع الولاة الجدد النظام المالي(١). لكن هذه الجزية كانت من البساطة بحيث لم تكن تثقل كاهلهم، وذلك إذا لاحظنا أنها أعفتهم من الخدمة العسكرية الإجبارية التي كانت مفروضة على إخوانهم من الرعايا المسلمين. ولا شك أن التحول إلى الإسلام كان يقترن ببعض مزايا مالية معينة، ولكنه لم يكن من الممكن أن يكون للدين القديم إلا تأثير ضئيل على هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام لا لشيء إلا ليظفروا بإعفائهم من أداء الجزية، وعندئذ كان على هؤلاء الذين يتحولون إلى الإسلام أن يؤدوا بدلاً من الجزية الصدقات الشرعية، وهي الزكاة التي كانت تفرض سنوياً على معظم أنواع الممتلكات المنقولة والعقارية(٢). وقد قل إلى حد بعيد ما كان يحدث من إغراء مادي للتخلص من عبء الضريبة عن طريق التحول إلى الإسلام، وذلك حين اضطرت بعض الاعتبارات المالية للحكومة العربية، حول نهاية القرن الأول، إلى أن تشدد على المسلمين الجدد في أن يوالوا دفع الجزية حتى بعد دخولهم في زمرة المؤمنين(٣). هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يجب أن نذكر أن غير المسلمين من الأهلين كانوا يعرضون أنفسهم دائماً لأن يكونوا ضحايا الاضطهاد المالي عندما تكون الدولة في حاجة إلى زيادة الخراج.

الجزية: ولم تكن مقادير الجزية التي فرضها الفاتحون الأولون متماثلة(٤)، ولم يتفق أبو حنيفة ومالك، وهما الإمامان المشهوران، في بعض التفاصيل التي لا تصل إلى درجة كبيرة من الأهمية(٥). وقد تتخذ من المعلومات التالية التي استقيناها من كتاب الخراج الذي وضعه أبو يوسف تلبية لطلب هارون الرشيد (٧٨٦-٨٠٩م) (١٧٠- ١٩٣هـ) دليلاً يمثل لنا بوجه عام الطريقة التي سار عليها المسلمون في جمع الخراج في عهد الدولة العباسية. فكان على الموسر أن يدفع في السنة ثمانية وأربعين درهمًا، وعلى الوسط أربعة وعشرين، بينما

---

(١) وهناك شواهد تدل على أن العرب الفاتحين قد أبقوا على النظام المالي الذي وجدوه سائداً في البلاد التي انتزعوها من أيدي الروم دون أن يغيروا منه شيئًا وأن تفسير الجزية بأنها عبارة عن ضريبة الرؤوس، إنما هو من اختراع الفقهاء والمتأخرين الذين كانوا يجهلون الأمور على وضعها الصحيح في صدر الإسلام.
(Caetani, vol. iv, p. 610(§ 251); vol v. p. 449). H Lammens: Ziád ibn Abihi (Rivista degli Studi Orientali, vol, iv. P. 215).

(٢) Goldziher, vol. i, pp. 50-7, 427-30. Caetani vol. v, p. 311 sqq.

(٣) Caetani, vol. v. pp. 424 (§ 752), 432.

(٤) البلاذري ص ١٢٤- ١٢٥.

(٥) A. Von Kremer (1) vol. i, pp. 60, 436.

يؤخذ من المحتاج كالحراث العامل بيده اثنا عشر دهمًا[١]، وإن جاءوا بعرَض قبل منهم، مثل الدواب والتجارة والمتاع، حتى الإبر كانت تقبل منهم بدلاً من النقد، ولا يؤخذ منهم خنزير ولا خمر ولا ميتة. وكانت الضريبة لا تجبى إلا من الذكور القادرين ولا تجبى من النساء والصبيان[٢]؛ وكذلك كان يستثنى من أداء الجزية المسكين الذي يتصدق عليه، والشيخ الفقير الفاني الذي لا يستطيع العمل، كما أعفى الأعمى والأعرج والمريض الذي لا يرجى شفاؤه، والمغلوب على عقله إلا إذا كان من أصحاب اليسار، وكما أعفى المترهبون الذين في الديارات، وأهل الصوامع إذا كانوا يعيشون على صدقات الموسرين، أما إن كانوا قادرين على العمل أو كان لهم غنى ويسار أخذت منهم الجزية. وقد أوصى جباة الجزية أن يظهروا الشفقة بأهل الذمة بوجه خاص فلا يظلموهم ولا يؤذوهم في المعاملة ولا ينزلوا بهم عقابًا جسمانيًّا إذا لم يؤدوا الجزية[٣].

الغرض من فرض الجزية: ولم يكن الغرض من فرض هذه الضريبة على المسيحيين، كما يريدنا بعض الباحثين على الظن، لوناً من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام، وإنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش، في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين. ولما قدم أهل الحيرة المال المتفق عليه، ذكروا صراحة أنهم إنما دفعوا هذه الجزية على شريطة "أن يمنعونا وأميرهم البغي من المسلمين وغيرهم"[٤]. وكذلك حدث أن سجل خالد في المعاهدة التي أبرمها مع بعض أهالي المدن المجاورة للحيرة قوله: "فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا"[٥]. ويمكن الحكم على مدى اعتراف المسلمين الصريح بهذا الشرط من تلك الحادثة التي وقعت في حكم الخليفة عمر. لما حشد الإمبراطور هرقل جيشاً ضخماً لصد قوات المسلمين المحتلة، كان لزاماً على المسلمين نتيجة لما حدث، أن يركزوا كل نشاطهم في المعركة التي أحدقت بهم. فلما علم بذلك أبو عبيده قائد العرب، كتب إلى عمال المدن المفتوحة في الشام يأمرهم بأن يردوا عليهم ما جبى من الجزية من هذه المدن، وكتب إلى الناس يقول: "إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع. وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنا لا نقدر على ذلك. وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط، وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم". وبذلك ردت مبالغ طائلة من مال الدولة، فدعا المسيحيون بالبركة لرؤساء المسلمين وقالوا: "ردكم الله علينا ونصركم عليهم (أي على الروم)، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئًا وأخذوا كل شيء بقا لنا"[٦].

---

(١) الدرهم يساوي خمسة بنسات تقريبًا، أو ٢٣ مليمًا تقريبًا.

(٢) Bell, pp. XXV, 173.

(٣) أبو يوسف ص ٦٩- ٧١.

(٤) الطبري جـ١ ص ٢٠٥٥.

(٥) نفس المرجع ص ٢٠٥٠.

(٦) أبو يوسف ص ٨١.

على من فرضت؟ وقد فرضت الجزية كما ذكرنا على القادرين من الذكور مقابل الخدمة العسكرية التي كانوا يطالبوا بأدائها لو كانوا مسلمين، ومن الواضح أن أي جماعة مسيحية كانت تعفى من أداء هذه الضريبة إذا ما دخلت في خدمة الجيش الإسلامي. وكان الحال على هذا النحو مع قبيلة الجراجمة، وهي قبيلة مسيحية كانت تقيم بجوار أنطاكية، سالمت المسلمين وتعهدت أن تكون عونًا لهم وأن تقاتل معهم في مغازيهم، على شريطة ألا تؤخذ بالجزية، وأن تعطى نصيبها من الغنائم(١). ولما اندفعت الفتوح الإسلامية إلى شمال فارس في سنة ٢٢ هـ، أبرم مثل هذا الحلف مع إحدى القبائل التي تقيم على حدود هذه البلاد، وأعفيت من أداء الجزية مقابل الخدمة العسكرية(٢).

ونجد أمثلة شبيهة بهذه للإعفاء من الجزية في حالة المسيحيين الذين عملوا في الجيش أو الأسطول في ظل الحكم التركي. مثال ذلك ما عومل به أهل ميغاريا **Migaris** وهم جماعة من ميسيحيي ألبانيا الذين أعفوا من أداء هذه الضريبة على شريطة أن يقدموا جماعة من الرجال المسلحين لحراسة الدروب على جبال **Cithaeron** و **Geranea** التي كانت تؤدي إلى خليج كورنثة؛ وكان المسيحيون الذين استخدموا طلائع لمقدمة الجيش التركي، لإصلاح الطرق وإقامة الجسور، قد أعفوا من أداء الخراج ومنحوا هبات من الأرض معفاة من جميع الضرائب(٣)، وكذلك لم يدفع أهالي **Hydra** المسيحيون ضرائب مباشرة للسلطان، وإنما قدموا في مقابلها فرقة من مائتين وخمسين من أشداء رجال الأسطول التركي كان ينفق عليهم من بيت المال في تلك الناحية(٤).

وقد أعفي أيضًا من الضريبة أهالي رومانيا الجنوبية الذين يطلق عليهم **Armatoli**(٥). وكانوا يؤلفون عنصرًا هامًا من عناصر القوة في الجيش التركي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، ثم المرديون **Mirdites** وهم قبيلة كاثوليكية ألبانية كانت تحتل الجبال الواقعة شمالي أسكدار **Scutari**، وكان ذلك على شريطة أن يقدموا فرقة مسلحة في زمن الحرب(٦). وبتلك الروح ذاتها لم تقرر جزية الرءوس على نصارى الإغريق الذين أشرفوا على القناطر(□) التي أمدت القسطنطينية بماء الشرب(٧)، ولا على الذين كانوا في حراسة مستودعات البارود في تلك المدينة(٨) نظرًا إلى ما قدموا للدولة من خدمات. ومن جهة أخرى أعفي

---

(١) البلاذري ص ١٥٩.

(٢) الطبري جـ١ ص ٢٦٦٥.

(٣) وهو يسميهم. (Musellim) (Marsigli, vol. i., p. 86)

(٤) finlay vol. vi, pp. 30, 33.

(٥) Lazár, p. 56.

(٦) De la Jonquiére, p. 14

(□) هي نوع من القناطر تقام على أعمدة لتوصيل مياه الشرب إلى المدن وقد كانت شائعة في الدولة الرومانية منذ القرن الأول الميلادي.

(٧) Thomas Smith, p. 324.

(٨) Dorostamus, p. 326.

الفلاحون المصريون من الخدمة العسكرية على الرغم من أنهم كانوا على الإسلام وفرضت عليهم الجزية في نظير ذلك كما فرضت على المسيحيين(١).

المسيحيون في ظل الحكم الإسلامي: ولما كان المسيحيون يعيشون في مجتمعهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم ناعمين بمثل هذا التسامح الذي منحهم حرية التفكير الديني، تمتعوا، وخاصة في المدن، بحالة من الرفاهية والرخاء في الأيام الأولى من الخلافة.

وقد توسع معاوية (٦٦١- ٦٨٠م) (٤١- ٦٠هـ) في إلحاق المسيحيين بخدمته، وحذا حذوه في ذلك أفراد آخرون من البيت المالك(٢). وطالما شغل المسيحيون مناصب عالية في بلاط الخليفة، مثل الأخطل وهو عربي نصراني كان شاعرًا للبلاط، ومثل أبي القديس يوحنا الدمشقي مستشار الخليفة عبد الملك (٦٨٥- ٧٠٥م) (٦٥- ٨٦هـ).

وكان في خدمة الخليفة المتعصم (٨٣٣- ٨٤٢م) (٢١٨- ٢٢٧هـ) أخوان مسيحيان بلغا منزلة سامية عند أمير المؤمنين: أحدهم يدعى سلمويه ويظهر أنه كان يشغل منصبًا قريب الشبه من منصب الوزير في العصر الحديث، وكانت الوثائق الملكية لا تتخذ صفة التنفيذ إلا بعد توقيعه عليها، على حين عهد إلى أخيه إبراهيم بحفظ خاتم الخليفة كما عهد إليه بخزانة بيوت الأموال في البلاد، وكان المنتظر من طبيعة هذه الأموال وتصريفها أن يوكل أمر الإشراف عليها إلى رجل من المسلمين، وقد بلغ من ميل الخليفة الشديد إلى إبراهيم أنه عاده في مرضه الأخير وغمره الحزن عند وفاته، وأنه أمر في يوم تشييع جنازته بإحضار جثمانه إلى القصر حيث أقيمت له الطقوس المسيحية في خشوع مهيب(٣).

واختار عبد الملك عالمًا مسيحيّاً من مدينة الرها يدعى أثناس **Athansius** مؤدباً لأخيه عبد العزيز. وقد رافق أثناس هذا تلميذه إلى مصر عندما عين والياً عليها، وهناك جمع ثروة طائلة، قيل إنه امتلك أربعة آلاف من العبيد، كما ملك كثيرًا من الدور والبساتين. وكان الذهب والفضة عنده "كأنها الحصى"؛ وكان أولاده يأخذون من كل جندي دينارًا عندما يتسلم راتبه، ولما كان جيش مصر قد بلغ حينذاك ٣٠٠٠٠ جندي، فإنه من الممكن أن نكوّن فكرة عن الثروة التي جمعها أثناس خلال الإحدى والعشرين سنة التي قضاها في هذه البلاد(٤). وفي نهاية القرن الثامن نرى رجلاً يدعى أبا نوح الأنباري كاتب أبي موسى بن مصعب والي الموصل، قد استغل نفوذه القوى لمصلحة بنى جلدته من المسيحيين(٥).

---

(١) De Ia Jonquiére, p. 265.

(٢) Lammens, p. 13.

(٣) ابن أبي أصيبعة جـ١ ص ١٦٤.

(٤) Michael the Elder, vol. ii, p. 475.

(٥) ماري بن سليمان ص ٧١ (ص ١٦). وقد كتب أبو نوح الأنباري رداً على القرآن وكتبًا أخرى في العقائد (انظر Wright, p. 191m.3)

وفي عهد المعتضد (٨٩٢- ٩٠٢م) (٢٧٩- ٢٨٩هـ)، كان عمر بن يوسف والي الأنبار مسيحيّاً. وقد وافق الخليفة على تقليده هذه الولاية، بحجة أن النصراني في نظره أجدر بأن يستخدم إذا وجد صالحًا، إذ أن هناك أسبابًا قوية لتفضيل النصراني على غيره من اليهود أو المسلمين أو المجوس[١]. وعهد الموافق، وكان صاحب السلطان المطلق في عهد أخيه المعتمد (٨٧٠- ٨٩٢م) (٢٥٦- ٢٧٩هـ) أمر تنظيم الجيش إلى مسيحي يدعى إسرائيل، واتخذ ابنه المعتضد نصرانيًا آخر كاتباً له، وهو ملك بن الوليد. وفي عصر متأخر تولى في أيام المقتدر (٩٠٨م- ٩٣٢م) (٢٩٥هـ- ٣٢٠هـ) نصراني آخر أمر ديوان الجيش[٢].

كذلك كان نصر بن هارون مسيحيّاً، وكان كبير وزراء عضد الدولة البويهي (٩٤٩م- ٩٨٢م) (٣٧٧- ٣٧١هـ) الذي حكم العراق وجنوبي فارس[٣]. وقد ظلت دواوين الحكومة وخاصة ديوان الخراج فترة طويلة مكتظة بالمسيحيين والفرس[٤]. وظلت الحال في مصر على هذا النحو حتى زمن متأخر جدّاً، حيث كان السواد الأعظم من المسيحيين يحتكرون أمثال هذه المناصب احتكاراً يكاد يكون تامّاً[٥]. وكثيرًا ما جمع الأطباء المسيحيون بوجه خاص ثروات ضخمة، ولقوا تكريمًا كبيرًا في بيوت العظماء، فجبريل الذي اتخذه الخليفة هارون الرشيد طبيبًا خاصّاً كان مسيحيّاً نسطوريّاً بلغ إيراده السنوي ٨٠٠٠٠٠ درهم من أملاكه الخاصة فضلاً عن راتب قدره ٢٨٠٠٠٠ درهم في السنة مقابل عنايته بمعالجة الخليفة؛ وكان الطبيب الثاني وهو نصراني أيضًا يتقاضى ٢٢٠٠٠ درهم في السنة[٦]. وكان المسيحيون يجمعون أموالاً وفيرة من احترافهم الصناعة والتجارة. والواقع أن هذه الثروة هي التي طالما أثارت طمع الدهماء الذي يقوم على الحسد — وهو شعور دفع المتعصبين من المسلمين إلى انتهاز هذه الفرصة لاضطهادهم وإيقاع الظلم بهم؛ أضف إلى ذلك أن الطوائف غير الإسلامية قد تمتعت بسلطات تكاد تكون تامة. لأن الحكومة وضعت في أيديهم التصرف في شئون الداخلية تصرفًا مطلقًا، وكان رؤساؤهم الروحانيون يباشرون واجباتهم القضائية في القضايا الخاصة بأبناء دينهم فحسب[٧]. و لم يتعرض أحد لمعظم كنائسهم وأديارهم إلا في المدن الكبيرة، حيث تحول بعضها إلى مساجد — وهو تصرف كان من العسير أن يعترض عليه نظراً لتزايد عدد المسلمين الهائل وما كان يقابله من تناقص في المجتمع المسيحي.

---

(١) ماري بن سليمان ص ٨٤.

(٢) هلال الصابي ص ٩٥.

(٣) ابن الأثير جـ٩ ص ١٦.

(٤) Von Kremer (1) vol. i, pp. 167-168, Lammeas, p. 11.

(٥) Renaudot, pp. 430. 540.

(٦) Von Kremer (1) vol.ii, pp.180-1.

(٧) Von Kremer (1) vol. i, p. 183.

وقد أشار النقد التاريخي الحديث إلى استحالة الأسطورة القائلة بأنه لما استولى العرب على دمشق، قسمت الكنائس بالتساوي بين المسيحيين والفاتحين، بحجة أنه بينما كان أحد القواد المسلمين يشق طريقه إلى المدينة عنوة من الباب الشرقي، كان قائد آخر يتلقى تسليم حاكم المدينة عند الباب الغربي؛ كذلك دل اختبار طبوغرافية البناء على أن كاتدرائية القديس يوحنا الكبرى لا يمكن بحال أن تكون قد استخدمت على النحو الذي وصفه بعض مؤرخي العرب وهو أنها كانت مكانًا عامًا لعبادة المسلمين والمسيحيين على السواء[١]. ولكن مجرد اعتقاد هؤلاء المؤرخين بأن مثل هذا الإجراء قد استمر قرابة ثمانين عامًا، دليل على ما أعطى منذ وقت مبكر للمسيحيين من حرية في إقامة شعائرهم الدينية.

بناء الكنائس: ويختلف فقهاء المسلمين في هذه المسالة اختلافًا بيناً، من أكثر المذاهب تسامحًا وهو المذهب الحنفي الذي يعلن أنه على الرغم من أن بناء الكنائس ومعابد اليهود في الديار المصرية مخالف للشرع إلا أنه يمكن إصلاح ما كان قائمًا إذا ما خرب واعتراه البلى، كما يجوز بناء كنائس ومعابد يهودية جديدة في القرى والضياع التي لا تظهر فيها الشعائر الإسلامية – إلى أكثر المذاهب تشددًا وهو المذهب الحنبلي، الذي يرى أنه لا يجوز بناؤها ولا إصلاحها إذا ما تهدمت أو أصابها التلف، ورأى بعض الفقهاء أن المزايا قد اختلفت تبعًا لما منحتهم المعاهدات إياه من حقوق. ففي المدن التي أخذت عنوة لا يصح للذميين أن يقيموا فيها دورًا للعبادة، أما إذا أبرمت معاهدة تنص على ذلك فقد سمح لهم ببناء كنائس ومعابد يهودية جديدة[٢]. لكن هذه الفتاوى، ككثير من بحوث الفقهاء المسلمين، كانت صلتها ضعيفة بالحقائق الواقعية[٣]. فربما اتفق أصحاب المذاهب على أن الذميين لا يسمح لهم أن يبنوا دورًا للعبادة في المدن التي أسسها المسلمون، ولكن السلطة المدنية أباحت للقبط أن يبنوا كنائس في القاهرة، العاصمة الجديدة[٤]، كما سمح للمسيحيين أن يؤسسوا في المدن الأخرى كنائس وأديارًا جديدة. وإن مجرد ما يقال من أن عمر الثاني (٧١٧- ٧٢٠م) (٩٩- ١٠١هـ) قد أمر في نهاية القرن الأول للهجرة بهدم كل الكنائس[٥] التي استحدثت، وأنه بعد أكثر من قرن أعاد المتوكل (٨٤٧- ٨٦١م) (٢٣٢- ٢٤٧هـ) الذي اشتهر بتعصبه الديني نفس هذا الأمر، ليوضح كيف أن تحريم بناء كنائس جديدة قلمًا كان يوضع موضع التنفيذ[٦]. ولدينا أمثلة دوّنها عن بناء كنائس محدثة مؤرخون من

---

(١) Caetani, vol, iii. Pp. 350 sq, 387 sqq.

(٢) Gótheil, pp. 360-1. Goldziher: Zur Literatur des Ichtilaf al Madahib. ZDMG., vol. 38 pp. 673-4.

(٣) كتب Snouck Hurgronjeعن هذا الطابع النظري الذي اتسم به كثير جداً من كتب الفقه الإسلامي وذلك في بحثه: Mohammedanisches Recht in Theorie und Wirklichkeil.

(٤) Gottheil. P. 363.

(٥) Gotteil, pp. 358-9. ومع ذلك يشك هذا المؤرخ في ما إذا كان هناك شاهد من الشواهد التي تعزو هذا التعصب إلى عمر الثاني

(٦) Ournal Asiatique, IVme série, tome xviii, (1851) pp. 433, 450. والطبري جـ٣ ص ١٤١٩.

المسيحيين والمسلمين على السواء: مثال ذلك أن أحد النصارى من ذوي اليسار في مدينة الرها يدعى أثناس قد بنى في عهد عبد الملك (٦٨٥م- ٧٠٥م) (٦٥- ٨٦هـ) كنيسة جميلة وقفها على السيدة مريم، كما أقام بناء للتعميد تكريمًا لصورة المسيح التي كان إرسالها إلى الملك أبجر أمرًا مشهورًا في ذلك الحين؛ وكذلك بنى عدد من الكنائس والأديار في جهات كثيرة من مصر من بينها كنيستان عظيمتان في الفسطاط[١]. وقد طلب بعض الفراشين[□] من النصارى الذين كانوا في خدمة عبد العزيز بن مروان (أخي عبد الملك) والي مصر أن يأذن لهم ببناء كنيسة في حلوان، وقفت على القديس يوحنا[٢]، مع أن هذه المدينة من المدن التي أسسها المسلمون. وفي سنة ٧١١م (٩٢م) بنيت كنيسة يعقوبية بإذن من الخليفة الوليد (٧٠٥- ٧١٥م)، (٨٦-٩٦هـ)[٣]. وفي السنة الأولى من حكم يزيد الثاني (٧٢٠م) (١٠١هـ) دخل أنطاكية مار إلياس **Mar Elias** بطريق أنطاكية اليعقوبي تحفه الهيبة والوقار، ويصحبه رجال الكنيسة والرهبان، ليبارك كنيسة جديدة كان يرجع إليه السبب في بنائها؛ وفي السنة التالية بارك كنيسة أخرى في قرية "سرمده" من أعمال أنطاكية. وكانت المعارضة الوحيدة التي لقيها، من ناحية الطائفة المسيحية المنافسة التي قبلت قرارات مجمع خلقيدونية[٤]. وفي العهد التالي بنى خالد القسري الذي كان واليًا على العراقيين العربي والعجمي من (٧٢٤م- ٧٣٨م) (١٠٥- ١٢٠هـ) كنيسة لأمه النصرانية تتعبد فيها[٥]. وفي سنة ٧٥٩م تم بناء كنيسة في نصبين، أنفق عليها الأسقف النسطورى سايبريان **Cyprian** ستة وخمسين ألف دينار[٦]، وإلى هذا القرن نفسه[٧] يرجع تاريخ كنيسة أبي سرجه في الحصن الروماني القديم بمصر القديمة. وفي حكم المهدي (٧٧٥- ٧٨٥م) (١٥٨-١٦٩هـ) بنيت ببغداد كنيسة للمسيحيين الذين كانوا قد أسروا خلال الحملات الكثيرة التي وجهت لبلاد الدولة البيزنطية[٨]. وبنى أهل سمالو كنيسة أخرى في هذه المدينة نفسها في عهد هارون الرشيد (٧٨٦- ٨٠٩م) (١٧٠- ١٩٣هـ)، وكانوا قد أذعنوا لطاعة هذا الخليفة وأخذوا منه الأمان[٩]؛ وفي عهد هذا الخليفة نفسه تلقى سرجيس **Sergius** مطران البصرة النسطوري إذناً ببناء كنيسة في البصرة[١٠]، مع أن هذه المدينة قد أسسها المسلمون

---

(١) Michael the Elder, vol, ii.p. 476. Renaudot, p. 189.

(□) هي كنيسة مارجرجس وكانت تسمى كنيسة الفراشين (راجع سعيد بن البطريق جـ٢ ص ٢٤١).

(٢) سعيد بن البطريق جـ٢ ص ٤١ (ويقول سويرس، ص ١٣٩) إنها "كنيستان".

(٣) Von Kremer (1) vol. ii. Pp. 175.

(٤) Michael the Elder, vol. ii. Pp. 400, 401.

(٥) ابن خلكان جـ١ ص ٤٨٥.

(٦) Elais of Nisibi p. 128.

(٧) A. J. Butler: The Ancient Coptic Churches of Egypt. Vol. i, p. 181, (Oxford, 1884).

(٨) ياقوت جـ2 ص ٦٦٢.

(٩) ياقوت جـ ٢ ص ٦٧٠.

(١٠) مارى بن سليمان ص ٧٣.

في عهد الخليفة عمر سنة ٦٣٨م (١٧هـ). وبنيت في بابليون كنيسة فخمة تضم جثماني النبيين دانيال وحزقيال[١]. ولما جاء المأمون مصر (٨١٣- ٨٣٣) (١٩٨- ٢١٨هـ) أذن لاثنين من فراشيه النصارى ببناء كنيسة على جبل المقطم[□] القريب من القاهرة، كما سمح هذا الخليفة لأحد ذوي اليسار من المسيحيين ويدعى بكام ببناء عدة كنائس حسان ببلدة بورة في مصر[٢]. وقد شيد البطريق النسطوري طيماثاوس **Timatheus** المتوفي سنة ٨٢٠م كنيسة في تكريت وديراً في بغداد[٣]. وفي القرن العاشر، بنيت في الفسطاط كنيسة أبي سيفين القبطية الجميلة[٤]، كما بنيت في جدة كنيسة جديدة في عهد الظاهر سابع الخلفاء الفاطميين في مصر (١٠٢٠- ١٠٣٥م) (٤١١- ٤٢٧هـ)[٥]. وشيدت في عهد الخليفة العباسي المستضئ(١١٧٠- ١١٨٠م)[٦] (٥٦٦- ٥٨٥هـ) كنائس وأديار جديدة. وفي سنة ١١٧٨ بنيت كنيسة في الفسطاط وُقِفت على السيدة العذراء الطاهرة[٧].

نهضة الكنيسة النسطورية: والواقع أنه منذ أن عرقل قيام الحكم الإسلامي تقدم الكنيسة المسيحية يكشف تاريخ النساطرة عن نهضة رائعة في الحياة الدينية وعن نواحي نشاطها منذ أن صاروا رعية للمسلمين[٨]. وكان أكاسرة الفرس يدللون هذه الطائفة تارة ويضطهدونها تارة أخرى، إذ كان السواد الأعظم من أفرادها يقيمون في ولايات هؤلاء الأكاسرة، بل مروا بحياة أشد من هذه خطورة وخضعوا لمعاملة خشنة قاسية حين جعلتهم الحرب بين فارس وبيزنطة عرضة لشك الفرس فيهم بأنهم كانوا يمالئون أعداءهم من المسيحيين. ولكن الأمن الذي نعموا به في بلادهم في عهد الخلفاء، قد مكنهم من أن يسيروا قدماً في سبيل أعمالهم التبشيرية في الخارج، فأرسلوا البعوث الدينية إلى الصين والهند، وارتقى كل منها إلى مرتبة المطرانية في

---

(١) Ishok of romgia, p. 266.

(□) وهي كنيسة مرتمريم التي في القنطرة وهي المعروفة اليوم بكنيسة الروم وكانت تسمى كنيسة الفراشين (سعيد بن البطريق جـ٢ ص ٥٨).

(٢) سعيد بن البطريق ج ٢ ص ٥٨.

(٣) Von Kremer (1) vol. ii., pp. 175- 6.

(٤) Butier: Ancient Cobtic Churches of Egypt, vol. i, p. 76.

(٥) Renaudot, p. 399.

(٦) Ishok of Romgla, pp. 333.

(٧) أبو صالح ص ٩٢.

(٨) وقد زار راهب دومينيقاني من فلورنسة، يدعى Ricoldus de Monte Crucis بلاد الشرق حول نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر وتحدث عن روح التسامح التي تمتع بها النساطرة إلى عصره في ظل الحكم الإسلامي فقال: "قرأت في التاريخ القديم وفي مؤلفات للعرب موثوق بها أن النساطرة أنفسهم كانوا أصدقاء لمحمد وحلفاء له، وأن محمداً نفسه قد أوصى خلفاءه أن يحرصوا على صداقتهم مع النساطرة التي يرعاها العرب أنفسهم حتى ذلك اليوم بشيء من العناية" (Lanrent, p. 128).

القرن الثامن الميلادي. وفي العصر نفسه تقريبًا رسخت أقدامهم في مصر، ثم أشاعوا فيما بعد العقيدة المسيحية في آسيا، حتى إذا جاء القرن الحادي عشر، كانوا قد جذبوا عددًا كبيرًا ممن اعتنقوا المسيحية من بين التتار(١).

وإذا كانت الطوائف المسيحية الأخرى قد أخفقت في إظهار مثل هذا النشاط القوي فليس هذا الإخفاق خطأ المسلمين؛ إذ كانت الحكومة المركزية العليا تتسامح مع جميعهم على سواء، وكانت فضلاً عن ذلك تصدهم عن أن يضطهد بعضهم بعضًا(٢). وفي القرن الخامس أغرى برصومًا، وهو أسقف نسطوري، ملك الفرس بأن يدبر اضطهادًا عنيفًا للكنيسة الأرثوذكسية، وذلك بإظهار نسطور بمظهر الصديق للفرس، وإظهار مبادئه بأنها أكثر ميلاً إلى مبادئهم، ويقال إن عددًا يبلغ ٧٨٠٠ من رجال الكنيسة الأرثوذكسية، مع عدد ضخم من العلمانيين، قد ذبحوا في هذا الاضطهاد(٣). وقام خسرو الثاني باضطهاد آخر للأرثوذكس، بعد أن غزا هرقل بلاد فارس، وذلك بتحريض أحد اليعاقبة الذي أقنع الملك بأن الأرثوذكس سوف يظهرون بمظهر العطف والميل إلى البيزنطيين(٤)، ولكن مبادئ التسامح الإسلامي حرّمت مثل هذه الأعمال التي تنطوي على الظلم؛ بل كان المسلمون على خلاف غيرهم، إذ يظهر لنا أنهم لم يألوا جهدًا في أن يعاملوا كل رعاياهم من المسيحيين بالعدل والقسطاس. مثال ذلك أنه بعد فتح مصر، استغل اليعاقبة فرصة إقصاء السلطات البيزنطية، ليسلبوا الأرثوذكس كنائسهم، ولكن المسلمين أعادوها أخيرًا إلى أصحابها الشرعيين، بعد أن دل الأرثوذكس على ملكيتهم لها(٥).

أسباب تحول المسيحيين إلى الإسلام: وإذا نظرنا إلى التسامح الذي امتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي، ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق. ومن ثم لم يكن بد من أن نتلمس بواعث أخرى غير ذلك الباعث الذي أوحى بالاضطهاد. ولكن مما يؤسف له، أنا لا نملك إلا أخبارًا قليلة، ومن ثم نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نلجأ إلى الحدس والتخمين(٦). ويرجع وجود بعض المفكرين الذين هيأتهم اتجاهاتهم الفكرية لقبول مواقف

---

(١) J. Labourt: De Timotheo 1, Nestorianorum Patriarcha, p. 37 sqq. (Paris, 1904).

(٢) E. von Dobschütz, pp. 390-1.

(٣) Michael the Elder, vol. ii., pp. 439- 40.

(٤) المكين ص ١٢ وراجع: J. Labourt: Le Christianisme sous la dynastie sassanide, p. 139 sq. (Paris, 1904).

(٥) Renaudot, p. 169.

(٦) وقد أجاد فون كريمر في هذه الملاحظة: "إننا مدينون فيما نعرفه عن التاريخ السياسي والحربي الذي يتعلق بتلك العصور لما بذله مؤرخو العرب من اجتهاد لا يعرف الكلل في جمعهم للأخبار، وإن بيننا وبين ذلك التاريخ اثني عشر قرنًا، لهذا تتناسب الدقة فيه مع طول هذه الشقة.على أن التاريخ الداخلي لتلك الفترة العامة، وكذلك تاريخ الكفاح بين الدين الجديد البسيط وبين الديانات القديمة التي تكونت فيها المذاهب إلى حد التعقيد، لا نكاد نعرف منه شيئًا إلا في أعم حدوده"..(Von Kremer (2), pp. 1-2)

المسلمين حيالهم في عصر كهذا العصر حافل بالتأمل الديني. وكان من هذا النوع أولئك الشهريغان أو ملاك الأراضي في فارس في القرن الثامن الميلادي وكانوا مسيحيين اسمًا، ولكنهم اعتقدوا أن المسيح لم يكن إلا رجلاً عاديًا وأنه كسائر الأنبياء[١]. ويظهر أنهم كانوا يثيرون من حين إلى حين متاعب كثيرة لرجال الدين من النساطرة الذين كانوا يلاقون عنتًا شديدًا لإدخالهم في مسالك الأرثوذكسية[٢]، ولكن موقفهم الديني كان أشد صلة بالإسلام منه بالعقيدة المسيحية. ويحتمل أنهم أقبلوا على الإسلام فزادوا في صفوف الذين تحولوا إلى ذلك الدين بعد أن فتح العرب بلاد الدولة الفارسية.

ويزعم كثير من علماء اللاهوت المسيحيين[٣]. أن حالة الكنيسة الشرقية التي تدهورت في ذلك الوقت —من الناحيتين الخلقية والروحية– لابد أن تكون قد دفعت كثيرين إلى أن يلتمسوا جوًا روحيًا أسلم وأصح في ذلك الدين الإسلامي الذي جاءهم وهو في أشد ما تكون الحماسة الغضة قوة وعنفًا[٤]. وعلى سبيل المثال، يتساءل ملمان **Dean Milman**[٥]: "ماذا كانت حال العالم المسيحي في الأقاليم التي تعرضت لأولى غزوات الإسلام؟ كانت الأحزاب الدينية يناوئ بعضها بعضًا، ورجال الكنيسة يتنازعون فيما بينهم على أشد مسائل الدين إبهامًا وأكثرها غموضًا، فيما يتعلق بما وراء الطبيعة في العقيدة الدينية. والأرثوذكس والنساطرة وأتباع أوطيخوس واليعاقبة يضطهد بعضهم بعضًا، وقد استحكمت بينهم العداوة التي لا تفتر ولا تنقطع؛ ولا نكون مبالغين في الحكم على مساوئ الجدل الديني إذا افترضنا أن كثيرين ربما فرحوا بوقوع خصومهم في إسار الكفار، إذ كان هذا أفضل عندهم من أن يجمع بينهم هدف مشترك في سبيل الدفاع عن المسيحية التي تربط بينهم. فكم من أناس لابد أن يكون هذا الجدل المستمر قد زعزع أسس عقيدتهم! وكم كان يكون غريبًا لو أن هؤلاء الآلاف من الناس لم يلتمسوا، وهم في ضجرهم وحيرتهم، ملجأ من هذه المجادلات التي لا تنتهي عند حد ولا تعرف اللين والتسامح، في تلك الحقيقة البسيطة الواضحة، حقيقة الوحدانية مهما طولبوا بالاعتراف ببعثة محمد ونبوته". وشبيه بهذا ما يراه كيتاني **Caetani** من أن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية التي جلبتها الروح الهلينية إلى اللاهوت المسيحي. أما الشرق الذي عرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة فقد كانت الثقافة الهلينية وبالاً عليه من الوجهة الدينية، لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة، مليئة بالشكوك

---

(١) Thomas of Marga, vol. ii., p. 309-sq.

(٢) Thomas of Marga, vol. ii., p. 310-sq.

(٣) وبالإضافة إلى ما نقلناه هنا من نصوص، انظر ما كتبه ماكلينتوش Mclintoch وسترنج Strong تحت مادة Mohammedanism، جـ ٦ص ٤٢٠. وراجع : James Freeman Clarke The great Religions, Part ii, p. 75. (London, 1883).

(٤) ومن ثم عبر المؤرخ المسلم على لسان الإمبراطور هرقل بقوله: "إن دينهم دين جديد يجدد لهم ثبارهم". (طبري ١: ٢١٠٣).

(٥) History of Latin Christianity, vol. ii., pp. 216-17.

والشبهات؛ فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها فلما أهلَّت آخر الأمـــر أنباء الوحي الجديد فجأة من الصحراء لم تعد تلك المسيحية الشرقية التي اختلطت بالغش والزيف وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية، وتزعزعت قواعدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب، لم تعد المسيحية بعد تلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذي بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة، وقدم مزايا مادية جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل. وحينئذ ترك الشـــرق المسيح وارتمى في أحضان نبي بلاد العرب(١).

أضف إلى هذا قول تايلور **Canon Taylor**(٢) "إنه من اليسير أن ندرك لماذا انتشرت تلـــك اليهوديـــة المهذبة بهذه السرعة في إفريقية وآسيا. كان أئمة اللاهوت في إفريقية والشام قد استبدلوا بديانة المسيح عقائـــد ميتافيزيقية عويصة: ذلك أنهم حاولوا أن يحاربوا ما ساد هذا العصر من فساد بتوضيح فضل العزوبة في السماء وسمو البكورية إلى مرتبة الملائكة —فكان اعتزال العالم هو الطريق إلى القداسة، والقذارة صفة لطهارة الرهبنة– وكان الناس في الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة؛ كما كانت الطبقـــات العليـــا مخنثة يشيع فيها الفساد، والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب(٣)، ولم يكن للعبيـــد أمـــل في حاضـــرهم ولا مستقبلهم. فأزال الإسلام، بعون من الله، هذه المجموعة من الفساد والخرافات؛ لقد كان ثورة على المجادلـــة الجوفاء في العقيدة وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية باعتبارها رأس التقوى. ولقد بين أصول الدين التي تقـــول بوحدانية الله وعظمته، كما بين أن الله رحيم عادل يدعو الناس إلى الامتثال لأمره والإيمان به وتفويض الأمـــر إليه. وأعلن أن المرء مسئول، وأن هناك حياة آخرة ويومًا للحساب، وأعد للأشرار عقابًا أليماً؛ وفرض الصلاة والزكاة والصوم وفعل الخير؛ ونبذ الفضائل الكاذبة والدجل الديني والترهات والنزعـــات الأخلاقيـــة الضـــالة وسفسطة المتنازعين في الدين، وأحل الشجاعة محل الرهبنة؛ ومنح العبد رجاء، والإنسانية إخاء، ووهب الناس إدراكًا للحقائق الأساسية، التي تقوم عليها الطبيعة البشرية".

الثورة على النظام الكنسي البيزنطي: أضف إلى ذلك أن الإسلام قد نظر إليه بعض الباحثين على أنـــه رد فعل ضد النظام الكنسي البيزنطي(٤) الذي كان يمثل الإمبراطور ورجال بلاطه صورة من الجلالة الإلهيـــة في

---

(١) Caetani, vol. ii, pp. 1045-6.

(٢) A paper read before the Church Congress at Wolverhampton, October 7th, 1887.

(٣) انظر ما كتب عن النظام المالي المجحف في ظل الدولة البيزنطية وذلك في:
Gfrörer: Byzantinische. Geschichten, vol, ii, pp. 337-9, 389, 450.

(٤) "وكان الإسلام عبارة عن رد فعل ضد ما أظهره جستنيان من سوء التصرف نحو الإنسانية وخاصة الديانة المسيحية التي كان يزعم جستنيان أنه رئيسها الأعلى الروحي والدنيوي. ويرجع الفضل إلى حد كبير فيما أصـــابه محمـــد العربي الذي ولد عام ٥٧١م أي بعد وفاة جستنيان بست سنوات من نجاح منقطع النظير في دعوته إلى ذلك النفور الذي أحست به الأمم التي كانت تقيم في داخل حدود الدولة البيزنطية وفيما جاورها من الأمم بسبب الفظائع التـــي ارتكبها باسيليوس" Gfrörer: Byzantinische. Geschichten, vol, ii, p. 437.

الأعالي، وينظر إلى الإمبراطور نفسه لا على أنه الحاكم الدنيوي الأعظم فحسب، بل على أنه الكاهن الأكبر كذلك[١]. وفي عهد (جستنيان **Justinian**) نرى هذا النظام يزداد تعسفًا حتى يستحيل استبداد يجثم بأثقاله الحديدية على رجال الكنيسة والعامة على السواء.

وفي سنة ٥٣٢م انفجر السخط، الذي كان سائدًا في القسطنطينية، على الكنيسة والدولة معًا، وتحول ثورة على حكومة جستنيان لم تقمع إلا بعد أن ذبح خمسة وثلاثون ألف شخص. أما حزب الجرين **Greens** الذي كان اسمه يطلق على جماعة المتذمرين، فقد وضعوا في ناديهم احتجاجًا قويّاً صريحًا على اضطهاد الإمبراطور، ونادوا قائلين: "لقد فقد العدل من الدنيا ولن يكون مرة أخرى. ولكنا سنتهود، بل سوف نعود إلى عبادة الوثنية الإغريقية"[٢]. ولم يمح مرور قرن من الزمان شيئًا من بواعث السخط الذي تجلى في هذا المقام في مثل ذلك التعبير القوي، إلا أن يد الحكومة البيزنطية الغاشمة قد حالت دون اندلاع ثورة كتلك الثورة التي حدثت سنة ٥٢٣م، وأرغمت المتذمرين على التفرق. ومع ذلك انكشف في القسطنطينية في سنة ٥٣٠م أمر جماعة وثنية متسترة فأنزل بهم العقاب[٣]. بيد أن أمثال هؤلاء المتذمرين الذين كانوا يقيمون في أطراف الإمبراطورية؛ بمنأى عن العاصمة، كانوا أكثر طمأنينة، وقد اتخذ الهراطقة الذين اضطهدهم الحكومة وغيرهم من الساخطين على كنيسة الدولة البيزنطية من الشرق ملجأ يلجئون إليه، وهنا لابد أن تكون جيوش المسلمين قد لقيت ترحيبًا من أبناء هؤلاء الروحانيين الذين كانوا قد رغبوا قبل ذلك الحين بمائة سنة في أن يستبدلوا بالدين المسيحي عقيدة أخرى.

أضف إلى ذلك أيضًا أنه كان لتعميم استعمال اللغة العربية في كافة أرجاء البلاد الخاضعة للخلافة الإسلامية، وبخاصة المدن والمراكز الكبرى الآهلة بالسكان، كما كان كذلك للتماثل الذي تم تدريجيًا في الأخلاق والعادات، والذي أدى في خلال ما يقرب من قرنين إلى اندماج الأجناس المغلوبة على اختلافها اندماجًا قويّاً في الحياة القومية التي كان يحياها العنصر العربي الحاكم – كان لهذا كله من غير شك صدى في الحياة الدينية والفكرية لدى كثيرين من أفراد الديانات التي دخلت في حماية العرب الفاتحين. ومن المحتمل جدّاً أن تكون الحركة الفكرية التي أثرت في العقيدة الإسلامية تأثيرًا بالغًا، ابتداء من القرن الثاني حتى القرن الخامس للهجرة، قد أثرت في المفكرين المسيحيين وصرفتهم عن ديانة كانت روح عقيدتها السائدة تلوح في ذلك الوقت أنها عقيدة مستحيلة من الناحية العملية. وقد حفظ لنا أحد كتاب المسلمين الذين عاشوا في القرن الرابع الهجري حديثًا مع أحد الأقباط نستطيع أن نعتبره في شيء من الاطمئنان مظهرًا للاتجاه العقلي العام عند سائر الكنائس الشرقية في تلك الفترة: "دليل على صحتها (صحة الديانة المسيحية) وجودي إياها متناقضة متنافية. تدفعها العقول وتنفر منها النفوس، لتباينها وتضادها. لا نظر يقويها، ولا جدل يصححها، ولا برهان يعضدها

---

(١) Id, vol. ii, pp. 269-309, 337.

(٢) Id. vol, ii, pp. 442-4.

(٣) Id, vol. ii, pp 445.

من العقل والحس عند التأمل لها والفحص عنها. ورأيت مع ذلك أمماً كثيرة وملوكًا عظيمة ذوي معرفة وحسن رأي قد انقادوا إليها وتدينوا بها، فعلمت أنهم لم يقبلوها ولا تدينوا بها مع ما ذكرت من تناقضها في العقل إلا لدلائل شاهدوها وآيات علموها ومعجزات عرفوها أوجبت انقيادهم إليها"[1].

تأثير فكرة إنكار الوحي والأخذ بالعقل وحده: هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى ينبغي أن نذكر أن هؤلاء الذين تحولوا من المسيحية إلى الإسلام تحت تأثير الاتجاهات العقلية التي سادت ذلك العصر قد وجدوا في الآراء الدينية عند المعتزلة كثيرًا من المبادئ التي كانت مشتركة بين العقيدتين، حتى إنه بقدر ما كان لأصول العقيدة والاتجاه العقلي نحو كثير من المسائل الدينية من علاقة، فإننا نرى أن هذا التحول لم يبلغ من الشدة الحد الذي يظنه بعض الباحثين. وإذا ضربنا صفحًا عن ذكر تلك المبادئ الأساسية المتعددة التي تتبادر حتى إلى أذهان هؤلاء الذين لا يعرفون عن تعاليم النبي إلا الترر اليسير، كانت هنالك وجهات نظر أخرى كثيرة مشتركة بين الديانتين، كانت نتيجة مباشرة للصلات الوثيقة التي قامت بين رجال الدين من المسيحيين والمسلمين في دمشق في عهد الخلفاء الأمويين، كما قامت أيضًا هذه الصلات في أزمات متأخرة، إذ ثبت أن هناك شواهد بينة تدل على ما كان لعلماء اللاهوت البيزنطيين من أثر في تقدم البحث في المذاهب الإسلامية بصورة منظمة. وإن أقدم أحكام الدين التي وضعت باللغة العربية لتوحي إلينا صيغتها وترتيبها بالشبه بينها وبين الرسائل المماثلة لها، التي كتبها القديس يوحنا الدمشقي وغيره من الآباء المسيحيين[2]. وقد نشأ أقدم أنواع التصوف العربي الذي كان متجهًا اتجاهًا خالصًا نحو حياة التقشف (كما كان يتميز عن التصوف الحلولي الذي جاء فيما بعد)، نشأ هذا النوع بتأثير الأفكار المسيحية إلى حد بعيد[3]. ويمكن أن نتتبع هذا التأثير في عقائد بعض فرق المعتزلة[4] بوجه خاص، الذين شغلوا أنفسهم في الجدل في صفات الطبيعة الإلهية. كما كان يفعل علماء اللاهوت البيزنطيون تمامًا. فمن المحتمل أن تكون القدرية أو القائلون بالإرادة الحرة من المسلمين قد استعاروا نظريتهم في حرية الإرادة من المسيحية مباشرة، كما نجد المرجئة، في إنكارها لنظرية العقاب الأبدي تتفق تمام الاتفاق مع الكنيسة في هذا الموضوع، وهو رأي يناقض الرأي الذي أجمع عليه أهل السنة من المسلمين[5]. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الأئمة الذين كانوا أكثر تحمسًا للعقائد السنية في الإسلام كان لهم تأثير في تحول الكفار إلى هذا الدين؛ ويستدل على ذلك بالرواية القائلة بأن عشرين ألف مسيحي ويهودي ومجوسي أسلموا يوم مات الإمام الأكبر أحمد بن حنبل. وقد ذكر أن أبا الفرج ابن الجوزي (١١١٥-

---

(١) المسعودي جـ٢ ص ٣٨٧.

(٢) Von Kremer(2), p. 8.

(٣) Id. P. 54 and (3). P. 32 Nicholson, p. 231.

(٤) ويقال إن محمد بن الهذيل مؤدب المأمون وأحد فلاسفة المعتزلة قد حول إلى الإسلام ما يزيد على ثلاثة آلاف شخص. (أحمد بن يحيى المرتضى ص ٢٦).

(٥) Von Kremer(2), p.3, 7-8. C. H. Becker: Christlich Polemik and islamische Dogmenbildung (Zeitschrift für Assyrioloqie, XXVI. 1912).

١٢٠١م) الفقيه السني المشهور الذي كان أعلم أهل زمانه وواعظًا معروفًا وكاتبًا من أسبق الكتاب، أنه كان يفخر بأن مثل هذا العدد من الناس قد دخل في الإسلام على يديه[١].

طابع السيادة في الحضارة الإسلامية: أضف إلى ذلك أن ما أحرزته سيوف المسلمين من نجاح واسع النطاق، منقطع النظير، وقد زعزع عقيدة الشعوب المسيحية التي أصبحت تحت حكمهم، ورأت أن هذه الفتوح قد تمت بعون من الله[٢]، وأن المسلمين قد جمعوا بين النعيم في الدنيا وبين التوفيق الإلهي، وأن إله الحرب (كما زعموا) لم يجعل النصر إلا في أيدي عباده المختارين. وهكذا ظهر نجاح المسلمين دليلاً على صدق دينهم.

كان المثل الأعلى الذين يهدف إلى إخوة المؤمنين كافة في الإسلام من العوامل القوية التي جذبت الناس بقوة نحو هذه العقيدة، ومع أن اعتداد العرب بنسبهم قد عمل مدة أجيال كثيرة على ألا ينال المسلمون المحدثون تلك المزايا التي كان يتمتع بها الجنس الحاكم، فإنهم قد حصلوا على مكانة مرموقة في المجتمع، وهم لا يزالون موالي للقبائل العربية المختلفة، التي كانوا قد تعودوا بادئ الأمر أن ينضووا تحت لوائها، وفي نهاية القرن الهجري الأول حققوا لهذا المثل الأعلى مكانه الصادق من العقيدة الإسلامية، كما حققوا له في الدولة اعترافًا نظريّاً على أقل تقدير[٣].

الاضطهادات التي عاناها المسيحيون: ولكن حال المسيحيين لم تكن دائمًا قائمة على هذا التسامح الذي كان في عهد خلفاء صدر الإسلام. فقد كانت تفرض أحيانًا، في سبيل خدمة المؤمنين المخلصين بعض الحالات التي تضايق الأهالي من غير المسلمين (أو أهل الذمة) بحجة ضمان المزايا الاجتماعية السامية للمؤمنين. وقد قام بعض الخلفاء بمحاولات غير مجدية لإقصائهم عن الوظائف العامة. وأصدر المنصور (٧٥٤- ٧٧٥)، والمتوكل (٨٤٧- ٨٦١م) والمقتدر (٩٠٨- ٩٣٢م) والآمر (١١٠١- ١١٣٠م) وهو أحد الخلفاء الفاطميين في مصر، مراسيم بهذا الصدد، وصدر مثل هذه المراسم في عهد سلاطين المماليك في القرن الرابع عشر الميلادي[٤]. ولكن مجرد تجديد هذه المراسيم الخاصة بإقصاء الذميين من الوظائف الحكومية دليل على أن مثل هذه الأساليب التي تنطوي على التعصب لم تكن توضع موضع التنفيذ دائمًا. والحق أنه يمكن أن تكون هذه

---

(١) Wüstenfeld, p. 103.

(٢) Michael the Elder. vol. ii. pp. 412-13. Caetani, vol. V, p. 508. " إن ما أحرزه العرب من انتصارات على اليونان والفرس لم يكن انتصاراً للعرب على شعوب الأقاليم المغلوبة على أميرها وحدها، وأنما كان، كما تمثل في أذهن الشرقيين الذين يرون يد الله في كل حادث، انتصاراً لمبدأ الإسلام على المسيحية بنوع خاص".

(٣) Goldziher. Vol. i., chaps 3, 4.

(٤) وقد أثار آخر هؤلاء السلاطين ما اكتشفه من أمر محاولة المسيحيين إحراق مدينة القاهرة.
(De Guignes. vol. iv, pp. 204-5) Gottheil, p. 359, Journal Asiatique. Vme série, touie xviii (1851); pp. 455, 463, 484, 491.

المراسيم راجعة بوجه عام إما إلى سخط شائع أثاره السلوك الخشن المتعجرف، الذي يسلكه الموظفون المسيحيون[١]، أو إلى سورات من التعصب حملت الحكومة على القيام بأعمال من التعسف تتنافى مع الروح العامة التي ظهر بها الحكم الإسلامي. ولكن مصير هذه الأعمال التعسفية قد آل إلى الزوال في أسرع وقت.

وتبدأ معاملة الأهلين من المسيحيين بصورة أشد عنفًا منذ عهد هارون الرشيد (٨٧٦- ٨٠٩م) (١٧٠- ١٩٣هـ) الذي أمرهم بأن يلبسوا لباسًا يميزهم عن غيرهم وأن يتخلوا للمسلمين عن المناصب. ويدلنا أول هذه المراسيم على أنه قلما روعي عهد واحد على الأقل من تلك العهود التي نسبت إلى الخليفة عمر، وأن هذه المراسيم لم تكن إلى حد كبير أثرًا لشعور ديني بحت بقدر ما كانت أثرًا للظروف السياسية التي سادت هذا العصر. وطالما تجشم المسيحيون في ظل الحكم الإسلامي المتاعب بسبب ما أضمره الغرباء من الحكام المسيحيين من سوء الظن في العقيدة الإسلامية، كما ظهر ذلك في علاقاتهم بأمراء المسلمين. وهذه الحالة تفسر لنا ما ارتكبه الإمبراطور البيزنطي نقفور **Nicephorus** من غدر وجعلت اسم المسيحي مبغضًا إلى هارون الرشيد[٢]. ويمكن أن نرجع كثيرًا من اضطهادات المسيحيين في البلاد الإسلامية إما إلى الشك في ولائهم الذي كانت تثيره دسائس المسيحيين الغرباء وأعداء الإسلام وتدخلهم في شئونهم، أو إلى الشعور السيئ، الذي أثاره ذلك المسلك القائم على الخيانة والقسوة، الذي ظهر به هؤلاء الأجانب نحو المسلمين على أن التعصب الديني مسئول عن كثير من أمثال هذه الاضطهادات، كما حدث في عهد الخليفة المتوكل (٨٤٧- ٨٦١م) (٢٣٢- ٢٤٧هـ) الذي اتخذ نحو المسيحيين إجراءات شديدة من التعسف. فقد استغل هذا الخليفة ما كان قد حدث في العقيدة الإسلامية من رد فعل قوي للحركات العنيفة التي شنها أهل السنة على النزعات التي قامت على التعقل والتفكير الحر، والتي كانت قد وجدت مرعى خصيبًا في عهد من سبقهم من الخلفاء — وتقدم باعتباره بطل جماعة المتزمتين من أهل السنة الذين كان السواد الأعظم من الناس ينتمون إليهم على حين كانت الطبقات العليا[٣] تختلف معها في الرأي، والذين كانوا متعطشين للانتقام لتلك الاضطهادات التي كانوا هم قد تعرضوا لها في عهد المعتصم والواثق من قبل[٤]، فأخذ يخطب ودهم عن طريق اضطهاد المعتزلة، وتحريم كل جدل في القرآن وأعلن أن القول بخلق القرآن رأي خارج على الدين، كما أمر بحبس شيعة عليّ وضربهم، ونبش قبر الحسين بكربلاء ومنع زيارة مشهده. وساهم المسيحيون بنصيب في المحن التي تعرض لها سائر الخارجين على الدين، إذ تشدد المتوكل في تنفيذ القوانين التي كانت قد صدرت في عهد من سبقه من الخلفاء، وميز بين أهل الذمة والمسلمين في الملبس، ومنع استخدام المسيحيين في المناصب العامة، وضاعف ضريبة الرأس،

---

(١) Assemaui, tom, iii. Pars 2, p.c. Renaudot, pp. 432, 603, 607.

(٢) Muir: The Caliphate, p. 475.

(٣) Von Kermer (3), p. 246.

(٤) Muir: (1), pp. 508, 516-17.

وحرم على المسيحيين أن يقتنوا أرقاء من المسلمين، أو يستخدموا الحمامات التي يستخدمها المسلمون، وضايقهم بما وضعه من قيود أخرى كثيرة.

ومما هو جدير بالملاحظة أن مؤرخي الكنيسة النسطورية —التي لم يكن بد من أن تقاسي الكثير من هذا الاضطهاد– يعدونه أمرًا حديث العهد انفرد به المتوكل وانتهى بوفاته(١). وقد جدد أحد خلفاء المتوكل وهو المقتدر (٩٠٨– ٩٣٢م) (٢٩٥– ٣٢٠هـ) هذه القوانين التي يظهر بوضوح أن انقضاء نصف قرن عليها قد أدى إلى إهمالها. وقد أدت سورات أخرى من التعصب إلى تخريب كنائس للمسيحيين ومعابد لليهود(٢)، كما أدى الرعب الذي ألقاه مثل هذا الاضطهاد في النفوس إلى ارتداد كثيرين عن الكنيسة المسيحية(٣). ولكن مثل التعسف هذا كان منافيًا لروح الإسلام السمحة، وللتعاليم التي أثرت عن النبي(٤)، وقد حاول الفريق المتعصب، دون جدوى، أن يفرضوا تنفيذ هذه الأساليب التعسفية بصفة مطرده إذلالا للأهالي من غير المسلمين. "فالعلماء (أي المثقفون ورجال الدين) يقدرون هذه الأمور فيبكون ويئنون في صمت، على حين يتغاضى عن هذه الأمور أولئك الحكام الذين أوتوا من السلطة ما يمكنهم من أن يقضوا على هذه المفاسد التي تنطوي على الإجرام(٥)". ولا يجوز أن نتخذ الأحكام التي قد تضعها فئة متعصبة من رجال الدين مقياسًا لما قامت به الحكومات المدنية من تصرفات: ولن نصادف شيئًا من النجاح إذا أردنا التحقيق من هذه الفكرة التي جعلت من الممكن وقوع هذه الصورة المطوية على المبالغة فيما عاناه المسيحيون من متاعب في ظل الحكم الإسلامي والتي صورها هؤلاء الكتاب الذين زعموا أن فتاوى طائفة معينة من الفقهاء تمثل هذه التصرفات المتباينة. ويظهر أن أمثال سورات الاضطهاد هذه قد أثارها في بعض الحالات هؤلاء المسيحيون الذين شغلوا مناصب عالية في خدمة الحكومة من جراء إساءة استعمال سلطتهم فأثاروا على أنفسهم بظلمهم المسلمين شعورًا قويًّا من الاستياء وقد قيل إنهم استغلوا مناصبهم العالية في سلب أموال المؤمنين ومضايقتهم ومعاملتهم بشيء كثير من الغلظة والقحة وتجريدهم من أراضيهم وأموالهم. وقد تقدم المسلمون بالشكوى إلى الخليفة المنصور (٧٥٤– ٧٧٥م) (١٣٦– ١٥٨هـ) والمهدي (٧٧٥– ٧٨٥م) (١٥٨– ١٦٩هـ) والمأمون (٨١٣– ٨٣٣م) (١٩٨– ٢١٨هـ) والمتوكل (٨٤٧– ٨٦١م) (٢٣٢– ٢٤٧هـ) والمقتدر (٩٠٨– ٩٣٢م)

---

(١) ماري بن سليمان ص ٧٩ وما يليها، صليبا بن يوحنا ص ٧١.

(٢) Gottheil, p. 364 sqq.

(٣) ماري بن سليمان ص ١١٤ (س ١٤–١٦).

(٤) ويظهر أن هذا الحديث النبوي قد ورد بصيغ متعددة فروى مثلاً "من ظلم معاهداً (يعني ذمياً) وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه" (البلاذري آخر ص ١٦٢) (ويضيف يحيى بن آدم في آخر ص ٥٤ قوله "إلى يوم الدين.") "ويذكره المكين، المؤرخ المسيحي (ص١١) بقوله "من عذب أهل الذمة فقد عذبني".

(٥) Journal Asiatique, IV me série, tome xix, p. 109 (Paris, 1852)

وانظر أيضًا: R. Gottheil: A Fetwa on the appointment of Dhimmis to office (Zeitschrift für Assyriologie, vol. Xxvi, p. 203 sqq).

(٢٩٥- ٣٢٠هـ) وإلى كثير من خلفائهم[١]. كما تعرضوا أيضًا لبعض كثير من المسلمين باستخدامهم عيونًا للدولة العباسية ومطاردة أشياع البيت الأموي الذي أقصي عن الحكم[٢]. وفي عصر متأخر اتهم المسيحيون في زمن الحروب الصليبية باتصالهم بالصليبيين[٣] اتصالاً ينطوي على الخيانة، فجلبوا على أنفسهم قيودًا شديدة الحرج، ليس من العدل أن نصفها بأنها اضطهاد ديني.

وبمقدار ما كان يشتد العبء على كاهل الشعوب المغلوبة على أمرها كانت تشتد رغبتهم في تخليص أنفسهم من الشقاء، فيقولون: " لا إله إلا الله: محمد رسول الله". وعندما ما كانت الدولة في حاجة إلى المال – إذ كانت الحالة تتطلب هذه الزيادة- كانت الحكومة لا تفتر عن إثقال كاهل الشعوب المحكومة بالضرائب، حتى أصبحت حالة الطوائف من غير المسلمين تزداد سوءًا بصورة مطردة وكلما ازداد هذا الاضطهاد شدة وعنفًا ازداد دخول الناس في الإسلام. وإن هذا السجل المظلم الحافل بالفضائح التي امتلأت بها صفحات مؤرخي المسيحيين في هذا العصر المتأخر ليوحي إلينا بأن الكنائس المسيحية قد أخفقت في تنمية قوة خلقية متينة كافية لتحمل الحالات المناوئة، فإذا ما حل الاضطهاد وارتد المسيحيون عن دينهم، وجب أن نبحث عن هذا الارتداد – كما يظن مؤرخ الكنيسة النسطورية[٤] –فيما ساد رجال الكنيسة من إهمال شامل في إقامة الشعائر الدينية وما تطرق إلى حياتهم من فساد.

وقد نجد عوامل أخرى ساعدت على تناقص الشعب المسيحي في هذه الحقيقة القائلة بأن كثيرًا من الأطفال الأسرى من المسيحيات الكثيرات اللواتي حملن إلى بيوت المسلمين بين طبقة الحريم لم يكن بد من أن ينشئوا على دين آبائهم، وإن كثيرًا من الإغراء كان يقدمه السيد المترف لمولاه المسيحي بإعتاقه ثمنًا لتحوله إلى الإسلام. ولكننا لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي. ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها فرديناند **Ferdinad** وإيزابلا **Isabella** دين الإسلام من أسبانيا أو التي جعل بها لويس الرابع عشر **Louis XIV** المذهب البروتستنتي مذهبًا يعاقب عليه متبعوه في فرنسا، أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مبعدين عن إنجلترا مدة خمسين وثلثمائة سنة. وكانت الكنائس الشرقية في آسيا قد انعزلت انعزالاً تامّاً عن سائر العالم المسيحي الذي لم يوجد في جميع أنحائه أحد يقف في جانبهم باعتبارهم

---

(١) Belin, pp. 435- 40, 442, 448, 456, 459-61, 479-80.

(٢) Id. P. 435. n.2.

(٣) Id. P. 478.

(٤) عرض ماري بن سليمان (١١٥ س١-٢) تعليلاً لحالات الارتداد هذه التي أعقبت الاضطهاد حول نهاية القرن العاشر بقوله: وأسلم خلق كثير وكان أصل ذلك تجوز الناس في أديانهم وقبح سيرة الكهنة في المذابح والبيع وبيوت المقدس.

طوائف خارجة عن الدين. ولهذا فإن مجرد بقاء هذه الكنائس حتى الآن ليحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم[١].

وقد بقي إلى الآن نحو من خمسين ومائة ألف من نساطرة[٢] الكنائس القديمة التي كانت تقيم في غرب آسيا وقت الفتح الإسلامي، وكان يمكن أن يكون عددهم أكثر من ذلك لولا تلك الجهود التي قامت بها كنائس مسيحية أخرى في نشر تعاليمها، فكان عدد الكلديين الذين خضعوا لكنيسة رومة سبعين ألفًا. وفي سنة ١٨٩٨ انضم إلى الكنيسة الروسية الأرثوذكسية الأسقف النسطوري ماريونان **Mar Jonan** مع عدة من رجال الكنيسة وخمسة عشرة ألفًا من النساطرة، كما تحولت أيضًا جموع النساطرة إلى المذهب البروتستنتي[٣]. وباشر بطريق أنطاكية اليعقوبي سلطته القضائية على نحو من ثمانين ألفًا من أفراد هذه الكنيسة القديمة، على حين انقادت خمسة وعشرون ألف أسرة من اليعاقبة الذين يطلق عليهم (**Uniant Jacobites**) لأمر البطريق الكاثوليكي السوري[٤]. أما فيما يتصل بالكنيسة الأرثوذكسية الإغريقية، فهناك ثمانية وعشرون ألفًا وستة وثلاثون وثمانمائة أسرة بزعامة بطريق أنطاكية، وأكثر من خمسة عشر ألف شخص برياسة بطريق بيت المقدس[٥] على حين بلغ عدد الملكانيين أو الكاثوليك الإغريق قرابة ثلاثين ومائة ألف[٦] وكان يتبع الكنسية المارونية، التي اتحدت مع الكنسية الرومانية الكاثوليكية منذ سنة ١١٨٢م، ثلاثمائة ألف شخص[٧].

ومما يثير العجب أن هذه الطوائف المنعزلة المشتتة قد بقيت زمناً طويلاً معرضة كما كانت من قبل لتخريب الحرب والوباء والمجاعة[٨]، تقيم في بلاد كانت ميداناً لحروب لم تنقطع مدة قرون، ويجتاحها الأتراك

---

(١) والواقع أن الحاكم بأمر الله الفاطمي (٩٩٦- ١٠٢٠م) كان قد أمر كل اليهود والمسيحيين بأن يغادروا مصر ويهاجروا إلى الأراضي البيزنطية، ولكنه نزل عن رأيه بعد أن توسلوا إليه (المقريزي "١" ص ٩١)، على أنه قد كان في مكنته أن ينفذ أمره بالقوة كما فعل السلطان القاضي سليم الأول (١٥١٢- ١٥٢٠م) الذي ذبح أربعين ألف شيعي في سبيل تنفيذ خطته التي كانت ترمى إلى القضاء على كل الخلافات الدينية في بلاده، كما أنه أتم هذه الخطة السياسية باستئصال شأفة المسيحيين كذلك. ولكنه، حين سمح لنفسه بأن يرجع عن هذه الخطة، لم يكن ثمة شك في أنه عمل طبقًا للسياسة العامة التي اتخذها الحكام المسلمون بإزاء رعاياهم المسيحيين. (Finlay, vol. V, pp. 29-30)

(٢) Silbernagl, p. 268.

(٣) Id. P. 354.

(٤) Id. Pp. 307. 360.

(٥) ld p. 25-6.

(٦) ld.p.335.

(٧) ld.p384.

(٨) أنظر: A. Von Kremer (1)m vol, ii, pp. 402-2.

والمغول والصليبيون[1]. وإنه لا يعزب عن أذهاننا كذلك أن الشريعة الإسلامية قد حرمت عليهم أن يعوضوا عن طريق بذل جهود في سبيل نشر الدعوة ما أصاب عدد هؤلاء المسيحيين من نقص لو أنهم قد وجهوا العناية إلى هذه الغاية حقّاً، إذ يظهر أن هؤلاء المسيحيين (مع استثناء النساطرة) قد فقدوا الروح التبشيرية حتى قبيل الفتح الإسلامي، تلك الروح التي يدلنا التاريخ الحافل بكثير من الشواهد على أنه لا يمكن لهؤلاء أن يحيوا بدونها حياة سليمة في ظل كنيسة مسيحية. ويزعم بعض الباحثين أيضًا أن الرهبنة التي كانت تعتبر مثلاً أعلى للتقشف. والتي كانت منتشرة في الشرق انتشارًا واسعاً، ثم ما جرى عليه المسيحيون من الزواج بواحدة فحسب، وشعورهم بعدم الاطمئنان، وما كانوا فيه من الذل —كل ذلك ربما وقف حجر عثرة في طريق نمو السكان المسيحيين[2].

جهود نشر الدعوة بين المسيحيين: وليس لدينا إلا الترر اليسير من المعلومات التي تتعلق بتحول الناس إلى الإسلام ويظهر أن المسيحيين في بداية احتلال العرب لبلادهم قد انتقلوا إلى الإسلام في جموع هائلة. ويمكن أن نكوّن فكرة ما عن مدى التحول المبكر إلى الإسلام في العراق مثلاً، إذا علمنا أن إيراد الضرائب في عهد عمر كان يتراوح بين ١٠٠ ألف ألف و١٢٠ ألف ألف درهم، على حين هبط في عهد الملك، أي بعد نحو خمسون عامًا، إلى أربعين ألف ألف درهم. وبينما يعزى هذا التغير في الخراج، إلى حد كبير، إلى التخريب الذي كان نتيجة الحروب والفتن فإنه ما زال ينسب أولاً وقبل كل شيء إلى هذه الحقيقة، وهي أن جموعاً غفيرة من الأهلين كانوا قد دانوا بالإسلام، ومن ثم لم يطالبون بعد بدفع ضريبة الرأس [3]

وشهدت هذه الفترة ذاتها تحول جماعات كبيرة من نصارى خراسان إلى الإسلام، كما نقف على ذلك من رسالة لأحد رجال الكنيسة المعاصرين وهو البطريق النسطوري يشوع ياف الثالث **Isho Yabh**، وكان قد بعث بهذه الرسالة إلى سمعان **Simeon** مطران ريفارشير **Revardashir** ورئيس أساقفة فارس. ولا نملك إلا الترر اليسير من الوثائق المسيحية التي ترجع إلى القرن الأول الهجري، وتحمل هذه الرسالة الدليل الساطع على طابع الهدوء والمسالمة في نشر هذا الدين الجديد، أضف إلى ذلك أن المؤرخين المحدثين لم يفطنوا إلى هذه الرسالة إلا قليلاً، لهذا لا نرى بأسًا من أن نذكرها هنا كاملة: "أين أبناءك؛ أيها الأب الذي ثكل أبناءه؟ أين أهل مرو العظماء، الذين على الرغم من أنهم لم يشهدوا سيفًا ولا نارًا ولا تعذيبًا، ولم يسيطر على نفوسهم إلا حب التجارة والأخذ منها بنصيب، تنكبوا الطريق المستقيم وكبكبوا في هوة الضلال – في الهلاك المقيم،

---

(١) وقد نتخذ ما حل بالقسطنطينية سنة ١٢٠٤م من خراب على يد الصليبين نموذجاً للمعاملة التي لقيها المسيحيون الشرقيون من اللاتينين. ويشكو ابن العبري من أن دير حران قد هاجمه الكونت جوسلين Goscelin، صاحب حمص، وأنزل به الدمار سنة ١١٨٤ كأنه تماماً واحد من العرب أو من الأتراك. (Barhebraeus, (1) vol. ii, p. 506, 8)

(٢) H. H. milman, vol. ii, p. 218.

(٣) A. von Kremer (1), vol. i, 172.

وسيقوا إلى الفناء و لم ينج إلا قسيسان (قسيسان بالاسم على الأقل) من نار الكفر المحرقة كما تنتزع جمرتان من اللهيب؟ واحسرتاه! على هذه الآلاف المؤلفة التي تحمل اسم المسيحية، والتي لم يتقدم حتى واحد منا ليهب نفسه ضحية للرب ويريق دماءه في سبيل الدين الحق. أين كذلك معابد كرمان وبلاد فارس جمعاء؟ إن الذي انزل بهم الخسران والدمار لم يكن وساوس إبليس ولا إرادة ملوك الأرض ولا أوامر حكام البلاد – ولكنه نفثة ضعيفة من نفثات شيطان تافه حقير لم تعده الشياطين التي بعثته في مهمته جديراً بشرف الشياطين، و لم يمنحه إبليس قدرة على الخداع الشيطاني حتى يستطيع أن يبثه في بلادكم، ولكنه بإشارة من أمره هدم جميع الكنائس في بلادكم فارس.. وإن العرب، الذين منحهم الله سلطان الدنيا، يشاهدون ما أنتم عليه، وهم بينكم، كما تعلمون ذلك حق العلم: ومع ذلك فهم لا يحاربون العقيدة المسيحية، بل على العكس، يعطفون على ديننا ويكرمون قسسنا وقديسي الرب، ويجودن بالفضل على الكنائس والأديار. فلماذا إذا هجر شعبك من أهل مرو عقيدتهم من أجل هؤلاء العرب؟ ولماذا حدث ذلك أيضًا في وقت لم يرغمهم فيه العرب، كما يصرح بذلك أهل مرو أنفسهم، على ترك دينهم، بل تعهدوا لهم أن يبقوا عليه آمنًا مصوناً إذا هم اقتصروا على أداء جزء من تجارتهم إليهم. ولكنهم هجروا العقيدة التي تجلب الخلاص الأبدي إبقاء على نصيب من عرض هذه الدنيا الزائلة: تلك العقيدة التي اشترتها وتشتريها حتى هذا اليوم شعوب بأسرها بإراقة دمائها حتى ترث بذلك حياة أبدية، إن شعبك من أهل مرو قد قبلوا عن رغبه أن يعيروا دينهم من أجل جزء من تجارتهم – بل من أجل ما هو أقل من ذلك[1]". وقد امتاز عهد الخليفة عمر الثاني (٧١٧ – ٧٢٠م)، (٩٩ – ١٠١هـ) بحركة تحول إلى الإسلام واسعة النطاق: فقام بتنظيم حركة ملؤها الحماسة في نشر الدعوة، وقدم للشعوب المحتلة كل لون من ألوان الإغراء لقبول الإسلام، حتى يمنحهم هبات من المال، وقد قيل إنه أعطى في إحدى المناسبات قائداً نصرانيًا (بطريقاً) ألف دينار تألفه بها على الإسلام[2]، بل لقد قيل أيضًا إنه كتب إلى ملك الروم لاون الثالث **Leo lll** يدعوه إلى الإسلام[3]. وقد ألغى القرار الذي كان قد أصدره عام ٧٠٠م لوضع حد لما أصاب الخزانة من العجز، وقد أدى ذلك إلى أن الشخص الذي كان يدخل في الإسلام لم يعف من دفع ضريبة الرأس، بل أرغم على أن يظل على أدائها كما كان يفعل من قبل، حتى ولو أسلم قبل السنة التي تدفع فيها الجزية بيوم واحد، أو أسلم والجزية في كفة الميزان[4]. و لم يُجْبَ الخراج بعد ذلك من أصحاب الأراضي من المسلمين، بل فرضت عليهم ضريبة أخف من ذلك وهي ضريبة العشر. وكانت هذه الأساليب، وإن انطوت على خسارة

---

(١) Assemani , tom iii , pars prima. Pp. 130-1.

(٢) ابن سعد : الطبقات، جـ ٥ ص ٢٥٨

(٣) محبوب المنبجى ص ٣٥٨ (س٢-٣)

(٤) ابن سعد : الطبقات، جـ ٥ ص ٢٦٢

فادحة من الناحية المالية قد صادفت نجاحاً تامّاً في الاتجاه الذي كان يريد أن يحققه الخليفة صاحب العقلية التي أشربت الورع والتدين. فبادرت جموع هائلة إلى الدخول في زمرة المسلمين[١].

ومع ذلك فلا ينبغي أن نعترض أن مثل هذه الاعتبارات المادية كانت هي المؤثرات الوحيدة الفعالة في تحول المسيحيين إلى الإسلام. وإن ما كتبه القديس يوحنا الدمشقي (الذي عاش في هذا القرن نفسه)، من الكتب التي ألفها في الجدل لتمدنا بلمحات، عن طريق ما أثاره من جدال في الجهاد الإسلامي الذي يقوم على الحماسة في سبيل تقويض دعائم العقيدة المسيحية. وإن صياغة هذه الرسائل في قالب الحوار وكثرة التكرار في مثل قوله "إذا سألك العربي" "إذا قال لك العربي... فأجبه" فإن هذه العبارات تعطي مظهراً يكاد يقرب من الحقيقة ويجعلها تبدو كما لو كان المقصود بها تزويد المسيحيين لإجابات حاضرة ردّاً على الاعتراضات المختلفة التي كان جيرانهم المسلمون يوجهونها إلى العقيدة المسيحية[٢]. وطبيعي أننا لا ننتظر إلا أن يكون سلوك التحدي الذي ظهر به المجادل المسلم قد عرض بصورة بارزة هذه المحاورات، حيث إنه لم يكن من غرض هذا اللاهوتي الكبير أن يبرر موقف الإسلام فيما يكتب. وكذلك كتب تلميذه، الأسقف تيودور أبو قرة بعض محاورات[٣] تقوم على الجدل مع المسلمين طرق فيها المتناظرون كل مواطن النزاع بين العقيدتين، وكان المسلمون كما رأينا من قبل، هم البادئين بالتحدي. ونستطيع بهذا الحوار أن نكوّن فكرة ضئيلة عن النشاط الذي والاه المسلمون في هذه الفترة في عرض قضية الإسلام. قال الأسقف: "تتجه أذهان أبناء هاجر وكل ما لديهم من حماسة نحو إنكار إلوهية الرب: الكلمة، ويقصرون كل جهودهم على تحقيق هذه الغاية[٤] وكان البطريق النسطوري طيماثاوس **Timotheus** يعقد مناظرات في المسائل الدينية بحضرة الخليفة الهادي، وهارون الرشيد وجمع هذه المناظرات في كتاب لم يعثر عليه للآن[٥]. وقد ضمن طيماثاوس انتخابه لكرسي البطركية إزاء المعارضة النشيطة التي أبداها كثير من أقوى رجال الدين في كنيسته، وكان بين هؤلاء يوسف، مطران مرو، الذي وشى به لدى الخليفة المهدي (٧٧٥- ٧٨٥ م) (١٥٨-١٩٦هـ) ولكن الخليفة قد حثه على قبول الإسلام وكافأه على ارتداده عن دينه القديم بهدايا ثمينة وأسند إليه منصباً من مناصب الدولة في البصرة[٦].

تفصيلات التحويل إلى الإسلام: أما هذه التفاصيل التي تتعلق بالقرنين الأولين للهجرة فإنها يسيرة للغاية، وتدل على أنه كانت هنالك جهود في نشر تعاليم الإسلام أكثر من دلالتها على وقائع معينة. ويظهر أن

---

(١) August müller , vol ,i. p.440

(٢) Migne: Part. Gr, tom. 96, pp. 1336-48.

(٣) Migne: part. Gr, tom. 97, pp. 1528-9, 1548-61.

(٤) Id. P. 1557 .

(٥) عمرو بن متي، ص ٦٥.

(٦) عمرو بن متي، ص ٧٢.

وثيقة وصلت إلينا وتدل على صورة واضحة من صور الدعوة إلى الإسلام ترجع إلى عهد المأمون (٨١٣-٨٣٣ م) (١٩٨ – ٢١٨ هـ) وهي في صورة رسالة[١] كتبها ابن عم الخليفة إلى عربي مسيحي كريم المحتد، عظيم المترلة في البلاط، وكان المأمون يحله من نفسه محل الاحترام والتقدير. وفي هذه الرسالة يرجو من صديقه أن يدخل في الإسلام. وكان رجاؤه في لهجة تنم عن الود، وفي لغة تصور بوضوح مسلك المسلمين السمح تجاه الكنيسة المسيحية في ذلك العصر. وتحتل هذه الرسالة في تاريخ الدعوة الإسلامية المبكر مكاناً يكاد يكون فريداً في بابه، ولهذا أوردناها كاملة في الملحق الأول من ملاحق هذا الكتاب[٢]. ونجد في ذلك المؤلف نفسه وصفاً لحديث حدث به الخليفة في مجلس يضم أشراف دولته تحدث فيه بأشد اللهجات ازدراء لهؤلاء الذين لم يسلموا إلا طمعاً في الدنيا وجرياً وراء مصالحهم الشخصية، ويوازن بين حالتهم وحالة الذين كانوا يتظاهرون بأنهم من أنصار النبي في الوقت الذي كانوا فيه يتآمرون على حياته، ومع ذلك فكما كان النبي يدفع بالحسنة السيئة، كذلك عقد الخليفة العزم على أن يعامل هؤلاء معاملة لطيفة رقيقة حتى يقضي الله بينهم[٣]. وأن تسجيل هذه الشكوى الصادرة من الخليفة لعلى جانب من الأهمية، من حيث إنها تدلنا على أن المسلمين كانوا ينتظرون ويرجون ممن دخلوا في الإسلام حديثاً، اقتناعًا بريئًا خالصًا، كما تدلنا على أن اكتشاف الأنانية والبواعث الدنيئة في اعتناقهم للدين قد جرّت عليهم أشد ألوان اللوم والتقريع.

كان المأمون نفسه شديد التحمس فيما قام به من جهود في نشر الإسلام، فأرسل إلى الكفار حتى إلى من كان يقيم منهم في أقصى أجزاء مملكته كبلاد ما وراء النهر وفرغانه يدعوهم إلى الإسلام[٤]، و لم يسئ في الوقت نفسه استعمال سلطته الملكية، بمحاولة فرض عقيدته على غيره: ذلك أنه لما قدم شخص يدعى يزدانبخت زعيم المانوية في زيادة لبغداد[٥] وعقد مناظرة مع المتكلمين المسلمين وأفحمه فيها المتكلمون منهم، حاول الخليفة أن يقنعه باعتناق الإسلام. ولكن يزدانبخت أبى ذلك وقال: "نصيحتك يا أمير المؤمنين مسموعة

---

(١) رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمي إلى المسيح بن اسحق الكندي ص ٣٧١. (لندن، سنة ١٨٨٥)

(٢) الملحق الأول. راجع الملحق الثاني لدراسة نبذة عن مصادر الجدل الإسلامي.

(٣) الكندي ١١١-١١٣.

(٤) البلاذرى، ص ٤٣٠.

(٥) ومن المحتمل جدا أن تكون المناسبة التي دفعت يزدانيخت إلى زيارة بغداد هي دعوة المأمون إلى عقد مجلسي عظيم يضم زعماء جميع الطوائف الدينية في ذلك العصر، عندما وصل إلى مسامعه أن أعداء الإسلام قد جهروا بأن الفضل فيما أحرزه الإسلام من نجاح إنما يرجع إلى العنف لا إلى قوة الحجة: وفي هذا المجلس دحض أئمة المسلمين ما نسب إلى دينهم من هذه التهم، ويقال إن الكفار قد اعترفوا بأن المسلمين قد أفحموهم وأدلوا بحجتهم..) أحمد بن يحيى المرتضى: المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل (British Museum, Or. 3937, vol. 53(b, II. 9-11)

وقولك مقبول، ولكنك ممن لا يجبر الناس عن ترك مذاهبهم، فلم يبد الخليفة شيئاً من الاستياء لإخفاق محاولته ووكل به حفظة خوفًا عليه من تعصب الغوغاء[١].

وقد أشار بعض المؤرخين المسيحيين إشارات قليلة إلى حالات رؤساء الدين المسيحي الـــذين اعتنقـــوا الإسلام مثل جرجيس **George** أسقف البحرين الذي أسلم حول منتصف القرن التاسع، وكان قد أقصى عن منصبه لاتهامه ببعض التهم الكنسية[٢]. وإن ما يستحق الذكر في هذا الصدد ما كان إسلام أخ لجبريل، مطران فارس، حول منتصف القرن العاشر، لأنه قيل إن إسلامه كان موضع اعتراض على لياقة جبريل نفسه لانتخابه بطريقًا على الكنيسة النسطورية[٣].

وفي مستهل هذا القرن ذاته أسلم تيـــودور **Theodore** أســـقف بيـــت جرمـــاي **Beth Garmai**، النسطوري، ولم يذكر المؤرخ الكنسي الذي سجل هذه الواقعة[٤] شيئًا عن استخدام أية قوة أو إرغام في إسلام هذا الأسقف، ولو أن شيئًا من ذلك حدث لسجله من غير شك. وبعد عدة ســـنوات (بـــين ســـنتي ٩٦٢-٩٧٩م) أسلم كذلك فيلوكزينوس **Philsxenos** أسقف آذربيجان اليعقوبي[٥]، وفي القرن الذي يليه في ســـنة ١٠١٦، ذهب أغناطيوس **Ignatius**[٦] مطران تكريت اليعقوبي إلى بغداد ودخل في الإسلام في حضرة الخليفة القادر، وكان قد شغل هذا المنصب خمسة وعشرين عامًا[٧]. وكان يكون من الممتع حقًا لو امتدت فاتحة حياة كل من هذين الداخلين في الإسلام **Apologia Pro Vita Sua** لتكشف لنا عن التطور الديني الذي احتـــل مكانًا في عقلية كل منهما ويشير المؤرخ المسيحي إلى فساد الخلق، الذي كان سبباً في التحول عن الـــدين في الحالات الثلاث الأخيرة. ولكن مثل هذا الاتهام الذي يدعم بشواهد أخرى محل لكثير من الشك[٨]، وهو يشبه

---

(١) كتاب الفهرست جـــ١ ص ٣٣٨.

(٢) ابن العبري (١) جـــ ٣ ص ١٩٤

(٣) ماري بن سليمان، ص ١٠١ (س ٣-٤). .

(٤) ابن العبري (١) جـــ٣ ص ٢٣٠.

(٥) ابن العبري (١) جـــ٣ ص ٢٤٨

(٦) ويتخذ كل البطارقة اليعقوبيين اسم اغناطيوس، ويسمى قبل تقديسه بمرك برقيقي

(٧) ابن العبري (١) جـــ٣ ص٢٨٨- ٢٩٠ .Elias of Bisibis, pp. 153- 4 على أنه قد آب إلى الدين المسيحي قبل موته الذي حدث بعد ذلك بحوالي عشرين عامًا. وهناك حالتان مماثلتان مسجلتان في أخبـــار بطارقـــة أنطاكيـــة اليعقوبيين في القرن السادس عشر: أحداهما حالة بطريق يدعى يشوع اعتنق الإسلام سنة ١٥١٧، ولكنه بعد ذلـــك ارتد وهرب إلى قبرص (التي كانت في يد البندقيين في ذلك الحين)، حيث خر ساجداً عند باب إحدى الكنائس في خضوع وندم، وتحمل بذلك جميع الذين وطئوا جسده من الداخلين في الكنيسة والخارجين منها؛ أما الآخر ويـــدعى نعمة الله الذي عاش حول سنة ١٥٦٠م، فإنه بعد أن ترك المسيحية واعتنق الإسلام، الـــتمس العفـــو مـــن البابـــا جريجوري الثالث عشر في رومه. (ابن العبري (١) جـــ٢ ص ٨٩٧- ٨٩٨)

(٨) والواقع أن إلياس النصيبي، المؤرخ المعاصر لتحول البطريق اليعقوبي إلى الإسلام، لم يتعرض لذكر شيء من مثل هذه المفاسد، كذلك لم يذكر ماري بن سليمان (ص ١١٥-١١٦) شيئًا منها وهو مؤرخ الكنيسة النسطورية المنافسة

اتهام أحد الكاثوليك الرومان حينما كان يؤرخ تحول كاهن من طائفته إلى المذهب البروتستنتي. وإن ما وصلنا من تحول هؤلاء البارزين من رجال الدين، إلى الإسلام، وكانوا من طائفتين متخاصمتين من الطوائف المسيحية، إنما كان راجعًا من غير شك إلى مكانتهم السامية في الكنيسة، على حين لم يسجل المؤرخون تحول غير هؤلاء إلى الإسلام من الأفراد الذين لم يكن لهم شأن يذكر. وكلما اقترب ابن العبري بتاريخه الكنسي من عصره، يقدم تفاصيل أوفى عن حياة أمثال هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام، مثال ذلك ما ذكره في منتصف القرن الثاني عشر حين دوّن ما وقع فيه بعض الأساقفة اليعاقبة، من سقطات عامة، ويخص بالذكر هارون أسقف إحدى المدن في خراسان، نظرًا إلى أنه قد أسلم بعد أن ثبتت عليه إحدى الزلات الخلقية. ولما ندم على تحوله عن دينه؛ أراد أن يسترد مركزه الأسقفي، ولكنه لما رفض طلبه، ذهب إلى القسطنطينية وأنكر مبادئ الكنيسة اليعقوبية؛ غير أن المقابلة التي لقيها في القسطنطينية، قد أثارت في نفسه روح السخط والتذمر، فرجع إلى البطريق اليعقوبي، ثم انتقل ثانية إلى الإسلام (بدون أي مبرر)، وعندئذ ندم للمرة الثانية، وأخيرًا قضى أواخر أيامه بين ماروني جبل لبنان(١). وقد سعى دانيال أسقف خابور الذي كان يعاصر ابن العبري، في منتصف القرن الثالث عشر، والذي قيل إنه كان بارعًا في العلوم الدنيوية، ليعين في أبرشية حلب ولكنه لما أخفق في مسعاه هجر العقيدة المسيحية، وجلب "بإسلامه" الحزن والعار على الشعب المسيحي بأسره. ولكن الله (له المجد!) سرعان ما عزى شعبه المحزون، وأذهب العار عن الشعب الذي خلصه الرب؛ إذ بعد أشهر قلائل مات هذا الشقي التعيس بائسًا في إحدى محطات القوافل؛ واندثر اسمه وأقصى عنا، ولا يعرف أحد مستقره"(٢).

على أنه وإن كان التحول إلى الإسلام ليس مجرد أمثلة فردية، فإن لدينا شاهدًا فيما أورده جاك دي فتري **Jacques de Vitry** أسقف عكا (١٢١٦- ١٢٢٥م)، الذي تحدث عن الكنيسة الشرقية بما له من خبرة عن شئونها في الأراضي المقدسة، فقال: "حين عملت تلك المغريات.. التي جاء بها النبي.. على استضعاف هذه الكنيسة وإيقاعها في الشرك على صورة تبعث على الألم المرير، انغمرت الكنيسة واعتنقت.... وكانت من قبل تتقلب في أعطاف النعيم"(٣).(†)

للكنيسة اليعقوبية، مع أنه يتهمه بأنه قد خرب الآنية المقدسة وتصاوير الكنائس. وكما يقول رايت (Wright, Syriac Literature, p. 192) عن يوسف، بطريق مرو: "لسنا في حاجة إلى الاعتقاد في المساوئ التي يخبرنا عنها ابن العبري عن هذا الرجل المسكين".

(١) ابن العبري (١)، جـ٢ ص ٥١٨.

(٢) نفس المرجع جـ٢ ص ٧١٢ وما يليها.

(٣) Historia Orientalis, C. 16 (p. 45).

(†) ورد على لسان هذا الأسقف عبارات تمس الإسلام ونبيه الكريم فآثرنا عدم ذكرها، وهي تنطوي على روح من التعصب.

حالات التحول إلى الإسلام بين الصليبيين: وإلى ذلك الحين كانت الكنائس المسيحية التي وصفت بأنها قد دخلت في نطاق تأثير الحكم الإسلامي عبارة عن الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية والطوائف الخارجة عن الدين التي تفرعت عنها. ولكن بانتهاء القرن الحادي عشر الميلادي انضم إلى أهالي الشام وفلسطين من المسيحيين عنصر جديد يتألف من هذه الجموع الهائلة من الصليبيين الذين كانوا يدينون بشعائرهم الأمم اللاتينية، واستقروا في مملكة بين المقدس وسائر الولايات التي أسسها الصليبيون، وظلت تعيش مهددة قرابة قرنين من الزمان. وفي غضون هذه الفترة كانت تحدث من حين لآخر تحولات إلى الإسلام من بين هؤلاء المهاجرين الغرباء. ففي الحرب الصليبية الأولى مثلاً، انشق على الطائفة الرئيسية جماعة من الألمان واللومبارديين بزعامة فارس مشهور يدعي **Rainaud** وحاصرهم السلطان أرسلان السلجوقي في إحدى القلاع، وتظاهر هو وخاصة أتباعة بالقيام بهجوم على محاصريهم في الخارج، فتركوا رفاقهم التاعسين وانتقلوا إلى الأتراك حيث اعتنقوا الإسلام بينهم(١).

ويمثل لنا تاريخ الحرب الصليبية الثانية، تلك الحرب المشئومة، حادثة على جانب عظيم من الأهمية وهي شبيهة بتلك الحادثة. والقصة كما ذكرها أودو الدويلي **Odo of Deuil** أحد رهبان القديس دينيس **Denis** الذي كان يشغل وظيفة قسيس خاص للويس السابع، وصحبه في هذه الحرب الصليبية، فكتب في وصفها نبذة هذا نصها: بينما كان الصليبيون يحاولون شق طرقهم براً عن طريق آسيا الصغرى إلى بيت المقدس، منوا بهزيمة فادحة على أيدي الترك في ممرات فريجيا **Phrygia** الجبلية (١١٤٨م) وبلغوا مدينة أتاليا **Attalia** الساحلية بشق الأنفس. وهنا، تمكن جميع الذين استطاعوا أن يرضوا المطالب الفادحة، التي كان يفرضها عليهم تجار الإغريق، من الإبحار إلى أنطاكية، بينما خلفوا وراءهم المرضى والجرحى تحت رحمة من الخونة من حلفائهم الإغريق الذين أخذوا مبلغ خمسمائة مارك من لويس، على شريطة أن يمدوا الحجيج بقوة من الحرس، وأن يعنوا بالمرضى حتى يصبحوا من القوة بحيث يمكن إرسالهم ليلحقوا بسائر زملائهم. ولكن لم يكد الجيش يغادر المكان حتى أخبر الإغريق الترك بموقف الحجيج الأعزل، ورقبوا في صمت، ما أصاب هؤلاء التاعسين من المجاعة والمرض وسهام العدو التي جرت عليهم الدمار والخراب وهم في طريقهم إلى معسكرهم. وحاولت جماعة تبلغ ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف، أن تلوذ بالفرار بدافع من اليأس؛ ولكن الترك؛ الذين كانوا قد بلغوا المعسكر وهجموا عليه ليتابعوا انتصارهم، أحدقوا بهم ومزقوهم شر ممزق. وكان يكون موقف من نجا من الموت منهم قد بلغ حد اليأس، لو أن منظر شقائهم لم يذب قلوب المسلمين ويستدر شفقتهم. فواسوا المرضى وأغاثوا الفقير والجائع الذي أشرف على الهلاك، وبذلوا لهم العطاء في كرم وسخاء. بل لقد اشترى بعضهم النقود الفرنسية، التي ابتزها الإغريق من الحجاج بالقوة أو الخداع، ووزعوها بسخاء بين المعوزين منهم. فكان البون شاسعًا بين المعاملة الرحيمة التي لقيها الحجاج من الكفار وبين ما عانوه من قسوة إخوانهم المسيحيين من

---

(١) De Guignes, tome ii, Seconde Partie), p. 15.

الإغريق الذين فرضوا عليهم السخرة، وضربوهم، وابتزوا منهم ما ترك لهم من متاع قليل، حتى إن كثيرًا منهم دخلوا في دين منقذيهم بمحض إرادتهم. وكما يقول المؤرخ القديم: "لقد جفوا إخوانهم في الدين الذين كانوا قساة عليهم، ووجدوا الأمان بين الكفار الذين كانوا رحماء عليهم، ولقد بلغنا أن ما يربو على ثلاثة آلاف قد انضموا بعد أن تقهقروا إلى صفوف الأتراك. آه، إنها لرحمة أقسى من الغدر! لقد منحوهم الخبز. ولكنهم سلبوهم عقيدتهم، ولو أن من المؤكد أنهم لم يكرهوا أحدًا من بينهم على نبذ دينه، وإنما اكتفوا بما قاموا لهم من خدمات"(١).

وإن زيادة اختلاط المسيحيين بالمسلمين وتقدير الصليبيين لفضائل خصومهم تقديرًا أخذ ينمو على مر الزمان، وهي ظاهرة تمييز المتأخرين من مؤرخي الحروب الصليبية عن السابقين منهم تمييزًا واضحًا جليًّا(٢)، ثم ما كان من كثرة تقليد الفرنجة المقيمين في الأراضي المقدسة للشرقيين في عاداتهم وأساليب حياتهم – إن ذلك كله لم يخفق في إيجاد تأثير متبادل في الأفكار الدينية. ومن أظهر ألوان هذا التأثير، ذلك المسلك السمح الذي سلكه كثير من الفرسان المسيحيين نحو العقيدة الإسلامية؛ وهو اتجاه فكري كان أشد ما تشكو منه الكنيسة. ولما زار أسامة بن منقذ، وكان أحد أمراء الشام في القرن الثاني عشر، بيت المقدس، في فترة من فترات الهدنة، خصص له فرسان المعبد **The Knights Templar** الذين كانوا احتلوا المسجد الأقصى زاوية صغيرة ملحقة به، ليقيم فيها الصلاة، واستاءوا استياء شديدًا من تدخل أحد الصليبيين، واتجه هذه الوجهة الجديدة في سبيل الحرية الدينية(٣). وكان يكون مثيرًا للدهشة حقًا، لو لم تكن المسائل الدينية مثار جدل في المناسبات الكثيرة، حيث كان يلتقي الصليبيون بالمسلمين لقاءً ودياً أثناء المهادنات الكثيرة، لاسيما إذا عرفنا أن الدين نفسه هو الذي أتى بالصليبين إلى الأراضي المقدسة وحملهم على شن هذه الحروب الدائمة. بل إن علماء اللاهوت المسيحي، حين أدى اختلاطهم بالمسلمين اختلاطًا شخصيًا إلى تكوين رأي أكثر إنصافًا عن ديانة المسلمين، وزعزع الارتباط بأساليب التفكير الحديث أفكار الناس، وأثار ألوان الزندقة، فليس بغريب أن ينجذب كثيرون إلى حظيرة الإسلام(٤). وكان عدد المرتدين (عن المسيحية) في القرن الثاني عشر الميلادي كثيرًا كثرة نلاحظها

---

(١) Odo de Diogilo. De Ludovici vii, Itinere. Migne, Patr Lat., tom cxcv, p. 1243.
ولكن يتجنبوا أنصار دينهم الذين كانوا يقسمون عليهم، ذهبوا آمنين إلى الكفار الذين كانوا يشفقون عليهم. وقد انضم أكثر من ثلاث آلاف شاب –كما سمعنا إلى الذين رحلوا إلى هؤلاء الكفار. آه! أيتها التقوى، كم أنت أقسى من ضروب الخيانة كلها! إنهم قد منحوهم الخبز، وجردوهم من الإيمان غير أن من المحقق أنهم على رضاهم بالعبودية، لم يرغموا أحدًا على إنكار عقيدته".

(٢) Guizot: Histoire de la civilsatin en Europe p. 234. (paris, 1882)

(٣) أسامة بن منقذ، ص ٩٩.

(٤) Prutz, pp. 266- 7.

في سجلات الصليبيين القانونية التي يطلق عليها "مجالس قضاء بيت المقدس" **Assises of Jerusalem** والتي لم تقبل بموجبها كفالتهم في حالات معينة[١].

وقد لا يكون من الممتع أن نعرف من هم هؤلاء المسلمون الذين توفروا على كسب هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام، ولكن يظهر أنهم لم يخلفوا سجلاً بأعمالهم. على أننا نعلم أن صلاح الدين العظيم نفسه، كان على رأسهم، وهو الذي وصفه كتاب سيرته بأنه قدم محاسن الإسلام بين يدي ضيفه المسيحي، وحثه على اعتناقه[٢].

ويظهر أن أخلاق صلاح الدين وحياته التي انطوت على البطولة قد أحدثت في أذهان المسيحيين في عصره تأثيرًا سحريًا خاصّاً حتى أن نفراً من الفرسان المسيحيين قد بلغ من قوة انجذابهم إليه أن هجروا ديانتهم المسيحية وهجروا قومهم وانضموا إلى المسلمين، وكذلك كانت الحال عندما طرح النصرانية مثلاً فارس انجليزي من فرسان المعبد يدعى روبرت أوف سانت ألبانس **Robert of st. Albans** في سنة ١١٨٥ م، واعتنق الإسلام ثم تزوج بإحدى حفيدات صلاح الدين[٣] وبعد عامين، غزا صلاح الدين فلسطين وهزم الجيش المسيحي هزيمة منكرة في واقعة حطين، وكان جوى **Guy** ملك بيت المقدس بين الأسرى. وحدث مساء المعركة أن ترك الملك ستة من فرسانه "قد حلت فيهم روح شريرة" وفروا إلى معسكر صلاح الدين حيث أسلموا بمحض إرادتهم[٤] ويظهر أن صلاح الدين كان قد تفاهم في الوقت نفسه مع ريموند الثالث **Raymound III** كونت طرابلس الشام على أن يوعز إلى أتباعه بترك العقيدة المسيحية والتحول إلى جانب المسلمين؛ "ولكن موت هذا الكونت المفاجئ قد وقف بصورة فعالة في سبيل هذه الخطة[٥].

وقد حفز سقوط بيت المقدس والانتصارات التي أحرزها صلاح الدين في الأراضي المقدسة، أهل أوروبا للقيام بالحرب الصليبية الثالثة، التي كان أهم أحداثها حصار عكا (١١٨٩– ١١٩١). وإن ما تعرض له الجيش المسيحي من آلام مروعة، من جوع ومرض، قد دفع الكثيرين منهم إلى الفرار والتماس ما يخلصهم من ألم الجوع في معسكر المسلمين. ومن هؤلاء الفارين كثيرون قد رجعوا مرة أخرى، بعد فترة من الزمن، إلى جيش الصليبيين؛ ومنهم كثيرون آثروا أن يساهموا بنصيب مع المسلمين، فالتحق فريق منهم بخدمة أعدائهم السابقين، ولكنهم ظلوا على ولائهم للدين المسيحي، وقد (علمنا أنهم) كانوا راضين كل الرضا عن سادتهم

---

(١) Assises de la Cour des Bourgeois. Recueil des historiens des Croisades, Assisess de Jèrusalem, tome ii, p. 325.

(٢) بهاء الدين بن شداد ص ٢٥.

(٣) Roger Hoveden, vol ii, p. 307.

(٤) Bendict of Peterborough, vol. ii, pp. 11-12.

(٥) Id, vol. ii, pp. 20-1. Roger Hoveden, vol ii, pp. 316, 32.

الجدد، على حين اعتنق آخرون الإسلام وأصبحوا قوماً صالحين[١]. وكذلك سجل المؤرخ، الذي رافق ريتشارد الأول في هذه الحرب الصليبية، تحول هؤلاء الفارين إلى الإسلام فقال: "وفريق من رجالنا (الذين لا نستطيع أن نتحدث عن مصيرهم أو نسمع عنه دون أن يحز في نفوسنا ألم مرير) قد استسلموا لقسوة المجاعة المرة، فتجشموا في سبيل إنقاذ أبدانهم، هلاكاً أبدياً لأرواحهم. إذ أنه بعد انقضاء الجزء الأكبر من هذه المحنة نراهم يهجرون بني جلدتهم ويفرون إلى الأتراك فلم يترددوا في أن يصبحوا في زمرة المرتدين؛ ولكي يطيلوا أعمارهم الموقوتة زمناً قصيراً اشتروا موتاً أبدياً بهذا الكفر المفزع. أيتها المساومة الملعونة! أيتها الفعلة المخزية التي لا يكفر عنها أي عقاب! أيها الرجل الأحمق الذي يشبه البهائم البله، إنك إن فررت من الموت المحتوم الذي لا مفر من أي يأتي عاجلاً فلن تفر من الموت الأبدي[٢]".

ومنذ ذلك الحين لا نعدم أخباراً عن المرتدين عن المسيحية، فيما كتبه هؤلاء الذين رحلوا إلى الأراضي المقدسة وغيرها من بلاد المشرق، وإن صيغة القسم التي عرضها على القديس لويس أولئك المسلمون الذين أسروه حين طولب بأن يتعهد بأداء ما فرض عليه من الفدية (١٢٥٠ م) كانت من إملاء بعض المسلمين كانوا قسيسين من قبل ثم اعتنقوا الإسلام[٣] وبينما كانت عملية الفداء لا تزال جارية جاء مرتد آخر، وكان فرنسياً ولد ببروفنز وقدم هدية إلى الملك: وكان هذا الفرنسي قد صحب يوحنا ملك بيت المقدس في حملته على دمياط سنة ١٢١٩م، وبقي في مصر وتزوج بامرأة مسلمة وصار سيداً يشار إليه بالبنان في تلك البلاد[٤]. وكان خطر الدخول في الإسلام، وهو ما كان يستهدف له حجاج الأراضي المقدسة، وقد شاع أمره في ذلك العصر بصورة واضحة، حتى إن أموري دي لاروش **Amaury de la Roche** رئيس فرسان المعبد **the knights Templar** التمس من البابا ونوابه في فرنسا، وصقلية، في "مذكرة" دونها حوالي سنة ١٢٦٦، أن يمنعوا الفقراء والشيوخ والعاجزين عن حمل السلاح من عبور البحر إلى فلسطين، لأن أمثال هؤلاء الأشخاص كانوا يتعرضون إما للقتل أو الأسر، أو لأن يفتنهم العرب عن دينهم[٥]. ويتحدث لودولف دي سوشم **Ludolf de Suchem** الذي تنقل في الأراضي المقدسة من سنة ١٣٣٦ إلى سنة ١٣٤١ عن ثلاثة من المرتدين وجدهم في حبرون[†] وكانوا قد قدموا من أبرشية مندن **Minden** ودخلوا في خدمة فارس من فرسان وستفاليا، كان السلطان وغيره من أمراء المسلمين يكرمونه ويحترمونه[٦].

---

(١) أبو شامة: ص ١٥٠.

(٢) Itinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Richardi, p. 131 (Chronicles and Memorials of the reign of Richard I, Edited William Stubbs). (London, 1864).

(٣) Joinville, p. 288.

(٤) Id. P. 262.

(٥) Mas latrie (1) vol. ii. P. 72.

(†) قرية تعرف الآن بالخليل، على بعد ١٨ ميلاً ممن القدس إلى الجنوب.

(٦) Ludolf de Suchem p. 71.

ولا شك أن هذه الأخبار المبعثرة، تحمل الدليل على أن تحول المسيحيين إلى الإسلام الذي لم يصلنا عنه أي خبر كان على نطاق أوسع: فمن ذلك ما يقال من أن خمسة وعشرين ألفاً من المرتدين عن المسيحية كانوا في مدينة القاهرة حول نهاية القرن الخامس عشر(١)، ولابد أنه كان هنالك أيضاً كثيرون من هؤلاء المرتـــدين، في مدن الأراضي المقدسة بعد زوال الإمارات اللاتينية في الشرق. ولكن يظهر أن المسلمين الذين أرخوا هـــذه الفترة، قد بلغ من شدة انهماكهم في تسجيل مآثر الأمراء، وتقلبات الدول أنهم لم يوجهوا عنايتهم إلى التغيـــير الديني الذي طرأ على حياة الأفراد المغمورين؛ (وبقدر ما هدانا إليه البحث) فقد كانت ملاحظـــتهم في تتبـــع أخبار دخول المسيحيين في الإسلام، قليلة كقلة ملاحظتهم في دخول أبنـــاء ديـــنهم في المســـيحية. فـــنحن مضطرون، نتيجة لذلك، أن نعتمد، في الوقوف على كل من هذين النوعين من الأحـــداث، علـــى الكتـــاب المسيحيين، الذين نجد أنهم في الوقت الذي أمدونا فيه بأخبار مفصلة تنم على عطف المتنصرين، يحملون شهادة على عدم الرضا عن وجود أمثلة من الداخلين في الإسلام، ويصورون بواعث الذين ارتدوا عن دينهم ودخلـــوا في الإسلام في أحط صورة ممكنة. وربما لم يتسرب إلى ذهن الكاتب من هؤلاء الكتاب أن دخول أي مسيحي في الإسلام، عن اقتناع صادق، كان أمراً ممكناً. ولو فرضنا أن هذه الفكرة قد تسربت إلى أذهانهم، لكان من الصعب أن يجازفوا بتعريض أنفسهم لفظاعة العقاب الكهنوتي، بعرضه عرضاً صريحاً.

ومن الأمثلة التي تدل على أن تدوين ما يتعلق بمثل هذا التحول إلى الإسلام كان نادراً، هذه القصة التي أمدنا بها الفيرر همندورف **Fürer von Haimendorf** الذي كان في القاهرة سنة ١٥٦٥، عن إسلام عـــالم ألماني، تلقى دراسته بجامعة ليبزج **Leipzig** قال: "ولكن بينما كنا نمضي هذا الوقت في القاهرة حدث أن رجلاً يدعى يوستوس ستيفن الألماني، الذي ينتسب إلى هامليلنا **Hamelensis** والذي كان يقيم معنا في بيت واحد، قد أنكر الديانة المسيحية، وقدم نفسه لاعتناق الديانة الإسلامية وإجراء الختان. وكان رجلاً عالماً يقـــول لنـــا دائماً إنه درس طويلاً في وتبرج وليبزج، ولكنه لما سئل عن ذلك الأمر قال إنه الآن يملك روحاً خاصة، لـــيس في مقدوره أن يفعل أو يفكر بدون وحي منها. ولقد أثار جحود هذا الرجل تفكيرنا كثيراً، والحق أنه دفعنـــا إلى الفرار. وفي هذا اليوم نفسه طيف كذلك برجل يهودي في المدينة كان قد اعتنق الإسلام قبل ذلك بأيـــام قليلة، في موكب من مواكب النصر. وقد أخبرنا بعض الإنكشارية أن هذا العمل ذاته سوف يحدث لســـتيفن نفسه"(٢).

ومن هذه المصادر التي أوردناها آنفاً معلومات قليلة تتعلق بعدد الذين تحولوا إلى الإسلام، وأخرى تتعلق بالجهود التي قامت لنشر الدعوة والتي بذلت لحثهم على تغيير عقيدتهم. ومن البواعث التي طالما علل بها هؤلاء المؤرخون التحول إلى الإسلام، رغبة المسيحيين في التخلص من عقوبة الموت بالارتداد عن دينهم. وكثيراً مـــا

(١) Lionrdo Frescobaldi, Quoted in the preface of Defrémery and Sanguinetti's edition of Ibn Batutah, vol. I, p. xi.

(٢) Chostophori füreri ab Haimendorf Itainerarium Aegypti, p. 42. (Norimbergae, 1620).

ذكر الرحالة الأوربيون أمثال هذه الحالات. ومن هذا النوع مثال متأخر نختاره هنا، لجمال تصويره وحسن عبارته، من تقرير أحد أفراد الجزويت الذي كان في القاهرة سنة ١٦٢٧؛ فقد رأى رجلاً من القبط كان قد أسلم نفسه إلى ذلك التيار، "تارة بدافع العاطفة وتارة بقوة الغيرة الطائشة، فقتل أخاه حاقداً عليه أن ترك يسوع المسيح، على صورة من الجبن والتهرب، وراح يعتنق الإسلام تخلصاً من مضايقة الأتراك. وقبض على هذا المسكين في الحال وهو متلبساً بجريمته، واعترف في جراءة بأن هذا الكافر بدينه، الذي لا يستحق أن يكون أخ له، لم يستطع أن يمحو هذه الوصمة السوداء إلا بدمه. وقد ألح المسلمون عليه أن يترك دينه إبقاء على حياته"؛ ولكنه قرر أنه مصرٌ على أن يموت مسيحياً، غير أن هذا العذاب، الذي صبه عليه أولئك الذين وُكل إليهم أمر تعذيبه، قد أوهن من عزمه فأذعن في اللحظة الأخيرة.

لقد حولته هذه الكارثة في لحظة من مؤمن إلى مرتد، ومن شهيد إلى كافر، ومن قديس إلى آثم، ومن ملاك إلى شيطان رجيم. فأقر بالدين بل أقر بالغدر والخيانة على وفق أساليب المسلمين... فأطلقت له الحرية، لا حرية أبناء الرب، ولكن حرية الأبناء الخاسرين". ثم حمله تأنيب ضميره، آخر الأمر، على أن يرتد فقتله المسلمون[١].

لقد صور الراهب بركارد **Purchard**[٢] السكان المسيحيين عندما كتب حول عام ١٢٨٣م أي قبل أن يطرد الصليبيين من آخر معاقلهم، وقبل أن يزول النفوذ اللاتيني في الشرق نهائياً بسنوات قليلة، بأنهم يفوقون المسلمين عدداً في كافة أنحاء العالم الإسلامي، وأن نسبة عدد المسلمين (فيما عدا مصر وبلاد العرب) كانت لا تزيد على ثلاثة أو أربعة في المائة من جميع السكان. ولا شك أن هذه اللهجة مبالغ فيها، ومن المحقق أن الراهب الطيب قد اندفع فيما زعمه بظنه أن ما شاهده في الصليبيين ومملكة أرمينية الصغرى ينطبق تمام الانطباق على سائر جهات الشرق. على أن من الجائز أن نتخذ كلماته هذه في الواقع، دليلاً على أن التحول

---

(١) Le Voyage En Ethiopie entrepris par le pere Aymard Guérin. (rabbath, pp. 17-18)

(٢) ومما هو جدير بالذكر حقًا أنه على الرغم من أن بعض الناس يظن خلاف ذلك فيميل إلى تأكيد شيء لم يره العين، وهو أن الشرق كله، فيما وراء البحر والهند وإثيوبيا يعترف بالمسيح ويبشر باسمه ما عدا العرب وبعض الأتراك الذين يقيمون في كبادكيا فإني أؤكد في ثقة تأكيد من رأى رأي العين وسمع ذلك من قوم آخرين أنك ستجد دائمًا في كل مكان وفي كل مملكة عدا مصر وبلاد العرب حيث تقطن جموع غفيرة من العرب وبعض أتباع محمد، نسبة المسيحيين إلى المسلمين كنسبة الثلاثين أو أكثر إلى الواحد: ذلك أن جميع المسيحيين عبر البحر، إنما هم في الواقع غرباء ينحدرون من أصل شرقي وعلى الرغم من أنهم مسيحيون، إلا أنهم نظرًا إلى عدم خبرتهم الواسعة في حمل السلاح، كانوا سرعان ما يخضعون إذا ما دهمتهم جيوش العرب والتتار أو غيرهم فيشترون السلم والأمان منهم بدفع الجزية ثم يعين العرب أو من يملكون ناصية الحكم فيهم مشرفين على أمرهم وجباة للضرائب في تلك الأراضي. ومن ثم أصبحت تلك المقاطعة تسمى مملكة العرب مع أن جميع سكانها في الواقع مسيحيون عدا المشرفين وجباة الضرائب أنفسهم وبعض حاشيتهم، كما رأيت بنفسي في سيلزيا وأرمينية الصغرى التي تخضع لحكم التتار.
(Burchardi de Monte Sion Descriptio Terrae Sanctea, p. 90)

إلى الإسلام لم يكن في عهد الصليبين حركة واسعة النطاق، وأن المسلمين حينما استردوا سلطانهم على الأراضي المقدسة، بسطوا على المسيحيين نفس روح التسامح التي كانت من قبل، وذلك بأن جعلوهم "يشترون السكينة والسلام" بأداء الجزية. وهذا يحمل على الظن بأن ما حدث من التحول إلى الإسلام إنما كان عبارة عن حالات فردية من المسيحيين الذين أشربوا العقيدة الإسلامية في أذهانهم قبل أن يقدموا على الخطوة الأخيرة. وقد أوردنا من قبل أمثلة من المسيحيين الذين دخلوا في خدمة سادتهم من المسلمين وتمتعوا بحريتهم الدينية إلى أبعد حد، وقد ميزت مجالس قضاء بيت المقدس **Assises of Jerusalem** بين "هؤلاء الذين كفروا بالله وأتبعوا شريعة أخرى" و "بين جميع الذين قاموا بخدمات عسكرية للعرب وغيرهم من الأشرار، يناوئون بها المسيحيين مدة أكثر من عام يوم" (١)

ومن المؤكد أن المسيحيين من أهالي هذه البلاد قد أثروا حكم المسلمين على حكم الصليبيين(٢). ويظهر أن أهالي فلسطين من المسيحيين، لما وقع بيت المقدس في أيدي المسلمين نهائياً (سنة ١٢٤٤م) رحبوا بالسادة الجدد واطمأنوا إليهم ورضوا بحكمهم (٣).

كذلك دفع هذا الشعور نفسه، شعور الاطمئنان إلى الحياة الدينية في ظل الحكم الإسلامي، كثيراً من مسيحيي آسيا الصغرى، في إبان هذه الفترة ذاتها إلى الترحيب بمقدم الأتراك السلاجقة، باعتبارهم مخلصين لهم من الحكومة البيزنطية البغيضة، لا بسبب نظام الضرائب المجحف وحده، ولكن بسبب روح الاضطهاد التي ظهرت بها الكنيسة الإغريقية، والتي قمعت بمثل هذه القسوة، بدع أصحاب بولس ومحطمي الصور والتماثيل **Iceenclasts**(†) كذلك. وطالما دعا الأهلون الأتراك في عهد ميخائيل الثامن، إلى الاستيلاء على مدنهم الصغيرة في داخل آسيا الصغرى، تخلصاً من استبداد الدولة، وكثيراً ما هاجر الأغنياء منهم والفقراء إلى الولايات التركية(٤).

---

(١) Recueil des historiens des Croisades (Assises Jèrusalem, tome i, p. 325).

(٢) Prutz, pp. 146-7, 150.

(٣) وفيما يلي ما كتبه رؤساء الكنائس في الأراضي المقدسة سنة ١٢٤٤م، بشأن محاربة الخوارزميين الذين كان السلطان أيوب قد استقدمهم لمعاونته في طرد الصليبيين: "وكانوا ينطلقون في كافة أنحاء المعمورة، حتى مدينة الناصرة وساقت، بحرية دون أية مقاومة، ويحتلونها، ويقتسمونها فيما بينهم كما لو كانت ممتلكاتهم. وكانوا يتركون في القرى والضياع قواداً وسفراء يتولون أمرها ويتسلمون من الفلاحين الضرائب والإتاوات التي اعتادوا أن يؤدوها المسيحيين بعد أن خضعوا جميعًا لأوامر كوروسميني، وكان قد خلق منهم أعداء للمسيحيين ومردة عليهم".
Matthei Parisiensis Chronica Majora. Ed. H. R. Luard, vol. iv. P. 343 (London, 1872- 83).

(†) حركة قامت في القرنين الثامن والتاسع ترمى إلى تحطيم الصور والتماثيل التي كانت تعبد في الكنائس المسيحية في الشرق

(٤) Finlay. Vol iii, pp. 358-9 J. H. Krause: Die Byzantiner des Miittelalters, p. 276. (Halle, 1869).

الكنائس الأرمينية والجورجية: وقد بقي لدينا بعض معلومات نوردها هنا عن كنيستين أخريين من كنائس آسيا الغربية، ونعني بهما كنيسة أرمينية وكنيسة جورجيا. أما كنيسة أرمينية فإن من الممكن أن يقال عنها أن ما قدمه أفرادها في سبيل زيادة عدد الداخلين في الإسلام ربما كان أقل (وهذا بالنسبة إلى عدد أفراد الطائفة) مما قدمته أية كنيسة من الكنائس الشرقية التي خضعت للحكم الإسلامي. وعلى الرغم من الأهمية التي تتعلق بقصة كفاح هذا الشعب الباسل للمطامع الطاغية، وقصة تفانيه في الدين المسيحي – خلال قرون الحروب والمظالم والتنكيل والتشريد – فليس الغرض من هذا الكتاب أن نذكر أكثر من أن نبين بإيجاز مدى ارتباط هذا الشعب بتاريخ المسلمين. لقد ظلت مملكة أرمينية قائمة بعد أن منيت بصدمة الفتح العربي، ونهضت في القرن التاسع الميلادي فأصبحت دولة على جانب من الأهمية ثم ازدهرت أثناء اضمحلال خلافة بغداد، ولكن الأتراك السلاجقة أدالوها في القرن الحادي عشر. وقد أسس جماعة من الهاربين مملكة أرمينية الصغرى **Lesser Armenia** ، ولكن هذه المملكة ذهبت كذلك في القرن الرابع عشر، وظلت حياة أهل أرمينية القومية باقية بالرغم من ضياع استقلالهم. وكان دينهم وكنيستهم الوطنية مبعثاً لحماستهم ووطنيتهم التي لا تفنى، كما كان الحال في اليونان في عهد الأتراك. ومع أن بعضهم دخل في الإسلام بتأثير اضطهاد عنيف، إلا أن غالبية الشعب ما زالت مخلصة لعقيدتها القديمة. ويلاحظ تافرنييه[1] ملاحظة غير مشربة بروح المودة العطف، فيقول: "قد تكون هناك قلة من الأرمينيين اعتنقت الإسلام لنفع دنيوي ولكنهم بوجه عام يعدون أشد الناس عناداً وأصلبهم تمسكاً بمعتقداتهم الخرافية".

أما كنيسة جورجيا (التي أسست في مستهل القرن الرابع) فكانت فرعاً من الكنيسة الإغريقية التي ظلت في ترابط معها، بالرغم من أن البطريق أوجاثليق كنيسة جورجيا قد أعلن استقلاله منذ منتصف القرن السادس. وأن تاريخ هذا الشعب المحارب الباسل الذي مزقته الخصومات الداخلية وتعرض لهجمات متتابعة، من الإغريق والفرس والعرب والترك والمغول، لهو تاريخ حروب لا تكاد تنقطع، وجهت نحو خصومهم من الأجانب ومنازعات متضاربة تقوم بصورة وحشية بين زعماء هذه البلاد: وحسبنا أن نلقي نظرة على العهود التي حكم فيها واحد أو اثنان من الحكام الأقوياء، الذين هيئوا لرعاياهم فترات قصيرة من الأمن والسلام، لنتبين ذلك البون الشاسع بين هذه العهود وبين حالة القلق والاضطراب التي كانت تسود هذه البلاد. وكثيراً ما أثارت تلك الروح الاستقلالية العنيفة، التي يمتاز بها أهالي جورجيا، والتي لا تطيق الحكم الأجنبي، سخط جيرانهم من المسلمين على صورة أشبه شيء بالجنون، حين أخفق هؤلاء في أن يفرضوا عليهم شيئاً من ديانتهم أو سلطتهم الزمنية. وأن هذا السبب – وهو أن تغيير العقيدة ينطوي على فقدان الاستقلال السياسي – هو الذي يفسر لنا إلى حد بعيد ما صنعته كنيسة جورجيا من تسجيل أسماء مثل هذا العدد الكبير من شهدائها،

(١) Tavernier (1), p. 174.

على حين لا نجد في تواريخ الكنيسة الإغريقية في هذه الفترة نفسها ما تعرضه من مثل قوائم التشريف والتكريم هذه.

و لم تأخذ المسيحية في الاضمحلال[١] (في جورجيا) إلا بعد أن اجتاحها جنود المغول المدمرة، فتركت وراءها كنائس محطمة وأديار مهدمة وأكداساً من الرؤوس البشرية تشهد على مدى تقدم جحافلهم المخربة. وكان من أثر ذلك أن ظل الشعب وقتاً طويلاً خلواً ممن يمده بمطالبة الروحية، نظراً إلى ما أصاب عددهم وما تعرضت له ثقافة رجال الكنيسة من تأخر. حتى هؤلاء الذين ظلوا يدينون بالمسيحية، فقد زاد فريق منهم في متاعب رجال الكنيسة بسلب أملاكها، واستغلال موارد الكنائس والأديار لمصلحتهم الشخصية، وبذلك عجلوا بالدين المسيحي إلى الضعف والانحلال[٢].

وفي سنة ١٤٠٠ أضافت غزوة تيمور فزعاً بالغاً إلى متاعب جورجيا، ومع أن حكم اسكندر الأول (١٤١٤ – ١٤٤٢) قد خلص البلاد، فترة قصيرة من نير الأجنبي، وطرد المسلمين جميعاً، إلا أن البلاد قد انقسمت بعد وفاته مرة أخرى إلى عدد من الأمارات الصغيرة التي انتزع منها الأتراك والفرس آخر ما بقي من استقلالها. ولكن المسلمين طالما وجدوا من جورجيا أيالة تسودها الفوضى والتمرد، وتتأهب دائماً لإشعال نار الثورة لأتفه الأسباب. فسعى الأتراك والفرس لكسب ولاء الرعايا، الذين يثيرون المتاعب والقلاقل، عن طريق تحويلهم إلى الإسلام. وقد أسلم بعد سقوط القسطنطينية وازدياد النفوذ التركي في آسيا الصغرى، أهالي أخالتسيخيه **Akhaltsikhé** ومقاطعات أخرى تقع غربيها[٣]. وفي سنة ١٥٧٩ وفد أميران من جورجيا – وكانا أخوين – في بعثة إلى القسطنطينية، تصحبهما حاشية كبيرة تتألف من نحو مائتي شخص: وهنا أسلم الأخ الصغير وأسلمت حاشيته معه أملاً (كما قيل) في أن يحل محل أخيه الأكبر[٤]، وقد ضمت فتوح الأتراك إلى حوزتهم، بعد هذا العصر بزمن طويل بعض المقاطعات الواقعة في قلب جورجيا التي أعتنق أهلوها ديانة الفاتحين[٥]. ومنذ ذلك الوقت اعترفت **Samtzkhé**، أقصى أجزاء جورجيا من جهة الغرب، بسيادة تركيا: فأتيح لحكامها وشعبها أن يظلوا على عقيدتهم المسيحية، لا يتعرض لهم أحد بسوء، إلا أنه منذ سنة ١٦٢٥ اعتنق البيت الحاكم الإسلام وحذا حذوه كثير من الزعماء الأشراف.

---

(١) Joselian, p. 125.

وحوالي ذلك الوقت تخلت عن الدين المسيحي كل قبائل الأبخاز والجيخيث Djkhethes والأوسيت Ossetes والكبرد Kabardes وكستيث.Kisthethes

(٢) Id. P. 127.

(٣) Id. P. 143.

(٤) David Chytraeus, p. 49.

(٥) Joselian, p. 157.

وظلت المسيحية بعد ذلك محتفظة بسلطانها على الفلاحين وقتاً طويلاً، ولكن حين أبى رجال الكنيسة، في إقليم سامتسخي، أن يعلنوا ولائهم لجاثليق كارثلي **Karthli** انقطع إرسال المدد الذي كان يسد حاجات الشعب الروحية بصورة منتظمة. وكان الأشراف حتى قبيل إسلامهم قد درجوا على اغتصاب ضياع الكنيسة، ثم بطبيعة الحال توقفوا بعد إسلامهم عن مساعدتها بعطاياهم، وكان طبيعياً أن تحل المساجد محل الكنائس والأديار التي حل بها الخراب(١).

وخضع سائر أجزاء جورجيا لفارس، وعندما زار تافرنييه هذا الجزء من البلاد، في أواسط القرن السابع عشر، وجده منقسماً إلى مملكتين كانتا تابعتين للدولة الفارسية، يحكمها أمراء من أهالي جورجيا، وكان عليهم أن يدخلوا الإسلام قبل التقدم لشغل هذا المنصب(٢). وكان من هؤلاء الأمراء السابقين إلى الحكم قسطنطين تساريفتش **C. Tsarevitch** بن اسكندر الثاني ملك كاخث **Kakheth** ، وكان قد تربى في البلاط الفارسي، حيث اعتنق الإسلام في بداية القرن السابع عشر(٣). كذلك تربى في فارس الملك تساريفتش رستم (١٦٣٤ — ١٥٦٨م) وهو أول ملوك كارثلى **Karthli** من المسلمين، وكان هو وجميع من خلفوه حتى نهاية ذلك القرن من المسلمين(٤).

ويصف تافرنييه أهل جورجيا بأنهم على جانب كبير من الجهل بالشئون الدينية، كما يصف رجال الكنيسة بأنهم أميون وأصحاب رذيلة. وقد حدث أن باع فريق من رؤساء الكنيسة فتيات وصبياناً من المسيحيين بيع الرقيق للأتراك والفرس(٥). ويظهر أنه قامت منذ ذلك الحين، حركة ارتداد عن المسيحية واسعة النطاق وخاصة بين الطبقات العليا وبين هؤلاء الذين كانوا يسعون إلى اكتساب عطف البلاط الفارسي(٦). وفي سنة ١٠٧١م كان واختنج السادس **Wakhtang vI** الذي جلس على عرش جورجيا مسيحياً. وظل طوال السنين السبع الأولى من حكمه سجيناً في أصبهان، حيث بذلت جهود ضخمة لحمله على الإسلام؛ وقد قيل أنه عندما صرح بأنه يؤثر ضياع عرضه على أن يشتريه بالارتداد عن دينه، عرض أخوه الأصغر، مع أنه كان يشغل منصب بطريق جورجيا، أن يترك المسيحية ويعتنق الإسلام إذا أنعم المسلمون عليه بالتاج، ولكنه

---

(١) Brosset IIe partie, Ire livraison, pp. 227- 35. Description géographique de la Géorgie par le Tsarévitch Wakhoucht, p. 79 (St. Petersburg, 1842).

(٢) The Six Youages, p. 123.

(٣) Joselian, p. 149.

(٤) Id. Pp. 160-1.

(٥) Tavernier (1), pp. 124, 126 (Id. 123). وهو يقدر عدد المسلمين بحوالي اثني عشر ألفا.

(٦) Brosset, IIe pastie, Ire livraison, pp. 85, 181.

بالرغم من أن الفرس قد منحوه السلطة الملكية، رفض أهل جورجيا قبوله حاكماً عليهم وطردوه من المملكة[١].

وحول نهاية القرن الثامن عشر وضع ملك جورجيا شعبه تحت حماية التاج الروسي وإلى تلك اللحظة كان شعورهم الوطني الفياض قد ساعد على الاحتفاظ بالعقيدة المسيحية حية بينهم طالما كان الغزاة الغرباء من المسلمين. أما في الوقت الذي أصبحت فيه القوة التي تسعى إلى سلب استقلالهم تدين بالمسيحية، فقد ساعد هذا الشعور نفسه على خدمة الإسلام في بعض المقاطعات الواقعة شمالي القوقاز. وفي داغستان حاول شخص يدعى درويش منصور أن يجمع شمل قبائل القوقاز المختلفة لمناهضة الروس. وبث دعوته إلى الإسلام وأفلح في تحويل أمراء يوبخستان وداغستان وأشرافهما الذين ظلوا على ولائهم للإسلام منذ ذلك الحين. وكذلك دخل بدعوته، كثيرون من الجراكسة في الإسلام وفضلوا أن ينفوا من البلاد على أن يخضعوا للحكم الروسي[٢]. ولكنه أسر في سنة ١٧٩١م ، ثم دخلت جورجيا رسمياً في حوزة الإمبراطورية الروسية عام ١٨٠٠م.

و لم يكن درويش منصور هو الوحيد الذي قام بجهود في سبيل إدخال الجراكسة في الإسلام. فعندما اعترفت معاهدة كوتشاك فينرجى **Kuchak Kainarji** سنة ١٧٤٤ باستقلال القرم، وفتحت طريق البحر الأسود للسفن الروسية، استولى الفزع على الحكومة التركية من أن تطمع روسيا فتقوم بحركة أخرى للسيطرة على طول الساحل الشرقي للبحر الأسود. وعقدت النية على أن تحاول تحريض الجراكسة على المقاومة. فأرسلت ضابطاً يدعى فرح علي سنة ١٧٨٢م لتأسيس مستعمرة حربية في أنابا، بالقرب من منفذ بحر أزوف والدخول في صلات مع قبائل الشراكسة. وكان أول ما وجه إليه فرح علي عنايته أن خطب ابنة أحد البكوات الجراكسة، وقدم إلى أبيها هدايا ثمينة من الأسلحة والخيل وغيرها؛ وقد احتفل بالزواج في موكب فخم واحتفال عظيم. وشجع فرح علي جنوده على أن يحذوا حذوه فوعدهم القيام بنفقات زواجهم. وكان من أثر ذلك أن انضم فريق من النساء الجركسيات، إلى المستعمرة الصغيرة واعتنقن ديانة أزواجهن، وجذبن آبائهن وأخواتهن إلى الإسلام، بفضل روح الحماسة التي تميز بها الجدد في الإسلام. وابتدأت حركة نشيطة في نشر الدعوة إلى الإسلام، ويظهر أن الذين انحازوا إلى المستعمرة التركية من الجراكسة، كانوا قد أظهروا استعداداً عندما تركوا معتقداتهم الوثنية في سبيل الدين الذي نزل به القرآن. وقد عكف العلماء (الملاوات) على تفقيه حديثي العهد بالإسلام و لم يكن بد من أن يطلبوا مدداً من القسطنطينية لتثقيف جموع الداخلين في الإسلام، الذين كان عددهم يزداد شيئًا فشيئًا[٣].

---

(١) Documents Originaux sur les relations diplomatiques de la Gèorgie evec la France vers la fin du regne de Louis XIV, recueillis par M. Brosset Jcune. (J. A. 2me série, tome ix, (1832)pp. 197, 451).

(٢) Mackenzie, p. 7. Garnett, p. 194.

(٣) Barbier de Meynard pp. 45 sqq.

ولكن نشاط فرح علي لم يدم طويلاً؛ فقد توفي سنة ١٧٨٥، وكان قبره مثابة احتـــرام وتـــوقير كمـــا كانت قبور القديسين، غير أن جهوده قد زالت بموته. فقد انتقلت أنابا إلى أيدي الروس سنة ١٨١٢م، وعندما تغلبوا على مقاومة الجراكسة بصفة نهائية سنة ١٨٦٤ هاجر أكثر من نصف مليون من الجراكسة المسلمين إلى الأراضي التركية.

وكان اعتناق أي دين يخالف ديانة الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا، أمرًا محرمًا في القانون الروسي، ومن ثم توقف الإسلام عن أي تقدم جديد إلى أن صدر مرسوم التسامح الديني سنة ١٩٠٥. ومن النتائج التي ترتبت على صدور هذا المرسوم، في بلاد القوقاز، أن دخلت جموع كثيرة في الإسلام مـــن بـــين طوائـــف الأبخـــاز **Abkhazes** الذين كانوا قد ظلوا طويلاً يدينون بالمسيحية اسمًا فقط، ولكنهم الآن قد أصبحوا مســـلمين، في جموع بلغ من ضخامتها أن رجال الكنيسة الأرثوذكسية قد أخذ الخوف منهم كل مأخذ حتى أقاموا جمعيـــة خاصة تقوم بتوزيع منشورات دينية بينهم، أملاً في مناهضة النفوذ الإسلامي[١].

(١) R. du M. M. , VII, pp. 320 (1909).

الباب الرابع

انتشار الإِسلام بين مسيحيي إِفريقية

فتح مصر على أيدي العرب وترحيب القبط بهم لإنقاذهم من الحكم البيزنطي: دخل الإِسلام إِفريقية أولاً مع الجيش العربي الذي غزا مصر بقيادة عمرو بن العاص سنة ٦٤٠م (٢٠هـ)، وقد ترك انسحاب الجيوش البيزنطية بعد ذلك بثلاث سنين أهالي هذه البلاد المسيحيين الكثيري العدد في أيدي الفاتحين المسلمين. ويرجع النجاح السريع الذي أحرزه غزاة العرب، قبل كل شيء، إِلى ما لقوه من ترحيب الأهالي المسيحيين الذين كرهوا الحكم البيزنطي، لما عُرف به من الإِدارة الظالمة ولما أضمروه من حقد مرير على علماء اللاهوت. فإِن اليعاقبة الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من السكان المسيحيين، قد عوملوا معاملة مجحفة من أتباع المذهب الأرثوذكسي التابعين للبلاط الذين ألقوا في قلوبهم بذور السخط والحنق اللذيْن لم ينسهما أعقابهم حتى اليوم [١].

حالة القبط في عهد المسلمين: كان بعضهم قبل هذا العهد يعذب ثم يلقى بهم في اليم، وتبع كثير منهم بطْريقهم إِلى المنفي لينجوا من أيدي مضطهديهم، وأخفى عدد كبير منهم عقائدهم الحقيقية، وتظاهروا بقبول قرارات مجمع خلقدونية[٢]. وقد جلب الفتح الإِسلامي إِلى هؤلاء القبط، ذلك اللفظ الذي يطلق على المسيحيين من اليعاقبة في مصر، حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها قبل ذلك بقرن من الزمان. وقد تركهم عمرو أحراراً على أن يدفعوا الجزية، وكفل لهم الحرية في إِقامة شعائرهم الدينية، وخلصهم بذلك من هذا التدخل المستمر الذي أنوا من عبئه الثقيل في ظل الحكم الروماني. ولم يضع عمرو يده على شيء من ممتلكات الكنائس، ولم يرتكب عملاً من أعمال السلب والنهب[٣]. ويظهر أن حالة القبط في الأيام الأولى من حكم المسلمين كانت معتدلة نوعاً ما. وليس هناك شاهد من الشواهد يدل على أن ارتدادهم عن دينهم القديم ودخلوهم في الإِسلام على نطاق واسع كان راجعاً إِلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم الحديثين[٤]. بل لقد تحول كثير من هؤلاء القبط إِلى الإِسلام قبل أن يتم الفتح، حين كانت

---

(١) Amélineau, p. 3; Catani vol. iv. p. 81 Sq.

قيل إِن جيستنيان أمر بقتل مائتي آلف من القبط في مدينة الإِسكندرية، وأن اضطهادات خلفائه قد حملت كثيرين على الالتجاء إِلى الصحراء.(Wansleben: The Present state of Egypt, p. 11) (London, 1678).

(٢) Renaudot , P. 161. سويرس ص ١٠٦.

(٣) يوحنا أسقف نقيوس اليعقوبي (عاش في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي) ص ٥٨٤.

(٤) Bell, P. xxxvii. ولكن الظلم والعناء اللذين لم يكن بد من أن يقاسيهما القبط بعد الفتح بنحو سبعين سنة، تسمح لنا كما يقول المقريزي في شيء من الجهد بأن نمد هذه الفترة إِلى الحد الذي عينه فون رانكي بقوله: "ونعرف عن

الإسكندرية حاضرة مصر وقتئذ لا تزال تقاوم الفاتحين، وسار كثير من القبط على نهج إخوانهم بعد ذلك بسنين قليلة[1]. وفي عهد عثمان بن عفان (٦٤٣ – ٦٥٥ م) (٢٣ – ٣٥هـ) بلغ خراج مصر اثني عشر مليون دينار، ثم نقص بعد سنين قليلة إلى خمسة ملايين في عهد معاوية بن أبي سفيان (٦٦١ – ٦٧٩ م) (٤١– ٦٠ هـ)، وذلك بسبب دخول عدد كبير في الدين الإسلامي؛ ثم أخذ الخراج في النقصان في عهد عمر بن عبد العزيز (٧١٧ – ٧٢٠ م) (٩٩ – ١٠١ هـ)، حتى إن والي مصر[2] اقترح ألا يعفي من يدخلون في الإسلام بعد ذلك من أداء الجزية. ولكن الخليفة التقي أبى أن يجيب هذا الوالي إلى طلبه قائلاً إن الله بعث محمداً داعياً و لم يبعثه جابياً[3].

ولكن الولاة اللذين جاءوا بعد ذلك اعترفوا أن مثل هذه السياسة تضر بالدولة لأسباب تتعلق بمال الجباية، وألحوا بأن يؤدي الذين يدخلون في الإسلام الضرائب كما كانوا يؤدونها من قبل. على أن مثل هذه السياسة لم يقدر لها الاستمرار، وعمل كل وال من هؤلاء الولاة برأيه، وبصورة تقوم على التعسف وعدم النظام[4]. فقد ذكروا أن حفص بن الوليد الذي ولي مصر في سنة ٧٤٤م (١٠٨ هـ) لما وعد بإعفاء جميع الذين يدخلون في الإسلام من الجزية، انتحل هذا الدين عدد بلغ أربعة وعشرين ألفاً[5]. وقد قيل إن أبا العباس السفاح أول الخلفاء العباسيين أذاع بياناً مماثلا على أثر اعتلائه عرش الخلافة في سنة ٧٥٠ م (١٣٢هـ)، إذ "كتب إلى جميع مملكته أن كل من يصير على دينه ويصلي كصلاته يكون بغير جزية، فمن عُظم الخراج والكلف عليهم أنكر كثير من الأغنياء والفقراء دين المسيح وتبعوه"[6] والحق أن كثيراً من مسيحي مصر تركوا النصرانية بمثل هذه السهولة وتلك السرعة التي اعتنقوا بها النصرانية في مستهل القرن الرابع الميلادي. وقبل هذا العصر، كانت جماعة صغيرة جدّاً من سكان وادي النيل تدين بالمسيحية. ولكن ما عناه الشهداء في اضطهادات دقلديانوس، وما دُون عن المعجزات التي أتى بها هؤلاء الشهداء، والشعور القومي الذي أثارته

طريق أصدق الأدلة أن أهالي مصر في القرون التالية كانوا في ظل السيادة العربية يعيشون في حالة مرضيه".
(Weltgeschichte , vol.v.p153 4th ed.)

(١) المصدر نفسه ص ٥٨٥. "فكثير من المصريين الذين كانوا من المسيحيين الزائفين أنكروا الديانة المقدسة الكاملة. والتعميد الذي يهب الحياة، وانحازوا إلى ديانة المسلمين أعداء الله، وقبلوا المذهب.. الذي جاء به ذلك المخلوق، محمد، لقد ساهموا في ضلال هؤلاء المشركين وامتشقوا السلاح في وجه المسيحيين".

(٢) ويظهر أن قرة بن شريك (والي مصر من سنة ٧٠٩ إلى سنة ٧١٤ م) (٩٠ – ٩٦ هـ) أو سلفه قد أصر على أن يستمر اللذين تحولوا إلى الإسلام في أداء الجزية . (Becker, Parpyri , Schott-Reinhardt, P. 18)

(٣) ابن سعد : الطبقات ج ٥ ص ٢٨٣ .

(٤) caetani, vol. iv ,p ,618 : vol. v, pp . 384 .5.

(٥) سويرس ص ١٧٢ – ١٧٣.

(٦) المصدر نفسه ص ٢٠٥– ٢٠٦.

روح المقاومة لأوامر الحكومة الأجنبية[١]، وما أعطوا من الضمانات بأن جنة النعيم قد فتحت أبوابها لكل شهيد مات على أيدي معذبيه – كل أولئك قد أثار في نفوسهم حماسة أدت إلى سرعة انتشار الدين المسيحي بصورة لا يكاد يصدقها العقل. "وبدلا من أن يتنصر المصريون عن طريق التبشير، كغيرهم من أهالي بلاد المشرق، نراهم ينتحلون المسيحية في غمرة من الحماسة الجامحة، دون أن يتلقوا أي شيء من التبشير أو التعليم عن الدين الجديد غير اسم عيسى المسيح الذي خلع حياة من السعادة الأبدية على جميع الذين اعترفوا بوجوده"[٢].

ومن المرجح أن تأثير المسيحية في السواد الأعظم من أهل مصر كان قليلاً في القرن السابع. وإن التعليقات النظرية التي استغلها زعماؤهم في إثارة شعور الكراهية والمقاومة في وجه الحكومة البيزنطية، كان يمكن أن يدركها عدد قليل جداً من الناس؛ كما أن سرعة انتشار الإسلام في الأيام الأولى من الاحتلال العربي قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء، أكثر من أن تكون راجعة إلى الجهود الظاهرة التي قام بها الفاتحون لجذب الأهلين إلى الإسلام. وإن الأساس اللاهوتي لبقاء اليعقوبيين طائفة منفصلة، والشعائر التي جاهدوا في سبيل الاحتفاظ بها وقتاً طويلاً، ودفعوا ثمناً غاليا في هذه السبيل، قد اجتمعت في عقائد كانت صيغتها أشد ما تكون غموضاً وإبهاماً من الناحية الميتافيزيقية. ولا شك أن كثيراً من هؤلاء قد تحولوا، وقد أخذت الحيرة منهم كل مأخذ، واستولى على نفوسهم الضجر والإعياء من ذلك الجدل السقيم الذي احتدم من حولهم، إلى عقيدة تتلخص في وحدانية الله البسيطة الواضحة، ورسالة نبيه محمد. بل إننا نجد في داخل الكنيسة القبطية نفسها في عصر متأخر شواهد تنبئ عن حركة، إن لم تكن إسلامية خالصة، فقط كانت على الأقل وثيقة الصلة بها، وربما ساعد عدم وجود أي نظام كنسي مستقل، يجد طريقة لإيضاحه والتعبير عنه، على زيادة عدد الذين دخلوا في الإسلام. وفي أوائل القرن الثاني عشر كان بدير القديس أنطونيوس (بمقربة من إطفيح على النيل) راهب يدعى بلوطس، "وكان عالماً ومعلماً خبيراً بأوضاع الدين المسيحي وسيرة الرهبنة ماهراً في حقوق ما يلزم من القوانين الشرعية، وأصاده الشيطان في شرك من شراكه، فاعتقد اعتقاداً مخالفاً لما وضعه الآباء الثلثمائة والثمانية عشر (بمجمع نيقية). وأفسد عقول جماعة كبيرة ممن ليس لهم معرفة ولا دراية بالأمانة الأرثوذكسية، وشاع من فمه النجس ومنطقه الخبيث أن المسيح ربنا له المجد، كأحد الأنبياء، وصار مجتمعاً بالأشرار من أهل الملة وهو لابس شكل الرهبة منتطقاً بالزونية والأسكيم، وإذا سئل عن مذهبه واعتقاده فيقول أنه موحد وظهرت مقالته في سنين آخرها سنة تسع وثلاثين وثمانمائة للشهداء الأبرار (١١٢٣ م)، ومات وانقطع ذكره إلى الأبد"[٣] (†).

---

(١) وليس من شك في أنه كان من كثرة الشهداء ضرب من مقاومة الحكام الغرباء في سبيل الوطن. (Amélineau, p. 58).

(٢) Amélineau, PP. 75 – 8.

(٣) أبو صالح الأرمني ص ١٦٣ – ١٦٤.

أضف إلى ما تقدم أن نظرية الحياة المسيحية التي وجدت أقصى ما يمكن إدراكه والتعبير عنه في التقشف في أكبر صوره[١] قد استطاعت أن تظهر بعض الميل نحو الآداب الإسلامية الأكثر إنسانية[٢]. ولكثرة عدد القبط الذين كانوا يعتنقون الإسلام من حين إلى حين أخذ أتباع النبي يعتبرونهم أشد ميلاً لقبول الدين الإسلامي من أية طائفة أخرى. ومع أنهم قد تعرضوا لتحمل أشد أنواع الظلم والاضطهاد في كثير من المناسبات، قيل إن القبط الذين حملوا على ترك دينهم على هذا النحو كانوا أقل عدداً بالنسبة إلى هؤلاء الذين غيروا دينهم عن طواعية[٣]. حتى في القرن التاسع عشر، في الوقت الذي قيل فيه أن مصر كانت أشد البلاد الإسلامية تسامحاً في الدين، لم تخل سنة من السنوات لم يتحول فيها القبط إلى الإسلام[٤]. أضف إلى ذاك، أن الاضطهاد والظلم قد قاما من غير شك بدور كبير في نقص عدد القبط. وإن قصة آلام كنيسة اليعقابة في مصر، التي اضطهدها كذلك إخوانهم في الدين من المسيحيين[٥] وأتباع المذهب السائد في هذه البلاد، لتثير أشد ألوان الحزن والأسى. وقد ترك كثير دين آبائهم ليتخلصوا من الضرائب الثقيلة والتحقير والشتائم التي لا تحتمل. وإن الفرق الشاسع في ذلك بين حالتهم وحالة مسيحيي سورية وفلسطين والأندلس في العصر نفسه، لتجد ما يعبر عنها في الثورات التي أشعل نيرانها القبط أنفسهم. ويظهر أن نزاعهم الطويل الذي قاموا به في وجه استبداد بيزنطة من الناحيتين المدنية والدينية، قد أثر في ذوي الغيرة على الدين وحولهم إلى جماعة وطنية استطاعت أن تصبر قليلاً على حكم الأجانب من العرب كما صبرت على حكم البيزنطيين من قبلهم. وإن الثورة التي قام بها القبط في وجه سادتهم الجدد في سنة ٦٤٦م، حين طردوا العرب من الإسكندرية إلى حين،

(†) وردت أخطاء لغوية ونحوية في هذا النص أبقينا عليها وتركناها لفطنة القارئ.

(١) Amélineau, pp. 53 – 4 – 96 – 70.

(٢) أمدنا أبو صالح ببيان يشتمل على بعض الرهبان الذين انتحلوا الإسلام، ولا يبعد أن يمثل هؤلاء عدداً اكبر من الرهبان الذين لم يترك هذا المؤرخ ثبتاً بأسمائهم بسبب افتقاره إلى معرفة الظروف التي لابست ما لحق بهذا الدير من التلف أو ما حدث مما جعل أمثال هذه الحوادث ذات أهمية لديه (ص ١٢٨ ، ١٤٢) .

(٣) Lane , PP . 456 , 549.

(٤) LÜttke (1) vol. i, pp. 30, 35 : وقد كتب الدكتور اندرو وطسون DR . Andrew Watson لم تمر سنة واحدة في الأربع والأربعين سنة التي أقمتها في وادي النيل دون أن أسمع عن أمثلة عدة للمروق عن الدين لأسباب أهمها الأمل في نيل أغراض دنيوية مختلفة الأنواع، والاضطهاد القاسي المستمر، والتعرض لقسوة جيرانهم من المسلمين وميلهم للنهب، وتعرضهم للمهانة، والضعف السياسي على اختلاف أنواعه (Islam in Egypt: Mohammedan world, p. 24)

(٥) سويرس بن المقفع ص ١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٤٣.
ومن أولى المناسبات التي ضجوا فيها بالشكوى من الضرائب الفادحة ما حدث عندما أخذ ميناس والي مصر السفلى من مدينة الإسكندرية ٣٢,٧٥ قطعة من العملة الذهبية كرهاً بدلاً من ٢٢,٠٠٠ قطعة كان عمرو قد قرر جمعها (يوحنا أسقف نقيوس ص ٥٨٥) وقال رينودو Renaudot, p. 158) (أنه بعد أن استرد رجال الكنيسة سلطانهم بعد الفتح الإسلامي بنحو ٧٠ سنة، قاسى القبط على يد الكنيسة بقدر ما قاسوا على أيدي المسلمين أنفسهم.

وفتحوا أبواب هذه المدينة للجيوش البيزنطية (التي عاملت القبط المنكودين كأعداء، والذين لم يكونوا قد نسوا بعد الحفاوة التي قابلوا بها غزاة المسلمين من قبل)- كانت الأولى من سلسلة الثورات والفتن[١] التي طالما أثارتها الضرائب الفادحة، التي دفعتهم إلى القتل وعرضت جماعة المسيحيين من اليعاقبة في مصر إلى الصلابة في تحمله أكثر من أية فرقة من الفرق المسيحية في هذه البلاد أو في البلاد الأخرى التي كانت تحت حكم المسلمين. ولكن تاريخ هذه الحوادث يتصل بتاريخ اضطهاد المسلمين وتعصبهم الديني، أكثر مما يتصل بموضوع هذا الكتاب. على أنه يجب ألا نفرض أن حالة القبط كانت على الدوام حالة طائفة مضطهدة[†]؛ بل على العكس كانت هناك فترات كانوا يترقون فيها المناصب التي يتمتع أصحابها بالشهرة والغنى في الدولة. فملئوا مناصب الوزراء والكُتاب في دواوين الحكومة[٢][٣] وجمعوا ثروة ضخمة[٤] في بعض الحالات. ولقد أمدنا تاريخ كنيستهم بكثير من الأمثلة عن رجال الكنيسة الذين تمتعوا بعطف الأمراء الذين حكموا بلادهم، ونعم القبط في عهدهم بأقصى درجات الطمأنينة[٥]. وإلى مثل هذه الفترة التي تمتعت فيها الكنيسة بالسلام، يرجع ذلك الحادث الذي أدى إلى اندماج كثير من المسيحيين في جماعة المؤمنين.

فساد رجال الدين المسيحي كان من أسباب اعتناق الإسلام: وفي عهد صلاح الدين الأيوبي في مصر (١١٦٩– ١١٩٣ م) (٥٦٤ – ٥٨٩ هـ) تمتع المسيحيون بالسعادة إلى حد كبير، في ظل ذلك الحاكم الذي عُرف بالتسامح الديني. فقد خفف الضرائب التي كانت فرضت عليهم، وأزال بعضها جملة. وملئوا الوظائف العامة كوزراء وكتاب وصيارفة، وفي عهد خلفاء صلاح الدين نعموا بمثل هذا التسامح والرعاية، قرابة قرن من الزمان. ولم يكن هناك ما يشكون منه إلا ما اتصف به كهنتهم أنفسهم من الفساد والانحطاط. فقط فشت السيمونية بينهم، فبيعت مناصب القسيسين الذين اتصفوا بالجهل والرذيلة، على حين حيل بين الذين طلبوا التعيين وبين هذا المنصب المقدس بعجزهم عن أداء الأموال المطلوبة في احتقار وازدراء، مع أنهم كانوا من الجديرين بشغل هذا المنصب، وكان من أثر ذلك أن أهمل تثقيف الناس روحيّاً وخلقيّاً إهمالا تاماً، وبلغت الحياة المسيحية درجة محزنة من الانحلال[٦] كما بلغ من فساد الكنيسة أنه عند وفاة يوحنا الرابع

---

(١) ذكر المقريزي خمساً من الفتن الأخرى التي أثارها القبط والتي لم يكن بد من أن تقمع بقوة السيف في خلال القرن الأول لسيادة العرب (المقريزي (٢) ص ٧٢ – ٨٢).

(†) راجع ما ذكره المقريزي (ج١ ص ٧٩ – ٨٠) عن "انتقاض القبط وما كان من الأحداث في ذلك" وما ذكره عن دخول النصارى من قبط مصر في طاعة المسلمين وأدائهم الجزية واتخاذهم ذمة لهم وما كان في ذلك من الحوادث والأنباء". (جـ٢ ص ٤٩٢-٥٠١)

(٢) Renoudot, PP. 189.174.430.540.

(٣) Id. P. 603.

(٤) Id. PP. 432 , 607. Nasir – Khusrau : Safar- Namah , ed Schefer , PP 155 – 6.

(٥) Renaudot PP . 212 .225 , 314 , 374 , 540.

(٦) Renaudot , p . 588.

والسبعين من بطارقة اليعاقبة في سنة ١٢١٦ م، كان لابد من انتخاب خليفة له، وقام بين الجماعات المتاعدية المتناحرة التي لجت في إثارة حقوق المرشحين المتنافسين، نزاع عنيف استمر نحو عشرين سنة. إلا أنه لم يكن من سبيل إلى إصلاح ذات البين بين هذه الجماعات؛ فقد كان اهتمامهم طوال ذلك الوقت بما قد يترتب على ذلك من نتائج محزنة مخزية ضارة، أقل من اهتمامهم بالمحافظة على روح التحزب التي تنطوي على العناد وإثارة الشقاق. وفي أكثر من مناسبة، حاول السلطان الجالس على العرش أن يصلح بين هذه الفرق المتخاصمة ورفض ما عرضته عليه من رشا ضخمة بلغت ثلاثة الآلاف وخمسة الآلاف، بل عشرة الآلاف قطعة من العملة الذهبية ليغروه بأن يكفل لهم اختيار أحد المرشحين بالضغط وباستعمال نفوذه الرسمي. بل لقد عرض عليهم هذا السلطان أن يتجاوز عن المطالبة بالرسوم التي اعتاد أن يؤديها البطريق الذي يفوز حديثاً بالانتخاب، لو أنهم طرحوا منازعتهم ووصلوا إلى شيء من الاتفاق. ولكن هذه الجهود لم تحقق أي غرض من الإغراض. وخلا في الوقت نفسه كثير من الأسقفيات، ولم يكن هناك من يحل محل الأساقفة والقسيسين الذين ماتوا في تلك الفترة. ففي دير القديس مكاريوس وحده لم يبق غير أربعة من القسيسين بعد أن كان عددهم قد تجاوز الثمانين في عهد البطريق السابق[١]. وقد بلغ من شدة إهمال مسيحي أبرشيات الكنيسة الغربية أنهم تحولوا إلى الإسلام[٢]. ويؤسفنا أن ليس لدينا ما نزيده على هذا البيان الجريء الذي أتى به مؤرخ الكنيسة القبطية من المعلومات عن الجهود الفعالة التي بذلها المسلمون في سبيل تحويل هؤلاء المسيحيين إلى دينهم. وإذا كانت ثمة جهود قد بذلت في هذا السبيل، فهذا أمر لا يثير غير قليل جداً من الشك، وخاصة إذا علمنا أن المسيحيين قد قاموا بمحاولات علنية وشغلوا أنفسهم بتدوين المناقشات والمناظرات عن مزايا كل ديانة بالنسبة إلى غيرها[٣] من الديانات المنافسة لها. ومما يدل على أن تحول المسيحيين إلى الإسلام لم يكن راجعاً إلى الاضطهاد، ما وقفنا عليه من الشواهد التاريخية الأصلية وهو أنه في الوقت الذي شغر فيه كرسي البطرقية، تمتع المسيحيون بالحرية التامة في إقامة شعائرهم، وسمح لهم بإعادة بناء كنائسهم بل ببناء كنائس جديدة، وتخلصوا من القيود التي حتمت عليهم أن يركبوا الحمير والبغال، وحوكموا في محاكمهم الخاصة، على حين أعفى الرهبان من دفع الجزية، ومنحوا امتيازات معينة[٤].

---

(١) Id . PP . 567 . 571 -5.

(٢) Wansleben, P 30. ذكر فنسليبن مثلاً آخر وقع في ظروف متباينة عن تدهور الكنيسة القبطية في جزيرة قبرص التي كانت من قبل تحت نفوذ البطريق القبطي في المسائل القضائية. وقد بلغ من جزيرة قبرص التي كانت من قبل تحت نفوذ البطريق القبطي في المسائل القضائية. وقد بلغ من اضطهاد رجال الدين من الأرثوذكس، الذين تمتعوا بحماية الأباطرة البيزنطيين، أن البطريق لم يستطع أن يقنع القسيسين للذهاب إلى هنالك. وكان من أثر ذلك أن جميع القبط الذين أقاموا في الجزيرة، قبلوا الإسلام ديناً لهم، أو اعترفوا بمجمع خلقدونية، وأغلقت كنائسهم جميعاً (Id . P . 31.)

(٣) Reuaudot, P. 377.

(٤) idid . p . 377.

بلاد النوبة والعلاقات بينها وبين الدول الإسلامية: ومن الصعب أن نقدر إلى أي حد يعد هذا الحادث مثلاً لانتشار الإسلام بين القبط. وقد ذكر حالة مشابهة لهذا الإهمال اثنان من الرهبان الكبوشيين(†) قاما برحلة في النيل في القرن السابع عشر الميلادي إلى الأقصر، فوجدا أن القبط في هذه المدينة لم يكن لهم قسيس، وأن بعضهم لم يذهب للاعتراف أو يحضر القداس أو العشاء الرباني مدة خمسين سنة(١). وفي مثل هذه الظروف نستطيع أن ندرك بسهولة قلة عدد القبط. وقد حدث إهمال مماثل ربما يعزى إلى انحلال الكنيسة النوبية التي اعترفت بسيادة بطريق الإسكندرية اليعقوبي عليها، كما كان يفعل الحبشة حتى الوقت الحاضر. وقد تحول النوبيون إلى المسيحية حول منتصف القرن السادس الميلادي، واستردوا استقلالهم عندما فتح العرب مصر؛ وعقدت معاهدة كانوا بمقتضاها يقدمون في كل عام ثلاث مائة وستين من العبيد بالإضافة إلى أربعين عبداً يقدمونهم إلى والي مصر، على أن يمدهم العرب بالغلال والزيت والملابس(٢). وفي عهد الخليفة المعتصم (٨٣٣ – ٨٤٢ م) أرسلت السفراء ليجددوا هذه المعاهدة، وزار ملك النوبة حاضرة مصر حيث قوبل بالتعظيم والتبجيل، ثم عاد يحمل معه هدايا ثمينة ذات قيمة(٣). وكان جميع النوبيين في القرن الثاني عشر لا يزالون على المسيحية(٤)، واحتفظوا باستقلالهم القديم على الرغم من الحملات المتكررة التي كانت ترسل إليهم من مصر(٥). وفي سنة ١٢٧٥م استطاع ابن أخي ملك النوبة في ذلك الحين أن يظفر من سلطان مصر بقوة من الجيش تشد أزره في الثورة التي أعلنها على عمه. وقد استطاع بمعونتهم أن يعزله؛ ولم يكن بد من أن يترل للسلطان عن ولايتين في أقصى شمال النوبة جزاء مساعدته، ولما كان أهالي هذه المنطقة قد اختاروا البقاء على دينهم المسيحي، فقد فرضت عليهم جزية سنوية مقدارها دينار واحد على كل ذكر منهم(٦). على أن السيادة الإسلامية على هاتين الولايتين لم تكن إلا وقتية، فسرعان ما استعاد النوبيون الذين كانوا يسكنون في هاتين الولايتين استقلالهم(٧).

(†) الكبوشيون هم لابسو القلانس من رهبان الفرنسسكان نسبة إلى Capuche أي قلنسوة.

(١) Relation du voyage du Sayd ou de la Thebayde fait en 1668 . par les pp . protais et charles – Francois d' Orleans . Capuchins Missionaries . p .3. (Thevenot vol ii).

(٢) Caetani , Vol , iv , P , 520.

(٣) ishok , of Romgla pp . 272 -8.

(٤) الأدريسي ص ٣٢.

(٥) المقريزي (٢) ج١ القسم الثاني ص ١٣١ .

(٦) المقريزي ص ١٢٨–١٣٠.

(٧) Burckhardt(1), p. 494.

هجرة العرب إلى بلاد النوبة: ولكن العرب كانوا قد استقروا في النوبة قبل ذلك بعدة قرون، وزاد عدد العرب القاطنين على ضفاف النيل الأزرق، كما زادت ثروتهم زيادة كبيرة في القرن العاشر، حتى إنهم استطاعوا أن يلتمسوا الإذن ببناء مسجد في سوبة[١] عاصمة المملكة المسيحية[٢].

وفي القرن الثالث عشر، ومن أوائل القرن الرابع عشر خاصة، بدأ عن طريق الهجرة إلى بلاد النوبة اندماج العرب ولا سيما قبيلة جهينة الذين تزوجوا من نساء هذه البلاد، ونجحوا شيئا فشيئاً في كسر شوكة الأمراء النوبيين[٣]. ويخبرنا ابن بطوطة[٤] في النصف الثاني من القرن الرابع عشر أن النوبيين كانوا في وقته لا يزالون على المسيحية، مع أن ملك مدينة دنقلة[٥]، تلك المدينة الرئيسية في بلاد النوبة، كان قد دخل في الإسلام، وذلك في عهد الناصر (وربما كان هو الناصر محمد بن قلاوون أحد سلاطين مصر من المماليك الذي توفي في سنة ١٣٤٠ م). ولم تفلح الحملات المتكررة التي قام بها المسلمون في عصر متأخر كالقرن الخامس عشر في تقدم فتوحهم جنوبي الشلال الأول حيث كان يقع بالقرب منه آخر معقل من معاقلهم[٦]، على حين كانت المسيحية، فيما يظهر، تمتد بعيداً على طول نهر النيل حتى مدينة سنار.

الانحلال التاريخي للعقيدة المسيحية: ويظهر أن المملكة النوبية المسيحية قد صارت إلى الزوال، لظهور الانقسامات الداخلية من ناحية، ولهجمات القبائل العربية والإفريقية التي كانت تغير على حدود هذه المملكة من ناحية أخرى، وأخيراً لقيام دولة الفونج القوية في القرن الخامس عشر[٧].

ولكن من الجائز أن الإسلام في هذه البلاد كان يلقى خلال ذلك الوقت رواجاً على أيدي التجار وغيرهم من المسلمين الذين كانوا يترددون عليها. وقد نقل المقريزي الذي كتب في مستهل القرن الخامس عشر حكاية تتعلق بالدعوة، لا نجد لها ذكراً في مؤلفات العرب إلا في القليل النادر. وقد روى هذه القصة ابن سليم الأسواني، وهي من الأهمية بحيث تعطينا صورة حية للداعي المسلم الذي يعمل على نشر دعوته. ومع أن الداخل في الإسلام الذي أشارت إليه هذه القصة لم يكن مسيحياً ولا نوبياً، فإن القصة مع ذلك تبين لنا أنه

---

(١) وتقع على بعد اثني عشر ميلاً تقريباً من مدينه الخرطوم الحديثة.

(٢) Artin, PP.62, 144.

(٣) Becker , Geschicte des östlichen Sudan, p. 160.

(٤) ج٤ ص ٣٩٦.

(٥) ويسجل سلاطين باشا أسطورة متداولة بين عرب دنقلة، وهي أن هذه المدينة قد أسسها جدهم الأكبر دنقل الذي سمي المدينة باسمه (على أن هذا الزعم محال نظراً لأن دنقلة كانت في عصور المصريين القدماء وذكرت في الآثار) انظر (Vuren de Saint – Martin, vol.iix. pp. 85.) وتذكر الأسطورة أن هذا المدعو دنقل، مع أنه كان عبداً، تمكن من أن يكون حاكماً لبلاد النوبة، غير أنه كان يؤدي الجزية إلى بهنسا، الأسقف القبطي، لكل الإقليم الواقع بين سراس والديه الحاليين.(London, 1896) (Fire and Sword in the Sudan, p.p. 13)

(٦) ابن سليم الأسواني نقلاً عن المقريزي: كتاب الخطط ج١ ص ٩٠ (القاهرة ١٢٧٠ هـ).

(٧) Budge, vol, ii, P . 199 . Artin , P. 144.

كان هنالك شيء كهذا يتعلق بتحويل الناس إلى الإسلام في بلاد النوبة في القرن الخامس عشر. ويقول ابن سليم إنه رأى ذات مرة رجلاً في مجلس نوبي كان عظيم المقرة، وسأله عن بلده فقال مسافته إلى النيل ثلاثة أهلة. وسأله عن دينه فقال: "ربي وربك الله، ورب الملك ورب الناس كلهم واحد، وهو كائن في السماء وحده، فإذا أبطأ عنهم المطر أو أصابهم الوباء، أو وقع بدوابهم آفة صعدوا الجبل، ودعوا الله فيجابون للوقت، وتقضى حاجتهم قبل أن يتزلوا. فلما أقر الرجل أن الله لم يرسل قط رسولاً فيهم، ذكر له ابن سليم بعثه موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم، وما أيدوا به من المعجزات فقال: "إذا كانوا فعلوا هذا فقد صدقوا، وقد صدقتهم إن كانوا فعلوا"(١).

ويظهر أن النوبيين قد انساقوا من المسيحية إلى الإسلام بالتدريج وفي بطء شديد(٢). وكانت الحياة الروحية في كنيستهم قد انحدرت إلى أقصى دركات الانحطاط. ولما وجد المسيحيون ألا أمل في قيام حركة للإصلاح في مجتمعهم ؛ وأنهم قد فقدوا الاتصال بكنائسهم التي تقع فيما وراء حدودهم؛ لم يكن من الطبيعي إلا أن ينشدوا ما يشفي غلتهم ويسد رمقهم الروحي في الدين الإسلامي الذي حمل أتباعه بين هؤلاء الدليل على قوة حيويته وقتاً طويلاً؛ كما كانوا قد ظفروا بفريق من مواطنيهم الذين قبلوا الدخول في هذا الدين. وقد حفظ قسيس برتغالي تنقل في بلاد الحبشة بين سنتي ١٥٢٠؛ ١٥٢٧ صورة عن النوبيين في هذا الدور من الانتقال؛ إذ كتب يقول إنهم لم يكونوا نصارى ولا يهود ولا مسلمين؛ ولكنهم أصبحوا بحيث لا يدينون بدين ولا يعترفون بقانون؛ ولكنهم مع ذلك "كانوا يعيشون تحدوهم الرغبة في أن يكونوا مسيحيين". وقد انحدروا إلى أحط دركات الجهل بسبب ما وقع فيه رجال الكنيسة من خطأ؛ فلم يكن بين هؤلاء النوبيين أساقفة ولا قساوسة في ذلك الوقت. وكان من أثر ذلك أن أرسلوا إلى ملك الحبشة بعثة مؤلفة من ستة رجال، يلتمسون منه أن يرسل إليهم قسيسين ورهباناً لتعليمهم، ولكن النجاشي أبى أن يفعل إلا بعد أن يستأذن في ذلك بطريق الاسكندرية. ولما لم يظفروا بهذا الإذن، رجع هؤلاء السفراء السيئوا الحظ إلى أوطانهم يجرون أذيال الخيبة(٣). وقد روى مسيحي كان قد سافر إلى بلاد النوبة لهذا الكاتب نفسه، أنه كان قد عثر على ١٥٠كنيسة هنالك، كان لا يزال في كل منها صورة المسيح المصلوب، ومريم العذراء، وبعض القديسين منقوشة على الجدران. وكذالك وجدت كنائس(٤) في كل القلاع التي كانت منبثة في جميع أنحاء البلاد. وقبل نهاية القرن التالي،

---

(١) المقريزي كتاب الخطط جـ ١ ص ١٩٣.

(٢) morié, vol.i, pp. 417-18.

(٣) يذكر لورد ستانلي أف ألدرلي Stanley of Alderly في ترجمته لكتاب ألفاريز Alvarez من الأصل المكتوب باللغة البرتغالية أن رد الملك عليهم كان كما يأتي :"قال لهم أنه قد حصل على المطران من بلاد البربر، يعني بذلك من جهة بطريق الاسكندرية...فكيف يستطيع إذن أن يمد غيره بقسيسين ورهبان، مادام غيره يمدهم" (p.352,London,1831.)

(٤) viggio nella Ethiopia al prete lanni fatto par Don Francesco, Alvarez portughese (1520-1527).(Ramusio, tom. i. Pp.200,250)

ذهبت معالم المسيحية من بلاد النوبة، "وذلك بسبب النقص في عدد رعاة الكنيسة". أما الكنائس المغلقة فلم يكن بد من أن تظل قائمة في أنحاء البلاد[١]. وقد خضع النوبيون للمؤثرات الإسلامية القوية التي أحاطت بهم ويرجع إليها الفضل في الجهود التبشيرية التي قام بها المسلمون الذين تنقلوا في القرون الماضية، ففي الشمال كانت مصر وكذلك القبائل العربية التي كانت قد أخذت طريقها تجاه منابع النيل، ووسعت سلطانها على طول ضفاف ذلك النهر[٢]، وفي الجنوب كانت ولاية قبائل بلو **Belloos** الإسلامية تفصل بينهم وبين بلاد الحبشة[٣].

بين الحبشة والنوبة: وكانت هذه القبائل في مستهل القرن السادس عشر خاضعة لملك الحبشة المسيحي، على الرغم من أنها كانت تدين بالإسلام. وإذا صح أن هؤلاء البلو هم البليّون الذين تحدث عنهم الإدريسي في القرن الثاني عشر، وعدهم من النصارى اليعاقبة[٤]، وقرن اسمهم باسم قبائل البجة (سكان الجزيرة التي تعرف باسم جزيرة مرو) الذين كانوا يقطنون بجوارهم، فمن الجائز أنهم لم يقضوا إلا أعواماً قليلة قبل أن يتحولوا إلى الإسلام، في الوقت الذي أسلم فيه قبائل البجة الذين كانوا قد اندمجوا في دولة الفونج الإسلامية حين مد هؤلاء فتوحهم بين سنتي ١٤٩٩-١٥٣٠ من الجنوب حتى حدود بلاد النوبة والحبشة، وأسسوا ولاية سنار القوية. وعندما غزا جيش أحمد القرين بلاد الحبشة وشق طريقه في البلاد من الجنوب إلى الشمال. اتصل حول سنه ١٥٣٤ بجيش سلطان مسيحية أو مزجه **Maseggia or Mazaga**؛ وهى ولاية كانت خاضعة لحكومة إسلاميه. ولكنها كانت تدفع الجزيه لبلاد الحبشة، وتقع هذه الولاية بين بلاد الحبشة وسنار. وكان في جيش هذا السلطان ١٥ ألف جندي من النوبيين، وكانوا فيما يظهر لنا مما روي عنهم، يعتنقون الدين الإسلامي[٥]. ولما كانت أخبار تحول النوبيين إلى الإسلام شذرات غير كافية، فإننا نستطيع من غير شك أن نستخلص من كل ما نعرفه عن الشعب الذي جبل على الاستقلال، والذي عرف بتشبثه بالدين المسيحي طالما كان هذا الدين قوة حيه بينهم، أن تحولهم عن دينهم قد تم تدريجياً وفي خلال قرون كثيرة.

الإسلام بين الأحباش: ولننتقل الآن إلى الكلام على تاريخ الإسلام بين الأحباش الذين كانوا قد دخلوا في المسيحية قبل النوبيين بقرنين، وخضعوا مثلهم للكنيسة اليعقوبية.

ويبدوا أن تيار الهجرة العربية لم يكن قد تجاوز البحر الأحمر الذي كانت سواحله الغربية تكون جزءاً من مملكة الحبشة إلا بعد أن دخل العرب في دين محمد بقرون كثيرة و لم تكن هنالك حتى القرن العاشر

---

(١) Wansleben,p.30 للاطلاع على وصف البقايا التي لا تزال باقية من هذه الآثار. وراجع Budge, vol. ii, p. 299 sqq. G.S. Nileham, churches in Lower Nubia(philadelphia,1910)

(٢) Burckhardt(1), p. 133.

(٣) Alvarez, p. 250.

(٤) الأدريسي ص ٣٢.

(٥) عرب فقيه ص ٣٢٣.

الميلادي إلا أسر إسلامية قليلة العدد، تقيم في مدن الحبشة الساحلية. إلا أنه في نهاية القرن الثاني عشر أدى تأسيس دوله عربية إلى فصل بعض الأراضي الساحلية عن المملكة الحبشية. وحدث في عام ١٣٠٠ أن شق أحد الدعاة ويدعى أبا عبد الله محمداً، طريقه إلى بلاد الحبشة، داعياً أهلها إلى الإسلام. فلما تمكن من أن يجمع حوله مائتي ألف شخص. هجم في السنة التالية على حاكم أمهرة ، واشتبك معه في معارك كثيرة[١]. وقد اتخذ الملك سيف أرعد (١٣٤٢-١٣٧٠م) تدابير صارمة ضد المسلمين في مملكته، تقتضي بإعدام كل من أبى الدخول في المسيحية أو نفيهم من البلاد[٢]. وفي نهاية هذا القرن نفسه عمت البلاد حالة قلق واضطراب لانشغالها بالحروب الداخلية. ومهدت تلك الحالة السبيل للقبائل العربية المختلفة التي استقرت على طول الساحل لأن يجعلوا من أنفسهم سادة على المنطقة الساحلية بأجمعها، وطردوا الأحباش إلى المناطق الداخلية. وقد قيل إن الملك بشيد ماريام (١٤٦٨-١٤٧٨) قضى الجزء الأكبر من حكمه في محاربة المسلمين الذين كانوا يقيمون على الحدود الغربية من مملكته[٣]. وفي مستهل القرن السادس عشر بينما كانت مملكة "عدل" الإسلامية القوية الواقعة بين بلاد الحبشة والإطراف الجنوبية للبحر الأحمر وغيرها من الممالك في عداء مستحكم مع القوة المسيحية، كانت هناك ممالك أخرى تؤلف جماعه مسالمة خاضعة للقديس يوحنا **prester juhn**. ومن أمثلة هؤلاء قوم من العرب، كونوا يسكنون في مصوع، ويعيشون في كنف السادة الأحباش، وكانوا يطوفون في جماعات، كل منها يتألف من ثلاثين أو أربعين شخصاً. ومعهم نسائهم وأطفالهم، وعلى رأس كل جماعه "قائدها". وقد ذُكر كذلك أن بعض المسلمين كانوا في خدمة الملك، وأنه كان يسند إليهم مناصب هامة في الدولة. وفي الوقت الذي نرى فيه بعض هؤلاء يظلون على إخلاصهم للإسلام، نجد بعضاً آخر ينتحل الديانة السائدة في البلاد. أما أن هذه الجماعات الإسلامية كانت تؤدي الجزية لملك الحبشة، فهذا أمر لا نستطيع التثبت منه. وقد كان على مسلمي "هدية" أن يدفعوا جزية أخرى للملك، وهى أن يعطوه في كل سنة بنتا ينصرها له، وجرت هذه العادة في بلدهم بمقتضى معاهدة كان ملك الحبشة يحكم دائماً بها "وكان أقوى منهم"، ثم إنه حكم عليهم ألا يلبسوا عدة الحرب، ولا يمسكوا السيف، ولا يركبوا خيولهم بالسروج، قالوا: "وحكم علينا.. ونطيعه مخافة أن يقتلنا، ويخرب مساجدنا. وإذا أرسل إلينا الذي يتقبل البنت والمال، أخرجنا له البنت على السرير، ونغسلها ونكفنها بثوب ونصلي عليها، ونحسب أنها ميتة، ونعطيها له، فإنا وجدنا آباءنا وأجدادنا يفعلون ذلك"[٤].

غزوة أحمد القرين وحالات التحول إلى الإسلام في عهده: وكانت البقاع الرئيسية التي يقطنها هؤلاء المسلمون الذين يدفعون الجزية لملك الحبشة واقعة في الأراضي المنخفضة التي تؤلف حدود الحبشة الشمالية، من

---

(١) المقريزي (٢) جـ ٢ القسم الثاني ص ١٨٣.

(٢) Basset p.240.

(٣) Id., p.237.

(٤) عرب فقيه ص ٢٧٥-٢٧٦.

البحر الأحمر غرباً حتى سنار، وفي[1] الجهة الجنوبية والجنوبية[2] الشرقية من المملكة. وإن القول بما كان لهؤلاء المسلمين من تأثير في الشعوب المسيحية التي اختلطت بهم، وبأنهم عملوا على تحويل الناس إلى الإسلام، كما حدث في القرن الحالي، لا يعدو الحدس والتخمين. ولكن هناك أمراً لا شك فيه، وهو ما فعله أحمد القرين أمير"عدل" المسلم المستقل، وهو يروي عن نفسه أنه كان ابن أحد قساوسة أيجو **Aijo** المسيحيين؛ وكان قد ترك موطنه ودخل في الإسلام في "عدل"[3] فقد غزا بلاد الحبشة من سنة١٥٢٠ إلى ١٥٤٣، وانضم إلى جيشه الظافر كثير من زعماء الأحباش مع أتباعهم. وأصبحوا مسلمين. ومع أن أهالي بعض المقاطعات من المسيحيين قد آثروا أداء الجزية[4] وانتحل آخرون دين الفاتحين[5]، فإن المؤرخ المسلم المعاصر نفسه يذكر لنا أن هذا التحول إلى الإسلام كان في بعض الحالات نتيجة الخوف، وأن الشكوك كانت تساور النفوس حول إخلاص هؤلاء القريبي العهد بالإسلام [6]. ولكن من الجلي أن مثل هذه الحالة لم يكن عاماً بين الناس. وإن هذا التحول الواسع النطاق إلى الإسلام في مقاطعات كثيرة؛ ليوحي بأن هذه الحركة كانت قد لقيت تأييداً من العامة فقد استغل الزعماء المسيحيون الذين تحولوا إلى الإسلام نفوذهم الشخصي في تحريض جيوشهم على الاقتداء بهم. ويقال إن فريقاً منهم كان على جهل تام بأصول دينهم[7]، ومن ثم كان تغيير الدين أمراً أقل صعوبة عليهم. وقد تحول إلى الإسلام بمثل هذه الطريقة الآلية كثير من الناس وخاصة زعماء المسلمين، هؤلاء الذين كانوا قد دخلوا في خدمة ملك الحبشة وأولئك المرتدون الذين اتخذوا من غزو بلادهم على أيدي جيش المسلمين الفاتح فرصة لأن ينبذوا في الحال المسيحية: وطاعتهم للملك المسيحي وأن يعلنوا إسلامهم من جديد.

وفي سنه ١٥٣١م كتب أحد هؤلاء إلى أحمد القرين كتاباً هذا نصه: "أنا من أول مسلم وابن مسلم، وأسروني المشركون، ونصروني، وإن قلبي مطمئن بالإيمان، والآن أنا جار الله وجار رسوله وجارك، أن تقبل توبتي ولا تؤاخذني بما عملته، فأنا تائب إلى الله، وهذه جيوش الملك الذين هم معي، أنا احتال عليهم حتى يدخلوا عندك ويسلموا". – وفي الحق أثر السواد الأعظم من جيشه أن يقتدوا بقائدهم، فأسلموا جميعهم، وهم– فيما يقال – نحو عشرين ألفاً مع نسائهم وأولادهم[8].

بقاء الإسلام بعد مقتل القرين: ولكن الأحباش استطاعوا بمعونة البرتغاليين أن يخلعوا نير الغزاة المسلمين، وقتل أحمد القرين نفسه في سنه ١٥٤٣. ومع ذلك استقرت دعائم الإسلام في تلك البلاد. وإن

---

(١) نفس المرجع ص ٣١٩، ٣٢٤.

(٢) نفس المرجع ص ٢٨، ١٢٩، ٢٧٥.

(٣) Plowden, p. 36.

(٤) نفس المرجع والصفحات

(٥) ص ١٧٥، ١٩٥، ٢٤٨.

(٦) نفس المرجع ص ١٧٨

(٧) عرب فقيه ص ٣٤–٣٥، ١٢٠–١٢١، ١٨٢–١٨٣، ٢٤٤، ٣٢٧

(٨) عرب فقيه ص ١٨١ – ١٨٢، ١٨٦

حالة القلق التي أصابت مرافق البلاد في البقية الباقية من القرن السادس عشر، وفي القرن الذي يليه، قد مكنت الإسلام من البقاء، فقد كانت الكنائس المسيحية المتنافسة مشغول بعضها بالتنازع مع بعض انشغالاً لم يمكنها من التفرغ لعدوها المشترك. فإن ما قام به اليسوعيون من أعمال ناجحة في التبشير، وما فعله المبشرون الآخرون من الروم الكاثوليك، وما صنعه البرتغاليون من تدخل فعال في كل الشئون المدنية والسياسية – كل ذلك فقد أثار مقاومة عنيفة بين جمهرة مسيحي الحبشة. وكان هذا الشعور مؤلفاً حقاً، حتى لقد بلغ من ألمه أن بعض القواد قد أعلن صراحة أن من الخير لهم أن يخضعوا للحاكم المسلم من أن يظلوا على مخالفه البرتغاليين(١)؛ – وسرعان ما اتخذت الحركة شبه الدينية، وشبه الوطنية التي استقرت هناك مثل هذه الخطوات الواسعة التي أدت حول سنه (١٦٣٢) إلى طرد البرتغاليين وإخراج كل المسيحيين الأجانب من البلاد. وسرعان ما أصبحت حاله بلاد الحبشة في ذلك الحين ضرباً من الفوضى المزعجة وسوء النظام. وقد استغل بعض قبائل الجلا Gala هذه الفرصة فشقت طريقها إلى قلب البلاد حيث لا تزال الأماكن التي استوطنوها باقية إلى الوقت الحاضر.

ويمكن أن يقدر المرء مدى التقدم الذي أحرزه الإسلام في خلال هذه الفترة مما أثبته رحالة عاش في القرن السابع عشر، إذ يذكر لنا أن منتحلي هذا الدين كانوا في ذلك الوقت منبثين في جميع أنحاء بلاد الحبشة وأنهم يؤلفون ثلث جميع السكان(٢). ويلوح أن الإسلام قد كثر في خلال القرن الذي يليه عن طريق إسلام أفراد كانوا يعيشون في عزلة هنا وهناك. وقد ساعد عدم وجود أية حكومة مركزية قوية على ظهور أمراء مستقلين، وكان كثير منهم يعطف على الإسلام عطفاً شديداً، مع أن كل أمراء الحبشة (وذلك طبقاً لأحد القوانين الأساسية للدولة) لم يكن بد من أن يتبعوا الدين المسيحي. وكذلك تنكر المسلمون لديانتهم التي نشئوا عليها، تطلعاً إلى عظمه الأرستقراطية الحبشية، وتظاهروا بالتحول إلى المسيحية حتى يتمكنوا من الانتظام في سلك الإشراف، واستخدموا كل مالهم من نفوذ في نشر الإسلام(٣) بصفتهم حكاماً على الولايات المسيحية. ويظهر أنه كان من أهم الأسباب التي أدت إلى نجاح هذا الدين ما كان للمسلمين من تفوق أدبي إذا وزنوا بسائر أهالي الحبشة من المسحيين.

الإسلام في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: ويقول ريبل **Rüppell** أنه كثيراً ما لاحظ في خلال رحلاته في بلاد الحبشة، أنه عندما يراد شغل منصب من المناصب التي تتطلب أن يكون الشخص الذي يشغلها

---

(١) jobi ludolfi ad suam Historism Ethiopicam Commentarius ,p.474, Frankfurt ,a.m,16971.

(٢) Histoire de la Haute Ethiopis, par le R. p. Manoel d'almeïda, p. 7.(Thevenot, vol. ii). Massaja, vol, ii, pp. 205-6

(٣) Massaja, vol. ii, pp. 206-6. "ومن الواضح أن ارتداداً نتج عن حب السيطرة؛ لم يكن في الواقع إلا تنفيذ إجراء شكلي، إذ أن هؤلاء المرتدين كانوا مسلمين حقيقيين في قلوبهم وسلوكهم، ومن ثم كانوا إذا ما ارتقوا إلى رتبة "راس" يحيطون أنفسهم بالمسلمين، ويعهدون إليهم في أكثر الوظائف ويغمرونهم بالألقاب والثروة والنعم. وهكذا انضوت الحبشة المسيحية المجتاحة والآهلة بهذا الجنس السيئ؛ تحت لواء الإسلام ".

أميناً كل الأمانة، موثوقاً به تمام الثقة، كان اختيارهم يقع دائماً على شخص مسلم. وقد عقد الكاتب مقارنة بينهم وبين المسيحيين، فقال أنهم (أي المسلمين) كانوا أكثر حيوية ونشاطاً، فقد التزم كل مسلم تعليم أبنائه القراءة والكتابة، في الوقت الذي نرى فيه أبناء المسيحيين لا يتعلمون إلا عندما يزمعون القيام بأعمال الكهنوت[١]. وإن ما ناله مسلمو الحبشة من هذا التفوق الأدبي على الأهالي المسيحيين، ليفسر لنا إلى حد بعيد ما أحرزه الإسلام من تقدم مستمر، وإن كان بطيئاً في خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وإن ما اتصف به رجال الكنيسة الحبشية من انحطاط وجمود، وما شجر بين زعماء الحبشة من منازعات لا حد لها، قد أفسحت للمؤثرات الإسلامية المجال لتعمل في حرية واطمئنان.

وعندما تحدث مستر بلودن **plowden** قنصل انجلترا في بلاد الحبشة من سنه ١٨٤٤ إلى ١٨٦٠ م، عن قبائل الحباب وهى ثلاث قبائل تنتمي إلى فرع التيجرى **tigré** وكانوا يقطنون بين خطى عرض ١٦°، ١٧,٣٠° إلى الشمال الغربي من مصوع، قال أنهم اعتنقوا الإسلام "في خلال مائة العام الأخيرة. وكلهم ما عدا الجيل الأخير، يحملون أسماء مسيحية. وقد غيروا ديانتهم لما كان للمسلمين الذين كانوا يتجرون معهم من تأثير متصل، وبما صنعه زعماء الحبشة من تركهم البلاد تدريجياً، وقد أصبح الآن شاملاً لفرط انشغالهم مع جيرانهم في حروب لا تنقطع"[٢]. ومن أساطيرهم أن أحد زعمائهم ويدعى جاوج **jawej** قد رفض المسيحية ودخل في الإسلام، اعتقاداً منه أن هذا الدين يورث حسن الحظ وطول العمر، قال حينئذ لقسيسه :"حطم التابوت قطعة قطعة"[٣] فأجاب القسيس: "إني لا أجرؤ على أن أحطم تابوت مريم قطعة قطعة"عند ذلك أمسك جاوج التابوت بيديه ثم أهوى عليه بفأسه، فهشمه قطعاً، وهنا اعتنق القسيس الإسلام وأصبح كل ذراريهم شيوخاً للقبيلة حتى الوقت الحاضر[٤].

وفي هذه الفترة ذاتها تحولت جموع أخرى من أهالي المقاطعات الشمالية في هذه البلاد إلى الإسلام بطريقة مماثلة، ذلك أن القساوسة كانوا قد هجروا هذه المقاطعات وتعرضت الكنائس للخراب،- و لم يكن ذلك فيما يظهر إلا نتيجة الإهمال، إذ يقال إن المسلمين في تلك البلاد لا يعرفون التعصب في أية صورة من صوره، ولا يضمرون للمسيحية أي نوع من العداء[٥]. وهناك شهادة مماثلة أدلى بها رحالون آخرون[٦] تؤيد تقدم الإسلام في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، فقد وجد هؤلاء الرحالون جموعاً من المسيحيين في تحول مستمر إلى هذا الدين. وقد عطف على المسلمين بوجه خاص (راس علي) أحد نواب الملك في بلاد الحبشة،

---

(١) Rüppell ,vol .i, pp.328,366.

(٢) .plowden.p.15.

(٣) أي تابوت العهد

(٤) littmann. pp. 69-70.

(٥) Plowden, pp. 8-9.

(٦) Beke pp.51-2.lsenberge, p.36.

وكانت له السيادة الفعلية على هذه البلاد قبل أن يجلس الملك تيودور على عرشه سنه ١٨٥٣. ومع أن هـذا النائب نفسه كان مسيحياً فقد قسم مناصب الدولة، بل ما غنمه من الكنائس بين أتباع الدين الإِسلامي. وفي أثناء حكمه اعتنق الإِسلام نصف أهالي الولايات الوسطى من بلاد الحبشة[١]. وقد مد هذا الدين الآن جذوراً بعيدة الغور في أرض الحبشة، حتى إن أتباعه ملكوا ناصية التجارة كلها، كما ملكوا المهن الصغيرة بأنواعها في البلاد، ونعموا بأملاك واسعة، وسيطروا على مدن كبيرة وأسواق هامة، وظفروا بنفوذ قـوي علـى جمهـرة الشعب. وقد قدر مبشر مسيحي، عاش في هذه البلاد خمساً وثلاثين سنة، نجاح دعاة المسـلمين وحماسـتهم تقديراً عظيماً بقوله: لو أن هناك أحمد قرين آخر ينهض وينشر راية النبي، لصارت بـلاد الحبشـة مسـلمة بأسرها[٢]. وقد أدى الشقاق الذي وقع بين الحبشة والحكومة المصرية (التي اشتبكت معها في حرب من سـنة ١٨٧٥ إلى ١٨٨٢) إلى إحداث شعور استياء في وجه الإِسلام: فقد انعكست كراهيتهم للعدو الأجنبي المسلم على إخوانهم في الدين الذين أقاموا بين ظهرانيهم. وفي سنه ١٨٧٨ عقد الملك جون مجمعـاً يضـم رجـال الكنيسة الحبشية، ونادوا به حكماً أعلى في المسائل الدينية، وقرروا وجوب الاقتصار على دين واحد في كافـة أنحاء المملكة. وأعطى المسيحيون على اختلاف طوائفهم ما عدا اليعاقبة، مهلة عامين ليصبحوا فيها متفقـين في الرأي مع كنيسة البلاد وألزم المسلمين بالتسليم في خلال ثلاث سنين، والوثنيون خلال خمس. وأذاع الملـك مرسوماً بعد ذلك بأيام قليلة، أوضح فيه أن مهلة السنوات الثلاث الذي منحها المسلمون كانت قليلة الأهمية. وذلك أنه لم يقتصر على إلزامهم ببناء كنائس مسيحية متى كانوا في حاجة إليها، ودفع العشـور للقساوسـة الذين في مقاطعاتهم الخاصة، بل أنذر كل الموظفين المسلمين بأن يختاروا في خلال ثلاثة أشهر بين قبول التعميد أو التخلي عن مناصبهم. وكان مثل هذا التنصير الإجباري الذي لا يشتمل إلا على طقـوس العمـاد ودفـع العشور) عديم الأثر بطبيعة الحال. ففي الوقت الذي تظاهر المسلمون فيه بالقبول كانوا في الخفـاء يؤكـدون ولاءهم لدينهم القديم. وقد شاهد مساجاً بعضاً من هؤلاء يخرجون من الكنيسة التي عمدوا فيهـا قاصـدين المسجد، يلتمسون فيه رجلاً مباركاً من رجال دينهم، يمحو عنهم ما لحقهم من التعميد الذي أرغموا عليه[٣]. وإِن ما جعل كل هذا التنصير أضعف أثراً وأقل قيمة هو أنه كان مقصوراً على الرجال دون النساء، ذلك أنـه لما كان المرسوم الملكي لم يشر إلى النساء في قليل ولا كثير، فإنهن لم يتعرضن لسوء بحال،- وهى حالـة ربمـا دلت على معنى كبير فيما سيحدث بعد في مستقبل الإِسلام في بلاد الحبشة، كما أن مساجاً يقـيم البرهـان الساطع على ما قام به النساء المسلمات من دور خطير في سبيل نشر دينهم في هذه البلاد[٤]، فيقول إن الملـك جون أرغم حول سنة ١٨٨٠ما يقرب من خمسين ألف من المسلمين على التعميد، كما أجبر عشرين ألفاً مـن

---

(١) Massaja. Vol. xi.p.125.Reclus.vol. x, p.247.

(٢) Massaja, vol, xi. p. 124.

(٣) Massaja.vol. xi, pp.77-8.

(٤) ld, pp.124, 125.

أفراد إحدى القبائل الوثنية ونصف مليون من قبائل الجلا[١]. ولكن لما كان تنصيرهم لم يتجاوز التعميد ودفع العشور، فلا عجب إذا عرفنا أن هذه الوسائل التي تقوم على العنف والإرهاب، لم تؤد إلا إلى زيادة العداوة والبغضاء في نفوس الأحباش المسلمين والوثنيين جميعاً نحو الدين المسيحي[٢]. وقد اغتنم ملك ولاية كافا الصغيرة (التي كانت تعترف بالسيادة الحبشية بصفة دائمة تقريباً) – واسمه **sawo-Teheno** - فرصة ارتباك الملك جون الذي هدده الإيطاليون وأتباع المهدي في وقت واحد، فأعلن(ملك كافا) استقلاله واعتنق الإسلام ليكون بذلك أقوى نفوذاً فيما يعمل. وقد أفلح في مقاومة كل هجوم حتى سنه١٨٩٧، حتى غزيت ولايته مرة أخرى وآسره الإمبراطور منليك ملك شوا **shoa** السابق، الذي وطد سلطانه في جميع أنحاء بلاد الحبشة بعد وفاة الملك جون سنة ١٨٨٩ وعاد الدين المسيحي ديناً رسمياً في ولاية كافا بأسرها، وتجددت العبادة المسيحية في الكنائس التي تركت لم تمس بسوء، وكان بعضها قد أغلق أو تحول إلى مساجد[٣]. ولكن هذه التدابير الصارمة التي أُتخذت لصالح المسيحية قد أخفقت في وقف نمو النفوذ الإسلامي في خلال القرن التاسع عشر. فقد أسلمت قبائل بأجمعها، كانت يوماً ما تدين بالمسيحية ولا تزال تحمل أسماء مسيحية مثل قبائل تاكليه **Taklés** (أي نبات يسوع)، وهبتيه **Hebtés** (عطية يسوع)، وتيما ريام **Temaryam**(عطية مريم). وكانت قبيلتا منساع **Mensa** مسيحية بأسرها حول منتصف القرن التاسع عشر، ثم دان السواد الأعظم منهما بالإسلام في مستهل القرن العشرين. ويلوح أن الجهود التي قام بها دعاة المسلمين الذين أدخلوهم في الإسلام ، كانت ممهدة السبيل بسبب جهل رجال الكنيسة. كذلك قامت حركة مماثة لنشر الإسلام، ظلت مستمرة بعض الوقت بين قبائل أخرى[٤].

شمال إفريقية واتساع نطاق المسيحية فيه: ولنعد الآن إلى تاريخ إفريقية في القرن السابع الميلادي عندما كان العرب يسيرون بفتوحاتهم قدماً من الشرق إلى الغرب على طول الساحل الشمالي. وقد كان فتح مصر أمراً ميسوراً بالنسبة إلى غيره من الفتوح، حيث قامت جموع غفيرة من السكان بمساعدة العرب في وضع حد للحكم البيزنطي. ولا مجال للمقارنة بينه وبين تلك المعارك الدامية، والمقاومة المتوالية الطويلة الأمد التي حالت دون التوغل في تقدمهم في فتح إفريقية. وقد مضى نصف قرن قبل أن يظفر العرب بالسيادة التامة على الساحل الشمالي الذي يمتد من مصر إلى المحيط الأطلسي. و لم تكد قرطاجنة تسقط سنة ٦٩٨م حتى زال الحكم الروماني من إفريقية زوالاً لا رجعة له، كما أن إخضاع البربر قد مكن العرب من أن يصبحوا سادة هذه البلاد.

---

(١) Oppel, p.307.Reclus, tome, xx. P. 247.

(٢) Massaja, vol. xi, pp.79. x. 81.

(٣) Morié, vol. ii, p. 449.

(٤) Littmann , pp.68-70 K. Cederquist: Islam and Christianity in Abyssinia, p.154 (The moslem world , vol.ii)

كيف انتشر الإسلام في شمال إفريقية: وليس من غرضنا في هذا الكتاب أن نتعرض لتفاصيل هذه الغزوات، وإنما يحسن بنا أن نحاول البحث عن الطريقة التي انتشر بها الإسلام بين أهالي هذه البلاد المسيحيين. ويؤسفنا أن المادة التاريخية التي تعيننا على تحقيق هذا الغرض قليلة غير وافية. فماذا كان مصير تلك الكنيسة الإفريقية الكبرى التي كانت قد أمدت العالم المسيحي بأمثال هؤلاء القديسين ورجال الدين؟ لقد زالت كنيسة ترتوليان **Tertullian**، وكنيسة القديس سايبريان **Cyprian** وكنيسة القديس أوجوسطين **Augustine**. التي كانت قد خرجت ظافرة من أمثال هذه الاضطهادات الكثيرة، والتي ناضلت في قوة وعنف عن قضية الأرثوذكسية المسيحية، كل ذلك، فيما يظهر، قد تلاشي كما يتلاشي الضباب.

أسباب تدهور المسيحية ليست راجعة إلى تعصب المسلمين: ولما لم يكن ثمة أخبار محدودة واضحة، تعود بعض الباحثين أن ينسبوا اختفاء المسيحيين من أهالي تلك البلاد إلى اضطهاد الفاتحين المسلمين الذي أملته عليهم روح التعصب الديني وإكراههم على الدخول في الإسلام. ولكن هناك اعتبارات شتى تدفع ما استقر عليه الرأي في هذه المسألة الشائكة. أولها عدم وجود الدليل البين الذي يؤيد مثل هذا الرأي. لقد كانت هنالك المذابح وأعمال التدمير وكل ما اقترن بحرب دامية طويلة الأمد، وكانت من الكثرة بحيث تثير الرعب والفزع، أما ما يتعلق باضطهاد ديني حدث فعلاً فإن المؤرخين لم يذكروا عنه إلا شيئاً قليلاً. وإن بقاء الكنيسة المسيحية الوطنية بعد الفتح العربي أكثر من ثمانية قرون، لشاهد على روح التسامح التي استطاعت وحدها أن تجعل مثل هذا البقاء أمرًا ممكنا. فمن اللازم أن نلتمس الأسباب التي مهدت السبيل إلى تدهور المسيحية في شمال إفريقية في شيء آخر أكثر مما نلتمسها في تعصب الولاة المسلمين. ولكن قبل أن نحاول بسط هذه الأسباب، يجدر بنا أن نتبين كيف أن عدد الأهالي المسيحيين في نهاية القرن السابع الميلادي كان لابد أن يكون قليلاً جداً- وهذه حالة تجعل استمرار بقائهم في ظل الحكم الإسلامي أقوى دلالة على انعدام وسائل العنف والإكراه في التحول إلى الإسلام، كما أن هذه الحالة تجعل هذا الزعم واهياً لا ينال شيئاً يذكر من القبول بالنسبة إلى ما كانت تكون عليه الحال لو أن العرب وجدوا هناك كنيسة عظيمة مزدهرة، عندما أخذوا في فتح إفريقية الشمالية.

وإن الولايات الرومانية في إفريقية التي كان الأهالي المسيحيون محصورين فيها لم تمتد قط بعيداً إلى الجنوب، فإن الصحراء الكبرى تقف حاجزاً منيعاً في هذا الاتجاه، حتى إن اتساع الساحل لا يتجاوز ثمانين أو مائة ميل إلا في القليل النادر(١). ومع أنه كان هناك قبيل غزو الوندال عدد كبير من الأسقفيات قد يبلغ الخمسمائة، لا يجوز أن يكون هذا العدد مقياساً لعدد المؤمنين من المسيحيين، نظراً لما جرت عليه العادة التي كانت متبعة في الكنيسة الإفريقية من تعيين أساقفة في معظم المدن الصغيرة الشأن، والإكثار من تعيينهم على أغلب القرى التي لا شأن لها(٢). ثم إننا لا نشك فيما إذا كانت المسيحية قد امتدت إطلاقاً بين قبائل البربر(٣)

---

(١) Gibbon,vol. i, p.161.

(٢) Id. Vol. ii, p.212.

(٣) C.O.Castiglioni: Recherches sur les Berbercs atlantiques , pp.96-7(milan,1826).

إلى المناطق الداخلية، وعندما انحلت قوة الدولة الرومانية في القرن الخامس الميلادي، احتشدت قبائل مختلفة، تنتمي إلى ذلك الجنس العظيم، وهم الذين يعرفون عند الرومان بأسماء البربر **Moors** وأهالي إقليم الزاب (**Numidians**) والليبيين **Libyans** إلخ....احتشدت في جماعات كثيفة، وسارت من الجنوب تعبث في الأرض فساداً، وتخرب المدن الغنية التي تقع على الساحل. هؤلاء الغزاة كانوا وثنيين من غير شك؛ فهؤلاء الليبيون الذين رثى سينيسيوس القورينائى **Synesius of Cyrene** ما قاموا به من أعمال التدمير والتخريب رثاءً رقيقاً شجياً، قد نهبوا الكنائس، وأحرقوها ونقلوا الآنية المقدسة لاستخدامها في عبادتهم الوثنية الخاصة[١]. ولم تفق ولاية برقة **Cyrenaica** هذه أبداً مما قاموا به من أعمال التدمير. والراجح أن المسيحية في هذه الولاية كادت تزول في زمن الغزو الإسلامي. وإن زعيم البربر في مقاطعه طرابلس **Tripolis** الذي كان في حرب مع ثورسمند **Thorismund** ملك الوندال (٤٩٦-٥٢٤م)، لم يحترم إلا الكنائس الأرثوذكسية ورجالها الذين كانوا يلقون سوء المعاملة من الوندال، هذا الزعيم قد جهر بدينه الوثني حين قال: "لست أعرف من يكون إله المسيحيين، ولكنه إذا كان قوياً كما يصورنه، فإنه سيثأر من هؤلاء الذين يحقرون من شأنه، ويخلص هؤلاء الذين يمجدونه"[٢]. وهناك نوع من الاحتمال أن الكثرة المطلقة من بدو مرطانية **Mauritania** كانوا كذلك يدينون بالوثنية.

على أنه مهما يكن اتساع الكنيسة المسيحية فقد تلقت من اضطهادات الوندال ضربة لم تفق منها أبداً. فقد ظل الوندال الآريون قرابة قرن من الزمان، يضطهدون الأرثوذكس اضطهاداً عنيفاً لا هوادة فيه، فشردوا أساقفتهم، وحرموا الجهر بإقامة شعائرهم الدينية، وقسوا في تعذيب هؤلاء الذين أبوا أن يدخلوا في ديانة من فتحوا بلادهم[٣]. فلما سحق بليزاريوس **Belisarius** قوة الوندال سنه ٥٣٤م، وأعاد شمال إفريقية إلى الدولة الرومانية لم يلتق في مجمع قرطاجنة[٤] إلا ٢١٧ أسقفاً لاستئناف إدارة الكنيسة المسيحية. وبعد أن تعرضوا لاضطهاد مرير طويل الأمد، استسلموا له مكرهين، لم يكن بد من أن ينقص عدد المخلصين للدين نقصاً كبيراً. وفي خلال القرن الذي انقضى قبل قدوم المسلمين، حدثت غارات قام بها البرابرة من قبائل المغرب الذين قطعوا الطريق على الرومان في المدن وغيرها من المراكز الأهلة بالسكان، واحتفظوا لأنفسهم بالجبال والصحراء والبلاد المكشوفة[٥]. وإن انتشار الفوضى وفساد الأدارة الحكومية، فضلاً عن تفشي الأوبئة الفتاكة التي تميز بها النصف الثاني من القرن السادس – كل هذه الأمور تضافرت على استمرار أعمال التخريب. وقد قيل أن الحروب وحكومة الإمبراطور جستنيان قد أفنت خمسة ملايين من الإفريقيين. وهجر المواطنون الذين

---

(١) Synesii Catastasis. (Migne: patr.Gr.tom,ixvi,p.1569)

(٢) Neander(2), p.310

(٣) Gibbon,vol, pp.831-3.

(٤) Id vol. v, p. 115.

(٥) Gibbon, vol. p.122 التيجاني؛ ص٢٠١

كانوا أيسر حالاً بلاداً كانت فيها التجارة والزراعة من قبل مزدهرة أيما ازدهار، ولكنها أصبحت الآن خراباً لا سبيل إلى علاجه. "وهكذا تم خراب إفريقية، حتى إن الغريب كان يطوف في كثير من أنحائها أياماً كاملة دون أن يصادف وجه صديق أو عدو. زالت أمة الوندال، وكان قد بلغ عدد أهليها من قبل مائة وستين ألفاً من المحاربين، عدا الأطفال والنساء والعبيد. وكانت تزداد جموعهم زيادة لا حد لها، بانضمام عدد من العشائر البربرية التي انقرضت في إحدى الحروب الطاحنة الدامية. كذلك حل الدمار نفسه بالرومان وحلفائهم الذين أهلكهم المناخ والمنازعات المتبادلة وثورة البرابرة"[1].

وحدث قبل أن يتقدم العرب الظافرون من مصر لإخضاع الولاية الغربية بعام أي في سنه ٦٤٦ م، أن الكنيسة الإفريقية التي ناضلت كثيراً في سبيل تطهير العقيدة المسيحية قد آثارها إلى أبعد حد ما قام من صراع ضد المذهب القائل بأن للمسيح مشيئة واحدة **Monotheletism**، ولكن عندما قام أساقفة الولايات الدينية الأربع في أبرشية قرطاجنة وهي مرطانية **Mauritania** وإقليم الزاب **Numidia** والولايات الداخلية **Byzacena** وولاية إفريقية القنصلية[†] **Africa proconsularis**، وعقدوا مجامع لإدانة أنصار هذا المذهب وكتبوا خطابات محفلية إلى كل من الإمبراطور والبابا، لم يكن هناك إلا ثمانية وستون أسقفاً اجتمعوا في قرطاجنة ليمثلوا هذه الولايات الأخيرة، واثنان وأربعون يمثلون الولاية الداخلية. أما عدد الذين مثلوا الأسقفيتين الأخيرتين، فلم يذكر عنهم شيء، غير أن الأهالي المسيحيين كانوا من غير شك قد عانوا في هاتين الأسقفيتين أشد كثيراً مما كانت تعانيه الأسقفيتان الأخريان اللتان كانتا أقرب إلى الحكومة[2]. وليس من المحتمل بحال أن يتخلف أسقف من الأساقفة عن الحضور في مناسبة أثارت شعوراً كبيراً، في الوقت الذي تضافرت فيه الحماسة في سبيل العقيدة المسيحية والخصومة السياسية للبلاط البيزنطي على تشجيع هذه الحركة، وفي الوقت الذي أخذت فيه إفريقية على عاتقها نصيباً كبيراً من إثارة المعارضة التي أدت إلى انعقاد مجمع لاتيران **latrean** الأعظم سنه ٦٤٨م. ومن المؤكد أن النقص في عدد الأساقفة يدل على نقص كبير في عدد الأهالي المسيحيين. وإذا نظرنا إلى الأسباب المتعددة التي أدت إلى تأخر الأهالي، فلا ينبغي كذلك أن نعطي أهمية كبيرة جداً لعدد هؤلاء، لأن من الممكن أن يظل أي كرسي من كراسي الأسقفية مشغولاً زمناً طويلاً بعد أن يخمل ذكرى الأسقفية وتصبح قليلة الخطر.

---

(١) Gibbon, vol. v, p. 214.

(†) وكانت هذه الولاية تضم ولاية إفريقية الأصلية والجزء الشرقي من تونس الحالية الذي كان يسمى زوجيتانيا Zeugitania، والمنطقة الداخلية منها التي تمتد حتى فزان المسماه بيزاسينا – الدكتور حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب (القاهرة ١٩٤٧) ص٢.

(٢) Neandwe (1), vol. v, pp. 254-5, J. E. T. Wiltsch: Hand – book of the geography and statistics of the church, vol. I, pp. 433-4 (London, 1859) Bournichon: L'Invasion musulmans en Afrique, pp. 32-3, (Tours; 1890).

ومن الاعتبارات التي ذكرناها من قبل، يمكن أن نستنتج في شيء من التأكد أن الأهالي المسيحيين في وقت الفتح الإسلامي لم يكن عددهم كبير بحال من الأحوال. وقد ظل عدد الأهالي المسيحيين في خلال الخمسين عاماً التي انقضت قبل أن يحرز العرب انتصارهم، ينقص شيئاً فشيئاً من جراء ما أصابهم من أعمال التخريب في هذا النزاع الطويل. فقد نهبت مدينة طرابلس بعد أن قاست الحصار ستة أشهر، وقتل جانب من السكان بحد السيف، وسيق الآخرون أسرى إلى مصر وبلاد العرب(١). ودافع أمير روماني عن مدينة أخرى كانت تتاخم الصحراء النوميدية، ومعه حامية كبيرة تحملت بشجاعة حصاراً دام عامًا كاملاً، ولما أخذت المدينة عنوة آخر الأمر أعدم جميع الرجال بالسيف، ووقع النساء والأطفال في الأسر(٢). وقد قيل أن عدد أمثال الأسرى بلغ كثيرًا من مئات الآلاف(٣). كما فر كثير من المسيحيين(٤)، بعضهم إلى إيطاليا وأسبانيا(٥)، وآخرون يلوح أنهم قد طوقوا في الآفاق حتى بلغ ألمانيا، نستدل على ذلك مما كتبه البابا جريجوري الثاني **Cregory II** في خطاب أرسله إلى أسقفية القديس بونيفاس **St. Boniface**(٦) وفي الواقع إن كثيرًا من المدن الرومانية الكبرى قد أخليت من سكانها إخلاء تامًا، وظلت خاوية على عروشها وقتًا طويلاً وتركت لتصبح أطلالاً بالية(٧)، على حين اختار الفاتحون كما حدث في أحوال كثيرة، مواقع جديدة، تمامًا لتأسيس مدنهم الهامة(٨).

أما البقايا المبعثرة للكنيسة المسيحية التي كانت مزدهرة من قبل، والتي كانت لا تزال باقية في إفريقية في نهاية القرن السابع، فمن الصعب أن نزعم أن الاضطهاد هو المسئول عن فنائها النهائي، إذا واجهنا الحقيقة القائلة بأن آثار طائفة مسيحية إفريقية كانت قائمة حتى في عصر متأخر يرجع إلى القرن السادس عشر. ومن الحق ما يقال من أن إدريس مؤسس الأسرة الحاكمة في مراكش، وهي التي نسبت إليه وحملت اسمه، قد أرغم

---

(١) Leo africanus (Ramusio, tom. I, p. 70, D)

(٢) "ومدينة ديسن .Deusen قديمة جداً، بناها الرومان على حدود مملكة Buggia وصحراء نوميديا". (Id. P. 75, F.)

(٣) Pavy, vol. i, p. iv

(٤) "وجميع الذين لم يتحولوا إلى الإسلام، أو الذين تمسكوا بعقيدتهم وأبوا أن يلتزموا دفع ضريبة الرأس، قد اضطروا إلى الفرار أمام الجيوش الإسلامية". (التيجاني ص ٢٠١)

(٥) Leo Africanus (Ramusio, tom. Tom. i, p. 7.)

(٦) "كان يونيفاس لا يرحب مطلقًا بالإفريقيين الذين أقبلوا من كل صوب على نظم الكنيسة، لأنه قد ثبت أن بعضهم كان من أصحاب ماني، وبعضهم الآخر كان قد عمد أكثر من مرة" Epist iv (Migne: Patr. Lat, tom. Ixxxix, p. 502)

(٧) Leo Africanus (Ramusio.pp. 65, 66, 68, 69, 76.

(٨) تأسست القيروان سنة ٥٠هـ، وفارس سنة ١٨٥هـ، المهدية سنة ٣٠٣هـ، ومسيلة سنة ٣١٥هـ، ومراكش سنة ٤٢٤هـ. (أبو الفدا جـ٢ ص ١٨٦، ١٨٧، ١٩١، ١٩٨، ٢٠٠).

النصارى واليهود على الدخول في الإسلام في سنة ٧٨٩م، عندما شرع في تأسيس مملكة لنفسه بحد السيف[١]. على أن هذه الحادثة، لم يكن لها نظير في تاريخ الكنيسة الوطنية في إفريقية الشمالية[٢].

إنحلال الكنيسة التدريجي دليل على تسامح المسلمين: وإن إنحلال الكنيسة في بطء شديد لدليل على التسامح الذي لابد أن تكون قد عوملت به هذه الكنيسة. فقد وجد بعد الفتح الإسلامي بثلاثمائة سنة تقريباً ما يقرب من أربعين أسقفية كانت لا تزال باقية هناك[٣]، وفي سنة ١٠٥٣م حزن البابا لويس التاسع على أنه لم يكن يوجد إلا خمسة أساقفة يمثلون الكنيسة الإفريقية التي كانت من قبل تتمتع بالشهرة والازدهار[٤]. والأرجح أن سبب ذلك راجع إلى ما أحدثته الجماعات العربية من مجازر بشرية وتدمير فظيع، تلك الجماعات التي تدفقت على هذه البلاد قبل ذلك ببضع سنوات، ومثلوا البلاد بالفوضى والمنازعات التي لم تنقطع[٥]. وفي سنة ١٠٧٦ م عجزت الكنيسة الإفريقية عن إعداد ثلاثة أساقفة قضت بهم الحاجة لرسم شخص كان يرغب في منصب الأسقفية وذلك طبقاً لما تقتضيه الشريعة الدينية، وقد وجد جريجوري السابع من الضروري أن يرسم أسقفين ليعملا مساعدين لرئيس أساقفة قرطاجنة، ولكن عدد المسيحيين كان لا يزال من الضخامة بحيث كان يتطلب إيجاد أساقفة جدد ليخففوا من عبء العمل الذي كان ثقيلاً على هؤلاء الأساقفة الثلاثة،

---

(١) ابن أبي زرع ص ١٦.

(٢) ولدينا حالة مشكوك في صحتها تنسب إلى عبد المؤمن الذي فتح تونس سنة ١١٥٩م، أنه أرغم بعض الناس على الدخول في الإسلام بالقوة. انظر De Mas Latrie (2), p. 77-8 "وهناك مؤلفان عربيان: أحدهما لابن الأثير الذي كان معاصراً، إلا أنه كان يقيم في دمشق في وسط النشوة الدينية التي أثارتها انتصارات صلاح الدين، والآخر التيجاني الذي زار إفريقية في القرن الرابع عشر – هذان المؤلفان كتبا أن السلطان صاحب تونس أرغم المسيحيين واليهود القاطنين في هذه المدينة على الدخول في الإسلام، وأن العصاة قتلوا بلا رحمة. ونحن نشك في حقيقة وقوع هذه التدابير كلها، إذ لو كان الأمر بالقتل قد صدر من السلطان في نشوة النصر لإشباع بعض الرغبات الوقتية، لكان من الواجب أن يعدل أو يرفض، ما دام هذا الأمر يتنافى مع مبدأ الحرية الدينية الذي كان محترماً من كل أمراء المغاربة حتى ذلك الحين. أما الشيء المحقق فهو أن المسيحيين واليهود لم يظهروا متأخرين في تونس وأننا نرى المسيحيين، قبل نهاية (عهد) عبد المؤمن قد استوطنوها، ونعموا كما كانوا في العهود السابقة، بالحرية في مزاولة تجارتهم وإقامة شعائرهم الدينية. ويقول مؤلف عربي قديم، أنه اخترق بلاد الزاب وإفريقية، مؤيداً بالله في خطواته، مستولياً على البلاد والمدن، معطياً الأمان لم يطلبونه، وقاتلاً كل من يعصي أمره؛ ويؤيد هذه الكلمات الأخيرة شعورنا إزاء ما سلكه نحو المسيحيين الذين قبلوا الحكم بالقتل الذي قضت به الأقدار".

(٣) De Mas Latrie (2), pp. 27-8.

(٤) S.Leonis IX, Papae Epist Ixxxlii, (Migne: Patr. Lat. Tom. Cxliii. P. 728).
وهذه الرسالة تتناول موضوع نزاع على الأسقفية بين أساقفة جمى Gummi وقرطاجنة، ومن المحتمل جداً أن تكون حالة الفوضى التي سادت إفريقية في ذلك الحين، قد جعلت أساقفة إفريقية يعرفون شيئاً عن الأسقفيات الأخرى، فضلاً عن أسقفياتهم أنفسهم تلك التي كانت ملاصقة لها. ومن ثم نرى الأخبار التي استقاها الباب قد صورت عدد الأساقفة أقل مما هو عليه في حقيقة الأمر.

(٥) A. Müller, vol. ii, pp. 628-9.

حتى أنهم لم يستطيعوا القيام به دون معونة أو مساعدة[١]، وفي خلال القرنين التاليين. كانت حالة الكنيسة تزيد ضعفاً على ضعف، وفي ١٢٤٦ كان أسقف مراكش هو الزعيم الروحي الوحيد الذي يشرف على البقية الباقية من الكنيسة القومية[٢] وكانت آثار ما تبقى من المسيحية حتى هذه الفترة ذاتها، لا تزال قائمة بين قبائل بلاد الجزائر[٣][†]. وكانت هذه القبائل قد أحاطت في زمن مبكر ببعض معلومات طفيفة عن مبادئ الإسلام، ولكن هذا الدين الجديد لم يسيطر على نفوسهم إلا بمقدار يسير جداً، ثم انمحت في أذهانهم بمرور الزمن حتى تلك المعارف الضئيلة التي تعلموها بادئ الأمر إلى حد أنهم نسوا كيفية الصلاة في الإسلام ولما كانوا محصورين في بقاعهم الجبلية المنيعة، غيورين على استقلالهم فقد نجحوا في مقاومة تسرب العنصر العربي إلى بيئتهم. ومن هنا قامت في سبيل تحويلهم إلى الإسلام صعاب جمة، وقد قام سكان دير كان تابعاً لطائفة القادرية، وهم ساقية الحمراء، ببعض محاولات غير ناجحة كانت ترمى إلى نشر الدعوة بينهم، ولكن لم ينل شرف النفاذ إليهم ودعوتهم إلى الدين الإسلامي إلا عدد من بربر الأندلس طردوا من أسبانيا بعد سقوط غرناطة في سنة ١٤٩٢، وكانوا قد احتموا في هذا الدير، وترسم فيهم "الشيخ" أنهم أليق من يضطلع بتلك المهمة الشاقة التي أعيت جهود تلاميذه من قبل إعياء تام، وقبل أن يبعث بهم في تلك المهمة الدينية خاطبهم قائلاً: "إنه لواجب قد ألقى على عاتقنا أن نحمل مشعل الإسلام إلى تلك الأصقاع التي ضيعت ما ورثته من بركات هذا الدين، ذلك أن هذه القبائل البائسة لم تزود مطلقاً بالمدارس وليس لديهم شيخ يعلم أبناءهم مبادئ الأخلاق وفضائل الإسلام، لهذا فهم يعيشون كالحيوان الأعجم لا يعرفون إلهاً ولا ديناً ولكي نترع عنهم هذه الشقاوات، عقدت النية على أن أناشد غيرتكم الدينية وهدايتكم. لا تدعوا بعد اليوم سكان هذه الجبال غارقين في حالة يرثى لها من الجهل بحقائق ديننا العظمى، انطلقوا وانفخوا في نيران دينهم الزائلة، وأعيدوا إنارة جذوتها الخامدة، طهروهم مما قد يظل عالقاً بهم من آثام اعتقادهم القديم في النصرانية. فطنوهم إلى أن الله لا يقبل الرجس في دين من أثر سيدنا محمد ﷺ، كما لا يقبله في النصرانية[٤]. إنني لا أخفي عنكم أن مهمتكم محفوفة

---

(١) S. Gregorii VII, Eipstola xix, (Liber tertius). (Migne; Patr. Lat. Tom. Cxtvii, p. 449).

(٢) De Mas Lertrie, p. 226 وإن عدداً من المسيحيين الأسبان، الذين كان أجدادهم قد أبعدوا إلى مراكش سنة ١١٢٢ كانوا قد أقاموا هناك في وقت متأخر، يرجع إلى سنة ١٣٨٦م، حين سمح لهم بالعودة إلى إشبيلية بفضل ما أسداه إليهم سلطان مراكش من حسن الصنيع في ذلك الحين. (Whishaw, pp. 31-4)

(٣) C. Trumelet: Les Saints de I'Islam, p. Xxxiii, (paris, 1881)

(†) ويطلق الجغرافيون الأوربيون لفظ كابيليا Kabylia على البلاد الجبلية من ساحل الجزائر. والكلمة مشتقة من (قبيلة) اللفظة العربية. راجع Encyc, of Islam, art. Kobylia

(٤) قارن هذا بالمواد التي نشرها المجلس الذي عقد في مدريد سنة ١٥٦٦م، وهو يتعلق بتنصير المسلمين المقيمين في أسبانيا Moriscoes (أي بعد زوال الحكم العربي منها)، وهذا نص إحدى هذه المواد: "لا يسمح مطلقاً لهم ولا لنسائهم ولا لأي فرد آخر أن يغتلسوا أو يستحموا في منازلهم أو في أي مكان آخر، كما يجب أن تهدم وتخرب حماماتهم كلها (Morgan, vol.ii, pp. 256) .

بالصعاب، ولكم ما اتصفتم به من غيرة لا تقاوم وحماسة من أجل دينكم، سيمكنكم بعون الله من تذليل كل الصعاب انطلقوا يا أبنائي وأعيدوا إلى الله ورسوله مرة أخرى هذا الشعب الشقي المنغمر في حماة الجهالة والكفر. انطلقوا يا أبنائي واحملوا رسالة الخلاص أيدكم الله ووفقكم".

انطلق الدعاة جماعات، كل جماعة تتألف من خمسة أو ستة، إلى وجهات مختلفة في وقت واحد وذهبوا في أسمال بالية، كل واحد عكازه في يده، واختاروا أشد أماكن الجبال وحشة، وأقلها عمراناً، وبنوا لهم صوامع في الكهوف والأخاديد، وسرعان ما أثار تقشفهم وطول تعبدهم فضول القبائل الذين أخذوا بعد وقت وجيز يبادلونهم الصداقة والود. وتمكن الدعاة شيئاً فشيئاً من الظفر بما أرادوا عن طريق ما عرفوه من الطب والصناعات الآلية وبعض مزايا أخرى من الحضارة، وأصبحت كل صومعة مركزاً من مراكز التعليم الإسلامي واجتمع حولهم طلاب العلم، وقد انجذبوا إلى تعاليم هؤلاء الذين قدموا إليهم من عهد قريب، وأصبح هؤلاء الطلاب بعد فترة من الزمن دعاة إلى الإسلام بين قومهم، حتى استطاعوا أن ينشروا الدين في كافة أنحاء البلاد التي تسكنها القبائل والقرى التي تقع في صحراء الجزائر(١).

ولاشك أن الحادث السالف الذكر يصور لنا الطريقة التي كان ينفذ بها الإسلام إلى غير هذه الجماعات من القبائل المستقلة داخل هذه البلاد، الذين كانوا قد تلقوا أية تعاليم مسيحية من قبل. ولكن معلوماتهم عن هذا الدين كانت قد تضاءلت واستحالت إلى شعائر دينية قليلة مبنية على الخرافات(٢) ذلك أنهم كما كانوا منقطعين عن سائر العالم المسيحي، غير مزودين بمعلمين روحانيين، لم يكن لهم من وسائل الاعتقاد الديني الذي يقوم على اليقين ما يمكنهم من مناهضة تعاليم دعاة المسلمين.

ولدينا معلومات أخرى قابلة، يمكن أن تضاف إلى تلك المعلومات المبعثرة الذي ذكرناها عن انحلال الكنيسة الإفريقية الشمالية. فهذا رحالة مسلم(٣) عاش في النصف الأول من القرن الرابع عشر زار بلاد الجريد وهى الولايات التي تقع جنوبي تونس، وهو يخبرنا أن الكنائس المسيحية كانت لا تزال قائمة على عهده، ومع أنها كانت مهدمة ولكن العرب الفاتحين لم يخربوها. واكتفوا ببناء مسجد قبالة كل من هذه الكنائس. ويتحدث ابن خلدون (فيما كتبه حول نهاية القرن الرابع عشر) عن بعض قرى ولاية قسطيلية(٤)، ويسكنها

---

(١) C. Trumelet: Les Saints de L'Islam, pp. Xxviii- xxxvi.

(٢) يقول ليو الإفريقي إنه في نهاية القرن الخامس عشر نجد جميع سكان الجبال من أهل الجزائر والبوجا، مع إسلامهم، قد رسموا صليباً أسود اللون على خدودهم، وفي بطون راحاتهم (Ramusio, i, p, 61) ونظير ذلك بنو مزاب الذين يحتفظون، حتى اليوم، ببعض طقوس دينية تتعلق بالحرمان والاعتراف (Oppel. P. 266): ويجري بعض القبائل البدوية في الصحراء الكبرى بعض طقوس خاصة بنوع من التعميد، ويستخدمون الصليب زينة لبعض أمتعتهم وأسلحتهم (De Mas Latrie "2", p.8)

(٣) التيجاني ص ٢٠٣.

(٤) وهي توزر الحديثة، في تونس.

بعض الأهالي المسيحيين الذين كان أسلافهم قد عاشوا هناك منذ الفتح العربي[١] وفي نهاية القرن التالي كان لا يزال في مدينة تونس جماعة صغيرة من المسيحيين من أهالي هذه البلاد. يعيشون في إحدى الضواحي بعضهم مع بعض، منفصلين تمام الانفصال عن تلك البقعة التي أقام فيها التجار المسيحيون الغرباء بعيدين عن كل ظلم أو اضطهاد، فقد كانوا يعملون حراساً للسلطان[٢] ولا شك أنهم كانوا هم أنفسهم الذين هنأهم تشارلس الخامس بعد استيلائه على تونس في سنة ١٥٣٥ على ما أظهروه من الثبات على الدين المسيحي[٣].

وكان هذا آخر ما سمعنا عن الكنيسة المسيحية القومية في إفريقية الشمالية. وإن مجرد بقائها مثل هذا الوقت الطويل ليدحض أي زعم بأن تحولهم إلى الإسلام قد قام على القوة والإكراه، حتى ولو لم يكن لدينا الدليل الكافي على روح التسامح التي ظهر بها العرب الحاكمون في ممالك إفريقية الشمالية على اختلافها، فهم الذين استخدموا جنوداً مسيحيين[٤] ومنحوا المسيحيين من التجار والمستوطنين بمقتضى معاهدات متكررة، الحرية في أداء شعائرهم الدينية[٥] وهم الذين فوض البابوات[٦] إليهم العناية بالأهلين المسيحيين كما حضوا هؤلاء على خدمة حكامهم المسلمين في إخلاص وولاء[٧].

---

(١) تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب، جـ١، ص ١٤٦ (طبعة دي سلان بالجزيرة سنة ١٨٤٧).

(٢) Leo Africanus (Ramusio, tom. i. P. 67).

(٣) Pavy, vol, i. P. vii.

(٤) De Mas Latrie (2), pp. 61-2, 266-7. L. Del Marmol- Caravjal: De L'Afrique, tome, ii. P. 54 (paris, 1667).

(٥) De Mas Latrie (2), p. 192

(٦) فمثلاً، Innoceut IV, Gregory IX, Gregory VII, Innocent III.

(٧) De Mas Latrie (2), p. 273.

الباب الخامس

انتشار الإِسلام بين مسيحيي أسبانيا

المسيحية في أسبانيا قبل الفتح الإِسلامي: أدخل العرب الظافرون الإِسلام في أسبانيا سنة ٧١١م، وفي سنة١٥٠٢ أصدر فردناند وايزابلا مرسومًا يقضي بإِلغاء شعائر الدين الإِسلامي في جميع أرجاء البلاد. ولقد كتبت أسبانيا الإِسلامية في القرون التي تقع بين هذين التاريخيين صفحة من أنقى الصفحات وأسطعها في تاريخ أوربا في العصور الوسطى، وقد امتد تأثيرها من ولاية بروفانس **PROVENCE** إلي الممالك الأوربية الأخرى، وأتت بنهضة جديدة في الشعر والثقافة، ومنها تلقى طلاب العلم المسيحيون من الفلسفة اليونانية والعلوم ما أثار في نفوسهم النشاط العقلي حتى جاء عصر النهضة الحديثة. على أنه يجمل بنا أن نمر مر الكرام على هذه الحياة وما تنطوي عليه من مدنية ورقي ونصر مؤزر في الفن والشعر، وفي العلم والفلسفة، وأن نوجه اهتمامنا إلى الحالة الدينية في أسبانيا في ظل الحكم الإِسلامي.

لما قدم المسلمون أول الأمر إِلى أسبانيا حاملين دينهم، وجدوا المذهب الكاثوليكي قد استقر في هذه البلاد بعد انتصاره على المذهب الآري. وقد أصدر المجمع السادس في طليطلة قراراً يقضي بأن يقسم كل الملوك بأن لا يسمحوا بانتشار أي مذهب آخر غير المذهب الكاثوليكي، وأن ينفذوا القانون بالقوة على الخارجين عليه. وقد تلا هذا القانون قانون آخر يحرم على كل شخص أن يتطرق إِلى ذهنه أي شك في الكنيسة الكاثوليكية المقدسة، وفي النظم الإِنجيلية وتفاسير الآباء الروحيين والمراسيم الكنسية والقرابين المقدسة إذا ما صودرت أملاكه أو حكم عليه بالسجن المؤبد. وقد كسب رجال الدين لطائفتهم نفوذاً راجحاً في شئون الدولة[١]. وجلس الأساقفة وكبار رجال الدين في المجالس الوطنية التي كانت تجتمع لإِقرار الشئون الهامة في الدولة والمصادقة على انتخاب الملك، وادعت لنفسها الحق في عزله إذا أبى الإِذعان لقراراتهم.

واتخذ القسس من وراء هذه القسوة التي وصلوا إليها سبيلاً لاضطهاد اليهود الذين كانوا طائفة كبيرة العدد في أسبانيا، وصدرت الأوامر المشددة ضد كل من امتنع عن الدخول في المسيحية[٢]. وكان من أثر هذه الاضطهادات أن رحب اليهود بالعرب الغزاة وعدوهم مخلصين لهم مما حل بهم من المظاليم، فساعدوهم على فتح أبواب المدن، كما استعان بهم الفاتحون في حماية المدن التي وقعت في أيديهم[٣].

---

(١) Baudissin, p. 22.

(٢) Helfferich, p. 68.

(٣) المقري جـ١ ص ٢٨٠- ٢٨٢.

كذلك رحب بالمسلمين هؤلاء الأرقاء الذين حل بهم البؤس والشقاء في عهد المسيحيين الكاثوليك الذين كانت معرفتهم بأصول المسيحية سطحية، إذا ما وزنت بذلك التسامح الديني وهذه المزايا الكثيرة التي حصلوا عليها بإلقاء زمامهم للمسلمين.

وكان هؤلاء الأرقاء الذين وصلوا إلى الحضيض أول من تدين بالإسلام في أسبانيا، ولا يبعد أن يكون عدد كبير من هؤلاء الأهلين الذين كانوا لا يزالون على الوثنية والذين ورد ذكرهم في سنة ٦٩٣م[١] قد ساروا على مناهج هؤلاء الأرقاء. كما اعتنق هذا الدين الجديد كثير من أشراف المسيحيين عن عقيدة راسخة أو عن بواعث أخرى[٢]، يضاف إلى ذلك عدد كبير من أهالي الطبقات الدنيا والوسطى الذين تدينوا بالإسلام عن إيمان ثابت متحولين إليه من ديانتهم القديمة التي أهمل رجالها مصالحهم و لم يحفلوا بتلقيهم أصولها، وانصرفوا إلى مطامع الدنيا، فساموهم الخسف ونهبوا أملاكهم[٣]، وبعد أن تحول هؤلاء الأسبان إلى الإسلام ظهروا بمظهر الغُير لدينهم الجديد انضموا هم وأولادهم إلى جماعة إخوان الصفا الذين عرفوا بالتقشف وشدة تمسكهم بالدين، و لم يحفلوا بأن يعيشوا عيشة الترف والإهمال التي سادت الطبقة الأرستقراطية العربية[٤].

ويقول مؤرخو المسيحيين إن فضائل القوط القدماء قد انحطت في وقت الفتح العربي الإسلامي وأفسحت الطريق إلى الفساد والخلاعة، حتى لقد ظهر الحكم الإسلامي كأنه عقاب قد نزل بهؤلاء الذين ضلوا الطريق السوي واتجهوا نحو الرذيلة[٥] ولكن مثل هذا القول طالما يرد في التاريخ الكنسي. على حين لا توجد هناك شواهد معاصرة تؤيد صحة هذا الرأي[٦].

بيد أنه يظهر لنا أن الأمور لم تستقم على مر الزمن، ذلك أنه لما اشترك الأساقفة المسيحيون في الثورات التي قامت في بلاط المسلمين في الوقت الذي أصبحت فيه الأبرشيات تمنح الأساقفة عن طريق المزاد، وعين

---

(١) Baudissin, p. 7.

(٢) Dozy (2), tome ii. Pp. 45- 6.

(٣) A. Müller, vol. Ii, p. 463.

(٤) Dozy (2), tome ii.,pp. 44-6.

(٥) So St. Boniface (A.D. 745. Epist. Ixii.) "مثلما حدث للقبائل الأخرى في أسبانيا، وللمقاطعات، ولشعب برغنديا الذين ارتكبوا الكبائر بابتعادهم عن الرب. حتى لقد أراد القاضي الأعظم أن يحل بهم، على يد العرب، عقابه وانتقامه، بسبب ما ارتكبوه من مآثم، وبسبب جهلهم بقانون الرب".) وانتقلت إبان قوتهم (أي = Eu (Migne: Patr. Part. Lat., Tom. Ixxxix, p. 761) logtus, lip. i. §30 مقاليد أسبانيا. في الوقت الذي كنا نقوم بأعمالنا". (Migne: part. Lat. Tom. Cxv. P. 761) ونظير ذلك ما ذكره ألفار Alvar (2), §18 "سأحاول أن أختبر السوط الذي صب علينا لما ارتكبناه من آثام. إن جعبة آثامنا، أيها الأخوة، تكاسلاً، ودنسنا، وإفساد عادتنا... لذلك أسلمنا المولى الذي يؤثر العدل ويأمر وجهه بالانصاف إلى هذا الوحش لنظل فريسة في يده" (2-531 .pp)

(٦) Dozy (3), tome i, pp. 15-20; Whishaw, pp. 38, 44.

الملحدون الذين يضمرون الإلحاد للكنيسة، وأصبح هؤلاء بدورهم يمنحون منصب القساوسة أشخاصاً تنقصهم الكفاية والغيرة على مبادئ الدين المسيحي[١]-إذا عرفنا هذا استطعنا أن نجزم بأن تحول المسيحيين عن دينهم لم يقتصر على أهل مقاطعة إلفيره[٢]، بسب ذلك الفساد الذي تطرق إلى نفوس رؤسائهم الروحيين[٣] فأخذ هؤلاء المسيحيون يبحثون عن بيئة أكثر ملاءمة لحياتهم الدينية والدنيوية بدخلوهم في حظيرة الإسلام.

ولو أن كُتّاب الكنيسة قد عنوا بتدوين هذه الأحداث، لوجدنا أسبانيا تقدم لنا من غير شك أمثلة صالحة عن رجال تحولوا عن المسيحية من أمثال بودو **bodo**، الذي كان شماسا في البلاط الفرنسي في عهد لويس التقي واعتنق اليهودية سنة ٨٣٨م لكي "يتمسك بأهداب شريعة الله" بتركه هذه الحياة الأثيمة كما يقول[٤]. كذلك لا يبعد أن تكون البقية الباقية لهؤلاء القوط القدماء الذين دانوا بعقائد المذهب الأريوسي الذي ظهرت بعض أثار نهضته في الكنيسة الأسبانية قبيل الفتح العربي[٥]، قد ساعدت على حث الناس واستمالتهم لقبول هذا المذهب الجديد الذي تتفق العقيدة المسيحية فيه اتفاقاً وثيقاً مع العقيدة الآريوسية[٦]. وسنرى فيما بعد شواهد مماثلة تدلنا على مدى تحول أهل أسبانيا إلى هذا المذهب قبل الفتح العربي، والذي مهد السبيل لتحول أهل أوربا الغربية إلى الإسلام قبل الفتح العربي لبلاد الأندلس. ومن الأمثلة التي تؤيد ما ذهبنا إليه تحول ثيودسكلوس **Thiodisclus**، ذلك الرجل الإغريقي الذي خلف القديس إيزيدور **Isidore**، المتوفي سنة ٦٣٦م في منصب رئيس أساقفة أشبيلية. فقد اتهم بالإلحاد لقوله بأن المسيح لم يكن إلهاً باتحاده بالله وبروح القدس، وإنما كان ابن الله عن طريق التبني، لهذا قضى المجمع الديني بعزله عن منصبه وبحرمانه من حقوقه الكنسية، فلجأ إلى العرب ودان بالإسلام بين ظهرانيهم[٧].

---

(١) Samson, pp. 371-8, 381.

(٢) Dozy (2), tome ii. P. 210.

(٣) اتهم أسقف إجيلا Egila، الذي أرسله البابا أدريان الأول إلى جنوب أسبانيا حول نهاية القرن الثامن ليقوم بعمل من شأنه أن يحول دون اطراد نفوذ الفكر الإسلامي إلى القسيسين الأسبان الذين عاشوا مع النساء اللاتي اتخذوهن سراري لهم. (Helfferich, p. 83)

(٤) Alvari Cordubensis, Epist. Xix. "إني اسلم نفسي إلى قانون المولى، في شوق ولهفة، لأني أستحق العقاب الأبدي" (Migne: Patr lat, tom. Cxxi, p. 512)

(٥) Helfferich, pp. 79-80.

(٦) "إذا فكر المرء إلى أي حد بلغ صدى فكرة النبوة المأخوذة من العهد القديم (من التوراة) في نصرانية القبائل الجرمانية الآرية، بل إذا فكر المرء في بقاء هذه الفكرة عند القوط الغربيين بعد أن اعتقدوا المذهب الكاثوليكي – إذا فكر المرء في ذلك اتضح له كيف ظهرت بعد قدوم العرب، عند الشعوب المسيحية المفتوحة، تصورات قريبة من الإسلام". (Helfferich, p. 82).

(٧) Lucae Diaconi Tudensis Chronicon Mundi (Andreas Schottus: Hispaniae illustratae, tom. iv. P. 53) (Francofurti; 1603- 8).

تسامح العرب وأثرهم في المسيحيين: أما عن حمل الناس على الدخول في الإسلام، أو اضطهادهم بأية وسيلة من وسائل الاضطهاد، في الأيام الأولى التي أعقب الفتح العربي، فأننا لا نسمع عن ذلك شيئا. وفي الحق إن سياسة التسامح الديني التي أظهرها هؤلاء الفاتحون نحو الديانة المسيحية كان لها أكبر الأثر في تسهيل استيلائهم على هذه البلاد. وإن الشكوى الوحيدة التي شكا منها المسيحيين؛ هي معاملة حكامهم الجدد لهم معاملة تختلف عن معاملة رعاياهم من غير المسيحيين ذلك لأنه قد فرض عليهم أداء جزية الرؤوس المعتادة وهى ثمانية وأربعون درهماً عن الأغنياء، وأربعة وعشرون عن أهل الطبقة الوسطى، واثنا عشر درهما عن العمال، لإعفائهم من الخدمة العسكرية(١)، على أن هذه الجزية لم تفرض إلا على القادرين من الرجال، على حين أعفى منها النساء والأطفال والرهبان والمقعدون والعميان والمرضى المساكين والأرقاء. هذا إلى أن جمع هذه الضرائب قد قام به الموظفون المسيحيون أنفسهم مما خفف وطأتها على الناس(٢).

على أنه في الأحوال التي كان يعتدي فيها المسيحيون على الدين الإسلامي، كانوا يحاكمون أمام قضاتهم وفقاً للقوانين المعمول بها في بلادهم(٣)، و لم يتعرض لهم المسلمون في إقامة شعائرهم الدينية(٤). ولا غرو فقد كانوا يقدمون القرابين بين دق الناقوس وإحراق البخور وغير ذلك من الطقوس الدينية الكاثوليكية، وكذا ترنيم المزامير وإلقاء المواعظ والاحتفال بالأعياد المسيحية على النحو الذي كانوا يحتفلون به قبل الفتح. ويظهر أنهم لم يعاملوا معاملة إخوانهم في الدين في سوريا ومصر بأن يلبسوا ملابس خاصة تميزهم عن المسلمين، فتكون مظهراً من مظاهر إذلالهم. وكان المسيحيون المدنيون، في القرن التاسع الميلادي على الأقل، يلبسون نفس ملابس العرب(٥)، كما سمح لهم في وقت من الأوقات أن يبنوا كنائس جديدة(٦).

---

(١) Dozy (2), tom. ii, p. 41; Whishaw, p. 17.

(٢) Dozy (2), tom. ii.p.59.

(٣) Baudtssin, pp. 11-13, 196.

(٤) Eulogins; Mem. Sanct. Lib., i. §30. (p. 761) Id. Ib Lib. I §18"تعيش بينهم دون بغض للدين" لم ترغمهم قوة من قوى الحكام إلى إنكار دينهم ولم تبعدهم عن عبادة الدين المقدس الموقرة (p. 751) ويقول John of Gorz (الذي زار أسبانيا حول منتصف القرن العاشر) §124، ويستخدم المسيحيون، الذين كانوا إبان حكمه، الأماكن المقدسة وأملاكهم بحرية". وبذلك وصف أسقف أسباني حالة المسيحيين وصفًا بعث به إلى جون أوف كورتز فقال: "لقد وصلنا إلى هذا بسبب آثامنا فخضعنا لقوة الملحدين وعجزنا عن مقاومة الحكومة. وما لنا من عزاء في هذا الأمر إلا أن الذين يخدمون، يرحبون بمن يلقونهم، وهم مؤيدون للمسيحيين تأييداً حاراً؛ لا يمنعوننا من استخدام قوانيننا، وهم في الوقت نفسه راضون بحياتهم الاجتماعية. وما دام ليس هنالك إبعاد عن ديانتنا، فعلينا أن نتظاهر مؤقتًا بقبول السياسة القادمة علينا، فنطيعهم ونخضع لأوامرهم طالما لا تقف سياستهم حجر عثرة في سبيل إيماننا" §122(p.302).

(٥) Baudissin, pp. 16-17.

(٦) تكلم يولوجيوس المتوفي سنة ٩٥٨م (Mem. Sanct. Lib.iii, c.3) عن كنائس حديثة البناء. وقد نسبت هذه الواقعة التاريخية إلى لويتبراند خطأ بناء كنيسة في قرطبة سنة ٨٩٥م (ص ١١١٣).

كذلك نقرأ عن بناء[١]عدة أديار جديدة بالإضافة إلى الأديار الكثيرة المزهرة التي أقام بها الرهبان والراهبات الذين عاشوا في أمن وطمأنينة لا يتعرض لهم حكام المسلمين بسوء، وكان الرهبان يستطيعون الظهور على ملأ الناس وشاحهم الصوفي وفق نظامهم الكنسي؛ ولم يكن ثمة ما يدعو القسيس إلى إخفاء شارته الدينية. وفي الوقت نفسه لم تحل المناصب الدينية[٢] دون تقلد المسيحيين المناصب العالية في البلاط أو اندماجهم في سلك الرهبنة[٣] أو انتظامهم في جيش المسلمين[٤].

ومن الثابت لدينا أن هؤلاء المسيحيين الذين مالوا إلى الصلح ورضوا عن طيب خاطر بحرمانهم ما كانوا يتمتعون به من نفوذ سياسي وسلطة، لم يكن ثمة ما يدعوهم إلى الشكوى حتى إننا لم نسمع في خلال القرن الثامن الميلادي كله إلا من محاولة واحدة للثورة من جانب هؤلاء المسيحيين المقيمين بمدينة بيجه **Beja**. ويظهر أنهم انضووا في ثورتهم هذه تحت لواء رئيس عربي[٥]. كما أن أولئك الذين هاجروا إلى الأراضي الفرنسية لكي يعيشوا تحت حكم المسيحيين لم يصبحوا في الحقيقة أحسن حالاً من إخوانهم في الدين الذين خلفوهم وراء ظهورهم. وفي سنة ٨١٢م تدخل شرلمان لحماية المنفيين الذين لحقوا به عند ارتداده عن أسبانيا من عنت موظفي الإمبراطورية واضطهادهم إياهم. وبعد ثلاث سنين لم ير لويس التقي بُداً من إصدار مرسوم آخر لتحسين حال هؤلاء المنفيين الذين اغتصبوا أراضيهم التي خُصِّصَت لهم. ولم يمض وقت طويل على محاولة القضاء على هذه المساوئ حتى عمت الشكوى من جديد، ولم تُجْد المراسيم والأوامر الملكية التي صدرت لتحسين حال هؤلاء المنفيين التاعسين. وسوف نصادف في العصور المتأخرة في الجالية الأسبانية **Cagots** التي فرت من الحكم الإسلامي طبقة محتقرة عوملت معاملة سيئة ووضعت نفسها تحت رحمة بني جنسهم من المسيحيين[٦].

وإن سياسة التسامح الديني التي سارت عليها الحكومة الإسلامية نحو رعاياها المسيحيين في أسبانيا، وحرية الاختلاط بين المتدينين قد أدت إلى شئ من التجانس والتماثل بين الجماعتين وقد كثر التصاهر بينهم[٧]، حتى إن إزيدور أحد سكان مدينة بيجه **Islore of Beja** الذي شدد النكير على الفاتحين المسلمين،

---

(١) Eulogius: Mem Senct; lib. iii, c.11 (p.312).

(٢) Baudissin, p.16.

(٣) Id. P. 21 and john of Gorz, §128 (p.306).

(٤) Whishaw, pp. 272, 801.

(٥) Dozy (2), tome ii, p. 42.

(٦) Baudissin, pp. 96-7.

(٧) انظر كتاب الباب أدريان الأول إلى الأساقفة أن الأسبان حيث يقول فيه: "أضف إلى ذلك أن هناك عبارات مختلقة، سمعناها من تلك الأماكن، تقول إن كثيرين ممن يطلقون على أنفسهم كاثوليك، ويعيشون في ألفة مع اليهود والكفرة من غير المنتصرين، يؤكدون أنهم ليسوا مدنسين مطلقاً في الطعام أو الشراب أو الذنوب المختلفة أو فيما هو محرم، فليس

قد دون مسألة زواج عبد العزيز بن موسى (بن نصير) من أرملة الملك لذريق، دون أن يذكر كلمة واحدة يستنكر فيها الفعل[١]. هذا إلى أن كثير من المسيحيين قد تسموا بأسماء عربية، وقلدوا جيرانهم المسلمين في إقامة بعض النظم الدينية، فاختتن كثير منهم[٢]، وساروا وفق رسوم الوثنيين "غير المُعَدّين" "يعني المسلمين" في أمور الطعام والشراب[٣].

وإن إطلاق لفظ مستعربين **Muzarabes** على الأسبان المسيحيين الذين عاشوا في ظل حكم العرب، ليدل دلالة ظاهرة على مدى الميول والاتجاهات التي كانت تعمل بنشاط وهمة في هذه السبيل؛ فسرعان ما أخذت دراسة اللغة العربية تحل محل دراسة اللغة اللاتينية في جميع أرجاء البلاد[٤]، حتى إن لغة الدين المسيحي قد تطرق إليها الإهمال والنسيان شيئاً فشيئاً. بل لقد أثار بعض القسيسين سخرية الناس لجهلهم باللغة اللاتينية الصحيحة[٥]. ومن العسير أن نتوقع من العلمانيين نفس الحماسة والغيرة التي كان يبديها رجال الدين في هذا النوع من الدراسة. ففي سنة ٨٥٤م نرى أحد كتاب الأسبان يعلن هذه الشكوى ضد مواطنيه المسيحيين فيقول:- "بينما نتتبع النظم التي وردت في كتابهم المقدس "يعني المسلمين" ونلتقي بهم لدراسة مذاهب فلاسفتهم —أو الذين يباهون بهذا الضرب من الهذر والإعجاب بمعنى أدق- لا لنندحض بالحجة والبرهان تعاليمهم الفاسدة، بل لنفيد من كلامهم الذي يستولى على الأفئدة بجماله، ومن بلاغة لغتهم — غاضين النظر عن قراءة كتابهم المقدس، فلا نكون حينئذ إلا قوماً يجعلون من الحيوان معبوداً "**Apoc.xiii.18**"[٦] وأنى لنا أن نجد في أيامنا هذه أي علماني مثقف قد انهمك في دراسة الكتاب المقدس، واهتم بالنظر في مؤلفات آباء الكنيسة اللاتينية؟ ومن ذا الذي أوتي من الحماسة والغيرة ما يثير في نفسه الرغبة في قراءة مؤلفات المبشرين بالإنجيل أو الأنبياء والمرسلين؟ وإن شبابنا المسيحيين، برغم تكلفهم اللطف والكياسة وحسن البيان وطلاقة اللسان، إنما كانوا يسترعون الأنظار بحسن هندامهم وحسن تصرفهم فيما يعرض من الأمور وبما عرف عنهم من حسن الأدب ودماثة الخلق، وبتشبعهم بالبلاغة العربية، نراهم يتناولون كتب الكلدانيين "يعني المسلمين"

مصرحاً لأحد أن يتزوج من الكفرة، لأنهم أنفسهم سيمنحون بناتهم لهؤلاء، وبذلك يلقى بهن في أحضان الكفار" (Migne: Patr. Lat, tome xcviii p. 385).

(١) Isidori Pacensis Chronicon, §42 (p. 1266).

(٢) Alvar: Incic. Lum., §85(p.53) John of Gorz, §123 (p. 303).

(٣) Leuer of Hadrian 1; p. 385 John of Gorz, §123 (p.303).

(٤) لا تزال هناك أبيات من الشعر العربي نظمها شاعر مسيحي في القرن الحادي عشر الميلادي باقية إلى اليوم، وهي تدل على مهارة فائقة في امتلاك ناصية اللغة ووزن الشعر (Von Schack, 11.95)

(٥) وقد أمدنا سمسون رئيس أحد الأديار بأمثلة من الأساليب اللاتينية الرديئة التي كتبها بعض رجال الكنيسة في هذا العصر، فمثلاً يقول: "لأننا كنا اقتتعنا البساطة المسيحية" (أي على اعتبار أن البساطة مفعول به). ولكن تصحيحه قد ورد أسوأ من الأول قال: "كنا قد اقتتعنا لأجل البساطة المسيحية" (يريد اقتتعنا بالبساطة) (pp. 404, 406).

(٦) Alvar: indic, lum., § 35, (pp. 554-6)

منهم، ويطالعونها بلهف ويناقشونها في حماسة وغيرة، ويشيدون بذكرها، ويمتدحونها بكل ضرب التنميق في اللفظ وحسن البيان، وعلى حين أنهم لا يفقهون شيئاً من جمال الأدب الكنسي، ثم يحتقرون جداول الكنيسة التي تنساب إليها من الجنة. وأسفاه؛ لقد جهل المسيحيون نظم شريعتهم، وأصبحت الأمم اللاتينية لا تعير لغتها اهتماماً، حتى لا تكاد تجد في جماعة المسيحيين كافة رجلاً من كل ألف رجل يستطيع أن يستفسر عن صحة صديق بعبارات واضحة جليلة، وأنت واجد بين جمهرة السوقة والعامة أشخاصاً لا يحصى عددهم، يحيطون إحاطة تامة بالعبارات الفصيحة التي خلفتها اللغة العربية في عصورها الذهبية، حتى لقد استطاعوا أن ينظموا القصائد المقفاة- تلك القصائد التي يتجلى فيها أسمى مراتب الجمال، بل لقد كان بعضهم أمهر العرب أنفسهم في قرض الشعر(١).

وبينما كانت الآداب العربية التي ازدهرت في ذلك العصر تستولي على الأفئدة بجمالها، ويقبل الناس على دراستها في حماسة وشغف، نجد أن أولئك الذين رغبوا في دراسة الأدب المسيحي لم يعد في متناول أيديهم المادة التي كانت تستخدم في تعليم القوط المتبربرين، و لم يجدوا، إلا في شئ من الصعوبة، المعلمين الذين يستطيعون أن يبدءوا معهم نوعاً من الدراسة لا يرتفع كثيراً عن المستوى المنحط من الثقافة. وهذه الحاجة الماسة للدراسات المسيحية قد زادت على مر الأيام، ففي سنة ١١٢٥م كتب المستعربون في أسبانيا إلى الفونس ملك أرغونة: "لقد نشأنا نحن وآبائنا إلى وقتنا هذا وتربينا بين الأجانب. وإننا نرعى الرسوم المسيحية في حرية بعد أن تعمدنا في طفولتنا، بيد أننا لم نكن قط بحيث نستطيع أن نلم بتعاليم ديننا المقدسة. فأننا لا نجرؤ، بسبب وجودنا تحت حكم الكفار الذين ظلمونا دهراً طويلاً، على طلب المعلمين من روما أو من فرنسا. فأنهم لم يفدوا إلينا قط من تلقاء أنفسهم بسبب وحشية الوثنيين الذين ندين لهم بالطاعة"(٢).

ومن ذلك الاتصال الوثيق بالمسلمين، ودراسة آدابهم دراسة عميقة —حيث نجد حتى من بين المسيحيين مثل ألفار **Aalvar**(٣) الذي عرف بتعصبه على الإسلام، يقرر أن القرآن قد صيغ في مثل هذا الأسلوب البليغ الجميل، حتى إن المسيحيين لم يسعهم إلا قراءته والإعجاب به — كان طبيعياً أن نتوقع وجود أدلة على مدى النفوذ الديني، كذلك كانت الحال بلا مراء. ويقال إن إليندس **Eelpandaus** أسقف طليطلة "المتوفي سنة ٨١٠م"، وأحد أئمة المذاهب الإلحادي القائل بالتبني — الذي ذهب إلى القول بأن عيسى المسيح الرجل ابن الله بالتبني لا بالطبيعة — قد انتهى إلى هذه الآراء المغرقة في الإلحاد عن طريق اتصاله بالمسلمين(٤). ويظهر أن هذه

---

(١) Von Schack, vol. ii, p. 96.

(٢) Orderic Vitalis, p. 928.

(٣) "واليوم نقرأ في كتبهم بأعيننا Alvar: Ind. Lum, §29 وقد نستحسن تركيب العبارات والصلوات التي يصلى بها أنصار (هذا الدين) جميعًا والتي تصاغ كل يوم من أجله في مهارة فائقة وفصاحة عذبة" (Migne. Patr. Lat., tome cxxi p. 546)

(٤) Enhueber, §26, p. 353.

العقيدة الجديدة قد ذاعت بسرعة في جزء كبير من أسبانيا، بينما نشر فيلكس أسقف أرجيل **Urgel** إحدى مدن إقليم قطلونية هذه الآراء في إقليم سيتمانيا الذي كان تحت حماية فرنسا(١). وقد أستدعى فيلكس أمام مجمع برياسة شرلمان، وأرغم على التكفير عن خطئه، ولكنه عاد إلى إلحاده على أثر عودته إلى أسبانيا. وليس من شك في أن ذلك كان راجعا "كما ظن البابا ليو الثالث **Leo lll** في ذلك الوقت" إلى اتصاله بالوثنيين "يعني بذلك المسلمين" الذين دانوا بنفس هذه الآراء(٢).

ولما كان أشهر رجال الدين قد تأثروا تأثرًا عميقاً من جراء اتصالهم بالمسلمين، جاز لنا أن نحكم بأن تأثير الإسلام في مسيحي أوربا كان عظيماً. وليس أدل على صحة هذا القول من التفكير في عقد ذلك المجمع بمدينة طليطلة سنة ٩٣٦م؛ للبحث في أحسن الوسائل التي تحول دون أن تفسد هذه العلاقات من صفاء الدين المسيحي ونقائه(٣).

من ذلك نستطيع أن ندرك بسهولة كيف أن عوامل التأثير في الآراء وإقامة الشعائر الإسلامية- بالإضافة إلى هذه الجهود الواضحة التي بذلت في سبيل تحول هؤلاء المسيحيين(٤)- قد أدت إلى ما هو أكثر من مجرد التقارب والاتصال، كما أنها سرعان ما عملت على زيادة الداخلين في الإسلام، حتى إن ذريتهم الذين أطلق عليهم اسم المولدين – ذلك اللفظ يدل على الأشخاص الذين لم يكونوا من دم عربي- سرعان ما ألفوا جماعة كبيرة لها أهميتها وخطرها في الدولة، وأصبحت بلا شك أغلبية سكان البلاد(٥)، حتى إننا نقرأ كثيراً من الجهود التي بذلها هؤلاء الأسبان في مستهل القرن التاسع للتخلص من حكم العرب، ثم تنشط حركتهم وتتقدم بخطى مسرعة في مناسبات كثيرة، ويظهرون باسم جماعة الحزب الوطني للأسبان المسلمين.

ليس لدينا إلا اليسير من المعلومات عن تاريخ تحول هؤلاء الأسبان الحديثي العهد بالإسلام ويظهر أن ذلك التحول استمر إلى أواخر أيام الحكم الإسلامي، فقد ذكر المؤرخون أن المسيحيين الذين ارتدوا إلى

---

(١) Helfferich, p. 88.

(٢) "بعد قليل، نقض قانون الرب وفر إلى الكفار الذين اتفقوا معه، وأصبح بذلك حانثًا لعهده".
Frobenii dissertatio de haeresi Elipandi et Felicis; § xxiv. (Migne: Patr. Lat, tome ci. P. 318)

(٣) Psedo. Luitprandi Chronicon, §341 (p. 1115) "دعا باسيليوس مجلس طليطلة واشترط بواسطته ألا يعاقب المسيحيون باختلاطهم مع المسلمين".

(٤) ليس هنالك غير نصوص قليلة توضح مثل هذه العوامل والجهود. بيد أن الإشارة إلى هذه العوامل والجهود تظهر في عبارات يولوجيوس هذه ((Liber Abologeticus Martyum, §20 عن محمد. "وفي الحق سيظفر الذين يرغبون من الكاثوليك في معرفة جنون هذا الإثم، وهذيان هذا التبشير، وأوهام البدعة غير المقدسة، بفكرة أوضح، من أصحاب هذه الطائفة، حين يدرسونهم، فإنهم يعتقدون أنهم على شيء مقدس، ويؤمنون به ويبشرون بعقيدة نبيهم، لا في السر فحسب، بل في الأحاديث العامة كذلك" ((Migne: Patr. Lat., tome cxv. P. 862

(٥) Dozy (2), tome ii. P. 53.

الإسلام ووجدوا في مدينة ملقة التي استولى عليها جيش فرديننذ وإيزابلا في سنة ١٤٨٧م، وأنهم قد عذبوا عذاباً أفضى بهم إلى الموت، وذلك بوضع الغاب الحاد المدبب في أجسادهم.

وفي الحاصر الذي انتهى بتسليم مدينة **Purchena** بعد ذلك بسنتين، وعد الفاتحون بألا يحملوا هؤلاء المرتدين على التحول إلى المسيحية ثانية[١]. على أن عدداً قليلاً من الآهلين قد ارتدوا عن الإسلام ليتخلص من الغرامة التي قضت المحاكم الشرعية عليه بأدائها[٢]. وقد بلغ من تأثير الإسلام في نفوس معظم الذين تحولوا إليه من مسيحي أسبانيا مبلغاً عظيماً، حتى سحرهم بهذه المدنية الباهرة، واستهوى أفئدتهم بشعره وفلسفته، وفنه الذي استولى على عقولهم وبهر خيالهم، كما وجدوا في الفروسية العربية الرفيعة مجالاً فسيحاً لإظهار بأسهم، وما تكشفت عنه هذه الفروسية من قصد نبيل وخلق قويم — تلك الحياة التي ظلت مغلقة في وجوه الأسبان الذين بقوا على تمسكهم بالمسيحية وإخلاصهم لها. أضف إلى ذلك أن علوم المسيحيين وآدابهم لا بد أن تكون بدت فقيرة ضئيلة إذا ما قيست بعلوم المسلمين وآدابهم التي لا يبعد أن تكون دراستها في حد ذاتها، باعثاً على الدخول في دينهم. هذا إلى أن الإسلام في أسبانيا استطاع أن يثير في نفوس الأتقياء الجمال الذي ينشده الورعون والمتحمسون من جماعة إخوان الصفا. وعلى رأسهم علماء الكلام عند أهل السنة الذين كانت لهم الكلمة النافذة في أمور الدولة وقتاً ما، والذين دأبوا في حمية وغيرة على إصلاح مذهبهم وتقويم أخلاقهم.

وإذا نظرنا إلى ذلك الشعور الديني الذي أحيا أكثرية الأسبان المسلمين، وذلك التحدي والحقد الذي غلا في صدور المسيحيين حتى دبروا المؤامرات بمؤازرة إخوانهم في الدين الذين كانوا يقيمون خارج حدود بلادهم، لا يسعنا إلا الاعتراف بأن تاريخ أسبانيا في ظل الحكم الإسلامي يمتاز ببعده بعداً تامًا عن الاضطهاد الديني. وإذا استثنينا ثلاثاً أو أربعاً من حالات الاستشهاد الحقيقي، فإن الشيء الذي قد نطلق عليه اضطهاداً أو ما يقرب من الاضطهاد مدة الحكم العربي. إنما نجده في هذه الإجراءات التعسفية التي اتخذها الحكومة الإسلامية للقضاء على الجنون الذي استولى على عقول بعضهم، فدفع بهم إلى التطوع للاستشهاد الذي فشا بقرطبة في القرن التاسع. ففي ذلك الوقت ظهرت في هذا الجزء من أسبانيا "والواضح أن الكنيسة المسيحية في سائر أنحاء البلاد لم تعطف على هذه الحركة"، جماعة دينية اشتهرت بتعصبها للمسيحية، وانتهكت حرمة ديانة المسلمين جهراً وبغير ما سبب، ورمت نبيهم بالكفر، وأصرت على تحدي هذه الديانة، وعرضوا أنفسهم للقتل على أيدي مواطنيهم الذين ضلوا السبيل ومرقوا عن الدين بتحولهم إلى الإسلام وتعصبهم له.

استشهاد بعض المسيحيين بمحض إرادتهم: وإن هذا الانفعال النفساني الغريب الذي دفع بهذه الطائفة إلى التضحية، ليظهر ظهوراً بيناً لدي جماعة القسيسين والرهبان والراهبات بين سنتي ٨٥٠ و٨٦٠م. وقد يبدو أن عادة إطالة التفكير والتأمل — بحكم وجودهم في الأديار وعزلتهم في الصوامع — فيما آل إليه نفوذ المسيحية من ضعف وما بلغته الحمية الدينية من وهن وانحلال. وقد دفع بهم إلى السعي وراء شرف الاستشهاد — الذي

(١) Lea, The Moriscos, pp. 17-18.

(٢) Samson, P. 379.

سلبهم إياه تسامح حكامهم الكفار – بمناوأة الإسلام والغض من شأنه وشأن نبيه. ومن الأمثلة التي تؤيد صحة ما ذهبنا إليه تلك الحادثة التي دونت عن أحد الرهبان ويدعى إسحاق. فقد تقدم إلى القاضي، وادعى أنه يريد أن يتعلم أصول الإسلام. ولما شرح له القاضي تعاليم النبي بادره بقوله في عنف وشدة: لقد كذب عليكم "لعنة الله!" ذلك الشرير الذي ملأ الخبث قلبه، وقاد كثيرين من الناس إلى التهلكة وقضى عليهم بالتردي في نار جهنم يوم الدين: وقدم إليكم كأساً من النبيذ البارد ليدخل المرض إلى نفوسكم بهذه الشعوذة الشيطانية التي احترفها فملكت عليه مشاعره. وسوف يكفَّر عن خطيئته بما يحل به من اللعنة الأبدية. ولما لا تخلصون نفوسكم من أمثال هذه المخاطر بفضل ما وهبكم الله من مزية الفهم والإدراك؟ ولماذا لا تتلمسون النجاة الأبدية برفض هذه الوصمة التي تشوب عقائدكم الوبائية بالرجوع إلى إنجيل دين المسيح؟"[١]. وفي مناسبة أخرى اقتحم اثنان من المسيحيين أحد المساجد وأخذا يغضان من شأن الدين الإسلامي. وأعلنا على ملأ من الحاضرين أن هذا الدين سيعود على أنصاره عما قليل بالتهلكة ونار الجحيم[٢]. ومع أن عدد هؤلاء المتعصبين للدين المسيحي لم يكن كبيراً[٣]، خشيت الحكومة الإسلامية سوء عاقبة تلك الحوادث وأوجست خيفة من أن احتقارهم سلطانهم وعدم اكتراثهم لهذه القوانين التي سنوها ضد من طعن في دينهم قد يؤدي إلى استفحال روح الكراهة وذيوع حركة العصيان بين الأهلين كافة. إذا إن محمد الأول لم يجد في الواقع بدا من أن يرسل في سنة ٨٥٣م جيشاً إلى مسيحي طليطلة الذين استفزهم يولوجيوس **Eulogius**، الذي نصب نفسه للدفاع عن الشهداء، وأشعل نار الثورة حين وصلت إلى سمعه أنباء هذه الآلام التي كان يقاسيها إخوانهم في الدين[٤]. وقد قيل إنه أمر بذبح جميع النصارى. على أن الناس لما أدركوا أنه لم يشترك في هذه الأعمال أي شخص من المسيحيين الذين يمتازون بشيء من الذكاء أو السلطان[٥]. (إذا إن ألفار **Alvar** نفسه يشكو من أن أغلبية القسيسين المسيحيين قد دانوا الشهداء وحكموا عليهم بالخطيئة)[٦]، اكتفى الأمير بتنفيذ القوانين المعمول بها

---

(١) Eulogius: Mem, Sanct, Pref., §2. (Migne, tome cxv. P. 737).

(٢) المصدر نفسه c. xiii. (p. 794)

(٣) يقال إن عدد الشهداء لم يتجاوز الأربعين.
(W. H. Prescott: History of the Reign of Ferdinand and Isabella vol. i, p. 342, n.) (London, 1846)

(٤) Dozy (2); tom ii, pp. 161-2.

(٥) Eulogius: Mam. Sanct, 1, iii, c, vii, (p.305)
"وإن الحقيقة السافرة القائلة بأنه ليس هناك رجل حكيم مهذب، ولا قائد من قوادهم قد أتى عملاً من هذا القبيل، قد جعلهم يؤكدون وجوب القضاء المبرم على الذين لم يسبقهم القائد بنفسه إلى القتال".

(٦) يقول ألفار (Alvar: Ind, Lum.§14) "ألم يحضر حتى أولئك الذين يظهرون أنهم دعائم الكنيسة الذين كان يعتقد أنهم انتخبوا بدون إكراه أو سخط بين يدى القاضي وقدموا شكواهم ضد شهود الخير في ساينيكس Synicus، بل أيضاً ضد شهود أبيقور؟ ألم يتنبه رعاة المسيح، ومعلموا الكنيسة والأساقفة ورؤساء الأديار، والقسس من الشيوخ

نحو من يطعن في الدين الإسلامي بمنتهى الصرامة. وقد أيدت طائفة الكنيسة التي عرفت بالاعتدال الحكومة فيما بذلت من جهود في هذه السبيل، ولعن الأساقفة هؤلاء المتعصبين وحرموهم من الحقوق الكنسية، وعقد في سنة ٨٥٣م مجمع ديني لبحث وسائل القمع التي اتفق عليها الفريقان(١)، وانتهت بالقضاء على هذه الحركة. وقد دون المؤرخون بعد ذلك حادثين منفصلتين من حوادث الاستشهاد- وقعت ثانيتهما في سنة ٨٩٣م، ولم تقع بعدها أية حادثة مدة الحكم العربي في أسبانيا(٢).

تعصب بعض المسلمين لا ينفي فكرة التسامح: ولكن في عهد دولة المرابطين التي تولت حكم بلاد الأندلس، انفجر بركان التعصب الديني في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي من جانب المتحمسين من رجال الدين الإسلامي، وقاسى من جراء ذلك المسيحيون واليهود وطائفة الأحرار المسلمين الذين نادوا بحرية الفكر كالفلاسفة والشعراء ورجال الأدب. ولكن هذه الحوادث لم تكن إلا استثناء للتسامح الديني الذي اتسم بذلك الطابع الذي عرف به أمراء المسلمين في أسبانيا نحو رعاياهم من المسيحيين. ذلك أن أحد مسلمي أسبانيا الذي طرد من بلاده حين أقصى العرب لآخر مرة سنة ١٦١٠م، بينما نراه يحتج على اضطهاد محاكم التفتيش، يثبت بالأدلة القاطعة مدى التسامح الديني الذي سار عليه إخوانه في الدين في هذه الكلمات: "هل حاول أسلافنا المنتصرون ولو مرة واحدة أن يستأصلوا المسيحية من أسبانيا حين كان في مقدورهم أن يفعلوا ذلك! ألم يسمحوا لآبائكم بأن يتمتعوا بحرية استعمال رسومهم الدينية في نفس الوقت الذي لبسوا فيه طيالسهم؟ ألم يوص نبينا بأن تُترك الحرية الدينية لأهالي البلاد التي يفتحها العرب بحد السيف مهما بلغت آراؤهم الدينية من حمق وخرق ؟ بل ألم يسمح لهم بالتدين بأي دين آخر يؤثرونه على دينهم إذا دفعوا مقداراً معتدلاً من الجزية في كل سنة؟ وإذا كانت ثمة أمثلة قد يأتي بها بعضهم للدلالة على إرغام الأهلين على اعتناق الإسلام، فإن هذه الأمثلة قد بلغت من الندرة بحيث لا تستحق أن تذكر هنا، وإنما حاولها أناس لا يخشون الله ونبيه، بل قاموا بهذا من تلقاء أنفسهم مع مخالفته لتعاليم الدين الإسلامي وسنة نبيه، تلك التعاليم التي لا يمكن أن يدنسها أو ينتهك حرمتها إلا كل شخص لا يتحلى بصفات المسلم الحقيقي... وأنتم لا تستطيعون أن تظهروا لنا شيئاً ما عن أية حادثة خاصة بسفك الدماء أو تقديم للمحاكمة، بسب الطرق المختلفة التي اتبعت في إقناع الناس وتلقينهم تعاليم تشبه على نحو ما، محاكم التفتيش الممقوتة. وإن يدنا مبسوطة دائما لتلقى كل من وهب الله له نعمة

والرؤساء فيعرفوا أنهم كانوا هراطقة؟ ألم يعلنوا معترفين، دون أن يسألوا ويستجوبوا من تلقاء أنفسهم، ويحكموا على أساس حكمهم الشخصي، ما لا يحق لهم أن يقولوا ولو أنذروا بالموت؟ .(Migne: tome cxxi. P. 529)

(١) Alvar: Indic. Lum, p. 15. أي عذر يمكن أن ننتحله لهؤلاء الذين نتركهم فريسة الحرمان الكنسي، والذين اغتصبنا من أفواههم إيماننا بأنهم لن يخرجوا أبداً على دينهم؟ اؤلئك الذين منعناهم أن يطعنوا في آثام الكفار أو يلعنوا الملعونين؟ إننا نضطرهم بسوء نية، أن يقسموا على الأنجيل والصليب بالقوة والإكراه، بل نضطرهم بقسوة وهلع مرير مهددين إياهم بعقوبات لم يسمع عنها وبألوان من العذاب كقطع الأطراف وضرب السياط وغير ذلك مما يستولي علينا الفزع حين نقول أو نسمع" .Migne: tom cxxi , p. 530

(٢) Baudissin, pp. 199.

التدين بديننا، ولكن كتابنا المقدس هو القرآن الكريم لا يجيز لنا أن نتحكم في ضمائر الناس. وإن الذين استجابوا إلى ديننا قد نعموا بكل ما يمكن أن يتصوره العقل من تشجيع ومعاضدة؛ حتى إذا اعترفوا بوحدانية الله ورسالة نبيه، صاروا كواحد منا من غير تمييز أو استثناء، فتزوجوا بناتنا وشغلوا المناصب التي يكون أصحابها محلاً للثقة، ويحاطون بمظاهر الشرف وينعمون بالثراء. وكان أقصى ما رضيناه لأنفسنا من هؤلاء، أن طلبنا إليهم في رقة ولطف أن يلبسوا لباسنا. وأن يظهروا بمظهر المخلصين الحقيقيين للدين في كل ما يظهرون به أمام الناس، دون أن يعرضوا ضمائرهم للامتحان بشرط أن لا يغضوا من شأن ديننا أو يدنسوه. فإذا فعلوا ذلك أنزلنا بهم ما يستحقونه من العقاب بلا مراء، إذ كان تحولهم إلى هذا الدين طواعية واختيار لا عن إرغام وإكراه"(١).

وقد اتخذ رئيس أساقفة بلنسية من روح التسامح الحقيقية هذه، مقالاً رئيسياً بعنوان : "ارتداد العرب في الأندلس وخيانتهم للدولة" وذلك حين أشار على فيليب الثاني بطردهم فقال : "إنهم لم يذكروا بالجميل والحمد شيئاً أكثر من حرية الضمير هذه في كافة المسائل الدينية، تلك الحرية التي سمح الأتراك العثمانيون وغيرهم من المسلمين لرعاياهم أن ينعموا بها"(٢).

مدى اتساع حالات التحول إلى الإسلام : وإن هذه البذور العميقة التي ألقى بها الإسلام في قلوب أهالي بلاد الأندلس، يمكن الحكم على مدى عمقها من هذه الحقيقة، وهي أنه لما طرد آخر بقايا المسلمين من هذه البلاد سنة ١٦١٠م، كان هؤلاء الأهالي المساكين لا يزالون يتمسكون بدين آبائهم، مع أنهم أرغموا على إظهار تدينهم بالمسيحية أكثر من قرن، ومع توالي هذه الهجرات التي حدثت منذ سقوط غر ناطة، حتى قيل إنه طرد في ذلك الوقت أكثر من خمسمائة ألف(٣). ومن ثم هجرت مدن وقرى برمتها، تخربت بيوتها وأصبحت أطلالاً بالية، حتى لم يعد فيها شخصاً واحد يقوم ببنائها من جديد(٤). وربما كان هؤلاء المسلمون المتخلفون في أسبانيا جميعا من سلالة أهالي البلاد الأصليين، الذين كان الدم العربي فيهم قليلاً أو منعدماً. وإن الأدلة التي قد نوردها على سبيل التدليل لدعم هذه الحقيقة من الكثرة بحيث لا نستطيع أن نأتي بها في هذا المقام. ولنذكر الآن إحدى هذه الحقائق لتكون شاهداً على صحة ما نقول، مستمدين ذلك من كتاب يرجع تاريخه إلى سنة ١٣١١م. وقد جاء فيه أنه لم يكن من بين المائتين ألف من المسلمين الذين كانوا يعيشون في مدينة غرناطة في ذلك الحين أكثر من خمسمائة من أصل عربي، على حين كان سائر هؤلاء المسلمين من أهالي بلاد الأندلس الأصليين الذين تحولوا إلى الإسلام(٥). وأخيراً من المهم أن نذكر حتى أواخر ذلك الوقت الذي احتفظ فيه

---

(١) Morgan, vol. ii, pp. 297- 8, 345.

(٢) Id. P. 310.

(٣) Lea, The Moriscos, p. 259.

(٤) Morgan, vol. ii, p. 337.

(٥) Id. P. 289.

الإِسلام بقوته ونفوذه، نرى هذا الدين يظفر بمنبعين جدد، ولا غرو فإن المؤرخ حين يدون الحوادث التي وقعت في سنة ١٤٩٩م، أي بعد سقوط غرناطة بسبع سنين، يوجه أذهاننا إِلى هذه الحقيقة، وهي أنه كان من بين العرب في أسبانيا عدد قليل من المسيحيين الذين اعتنقوا الإِسلام في عصر متأخر(١).

(١) Sterling-Maxwell, vol. I, p. 115.

الباب السادس

انتشار الإسلام بين شعوب أوربا المسيحية في عهد الأتراك

علاقات الأتراك برعاياهم المسيحيين قائمة على التسامح: نسمع لأول مرة عن الأتراك العثمانيين في بداية القرن الثالث عشر عندما هربوا من وجه المغول في عدد يقرب من خمسين ألفاً، ثم قدموا لنجدة سلطان قونية الذي أقطعهم ولاية في الشمال الغربي من آسيا الصغرى مكافأة لهم على خدماتهم ضد المغول والإغريق. وكانت هذه الولاية نواة الدولة العثمانية المقبلة التي أخذت تتسع أول الأمر باندماج الولايات الصغيرة التي كان الأتراك السلجوقيون قد تقسموها فيما بينهم. ثم عبر الأتراك إلى أوربا وأخذوا يضمون إلى ملكهم دولة بعد أخرى. حتى توقفت انتصاراتهم المطردة أمام أبواب فينا في سنة ١٦٨٣[١].

ولقد باشر العثمانيون السلطة على الرعايا المسيحيين منذ الأيام الأولى التي قاموا فيها بتوسيع مملكتهم في آسيا الصغرى. و لم تكد حاضرة الإمبراطورية الشرقية القديمة تسقط في أيدي العثمانيين سنة ١٤٥٣، حتى توطدت العلاقات بين الحكومة الإسلامية والكنيسة المسيحية بصفة قاطعة وعلى أساس ثابت. ومن أولى الخطوات التي اتخذها محمد الثاني، بعد سقوط القسطنطينية وإعادة إقرار النظام فيها، أن يضمن ولاء المسيحيين بأن أعلن نفسه حامي الكنيسة الإغريقية. فحرم اضطهاد المسيحيين تحريماً قاطعاً ومنح البطريق الجديد مرسوماً يضمن له ولأتباعه ولمرءوسيه من الأساقفة حق التمتع بالامتيازات القديمة والموارد والهبات التي كانوا يتمتعون بها في العهد السابق. وقد تسلم جنَّاديوس، أول بطريق بعد الفتح التركي، من يد السلطان نفسه، عصا الأسقفية التي كانت رمز هذا المنصب، ومعها كيس يحتوي على ألف دوكة ذهبية، وحصان محلى بطاقم فاخر، وكان يتميز بركوبه في خلال المدينة تحف به حاشيته[٢]. و لم يقتصر المسلمون في معاملة رئيس الكنيسة على ما تعود أن يلقاه من الأباطرة المسيحيين من توقير وتعظيم، بل كان متمتعاً أيضاً بسلطة أهلية واسعة، فكان من

---

(١) لا مجال هنا لسرد تاريخ هذه الأراضي التي استولى عليه الأتراك، والتي يمكن سردها بإيجاز فيما يلي: في سنة ١٣٥٣ عبر الأتراك العثمانيون إلى أوربا أولاً، وبعد سنوات قلائل اتخذوا أدرنه حاضرتهم الأوربية. وفي عهد بايزيد (١٣٨٩- ١٤٠٢م) امتدت ممتلكاتهم من بحر إيجه إلى نهر الطونة، مشتملة على جميع أجزاء بلغاريا ومقدونية وتساليا وتراقيا، ما عدا خلكيديكية والمقاطعة المحيطة بالقسطنطينية مباشرة. ثم احتل مراد الثاني (١٤٢١- ١٤٥١م) خلكيديكية، وسار بفتوحاته قدماً نحو الأدرياتيك. وقد أصبح محمد الثاني (١٤٥١- ١٤٨١م)، بعد فتح القسطنطينية وألبانيا والبوسنة والصرب، سيد شبه الجزيرة الجنوبية الشرقية، ما عدا الأجزاء الساحلية التي تحتلها البندقية والجبل الأسود. ثم أضاف سليمان الثاني (١٥٢٠- ١٥٦٦م) إلى ملكه بلاد المجر وجعل بحر إيجه بحراً عثمانياً. وفي القرن السابع، استولوا على إقريطش، ونزلت لهم بولنده عن بودليا.

(٢) Phrantzes, pp. 305-6.

عمل البطركية أن يفصل في القضايا التي تتعلق بالإغريق بعضهم مع بعض: فكان لها أن تفرض الغرامات، وتسجن المجرمين في سجن معد لها، بل كان لها أن تحكم بالإعدام في بعض الأحيان. بينما صدرت التعليمات إلى الوزراء وموظفي الحكومة بتنفيذ هذه الأحكام: وكانت المراقبة التامة على الشئون الروحية والكنسية (وهي التي لم تتدخل فيها الحكومة التركية مطلقاً بعكس السلطة المدنية التي كانت مخولة للدولة البيزنطية) متروكة كلها في أيدي البطريق وأعضاء المجمع الأعظم، وكان في استطاعة البطريق أن يدعوهم متى شاء كذلك كان في استطاعته أن يفصل في كل شئون العقيدة والشريعة من غير أن يخشى تدخلاً من جانب الحكومة. ولما كان هذا البطريق معترفاً به موظفاً من موظفي الحكومة السلطانية، كان يستطيع أن يقوم بعمل كبير في رفع الظلم عن المظلومين بأن يوجه أنظار السلطان إلى أعمال الحكام الظالمين. كذلك عومل الأساقفة من الإغريق في الولايات معاملة تنطوي على رعاية بالغة، وعهد إليهم كثيراً من القضايا المتعلقة بشئونهم المدنية، إلى حد أنهم ظلوا حتى عصور حديثة يعملون في أسقفياتهم كما لو كانوا عمالاً من الأتراك على الأهالي الأرثوذكس؛ وبذلك حلوا محل الأرستقراطية المسيحية القديمة التي استأصل الغزاة شأفتها. ونجد أن رؤساء الكنيسة كانوا بوجه عام أكثر نشاطاً باعتبارهم قساوسة من الإغريق: وطالما علموا شعبهم أن السلطان قد اكتسب قبولاً إلهياً بوصفه حامي الكنيسة الأرثوذكسية. ومن ثم أذيع منشور يكفل للأرثوذكس حق استخدام الكنائس التي لم تصادرها الحكومة لتحويلها إلى مساجد، ويمنح لهم حق الاحتفال بطقوسهم الدينية تبعاً لعاداتهم القومية(١).

وكان من أثر ذلك أن الإغريق، ولو أنهم كانوا يفوقون الأتراك عدداً في كل الولايات الأوربية التابعة للدولة، قد جعلهم التسامح الديني الذي رخص لهم، وما تمتعوا به من حماية لحياتهم وأموالهم، يسرعون في الموافقة على تغيير ساداتهم وإيثار سيادة السلطان على سيادة أية سلطة مسيحية. وكان الغزاة العثمانيون في بقاع كثيرة من المملكة يلقون ترحيباً من جانب الإغريق، ويعدونهم مخلصين لهم من الحكم الظالم المستبد، حكم الفرنجة وأهل البندقية الذين طال نزاعهم مع بيزنطة حول ملكية البلوبونيز وبعض الجهات المجاورة لبلاد اليونان، فقد صيروا الشعب في حالة من العبودية يرثى لها، بإدخالهم نظام الإقطاع في اليونان، كما كانوا مكروهين من رعاياهم، لاختلافهم عنهم في اللغة والجنس والعقيدة(٢). ووجد هؤلاء الرعايا أي تغيير

---

(١) Finaly, vol. iii, p. 522.
Pitzipios, Seconde Partie, p. 75. M. d' Ohasson, vol. iii. P. 52- 4 Arrminjon, vol. i. p. 16.

(٢) يرسم أحد الرحالة الذين زاروا جزيرة قبرص في سنة ١٥٠٨ صورة من ظلم البنادقة في أملاكهم الأجنبية على الوجه التالي: "كل سكان قبرص عبيد للبنادقة لكونهم مضطرين إلى دفع ثلث مواردهم أو دخلهم للدولة سواء من حاصلات أراضيهم أو من الغلال أو النبيذ أو الزيت أو الأغنام أو أي شيء آخر. إلى جانب ذلك يسخر كل منهم بالعمل للدولة يومين في الأسبوع في أي مكان يحبون تعيينه فيه. وكل من يتخلف منهم عن العمل بسبب انشغاله في بعض أعماله الخاصة، أو لعلة جسمانية، يكلف بأن يدفع غرامة عن الأيام التي تغيب فيها عن العمل. ومما زاد هذه الحالة سوءاً أن هناك بعض الضرائب السنوية، وغيرها من الضرائب التي فرضت عليهم، مما جعل عامة

لحكامهم، طالما لا يمكن أن ينقلهم إلى حالة أسوأ مما هم عليه، قد يهيئ لهم فرصة ممكنة لتحسين هذه الحالة. ومع أن مخلصيهم كانوا كذلك غرباء عنهم، إلا أنهم آثروا التركي الكافر على الكاثوليك الهراطقة إيثاراً مطلقاً[١]. كذلك كان الإغريق الذين عاشوا تحت حكم بيزنطة غير المباشر فقد كان من الجائز أن يوافقوا على تغيير الحكام. وقد بلغت حالة التدهور والظلم التي ميزت أسرة **Palaelogi** إلى حد يدعو المتأمل إلى الخوف والذعر. "فإن الأرستقراطية الفاسدة، ورجال الكنيسة المستبدين الذين لا يحصيهم العد، وضغط القانون الباطل، وإرهاق الحكومة الوضيعة، وأكثر من هذا، المقاطعات والمالية والجيوش المجيشة لجمع الضرائب والخراج – كل ذلك قد جعل الشعب المنحل خلواً من الحقوق والمبادئ، لا فرصة أمامه للإصلاح، ولا أمل له في الانتعاش"[٢]. وهنا نشير إلى كتابة تؤيد صحة هذا الحكم لأحد المعاصرين الذين يعدون حجة، حتى لا يظهر أن مثل هذا الحكم قد أملته روح التعصب الطائفية. فقد عرض الإخباريون من الروس الذين تحدثوا عن سقوط القسطنطينية لمثل هذا الحكم ضد حكومتها بقولهم: "إن أية دولة لا تخاف القانون تشبه فرساً من غير زمام. لقد سمح قسطنطين وأسلافه لأكابر دولته بأن يستبدوا بالشعب، فلم تعد في محاكمهم عدالة، ولا في قلوبهم شجاعة. وجمع القضاة الثروات من دموع الأبرياء ودمائهم، وأصبح الجنود الإغريق لا يفخرون إلا بفخامة الملبس، والمواطنون لا يتحرجون من الظهور بمظاهر الغش والخيانة، والجنود لا يخجلون من الفرار. وأخيراً صب الله غضبه على هؤلاء الحكام الجاحدين، ورفع من شأن محمد الذي ينشد أتباعه اللذة في القتال، والذي لا يخدع قضاته ضمائرهم"[٣]. هذه العبارة الأخيرة التي تنطوي على المديح والثناء[٤]، قد تقع موقع الدهش حين سمعها جيل من الأجيال طالما استنجد به ليحتج على جور الأتراك. ولكن هذا ثابت في وضوح وتواتر بشهادة المؤرخين المعاصرين. فالمؤرخ البيزنطي الذي خلف لنا قصة سقوط القسطنطينية، يحدثنا كيف كان بايزيد الصارم نفسه رحب الصدر، كريم الخلق مع رعاياه المسيحيين، وكيف جعلهم يألفونه ألفة تامة بأن

الشعب من الفقراء على جانب كبير من الهزال والانهيار بحيث كانوا لا يكادون يملكون وسيلة يبقون بها على الروح والجسد معاً". (The Travels of Martin Baumgarten, p. 373)

راجع أيضاً النصوص التي نقلها هاكيت Hackett في:

History of the Orthodox Churen of Cyorus, p. 183.

(١) Finaly, vol. iii, p. 502.

(٢) Urquhart, quoted by Clark: Races of European Turky, p. 82.

(٣) Karamsin, vol. v, p. 437.

(٤) ويكتب مارتن كرسيوس Martin Crusius بهذه الروح نفسها إذ يقول: "ومن الغريب أننا لم نسمع مطلقاً أن شيئاً من الجرائم أو المظالم قد وقع بين البرابرة (الأتراك) وبين البقية الباقية في هذه المدينة الكبرى، فالعدالة ممنوحة لكل فرد. لذلك وصف السلطان القسطنطينية بأنها ملجأ العالم كله: ذلك لأن جميع التاعسين يختبئون هناك في أمان، ولأن العدالة توزع على الناس جميعاً؛ على أقلهم شأناً وأعظمهم نفوذاً، على المسيحيين والكفار سواء بسواء.(Turcograecia, p. 487k,) (Basileae, 1584)

سمح لهم بالتردد على مجلسه في حرية تامة. وقد اشتهر مراد الثاني بعنايته في تحقيق العدالة وبإصلاحه للمفاسد التي سادت في عهد الأباطرة الإغريقيين، وعاقب في غير هوادة أي موظف من موظفيه استبد بأي فرد من رعاياه[١]. لهذا رأينا بعد سقوط القسطنطينية بقرن على الأقل، طائفة من الحكام الصالحين، واستطاعوا بفضل الإدارة الحازمة الصارمة أن ينشروا الأمن والنظام في المقاطعات كلها، ووجدنا تنظيماً رائعاً في الشئون المدنية والقضائية، وهو إن لم يجعل المساواة تامة بين المسلمين والمسيحيين، إلا أنه جعل الإغريق أحسن حالاً بكثير مما كانوا عليه من قبل. فقد كان ما كلفوا به من مشقة العمل الإجباري أهون عليهم من ذي قبل، وكانوا في القليل النادر يدفعون غرامات غير عادية، وكانت الضرائب التي يدفعونها عبئاً خفيفاً، إذا ما قورنت بالالتزامات الإقطاعية، التي لا تنتهي، والتي كان الفرنجة يفرضونها عليهم والإرهاق المستمر الذي يتكبدونه من البيزنطيين. ولاشك أن الإيالات التركية كانت أحسن حكماً وأكثر رخاءً من معظم جهات أوربا المسيحية، وأن جمهرة السكان المسيحيين الذين اشتغلوا بزراعة الأراضي كانوا ينعمون بقدر كبير من الحرية الشخصية، كما كانوا ينعمون بثمار جهودهم في ظل حكومة السلطان أكثر مما كان ينعم به معاصروهم في ظل كثير من الحكام المسيحيين[٢]. أضف إلى ذلك عاملاً كبيراً كان من أهم العوامل في زيادة نشاط المملكة التجاري، ذلك أن السلاطين الأولين كانوا دائماً على استعداد لإنعاش الصناعة والتجارة بين رعاياهم؛ وإن كثيراً من المدن الصناعية قد ازدهر ازدهاراً كبيراً خلصها الفتح التركي مما أصابها في عهد الدولة البيزنطية من طغيان الثروة الحكومية التي عرقلت نهضتها وشلت حركتها، ومن هذه المدن نيقية التي سلمت لأورخان سنة ١٣٣٠ بشروط ملائمة جداً بعد حصار طويل[٣]. وكان العثمانيون كالرومان القدماء مهرة في إنشاء الطرق والكباري مما سهل التجارة في جميع أنحاء الدولة؛ وقد اضطرت الدول الأجنبية إلى السماح بفتح موانيها لتجار الإغريق، وكانوا قد منعوا من دخولها في عهد الأباطرة البيزنطيين. ذلك أنهم قد أصبحوا في تلك الحالة يبحرون في ظل الراية العثمانية، وقد اتخذوا زي الأتراك وعاداتهم، ومن ثم ظفروا من أمم غربي أوربا بالاحترام والتقدير اللذين كان الكاثوليكيون يرفضون دائماً حتى ذلك الحين أن يمنحوها أفراد الكنيسة الإغريقية[٤].

استثناء من التسامح: ضريبة الأبناء: ولسنا نستثني من هذا السلوك الطيب، وذلك التسامح الكريم إلا أمراً واحداً معروفاً ذلك هو ضريبة الأبناء المسيحيين الذين كانوا يؤخذون من آبائهم في سن مبكرة كرهاً

---

(١) Phrantzes, p. 92.

(٢) وكتب جرلاخ Gerlach سنة ١٥٧٧ يقول: "وإذا عاش النصارى أو اليهود (في الشرق) في أماكن فيها قضاة أو سوباشاهات (وهي وظيفة إدارية تقابل اليوم وظيفة المدير أو المحافظ في مصر) بحيث لا يستطيع عامة الأتراك أن يفعلوا بهم ما يشاءون، فإنهم (أي اليهود والنصارى) كانوا يؤثرون أن يعيشوا تحت سيطرة النصارى. ذلك أنهم كانوا لا يتعرضون لأذى ماداموا يدفعون الجزية. أما في الممالك النصرانية فلا حد لما كان على الرعايا أن يؤدوه للدولة طوال العام" (Tage- Buch p. 413)

(٣) Hertzberg, pp. 467, 646, 650.

(٤) Finlay, vol. v. pp. 156-7

وينتظمون في سلك الإنكشارية المشهورين. وقد استحال هذا الجيش بعد أن أنشاه أورخان سنة ١٣٣٠، في خلال بضعة قرون، عماداً لقوة السلاطين الأتراك الغاشمة، وظل يتغذى بهذه الضريبة المنتظمة، وكانت تحدث مرة كل أربع سنوات[١]، عندما كان قواد السلطان يزورون المقاطعات التي فرضت الضريبة عليها. فيختارون طائفة من بين الأبناء الذين يبلغ سن الولد منهم السابعة تقريباً. وقد حاول فقهاء المسلمين تبرير هذه الضريبة التي تتنافى مع الإنسانية بأن جعلوا هؤلاء الأولاد يمثلون الخمس الذي جعله القرآن من نصيب الحاكم في الغنائم[٢]. وأفتوا بأنه تجنب الإكراه على اعتناق الإسلام[٣] كان ملحوظاً من غير شك بالنسبة إليهم كذلك، على أن حداثة سنهم التي كانوا يوضعون فيها تحت إرشاد معلمين لابد أنها لم تكن بحيث تجعل[٤] لهذه النظرية أي قيمة من الناحية العملية. وطالما عبرت أوربا المسيحية عن استيائها من هذه الضريبة الوحشية، ورسم الرحالة الذين تنقلوا في الولايات التركية صوراً مؤلمة للمنازل المهجورة والآباء الذين ذرفوا الدمع على الأطفال الذين انتزعوا منهم انتزاعاً. غير أن الجيش في أول نشأته كان قد كثر عدده بسرعة فائقة بتطوع كثيرين من المسيحيين أنفسهم[٥]، وربما كانت الظروف والأحوال التي فرضت فيها هذه الضريبة أولاً تذهب بعيداً في تفسير الجمود الذي أبداه الإغريق أنفسهم فيما يظهر. فقد تعرضت البلاد كلها للخراب من جراء الحروب، وكثيراً ما استهدفت الأسر لخطر الهلاك جوعاً. ومن ثم كان الأبناء الذين يتبنون يتامى في كثير من الأحيان، ولولا تبنيهم لتعرضوا للهلاك. أضف إلى ذلك أن عادة بيع المسيحيين أرقاء في ذلك الحين قد انتشرت انتشاراً واسع النطاق، ربما أدى إلى جعل هذه الضريبة أقل إثارة للدهش مما كان متوقعاً. ثم إن هذه العادة قد ثبت أنها لم تكن إلا استمراراً لحالة مماثلة كانت قائمة في ظل الأباطرة البيزنطيين[٦]. وقد قيل أيضاً إنه لم يكن ثمة ما

---

(١) على أن هذه الفترة لم تكن ثابتة؛ ففي أول مرة كانت الجباية تحدث كل سبع سنوات أو خمس، ولكنها حدثت في عصور متأخرة، على فترات أكثر من هذه، تبعًا لحاجة الحكومة (Meuzel, p. 52) ويقرر متروفانس كريتوبولوس، فيما كتبه سنة ١٦٢٥، أن الحُيَاه كانوا يفدون إلى المدن إذا وافت السنة السابعة، وكان على كل مدينة أن تتطوع بثلاثة أولاد أو أربعة، أو بولدين على الأقل (.P. 205)

(٢) القرآن سورة الأنفال: آية ٤٢.

(٣) نفس المرجع سورة يونس: آية ٩٩، ١٠٠

(٤) "ومع ذلك فإن الشبان المسيحيين لم يرغموا على تغيير عقيدتهم. وكانت مبادئ الحكومة تتعارض مع ذلك طبقًا لأحكام القرآن؛ فإذا كان هؤلاء الموظفون قد استخدموا أحيانًا شيئًا من الإكراه الديني بدافع تعصبهم، فقد كان ذلك تساهلاً من جانب قيادتهم؛ على أن هذا الإكراه لم يكن مسموحًا به مطلقًا من الرؤساء". (M. d'Ohsson, tome iii, pp. 397-8)

(٥) Hertzberg, p. 472.

(٦) "على أنه من المحزن جدًا ما حدث يومًا من أن الأباطرة المسيحيين كانوا يستعرضون من كل مدينة عددًا معينًا من الأطفال، الذين يبدو أن قواهم الطبيعية تفوق قوى هؤلاء الباقين، الذين تحملوا مشقة إحضارهم إلى الساحة للقيام بواجبات الخدمة العامة: المدنية والحربية، كذلك عندما احتل الأتراك الإمبراطورية اليونانية، كان لهم نفس الحق في أن ينتزعوا من أرباب الأسر أطفالاً وهبتهم الطبيعة قوة بالغة" (David Chytraeus, pp. 12- 14)

يدعو القواد الذين كانوا يجمعون العدد المعين من الأبناء إلى استخدام القوة والإكراه إلا في القليل النادر، وإنما كان هؤلاء الآباء مشوقين في الغالب إلى إدخال أبنائهم في خدمة تهيئ لهم في كثير من الأحيان حياة سعيدة وعيشة ناعمة مريحة، لا تعنيهم الظروف والملابسات، وطالما كان هؤلاء الصغار يُنَشَّأون ويثقفون كما لو كانوا أولاد السلطان نفسه(١). ثم إن هذا النظام قد يبدو أخف وحشية لو أن الآباء كانوا حقاً يفتدون أولادهم غالباً بدفع بعض الأموال(٢). وفي سنة ١٦٢٥ كتب متروفانس كريتوبولوس **Metrophanes Kritopoulos** وكان بطريقاً للقسطنطينية ثم للإسكندرية، فذكر شتى الحيل التي كان يلجأ إليها المسيحيون تخلصاً من عبء هذه الضريبة. من ذلك أنهم كانوا يشترون أولاد المسلمين ويقدمونهم على أنهم مسيحيون، وأنهم كانوا يرشون الجباة ليأخذوا بدلاً من أولادهم أولاداً من المسيحيين الذين ولدوا من عنصر منحط، أو نُشِّئوا تنشئة فاسدة أو ممن "يستحقون الشنق"(٣)، وتحدث توماس سميث **Thomas Smith** في جملة آخرين عن إمكان افتداء الأولاد بالمال، وقد بلغ من التأثر مبلغاً عميقاً: "وحرص بعض آبائهم، بدافع من الشفقة الطبيعية والشعور الديني الصادق على ألا يُسْلَبوا أبناءهم الذين تضطرهم هذه المحنة إلى الارتداد عن نصرانيتهم فكانوا يدفعون للأتراك خمسين دولاراً أو مائة، مبلغاً يتفاوت قلة وكثرة حسب قدرتهم على الدفع ومدى تأثيرهم في جشع الأتراك"(٤). وقد أعفي من هذه الضريبة القاسية أهالي مدن خاصة من المسيحيين، كالقسطنطينية وبعض البلاد والجزائر التي كانت قد اتفقت على هذا الشرط وقت تسليمها للأتراك، أو كانت قد اشترت هذا الامتياز(٥). وإن هذه الظروف المخففة في بداية حكمهم، وحالة الرخاء التي يستسلم الناس في ظلها لأي عادة مقررة — ولو أنها لا تصلح بحال أن تكون عذراً لهذا الوضع الذي يتنافى مع الإنسانية — لتعيننا على فهم ما يسميه أحد الرحالة في القرن السابع عشر "عدم الاكتراث الذي لا يمكن تعليله"(٦)، والذي يظهر

---

(١) Creasy, p. 99. M. d'Ohsson; tome iii, p. 397. Manzel, p. 53
وقد قال توماس سمث وهو يتحدث عن أمثال هؤلاء الآباء: وآخرون قد لحقهم خزي الدين وعاره، مسيحيون اسماً فحسب، تخلوا عنهم، في حرية وإقبال عظيم، لا لكي يتخلصوا من متاعبهم وأعبائهم فحسب، بل أملاً في أن يحصلوا، بعد أن يكبروا، على شيء من السلطان في الحكومة) An Account of the Greek Church, p. 12(London 1680) وفي عهد مراد الأول، استخدمت الجيوش المسيحية في جمع ضريبة الأطفال المسيحيين هذه. (Finlay, vol. v. p. 45)

(٢) "على أنه من الممكن حقًا أن يخلص الآباء الأطفال من الحياة بافتدائهم بالمال"
(David, Chytraeus p. 13) يذكر دي لاجيتيير De la Guilletiére هذه الضريبة في سنة ١٦٦٩ على أنها من خصائص الأثينيين.
(An account of Late Voyage to Athens, p. 272. London, 1676)

(٣) Confessio, p. 205.

(٤) An Account of the Greek Church, p. 12(London 1680)

(٥) Menzel, p. 52. Thomas Smith: De Moribus ac Institutis Turcarum, p. 81. (Oxoii, 1672).

(٦) Hill, p. 174.

أن الإغريق كانوا قد وقعوا فيه، حين طلبوا حكومة جديدة (حكومة الأتراك) عملت على تحسين حالتهم تحسيناً ملموساً.

ضريبة الرأس: زد على ذلك أن رعايا الدولة العثمانية من المسيحيين كان عليهم أن يدفعوا ضريبة الرأس في مقابل حمايتهم وإعفائهم من الخدمة العسكرية. وكانت الفئات المقررة في القانون العثماني تتراوح بين ٢,٥، ٥، ١٠ قروش على كل ذكر بالغ، كل بالنسبة إلى دخله(١)، على حين أعفي النساء ورجال الكنيسة(٢). وكانت الفئات في القرن التاسع عشر تتراوح بين ١٥، ٣٠، ٦٠ قرشاً، كل بحسب دخله(٣) وكثيراً ما تحدث الكُتّاب المسيحيون في القرنين السادس والسابع عشر عن هذه الضريبة بتقدير دوكة واحدة عن كل رأس(٤). ولكنهم أخبروا كذلك، على اختلاف فيما بينهم، أنها تتراوح بين ٣، ٥، ٥⅞ من الريالات أو الدولارات(٥) ولعل التقلبات التي طرأت في القرن السابع عشر على سعر النقد في العملة التركية هي التي تفسر لنا تلك التغييرات الأخيرة. ولكي نقدر على وجه التحقيق، إلى أي حد كانت هذه الضريبة عبئاً على هؤلاء الذين يؤدونها فإن ذلك يحتاج إلى بحث مستفيض حول تتبع قيمة النقد في هذه الفترة، وعمل مقارنة مع سائر أبواب المصروفات(٦). ولكنها لا تكاد في ذاتها عذراً وجيهاً لتغيير العقيدة؛ كما أشار إلى ذلك

---

(١) Joseph von Hammer (2), vol. ii, p. 151.
ويقرر هنس شلتبرجر Hans Schiltberger، الذي أسره الأتراك في سنة ١٣٩٦م ورجع إلى وطنه ميونيخ بعد أن قضى في الأسر اثنين وثلاثين عاماً، أن الضريبة التي لم يكن بد من أن يدفعها المسيحيون لم تزد على جزئين من مائة من المارك في الشهر (Reisebuch, p. 92)

(٢) كانوا يعفون خدام الدين المسيحي، كما أمر بذلك الله، كأنهم كانوا يفعلون ذلك احتراماً للمناصب المقدسة التي يشغلونها كما أعفي النساء كذلك من دفع هذه الضريبة.
(De Graecae Hofierno Statu Epistola, authere Thomas Smith p. 12) (Trajecti ad Rhenum, 1698)

(٣) Silbernagl, p. 60.

(٤) Martin Crusius, p. 487; Sansovino, p. 67.
Georgieviz., pp. 98- 9; Scheffler,§ 56; Hertzberg, p. 648, De la Jonquiér, p. 267.
ويقرر كتاب نشر في لندن سنة ١٥٩٥ بعنوان The Estate of Christians Living under the subjection of the Turke، أن ضريبة الرأس عند الأطفال الذكور كانت ثمانية شلنات (p.2) ويقول ميشيل باودن Michel Bauden إن مقدارها (one sequin) لكل رأس من الذكور (Histoire du Serrail, p. 7. paris, 1662)

(٥) Georgirenes, p. 9; Tournefort, vol. I, p. 9L; Tavernier (3), p. 11.

(٦) وفي كتاب نشره جوزيف جيورجيرنيس رئيس أساقفة سيسام († جزيرة في بحر إيجه. يذكرها العرب بصيغة سامر أو سام أو شامس,Encyc. Of Islam) في سنة ١٦٧٨، في أثناء زيارة إلى لندن، يمدنا بوصف عن دخل أبرشيته، الذي يظهر أن تفصيلاته لم تكن تعد مجحفة. كما أنها كانت مدونة هنا لفائدة قراء الإنجليز: وإذا قورنت بالمبالغ المذكورة هنا فينبغي أن نذكر أنه يتحدث على ضريبة الرأس باعتبارها ثلاث ريالات أو دولارات (PP. 8-9). وعندما يتولى (أي رئيس الأساقفة) لأول مرة يقدم له الآباء أو قسيس أبرشية الكنيسة عن مسكنه خمسة

ثورنيفورت **Tournefort** حيث كتب سنة ١٧٠٠م عن إسلام الكاندويوت **Candiots** فقال: يجب أن نعترف بأن هؤلاء التاعسين يبيعون أرواحهم بما يساوي بنساً، وأن كل ما حصلوا عليه من تبديل دينهم، هو تغيير زيهم وتمتعهم بإعفائهم من ضريبة الرأس التي لا تتجاوز خمسة ريالات في العام"(١). كذلك قرر شفلر **Scheffler** الذي كان مولعاً بتلوين حالة المسيحيين في ظل الحكم التركي بأقتم ما استطاع من ألوان، أن دوكة واحدة لكل رأس شيء تافه، ورأى أن يوجه عنايته قبل كل شيء إلى الضرائب غير العادية، وإتاوات الحروب وغيرها مما كانوا يطالبون بأدائها(٢). وكانت ضريبة الأطيان مفروضة على كل من المسيحيين والمسلمين على حد سواء. ذلك أن التفرقة القديمة بين الأرض التي يدفع عنها المالك المسلم العُشر، والأراضي التي يدفع عنها المالك غير المسلم الخراج لم تكن معروفة لدى العثمانيين(٣). وأياً كانت هذه المتاعب التي لم يكن بد من أن يتجشمها المسيحيون، فقد نشأت من ظلم الأفراد الذين استغلوا منصبهم الرسمي لابتزاز الأموال من هؤلاء الذين وقعوا تحت سلطتهم. ولم يكن مثل هذه المظالم يتنافى مع الشريعة المحمدية فحسب، بل كان نادر الوقوع قبل أن يتطرق الضعف إلى الحكومة المركزية ويعاني فوضى السلطات المحلية وتعسفها دون أن توقع عليها عقاباً(٤). وهناك فرق واضح كل الوضوح بين ما لدينا من الأخبار الخاصة بحالة المسيحيين خلال

عشر دولاراً أو عشرين؛ أما هؤلاء التابعون للكنائس الأخرى فيمنحون بحسب قدرتهم على الدفع. في السنة الأولى من توليه يؤدي كل خوري كنيسة له أربعة دولارات. في السنة التالية دولارين ويؤدي كل علماني إليه ثمانية وأربعين أسبرا (asper) (في المعاهدة التجارية التي أبرمت مع انجلترا سنة ١٦٧٥، كانت قيمة الدولار ثابتة على ثمانين اسبرا (Finlay, v. 28)– "وفي السنين التالية بلغت أربعة وعشرين. ويؤدي أهل سيسام دولاراً واحداً عن كل ترخيص؛ وكل الغرباء يدفعون دولارين، ولكن كل من يأتي بعد الزيجة الأولى ليطلب ترخيصاً بزيجة ثانية أو ثالثة يدفع ثلاثة دولارات أو أربعة) (PP. 33-4)

(١) Tournefort, vol. I, p. 91.

(٢) Scheffler§ 56.

"أما فيما يتعلق بهذه الدوكات التي يؤدونها فإنكم أنتم أيضاً تنخدعون بها انخداعاً فظيعاً. حقاً أن الإمبراطور التركي لا يأخذ في العادة جزية على الرأس إلا دوكة واحدة ولكن أين ضرائب الجمارك والضرائب غير العادية؟ ألا يأخذ وكلاء السلطان وعماله شيئاً أبداً؟ ألستم ملزمين في أوقات الحرب بدفع ضرائب غير عادية؟ أما الضرائب غير العادية فإنها تزيد وتنقص تبعاً لسوء حال العصور. والواجب أن يدفع رعايا السلطان هذه الضرائب كما ندفعها نحن"

(٣) Hammer (2), vol. I, p. 346.

(٤) وقد نشأت المصاعب التي كان يعانيها رعايا السلطان من المسيحيين، في كل الأزمان من تلك الحقيقة وهي أن السلطة المركزية في القسطنطينية لم يكن لها إلا سلطان فعلي ضئيل على كل أرجاء الدولة التركية. وإن الظلم اليسير الذي أحدثه موظفو القرى، والذي قد جعلته الأحقاد الشخصية شديدة الوطأة، هو الذي أثار أعمال القسوة هذه التي أذعن المسيحيون في تركيا سواء في العهود السابقة أو في الوقت الحاضر حيث تظهر هذه الأعمال أعنف وأشد. وفي الأيام التي تصل أمة من الأمم إلى عظمتها، قد تكون العدالة بل الشرف بإزاء الشعب المحكوم أمراً محتملاً. ولكن النادر أن توجد هذه الصفات في أمة تأخذ طريقها نحو التأخر والانحلال"

القرنيين الأولين من الحكم التركي في أوربا والأخبار التي تتعلق بحالتهم في وقت متأخر، حين كان دور الانحلال قد بدأ بالفعل. ولكن مما هو جدير بالملاحظة أن ما سجل عن عدد المسيحيين الذين تحولوا إلى الإسلام كان قليلاً جداً في هذه الفترة نفسها التي كان المسيحيون فيها أشد تعصباً. ولما كانت حالة المسيحيين في القرن الثامن عشر أسوأ منها في عهد آخر، كان من الصعب أن نجد أية إشارة تدل على تحول المسيحيين إلى الإسلام، وظهر الأتراك أنفسهم بمظهر الذين لا يكترثون مطلقاً لتقدم دينهم، كما أصيبوا إلى حد كبير بالشك والإلحاد[1]. ودليل آخر يثبت أن ما تحملوه من مشاق كان راجعاً إلى فساد الحكومة أكثر منه إلى الاضطهاد الديني، ذلك أن المسلمين والمسيحيين لاقوا المتاعب على سواء[2]. ومع ذلك كان المسيحيون بطبيعة الحال أكثر تعرضاً للعسف وسوء المعاملة لما اعترضهم من صعاب في سبيل الحصول على ما يصلح حالهم بالدفاع عن قضيتهم. ومن ثم لا يبعد أن يكون تغيير الدين وسيلة لجأ إليها طائفة من أفقر طبقاتهم تحرراً من متاعبهم.

(Rev. W. Denton: Servia and the Servians, p. 15. London, 1862) Gerlach, pp. 49, 52.

(١) Businello, pp. 43- 4.

(٢) جرت عادة حكومة السلطان المركزية أن تعامل رعاياها من المسلمين بمثل ما عاملت به المسيحيين المغلوبين على أمرهم من القسوة والجور. وقد كانت متاعب الإغريق نتيجة لما بدر من الطبقة الحاكمة من القحة والظلم، ولما سيطر على الإدارة العثمانية من فساد، أكثر من أن تكون نتيجة لمباشرة السلطان لنفوذه. كان للإغريقي، في شئونه الخاصة، فرصة للحصول على العدالة من أسقفه وشيوخ ناحيته، أحسن مما كان يحصل عليه التركي من القاضي". (Finlay, vol. vi, pp. 4-5)

"ومن الخطأ أن نزعم أن المسيحيين وحدهم هم الطائفة المظلومة من الأهالي. فقد كان فساد الإدارة الحكومية التركية شاملاً، يرزخ تحت ثقله جميع الناس على سواء. وربما كان بؤس المسلمين في بعض أنحاء المملكة أسوأ حالاً في الواقع من بؤس المسيحيين، وإنما كانت حالة المسيحيين هي التي أثارت أكثر من غيرها شفقة الرحالة". (William Forsyth: The Slavonic Provinces South of the Danube, pp. 157-8. London, 1876.

"ويقع كل هذا التعسف والبؤس (يعني في شمال آسيا الصغرى) على الأهالي من المسلمين والمسيحيين على سواء". (James Bryce: Transcaucasia and Ararat, p. 381)

"خيل إلى أوربا أن المسيحيين وحدهم هم الذين يذعنون في تركيا للاستبداد والعذاب والهوان، الذي نشأ عن التعسف؛ لم يكن هذا مطلقًا! فما من قوة أجنبية كانت تعنى بأمر المسلمين؛ ومن ثم ربما كان الغبن الواقع عليهم أشد، وتعرضهم لحمل نير الظلم أكثر مما تعرض له هؤلاء الذين لا يؤمنون بالنبي" (De la Jonquiére, p. 507)

"وإذا حكمنا مما لاحظناه من قبل، وجدنا أن أحط طبقات المسيحيين في آسيا الصغرى لم يكونوا أسوأ حالاً من أمثالهم في تركيا. وإذا كان مسيحيو تركيا الأوربية يتمتعون ببعض مزايا ناشئة من تأثير تفوق عددهم على عدد الأتراك، فإن مسيحي آسيا يرتاحون حين يرون أن الأتراك يتعرضون من جانب أصحاب النفوذ لمثل حالة التعسف التي يتعرضون لها هم أنفسهم؛ وحسبهم أن يتعاملوا مع جنس من المسلمين أرق حاشية، وأشد تديناً، وأحسن انتحالاً لمذهب من أمثالهم في أوربا".

(W. M. Leake: Journal of a Tour in Asia Minor, p. 7. London, 1824)

انظر كذلك: Laurence Oliphant: The Land of Gilead, pp. 320-3, 446. (London, 1880)

ولكننا إذا استثنيا ضريبة الأبناء التي يلوح أن الإغريق المغلوبين على أمرهم قد أذعنوا لهـا و لم يظهـروا مقاومة تذكر، والتي يرجع السبب في إلغائها، لا إلى ثورة قامت، أو انقلاب وقف في سبيل اسـتمرارها، وإلى زيادة السكان الأتراك وعدد المرتدين الذين كانوا يوالون الدخول في خدمة السلطان[١] – فإن المعاملـة الـتي أظهرها الأباطرة العثمانيون للرعايا المسيحيين – على الأقل بعد أن غزوا بلاد اليونان بقرنين – لتـدل علـى تسامح لم يكن مثله حتى ذلك الوقت معروفاً في سائر أوربا. وإن أصحاب **Calvin** في المجـر وترانسـلفانيا، وأصحاب مذهب التوحيد **Unitarians** من المسيحيين الذين كانوا في ترانسلفانيا، طالمـا آثـروا الخضـوع للأتراك على الوقوع في أيدي أسرة هابسبورج المتعصبة[٢]. ونظر البروتستانت في سيليزيا إلى تركيـا بعيـون الرغبة، وتمنوا بسرور أن يشتروا الحرية الدينية بالخضوع للحكم الإسلامي[٣]. وحـدث أن هـرب اليهـود الأسبانيون المضطهدون في جموع هائلة فلم يلجئوا إلا إلى تركيا، في نهاية القرن الخامس عشر[٤]؛ كذلك نرى القوازق **Cossaks** الذين ينتمون إلى فرقة المؤمنين القدماء **Old Believers** الذين اضطهدتهم كنيسة الدولـة الروسية، قد وجدوا من التسامح في ممالك السلطان ما أنكره عليهم إخوانهم في المسيحية[٥]. وربما كان يحـق لمقاريوس بطريق أنطاكية في القرن السابع عشر أن يهنئ نفسه حين رأى أعمال القسوة الفظيعة الـتي أوقعهـا البولنديون من الكاثوليك **Catholic Poles** على روسي الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية. قال مقاريوس: "إننـا جميعاً قد ذرفنا دمعاً غزيراً على آلاف الشهداء الذين قتلوا في هذه الأعوام الأربعين أو الخمسين على يد أولئك

---

(١) وفي القرن السادس عشر أخذت ضريبة الأطفال تتلاشى؛ وآخر مثال مدون لفرض هذه الضريبة كان فـي سـنة ١٦٧٦.

(٢) De la Jonquiére p. 333. Scheffler,§ 45-6. Gasztowtt, p. 51.

(٣) "لأني أسمع من فرط الدهش، أم الأمر لم يقصر على ما يروج بين العامة من إشاعات مؤداها أن الحياة في ظـل الحكم التركي شيء مقبول ذلك أنه يظن أن الإنسان متى دفع دوكة وهي جزية الرأس لم يعرض له بعد ذلك بسوء، وأن الأتراك، بالإجمال، يتركون الناس أحراراً في دينهم، وإن النصارى سترد إليهم كنائسهم، وما شاكل ذلك. بـل هنالك أيضاً آخرون، (يعني من المسيحيين) ممن يجب أن يدركوا الأمور على وجه صحيح، يفرحون بما يقال لهم (عن محاسن الأتراك)، ويهللون للشقاء الذي هم فيه! فإن هؤلاء النصارى ليسوا هالكين فحسـب، بـل عصـاه، متهورون، كفار، لم ينبتوا إلا من تربة الإلحاد التي تجـنح إلـى الثـورة، وإلـى استئصـال شـأفة المسـيحية" (Scheffler,§ 48)

(٤) Hertzberg, p. 650.

(٥) De la Jonquiére p. 34 وقد عمل ريتشارد ستيبر R. Staper، وهو تاجر إنجليزي كان في تركيا في عصـر مبكر (سنة ١٥٧٨)، مقارنة مماثلة بقوله: "وعلى الرغم من أن الأتراك بوجه عام شعب من أشـرس الشـعوب، يسيرهم في أعمال الظلام... سمحوا للمسيحيين جميعاً، للإغريق منهم واللاتين، أن يعيشوا محافظين على ديـنهم، وأن يصرفوا ضمائرهم كيف شاءوا بأن منحوهم كنائسهم لأداء شعائرهم المقدسة، في القسطنطينية وفـي أمـاكن أخرى كثيرة جداً، على حين أستطيع أن أؤكد بحق بدليل اثني عشر عاماً قضيتها في أسبانيا، أننا لا نـرغم علـى مشاهدة حفلاتهم البابوية فحسب، بل إننا في خطر على حياتنا وسلعنا".
(M. Epstein: The Early History of the Levant Company p. 57. London, 1908)

الأشقياء الزنادقة أعداء الدين وربما كان عدد القتلى سبعين ألفاً أو ثمانين ألفاً. فيا أيها الخونة! يامردة الرجس! يا أيتها القلوب المتحجرة! ماذا صنع الراهبات والنساء؟ وما ذنب هؤلاء الفتيات والصبية والأطفال الصغار حتى تقتلوهم؟... ولماذا اسميهم البولنديين الملعونين؟ لأنهم أظهروا أنفسهم أشد انحطاطاً وأكثر شراسة من عباد الأصنام المفسدين، وذلك بما أظهروه من قسوة في معاملة المسيحيين، وهم يظنون بذلك أنهم يمحون اسم الأرثوذكس. أدام الله دولة الترك خالدة إلى الأبد.... فهم يأخذون ما فرضوه من جزية ولا شأن لهم بالأديان، سواءً أكان رعاياهم مسيحيين أم ناصريين، يهودًا أو سامرة: أما هؤلاء البولنديون الملاعبين فلم يقنعوا بأخذ الضرائب والعشور من إخوان المسيح، بالرغم من أنهم يقومون بخدمتهم عن طيب خاطر؛ بل وضعوهم تحت سلطة اليهود الظالمين أعداء المسيح الذين لم يسمحوا لهم حتى بأن يبنوا الكنائس، ولا بأن يتركوا فيهم قسسًا يعرفون أسرار دينهم"(١). حتى إيطاليا كان فيها قوم يتطلعون بشوق عظيم إلى الترك لعلهم يحظون كما حظي رعاياهم من قبل بالحرية والتسامح اللذين يئسوا من التمتع بهما في ظل أية حكومة مسيحية(٢). وهنا قد يلوح أن الإسلام لم ينتشر بالقوة في أملاك سلطان تركيا. ومع أن ما اتصف به العابثون من عمال الأتراك في أيام انحلال الدولة من ظلم ونقص في روح العدل والإنصاف ربما دفع بعض المسيحيين إلى أن يحاولوا تحسين حالتهم بتغيير عقيدتهم، فإن أمثال هذه الحالات كانت نادرة في القرنين الأولين من العهد التركي في أوربا، تلك الفترة التي ينسب إليها معظم حالات التحول إلى الإسلام. وكان يكون من الغريب حقًا، لو أن الغيرة التي دفعت العثمانيين في ذلك الحين إلى هداية الناس واستمالتهم إلى الإسلام لم تحملهم قط على مجاوزة حدود التسامح الذي رسمته قوانينهم الخاصة بهم. ومع ذلك فقد قال الذين وقعوا في الأسر بينهم اثنين وعشرين عامًا: "إن الأتراك لم يرغموا أحدًا على ترك دينه"(٣). وذكر آخرون شواهد أخرى مماثلة، فقد زار أحد سادة الإنجليز تركيا في الشطر الأول من القرن السابع عشر وهو يحدثنا أن "من النادر أن تجد أي إكراه للنفوس وبالأحرى لا

---

(١) Macarius, vol. i, pp. 183, 165, Cf, the memorial presented by polish refugoes from Russia to the Sublime porte, in 1853. (Gaztowtt, p. 217).

(٢) "وضع بعضهم نصب عينيه نوعًا من الحرية ينطوي على الحماقة.. فلما فقدوا الأمل في الحصول على هذه الحرية في ظل حكومة مسيحية. آثروا أن يعيشوا في ظل الأتراك، كأن هؤلاء كانوا أكثر شفقةً في منح هذه الحرية من الحكام المسيحيين".

(Joannis Ludovici Vivis De Conditione Vitac Chirstianorum sub Turca, pp. 220 – 225) (Basileae 1538)

"وينادي بعض الناس بأن الإيمان حر في ظل الحكم التركي".

(othonis Brunfelsii and Principes et Christianos omnes Oratio. P. 133. (Basileas 1538)

وحول سنة ١٥٧٧ كتب أوبرتوس فوليتا Ubertus Folieta أحد أشراف جنوه، يقول: (وطالما تساءلت: وكيف أن عددًا كبيرًا جدًا من رجالنا يأوي إليهم باستمرار، ويتنكر للديانة المسيحية، وينضوي تحت لواء الشريعة الإسلامية".

(De Causis Magnitudinis Turcarum imperli. Col. 1209) (Thesaurus Antiquitatum et Historiarnm Italiae, curâ Jonnios Georgii Graevii, tom. i. Lugduni Batavorum, (1725)

(٣) Turchieae Spurciiae Suggillatio. Fol xvii (a).

إكراه بالقتل، إذ لم تكن هناك فرصة تسمح بارتكاب أية جناية من هذا النوع"[١]. وبعد ذلك بنحو ثلاثين عامًا (أي سنة ١٦٦٣) كتب مؤلف[٢] كتاب **Schrifft Tërcken** يقول: "وهو في أثناء ذلك (يعني التركي) يجذب (أي يحول الناس إلى الإسلام) بالحيلة أكثر مما يجذب بالعنف، وينتزع المسيح من قلوب الناس بالمكر والخداع. ذلك أن التركي في الحقيقة، في وقتنا الحاضر، لا يرغم بلدًا من البلاد على أن يكفر بالعنف والإكراه. ولكنه يستخدم وسائل أخرى يستأصل بها شأفة المسيحية فيها خفة ولطف. فما الذي جرى للمسيحيين إذن؟ إنهم لم يطردوا من البلاد، و لم يجبروا على اعتقاد دين الأتراك: حينئذٍ كان لا بد أن يصبحوا من تلقاء أنفسهم أتراكًا".

الجهود التي بذلها الأتراك في نشر الإسلام: وقد رأى الأتراك أن أعظم خير يستطيعون تقديمه لأي فرد هو أن يهدوه إلى دين الإسلام[٣]. وفي سبيل هذه الغاية لم يدعوا وسيلة للإغراء إلا فعلوها: يحدثنا رحالة هولندي، عاش في القرن السادس عشر أنه بينما كان يظهر إعجابه بمسجد أيا صوفيا الكبير، حاول بعض الأتراك أن يؤثروا في عواطفه الدينية من طريق إحساسه بالجمال، فقالوا له: "إنك لو أصبحت مسلمًا لاستطعت أن تأتي هنا كل يوم من أيام حياتك". وبعد ذلك بقرن تقريبًا حدث لرحالة إنجليزي[٤] ما يشبه تلك الحادثة إذ قال: "وقد يسألون مسيحيًا بدافع من فيض حماستهم، في أدب جم، كما سألوني أنا نفسي عند مدخل مسجد أيا صوفيا: لماذا لا تصبح مسلمًا فتكون كأحدنا؟" ومما يدل على الحب الروحي المتوقد الذي جعل هؤلاء القوم في مثل هذه المنزلة من الغيرة على نشر الدين، تلك الأفراح الشعبية التي كانوا يحيُّون فيها من دخلوا طوعًا من المسلمين الجدد في الإسلام. فكان المسلم الجديد يمتطي حصانًا ويطاف به في طرقات المدينة، وهم في نشوة النصر. فإذا توسموا فيه خلوص النية في تغيير دينه، وعرفوا أنه دخل بمحض إرادته في حظيرة الإسلام أو كان شخصًا ذا مكانة طيبة استقبلوه بتكريم عظيم، وأمدوه بما يعينه[٥]. ولا شك أنه كان هناك دليل قوي يؤيد قول من قال: "إن في نفوس الأتراك غيرة لا يكاد يصدقها العقل حين يبتهلون إلى الله أن يحول الناس إلى الإسلام، أو بعبارة أصح، أن يحول المسيحيين إلى ديانتهم المارقة: إنهم كل يوم يبتهلون إلى الله في مساجدهم مخلصين أن يؤمن المسيحيون بالقرآن وأن يهتدوا على أيديهم، و لم يدعوا للتأثير وسيلة من وسائل الترهيب والترغيب، والعقاب والجزاء إلا فعلوها"[٦].

---

(١) Blount, vol. I,p. 548.

(٢) Scheffler, §§ 51,53.

(٣) Dousa, p.38, Busbecq, p.190.

(٤) Thomas Smith, p.32.

(٥) Shomas Smith, p.42, Blount, vol. i. p. 548. Georgieviz, p. 20. Schiltberger, p.83-4, Baudir, pp. 149, 313.

(٦) Alexander Ross, p. ix. Baudier p.317, cf slso Rycaut, vol. i. p. 276.

العوامل التي ساعدت على نشر الإسلام: وإن حالات المجتمع المسيحي نفسه قد جعلت هذه الجهود التي تنطوي على الغيرة والحماسة الدينية في اكتساب مسلمين جدد أشد أثرًا وأعظم قيمة. ويعد تدهور الكنيسة الإغريقية في مقدمة هذه الحالات جميعًا. وإلى جانب طغيان الدولة البيزنطية في الشئون الزمنية، نشأ استبداد في الأمور الدينية جعل الحياة العقلية ترزخ تحت عبء القرار الحاسم الذي حرّم كل مناقشة في شئون الأخلاق والدين. والشيء الوحيد الذي أقض مضاجعهم هو المجادلات العنيفة التي قامت حربًا عوانًا على الكنيسة اللاتينية مقرونة بكل ما في المناقشات النظرية والكراهة العنصرية من شدة ومرارة. وتدهورت ديانة الشعب فأصبحت تراعي المظاهر الخارجية مراعاةً تقوم على كثير من الوهم والريبة. ووجدت حماسة عبادتهم البالغة متنفسًا في عبادة العذراء والقديسين والصور والمخلفات الأثرية؛ وانصرف عدد كبير عن كنيسة انحطت حياتها الروحية إلى الحضيض. ولما ملوا مناقشات لا نهاية لها حول مسائل مذهبية عويصة، كالانبثاق المزدوج لروح القدس **Dorble Procession of Holy Spirit**، وأخرى تافهة كاستخدام الخبز الخمير أو الفطير في القربان المقدس، تقبلوا بصدر رحب تعاليم الإسلام الواضحة المفهومة التي تقوم على الوحدانية. وقد انتهت إلينا أخبار(١) عن طوائف كبيرة من الناس أسلموا ولم يكونوا بسطاء عامتهم فحسب، بل كانوا من العلماء على اختلاف طبقاتهم ومناصبهم وحالاتهم؛ وأخبار عن الطريقة التي أجرى بها الأتراك أرزاقًا أسخى على هؤلاء الرهبان والقساوسة الذين اعتنقوا الإسلام حتى يكونوا قدوة قد تدفع غيرهم إلى اعتناق الإسلام. وبينما كانت أدرنة لا تزال العاصمة التركية (أي قبل سنة ١٤٥٣) كان البلاط قد اكتظ بالذين أسلموا. ويقال إنهم كانوا يؤلفون السواد الأعظم من أصحاب الجاه والسلطان هناك(٢). وكثيرًا ما انحاز الأمراء البيزنطيون وغيرهم

"ويعتقد المرء أن تحويل الإنسان إلى مسلم فضل كبير، وليس ثمة شخص لديه من الغنى ما يمكنه من امتلاك عبد إلا ويريد أن يكون له عبد فتيّ، قادر على أن يتحمل كل ألوان المتاعب دون ألم، هذا الشخص الذي يستطيع أن يدعي أنه حوله إلى الإسلام حتى يستحق بذلك الشرف لكونه قد زاد في عدد المؤمنين".

ويروي توماس سمث كيف كان الشيخ الذي أراه قبر أورخان في بروسه "يشخص ببصره إلى السماء في حنان دافق، ويبتهل إلى الله أن يتعطف، فيحولنا في زمنه أخيرًا إلى الديانة الإسلامية. وهذا من غير شكٍ أعظم برهان على حبه إيانا الذي يتدفق من رغبة زائفة تنطوي على جهل مطبق".

(Epistolae duae, quarum altera De Moribus ac Institutis Turcarum agit, p.20) (Oxonii, 1672).

(١) وصلت إلينا هذه الأخبار من كتاب لم يعرف اسم مؤلفه الذي كان أسيرًا في تركيا من سنة ١٤٣٦ إلى سنة ١٤٥٨ Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. Xvii. (a)

(٢) Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. Xi (b).

ويتحدث ليوناردو أوف سكبو، رئيس أساقفة ميتيلني Mitylene الذي شهد سقوط القسطنطينية عن الجموع الكبيرة من المرتدين في الجيش المحاصر: "من الذي أحاط بالمدينة، ومن الذي علم الأتراك النظام، غير المسيحيين الأوغاد؟ إنني شاهد على أن الإغريق واللاتين والألمان والمجر، وكل نوع آخر من المسيحيين الذين اختلطوا بالترك تعلموا عملهم وعقيدتهم. والذين نسوا عقيدتهم المسيحية أخضعوا المدينة بالقوة. أيها الأوغاد الذين تنكرون المسيح، يا أتباع عدو المسيح المحكوم عليهم بعذاب الجحيم، هذه ساعتكم!" (Sansevino, p.258)

إلى صفوف المسلمين، ووجدوا منهم ترحيبًا كبيرًا: ومن أسبق هذه الحالات ما يرجع تاريخه إلى سنة ١١٤٠م عندما أسلم ابن أخي الإمبراطور جون كومنين **John Conenes** وتزوج إحدى بنات مسعود سلطان قونية[١]: وبعد سقوط القسطنطينية أظهرت الطبقات العليا من المجتمع المسيحي من الاستعداد لاعتناق الإسلام ما يفوق بكثير استعداد جمهرة اليونان؛ فنجد من بين الداخلين في الإسلام عددًا كبيرًا ينتمون إلى بيت باليولوجوس الإمبراطوري، كما هجر العالم جورج أميروتزيس الطرابيزوني **G. Amiroutzes of Trebizond** المسيحية في أعوامه الأخيرة، ودونت أسماء أخرى كثيرة من أمثال هؤلاء الأفراد[٢]. ولم يطلب الجيل الجديد إلا قبول شهادته البسيطة: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"؛ وقد كتب عنها الكاتب السالف الذكر[٣] يقول: " إن الصعوبة تتركز في الشهادة الدينية لأنه إذا استطاع أي إنسان أن يقنع نفسه بأنه ممن يعبدون إلهًا واحدًا، فمن السهل أن تسري فيه سموم خطيئته تحت ستار الدين. هذه هي صخرة الإثم التي ارتطم عليها كثيرون وسقطوا في الحبائل التي جرت الهلاك على نفوسهم. هذه هي حجر الطاحون الذي علق حول أعناق كثيرين فغاص بهم في هوة اليأس. ذلك أنه بينما كان هؤلاء الحمقى يستمعون إلى الأتراك وهم يلعنون عبادة الأصنام، ويعبرون عن جزعهم من كل صورة أو تمثال كما لو كانت نار جهنم، ويدأبون على الاعتراف بعبادة الإله الواحد والدعوة إليها، لم يعد هناك في عقولهم موطن للشك".

الكنيسة الإغريقية: أصبح الدين الإسلامي في ذلك الحين الملجأ الطبيعي لأفراد الكنيسة الشرقية، هؤلاء الذين أحسوا بمثل هذا الحنين بعد أن عرفوا صورة من العقيدة أنقى وأبسط خلقتها الهرطقة البوليشية **Poeulician heresy** التي كانت قد قمعت في قسوة وعنف قبل ذلك ببضعة قرون. وقد كانت هذه الحركة إلى حد كبير احتجاجًا على تقاليد الكنيسة الأرثوذكسية وعلى عبادة الصور والمخلفات الأثرية المقدسة والقديسين كما كانت محاولة تتوخى بساطة العقيدة وحياة الورع والخشوع. وبينما كان بعض أتباع هذه البدعة يعيش في بلغاريا حتى وقت متأخر يرجع إلى القرن السابع عشر[٤]، وجد الغزاة المسلمون من غير شك كثيرًا ممن كانوا عازفين عن تعاليم الكنيسة الإغريقية وتصرفاتها. ولما كانت كل الظروف غير ملائمة لإنشاء كنيسة من أمثال تلك الكنائس التي ظهرت في الغرب، فلا شك أن هؤلاء الذين مرقوا من الدين قد وجدوا في الإسلام جوًا أكثر ملائمة لمبادئهم. وتحملنا الأسباب المختلفة على الظن بأن ما حدث كان نتيجة للمحاولة الخائبة التي قامت بجعل الكنيسة الإغريقية بروتستانية في أوائل القرن السابع عشر. وكان كيرلوس لوكاريس **Cyril Lucaris** الذي اختير بطريقًا للقسطنطينية خمس مرات من سنة ١٦٢١ إلى ١٦٣٨ قوة هذه الحركة الدافعة. وكان قد زار جامعات وتنبرج وجنيف في شبابه لدراسة اللاهوت في مراكز التعليم البروتستانتي. وظل

---

(١) J. M. Krause: Die Byzantiner das Mitteialters, pp. 385-6- Halle, 1869).

(٢) Hertzberg, p. 616. Einlay, vol. v. p. 118.

(٣) Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. Xix (a).

(٤) Rycaut, vol.i. pp. 710-11, Bizzi, fol. 49. (b).

بعد عودته يراسل أساتذة الإصلاح الديني في جنيف وهولنده وانجلترة، ولكن تعاليم الكنيسة الإنجليزية ومبادئ لوثر لم تصادف رغبة صادقة في نفسه بقدر ما صادفته تعاليم جون كلفان **John Clavin**[١] التي جاهد في إدخالها إلى الكنيسة الإغريقية. وقد أيد جهوده في هذه السبيل تأييداً حاراً، هؤلاء الذين انتحلوا مذهب كلفن في جنيف بأن أرسلوا شاباً عالماً في اللاهوت؛ يقال له ليجر **Leger** ليؤازر الحركة بترجمة كتابات اللاهوتين من أتباع كلفن إلى اللغة اليونانية[٢]، كما وجد كيرلوس أعواناً متحمسين في سفراء البروتستانت في القسطيطنية، ولاسيما سفراء الهولنديين والإنجليز الذين أمدوه بالأموال في سخاء. ومن جهة أخرى فإن اليسوعيين الذين أيدهم سفراء الكاثوليك قد جهدوا بكل الطرق أن يحيطوا محاولة تحويل الكنيسة الإغريقية كلفنية، ونشطوا في تأييد المؤامرات التي دبرها حزب المعارضة من رجال الكنيسة الإغريقية الذين تآمروا آخر الأمر على قتل البطريق. وفي ١٦٢٩ نشر كيرلوس قانون إيمان **A Confession of faith**. ويظهر أن الغرض الأساسي الذي وضع هذا القانون من أجله هو التعبير عن مذاهب الكنيسة الأرثوذكسية تعبيراً يخالف الكاثوليكية الرومانية بصورة تجعله منطوياً على اتفاق جوهري مع التعاليم البروتستانتية[٣]. وهو يستعير من كلفن مذاهب القضاء والقدر، والخلاص بالإيمان وحده، وينكر عصمة الكنيسة من الخطيئة، ويرفض سلطة الكنيسة في تفسير الكتب المقدسة، وينكر عبادة التماثيل. وهو في وصفه للمشيئة ولمسائل أخرى كثيرة، أميل إلى مذهب كلفن منه إلى تعاليم الكنيسة الأرثوذكسية[٤]، وقد أدى نشر قانون الإيمان من حيث إنه يمثل تعاليم الكنيسة كلها التي كان كيرلوس رئيسها الروحي إلى إثارة معارضة عنيفة بين جمهرة رجال الكنيسة الإغريقية. ولم تمض على وفاة كيرلوس أسابيع قليلة حتى انعقد مجمع لرفض آرائه والحكم عليه بالحرمان. وفي سنة ١٦٤٢ انعقد في القسطنطينية مجمع آخر لنفس الغرض أخذ في تنفيذ كل مقالة من قانون كيرلوس بالتفصيل كما صنع المجمع الأول – وانتهى من ذلك بأن أعلن لعنته عليه وعلى أتباعه:- "نحكم على هذا القانون كله بإجماع الآراء وبعبارات لا هوادة فيها بأنه حافل بمسائل الإلحاد، ومتعارض مع حقيقة ديننا تعارضاً تاماً؛ ونعلن كذلك أن واضعه لا يمت إلى عقيدتنا بصلة، ولكنه نسب إلينا مذهبه الكلفني زوراً وبهتاناً. وكل من يقرءونه ويحفظونه وهم يعتقدون أنه حق وبرئ ويدافعون عنه بالكتابة أو الحديث، فإننا نخرجهم من جماعة المؤمنين باعتبارهم أتباعاً له، ومشايعين لزندقته، ومفسدين للكنيسة المسيحية، ونأمر أن يعاملوا مهما كانت مكانتهم ومراكزهم معاملة الكفار والفسقة. ولتكن اللعنة عليهم إلى الأبد؛ ولينفصلوا عن الأب والابن والروح القدس في هذا

---

(١) Pichler, pp. 164, 172.

(٢) Pichler, p. 143.

(٣) Id. P. 148. على أنه يشك في أن كيرلوس كان حقيقة هو الذي وضع هذه الوثيقة التي تحمل اسمه. (Kyriakos, p. 100)

(٤) Pichler pp. 183-9.

العالم وفي العالم الآتي، محرومين منبوذين، ضالين بعد الموت، وليلازمهم العذاب الأزلي"[١]. وفي سنة ١٦٧٢، انعقد مجمع ثالث في بيت المقدس لتفنيد المقالات الإلحادية التي وردت في قانون الإيمان، والدفاع عن عقيدة الكنيسة الإغريقية الصحيحة رداً على هؤلاء الذين يظهرونها ملوثة بمذهب كلفن. وبذلك أخفقت محاولة جعل الكنيسة الإغريقية بروتستانتية المذهب كل الإخفاق. فقد كانت مبادئ كلفن تتعارض مع تعاليمها تعارضًا تامًا. وفي الحق أنها قررت في الأذهان كثيراً من العقائد الدينية التي كانت أكثر تمشيًا مع آراء رجال الكنيسة الأرذوكسية والتي كثيراً ما هاجمتها هذه الكنيسة في مجادلاتها مع أعدائها المسلمين. وكان هذا التقارب إلى فكرة الإسلام قد بوأ هذه الحركة التي تتطلع إلى مذهب كلفن مكانًا في تاريخ انتشار الإسلام: فإن رجلاً سب عبادة التماثيل، وذم سلطة الكهنوت ونظامه في الصميم، وتمسك بمبادئ القول المطلق والقدر، وأنكر الحرية بالنسبة إلى الإرادة الإنسانية، ومالأ الروح الصارمة التي يتميز بها مذهب كلفن والتي كانت تتجاوب مع التوراة أكثر منها مع الإنجيل – ليجد حقًا في الإسلام جواً أكثر ملاءمة مما نجده في الكنيسة الإغريقية في القرن السابع عشر. وقد يكون هناك قليل من الشك في أنه كان من بين أفواج الذين أسلموا في خلال هذا القرن فريق قد انفصل عن كنيسة آباءهم من جراء ممالأتهم لمذهب كلفن[٢]. وليس لدينا معلومات واضحة تتعلق بعدد أتباع كيرلوس لوكاريس ومدى تأثيرات هذا المذهب في الكنيسة الإغريقية؛ ولما كان رجال الكنيسة ذوي غيرة على سمعة كنيستهم التي اعتز أبناؤها بالدفاع عن سلامة عقيدتها، وعصمتها من الهرطقة: فإنهم رغبوا في أن يصوروا البطريق الملحد بأنه لا يمثل إلا آراءه، وذلك حين رأوا أن هذه الكنيسة قد جرّحت بسبب اتهامها بمذهب كلفن[٣]. ولكن لا شك أن كان له أتباع: فلقد صادف قانون الإيمان الذي نشره قبولاً في مجمع تألف من أتباعه[٤]. وأعلن حرمان أولئك الذين مالأوا هرطقته بقرار من مجمع القسطنطينية الثاني سنة ١٦٤٢، ومن مجمع بيت المقدس سنة ١٦٧٢[٥]. ولا شك أن هذا التكرار كان يكون بلا معنى لو أن أحداً من هؤلاء الأتباع لم يكن له وجود، زد على ذلك أنه قد وصلت إلينا أسماء نفر قليل من هؤلاء الأتباع منهم سوفرونيوس **Sophronius**؛ مطران أثينا الذي كان من المؤيدين المتحمسين لحركة الإصلاح[٦]؛ وراهب يقال له نيكوديموس ميتاراس **Nicodemus Metaras** وكان قد استحضر مطبعة من لندن ونشر رسائل خارجة على مذهب الكنيسة، كان قد كافأه كيرلوس بكرسي المطرانية كفاءة خدماته[٧]، والفيلسوف كورايداليوس

---

(١) Id. P. 226.

(٢) أما فيما يتعلق بأسرى المسيحيين، فقد اشتهر البروتستانت بلا شك بين الأتراك بأنهم يظهرون ميلاً إلى الدخول في الإسلام أكثر مما يظهره الكاثوليك. (Gmelin, p. 21).

(٣) Plchler, pp. 211, 227.

(٤) Id.pp. 181, 228.

(٥) Id, pp. 222, 226.

(٦) Id. P. 173.

(٧) Id. Pp. 128, 123, 143.

Corydaleus أحد أصدقاء كيرلوس، وقد فتح مدرسة كلفنية المذهب في القسطنطينية، ورجل آخر من الإغريق يدعى جرجانوس نشر مذهبًا في التعليم المسيحي، في أسلوب الحوار، تمهيدًا لبث تعاليم كلفن بين مواطنيه[١]؛ ونيوفيتوس الثاني **Neophytus**، الذي عين بطريقًا في سنة ١٦٣٦ في الوقت الذي كان فيه كيرلوس منفيًا في جزيرة ردوس، وكان تلميذه وابنًا متبنى له، وقد استدعى معلمه من منفاه وتخلى له عن كرسي البطركية[٢]. وكتب كيرلوس إلى جامعة جنيف خطابًا (بتاريخ يوليه ١٦٣٦) قال فيه إن ليجر كان قد فاز بعدد كبير من الداخلين في مذهب كلفن عن طريق كتاباته وتبشيره[٣]؛ ووصف في خطاب آخر بعث به إلى ليجر كيف جعل أهالي كنديا **Candia** يحسون بما أحدثه من تأثير[٤]. وقد نفى خلفه[٥] على كرسي البطركية إلى قرطاجنة، وهناك شنقه أشياع لوكاريس سنة ١٦٣٩[٦]. وقد قيل إن أصحاب كلفن علقوا الآمال على تعيين بارتنيوس الأول **Parthenius 1** (وهو خليفة كيرلوس الثاني)، ولكن نهايته المفاجئة (سواءً أكان موته بتجرع السم أو من جراء نفيه؛ وهذه مسألة يكتنفها الشك) قد خيبت آمالهم[٧]. وكان بارتنيوس الثاني بطريق القسطنطينية من سنة ١٦٤٤ – ١٦٤٦ من أنصار مذهب كلفن المخلصين. وبالرغم من أنه لم يجسر على أن يجهر بتعليم مبادئ كلفن، إلا إن ما عُرف عنه ممن مما لأته لهم قد أدى إلى عزله، وإرساله إلى المنفى وشنقه[٨]. وعلى ذلك نرى أن تأثير مذهب كلفن كان من غير شك أكثر انتشارًا مما كان يريد أعداء كيرلوس أن يقرروا. وكما قلنا آنفًا؛ كان أولئك الذين أبوا أن يسلموا بقرارات الحرمان التي قضت بها المجامع على زعيمهم، أكثر ائتلافًا من غير شك مع جيرانهم المسلمين منهم مع رجال الكنيسة الأرثوذكسية الذين أقصوهم عن بيئتهم. وفي الحق أنه ليس لدينا شواهد قاطعة تدلنا على ما كان لهذا المذهب في تركيا من مؤثرات يسرت إدخال الناس في الإسلام[٩]. ولكن مع انعدام أي تفسير آخر في هذا الصدد، يظهر حقًا أن من الفروض التي يقرها العقل أن مثل هذه الأحوال كانت من بين العوامل التي زادت زيادة هائلة في عدد المرتدين

---

(١) Id. P. 143.

(٢) Le Quien, tom. I. col. 334.

(٣) Pichler, p. 172.

(٤) Hefele, vol.i. p. 473.

(٥) وهو Cyrill II. Ot Berrhoea

(٦) Le Quien, tom. i. col. 335.

(٧) Id. Tom. i. col. 336.

(٨) Id, tom. i. col. 337.

(٩) على أنه حدث في محاولة سابقة قام بها علماء المذهب البروتستانتي في توبنجن (١٥٧٣-٧٧) لإدخال تعاليم كنيسة الإصلاح الجديدة في الكنيسة الشرقية، أن اعتنق أحد علماء سامتسخيث المسيحيين في جورجيا The Vaivode Quarqoar of Samtsketh قانون اعتراف أوجسبرج، ولكنه دخل في الإسلام سنة ١٥٨٠ (Joselian, p. 140 (

عن المسيحية من الإغريق في أواسط القرن السابع عشر – وهو وقت قيل فيه إن عدد المرتدين عن المسيحية من الطبقات المتوسطة والمنحطة في المجتمع كان أكبر منه في أي وقت مضى[١]. وقد تواتر ذكر حالات الارتداد عن المسيحية من بين رجال الكنيسة، بل من بين أعظم رؤساء الكنيسة شأنًا وأسماهم مقامًا، كالذي يروى عن أحد مطارنة رودس السابقين[٢]. وقد قيل إن فريقًا من الأهالي المسيحيين في كورنثة كانوا في سنة ١٦٧٦ يدخلون كل يوم في دين الأتراك، وإن ثلاثة من القسس قد أصبحوا مسلمين قبل ذلك بعام[٣]. وفي سنة ١٦٧٩ سجلت وفاة أحد الرهبان المرتدين[٤]. وفي مناسبة ختان مصطفى بن السلطان محمود الرابع سنة ١٦٧٥، دخل في الإسلام عدد لا يقل عن مائتي شخص في غضون ثلاثة عشر يومًا من الأفراح الشعبية[٥]. وقد نجد أمثلة أخرى كثيرة في الكتابات التي ترجع إلى هذا العهد. وفي سنة ١٦٦٣ أجاد مؤلف معاصر في وصف الاتجاه العقلي الذي اتصف به أمثال هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام: "عندما تخالطون الأتراك في مجرى حياتهم العادية؛ تراهم يقيمون الصلاة، ويرتلون حتى مزامير داود، ويمنحون الصدقات ويفعلون غير ذلك من أعمال الخير، ويعتقدون في المسيح اعتقادًا ساميًا، ويتناولون التوراة في شرف عظيم إلى غير ذلك؛ هذا فضلاً عن أنه كان يمكن أن يصير أي جاهل، خوري كنيسة إذا سعى إلى الباشا التركي؛ بالهدايا؛ ولن يخصكم هذا الخوري كثيرًا عن المسيحية. حينئذٍ سوف تنتهون إلى التفكير في أنهم قوم صالحون، وأن من الممكن جدًا أن يدركهم الخلاص؛ وسوف تنتهون إلى الاعتقاد بأن من الممكن أن يدرككم الخلاص كذلك إذا ما صرتم مثلهم أتراكًا مسلمين. بذلك سوف يمّحى من أذهانهم في سهولة ويسر سر الثالوث المقدس، وابن الله المصلوب، وسائر أسرار الدين الكثيرة التي يلوح أنها غير معقولة بصورة ما في نظر الشخص الأمي. وإذا بروح المسيحية تموت في نفوسكم من حيث لا تعرفون؛ وإذا بكم ترون أنه سواء عليكم أن تدينوا بالمسيحية أو بالإسلام"[٦].

---

(١) Scheffler, § 53-6 finaly, vol.v. pp. 118-19.

(٢) Hammer (1), vol. vi. P. 94.

(٣) Spon. Vol. ii. P. 57

(٤) Hammer (1), vol. vi. P. 364

(٥) Early Voyages and Travels in the Lavent, edited by J.Theodore Bent, p. 210 (London, 1893)
ونظير ذلك ما يختم به ميشيل بودير Michel Baudier وصفه للمهرجانات في القسطنطينية التي أقيمت بمناسبة ختان محمد الثالث في النصف الأخير من القرن السادس عشر مقرونًا بوصف دخول عدد كبير من المسيحيين في الإسلام: "وفي أثناء شهود هذا الاحتفال المهيب هرع الأغريق التاعسون إلى هذا المكان ليدخلوا في الإسلام أفواجًا. وقد هجر بعضهم المسيحية تخلصًا من ظلم الأتراك، وبعضهم هجرها أملاً في منفعة خاصة.. وقد وجد أن عدد هؤلاء المنبوذين قد تجاوز أربعة آلاف نفس".
The History of the Setrail, and of the Ccurt of Grand Seigneur Empereur of the Turkes, pp. 93-4. (London, 1635) Histoire generale du Serrail. et de la Cour du Grand Seigneur, Empereur des Tures, pp. 89-90 (Paris 1631).

(٦) Scheffler, § 55.

ويتحدث توماس سمث الذي كان في القسطنطينية سنة ١٦٦٩عن عدد الداخلين في الإسلام من المسيحيين حوالي هذه الفترة. ولكنه ينسب إليهم بواعث أكثر خسة: "من المحزن أن نحصي هذا العدد الضخم من القوم التاعسين الذين انقلبوا أتراكًا؛ فأسلم فريق بدافع اليأس البالغ، وقد عجزوا عن احتمال عبء العبودية وتجنب سفاهات الكفار وإهاناتهم؛ وأسلم فريق آخر نتيجة مهزلة سقيمة هوجاء ليتبوءوا مكانة يملكون بها ناصية الحكم، ويتزلون الإهانة بغيرهم من الناس.. وأسلم فريق آخر تخلصًا من ألوان العقاب والبلاء جزاءً بما ارتكبوه من جرائم، ولكي ينعموا بالحريات التي تنطوي على الوحشية والتي قدسها محمد باعتباره مثلاً اقتدى به أتباعه. هذه هي البواعث والأسباب الهامة المغرية التي دفعتهم إلى هذا الارتداد، وما هي إلا دوافع تنشد الراحة واللذة والرخاء بل تنشد العبث والآثام؛ ذلك أنه لا يمكن أن نتصور أن يُعزَى أحد من الناس عن طريق الإقناع العقلي باعتناق هذه العقيدة التركية وأباطيلها"(١). ولا نجد بعد هذه الفترة إلا النزر اليسير مما سجله التاريخ عن الداخلين في الإسلام، ولكن مترايه **Motraye** يورد ذكر كثير من المرتدين الذين أسلموا في القسطنطينية سنة ١٧٠٣؛ وكان من بين هؤلاء قسيس فرنسي، وفريق آخر من الفرنسيين الكاثوليك، وبعض قساوسة من أزمير(٢).

وهناك ظاهرة أخرى في حالة الكنيسة الإغريقية، ساهمت في تضاؤل عددها، تلك هي فساد رعاتها وانحطاط حالتهم، ولا سيما الطبقة العليا من رجال هذه الكنيسة. وعرضت مقرات الأساقفة ورؤساء الأساقفة للبيع بالمزاد بأغلى الأثمان، وسعى المشترون إلى تعويض خسائرهم باغتصاب ضرائب من كل نوع من رعاياهم فأثقلوا المسيحيين المساكين بالضرائب العادية وغير العادية، وجعلوهم يشترون كل الأسرار المقدسة بأسعار باهظة وهي التعميد، والاعتراف، وقداس العشاء الرباني، وحالات الغفران، وحق الدفن المسيحي. بل عقد فريق من رجال الكنيسة تحالفًا غير شريف مع الإنكشارية، فكانت أسماء كثير من الأساقفة أسماء مدونة في سجل إحدى الأرط أو الكتائب الإنكشارية ليضمنوا على الوجه الأكمل حصانة من طغيانهم، وليتخلصوا من معاقبتهم على ما ارتكبوا من جرائم في ظل حماية هذه الشرذمة التي كان قد أتاح لها ضعف الحكام العثمانيين أن تتبوأ مثل هذا المركز القوي في الدولة(٣). وإن الشواهد التي أثبتها شهود عيان من المعاصرين عن المسلك الجائر الذي ظهر به رجال الكنيسة الإغريقية، لتقدم لنا صورة مخيفة عن آلام المسيحيين. فقد كتب تورنفورت **Tournefort** في سنة ١٨٠٠م بعد أن وصف انتخاب بطريق جديد فقال: "لا داعي مطلقًا للشك في أن البطريق الجديد لن يفعل خيرًا في عهده، فقد نتج الظلم عن بيع الوظائف الكنسية: وكان أول شيء عمله أن عرّف حاشية السلطان بجميع رؤساء أساقفة رجال الكنيسة وأساقفتهم. وكان أعظم ما عني بدراسته هو

---

(١) Thomas Smith: an Account of the Greek church, pp. 15-16 (London 1680).

(٢) A. de la Notraye: Voyages en Europe, Asie et Afrique, vol. i. pp. 306, 308. (La Haye, 1727).

(٣) Pitzipios, Seconde Partie, pp. 83-7. pichler, p.29.

معرفة موارد كل رئيس من رؤساء الكنيسة على وجه التحقيق؛ ففرض ضريبة عليهم، وأردف ذلك بخطاب إلى كل منهم يشدد فيه النكير عليهم بإرسال المبالغ المستحقة، وإلا حكم على أبرشياتهم ببيعها في المزاد بأبهظ الأثمان. ولما كان رؤساء الكنيسة قد تعودوا هذه الحرفة لم يبقوا قط على أحد من مساعديهم؛ وهؤلاء المساعدون كانوا يعذبون الآباء، والآباء يجردون أبناء رعية الخوري من أموالهم. وقلما كانوا يرشون أقل نقطة من الماء المقدس إلا إذا تقاضوا ثمنها مقدمًا. فإذا ما احتاج البطريق بعدئذٍ إلى مال، احتال لجمعه بالبيع للأتراك في المزاد بأبهظ الأثمان؛ ومن أدى ثمنًا أغلى، ذهب إلى بلاد اليونان يطالب رؤساء الكنائس بحقه أمام القضاء. وكان التركي عادةً يغتصب اثنين وعشرين ريالاً عن كل عشرين ألفًا مما يفرض على رجال الكنيسة، حتى لقد يحصل أحيانًا على ألفي ريال كفاء ما يبذله من جهود. هذا فضلاً عما يعهد إليه من أعمال في كل إبرشيه. وبمقتضى الاتفاق الذي كان عليه أن يبرمه مع البطريق، كان من حقه أن يحرم أو يمنع رؤساء الكنائس الذين يرفضون أداء ضريبتهم من المناصب الدينية كلها(١)" بل قيل إنه حتى رجال الكنيسة المسيحية كانوا يحملون أبناء رعية الخوري ويبيعونهم بيع الرقيق، ليحصلوا على المال اللازم لشراء الوظائف الكنسية(٢).

وقد وجدت ألوان الإرهاق التي وقعت في القرن السابع عشر نظيرًا لها في القرن التاسع عشر؛ فكانت متاعب المسيحيين التابعين للكنيسة الإغريقية في البوسنة قبل الاحتلال النمساوي، تفسر لنا تمامًا كلمات تورنفورت. فقد تعود مطران سيراجيفو **Serajevo** أن يغتصب ما مقداره عشرة آلاف من الجنيهات كل عام من رعاياه المساكين، وهو مبلغ يساوي تمامًا ضعفي راتب الوالي التركي نفسه؛ ولكي يرفع هذا المبلغ الضخم، كان يبتز أموال أبناء رعية الخور التاعسين بكل وسيلة ممكنة، وصدرت الأوامر للسلطات التركية بمساعدة رجال الكنيسة في جباية ضرائبهم، وتحملت القرى المسيحية بأسرها نصيب المدن التي ابتزت أموالها في حالة رفضها أو عجزها غالبًا عن مجاراة رؤساء الكنائس المسيحيين في مطالبهم الباهظة(٣). وطالما أثار مثل هذا الجور الفادح في نفوس الزعماء الروحانيين الذين كان ينبغي أن يحموا الأهالي المسيحيين روح التمرد كلما سنحت

---

(١) Toutenfort, VOL. i. P. 107 وكثيرًا ما استخدم سبون Spon نفس هذه اللهجة في جـ١ ص٥٦

(٢) Gaultier de Leslie, p. 137.

(٣) A. J. Evans. 267 ونظير ذلك ما يقوله ماكنزي واربي: "في معظم جهات الصرب القديمة كانت الفكرة التي وجدناها منسوبة إلى أحد الأساقفة، عبارة تتعلق بشخص انتزع تلك الفلوس القليلة التي كان الأتراك قد خلفوها" (P.258) وأورد أحد الكتاب وصفًا آخر لرجال الكنيسة الإغريقية في Revue dws Deux Mondes (Topme 97. p. 336) إذ قص لنا القصة التالية: "في مستهل هذا القرن، في تيرنوفا، تلقى أحد البابوات ذات يوم، ويدعى بواقيم، وكان محبوبًا من رعيته، مكروهًا من أسقفه، أمرًا بفرض ضريبة على الروث في الأسطبل الكنيسي، ولكنه لم يقبل: عندئذٍ انهال عليه الخدم ضربًا بفرشاة كبيرة ذات أصابع. ولكن صاحبنا كان قويًا: فناهضهم، وفزع إلى القاضي بعد أن ترك ثوبه رهينة. ولم تغرب الشمس عليه حتى كان مسلمًا صالحًا".

لهم الفرصة[١]. فليس بغريب حينئذٍ أن نعرف أن كثيرًا من المسيحيين أسلموا لكي يتخلصوا من مثل ذلك الظلم[٢].

وقد قيل إن ظلمًا كنسيًا من نوع آخر أشد وطأة، كان سببًا في تحول أسلاف جماعة قليلة إلى الإسلام يبلغ عددها حول ٤٠٠٠ من جنوبي رومانيا من منطقة **Noanta** في إقليم مجلن **Meglen** التابعة لولاية سلونيكا، وهم يرون أن بطريق القسطنطينية في القرن الثامن عشر أقنع السلطان الحاكم وقتئذٍ بأن المسيحيين الذين يتكلمون اليونانية، هم وحدهم الذين يمكن أن يكونوا رعايا مخلصين للدولة العثمانية. عند ذلك حرم السلطان على المسيحيين ألا يتكلموا غير اليونانية، وأنذرهم بقطع ألسنتهم إن لم يفعلوا. فلما بلغ ذلك أهل نُوانتا هرب جانب من السكان إلى الغابات، وأسسوا فيها قرى جديدة؛ أما الذين بقوا منهم فقد اعتنقوا الإسلام، وعلى رأسهم أسقفهم، حتى يبقوا بذلك على لغتهم الأصلية[٣].

وعلى الرغم من أن جمهرة رجال الأبرشية كانوا أبرياء من التهم التي وجهها سادتهم إليهم[٤]، كانوا لا يزالون أميين وعلى درجة كبيرة من الجهل. وقد قيل في نهاية القرن السابع عشر إن من العسير أن نجد اثني عشر شخصًا في جميع الممتلكات التركية يجيدون اللغة اليونانية القديمة إجادة تامة، وكانت القدرة على القراءة من المزايا الكبرى في نظر رجال الكنيسة، على حين كان هؤلاء الأشخاص على جهل تام بمعاني الألفاظ التي وردت في كتب الصلوات[٥].

تفوق العثمانيين الأدبي: وبينما كان في المجتمع المسيحي في ذلك الحين ما يدعو إلى الصد والنفور كان في أخلاق الأتراك وحياتهم ما يبعث على التقريب والاجتذاب. وكان تفوق العثمانيين في عصورهم الأولى، إذ ما قورن بانحطاط زعماء الكنيسة المسيحية ومعلميها، لابد أن يؤثر بطبيعة الحال في العقول الزاهدة التي سئمت الأطماع المنبعثة من الأنانية، وبيع الوظائف الكنسية، وفساد أفراد الكنيسة الإغريقية. وطالما أثنى الكتاب المسيحيون على غيرة هؤلاء الأتراك وصلابتهم في حياتهم الدينية، وحماستهم في أداء طقوسهم التي رسمها لهم دينهم، ومظهر الحشمة والتواضع للمبادئ في زيهم وأسلوب معيشتهم، وعدم التباهي والإدعاء، وبساطة الحياة التي تلاحظ حتى في العظماء أو الأقوياء منهم[٦]. ويثني مؤرخ السفارة التي أرسلها الإمبراطور ليوبولد الأول إلى الباب العالي من سنة ١٦٦٥-١٦٦٦ ثناءً خاصًا على تعبد الأتراك وانتظامهم في الصلاة، بل يذهب بعيدًا فيقول: "يجب أن نتكلم عن فوضى المسيحيين. إن الأتراك يدلون على كثير من العناية والغيرة في

---

(١) Pizipois, Second Partie, p. 87.

(٢) Id. Second partie, p.87. pichler, p. 29.

(٣) Lazär, p.223.

(٤) Finaly, vol. iv. Pp. 153-4.

(٥) Tournefort, vol. i. p. 104 CF. pichler, pp. 29, 31. Spon, vol. i. p. 44.

(٦) Turchicae Spureitiae Suggillatio, fol. Xiii. (b); fol. Xv. (b); fol. Xxii, (b); fol. xx (a). Veniero, pp. 32, 36 Busbecq, p. 174.

أداء شعائرهم الدينية: أما المسيحيون فلم يظهروا شيئًا من ذلك في دينهم.. بل أكثر من ذلك كله أننا قد عرفنا بالتجربة المتدينين بين المسيحيين: ذلك الذي لا تراه، في أثناء الصلاة، لاهيًا بعينيه: لا ترى في أثنائها شخصًا غير متعلق بموضوع صلاته، ولا شخصًا لا يبدو بين يدي خالقه في مظهر التبجيل الظاهري الذي يتطلبه من المخلوق"(١)

حتى الأخلاق في الجندية تلقى حظها من الثناء. فقد أخبرنا كاتب البعثة التي أرسلها شارل الثاني إلى السلطان أن سكان البلاد في أثناء مسير جيش من الجيوش، لم يظهروا أية شكوى من أنهم خسروا شيئًا أو أن نساءهم قد تعرضن لسوء المعاملة. كل الحانات الممتدة على خط سير الجنود قد أغلقت وختمت بالشمع قبل وصول الجيش بيومين أو ثلاثة، و لم يسمح ببيع النبيذ للجنود، وإلا عرضوا أنفسهم لعقوبة الموت(٢).

وكثيراً ما قدم الكتاب المسيحيون الذين لا يكنون للعثمانيين محبةً ولا ودًا، تقدمة المدح والثناء على فضائل الأتراك؛ فمن أولئك كاتب كان له رأي سيئ في عقيدتهم(٣)(†) يتحدث عنهم بقوله "حتى بين توافه القرآن نجد بعض جواهر من الفضائل المسيحية؛ وفي الحق لو قرأ المسيحيون باهتمام شريعة المسلمين وتاريخهم وتدبروها، لاستولى عليهم الحياء حين يشاهدون إلى أي حد هؤلاء المسلمون ذوو غيرة على عبادتهم وتقواهم وتصدقهم؛ وإلى أي حد هم متفانون في إخلاصهم، قانتون في مساجدهم؛ وإلى أي حد هم مطيعون لرئيسهم الروحي، حتى إن التركي العظيم نفسه لا يحاول أمرًا إلا بعد مشورة المفتي؛ وإلى أي حد هم مهتمون بمراعاة أوقات الصلوات الخمس في كل يوم حيث وجدوا وأيًا كانت مشاغلهم؟ ما أشد مراعاتهم دائمًا لصومهم من الصباح حتى المساء طوال أيام الشهر بلا انقطاع؛ وما أكثر تواد المسلمين وتراحمهم؛ وما أعظم ما يُرى من عنايتهم بالغرباء في نُزُلهم، سواء بالفقير النازح المسافر! لو تأملنا عدالتهم ونزاهتهم وسائر فضائلهم الخلقية لخجلنا من جمودنا سواء في عبادتنا أو في تراحمنا، ومن جورنا وإفراطنا وتعسفنا، فلا ريب أن هؤلاء الناس سيقيمون الحجة علينا؛ ولا شك أن عبادتهم وتقواهم وأعمال الرحمة فيهم، هي الأسباب الرئيسية لنمو الدعوة المحمدية"(٤).

وقد وصل مؤرخ حديث إلى مثل هذه النتيجة حين قال: نجد كثيرين من الإغريق من ذوي المواهب العالية والميزات الخلقية قد بلغ من تأثرهم بتفوق المسلمين، أنهم حتى عندما كانوا يتجنبون الاندماج في خدمة السلطان بأداء ضريبة الأبناء، كانوا يدخلون في دين محمد بمحض إرادتهم. ولا بد أنه كان لتفوق المجتمع

---

(١) Gaultier de Leslie, pp. 180, 182.

(٢) Rycaut, vol. i. p. 689. See also Georgiveviz, pp. 53-4, and Menavino p.73

(٣) Alexander Ross, p. ix.

(†) ذكر المؤلف أمثلة من التهم التي رمى بها إسكندروس القرآن الكريم وهي تهم باطلة أضربنا عن ذكرها.

(٤) Finaly, vol. v. p. 29.

التركي من الناحية الخلقية شأن كبير في هذا التحول إلى الإسلام الذي كان كثير الوقوع في القرن الخامس عشر بقدر ما كان للطموح الشخصي للأفراد من أثر في هذه السبيل".

وإن جيلاً قد راقب انحلال السلطان التركي في أوربا والتناقص المطرد في ممتلكاته، وتعود أن يسمع قول من يتحدثون عنه بأنه (الرجل المريض)، الذي يصير إلى الفناء العاجل، ليجد من العسير أن يدرك تلك المشاعر التي بعثتها الدولة العثمانية في أيام نهضتها الأولى في أوروبا. فإن نجاح الأسلحة التركية بهذه الصورة السريعة قد ملأ عقول الناس فزعًا ودهشًا. فقد سقطت الممالك المسيحية، الواحدة تلو الأخرى، في أيديهم. فبلغاريا والصرب والبوسنة والمجر كلها قد تخلت عن استقلالها باعتبارها ولايات مسيحية، وشاهدت جمهورية البندقية الشامخة ممتلكاتها تغتصب من يدها الواحدة تلو الأخرى، حتى أصبح أسد سان مارك وحده يسيطر على سواحل البحر الأدرياتي؛ حتى روما (المدينة الخالدة) نفسها قد استهدفت للخطر بتسليم أوترنتو **Otranto**. وإن الآداب المسيحية، في النصف الأخير من القرنين الخامس عشر والسادس عشر، حافلة بالأخبار المفزعة التي تتعلق بالمصير الذي كان يهدد أوروبا المسيحية لولا توقف تقدم الأتراك الناجح، وتمثل التركي في نظرهم سوطًا في يد الله قد صبه على شعبه معاقبة له على كفره وخطيئته[١]؛ أو هو من جهة أخرى، القوة الشيطانية المتخاذلة التي تعمل على هدم المسيحية تحت ستار من الدين يقوم على الرياء.

ولكن أهم ما نلاحظه هنا، أن بعض الناس بدأ يسأل: "هل من الجائز أن يأذن الله للمسلمين بأن يبلغوا ما بلغوه من هذا العدد الذي لا يدخل تحت حصر بدون سبب معقول؟ هل من المتصور أن مثل هذه الآلاف المؤلفة تتعرض للهلاك الأبدي كما يتعرض الرجل الواحد؟ كيف يمكن أن يكون أمثال هذه الجماهير الزاخرة مناوئين للدين الحق؟ إنه إذا كان الحق أقوى من الباطل، فليس من المحتمل أن تجمع أقوام كثيرة كهؤلاء على محاربته. كيف استطاعوا أن يقووا على الحق ما دام الله يعين على الحق ويؤيده؟ كيف استطاع دينهم أن ينتشر بهذه الصورة العجيبة لو أنه قام على أساس فاسد من الباطل؟"[٢] فأمثال هذه الأفكار، كما تخبرنا الروايات، قد أغرت بنوع خاص، هؤلاء الأسرى المسيحيين البائسين الذين راقبوا الأعوام تمر متثاقلة دون أمل في التخلص أو راحة من الشقاء الذي هم فيه. فهل يمكن أن يستولي علينا الدهش حين نجد مثل هذا الرجل يسأل؟ "لا شك لو أن الله كان راضيًا بالدين الذي تشبثتم به لما هجركم على هذا النحو، ولساعدكم لتحصلوا على الحرية ولتعودوا إليه مرة أخرى. أما وقد أغلق الله منافذ الحرية دونكم، فربما قضت مشيئة الله أن تتخلوا عنها، وأن تقترنوا بتلك الطائفة، وأن يكون خلاصكم على يديها"[٣]

تحول الأرقاء المسيحيين إلى الإسلام: وإن العبد المسيحي الذي يصور على هذا النحو تلك الشكوك التي تحيك في صدره كلما مرت السنون البطاء، دون أن تجلب له تحررًا وخلاصًا، إنما يعبر هنا من غير شك من

---

(١) Schiberger, p. 69.

(٢) Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. Xii. (b), iii. (a).

(٣) Turchicae Spurcitiae Suggillatio. Fol. Xxvii. (a).

الأفكار التي خطرت لكثير من المسيحيين المنكودين الذين شملهم الاستعباد وظلوا عليه، حتى لجأوا آخر الأمر إلى تحطيم أغلال دينهم القديم ليدخلوا في الإسلام. وإن كثيرين من الذين كانوا على أهبة أن يموتوا شهداء في سبيل الدين المسيحي، لو أنهم خيروا بين القرآن والسيف كما تروي الأساطير، أحسوا إحساساً أخذ يقوى شيئًا فشيئًا، بعد أن قضوا سنين طوالاً في الأسر، بتأثير الإسلام على الوجهتين النظرية والعملية؛ وكسبت الإنسانية كثيراً من الداخلين في الإسلام منهم في الوقت الذي أخفقت في وسائل العنف(١). ذلك أنه بالرغم من أن حظ كثير من أسرى المسيحيين كان غاية في التعس، نجد بعضهم الآخر، ممن شغل مراكز في خدمة خاصة القوم، لم يكن في الغالب أحط شأنًا من خادم المنازل في سائر أوروبا. وبعد أن نظمت الشريعة الإسلامية مسألة الرق، انتزع عن الرق كثير من أشد مظاهره غلظة وفظاظة. ويظهر أنه لم يكن على الأقل في تركيا، شيء من أمثال تلك الأعمال الوحشية والفظائع التي كانت في ولايات القرصنة في إفريقية الشمالية. كان للرقيق كما كان لسائر المواطنين حقوقهم، بل قيل إنه كان للعبد أن يقاضي سيده إذا أساء معاملته، وأنه إذا تحقق القاضي من اختلاف طباعهما اختلافًا بينًا إلى حد تعذر الاتفاق بينهما، فله أن يرغم السيد على بيعه(٢). وكانت حالة الأسرى المسيحيين تختلف بطبيعة الحال باختلاف الظروف وباختلاف قدرتهم على تهيئة أنفسهم لحياة تكتنفها المتاعب؛ فالشيوخ والقسس والرهبان وأصحاب المنبت الكريم كانوا أكثر الناس تحملاً، على حين لقي الأطباء والصناع من سادتهم احترامًا باعتبارهم خدامًا قد أدوا على خير الوجوه ما أنفق عليهم من مال(٣). أما الرقيق المحكوم عليهم بالسجن فقد كانوا بطبيعة الحال أشد الناس تحملاً للمتاعب. وفي الحق أن ألطف المعاملات لم يستطع إلا في القليل النادر أن يخلصهم من الشدائد التي اقترنت بمثل هذا التملك(٤). زد على ذلك

---

(١) "وفي الوقت الذي لم يقض على أجسامهم بما أظهره لهم من رعاية وتقوى، صمم بدهائه الشيطاني على أن يقتل أرواحهم بتجريدهم من إيمانهم. ويمكن أن يشهد على هذه الحقيقة، تلك الجموع من المؤمنين الذين لا يدخلون تحت حصر: ذلك أنه على الرغم من أن كثيرين منهم كانوا على غاية الاستعداد بأن يموتوا في سبيل العقيدة المسيحية، ومن أجل المسيح، وتخليصاً لأرواحهم، قد نفث فيهم، بإنقاذهم من الموت الجسدي وحملهم إلى الأسر سمومه، فأفسدهم بمرور الزمن، ودفعهم بخسة إلى أن ينكروا إيمانهم بالمسيح"
Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. i; cf. fol. Vi. (a)

(٢) Menavino. P.96. John Harrls: Navigantium atque Itinerantium Bibliotheca, vol. ii. P. 819. (London, 1764)

(٣) "وينبغي أن نقرر فيما يتعلق بالترك أنهم عاملوا خدمهم ومواليهم الذين استطاعوا أن يفيدوا من حذقهم ومهارتهم معاملة أحسن من تلك التي كان النصارى يعاملون بها خدمهم وعبيدهم.. فكان الخادم الماهر في "فن من الفنون يتمتع بكل ما يرجوه الحر ولا ينقصه إلا التحرر". "G.C. von den Driesch. P. 132"

(٤) يقول سير وليم ستيرلنج مكسويل W. Stirling – Maxwell عن هؤلاء: "إن المساكين التاعسين الذين كانوا يعملون مجذفين في أية سفينة حربية تركية، عاشوا عيشة ليست أشد ولا أخف بؤساً من هؤلاء المجرمين المحكوم عليهم تحت شارة الصليب. فقد كان العمل الشاق، والحياة المريرة، والصدمات القاسية من نصيب الفريقين على سواء. وفي البر، ربما كان السجين التركي أو المغربي أشد جهلاً وقذارة من سجين نابلي أو برشلونة، أما في

أن حظ العبيد الذين كانوا ملكًا للدولة كان أكثر تعسًا من أولئك الذين كانوا ملكًا للأفراد[١]. وقد جرت العادة بأن يسمح لهم بأداء شعائرهم الدينية في حرية، وكان لهم في سجون الدولة في القسطنطينية قساوسة ومعابد خاصة بهم، كما سمح لرجال الكنيسة بأن يقوموا بإلقاء عظات دينية تعزية للأرقاء المحكوم عليهم بالسجن[٢]. وكان عدد العبيد المسيحيين الذين دخلوا في الإسلام عظيمًا؛ وقد ذكر بعض حالات قليلة كانوا يهددون فيها، ويعاملون معاملة سيئة لإغرائهم على الارتداد. ولكن جرت العادة بأن سادتهم كانوا لا يرغمونهم على ترك دينهم إلا في النادر[٣]، وإنما كانوا يضغطون عليهم أشد الضغط في خلال السنوات الأولى من استرقاقهم، ثم بعد ذلك يتركونهم لأنفسهم يتبعون الدين الذي يشاءون[٤]. ولهذا غير أكثر العبيد دينهم ودخلوا في الإسلام بمحض إرادتهم؛ ولما كانت السفارات المسيحية تخشى دائماً من يوم لآخر من أن ينقلب بعض مواطنيهم من الخدم الذين كانوا قد صحبوهم إلى القسطنطينية إلى أوطانهم أتراكاً[٥]، كان من اليسير أن ندرك أن العبيد الذين كانوا قد فقدوا كل أمل في الرجوع إلى أوطانهم وكانوا لا يجدون في محيطهم إلا القليل من التشجيع على الاستمرار في التعلم مدة حياتهم الأولى — لم يكن بد من أن يخضعوا للمؤثرات التي أحاطت بهم، وألا يحسوا بقيود كبيرة تمنعهم من الدخول في جماعة جديدة وفي دين جديد. وقد قال عنهم رحالة

البحر، فإنه إذا جاز أن يكون للبؤس درجات فربما تميز المسيحي المكبل في الأغلال التركية من هذه الناحية؛ ذلك أن فريق المجذفين في سفن السلطان كانوا ملكًا للقبطان في الغالب؛ والمفروض أن الشفقة الطبيعية التي تكون للمالك على ما يملك، قد تتدخل أحياناً في أداء واجبه" (Vol. i. pp. 102-3)

(١) Gmelin, p. 16.

(٢) Id. P.23.

(٣) John Harris: Navigantium atque Itinerantium Bibliotheca, vol. ii. P. 810

(٤) وتعد السنون الأولى بالنسبة إلى أمثال هؤلاء التاعسين أشق سني حياتهم، خاصة إذا ما كانوا حديثي السن؛ إذ إن الترك حاولوا أن يدخلوا الناس في دينهم بالملاطفة، فإن لم يجد ذلك فبالشدة. فإذا ما انقضت سنوات الشدة هذه، وجد الرق عند الترك محتملاً أكثر منه عند غيرهم،. (G. C. von den Driesch p. 123) أضف إلى ذلك ما يقوله جيورجيفز من أن أولئك الذين تمسكوا بالدين المسيحي قد أعتقوا بعد فترة معينة.

"إذا استمروا على الديانة المسيحية، حددت لهم فترة معينة للخدمة يصبحون بعد انقضائها أحراراً. أما عن أولئك الذين ينكرون ديانتنا، وأن هناك فترة محدودة للخدمة وحق العودة إلى الوطن، فأملهم في الحرية لا ينحصر إلى في إرادة السيد، (p. 87) كذلك انظر Menavino, p. 65. ويذكر كانتا كوزينوس Cantacuzenos هذه الفترة على أنها سبع سنوات: "إن عبيدهم ينالون معاملة طيبة لأن محمداً أمرهم فيما أمرهم به ألا يظل عبد في العبودية أكثر من سبع سنوات، لهذا فإنه لا أحد يحاول، أو نادراً ما يحاول المرء أن يخالف ذلك الأمر" (p. 125).

(٥) "وكان لدى النصارى المخلصين لعقيدتهم الذين ذهبوا إلى تركيا أو إلى بلاد إسلامية أخرى سبب كاف للحزن على ما كان من كثرة ارتداد أبناء دينهم. وتفيض كتب رؤساء طوائف المترهبين بالشكوى من ذلك الأمر. أما الأرقاء فقد كان من الممكن أن يمتزج شعور الإنكار لموقفهم بشعور الرثاء لحالهم. وكان السفراء لا يأمنون في أى يوم أن ينصرف عنهم أفراد من حاشيتهم. ولقد أحسنوا صنعاً حين كانوا لا يحمدون النهار حتى يقبل عليهم الليل".
(Gmelin, p 22.) Cf. von den Driesch, p. 161.

إنجليزي عاش في القرن السابع عشر[١]: "كان قليل منهم يعود إلى وطنه؛ وأقل منهم من كان له من الشجاعة والثبات ما يمكنه من الاحتفاظ بدينه المسيحي الذي تعلمه. وما كان تعلم هؤلاء إلا تافهاً ولا معرفتهم بمبادئ المسيحية وأصولها إلا ضئيلة. ومن ثم كان بعضهم يأوي إلى ديانة الترك فزعاً مما ران على قلبه من شدائد العبودية من الجزع والحقد المرير. كما أطمع بعضهم الآخر ما كانت تتيحه الشريعة الإسلامية للمسلمين من فنون المجاملة، والتملق للذائذ، وما آملوه في جعل حياتهم أيسر حالاً وأكثر رخاء بتغيير دينهم؛ فلما لم يعد أمل في إصلاح حالهم، تركوا مخلصهم ودينهم المسيحي، وسرعان ما نسوا وطنهم الأول وأصبحوا لا يعدون أنفسهم غرباء، بل ادعوا أنهم مواطنون".

وقد اعتمد كثير بطبيعة الحال على الخلق الشخصي الذي تميز به عبيد المسيحيين أنفسهم على اختلافهم؛ فقد وقع الكاتب المجهول الذي نقلنا عنه كثيراً فيما سبق، في أسر طويل الأمد، مكنه من أن يتحدث بجدارة عن حالتهم. فقسمهم إلى ثلاث طبقات: الطبقة الأولى تشمل هؤلاء الذين قضوا أيامهم في بساطة تامة، لا يبالون بتكليف أنفسهم مشقة تعلم شيء عن ديانة سادتهم، وهؤلاء قد اكتفوا بعلمهم أن الترك قوم من الكفار، ولهذا تجنبوا، بقدر ما سمحت حالة استرقاقهم ونير استعبادهم، أن يكون لهم أية علاقة بسيادتهم ولا بعبادتهم، خوفاً من أن يضلوا بخطاياهم، واجتهاداً في مراعاة الدين المسيحي بقدر ما تسمح به معرفتهم ونفوذهم. وتتألف الطبقة الثانية من هؤلاء الذين يقودهم حب الاستطلاع إلى الدراسة والبحث في أفعال الترك. فإذا ما اتسع وقتهم بمعونة الله، ليغوصوا في طلب أسرارهم، وأتيح لهم الإدراك الكافي لاختبارهم، ونور العقل ليلتمسوا منه الشرح والتفسير، فإنهم لا يخرجون من هذه التجربة بحيث لا يمسهم ضر فحسب، بل يكسبون لدينهم قوة على قوة. أما الطبقة الثالثة فتتألف من هؤلاء الذين اختبروا الدين الإسلامي دون أن يتخذوا لأنفسهم الحيطة اللازمة، فأخفقوا في الغوص إلى أعماقه والاهتداء إلى تفسيره، ولذلك ضلوا؛ فلما اعتقدوا أن باطل الأتراك هو الحق، فقدوا دينهم ودخلوا في دين المسلمين الزائف، وبهذا لم يجروا الخراب على أنفسهم فحسب، بل كانوا قدوة سيئة لغيرهم. وكان عدد أمثال هؤلاء لا يدخل تحت حصر[٢].

لم يخلص الدخول في الإسلام كما أكد بعض المؤلفين، العبد من الرق، و لم يطلق سراحه[٣]، لأن العتق كان باختيار السيد وحده، وهو الذي طالما وعد حقاً بتحريره لا من طريق أداء فدية ولكن بالدخول في الإسلام[٤]، ولكنه من ناحية أخرى كان كذلك يرغب بمحض إرادته في أن يحرر العبد المسيحي، حتى ولو

---

(١) Thomas Smith, pp. 144-5.

(٢) Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol. Xxxv. (a).

(٣) M. d'Ohsson, vol. iii. P. 133 Georgieviz, p. 87. (quoted above) Menavino, p. 95.

(٤) Von den Driesch, p. 250.

كان قد احتفظ بدينه، بشرط أن يكون قد برهن على أنه خادم أمين، كما كان يرغب في أن يجري عليه رزقاً لكبر سنه[١].

وكان هنالك آخرون شأنهم كشأن هؤلاء العبيد المسيحيين ابتعدوا عن بيئاتهم ومجتمعاتهم، فوجدوا أنفسهم قد انقطعوا عن الروابط القديمة، وألقى بهم في وسط جماعة مدفوعة بمثل عليا: اجتماعية ودينية من طراز جديد تمام الجدة. فهذه الجموع الحاشدة من العمال المسيحيين الذين قدموا بعد طوافهم في البلاد المفتوحة في القرن الخامس عشر إلى أدرنة وسائر المدن التركية للبحث عن عمل، قد أقنعوا بسهولة ويسر أن يستوطنوا هذه البلاد وأن يدخلوا في الإسلام[٢]. كذلك حدث للأسر المسيحية التي نقلها محمد الثاني من الولايات المغلوبة على أمرها من أوربا إلى آسيا الصغرى[٣]، فمن المحتمل أنها انتظمت تماماً في مجموع الأهالي المسلمين على درجات لم تكن في الغالب محسوسة، كما كانت الحال مع الأرمن الذين حملهم الشاه عباس الأول إلى فارس (١٥٨٧ – ١٦٢٩م)، والذين يظهر أن معظمهم كان قد تحول إلى الإسلام في الجيل التالي[٤].

وفي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: ظهر أن روح نشر الدعوة الإسلامية بين الأتراك قد اعتراها الضعف والفتور. أما السنين الأخيرة من حكم السلطان عبد الحميد فقد شهدت تجدد الاهتمام بالدعاية الإسلامية وأخذت الصحف التركية في تسجيل أمثلة من التحول إلى الإسلام. وكان من أجدرهم بالذكر عدد يبلغ ثمانية عشر أميراً تقريباً؛ وقد قيل إنهم ادعوا النسب إلى قريش، وقد بذل الأتراك كل جهد في سبيل إعادتهم إلى حظيرة الإسلام. وعين الذين أسلموا منهم في مناصب تدر عليهم ربحاً في الخدمة التركية المدنية[٥].

الإسلام في ألبانيا: وفي الصفحات التالية نرى أن نذكر أخباراً أكثر تفصيلاً وتخصصاً تتعلق بانتشار الإسلام بين أهالي ألبانيا والصرب والبوسنة وإقريطش من المسيحيين، إذ إن تاريخ كل بلد من هذه البلاد، بعد أن فتحها الأتراك، يمثل بعض المظاهر الخاصة التي تسترعى الانتباه في تاريخ الدعوة الإسلامية.

يسكن الألبانيون، عدا بعض من استوطن منهم في اليونان[٦]، تلك المنطقة الجبلية التي تمتد على طول الساحل الشرقي للبحر الأدرياتي من الجبل الأسود إلى خليج أرتا **Arta**. وهم يكونون عنصراً من أقدم العناصر وأنقاها في أوربا، ويقال إنهم ينتمون إلى الفرع البلاسجي من الكتلة الآرية.

---

(١) Id. P. 131-2.

(٢) Turchicae Spurcitiae Suggillatio, fol xi.

(٣) Hertzberg, p. 621.

(٤) "وبموت الشيوخ المسنين، كان يدخل الشبان في الإسلام غالباً، حتى إنك الآن (١٦٥٥) لا تكاد تلتقى باثنين من مسيحي الأرمن في كل تلك السهول الخصبة، التي كان آباؤهم قد أرسلوا إليها لتسميدها". Tavernier (1), p.16

(٥) H. H. Jessup: Fifty-three in Syria, vol. ii. P. 658. (New York, 1910).

(٦) ولمعرفة أسماء هؤلاء انظر: Finaly, vol. vi. Pp. 28-9.

غزو الأتراك بلاد ألبانيا: وقد بدأ غزو الأتراك بلادهم سنة ١٣٨٧م، ولكن لم يكن بد من أن تنسحب الجيوش التركية سريعاً، واعترف بنفوذ السلطان للمرة الأولى في سنة ١٤٢٣ واستردت ألبانيا استقلالها فترة قصيرة بزعامة جورج كاستريوتا **G. Kastriota** الذي اشتهر باسمه الإسلامي إسكندر بك أو سكندر بك. وقد أثبتت الأبحاث الحديثة عدم صحة الأفكار الخيالية التي نسجت حول قصة أيامه الأولى – كيف سُلم في صباه رهينة إلى الأتراك، وشب بينهم على الإسلام، وحظي بعطف السلطان. والحقيقة أنه قضى أيام شبابه في بلاده الجبلية، وبدأ نضاله مع الأتراك منذ اليوم الذي أحرز فيه النصر عليهم سنة ١٤٤٤؛ وظل أكثر من عشرين عاماً يقاوم قواهم الغازية مقاومة عنيفة؛ ولكن بعد وفاته سنة ١٤٦٧ أخذ الأتراك يستردون ألبانيا. وسقطت كرويا **Kruya** (آق حصار)، حاضرة أسرة كاستريوت في أيديهم بعد أحد عشر عاماً، ومنذ ذلك الوقت، يظهر أنه لم تحدث مقاومة منظمة في كافة أنحاء المملكة، على الرغم من أن الثورات كانت كثيرة الوقوع، وأن خضوع البلاد لم يكن تاماً بحال. وظل بعض الموانئ البحرية يقاوم مدة أطول؛ وسقطت مدينة دوراتسو **Durazzo** في سنة ١٥٠١م، على حين لم تسلم مدينة أنتيفارى **Antivari** الواقعة في أقصى الشمال من ساحل ألبانيا حتى ١٥٧١م. وقد نصت شروط التسليم على أن تحتفظ المدينة بقوانينها القديمة ونظام حكومتها، وأن تكفل لهم الحرية في إقامة شعائر دينهم المسيحي، وألا يتعرض أحد بسوء لكنائسهم ومعابدهم، وأن يعاد بناؤها إذا تطرق إليها البلى، وأن يحتفظ المواطنون بأملاكهم كلها، المنقول منها والعقار، وألا يثقل كاهلهم بأداء أية ضرائب إضافية.

طابع الشعب الألباني: ويظهر أن الألبانيين احتفظوا دائماً في ظل الحكم التركي بنوع من الحكومة شبه الاستقلالية، وظلت القبائل والعشائر المختلفة يتمتعون بنفس الاستقلال الذي كانوا يتمتعون به قبل الفتح. وعلى الرغم من وجود ولاة لسلاطين الترك، كانوا لا يطيقون تدخل الموظفين من الترك في إدارتهم الداخلية. وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن الحكومة التركية لم يكن في وسعها قط أن تعين أو تقرّ أي حاكم إقليمي لا يكون من أهالي ألبانيا، ولا أن يدعم نفوذه بأسلحته وسياسته وعلاقته بالناس[١]. فقد بلغ اعتزازهم بعنصرهم حداً كبيراً، وإذا سئل الألباني، حتى الوقت الحاضر، عن نفسه أجاب بأنه سكبتار[٢]، قبل أن يجيب بأنه مسيحي أو مسلم – وهذا شاهد قوى جداً يدلنا على أن الشعور القومي قد محا التفرقة الشديدة بين هاتين الديانتين التي تدخلت تدخلاً عنيفاً في سائر بلاد الدولة العثمانية. فالألبانيون، النصارى والمسلمون على سواء، يتكلمون لغة واحدة، ويؤثرون تقاليد واحدة، ويراعون طباعاً وعادات واحدة؛ وأن اعتدادهم بقوميتهم المشتركة لرابط أقوى من أن يسمح لخلافات العقيدة الدينية بأن تقسم الأمة شيعاً متفرقة على هذا الأساس[٣].

---

(١) Leake. P. 250.

(٢) وهو الاسم الذي يطلقه الألبانيون دائماً على أنفسهم ومعناه سكان الصخور.

(٣) ويقول واحد منهم، وهو مسيحي ألبانى، متحدثاً عن العداوة القائمة بين المسيحيين والمسلمين في بلغاريا: "أما ألبانيا فقد كان موقفها مختلفاً عن ذلك تمام الاختلاف: إذ إن المسلمين الألبانيين كالمسحيين، يتكلمون لغة واحدة، ولهم

ولقد خدموا جنباً إلى جنب في الجيوش غير النظامية التي سرعان ما أصبحت بعد الفتح التركي الدعامة الأساسية للحكومة في كل إدارتها الداخلية، ووجدت كلتا الطائفتين استعداداً واحداً في خدمة الباشوات المحليين، لأنهم كانوا يعدون أشجع الجنود في الدولة. فقد خدم الألبانيون المسيحيون في الجيش التركي في حرب القرم[١]. ومع أنهم ربما كانوا أكثر هدوءاً وإلماماً بالزراعة من مواطنيهم من المسلمين، إلا أن الفرق بين هؤلاء وأولئك ما زال يسيراً، فقد كانوا يحتفظون دائماً بأسلحتهم وصفاتهم العسكرية، وأظهروا دائماً نفس تلك الروح الصارمة المزهوة، صعبة المراس، وعاشوا بنفس ذلك الشعور القومي العنيف، كما كان لإخوانهم الذين اعتقدوا دين النبي[٢].

الانحلال التدريجي للعقيدة: وإن لتقدير هذه الحقائق أهمية في تتبع انتشار الإسلام في ألبانيا؛ إذ يظهر أنه انتشر تدريجياً وفي بطء على أيدي أهالي البلاد أنفسهم لا نتيجة لضغط المؤثرات الأجنبية. وإن ما لدينا من تفصيلات عن هذه الحركة لا يغني فتيلاً، فإننا لا نعرف شيئاً ذا غناء عن تاريخ ألبانيا منذ نهاية القرن الخامس عشر حتى قيام علي باشا بعد ذلك بثلاثمائة سنة؛ فكل ما لدينا من معلومات عن حركة الدخول في الإسلام التي كانت بطيئة، ولكنها كانت مستمرة في خلال هذه الفترة، مستقي من التواريخ الكنسية للأبرشيات المختلفة[٣]، ومن التقريرات التي أرسلت إلى ألبانيا من آن لأخر وإلى جماعة الدعوة إلى الدين **Cangregatio de Propaganda**[٤]. وغني عن البيان أن طبيعة هذه المصادر تكسب المعلومات التي استقيت منها طابعاً من النقص – ولا سيما فيما يتعلق بالبواعث التي دفعتهم إلى الدخول في الإسلام ذلك أنه لم يكن من المعقول تقريباً أن رجل الكنيسة الذي يرجع إلى تلك العصور كان يسلم حتى باحتمال أي دخول في الإسلام من طريق الإقناع الصحيح – فضلاً عن كونه يعبر بصراحة عن رأي كهذا فيما يكتبه إلى رؤسائه.

وفي خلال القرن السادس عشر، يظهر أن الإسلام لم يخط إلا خطوات بطيئة نحو التقدم، على الرغم من أن تيار الدخول في الإسلام كان قد بدأ منذ حين. وفي سنة ١٦١٠م كان عدد الأهالي المسيحيين يفوق عدد

عادات وأخلاق واحدة، ويسيرون على عرف واحد. وليس بين المسلمين والمسحيين كراهية مطلقاً؛ إذ لم يكن بينهم عداوة أجيال. ولم يكن اختلاف الدين باعثاً بحال على الانفصال الحقيقى. وكانوا يعيشون، عدا حالات عدة، على قدم المساواة، ينعمون بحقوق واحدة ويؤدون واجبات متماثلة.
(Wassa Effendi: Albanien und die Albanesen, p. 59. Berlin, 1879).

(١) Finlay. Vol. v. p. 46.

(٢) Clark, pp. 175-7 والمرديون Mirdites، وهم من الرومان الكاثوليك المعروفين بتعصبهم الشديد (في أبرشية أليسيو Alessio)، لن يقبلوا مسلماً أن يعيش في جبالهم، ولا فرداً من قبيلتهم أن يترك دينه؛ ولو حاول أي مردي أن يفعل شيئاً من ذلك لقضي عليه بالقتل من غير شك، إلا إذا أفلح في الهرب من ألبانيا. (Hecquard: Histoire de la Haute Albsnie, p. 224)

(٣) Published in Farlat's IIIyrieum sacrum.

(٤) Alessandro Comuleo, 1593. Bizzi. 1610. Marco Crisio, 1591. fra Bonventura di. S. Antonio, 1652 Zmaievich, 1703.

المسلمين بنسبة ١٠ إلى ١[١]. ولما كان المسيحيون يقطنون معظم القرى مع خليط قليل جداً من المسلمين[٢]، يظهر أن حالات الدخول في الإسلام كانت أكثر منها في المدن الكبيرة ففي مدينة أنتيفاري مثلاً، بينما آثر كثير من المسيحيين أن يهاجروا إلى البلاد المسيحية المجاورة، تحول السواد الأعظم من هؤلاء الذين بقوا في هذه البلاد إلى الإسلام تدريجاً، سواء الشريف منهم والوضيع، حتى أخذ يتناقص عدد الأهالي المسيحيين يوماً بعد يوم[٣]. وبازدياد عدد الداخلين في الإسلام حُوِّلت الكنائس إلى مساجد وهذا التصرف مع أنه يتعارض مع شروط الصلح، يبرره، فيما يظهر، التغيير الذي طرأ على عقيدة الشعب[٤]. وفي ١٦١٠م لم يكن هنالك إلا كنيستان تعليميتان قد بقيتا في أيدي النصارى من اللاتين. ولكن يظهر أنهما كانتا بحيث تسديان حاجات الجماعة[٥]؛ ويمكن أن ندرك مدى ما بلغه هذا الأمر على وجه التقريب من هذه الكلمات التي جاءت على لسان ماركو بتزى، إذ يقول: "هناك نحو ٦٠٠ منزل يقطنها المسيحيون والمسلمون دون تمييز، سواء منهم اللاتينيون والمنشقون (أي عن الكنيسة الإغريقية الأرثوذكسية) وإن عدد المسلمين يتجاوز عدد المسيحيين قليلاً، كما أن عدد اللاتينيين يتجاوز عدد المنشقين".

وفيما وصل إلينا من الأخبار التي تتعلق بالصلات الاجتماعية بين النصارى والمسلمين وعدم وجود حدود فاصلة تميز بين الفريقين، نجد بعض ما يرشدنا إلى الحالة التي ظفرت فيها المؤثرات الإسلامية تدريجا بداخلين في الدين من بين الأهالي المسيحيين، الأمر الذي يرجع إلى تدهور قوة الكنيسة وحياتها الروحية.

وكان قد أصبح من الشائع المعروف لدى الأسر المسيحية أن تزوج بناتها من المسلمين، ولدى النساء المسيحيات ألا يبدين أية معارضة في أمثال هذه العلاقات[٦]. وتربى الأطفال من الذكور الذين نشئوا عن هذا الزواج المختلط تربية إسلامية، أما البنات فقد سمح لهن أن يتبعن دين أمهاتهن[٧]. ولم يكن لمثل هذا السماح

---

(١) Bizzi, fol. 60. b.

(٢) Bizzi. Fol. 35, a.

(٣) Farlati, vol. vii. Pp. 104, 107.

(٤) وكذلك شكا بعضهم من أن قصر رئيس الأساقفة قد امتلكه المسلمون، إلا أنه كان قد ترك خالياً ثمانى سنين، إذ إن رئيس الأساقفة، أمير وسيوس، الذي نبغ بين سنتى ١٥٧٩ – ١٥٩٨ وجد الصواب أن يغادر البلاد بعد أن هاجم الإسلام "بحماسة تفوق حد الحذر، وقذف في حق محمد وسب مبادئه الشيطانية". (Farlati, vol. vii. P. 107)

(٥) Bizzi, fol.9 حيث يقول: "قمت بالقداس في ذلك الصباح لكل الطائفة المسيحية اللاتينية تقريباً". وإذا وازنا ذلك بالإحصاء الذي أورده زمايفتش (fol. 227) فإنى أستطيع أن أجرؤ على الظن بأن الجماعة اللاتينية المسيحية بلغت في ذلك الحين ما يزيد على ألف نسمة...

(٦) Bizzi, fol. 27. b., 33. b.

(٧) Viniero, fol. 34؛ وكذلك جرت العادة في بعض قرى ألبانيا في عصر متأخر يرجع إلى أوائل القرن التاسع عشر. انظر:
W. M leakc: Travels in Northern Greece, Vol. i. p. 49. (London, 1835)

تأثير من الوجهة العملية من جانب رجال الكنيسة الذين أمروا أن يحرم الأمهات من دخول الكنائس ومن الاشتراك في القرابين المقدسة[١]. وكان من أثر ذلك (على الرغم من أن خوريي الكنائس طالما كانوا يغضون النظر عن أوامر رؤسائهم) أن كثيراً من أولاء الأمهات قد دخلن في دين أزواجهن. على أنهن تمسكن بالعادة التقليدية الخاصة بطقوس العماد التي كان يظن أنها دواء واق من البرص والسحرة والذئاب[٢]. وقد أبدت القساوسة استعداداً لإجراء هذا التقليد لأية امرأة مسلمة تريد أن تعمد أولادها[٣]. كذلك يتضح هذا الشعور الطيب بين أفراد الديانتين[٤] بما أبداه المسلمون في أعياد القديسين من النصارى؛ فمثلاً يقول ماركو بتزي إنه في يوم عيد القديس إيليا (الذي يظهر أن الألبانيين كانوا يقدسونه بنوع خاص) وفد على الكنيسة من المسلمين عدد كبير يماثل عدد الذين وفدوا عليها من النصارى[٥]. وتحدثنا الأخبار أن المسلمين الألبانيين حتى الوقت الحاضر يعظمون مريم العذراء والقديسين المسيحيين ويحجون إلى مقابرهم؛ كما أن المسيحيين، من جهة أخرى، يترددون على قبور أولياء المسلمين بقصد الشفاء من الأمراض أو الوفاء بالنذور[٦]. وفي مدينة كاليفاتشى **Calevacci**، حيث كان هناك ستون أسرة مسيحية وعشر أسرات من المسلمين، ساهم المسلمون في إعانة كاهن أبرشية، إذ كان للسواد الأعظم منهم زوجات مسيحيات[٧]. وفي مثل هذه الظروف قد لا ندهش إذا علمنا أن كثيرين اعتنقوا الإسلام علانية، بينما أرضوا ضمائرهم بقولهم إنهم اعتنقوا المسيحية بقلوبهم[٨]. وقد علل ماركوبتزي مثل هذه الزلة بثلاثة أوجه: الجري وراء المنفعة الدنيوية، والرغبة في تجنب أداء الضريبة، والنقص في ذلك العدد الملحوظ من رجال الكنيسة الأذكياء الذي يشبع حاجات البلاد الروحية[٩].

"وفي بعض القرى تزوج المسلمون بنساء من الإغريق، وتربى أبناؤهم تربية تركية على حين شب البنات على المسيحية، حتى إن لحوم الخنازير والضأن تؤكل على مائدة واحدة".

(١) Bizzi, fol. 38, b. Farlati, tom. Vii. P. 158.

(٢) Bizzi, fol. 10, b. Veniero, fol. 34.

(٣) وبعد وصول ماركو بتزي إلى أنتيفاري بزمن قصير، أبدت سيدة مسلمة تنتمي إلى طبقة راقية رغبتها في تعميد طفلها على يد رئيس الأساقفة نفسه الذي يخبرنا أنها شكت شكاة مريرة إلى أحد زعماء المسيحيين في المدينة بقولها "إننى لم أجد من مكانتي ما يعنني على إسداء تلك المكرمة إليها، الشيء الذي يفعله يومياً قساوستي عند طلب أى فرد من عامة الشعب" (fol. 10, b)

(٤) وللإطلاع على أمثلة حديثة من تلك العلاقات الودية القائمة بين أتباع كل من الديانتين الذين يعيشون جنباً إلى جنب في قرية واحدة، انظر:
Hyacinthe Hecquard: Histoire et description de la Haute Albanis (pp. 153, 162, 200) (Paris, 1858).

(٥) Bizzi, fol. 38, a.

(٦) Garnett, p 267.

(٧) Bizzi, fol. 36, b.

(٨) Id. Fol. 38, b. 37. a.

(٩) . Bizzi, fol 38 b; 61, a; 33, b.

وطالما يعزى الدخول في الإسلام إلى شدة وطأة الضريبة التي تفرض على المسيحيين، حتى لقد قيل إن جميع القرى ارتدت عن دينها القديم تجنباً لأداء الضريبة. ولما لم ترد أخبار مفصلة عن ذلك، فإن من المحال أن نحكم بما إذا كان هنالك حق أساس كاف للشكوى، أو إذا لم يكن هناك ما يبرر السلوك الذي سلكه المرتدون لاصطناع نوع من العذر لإخوانهم السابقين في الدين – أو أن ذلك كان في الحقيقة مبالغة من جانب رجال الكنيسة الذين خيل إليهم أن الدخول الصادق في الإسلام على أسس منطقية أمر مستحيل تمام الاستحالة. وكانت جزية الرأس بعد ذلك بقرن (في سنة ١٧٠٣) ستة ريالات عن كل شخص من الذكور، وكانت هذه الضريبة (عدا ضريبة تسمى الشياتارتشيو **Sciataraccio** كان مقدارها ثلاثة ريالات كل عام) هي العبء الوحيد الذي فرض على المسيحيين وحدهم[١]. ولابد أن تعلق الناس بدينهم كان من الضعف والوهن بحيث انصرفوا عن دينهم لا لشيء إلا ليتخلصوا من عقوبة تافهة كهذه. وإن مجرد وجود مثل هذه الجموع الحاشدة من المسيحيين في ألبانيا في الوقت الحاضر، ليدلنا على أن العبء لم يكن من الشدة بحيث يرغمهم على الكفر دون أن تكون لهم الخيرة في شيء آخر.

ولو وصل إلينا من المعلومات ما هو أكثر من تلك الشكاوى العامة الغامضة ضد "الجور التركي"، لكان في وسعنا أن نقرر على الوجه الأمثل إلى حد استطاع هذا الجور أن يكون له مثل هذا التأثير الذي ينسب إليه: ولكن يظهر أن الشاهد الذي أشرنا إليه لا يكاد يدعم مثل هذه النتيجة. وكان من أثر التقليد المعيب الذي سار عليه البلاط العثماني ببيع المناصب في الولايات عن طريق المزاد بأفحش الأثمان، والشك في مدى بقاء أمثال الذين يشغلون هذه المناصب، أن لجأ هؤلاء في كثير من الأحيان إلى جمع أقصى ما يستطيعون من الأموال باشتطاطهم في جمعها بكل وسيلة. على أنه قيل أن مثل هذه الأعباء كانت شديدة الوطأة على المسلمين كما كانت على النصارى[٢]. ومع ذلك كان لا يخلو في الواقع أن يجد موظف شره جائر، أن من الأيسر أن يجور على النصارى ولا يفعل ذلك بالمسلمين، ولا سيما حينما أغرى النصارى بأن يتصلوا بالبنادقة وبعض الولايات المسيحية الأخرى اتصالاً ينطوي على الخيانة، كما أثيرت حولهم الشكوك في شق عصا الطاعة واللجوء إلى الثورة.

ومهما يكن من شيء، فمن الممكن أن يوجد قليل من الشك فيما أحدثه نشاط الإسلام الحماسي وحياته الفتية من مقابل ما اتصف به رجال الكنيسة المسيحية من جمود وجهل. ولو رزق الإسلام في ألبانيا أئمة كثيرين من أمثال المُلاَّ الذي أثنى ماركوبتزي على إخلاصه ولطفه وتواده، وكان قد تعود أن يناقشه في المسائل الدينية، لكان من المحتمل أن يشق الإسلام طريقه خيراً مما كان[٣]. والظاهر أن الأمية كانت متفشية في السواد الأعظم من رجال الدين المسيحي، فإن معظمهم لم يعرف كيف يكتب برغم إلمامه الضعيف

---

(١) كان الريال البندقي في القرن الثامن عشر يساوى القرش التركي (Businello, p. 94).

(٢) Bizzi, fol. 12-13. Zmaievich, fol. 5.

(٣) Bizzi, fol. 10-11.

بالقراءة؛ وكانوا على جانب كبير من الجهل بواجبات مهنتهم المقدسة إلى حد أنهم لم يستطيعوا حتى إعادة صيغة الغفران عن ظهر قلب[١]. وعلى الرغم من أنه كان من واجبهم أن يلقوا القداس وسائر الخدمات باللغة اللاتينية، كان هنالك عدد قليل جداً يستطيع أن يدرك شيئاً منها، كما كانوا على جهل بأية لغة عدا لغتهم الأصلية، وكانوا لا يعرفون عن حقائق دينهم[٢] إلا معارف غامضة أخذوها بالتواتر. قد حمّل ماركوبتزي أسقفية البلاد القاصرة مسئولية هذه المساوئ من حيث قلة عدد رجال الكنيسة، وجهلهم بمهنتهم المقدسة، ومن حيث هذا العدد العظيم من المسيحيين الذين أدركتهم الشيخوخة، بل أدركهم الموت، دون أن يمنحوا التثبيت الكنسي، والذين ارتدوا عن دينهم في كل مكان تقريباً[٣]. وقد تنبأ بزوال المسيحية العاجل في هذه البلاد إذا لم تعالج هذه المساوئ[٤]. كذلك اتهم كثير من القسس باتخاذ الجواري وشرب الخمر[٥].

ومما يلاحظ في هذا المقام، أن القسيسين الألبانيين لم يكونوا حفظة على المطامع القومية والمثل العليا، كما كان رجال الكنيسة الأرثوذكسية في سائر ولايات الدول العثمانية، هؤلاء الذين برغم جهلهم أبقوا بين شعبهم على تقديس الديانة المسيحية التي كونت نواة الحياة القومية عند اليونان[٦]. وعلى خلاف ذلك، اعتز الألبانيون بشعور قومي كان منفصلاً تمام الانفصال عن العقيدة الدينية، كما اعتبروا بروح صادقة، أن الأتراك كما كانوا من قبل، سادة البلاد وأن من الواجب أن يطاعوا مهما فرضوا من أوامر[٧].

وهناك قصة عجيبة تتعلق بالتحول إلى الإسلام، قيل إنها حدثت لفقدان العلاقات الودية بين أحد القساوسة المسيحيين وشعبه، وقد جرت هذه القصة على الوجه التالي: "منذ أعوام كثيرة، عندما كان جميع البلاد يدين بالمسيحية، تمثلت هنالك في مدينة أسكدار صورة جميلة لمريم العذراء التي كان يهرع إلى معبدها كل عام آلاف من الناس من كافة أنحاء المملكة لتقديم هداياهم، وتأدية شعائرهم الدينية، والاستشفاء من عللهم. بيد أنه حدث لسبب من الأسباب أن وقع شقاق بين القسيس وقومه. وفي ذات يوم وفد قوم على

---

(١) Bizzi, fol. 31, b.

(٢) ld. Fol 60. b.

(٣) Id. Fol. 33, b. "ويرجع هذا إلى العدد القليل من القساوسة في تلك الأنحاء ومعرفتهم الناقصة بتلك المهمة، والعدد الكبير من المسيحيين الذين يشيخون. بل يموتون، دون أن يمنحوا التثبيت الكنسى ويرتدون عن دينهم في كل مكان تقريباً".

(٤) "وإذا لم تتلق ألبانيا معونة أكبر، فسوف تسوء حالة السواد الأعظم من المسيحيين في مدى سنوات قليلة، لقلة عدد الأساقفة والقساوسة الذين هم على جانب من الفهم" (ld, fol. 61. a.)

(٥) ld. Fol. 36, a. ld. Fol. 64. b.

(٦) Finlay, vol. v. pp. 153-4, Clark, p290.

(٧) "وهؤلاء التاعسون اعتقدوا اعتقاداً راسخاً بأنهم لم يرتكبوا خطيئة في عقد مثل ذلك الزواج (كتزويج البنات المسيحيات من المسلمين)، ونظراً لأن الترك هم سادة البلاد، فلا يمكن، ولا يجوز أن نعصي لهم أمراً عندما يأمرون بأى شيء" (Bizzi, fol. 38.b.)

الكنيسة في جموع زاخرة معلنين أنهم إذا لم يخضع القسيس لأمرهم فسوف ينبذون دين المسيح ويدخلون في دين محمد، ولما ظل القسيس متشبثاً برأيه، سواء أكان مصيباً أم مخطئاً، نزع قومه مسابحهم، وصلبانهم من أعناقهم وسحقوها بأقدامهم، ولما ذهبوا إلى أقرب مسجد، أدخلهم الملا في حظيرة المؤمنين الصادقين"(١).

وكان من جراء الإهمال والجمود اللذين ظهر بهما رجال الكنيسة أن أتيح لكثير من المساوئ والشذوذ أن تزحف إلى المجتمع المسيحي. ومن ذلك ما يسمونه إجراء عقود الزواج بدون تصديق الكنيسة أو عمل احتفال ديني، وهو ما نجد له مقارباً في الشريعة الإسلامية التي تجعل الزواج عقداً مدنياً. ولكي يعالجوا هذه السيئة لم يكن بد من أن يحرموا الزوج والزوجة من دخول الكنيسة حتى يمتثلا أمر القانون الكنسي ويذهبا لإقامة شعائرهم بطريقة منتظمة(٢).

وفي خلال القرن السابع عشر كانت الأحوال الاجتماعية، وسائر العوامل التي ذكرناها من قبل، قد آتت ثمرتها في كثرة عظيمة، وبدأ عدد الأهالي من المسيحيين يتدهور تدهوراً سريعاً، ففي فترة قصيرة تبلغ الثلاثين عاماً، وتقع بين سنتي ١٦٢٠، ١٦٥٠، قيل إن حوالي ٣٠٠ ألف من الألبانيين أسلموا(٣). وفي سنة ١٦٢٤ لم يكن في أبرشية انتيفاري كلها إلا ألفان من الكاثوليك، ولم يكن في المدينة نفسها إلا كنيسة واحدة. وفي نهاية هذا القرن لم تعد حتى هذه الكنيسة تستخدم في عبادة المسيحيين، إذ لم يبق فيها إلا أسرتان من الكاثوليك الرومان(٤). وفي سنة ١٦٥١ كان السواد الأعظم من الطائفة المسيحية وفي كافة أنحاء البلاد بوجه عام مؤلفاً من النساء، إذ كان الذكور من الأهالي قد ارتدوا عن دينهم واعتنقوا الإسلام بمثل هذه الجموع الكبيرة(٥). وظلت الحالة في نهاية هذا القرن على سوئها؛ ولما كان الكاثوليك في ذلك الحين أقل عدداً من المسلمين أصبحت النسب بينهم كنسبة ١: ١ ١/٣ تقريباً(٦)، على حين كانوا قبل ذلك بأقل من مائة عام يفوقون المسلمين عدداً حتى أصبحت النسبة بينهم ١٠: ١(٧). ونقص عدد الأهالي المسيحيين في رياسة الأسقفية في دوراتزو إلى ما يقرب من النصف في مدى عشرين سنة(٨)؛ وفي مدينة أخرى في أسقفية كرويا تحول الأهالي كافة من المسيحية إلى الإسلام في مدى ثلاثين عاماً(٩). وبرغم الاحتجاجات المتكررة والنظم التي أحدثها رؤساؤهم الروحانيون استمر خوريو الكنائس في تشجيع ما كان يصنعه أفراد كثيرون من رعاياهم من

---

(١) Garnett, p.268.

(٢) Bizzi, fol.28,b; 63, a.

(٣) Kyriakos. P12.

(٤) Farlatt, tom. Vii. Pp. 124, 141.

(٥) Marco Crisio, p. 202.

(٦) Zmaievich, fol. 227.

(٧) Bizzi. Fol. 60 b.

(٨) Zmaievich, fol. 137.

(٩) Id. Fol. 157.

الاعتراف الصريح بالإسلام مقترناً بالمشايعة السرية للدين المسيحي، وذلك بمنحهم إياهم سر القربان المقدس؛ وكان من أثر ذلك أن أبناء أمثال هؤلاء الأفراد الذين نشئوا نشأة إسلامية فقدوا إلى الأبد شعورهم نحو الكنيسة المسيحية[١]. كذلك ظلت الأسر المسيحية تزوج بناتها من المسلمين، وظل خوريو الكنائس يؤازرون مثل هذه الروابط بمنح السر المقدس أمثال أولاء النساء[٢]، برغم ما أظهره رؤساء رجال الكنيسة من سخط على أي تساهل من هذا القبيل[٣].على أن مثل هذا التصرف من جانب صغار رجال الكنيسة لا يؤخذ كدليل على أية حماسة بالغة منهم في سبيل تزويد رعاياهم بالفائدة الروحية بإزاء الاتهامات الموجهة إليهم، فإن معظمهم قد اتهم بأنهم خلعاء جالبون للعار، قلما ذهبوا إلى الاعتراف؛ وأدمنوا الانغماس في ملذات الشراب في بيوتهم أيام الأعياد، وباعوا أملاك الكنيسة، وطالما تغيبوا عن أبرشياتهم، فإذا أدبتهم الكنيسة نجحوا في التخلص بوضع أنفسهم تحت حماية الأتراك[٤]. أما الفرنسسكان المصلحون والأبزرفانت[†] الذين كانوا قد أرسلوا ليمدوا الشعب بحاجاته الروحية فإنهم لم يصنعوا شيئاً إلا المنازعات ومقاضاة بعضهم بعضاً؛ وقد انطوى كثير من المنازعات على فضائح عامة الشعب المسيحي وإهمال الرسالة التي جاءوا من أجلها[٥]. وفي منتصف القرن السابع عشر خلا خمس أبرشيات ألبانية من اثنتي عشرة أبرشية؛ فلم يزر أسقفية بولاتى **Pullati** أحد من الأساقفة مدة ثلاثين عاماً، ولم يكن هناك إلا قسيسان في منطقة بلغ عدد سكانها ٦٣٤٨ نفساً[٦]. وفي بعض الأبرشيات الواقعة في داخلية البلاد، لم يكن هناك قساوسة في فترة تزيد على أربعين سنة؛ ولم يكن هذا راجعاً بحال إلى ضغط "الجور التركي"؛ لأنه عندما أرسل أخيراً أربع بعثات من الفرنسسكان قرروا أنهم استطاعوا أن يجوسوا خلال البلاد ويمارسوا مهنتهم المقدسة دون أن يعترضهم أي شيء في هذه السبيل[٧]. وكان أسقف سبا قد أقام مدة طويلة في البندقية، مما أدى إلى إلحاق خسارة فادحة بأبرشيته. وقد قيل إنه عاش حياة حافلة بالرذائل، وكان قد أناب عنه قسيساً جاهلاً كان معروفاً بخلاعته وسوء خلقه، وقد باشر هذا الرجل أعماله الدينية بين ١٢٤٠٠ نفس. ويقول الزائر الديني إنه "في خلال غياب الأسقف استهدفت الأسقفية لخطر نتيجة لما جره على نفسه من تحطيم روحه، والعمل على خراب النفوس التي تحت سلطانه الديني وخراب أملاك الكنيسة"[٨]. وكان أسقف أسكدار، في نظر رجال كنيسته وقومه، رجلاً ظالماً لم يفلح في

---

(١) Id. Fol. II, 159.

(٢) ld. Fol. 13

(٣) Bizzi, fol. 28, b. Farlati. Vol. vii. 158.

(٤) Zmaievich, fol. 13-14.

(†) هم طائفة من رهبان الفرنسسكان انفصلوا عن طائفة أخرى من هؤلاء في القرن الخامس عشر.

(٥) Information Circa la mission d' Albania, fol. 196.

(٦) Crisio, fol. 204.

(٧) Fra Bonaventura, fol. 201.

(٨) Marco Crisio, fol. 202, 205.

الاحتفاظ بمركزه إلا بمعونة الأتراك[١]؛ ويشكو زمايفتش **Zmaievich** من الأساقفة عامة الذين أثقلوا كاهل الأبرشيات القائمة في أسقفيتهم بضرائب إجبارية[٢]. ويظهر أن السلطان كان قد منح رجال الدين المسيحي السلطة لأن يفرضوا رسوماً على رعاياهم. ومن ثم سمح لرياسة أسقفية أنتيفارى (١٥٩٩- ١٦٠٧) أن "تفرض وتتسلم" قطعتين من فئة الأسبير **Asper** من كل أسرة مسيحية، واثنتي عشرة قطعة عن الزواج الأول (وضعفي هذا المبلغ عن الزواج الثاني، وأربعة أضعافه عن الثالث) وقطعة ذهبية من كل أبرشية في السنة. ويظهر أنه كان من اليسير الحصول على مساعدة السلطات التركية في جباية هذه الرسوم[٣].

ولم يكن في كافة أنحاء ألبانيا مدرسة مسيحية واحدة[٤]؛ وكان القسس في جهل مطبق. أرسل بعضهم للدراسة في إيطاليا؛ ولكن ماركو كرزيو **M. Crisio** ينحى باللائمة على هذه الطريقة، لأنه أمثال هؤلاء القسيسين كانوا في خطر من أن يجدوا الحياة في إيطاليا قد بلغت من المتعة بحيث كانوا يرفضون العودة إلى وطنهم. فإذا كان الكهنوت على هذا النحو من الجهل وإهمال الواجبات المقدسة، فلا عجب إذا عرفنا أن عامة الشعب كانوا لا يعرفون حتى مبادئ دينهم، وأن أضرارا كثيرة ومفاسد جمة قد نجمت في مجتمعهم وهي التي "عملت أقصى ما يمكن من التخريب لكرمة الرب"[٥]. وقد عاش كثير من المسيحيين أعواماً يتسرون النساء علانية مع استمرارهم في منح الأسرار[٦]، على حين كان لآخرين منهم عدد من الزوجات[٧]. وفي هذه العادة الأخيرة نلاحظ تشابهاً بين عادات الطائفتين — النصارى والمسلمين — وهو تشابه يزداد وضوحاً باعتراف رجال الكنيسة بكفالة المسلمين في تعميد أطفال المسيحيين، على حين ظل القسس يجيزون التقليد القديم الخاص بتعميد أطفال المسلمين[٨].

ولما كانت الكنيسة المسيحية في ألبانيا في النصف الأخير من القرن السابع عشر على الحالة التي وصفناها، كان أتفه البواعث يكفي لإحداث ارتداد واسع النطاق. وإن العقاب الذي وقع على الكاثوليك الثائرين في النصف الأخير من هذا القرن كان عاملاً حاسماً أكثر مما ينبغي لإحداث ميول كانت تجذبهم نحو الإسلام وتجعل جموعاً كبيرة منهم يخرجون على الكنيسة المسيحية. ويظهر أن الحركة الثورية التي أشرنا إليها والتي أثارها جورج التاسع والثالثون من رؤساء أساقفة أنتيفاري (١٦٣٥- ١٦٤٤) الذي حاول عن طريق أساقفة دوراتسو وشقودرة وأليسيو **Alessio** أن يحرض زعماء جماعة المسيحيين على التآمر على الحكم التركى

---

(١) Id. Fol. 205.

(٢) Zmaievieh, fol. 113.

(٣) Farlati, tom. Vii. P. 109 Bizzi fol. 19. b.

(٤) Marco Crisio. Fol. 205.

(٥) Zmaievich, fol. 11.

(٦) Id. Fol. 32.

(٧) Crisio fol. 204.

(٨) Zmaievich. Fol. 11, Farlati. Vol. iii. P 151.

وتسليم زمام البلاد إلى القوة المسيحية المجاورة، وهى جمهورية البندقية. ولما كانت البندقية في عهده في سلم مع الأتراك، لم تحن فرصة مناسبة لتدبير هذه المؤامرة إلا أنه في سنة ١٦٤٥ نشبت الحرب بين تركيا وهذه الجمهورية، وقام البنادقة بمحاولة خائبة للاستيلاء على مدينة أنتيفاري التي كانت في حوزتهم قبل الفتح العثماني بأكثر من ثلاثة قرون (١٢٦٢- ١٥٧١). أما الكاثوليك الألبانيون الذين تحيزوا للعدو وأعانوه سراً، فقد عوقبوا عقاباً شديداً وحرموا امتيازاتهم، على حين كوفئ المسيحيون اليونان (الذين كان لديهم كل ما يثير مخاوفهم من أن يعود حكم البنادقة فظلوا موالين للحكومة التركية) مكافأة سخية، ونوهوا باسمهم باعتبارهم مخلصين لبلادهم. وأصبح كثير من الكاثوليك، إما مسلمين أو منحازين إلى الكنيسة الرومانية. وهذه الحقيقة الأخيرة ذات مغزى كبير من حيث إنها تدلنا على أنه لم يكن ثمة اضطهاد للمسيحيين كهذا؛ كما لم تكن هنالك أية محاولة لحملهم على قبول الإسلام. وقد تصرف الكاثوليك الذين أسلموا هذا التصرف ليتجنبوا حرج مركزهم بعد أن أخفقت مؤامراتهم، واستطاعوا أن يحققوا نفس الغرض وأن يبقوا في الوقت نفسه على دينهم المسيحي بالانضمام إلى الكنيسة الرومانية التي اعترفت بها الحكومة التركية رسمياً، بل كانت تلقى كذلك رعاية سامية في أنتيفاري في ذلك الحين، حتى إن هؤلاء الذين تهاونوا في ذلك العمل لم يكن تعلقهم بالدين المسيحي إلا يسيراً جداً. وتنطبق هذه الملاحظة نفسها على كثرة حالات الدخول في الإسلام في السنين المتعاقبة، فيعزو زمايفتش دخولهم في الإسلام في بعض الحالات إلى الرغبة في تجنب أداء الجزية. ولكن ليس من المعقول؛ كما يتضح ذلك مما ذكرناه، أن هذا السبب كان هو الباعث الوحيد القاطع.

في سنة ١٦٤٩ اندلعت ثورة أخرى أكثر تفاقماً، وكان يوسف ماريه بونالدو رئيس أساقفة أنتيفاري (١٦٤٦- ١٦٥٤) هو المحرض الأول على الحركة. وتآمر القواد من أهالى مدن أنتيفاري وشقودرة ومدن أخرى على أن يفتحوا أبوابهم لجيوش جمهورية البندقية. ولكن هذه المؤامرة أخفقت كذلك. وقمعت الجيوش التركية هذه الثورة بقوة وعنف، وساعدهم على ذلك الخلافات التي قامت بين المسيحيين أنفسهم، وأبعد كثيرون من الألبانيين الذين كان يخشى تأثيرهم، من بلادهم إلى داخل الممتلكات التركية، وعبرت قوة مؤلفة من ٣٠٠٠ رجل إلى الحدود، ودخلت أراضي البندقية، أما البقية الباقية منهم فقد أرهبوا بإنشاء الحصون وتسيير الجنود في المقاطعات المتمردة على حين فرضت مغارم فادحة على المتذمرين[١]. ولم يتخذ الكتاب المسيحيون الذين شكوا لسوء الحظ من الضرائب والمضايقات المجحفة التي كان يضيق بها الأتراك على الألبانيين حتى يدخلوا في الإسلام[٢]، إلا أساليب عامة، ولم يمدونا بتفاصيل تمكننا من الحكم على ما إذا كان مثل هذه الشكاوي مبرراً بالوقائع الصحيحة. ويمهد زمايفتش لما ذكره من ارتداد ألفي نفس عن دينهم بتعديد

---

(١) Farlati. Vol. vii. Pp. 126 – 32. Zmaievich, fol. 4-5 fol. 20.

(٢) "أخذ عدد عظيم في أن يترك تدريجا المسيحية ليعفي من أداء الضرائب وسائر الإتاوات المجحفة" (Farlati, tom. Vii. P. 311)

الضرائب وسائر الأعباء التي كان على المسيحيين أن يتحملوها، إلا أنه يقول إن كل هذه الأمور كان يشترك فيها المسلمون كذلك، ما عدا جزية الرأس التي كانت تبلغ ستة ريالات في السنة لكل فرد من الذكور، وما عدا ضريبة أخرى تسمي شياتارتشيو **Sciataraccio** وكانت تبلغ ثلاثة ريالات في السنة[١]. وختم بقوله: "ولما كانت هذه الضرائب طعنة في أوهى جوانب الأمة أعني الفائدة المادية، التي تقدرها وتميل إليها ميلاً فذاً بالطبيعة أو بالضرورة، فقد قدمت سبباً وجيهاً لإظهار اللوعة والأسى على فقد نحو من ألفي نفس ارتدوا عن دينهم الصحيح حتى لا يذعنوا للجزية"[٢]. ولا شيء فيما ذكره في تقريره يدلنا على أن الضرائب التي لم يكن بد من أن يؤديها الكاثوليك كانت عبئاً لا يحتمل، بلغ من شدة وطأته أنه أجبرهم على ترك عقيدتهم. وعلى الرغم من أنه نسب كثيراً من حالات التحول للإسلام إلى الرغبة في التخلص من الجزية، إلا أنه يقول بوضوح إن هذه الردة عن الدين المسيحي ترجع في أساسها إلى الجهل المطبق الذي ظهر به رجال الكنيسة[٣]. كما ترجع إلى حد كبير إلى ما قاموا به من منح هؤلاء الذين كانوا يجهرون بالإسلام، ويظلون مشايعيين سراً للعقيدة المسيحية[٤]، أسرار الكنيسة المقدسة. ويقول في موضع آخر حين كان يتحدث عن رجال الكنيسة الذين لم يكونوا لائقين للقيام بمنصب خوريين للكنائس، وعن مباشرتهم منح الجاحدين بالدين والمسيحيين المتسترين أسرار الكنيسة: "هذان هما على وجه التحديد الدافعان اللذان نجمت عنهما كل الخسائر التي عانتها الكنيسة المسيحية في ألبانيا"[٥]. وثمة قليل جداً من الشك في أن الارتداد عن المسيحية على هذا النحو الواسع النطاق في ذلك الحين كان نتيجة لسلسلة طويلة من المؤثرات التي تشبه تلك التي عرضنا لذكرها في الصفحات السابقة، وأن التخلص من أداء الجزية كان آخر حلقة من هذه السلسلة.

أما الجهود النشيطة الفعالة التي قام بها المسلمون أنفسهم ليضموا المسيحيين إلى حظيرة الإسلام، فليس من اليسير أن نتوقع معرفة شيء منها من تقرير أي زائر ديني. إلا أننا نجد إشارة إلى إحدى المقاطعات التي كان سكانها قد اقتبسوا بمعاشرتهم للترك "رذائل هؤلاء الكفار" وأن أحد الأسباب الرئيسية لتخليهم عن العقيدة المسيحية إنما كان تعاقدهم على الزواج من النساء التركيات[٦]. وليس من شك في أنه كان ثمة مؤثرات إسلامية قوية فعالة، كما كانت الحال في أبرشيتي بشاشيا **Biscascia** وباسيا **Basia** اللتين تعرض مجموع أهليهما الذين يبلغ عددهم نحو ألف شخص "لخطر ظاهر من الارتداد عن دينهم بسبب الحاجة إلى راع

---

(١) Zmaievich. Fol. 5.

(٢) Id. Fol. 5.

(٣) Zmaievich, vol. 15, 197.

(٤) Id. Fol. 11.

(٥) Zmaievich, fol. 137.

(٦) Id. Fol. 149.

للكنيسة"، وطالما "غرر بهم للخروج عن دينهم، وأصبحوا في حاجة إلى رعاة للكنيسة، عقـــلاء متحمســـين، يشجعونهم في دينهم"(١).

وتكلم زما يفتش عن إحدى الأسر المسيحية العريقة النبيلة في ضواحي انتيفاري التي كانت تتمثـــل في ذلك الحين في أخوين كان أكبرهما قد "راوده" المسلمون البارزون في ناحيته على ترك دينه، وكان بينه وبينهم صلة وثيقة، ورغب الأصغر في دراسة تهيؤه لمنصب الكهنوت الذي "يمكنه من تقديم مساعدة كبيرة للكنيســة المسيحية عن طريق التقدير السامي الذي كان يظهره الأتراك لأسرته التي كانت برغم رقة حالها تلقي احترامـــاً من جميع الناس"(٢). وهذا في الواقع تفسير آخر للحقيقة القائلة بأن المسلمين لم يسيئوا معاملـــة المســـيحيين في شيء مطلقاً، إلا إذا ظهروا بمظهر الساخطين على الحالة السياسية. فإن زمايفتشن الذي كان هو نفسه ألبانيـــاً واتخذ مقامه في أبرشيته بدلا من انتقاله إلى أرضي البندقية، كما فعل فيما يظهر كثير مـــن رؤســـاء أســـاقفة أنتيفاري(٣). كان قد قوبل "بحفاوة بالغة" و "ملاطفة رائعة" من عامة موظفي الأتراك، بل من سمو باشا ألبانيـــا نفسه الذي منحه مكانة سامية في ديوانه، وكان دائماً يصحبه إلى الباب عند انصرافه ويستقبله عند الباب لدى وصوله(٤). هذا "المتبربر" الذي "دل على أنه أكثر شبهاً بمسيحي متدفق الإخلاص منه بتركي" قد قـــدم أدلـــة مادية على أنه يضمر شعوراً طيباً نحو المسيحيين بإعفائهم – حين طلب رئيس الأساقفة منه ذلك – من الجزية المستحقة للعام المقبل من أربع مدن مختلفة(٥). وإذا كان أحد من رجال الكنيسة قد عومل من جانب الأتـــراك معاملة سيئة، فيظهر أن ذلك كان يرجع بوجه عام إلى اتهامهم بمراسلة أعداء الأتراك مراسلة تنطـــوي علـــى خيانة. كذلك يظهر أن زيارات رجال الدين المسيحي إلى إيطاليا قد أثارت بحق وفي كثير من الحالات أمثـــال هذه الريب. وبغير ذلك يظهر أنه لم يكن لدى رجال الكنيسة سبب للشكوى من المعاملة التي لا قوهـــا مـــن المسلمين. بل إن زمايفتش ليتحدث عن خوري كنيسة بأنه كان "محبوباً جداً من رؤساء الأتراك"(٦). ولـــيس من شك في أنه كان في ألبانيا نظـــائر لحالـــة قســـيس في أبرشـــية تريبنجـــة **Trebinje** في هرتســـيجوفينا **Herzegovina** اتهم في النصف الأول من القرن الثامن عشر، بسبب علاقاته الودية مع المسلمين، بأنـــه عقـــد النية على الدخول في الإسلام. وكان من أثر ذلك أن بعث به أسقفه إلى رومة تحت حراسة آمنه(٧).

---

(١) Id. Fol. 143-4.

(٢) Id. Fol. 22.

(٣) Farlati, tom. Vii. P. 141.

(٤) Zmaievich, fol. 7, 17.

(٥) Id. Fol. 9.

(٦) Id. Fol. 141.

(٧) Farlati. Vol. vi. P. 317.

ويظهر أنه ليس في الفترات المتعاقبة من تاريخ ألبانيا ما يثبت حدوث ارتداد عن المسيحية واسع النطاق كالذي حدث في القرن السابع عشر، ولكن كان هناك حالات عرضية من الدخول في الإسلام حتى عصور حديثة، وفي جنوب ألبانيا في بلاد التوسك **Tosks** بلغ من كثرة عدد الأهالي المسلمين أن أصبح المسيحيون في حالة سيئة، ويروى عن الكرمورتادين **Karamurtads**، وهم أهالي ست وثلاثين قرية بجوار بوجنياني **Pogoniani**، أنهم كانوا حتى نهاية القرن الثامن عشر يدينون بالمسيحية. ولكن لما وجدوا أنفسهم عاجزين عن سد الهجمات المتوالية التي شنها عليهم جيرانهم المسلمون من أهالي ليسكوفيكي **Leskoviki**، اجتمعوا في كنيسة وابتهلوا إلى القديسين أن يصنعوا معجزة لمصلحتهم، وأقسموا أن يصوموا حتى عيد الفصح انتظاراً للمعونة الإلهية، ولكن عيد الفصح أقبل عليهم و لم تصنع المعجزة، ولهذا دخل الأهلون كافة في الإسلام، وسرعان ما حصلوا بعد على الأسلحة التي احتاجوا إليها وذبحوا أعداءهم القدامى في ليسكوفيسكي واستولوا على أراضيهم[1]. و لم يكن يسمح ألبتة للطائفة الدينية في ألبانيا أن تقف في طريق نزاع قبلي. و لم يكد يأتي القرن التاسع عشر حتى غيرت القبائل والقرى الألبانية دينها لأسباب تافهة جداً. فيقال إن فريقاً من إحدى القبائل المسيحية دخلوا في الإسلام لأن قسيسهم الذي وكل إليه العمل في قرى كثيرة وزارهم أولاً، قد أصر على أن يقول القداس في ساعة مبكرة غير مناسبة[2].

وقد قيل إن المسلمين في ألبانيا في الوقت الحاضر يبلغ عددهم حوالي المليون، وأن المسيحيين نحو ٤٨٠ ألف، ولكن ضبط هذه الأرقام يحتاج إلى تحقيق. والمرديون كلهم نصارى، خضعوا للسلطان على شرط ألا يسمح لمسلم أن يستقر في أراضيهم، ولكن أنصار كلتا العقيدتين المتناقستين قد وجدوا في كل القبائل الأخرى تقريباً. وقد قيل إن جميع أهالي ألبانيا الوسطى مسلمون تقريباً، وإن أتباع الإسلام يؤلفون نحو ستين في المائة من أهالي ألبانيا الشمالية. ويحتفظ الأهالي المسيحيون بأكبر نسبة في ألبانيا الجنوبية ولا سيما في المقاطعات المتاخمة لبلاد اليونان.

الإسلام في الصرب: كانت مملكة الصرب أول الأمر تؤدي الجزية للعثمانيين في سنة ١٣٧٥م، وفقدت استقلالها بعد هزيمة منكرة في كسوفو **Kossovo** (١٣٨٩)، حيث قتل ملك الصرب والسلطان التركي كلاهما في ميدان القتال. ودخل خليفتا الملكين المقتولين في تحالف ودي، فاعترف ستيفن الأمير الصربي الشاب بسيادة تركيا، وزوج أخته من بايزيد السلطان الجديد، وعقد معه تحالفاً أخوياً. وفي موقعة نيكوبولس **Nikopolis** (١٣٩٤) التي ضمنت للأتراك امتلاك كافة أرجاء جزيرة البلقان ما عدا المقاطعة التي تحيط بالقسطنطينية، وحوّل الاتفاق العربي مصير الموقعة المتقلب فوهب النصر للأتراك. وفي ساحة أنقرة (١٤٠٢)، عندما سحقت القوة التركية، وأخذ تيمور بايزيد نفسه أسيراً، كان ستيفن يشهد المعركة بجيوشه الصربية، فحارب بشجاعة

---

(١) Eliot, p. 401.

(٢) Id. P. 392.

من أجل زوج أخته، وبدلاً من أن ينتهز الفرصة لدعم استقلاله ظل مخلصاً لعهده، ووقف إلى جانب أبناء بايزيد حتى استردوا عرش أبيهم، ثم تمتعت الصرب بشبه استقلال في عهد جورج برانكوفتش. **G. Brankovich** خليفة استيفن، ولكنه عندما رفع لواء الثورة سنة ١٤٣٨ غلب الأتراك على المدينة مرة أخرى، وحينئذ لم يكن بد من أن تعترف الصرب بسيادة المجر إلى حين. ولكن هزيمة جون هنيادي **J. Hunyady** سنة ١٤٤٤ قد حملتها على أداء الجزية مرة أخرى، وانتهي أمرها أن صارت إيالة تركية في سنة ١٤٥٩.

ولا يبعد أن يكون أهل الصرب الذين اعتقدوا الإسلام بعد موقعة كسوفو كانوا على علم بمصير الطائفة المسلمة القليلة العدد التي كانت قد انقرضت من بلاد المجر قبل ذلك بنحو قرن، ولذلك آثروا سيادة الأتراك على سيادة المجريين. ويورد ياقوت الوصف التالي لاجتماعه حول سنة ١٢٢٨ ببعض أفراد هذه الجماعة من أتباع النبي في أوربا الوسطي، وهو يعزو إسلامهم إلى هؤلاء المسلمين الذين كانوا قد استوطنوا بين ظهرانيهم، قال ياقوت: "وجدت بمدينة حلب طائفة كثيرة يقال لهم الباشغردية (الباشكير)، شقر الشعور والوجوه جداً، يتفقهون على مذهب أبي حنيفة ﷺ، فسألت رجلاً منهم استعقلتُه عن بلادهم وحالهم، فقال: أما بلادنا فمن وراء القسطنطينية في مملكة أمة من الإفرنج يقال لهم الهنكر (الهنغاريون = المجريون) نحن مسملون، رعية لملكهم، في طرف بلاده نحو ثلاثين قرية، كل واحدة تكاد أن تكون بُلَيدة. إلا أن ملك الهنكر لا يمكننا أن نعمل على شيء منها شيء سوراً، خوفاً على أن نعصي عليه ونحن في وسط بلاد النصرانية، فشمالينا بلاد الصقالبة، وقبلينا بلاد البابا يعني رومية (والبابا رئيس الإفرنج وهو عندهم نائب المسيح، أمير المؤمنين عند المسلمين ينفذ أمره في جميع ما يتعلق بالدين في جميعهم)، وقال: وفي غربينا الأندلس، وفي شرقنا بلاد الروم، قسطنطينية وأعمالها، قال: ولساننا لسان الإفرنج، وزينا زيهم، ونخدم معهم في الجندية، ونغزو معهم كل طائفة، لأنهم لا يقاتلون إلا مخالفي الإسلام. فسألته عن سبب إسلامهم مع كونهم في وسط بلاد الكفر، فقال: سمعت جماعة من أسلافنا يتحدثون أنه قدم إلى بلادنا منذ دهر طويل سبعة نفر من المسلمين من بلاد بلغار، وسكنوا بيننا، وتلطفوا في تعريفنا ما نحن عليه من الضلال، وأرشدونا إلى الصواب من دين الإسلام، فهدانا الله والحمد لله، فأسلمنا جميعاً وشرح الله صدرنا للإيمان، ونحن نقدم إلى هذه البلاد ونتفقه، فإذا رجعنا إلى بلادنا أكرمنا أهلها وولونا أمور دينهم"(١).

وظل الإسلام قائماً بين الباشغردية من أهل المجر حتى سنة ١٣٤٠ حين أرغم الملك شارل روبرت جميع رعاياه، الذين لم يكونوا مسيحيين بعد، أن يعتنقوا الدين المسيحي أو يغادروا البلاد(٢).

لهذا ربما كان يسر المسلمين من أهل الصرب أن يتخلصوا من حكم المجر، كمواطنيهم المسيحيين، لأنه لما عرض عليهم هؤلاء أن يختاروا بين الحكم الروماني الكاثوليكي في المجر وحكم الأتراك الإسلامي، دعاهم

---

(١) ياقوت: معجم البلدان ج ٢، ص٣٨ (طبعة القاهرة ١٣٢٣).

(٢) Geographie d' Aboul' Féda, traduite par M; Reinaud, tome ii. Pp. 294- 5.

تقديس الصربيين الكنيسة الإغريقية إلى إيثار تسامح المسلمين على روح اللاتينيين التي جبلت على حب التبشير بمذهبهم والتي لا تعرف المصالحة واللين. ومن ثم تمثل أسطورة قديمة مشاعرهم في ذلك الحين: اشتبك الأتراك المجريون في حرب، وبحث جورج برانكوفتش عن جون هنيادي وسأله: "ماذا تصنع لو انتصرت؟" فأجاب: "أؤسس العقيدة الرومانية الكاثوليكية"، ثم بحث عن السلطان وسأله: "ماذا تصنع لديننا لو انتصرت؟" فأجاب: "أقيم كنيسة إلى جانب كل مسجد، وأدع مطلق الحرية لكل فرد في أن يصلي في أيهما شاء"(١). وقد أرغمت خيانة بعض القسوس الصربيين حامية بلغراد على التسليم للأتراك(٢). كذلك رحب صربيو سمندرية **Semendria** الواقعة على نهر الدانوب بالجيوش التركية التي خلصتهم من حكم جيرانهم الكاثوليك سنة ١٦٠٠(٣).

بدأ انتشار الإسلام بين الصربيين بعد موقعة كسوفو مباشرة، عندما تحول عدد كبير من أشراف الإقطاعيين القدامى بمحض إرادتهم إلى دين محمد إذ طال بهم العمر و لم يلجئوا إلى البلاد المسيحية المجاورة، حتى يضمنوا سلامة ما كسبوه من مزايا قديمة(٤). وقد وجد السلطان في هؤلاء الأشراف الداخلين في الإسلام أشد الدعاة تحمساً للدين الجديد(٥). ولكن السواد الأعظم من الشعب الصربي ظل متمسكاً بدينة القديم في خلال الفترة التي تحملوا فيها المتاعب والمشاق. أما في ستار سربيا **Stars Serbia** أو الصرب القديمة وحدها(٦). التي تؤلف الآن الجزء الشمالي الشرقي من ألبانيا الحديثة، فقد كان هناك عدد هائل نوعاً ما من هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام، بل لقد سار انتشار الإسلام هنا بخطى وئيدة جداً حتى القرن السابع عشر، عندما حرض النمساويون أهل الصرب على إذكاء نار الثورة، حتى إذا ما أخفقت هذه المحاولة، هاجر أرسنيوس الثالث تسرنويفتس **Tsernoïevich**، بطريق ذلك الوقت في سنة ١٦٩٠ مع ٤٠٠٠٠ أسرة صربية يجتازون الحدود إلى بلاد المجر. وفي سنة ١٧٣٩ حدثت هجرة مؤلفة من ١٥ ألف أسرة بزعامة أرسنيوس الرابع جوفانوفتش، وأوشك هذا الجزء من البلاد أن يتجرد من أهاليه الصربيين الأصليين(٧).

---

(١) Enrique Dupuy de lôme: Los Esclavos y turqufa, pp. 17 – 18. (Madrid, 1877).

(٢) De la jonquiére, p. 215.

(٣) Id. P. 290.

(٤) Kanitz, P. 37.

(٥) Id. Pp. 37 – 8.

(٦) أورد ما كنزي وإربي Irby (P. 243) خريطة لهذه البلاد: وهي تشمل بريزرين Prizren حاضرة الصرب القديمة، وإيبك Ipek مقر البطريق الصربي، والمنطقة التي وقعت فيها معركة كسوفو.

(٧) Kanitz, p. 37.

وضغط المستعمرون الألبانيون من الجنوب على البلاد التي خلت بهجرة هؤلاء الهاربين: وكان السواد الأعظم من هؤلاء الألبانيين عند وصولهم من الرمان الكاثوليك. ولكنهم بعد أن استقروا في بلاد الصرب القديمة أسلموا تدريجاً، و لم يبق اليوم من الألبانيين من الرومان الكاثوليك إلا بقية صغيرة، على الرغم من أن أفواجاً جديدة كانت تتجمع إليهم من الجبال من حين إلى حين. على أن هؤلاء الجدد كانوا ينسجون عادة على منوال أسلافهم، فيدخلون في الإسلام بعد قليل(١).

أخذ الإسلام بعد الهجرة، ينتشر بصورة أسرع بين البقية الباقية من أهالي الصرب، وكان رجال الكنيسة من الصربيين في غاية الجهل والأمية، فلم يستطيعوا قراءة كتب خدمتهم الدينية إلا في صعوبة، و لم يعرف أحد منهم الكتابة إلا نادراً، و لم يعظوا الناس أو يعلموهم أصول الدين بطريقة الحوار. ومن ثم كان من النادر أن تجد في جميع القرى شخصاً عرف صلاة الرب وعرف عدد الوصايا، حتى القسس أنفسهم كانوا لا يقلون جهلاً بهذه المسائل الدينية(٢). وبعد ثورة ١٦٨٩م عين الباب العالي بطريق إيبك، الرئيس الديني للصرب، ولكن في سنة ١٧٣٧، كان من أثر قيام ثورة أخرى أن تعطلت البطركية الصربية تعطلاً تاماً، وجعلت الكنيسة الصربية تابعة للبطريق الإغريقي في القسطنطينية. وامتلأت الكنائس بالأساقفة الإغريق الذين ظاهروا البكوات والباشوات الأتراك على ابتزاز المسيحيين المساكين، وحرمت لغتهم القومية وجمعت كتب الصلوات السلافية القديمة وغيرها وأرسلت إلى القسطنطينية(٣).

فلا عجب أن يصيب الدين المسيحي انحلال وتدهور مع قيام رجال على الكنيسة من هذا القبيل؛ مثال ذلك أننا نجد في شعب جورا **Gora** (في مقاطعة برزرين الذين كانوا قد أخذوا يدخلون في الإسلام على أثر الهجرة الكبرى سنة ١٦٩٠، أن الصربيين ما زالوا متعلقين بالمسيحية، طالما لجئوا إلى أسقف برزرين الإغريقي ليبعث إليهم قسوساً ولو من حين لآخر، ولكن مساعيهم كلها ذهبت أدراج الرياح، فظل أبناؤهم من غير تعميد، ونظمت أعمال العرس والدفن من غير مباركة الكنيسة، وآلت المباني المقدسة إلى البلي(٤). كذلك في مقاطعة أوبولجة **Opolje** المجاورة، لا يبعد أن يكون السواد الأعظم من الأهالي المسلمين الآن الذين يبلغ عددهم ٩٥٠٠ نفس، منحدرين من أهالي هذه البقعة الذين ينتمون إلى أصل سلافي(٥). وفي مستهل القرن السابع عشر وجد بتزي في مدينة جانيفو **Jagnevo** ١٢٠ أسرة رومانية كاثوليكية و ٢٠٠ أسرة إغريقية و

---

(١) Mackenzie and Irby. PP. 250 – 1.

(٢) Farlati, vol. vii. Pp. 127 – 8.

(٣) Mackenzie and Irby, pp. 374 – 5 Kanltz, 39.

(٤) Id. Pp. 39 – 40.

(٥) Kanitz, p. 38.

١٨٠ أسرة إسلامية[١]. وبعد ذلك بأقل من مائة عام، كان كل بيت في المدينة يعد مسلماً، لأن رب كل أسرة أسلم و لم يبق على المسيحية إلا النساء وبعض الأطفال[٢]. وحول منتصف القرن الثامن عشر كانت قرية لجورس **Ljurs** بأسرها كاثوليكية. ففي سنة ١٨٦٣ كانت هناك ٩٠ أسرة مسلمة و٢٣ أسرة مسيحية، أما في الوقت الحاضر فإن هذه القرية وما جاورها من القرى قد نبذ أهلها المسيحية عن آخرهم[٣]. وكان لا يزال إلى وقت حديث بعض آثار باقية من دينهم المسيحي القديم، قائمة في بعض القرى كإحراق جذع الشجرة ليلة عيد الميلاد وغير ذلك، بيد أن أمثال هذه العادات أخذت تزول في الوقت الحاضر.

الإسلام في الجبل الأسود: وبعد موقعة كسوفو وسقوط دولة الصرب كانت هضاب الجبل الأسود الموحشة ملجأ لهؤلاء الصربيين الذين أبوا الخضوع للأتراك، ولكنهم عقدوا النية على التمسك باستقلالهم، ولا مجال هنا لسرد ما كان لهذا الشعب الجرئ من تاريخ كفاح ينطوي على البطولة في وجه هذه الكثرة الهائلة، وكيف استطاعوا في خلال قرون قضوها في قتال مستمر في ظل حكم أمرائهم الأساقفة[٤]. أن يبقوا على ولاية مسيحية حرة، في حين كان جميع أخواتها من جنسها قد أجبرت على الخضوع للحكم الإسلامي، ولما كان الأساس الذي قام عليه كيانهم المستقل، باعتبارهم أمة، هو تمسكهم بالعقيدة المسيحية التي لا تتزعزع، لم يكن من المنتظر أن يتخذ الإسلام سبيلاً بينهم في سهولة ويسر، ولكن في القرن السابع عشر دخل في الإسلام كثير من أهالي الجبل الأسود في المقاطعات الواقعة على الحدود، والتحقوا بخدمة من جاورهم من الباشوات، وفي سنة ١٧٠٣ جمع دانيال بيتروفتش **D. Petrovich** الأسقف الحاكم في ذلك الحين، القبائل وأخبرهم أن الأمل الوحيد لإنقاذ بلادهم ودينهم ينحصر في القضاء على المسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيهم، وكان من أثر ذلك أن الذين لم ينقضوا عهد الإسلام وأبوا أن يدخلوا في المسيحية من مسلمي الجبل الأسود قتلوا في ليلة عيد الميلاد في ثبات ورباطة جأش[٥].

الإسلام في البوسنة: طائفة البوجوميل: والآن ننتقل إلى البوسنة: كانت أحوال الشعب الدينية والاجتماعية في هذه البلاد قبل الفتح التركي تستحق عناية خاصة. ينتمي السواد الأعظم من أهالي هذه البلاد إلى طائفة مسيحية من الخوارج يطلق عليها طائفة "البوجوميل **Bogomiles**"، الذين كانوا قد تعرضوا من

---

(١) Bizzi, fol. 48. b.

(٢) Zmaievich, fol. 182.

(٣) kanitz, p. 38.

(٤) حكم الجبل الأسود أساقفة من سنة ١٥١٦ إلى ١٨٥٢.

(٥) E. L. Clark, pp. 362 – 3.

القرن الثالث عشر لاضطهاد الكاثوليك الرومان، والذين طالما دعا البابوات إلى شن حرب صليبية عليهم[١]. ففي سنة ١٣٢٥ كتب البابا جون الثاني والعشرون إلى ملك البوسنة يقول: "إلى والدنا الحبيب الحسيب استيفن أمير البوسنة – لعلمنا بأنك ابن مخلص للكنيسة، نعهد إليك أن تستأصل شأفة الخوارج في ملكك، وأن تبذل العون والمساعدة لقاضينا فإبيان **Fabian**؛ ذلك أن جمهوراً عظيماً من الخوارج تجمعوا من نواح كثيرة متعددة، وتدفقوا جميعاً على إمارة البوسنة مطمئنين إلى أنهم سيزرون هناك خطاياهم الفاحشة ويعيشون في أمن ودعة. ولما كان هؤلاء القوم قد أشربوا خبث العدو القديم (أي الشيطان) وتسلحوا بسموم باطلهم، أفسدوا عقول الكاثوليك بتظاهرهم بالبراءة وادعائهم الزائف اسم المسيحيين، كلامهم يدب دبيب السرطان، ويندسون في تواضع، ولكنهم يقتلون في باطن الأمر، وهم ذئاب في ثياب خراف، يسترون جنونهم الوحشي، يجعلونه وسيلة للتمويه على خراف المسيح الأبرياء"، وفي القرن الخامس عشر أصبحت آلام البوجوميل لا تحتمل، حتى إنهم استغاثوا بالأتراك لتخليصهم مما هم فيه من بؤس وشقاء، لأن ملك البوسنة والقسيسين كانوا قد بلغوا باضطهاد البوجوميل حداً ربما لم يبلغه أحد من قبل. فهرب عدد كبير منهم يقرب من أربعين ألف من البوسنة، واتخذوا ملجأ في البلاد المجاورة. أما الذين لم يوفقوا في الهرب فقد أرسلوا إلى رومة مكبلين في الأصفاد، ولكن هذه التدابير، على شدتها لم تضعف من قوة البوجوميل في البوسنة إلا يسيراً، ذلك أن الأخبار في سنة ١٤٦٢ تحدثنا أن الهراطقة كانت في هذه البلاد أقوى منهم في أي وقت مضى. وفي السنة التالية، عندما غزا محمد الثاني البوسنة، وجد الملك الكاثوليكي أن رعاياه قد تخلفوا عنه، وسلم حاكم البوجوميل مفاتيح الحصن الرئيسي، مدينة بوبوفاتس **Bobavatz** الملكية إلى الأتراك، وأسرع سائر الحصون والمدن إلى الاقتداء بالحصن، وفي خلال أسبوع انتقلت سبعون مدينة إلى أيدي السلطان، وأضاف محمد الثاني البوسنة إلى عدد فتوحه الكثيرة[٢].

ومنذ ذلك الوقت لم نسمع عن البوجوميل إلا قليلاً، ويظهر أنهم دخلوا في الإسلام بمحض إرادتهم في جموع كبيرة على أثر الفتح التركي، أما البقية الباقية منهم فيظهر أنهم أسلموا بعد ذلك تدريجاً، على حين هاجر الكاثوليك الرومان من أهالي البوسنة إلى ما جاورهم من أراضي المجر والنمسا. وقد زعم بعض الباحثين[٣] أن جموعاً كبيرة من البوجوميل، في العقد الأول من الفتح على الأقل، دخلوا في الإسلام بقصد الرجوع إلى دينهم إذا ما واتتهم فرصة مناسبة، ولما كانوا يلقون اضطهادا مستمراً، فلا يبعد أنهم تعلموا كيف

---

(١) دعا إليها البابا هنوريوس الثالث Honorius III, في سنة ٢٢١، وجريجوري التاسع في سنة ١٢٣٨، وإنوسنت الرابع Innocent IV في سنة ١٢٤٠، وبندكت الثاني عشر Benedict XII في سنة ١٣٣٧. وتأسس ديوان التفتيش Inquisition في سنة ١٢٩١.

(٢) Asboth, pp. 42 – 95 Evans, pp. xxxvi – xliii.

(٣) Asboth, pp. 96 -7.

ينكرون دينهم إلى حين، ولكن لما لم تواتهم قط هذه الفرصة المناسبة، كان لابد أن يصرفوا النظر عن هذه النية تدريجاً: ثم نسيتها ذريتهم آخر الأمر. على أن مثل هذا الزعم لا يعدو أن يكون مجرد حدس وتخمين ولا يعتمد على دليل قوي، ولعل السبب في رضا البوجوميل بالسماح لأنفسهم أن ينتظموا في سلك عامة المسلمين المؤمنين راجع إلى مواضع كثيرة تتشابه فيها عقائدهم الخاصة ومبادئ الإسلام فقد رفضوا عبادة مريم العذراء ونظام التعميد وكل صورة من الكهنوت(١). وأنكروا الصليب رمزاً دينياً، وعدوا من عبادة الأصنام الانحناء أمام الصورة الدينية والتماثيل وآثار القديسين، وكان بيوت صلواتهم ساذجة خالية من الزينة، وهذا على خلاف الكنائس الكاثوليكية الرومانية التي تحلت بالزخارف الزاهية. وشاركوا المسلمين في كراهية النواقيس التي أطلقوا عليها "أبواق الشيطان": واعتقدوا أن المسيح نفسه لم يصلب، وإنما حل محله شبح آخر: وهم يتفقون في هذه الناحية في جانب مما جاء به القرآن(٢). وإن ذمهم الخمر، وتزمتهم البادي في أسلوب حياتهم، وتشددهم البالغ في سلوكهم الخارجي، كل هذه الروابط قد ساعدت على توثيق صلتهم بالإسلام(٣). إذ قيل عنهم: "إنك سترى هراطقة هادئين مسالمين كحملان طليقة بالعراء، شاحبي اللون من صيام يشوبه النفاق، لا يكثرون الكلام ولا يضحكون بصوت عال، يطلقون لحاهم ويظهرون بمظهر الوقار"(٤). كانوا يصلون خمس مرات بالنهار وخمساً بالليل، مرددين صلاة الرب مع سجدات كثيرة(٥). ومن ثم وجدوا التغيير ضئيلاً بانتقالهم إلى إقامة الصلوات في المساجد. وإذا كنا قد جمعنا هنا المواضع الكثيرة التي تتشابه فيها عقيدة البوجوميل مع تعاليم الإسلام، فإن هناك بطبيعة الحال بعض مبادئ تتميز بطابعها المسيحي الذي لا يستطيع أن يقرها مسلم من أهل السنة، ومع ذلك فإن من اليسير أن ندرك بوجه عام كيف استميل البوجوميل تدريجاً إلى ترك تلك المبادئ التي كان الإسلام ينبذها ولا يقرها، كذلك كان مذهبهم في المانوية الثنوية مما لا تتسامح فيه العقيدة الإسلامية، وإنما ظهر الإسلام دائماً بمظهر المتسامح في قبول مثل هذه التأملات في العقيدة بشرط ألا تؤدي إلى الخروج عن الدين، وأن تكون الموافقة عامة والقبول شاملاً على الأصول الأساسية التي قامت عليها العقيدة من الوجهتين النظرية والعملية.

---

(١) "وعابوا حفلات الكنيسة ورؤساءها، وأطلقوا على القسيسين من الأرثوذكس اسم الفريسيين العميان، وكانوا يهرونهم كما تهر الكلاب الخيل، وأكدوا أن العشاء الرباني لا يصان تبعاً لوصية الرب، وأنه ليس عبارة عن جسد الرب ولكنه كأي خبز آخر. (Kosmas, quoted by Evans, pp. xxx – xxxi)

(٢) سورة النساء: آية ١٥٦.

(٣) قارن هذا بما أظهره الأتراك نحو شارل الثاني عشر ملك السويد من إعجاب: "إن تشدده في الامتناع عن شرب الخمر ومواظبته على شهود الصلوات العامة مرتين في اليوم، قد جعلهم يقولون: إنه لمسلم حق. (Euvres de Voltaire, tome 23, p. 200) (Paris, 1785)

(٤) kosmas, quoted by Evans P. xxxi.

(٥) Asboth, p. 36. Wetzer and welte, vol. ii. P. 975.

قدم الأتراك، كما كانت عادتهم دائماً، كل مزية لإغراء أهالي البوسنة على قبول الدين، فسمحوا لكل من يعتنق الإسلام أن يحتفظ بأراضيه وممتلكاته، وأعفيت إقطاعتهم من جميع الضرائب[١]. ومن المحتمل أن يكون كثير من الورثة الشرعيين للبيوتات القديمة الذين كانت الطائفة الكاثوليكية قد انتزعت أملاكهم في جملة الأشراف بسبب أفكارهم الإلحادية، قد انتهزوا الآن فرصة لاسترداد مركزهم القديم بالإذعان للدين الغالب، واحتفظ البوسنيون المسلمون بقوميتهم، وظل السواد الأعظم منهم يحملون أسماء صربية ولا يتكلمون إلا بلغتهم الوطنية[٢]. وفي الوقت نفسه كانوا يبرهنون دائماً على غيرة متدفقة على دينهم الجديد، وسرعان ما تبوأ أشراف البوسنة بفضل شجاعتهم العسكرية وتقديسهم للإسلام وما كان لهم من نفوذ قوي، مكانة سامية في القسطنطينية، وأصبح كثير منهم موضع ثقة في مناصب الحكومة الهامة، مثال ذلك أن تسعة من رجال السياسة الذين ينتمون إلى أصل بوسني شغلوا منصب كبير الوزراء في الفترة التي تقع بين سنتي ١٥٤٤، ١٦١١.

الإسلام في إقريطش: وكان آخر ما حصلت عليه الفتوح العثمانية من ممتلكات جزيرة إقريطش التي اغتصبت في سنة ١٦٦٩ من جمهورية البندقية بالاستيلاء على مدينة كانديا بعد حصار طويل مضن دام نحو ثلاث سنين، وختم كفاح خمسة وعشرين عاماً بين تلك القوى المتنافسة في سبيل امتلاك هذه الجزيرة.

ولم تكن هذه هي المرة الأولي التي انضوت فيها إقريطش تحت لواء الحكم الإسلامي. فقد استولى فريق من عرب الأندلس المخاطرين على هذه الجزيرة على حين غرة، وذلك في القرن التاسع الميلادي، وظلت تحت سلطانهم حوالي قرن (٨٢٥ – ٩٦١)[٣]. وفي خلال هذه الفترة أصبح كل سكان الجزيرة تقريباً مسلمين، كما أصبح بعض الكنائس أطلالاً، واستحال بعضها الآخر إلى مساجد، ولكن عندما عاد سلطان الدولة الرومانية إلى الاستقرار في هذه البلاد، ارتد الشعب مرة أخرى إلى دينهم القديم عن طريق التبشير الذي قام به راهب أرمني ماهر، وأصبح الدين المسيحي هو الدين الوحيد المعترف به في الجزيرة[٤]. وفي مستهل القرن الثالث عشر اشترى البنادقة الجزيرة من برنيفاس دوق مونتسيرات **Monteserrat**، الذي أصبحت هذه الجزيرة من نصيبه بعد تقسيم الدولة الرومانية، وحكموها بيد من حديد. ويظهر أنهم نظروا إليها على أنها ثروة لهم أن يحولوها لصالح الحكومة التي استوطنت البلاد ولصالح مستعمريها، وكانت إدارتهم من الظلم والجور بحيث أثارت كثيراً من الثورات التي قمعت بشدة لا تعرف الرحمة؛ وفي إحدى هذه المناسبات أخليت مقاطعات بأسرها في ولايات سفاكية ولاسيتي **Sfakie & Lassiti** من السكان، وحُظرت زراعة الغلال في هذه الأرض،

---

(١) oliver. Pp. 17 – 18.

(٢) Id. P. 113.

(٣) Amari, vol. i. p. 163 vol. ii. P. 260.

(٤) Cornaro, vol. i. pp. 205 – 8.

وإلا عرض المخالفون أنفسهم لعقوبة الموت، حتى إن هذه المقاطعات بقيت جرداء مقفرة مدة قرن تقريباً[١]. وقد أضافت تلك القسوة المفزعة التي قمع بها مجلس الشيوخ البندقي آخر هذه المحاولات في بداية القرن السادس عشر، رعباً بالغاً إلى حالة البؤس التي أنَّ منها أهالي إقريطش التاعسون. ونستدل على سوء حظهم العاثر في هذه الفترة من تلك التقارير التي دونها أعضاء اللجنة الذين أرسلهم مجلس شيوخ البندقية في الشطر الأخير من هذه القرن نفسه، لكي يستقصوا حالة سكان الجزيرة، وقد قيل إن أشراف البندقية كانوا يسحقون الفلاحين بأقسى ألوان التعسف والظلم، كما أصبحت حالة سادتهم الإقطاعيين أسوأ من حالة الأرقاء، إلى حد أنهم لم يجرءوا قط حتى على تقديم شكواهم من أي لون من ألوان الظلم، وكان على كل فلاح أن يشتغل في أعمال السخرة اثني عشر يوماً كل سنة بدون أجر من أجل سيده الإقطاعي، وعندئذ كان في استطاعة سيده أن يرغمه على الاستمرار في العمل ما دام هذا السيد يحتاج إلى خدماته بأجرة إسمية قدرها بنس في اليوم (أي أربعة مليمات تقريباً) وكانوا يدفعون عن كرومهم ضريبة تعادل ثلث قيمة المحصول، ولكن الغش والعنف مجتمعين كثيراً ما أفلحا في رفع هذه الضريبة إلى ما يعادل الثلثين، وقد تغتصب ثيرانهم وبغالهم لخدمة السيد الذي كان له ألف حيلة أخرى لابتزاز الفلاح المسكين[٢]. ولكن اتضح أن قرارات أعضاء اللجنة لم يكن لها تأثير في إقناع مجلس الشيوخ بالبندقية، بأن يرفع من مستوى حالة أهالي إقريطش البائسين ويضع حداً لقسوة الأشراف وظلمهم. فقد آثر المجلس أن يستمع إلى نصيحة فرا باولو ساربي **Fra Paolo Sapi** الذي خاطب الجمهورية في سنة ١٦١٥ في شأن مستعمراتها اليونانية بقوله: "إذا استبد سادة هذه المستعمرات بالقرى الواقعة تحت نفوذهم فإن أقوم السبل أن نغض النظر عنها لأنه قد لا توجد رحمة بينهم وبين رعاياهم"[٣].

فلا عجب إذا علمنا من المصادر ذاتها أن أهالي إقريطش كانوا يتطلعون إلى تغيير الحكام، وأنهم "لم يترددوا كثيراً في الخضوع للترك مقتدين في ذلك بسائر أمتهم". حقاً لقد هرب كثير إلى تركيا في ذلك الوقت تخلصاً من عبء الضريبة الذي أثقل كواهلهم، مقتفين آثار غيرهم ممن لا يدخلون تحت حصر، وممن كانوا من حين لآخر قد اتخذوا هناك ملجأ لهم[٤]. كذلك هاجرت جموع غفيرة إلى مصر حيث دخل كثير منهم في الإسلام[٥]. وقد أزعج أهالي إقريطش بوجه خاص ما أنزله رجال الكنيسة اللاتينية بهم من تعسف وإرهاق، هؤلاء الذين وضعوا أيديهم على الأحباس التي هي من حق رجال الدين من الإغريق، و لم يألوا جهداً في إهانة

---

(١) Perrot, p. 151.

(٢) Pashley, vol. i. p. 30. vol. ii. Pp. 284, 291 – 2.

(٣) Id, vol. ii. P. 298.

(٤) Pashley, vol. ii. P. 285.

(٥) Id. Vol. i. p. 319.

المسيحيين من أشياع المذهب اليوناني، الذين ألفوا تسعة أعشار سكان الجزيرة[١]. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الأتراك قد استرضوهم بإعادة السلطة الدينية اليونانية. وقد ذكر أحد كتاب البندقية أن هذا الأمر قد تم على الصورة التالية: "ذهب أحد كهنة الأبرشية اليونانية أو أحد القسيسين في كانيه **Canea** إلى قسيم القائد التركي، وأخبره أنه إذا أراد أن يظفر برضا الشعب الإقريطي وأن يجعل البندقية مبغضة إليه، فلا بد له من أن يعلم أن الدين هو أوثق الروابط التي تحفظ المجتمع الراقي من وهدة الانشقاق، وأنه ينبغي أن يعمل في طريق تختلف عن الخطة التي رسمها البنادقة لأنفسهم، فقد بذل قصارهم في استئصال شأفة العقيدة الإغريقية وتأسيس عقيدة رومة مكانها، وتوطئوا معها على أن يصدروا أمرهم بعدم بقاء أي أسقف إغريقي في الجزيرة، ومن ثم حسبوا أنهم بعد إقصاء هؤلاء الرعاة الموقرين أنه أصبح من الميسور أن يتمكنوا من قيادة القطعان المتفرقة، وكان هذا التحريم قد أثار بلبلة في عقول أهالي إقريطش إلى حد أنهم كانوا متأهبين في فرح وطاعة للترحيب بأية سلطة تبدي رغبتها في إعادة تأسيس هذه النظام في حكومتهم الدينية – وهو نظام أساسي في مباشرة عبادتهم المقدسة ذاتها، وأضاف إلى ذلك أنه قد تكون هناك وسيلة أخرى لاسترضاء الشعب لو أنهم منحوا مزايا دينهم القديمة، بل منحوا إلى جانب ذلك مزايا جديدة كذلك، وقد رأى قسيم أن هذه المطالب عادلة، فبادر إلى الكتابة إلى القسطنطينية بشأنهم، وهناك أقروا مطالبهم، وأمر البطريق اليوناني بأن يعين رئيس أساقفة ليكون مطراناً لولاية كانديا. ورشح كذلك سبعة أساقفة آخرين ليعملوا برياسة المطران"[٢].

ويظهر أن جموعاً كبيرة من أهالي إقريطش أسلمت بعد الفتح التركي مباشرة، ولا يبعد أن تكون تلك الوطنية ذاتها التي جعلتهم يتمسكون بدينهم القديم تحت سيادة البنادقة الأجنبية الذين ألقوا عليهم في حرص شديد، ونظروا إلى أية محاولة ترمي إلى إدماجهم في غيرهم على أنها إهانة لا تغتفر[٣]. وحاولوا دائماً أن يوحوا إلى رعاياهم بأنهم منحطون – لا يبعد أن يكون ذلك كله قد حملهم على قبول ديانة سادتهم الجدد التي سرعان ما رفعتهم من منزلة الرعاية إلى رتبة الأنداد، ومنحتهم نصيباً في الحياة السياسية وفي حكومة بلادهم. ومهما تكن العوامل التي أدت إلى تحول أهالي إقريطش إلى الإسلام وانتشاره بينهم انتشاراً واسع النطاق، يبدو أنه مما لا يكاد يصدقه العقل أن القوة هي التي غيرت دين شعب كان قبل ذلك بقرون قد تشبث بدينه القديم في قوة وثبات، برغم ما عاناه من اضطهاد خضم وعقيدة أجنبية، ومهما تكن الوسائل التي انضووا بها إلى صفوف الإسلام، فقد قيل إن معظم المسلمين بعد الفتح بثلاثين سنة كانوا قد ارتدوا عن المسيحية أو كانوا أبناء مرتدين[٤]. وفي مدة تزيد قليلاً على قرن دخل نصف أهالي إقريطش في الإسلام، وكان هناك مسلمون من

---

(١) perrot, p. 151.

(٢) Charles Edwardes: Letters from Crete, pp. 90 – 2. (London, 1887).

(٣) Pashley, vol. ii. Pp. 151 – 2.

(٤) Id. Vol. i. p. 9.

أهالي إقريطش (ولا يزالون) من أقصى الجزيرة إلى أقصاها، لا في المدن وحدها، بل كذلك في القرى والمناطق الداخلية وفي صميم الجبال، وهم متفقون جميعاً في الشكل والعادات واللغة برغم أنهم إغريق لحماً ودماً. ولم يكن هنالك قط، حتى في الوقت الحاضر، أيه لغة يتكلمها أهالي جزيرة إقريطش سوى اللغة اليونانية، حتى الأتراك القلائل الذين نجدهم هناك لم يكن بد من أن يتكلموا لغة البلاد، كما كانت جميع فرمانات الباب العالي وأوامر الباشوات تقرأ وتذاع باللغة اليوناينة[١]. ولم يكن ما حدث بين النصارى والمسلمين في إقريطش من الشعور المرير الذي جعل تاريخ هذه الجزيرة في غضون القرن التاسع عشر تاريخ ينطوي على الحزن والأسى، خطيراً بحال من الأحوال قبل نشوب الثورة اليونانية، أيام أن كان مسلمو إقريطش يكثرون من اتخاذ البنات المسيحيات زوجات لهم، وكن من بنات أصدقائهم المسيحيين[٢]. وقد زاد في توثيق الارتباط الاجتماعي بين هاتين الجماعتين الزي المشترك بينهما، فقد كان أهالي إقريطش من المسلمين والنصارى على سواء متشابهين في الزي، لقد كان من العسير على المقيمين بينهم فترة طويلة، أو على اليونان من أهالي الجزر المجاورة[٣]. أن يميزوا بين الفريقين في كثير من الأحيان.

وقد سدت الأحداث السياسية الحديثة نقصاً كبيراً في سكان إقريطش المسلمين، وفي سنة ١٨٨١ كان عدد المسلمين في الجزيرة ٧٣,٢٣٤، وفي سنة ١٩٠٩ نقص العدد على أثر الهجمات المستمرة إلى ٣٣,٤٩٦[٤].

---

(١) Perrot, p. 159.

(٢) Pashley, vol. I. pp. 10; 165.

(٣) T.A. B. Spratt: travels and Resaearches in crete, vol. i. p. 47 (London 1865).

(٤) R. du M.M. vii p. 99.

الباب السابع

انتشار الإِسلام في فارس وأواسط آسيا

حالة فارس الدينية في زمن الفتح العربي: إِذا أردنا أن نتتبع طريق انتشار الإِسلام شرقاً إِلى أواسط آسيا، وجب أن نرجع قليلاً إِلى عهد الفتوح العربية الأولى؛ فإِنه لم يكد ينتصف القرن السابع الميلادي حتى كانت الأسرة الساسانية العظيمة قد سقطت، ودخلت في حوزة المسلمين، تلك الإمبراطورية الفارسية الشاسعة، التي ناهضت رومة وبيزنطة أربعة قرون. ولما تشتت شمل جيوش الدولة الفارسية، لم يلق المسلمون مقاومة تذكر من الشعب الفارسي الذي كان قد استبد بحكمه ممثلو الدولة الساسانية في أواخر أيامها استبداداً امتاز بكثير من ضروب الفوضى والعنت، ومما أثار غضب الأهلين وجعلهم ينظرون إِلى حكامهم نظرة تنطوي على الكراهة والبغضاء، وزادت شُقة الخلف بينهم، أن هؤلاء الحكام كانوا يناصرون ديانة زرادشت التي غدت الدين الرسمي للدولة، والتي كانت من قبل بغيضة عند الأهلين، ويفسحون المجال لكهنتها حتى أصبح لهم نفوذ كبير في الدولة وصاروا على جانب عظيم من القوة في مجالس الملك، وادعوا أن لهم نصيباً كبيراً في إدارة الشئون المدنية[١]. واستغلوا نفوذهم في اضطهاد كل الديانات المخالفة لهم (وكانت كثيرة). وإِلى جانب هذه الجماعات الكثيرة من معتقدي المذاهب الفارسية القديمة، كانت هناك طوائف من المسيحيين واليهود والصابئة، وأحزاب مختلفة تأثرت بتأملات الأدريين **Gnostics** (†) والبوذيين والمانوية **Manichaens**. وقد أثار هذا الاضطهاد شعور الكراهة المريرة الذي أحسه الشعب الفارسي نحو هذا الدين الذي تغلغل في بلاد الفرس، ونحو تلك الدولة التي وقفت من ذلك الاضطهاد موقف الرضا والتشجيع، كما كان كذلك علة ذلك الانتصار الذي حالفه الفتح العربي، وجعله يظهر في صورة تخليص الأهلين مما أصبحوا فيه[٢]. وما إِن تم للمسلمين ما أرادوا على هذا الوجه، حتى تنفس الفرس أنفسهم الصعداء ورحبوا بالعرب، حباً في الخلاص من ظلم الحكام أولاً، ورغبة في إِعفائهم من الخدمة العسكرية ثانياً، ثم أملاً في تمتعهم بالحرية الدينية آخر الأمر، وذلك لأن الإِسلام كان يبيح لغير المسلمين من يهود ومسيحيين؛ ومن زرادشتيين وصابئة وعبدة الأوثان والنار والحجارة، أن يتدينوا بما يرضون لأنفسهم من دين على أن يدفعوا للمسلمين الجزية[٣]. ولقد قيل أن النبي نفسه أوصى بالزرادشتيين خيراً، وأمر المسلمين أن يعاملوهم معاملة أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى وأن تؤخذ منهم

---

(١) ذكرت في الأصل غربًا.

(†) هي طائفة من النصارى تقول إِن المادة قديمة، وإِن الشر من طبيعتها، وخلطت بين النصرانية ومذهب الماديين والمجوس.

(٢) Caetani, vol.ii. pp. 910-11: A.de Gobineau (1), pp. 55-6.

(٣) أبو يوسف: كتاب الخراج ص ٧٣.

الجزية كذلك كفاء حمايتهم[1] وقد يكون هذا الحديث قد ذاع في القرن الثاني للهجرة حين تلمس المسلمون حديثاً نبوياً يبيح التسامح الديني في معاملة أهالي الديانات المختلفة الأخرى التي وجدها العرب في البلاد التي فتحوها، سواء أدخل معتنقو هذه الديانات في عداد أهل الكتاب أم لم يدخلوا[2].

وقد أدى تغيير الحكومة إلى تخليص الكنيسة، المسيحية المضطربة في فارس من استبداد ملوك الساسانيين، الذين أثاروا الخلافات القاسية بين اليعاقبة والنسطوريين، وزادوا في فوضى الطوائف المتنافرة.

وقد أشرنا من قبل[3] إلى الاضطهادات الدينية الأولى. والآن نذكر أنه حتى في عهد احتضار الأسرة الساسانية، ثارت ثائرة خسرو الثاني، واشتد حنقه من جراء الهزيمة التي أنزلها به الإمبراطور المسيحي هرقل، فأمر باضطهاد المسيحيين المقيمين في داخل حدود مملكته، والذين تحملوا على اختلاف مذاهبهم كثيراً من ألوان العنت والآلام. ولعل هذه الأحوال المضطربة قد هيأت عقول الناس لذلك التحول الفجائي في شعورهم الذي سهل تغيير العقيدة. "وإلى جانب الاضطراب السياسي في الدولة، ظهرت تلك الفوضى الأخلاقية التي ملأت عقول المسيحيين الذين وقفوا أمام هذه المصائب المتراكمة والآلام المعنوية التي أثارها قيام الصراع العنيف بين هذه العقائد المتنافرة، فمالوا إلى هذا النظام العجيب من التنسيق العقلي الذي ينمو فيه الدين الجديد في سهولة ويسر، ويكتسح أمامه أكثر الأديان الأخرى ويحاول أن يقيم الحالة الدينية والاجتماعية على أساس جديد. وبعبارة أخرى كان أهالي فارس والأجناس السامية بوجه خاص، قد بلغت عقليتهم درجة ساعدتهم على التحول إلى ذلك الدين الجديد والترحيب باعتناقه في حماسة ملحوظة لما يمتاز به من البساطة. وهكذا قدر للإسلام أن يبدد بضربة واحدة كل هذه الغيوم، وأن يفتح أمام الناس سبلاً واضحة من الآمال الكبيرة، وأن يعدهم بتخليصهم في أسرع وقت من عبوديتهم وحالتهم السيئة[4]".

جماعات كثيرة من الأهالي يرحبون بالإسلام: على أن سكان المدن، وخاصة الصناع وأصحاب الحرف وأهل الطبقة العاملة، قد رحبوا بالدين الإسلامي واعتنقه عدد عظيم منهم في حماسة كبيرة، وذلك لما تتطلبه أعمالهم من تركهم ديانة ذرادشت وتقبيح عبادة النار والأرض والماء، وهم الذين كان ينظر إليهم أمام القانون باحتقار وازدراء، ولما في اعتناقهم الإسلام أيضاً من تركهم في الحال أحراراً ومساواتهم في المذهب الديني[5]. ولم يكن ارتدادهم عن ديانة زرادشت نفسها بالأمر الصعب، فقد تبع سقوط الأسرة الساسانية تدهور الكنيسة حتى إنه لم يعد لأتباعها هناك مركز يجتمعون حوله، فوجدوا السبيل سهلاً ميسوراً لتدينهم بالإسلام لما بين دينهم الجديد ودينهم القديم من أوجه الشبه الكثيرة؛ فالفارسي يستطيع أن يجد في القرآن كثيراً من التعاليم

---

(١) أبو يوسف ص ٧٤، والبلاذري ص ٧١ (في النهاية)، ٧٩، ٨٠.

(٢) Caetani, vol. v. pp. 361(§ 611 n. 1), 394-5, 457.

(٣) ص ٦٨- ٦٩.

(٤) Caetani, vol.ii.p. 910.

(٥) De Gobineau. (2), pp. 306-10.

الأساسية في ديانته القديمة وإن كان ذلك بصورة مختلفة كثيراً. وبعبارة أخري فإنه يصادف بدل اسم أهورمزدا **Ahurmazda** وأهرمان **Ahriman** في ديانته القديمة اسم الله وإبليس في القرآن، كما يجد أيضاً أن الله خلق العالم في ستة أيام، ويقرأ عن الملائكة والشياطين، كما يقرأ قصة براءة الإنسان القديم، وبعث الجسد بعد الموت، والاعتقاد بوجود الجنة والنار[١]. بل نجد كثيراً من وجوه الشبه في تفصيلات العبادة اليومية، وأصبح على إتباع ذرادشت بعد اعتقادهم الإسلام أن يؤدوا على وفق تعاليم دينهم الجديد، الصلاة خمس مرات في اليوم كما كانوا يفعلون من قبل على وفق كتابهم الديني القديم المسمي أفستا **Avesta**[٢]. وكانت هذه القبائل التي تقيم شمالي فارس، والتي قاومت النظام الكنسي لدين الدولة الرسمي في عناد مستمر، بحجة أن كل شخص كان قسيساً في بيته، وأنه لم يكن به من حاجة لأي واعظ آخر، ثم لاعتقاده بوجود كائن أعظم وبخلود الروح، ولأنه عرف أن الإنسان يجب أن يحب الخير لجاره، وأن يكبح جماح شهواته، ويسعى في صبر وأناة إلى حياة أحسن حالاً من حياته الحاضرة. ولا غرو فإن أمثال هؤلاء الناس ليسوا بحاجة إلى كثير من الإقناع على قبول الإسلام[٣]. وهناك أيضًا كثير من أوجه الشبه بين الدين الإسلامي ومعتقدات بعض فرق الإلحاد في فارس التي أصبحت تحت تأثير المسيحية.

وفضلاً عن هذه العوامل التي ذكرناها، والتي كانت سبب انتشار الإسلام بسرعة مدهشة في بلاد الفرس كما رأينا، كان ثمة عالم آخر، وهو الشعور السياسي والوطني لهذا الشعب المغلوب، ذلك الشعور الذي أدى إلى انطوائهم تحت لواء هذا الدين الجديد عن طريق زواج الحسين بن علي من شاهبانو **Shahbanu** إحدى بنات يزدجرد آخر ملوك الأسرة الساسانية. وقد رأى الفرس في أولاد شاهبانو والحسين وارثين لملوكهم الأقدمين، كما رأوا فيهم ورثة لتقاليدهم القومية وهذا الشعور الوطني يفسر لنا تعلق الفرس الشديد بـ "علي" من جهة، ويفسر لنا ظهور التشيع هناك حزباً منفصلاً من جهة أخرى[٤].

و لم تكن القوة أو العنف السبب في اتساع نطاق تحويل الناس إلى الإسلام بدليل هذه المعاملة التي عامل بها العرب من ظل من الفرس على تمسكه بدينه القديم؛ ولا يزال إلى الآن في بعض جهات فارس بعض جماعات صغيرة من عبدة النار[٥]؛ ومع أنهم قاسوا فيما بعد كثيراً من الاضطهادات؛ كان أسلافهم في القرون الأولى من

---

(١) Dozy (1), p. 157.

(٢) Haneberg, p. 5.

(٣) Dozy (1), p. 191 A. de Gobineau (1), p. 55.

(٤) Les Croyances Mazdéennes dans la religion Chiite, par Ahmed-bey Agaeff (Ttransactions of the Ninth international Congres of Orientalists, vol. ii. Pp. 509-11. London, 1893).
وللوقوف على بعض هذه العلاقات انظر Goldziher: Islamisme et parsisme
(Revue de PHistoire des Religions, xliii. P. 1. sqq,)

(٥) Dosabhai Framji: History of Parsis, vol. i. pp. 56-9, 62-7. (London, 1884).

الهجرة يتمتعون بقسط وافر من الحرية الدينية وكانت معابدهم محترمة حتى أننا نقرأ أن أحد قواد المسلمين (في عهد الخليفة المعتصم ٨٣٣-٨٤٢ م) (٢١٨-٢٢٧هـ) أمر بجلد إمام ومؤذن لأنهما اشتركًا في هدم أحد معابدهم في بلاد الصغد، واستخدما حجارته في بناء مسجد مكانه[١]. وفي القرن العاشر الميلادي أي بعد فتح فارس بثلاث قرون وجدت معابد النار بالعراق وفارس وكرمان وسجستان وخرسان وجبال أذربيجان وأرّان، وبعبارة أخرى في كل كورة من كور فارس تقريبًا[٢]. كما لم تخل أية مدينة أو كورة في فارس من المجوس أو معابد النار[٣]. وقد ذكر الشهرستاني[†] أيضاً (حين ألف في عصر متأخر في القرن الثاني عشر) اسم معبد للنار في إسفينية بجوار بغداد نفسها[٤].

بالنظر إلى هذه الحقائق يكون من المستحيل قطعًا أن نقول إن اضمحلال ديانة زرادشت كان سببه أن الفاتحين المسلمين استعانوا بالقوة على حمل الناس على اعتناق الإسلام. ومن المحتمل أن يكون عدد أهالي فارس الذين اعتنقوا هذا الدين في السنين الأولى من الحكم العربي كبيرًا جدًا للأسباب المختلفة التي ذكرناها. بل إن في بقاء مذهبهم القديم، وما أثر عن ارتداد الناس عنه تدريجيًا في خلال القرون المتتابعة، ما يقوي في نفوسنا ما ذهبنا إليه من احتمال تدينهم الإسلام بمحض اختيارهم وفي جو من الهدوء والسلام. وحول أواخر القرن الثامن خلع سامان أحد أشراف بلخ دين زرادشت، واعتنق الإسلام لمساعدة أسد بن عبد الله والي خراسان إياه، وسمى ابنه باسم هذا الوالي الذي دخل في حمايته. ومنذ ذلك التحول تسمت أسرة السامانيين (٨٧٤ – ٩٩٩م) بهذا الاسم. وحول أوائل القرن التاسع كان كريم بن شهريار أول ملك اعتنق الإسلام من أسرة قابوس. وفي سنة ٨٧٣م أسلم عدد كبير من عبدة النار في بلاد الديلم بتأثير ناصر الحق أبي محمد. وفي القرن التالي، أي حول سنة ٩١٢ دعا الحسن بن علي – الذي ينتسب إلى البيت العلوي الذي تأسس على ساحل بحر الخزر الجنوبي، أهالي طبرستان وبلاد الديلم، وكان بعضهم يعبد الأوثان ويدين بعضهم الآخر بالمجوسية- دعاهم إلى الإسلام. فأجاب دعوته كثير منهم، على حين أصر غيرهم على كفره. وكان الحسن بن علي هذا على قدر كبير من العلم والذكاء، كما كان ملماً بمبادئ المذاهب الدينية المختلفة[٥]. وفي سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣ – ١٠٠٤ م) دان بالإسلام شاعر مشهور من أهالي بلاد الديلم، هو أبو الحسن مهيار

ويذكر Nicolas de Khanikoff أنه كان هناك في نهاية القرن الثاني عشر اثنتا عشرة ألف أسرة من عباد النار في كرمان في .Mémoire sur la partie méridionale de l´Asie centrale, p. 139 (Paris, 1861)

(١) chwolsohn, vol.i. p. 287.

(٢) المسعودي: مروج جـ٤ ص ٨٦.

(٣) الاسطخري ص ١٠٠، ١١٨، وابن حوقل ص ١٨٩-١٩٠.

(†) ورد في الأصل (ص ٢١٠ س٢) Al- sharastani وليس Al- Shahrastani وهو خطأ مطبعي على ما يظهر.

(٤) كتاب الملل والنحل .(ed. By cureton) part 1 p. 198

(٥) المسعودي جـ ٨ ص ٢٧٩، جـ٩ ص ٤ -٥.

الديلمي، و كان من عبدة النار، وذلك بتأثير أستاذه في فن الشعر الذي كان يفوقه في الشهرة وهو الشريف الرضي[١].

ويحتمل أن يكون جد ابن خرداذابة الجغرافي المشهور قد تحول إلى الإسلام في ذلك الوقت تقريبًا، وذلك بتأثير أحد البرامكة، وكان جده أيضاً من أتباع المذهب المانوي وأحد كبار كهنة عبادة النار في معبد نوبهار العظيم بمدينة بلخ[٢].

وعلى الرغم من قلة المعلومات التي وصلت إلينا عن تحول الناس إلى الإسلام، يظهر أن انتحالهم هذا الدين كان بمحض إرادتهم، كما يظهر أن أتباع ديانة زرادشت قد تمتعوا بوجه عام بالحرية الدينية إلى نهاية العصر العباسي. حتى إذا جاء الغزو المغولي بدأ في تاريخهم عصر أكثر إظلامًا من العصر الذي سبقه. ويبدو أن ألوان البؤس التي لحقت بالمسلمين من الفرس أنفسهم قد ولدت في نفوسهم روح التعصب الديني وعرضت أتباع زرادشت من حين إلى حين لتحمل الآلام التي تنطوي على القسوة والإرهاق[٣].

طائفة الإسماعيلية: وقد بدأت في فارس حول أواسط القرن الثامن عشر الميلادي حركة تثير الاهتمام في تاريخ الدعوة الإسلامية، وهي ظهور طائفة الإسماعيلية. ولسنا هنا بصدد بحث تاريخ هذه الطائفة، ولا في المكانة الدينية التي شغلها أتباع هذه الطائفة، ولا في العوامل الاجتماعية والسياسية التي ساعدت على ظهورها بمظهر القوة، وإنما الذي يسترعي اهتمامنا حقاً هو ذلك النظام المدهش الذي اتبع في نشر الدعوة لذلك المذهب. وكان عبد الله بن ميمون هو الذي بعث في أوائل القرن التاسع الميلادي روحاً جديدة في نفوس الإسماعيلية ونشر تعاليم مذهبهم، الذي يفوق نظام مذهب الجزويت **Jesuits** من حيث دقة النظر في الطبيعة الإنسانية والمهارة التامة في تلقين مبادئ هذا المذهب للناس، كل على حسب قدرته وميوله. وقد أنفذ عبد الله بن ميمون دعاته في كل الجهات متنكرين في زى الصوفيين غالباً، أو في زى التجار وغير ذلك. وقد مرنوا على أن يستحوذوا على عقول الناس جميعًا، وأن يجذبوا جميع الطبقات إلى رئيس الدعوة الإسماعيلية، وأن يستخدموا تعاليمهم عن طريق التفاهم مع كل فرد بلغته الخاصة وعلى مقدار عقله. وقد استطاع هؤلاء الدعاة أن يأسروا العامة بما كانوا يقومون به من الأعمال الخرقة للمألوف التي كانت في أعينهم كمعجزات، والتي كانت تثير في نفوسهم حب الاستطلاع. وكانوا يتظاهرون للأتقياء بالتقوى والتحمس الديني، ويظهرون للزهاد المثل الأعلى للفضيلة والحماس الديني، ويجلون للصوفيين ما غمض عليهم من التعاليم المعروفة، ويستخدمون مع من يريدون إدخاله في مذهبهم مراتب مختلفة تتناسب مع عقولهم. ومن ثم أخذ هؤلاء وأولئك يوحون إلى المتشوقين بظهور منقذ يصلح الأديان الكثيرة السائدة في ذلك الحين فأعلنوا للمسلمين قرب ظهور المهدي المنتظر، ولليهود ظهور

---

(١) ابن خلكان جـ٣ ص ٥١٧.

(٢) كتاب الفهرست (طبعة فلوجل) ص ١٤٩ س ٢.

(٣) للوقوف على مجمل حالتهم تحت حكم المسلمين، انظر:
De Menant: Les Zoroastricns de Perse (R. de M. M. iii. PP. 193 spp. P. 421 sqq).

المسيح، وللنصارى المعزى. بيد أنهم لقنوهم أن ما يطمح إليه كل فرد لا يمكن أن يتحقق إلا برجعه على المنقذ الأكبر وكان على الداعي الإسماعيلي أن يظهر بمظهر المتحمس لجميع العقائد الشيعية، ويثير قسوة السنيين وظلمهم لـ (علي) وأولاده، ويجاهر بالحط من شأن الخلفاء السنيين. فإذا ما مهد السبيل على هذا النحو، وجب عليه أن ينتقل على وفق ما تتطلبه دقة المذاهب الشيعية إلى مبادئ الطائفة الإسماعيلية العميقة في التأويل. وإذا ما خاطب اليهودي أظهر احتقاره للنصارى والمسلمين، ووافق المدعو في تطلعه إلى قرب ظهور المسيح المنتظر، ولكنه يتدرج معه في الحديث حتى يعتقد أن هذا المسيح لا يمكن أن يكون سوى علي بن أبي طالب، وهو المهدي الأكبر عند طائفة الإسماعيلية(†). وإذا حاول جذب المسيحي وجب أن ينحو باللائمة على مكابرة اليهود وجهل المسلمين، وأن يعلن احترامه لما جاء به الدين من عقائد، ولكنه يشير في شيء من الحذر إلى أن هذه العقائد عبارة عن رموز وأنها ذات معان عميقة لا يجد المرء وسيلة للوصول إليها إلا عن طريق المذهب الإسماعيلي؛ كما يجب عليه أيضاً أن يشير في حذر وحرص إلى أن المسيحيين قد أساءوا نوعاً ما تأويل نظرية المسيح المنتظر (القرقليط) **Paraclete**، وأن هذا المسيح المنتظر لا يوجد إلا في شخص علي بن أبي طالب. وعلى هذا النحو حاول دعاة الإسماعيلية الذين اتخذوا طريقهم إلى بلاد الهند أن يحملوا الهندوكيين على قبول عقائدهم عن طريق إظهار علي بن أبي طالب بمظهر أوتاروشنو(§) العاشر المنتظر **The promised tenth Avatar of visnu**، الذي يجب أن يأتي من ناحية الغرب، أي من ألَموت **alamút**. وكذلك كتبوا عن مهدي يرانا **purána** (††) ونظموا الأشعار في تقليد الواما كارين **Vámácárins** أو الساكتس **Sáktas** ذوي الأيدي اليسرى الذين كانت حياة الزهد التي عاشوها قد هيأت عقولهم لقبول مذهب الإسماعيلية الباطني أو التأويلي(١).

وبأمثال هذه الطرق اتحد عدد هائل ممن يدينون بأديان مختلفة في القيام بمشروع لم يعرف حقيقة ما يرمي إليه إلا القليل الأقل من الناس، ويظهر أن مطامح عبد الله بن ميمون كانت سياسية محضة. ولكن الوسائل التي تذرع بها لتحقيق هذه المطامح كانت دينية. ومن ثم جمع الناس تحت لواء واحد جعلهم ينتظرون قرب ظهور

(†) إن هذا لا يتفق مع أصول المذهب الإسماعيلي الذي يقول بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وقرب ظهور أحد أبنائه. وإلا لما استطعنا أن نفرق بين الإسماعيلية الذين يعتقدون إمامة إسماعيل وأبنائه الأثنا عشرية الذين يعتقدون إمامة موسى الكاظم وأبنائه، والزيدية وغيرهم من فرق الشيعة التي تؤمن بإمامة علي بن أبي طالب. أما النصيرية فإنهم يؤلهون علي بن أبي طالب.

(§) كلمة سنسكريتية الأصل معناها الشخص الذي جاء إلهاً لخلق الكائنات.

(††) مهدي يرنا أي التفسير الذي كتبه المهدي.

(١) Khoja Vrittánt, pp. 1418.

ولزيادة الإيضاح عن دعاة الإسماعليين في الهند، انظر الباب التاسع.

الإمام المهدي. وإن نشاط الدعوة وارتباطه بتاريخ هذا الحزب خليق بأن نتصدى لـذكره بإيجـاز في هـذه الصفحات[١].

الإسلام في أواسط آسيا وأفغانستان: وإن تاريخ انتشار الإسلام في بلاد أواسط آسيا إلى شمالي فـارس لا يدل إلا على قليل من نشاط الدعوة الإسلامية. فإنه لما وفد قتيبة بن مسلم على سمرقند، وجد هناك كثـيراً من الأصنام كان عبدتها يعتقدون أن كل من أثار حنقها تعرض للموت. على أن الفاتح المسلم لم يأبـه لهـذه المخاوف التي أثارتها تلك الخرافات؛ ومن ثم لم يحجم عن إحراق الأصنام. وكان من أثر ذلك العمـل أن دان بالإسلام عدد كبير من الناس[٢]. على أن المعلومات التي وصلت إلينا مع قلتها تـدل علـى أن التحـول إلى الإسلام كان، برغم هذا، ضئيلاً في مستهل تاريخ تقدم الفتوح الإسلامية في أواسط آسيا. وفوق هذا يبدو لنا أن أهالي هذه البلاد طالما تظاهروا بانتحالهم الإسلام إلى حين، ثم أسرعوا فكشفوا القناع وشقوا عصا الطاعـة للخليفة بمجرد انسحاب جيوش الفتح[٣]. ولم يصب العرب النجاح المطلوب في إرغام الأهلين على اعتناق دين الفاتحين حتى أتم قتيبة فتح بخارى للمرة الرابعة.

وفي بخارى وسمرقند اتسمت مقاومة الأهلين للإسلام بكثير من ضرب العنف والعنـاد؛ حـتى إنـه لم يسمح بحمل السلاح إلا للذين دانوا بهذا الدين. ولم يجرؤ المسلمون أعواماً طويلة على أن يظهروا في المسـاجد أو غيرها من الأماكن العامة من غير أن يكونوا متقلدي السلاح، على حين لم يكد بد من أن تقام الجواسـيس لمراقبة الحديثي العهد بالإسلام. وكذلك بذل الفاتحون جهوداً مختلفة لإدخال الناس في حظيرة الدين؛ بل لقـد حاولوا تأليفهم بالمال ليحضروا صلاة الجمعة في المساجد، وسمحوا بقراءة القرآن باللغة الفارسية بدلاً من العربية حتى يستطيعوا جميعًا فهمه في سهولة ويسر[٤].

وكان انتشار الإسلام في بلاد ما وراء النهر بطيئًا ظاهرًا. فقد استجاب بعض الأهلين إلى دعـوة عمـر الثاني (٧١٧ –٧٢٠م) للتدين بالإسلام[٥]. وتحول عدد كبير منهم على يد أبي صيدا الذي أخذ في نشر هـذه الدعوة بسمرقند في عهد هشام الثاني (٧٢٤– ٧٤٣م)[٦]. ولكن جمهور أهالي هذه البلاد لم يعتنقوا الإسـلام حتى عهد المعتصم (٨٣٣ – ٨٤٢م) وربما كانت هذه العلاقات الوثيقة التي كانت قائمة إذ ذاك بـين بغـداد حاضرة العالم الإسلامي في ذلك العصر، والأتراك الذين كانوا قد هاجروا أفواجًا لينضموا إلى جند الخليفة من

---

(١) Le Bon Silvestre de Sacy: Exposé de la Religion dos Druzes tome. i. pp. LXVII, cxvili-CLXIII.

(٢) البلاذري ص ٤٢١.

(٣) النرشخي ص ٤٦.

(٤) المصدر نفسه ص ٤٧.

(٥) البلاذري ص ٤٢٦

(٦) الطبري ٢: ١٠٥٧ وما يليها.

أهم العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام[1]. ويظهر أن الإسلام، وقد رسخت قدمه بين القبائل التركية على هذا النحو، لم ينتشر إلا ببطء حتى منتصف القرن العاشر الميلادي حين دان به بعض رؤساء عشائرهم، كما حدث تمامًا في تاريخ الدين المسيحي عندما تحول كلوفيس **Clovis** وبعض ملوك شمالي أوروبا من المتبربرين إلى المسيحية، واقتفى أثرهم في ذلك عدد كبير من القبائل التي ينتمون إليها.

وقد ظهرت في ذلك الوقت قصص دينية خرافية حلت محل الحقائق التاريخية الجدية وذلك بصدد تحول الناس إلى الإسلام. فمدينة خيوة مثلاً كانت تقدس مصارعًا وطنيًا يطلقون عليه اسم بهلوان **Pahlaván**. وكان هذا المصارع في خدمة أحد ملوك خوارزم الوثنيين. ولما سمع ملوك الهند بشهرة بهلوان هذا، أرسل أحد المصارعين في بلاطه يستفز ملك خوارزم لتحديد يوم للمبارزة. وقد حدد يوم لاختبار قوة هذين الرجلين، ودعي عدد كبير من النبلاء والعامة في خيوة لمشاهدة هذا المنظر، وخاصة إذا علمنا أن من غلب في هذه المصارعة كان حقه أن يطاح رأسه. وفي اليوم الذي سبق يوم المصارعة، عندما كان بهلوان المقدس يصلي في الجامع، سمع امرأة عجوزًا تدعو الله سواه". فأخذت الشفقة بهلوان ورق لحال هذه الأم، وسهل لمصارعه الهندي إحراز الفوز عليه. وأمر الملك بقطع رأسه، وقد ثارت ثائرته وأخذ الغضب منه كل مأخذ. غير أنه في هذه اللحظة نفسها أخذ الحصان الذي كان الملك معتلياً صهوته يعدو مسرعًاً صوب منحدر خطير، ولحق به بهلوان وأمسك بزمام الحصان، وأنقذ حياة الملك من موت مروع. ولم يكن من الملك إلا أن بادر إلى التدين بهذا الدين الحق شكراً لله واعترافًا بآلائه عليه، وذهب المصارع المقدس في طريق الصحراء، وقد ملأ الفرح قلبه، وأوى إلى صومعته، وعاش عيشة النسك والزهد، وانقطع إلى العبادة.

وحول منتصف القرن العاشر الميلادي، رويت أسطورة عجيبة عن إسلام ساتوق بغراخان **Satuq Bghra Khan** مؤسس أسرة إيلكخان الإسلامية في كشغر. فقد أراد خواجا أبو النصر السامانى أحد أمراء السامانيين، وكان على جانب عظيم من التقوى ودماثة الخلق، أن يجد مجالاً لإشباع مواهبه الإدارية، فعزم على اتخاذ التجارة حرفة له، مدفوعًا في ذلك برغبته في نشر الدين الحق في بلاد الكفار. وبدلاً من محاولة جمع الثروة عن طريق مشروعاته التجارية، خصص ساتوق كل أرباحه لتنمية جهوده في إدخال الناس في دينه الجديد. ففي ذات ليلة ظهر له النبي في المنام وقال له: "استيقظ واذهب إلى تركستان حيث تجد الأمير ساتوق بخاري خان في انتظار حضورك للدخول في الإسلام". ورأى هذا الأمير الشاب في نومه رؤيا مماثلة تحثه على انتظار شخص يدعوه إلى الدين. ولما تقابل ساتوق مع أبي النصر السامانى بعد عدة أيام، كان ساتوق على استعداد تام لقبول تعاليمه والتدين بالإسلام. ويظهر أن هذه الأسطورة استندت إلى هذه الحقيقة التاريخية، وهي أن الإسلام امتد من بلاد السامانيين إلى البلاد المجاورة في تركستان، وأن رعايا هذا الحاكم اقتفوا أثره في التدين بالإسلام، إذ

---

(١) August Múller, vol. i. p. 520.
Chun, p. 150.
ابن الأثير حـ ٨ ص ٣٩٦ (س١٩-٢٠) .Grenard pp. 7 sq., 42-3

إنه في سنة ٩٦٠م اعتنق هذا الدين مائتا ألف من الأسر التركية التي كانت تعيش في الخيام، والتي لا يبعد أنها كانت تكون الجزء الأعظم من أتراك تركستان بمملكة بخارى خان. وتعزو إليه الأساطير القدرة السحرية في الحروب التي شنها على الكفار، حتى لقد روى أن شعلة محرقة تخرج من فيه، وأن سيفه الذي كان يتقلده يبلغ طوله أربعين قدمًا. وقد قيل إن ساتوق لم يكد يبلغ التاسعة والستين من عمره، حتى نشر سيفه الرعب في قلوب الكفار الذين كانوا يقيمون في الأراضي الممتدة من ضفاف نهر سيحون جنوبًا إلى قُرة قُورم شمالاً، فتحولوا إلى الإسلام. كما قيل إن جيوشه المنتصرة دخلت قبيل موته بلاد الصين، ونشرت الإسلام حتى ترفان **Turfan**[١]. وإن هذا الوصف الرائع لكفاح هذه الأسرة مع مملكة خُتان البوذية ليخلع على بطلها حلة من النجاح الذي لم يتم في الواقع إلا في القرن الرابع عشر الميلادي. ويمكن الحكم على مدى ما بلغه ساتوق بغراخان من نجاح من أن خلفاءه من أسرة إيلكخان أرادوا في سنة ١٠٢٦م الزواج من أميرات بيت محمود الغزنوي، فأجابهم محمود بأنه مسلم على حين أنهم كفار، وأنه ليس من عادات المسلمين أن يزوجوا أخواتهم وبناتهم من الكفار، ولكنهم إذا دخلوا في الإسلام أمكن النظر في هذه المسألة[٢]. وبعد ذلك بسنين قليلة، أي بين سنتي ١٠٤١، ١٠٤٢، طلب بعض الأتراك الذين كانوا لا يزالون على وثنيتهم؛ والذين كانوا يعيشون في هضبة التبت من أرسلان خان بن قَدّرخان أن يسمح لهم بالاستقرار في ممتلكاته، لما سمعوا عن عدله وسعة صدره ولين حكمه. ولكنهم لما أصبحوا على مقربة من بالاساغون[٣]، أرسل إليهم كتابًا يدعوهم فيه إلى الإسلام، ولكنهم رفضوا هذه الدعوة، فتركهم وشأنهم لما آنسه فيهم من روح المسالمة والطاعة. وليس لدينا معلومات عن كيفية اعتناقهم الإسلام. على أنه يرجح أن هذا قد تم على مر الزمن. ولكنه ليس من اليسير أن نثبت أن هؤلاء هم أفراد هذه الجماعة التي كانت تتألف من عشرة آلاف أسرة تركية من الكفار اعتنقت الإسلام في السنة التالية. إذ إنه قد أثر عن هؤلاء الأخيرين أنهم أغاروا على المسلمين ونهبوهم قبل تحولهم إلى هذا الدين[٤]. وكانت غزوة قره ختاى **Kara Khitay** في بلاد التركستان سببًا في تصويب ضربة عنيفة إلى

---

(١) Grenard, pp. 910.

ومن حرب الطموح هذه، جعلت منها هذه الرواية حربًا مقدسة؛ وتنسب الرواية إلى ساتوق بغراخان الفتح الذي تم في الواقع على يد خليفته الثاني عشر، ومن الخطأ البين أن تطلق هذه الرواية اسم الأخير على عم ساتوق بغراخان الذي كان لا يزال على وثنيته. ومما يؤسف له أن هذه الرواية تجعل من شخصين اثنين شخصًا واحدًا فتعزو إلى نفس هذا الأمير الإغارة على نورفان أي ضد بلاد الغور، وهذه الإغارة تنسب حقًا إلى شخص ثالث (المصدر نفسه ص ٥٠)

(٢) Raverty, pp. 905.

(٣) كانت حاضرة تركستان في خلال القرنين العاشر والحادي عشر، ولكن موقعها الأصلي غير واضح.

(٤) النرشخي ص ٢٣٤- ٢٣٥.

قوة الإسلام. وكانت تقارير الرحالين الأوروبيين حتى القرن الثالث عشر الميلادي توضح أنه كان ثمة طوائف من البوذيين والمانويين والمسيحيين في هذا الجهات[١].

وكان لدخول الأتراك السلجوقيين في الإسلام أهمية عظيمة. وليس لدينا أي نص نستدل منه على تحولهم إلى الإسلام؛ إلا أنه في سنة ٩٥٦م هاجر سلجوق مع قبيلته من بلاد تركستان إلى بخارى حيث دان هو أتباعه بالإسلام وأصبحوا من المتحمسين له[٢]. وهذا هو أصل الأتراك السلجوقيين المشهورين الذين أحيوا بانتصاراتهم وفتوحهم مجد الجيوش الإسلامية بعد أن خبا، ووحدوا الممالك الإسلامية في غرب آسيا في إمبراطورية واحدة.

إلا أنه في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي فقدت الدولة السلجوقية كل قوتها، اللهم إلا إذا استثنينا آسيا الصغرى. وعندما كان محمد الغوري يوسع رقعة إمبراطوريته من خراسان شرقًا حتى شمال بلاد الهند، انتعشت حركة انتشار الإسلام بين الأفغان وجاس خلال ديارهم دعاة من العرب والهنود الذين تحولوا إلى الإسلام وقاموا بحركة نشر تعاليم هذا الدين في حماسة وجرأة ظاهرة[٣]. وتدل الأقاصيص على أن الإسلام قد دخل بلاد الأفغان دون أن يلجأ المسلمون في القرن الأول في سبيل ذلك إلى شيء من القوة أو العنف. فقد قيل إن العرب احتلوا في القرن الأول الهجري بلاد الغور إلى هراة شرقًا، وأن خالد بن الوليد ذهب إلى هناك حاملاً أنباء الدين الإسلامي، ودعا أهل هذه البلاد إلى الانضواء تحت لواء النبي، ثم عاد إليه بصحبة وفد مؤلف من ستة أو سبعة يمثلون الأفغان ولما عاد هؤلاء إلى بلادهم أخذوا يدخلون أفراد قبائلهم في الدين[٤]. على أن هذه القصة خالية من أي أساس تاريخي. وإن ما وصل إلينا عن اعتناق بعض الأفغان الإسلام لا يعدو ذلك النص الخاص بانتحال ملك كابل في عهد الخليفة المأمون[٥]. ويظهر كذلك أن خلفاء هذا الملك ارتدوا إلى البوذية، إذ إن يعقوب بن الليث مؤسس الدولة الصّفارية لما مد فتوحه إلى كابل في سنة ٨٧١م وجد حاكم هذه البلاد وثنيًا. وأصبحت كابل منذ ذلك الوقت بلدًا إسلاميًا خالصاً لأول مرة، كما لا يبعد أن يكون الأفغان قد أصبحوا بحيث يرحبون الترحيب كله للعمل في جيش فاتح جرئ كجيش يعقوب بن الليث[٦]. على أنه لم تكد تنتهي فتوح سبكتكين ومحمود الغزنوي، حتى كان الإسلام قد تمكّن وتوطد في كافة أرجاء بلاد الأفغان.

وسيجد القارئ في الباب التالي تفاصيل أخرى عن تاريخ انتشار الإسلام في فارس وأوسط آسيا.

---

(١) Grenard, p. 67.

(٢) Raverty, p. 11.

(٣) Bellew, p. 96.

(٤) المصدر نفسه ص ١٥-١٦.

(٥) البلاذري ص ٤٠٢.

(٦) Augest Mûller, vol. ii. P. 29.

الباب الثامن

انتشار الإسلام بين المغول والتتار(*)

(*) لا بأس من أن نشير هنا إلى الفرق بين اللفظين: (تتر) ومغول وإلى التطورات التي داخلت كلاً منهما. فكلمة تتر تختلف بالمعني العام باختلاف العصور: فقد أطلق هذا اللفظ على جماعتين من قبائل التتر في نقوش الأرخون التركية Turkish orkhon التي ترجع إلى القرن الثامن الميلادي، كما أطلق هذا الاسم على المغول عامة أو على فريق منهم خاصة.

وفي جميع الفتوحات المغولية في القرن الثالث عشر الميلادي كان الفاتحون يسمون بالتتر في كل مكان نزلوا فيه، سواء أكان في الصين أم في البلاد الإسلامية أم بلاد الروسيا وغرب أوربا. ويسمع ابن الأثير أسلاف جنكيز خان باسم التتر الأول، وكانوا مشهورين عند قدماء اليونان باسم سكيشيا "Scythia" أو سكونيا.

ولم يظهر اسم المغول في عالم الوجود حتى القرن العاشر، ومن المرجح أنه أطلق على تلك العشائر التي انضوت تحت لواء زعيم إحدى قبائلهم، وكان يحمل ذلك الاسم، ثم أخذ لنفسه السيادة على بقية العشائر المتحالفة، ومن ثم أطلق اسم البعض على الكل(Lane-poole Muh. Dyn. P.200) على أن بعض المؤرخين يرون أن لفظ "مغول" لم يكن معروفاً في خارج البلاد التي كانت تسكنها قبائل الرحالة على حدود صحراء جوبي قبل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، كما يقول باحتمال إطلاق هذا اللفظ على جميع هذه القبائل، حتى امتداد نفوذ رجل منهم تسمى بهذا الاسم على جميع تلك العشائر المتحالفة. وقد انتقلت قوة من قوى المغول الحربية إلى بلاد آسيا الصغرى، وكان أعقابهم (الذين صاروا أتراكاً بلا شك) يسمون بالتتر السود Kara Tatar، وقد عاشوا عيشة بدوية وقت حملات تيمورلنك في البلاد الريفية الواقعة بين أماسيا Amasia وقيصرية وكان عددهم يناهز الثلاثين ألفا أو الأربعين ألف أسرة. وقد نفاهم تيمورلنك إلى أواسط آسيا فأنزلهم بايزيد الثاني العثماني بعض الأماكن في البلاد كشغر وخوارزم، وقد عاد هؤلاء التتر السود بعد وفاة تيمور إلى بلاد آسيا الصغرى واستقروا بها من جديد.

كذلك نرى في الروسيا وشرق أوربا اسم التتر يطلق غالباً على جميع الشعوب التركية ما عدا العثمانيين. ويرى بعض المؤرخين من المسلمين أن التتر شعب كبير من الأمة التركية، ومنه تفرعت معظم بطونها وأفخاذها، وهو مرادف للترك عند الفرنجة، حتى إنهم يعدون قبائل الأتراك كافة تتراً، ومنهم العثمانيون والتركمان. وقد شمل هذا الاسم (تتر) جميع المغول وبخاصة المنكوس Manchus كما كانت الحال في الصين.

وأما كلمة تتر بالمعني الخاص فهي اسم لشعب معين إذ لا تطلق على سكان حوض نهر الفلجا من بلاد قزان Kazan إلى استراخان، وكذا على سكان شبه جزيرة القرم، وجزء من سيبريا ممن يتكلمون اللغة التركية. ويظهر أن الشعوب التي كانت مغولاً في الأصل واللغة كانت تسمي نفسها بالتتار..وقد استبدلت كلمة تتر بعد جنكيزخان في بلاد منغوليا وأواسط آسيا بكلمة مغل Moghul ولا يزال لفظ مغل مستعملاً إلى اليوم في بلاد أفغانستان بين أعقاب المغول الذين لا يزالون محتفظين بلغتهم حتى الآن.

وقد أدخل جنكيز خان تلك التسمية رسمياً في بلاده. على أن كلمة Moghul لم تسد قط في البقاع الغربية من إمبراطورية المغول رغم دخولها رسمياً في تلك البلاد، كما نعلم ذلك من الرحالة الأوربيين أمثال يوحنا بيان الكاربيني John of pian EI Carpini ووليم روبروك William of Rubruck وغيرهما.

وصف فتوح المغول: لا يعرف الإسلام من بين ما نزلت به من الخطوب والويلات خطباً أشد هولاً من غزوات المغول فقد انسابت جيوش جنكيز خان انسياب الثلوج من قنن الجبال، واكتسحت في طريقها المراكز الإسلامية وأتت على ما كان مدينة وثقافة، تاركين وراءهم من تلك البلاد صحراوات خالية وأطلالاً دارسة، وكانت تقوم فيها قبل ذلك القصور الملكية الفخمة المحاطة بالحدائق الغناء والمروج الخضراء. وبعد أن تحول جيش المغول عن مدينة هراة، خرج أربعون من أهليها من مخبئهم، فراراً من الموت. وكان هؤلاء التاعسون هم البقية من سكانها الذين يربو عددهم على مائة ألف، وقفوا مهطعين مقنعي رءوسهم، يبكون أطلال مدينتهم، وقد أخذ الفزع والهلع من نفوسهم كل مأخذ. وفي مدينة بخارى، التي اشتهرت برجال العلم والورع، اتخذ المغول من مساجدها المقدسة اصطبلات لخيولهم، ومزقوا المصاحف ووطئوها بدوابهم، كما سبوا من نجا من الآهلين من القتل، وجعلوا مدينتهم رماداً تذروه الرياح. وكذلك كان مصير مدينتي سمرقند وبلخ وغيرها من أمهات مدن آسيا الوسطى، التي كانت من قبل فخر الحضارة الإسلامية، ومواطن الأولياء وكعبة العلوم، كما كان ذلك أيضاً مصير بغداد، التي ظلت قروناً عدة حاضرة الدولة العباسية.

وأن المؤرخ المسلم ليقشعر بدنه حين يروي هذه الفظائع، حتى إن ابن الأثير قد أخذته نفس تلك القشعريرة حين وصف لنا غارات المغول حيث يقول(□): "لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها، فأنا أقدم إليه (رجلاً) وأوخر أخرى. فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فياليت أمي لم تلدني، ويا **﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾**[1]، إلى أن حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً، فنقول: هذا الفعل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين. فلو قال قائل منذ خلق الله سبحانه وتعالي آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقابلها ولا ما يدانيها. ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعلة بختنصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب البيت المقدس. وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرّب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس؟ وما بنوا إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا؟ فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل. ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة"[2].

تنافس الأديان في اكتساب صداقة المغول: ولكن لم يكن بد أن ينهض الإسلام من تحت أنقاض عظمته الأولى وأطلال مجده الخالد، كما استطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الفاتحين والمتبربرين ويحملهم على اعتناقه. ويرجع الفضل في ذلك إلى نشاط الدعاة من المسلمين الذين يلاقون من الصعاب أشدها لمناهضة

(□) ذكر ابن الأثير ذلك عند كلامه على حوادث سنة ٦١٧ هـ.

(١) سورة مريم آية ٢٣.

(٢) ابن الأثير ج١٢ ص٢٤٣، ٢٤٤.

منافسين قويين كانا يحاولان إحراز قصب السبق في ذلك المضمار. وليس هناك في تاريخ العالم نظير لذلك المشهد الغريب، وتلك المعركة الحامية التي قامت بين البوذية والمسيحية والإسلام، كل ديانة تنافس الأخرى، لتكسب قلوب أولئك الفاتحين القساة، الذين داسوا بأقدامهم رقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين في جميع الأقطار والأقاليم.

وقبل أن نشرع في سرد أخبار هذا النزاع، نرى من الحسن، لكي نتفهم ما يأتي بإيجاز، أن نلقي نظرة على أجزاء إمبراطورية المغول بعد وفاة جنكيز خان عندما انقسمت أقساماً أربعة بين أولاده الأربعة. فقد خلفه أجتاي(†) **Ugutay** ثالث أولاده. الذي خلف أباه خاقان، وقد آل إليه الجزء الشرقي من الإمبراطورية، الذي ضم إليه قوبيلاى فيما بعد، كل أرجاء بلاد الصين. وملك جَغَطاي ثاني أولاد جنكيز خان الجزء الأوسط، وحكم باتو بن حوجي أكبر أولاد جنكيز خان الجزء الغربي، وتلقب بلقب خان القبيلة الذهبية **The Khan of the Golden Horde**، وحكم تولوي رابع أولاد جنكيز خان بلاد فارس التي ضم إليها هولاكو، مؤسس أسرة إيلخانات المغول في هذه جزءاً عظيماً من آسيا الصغرى.

كانت الشامانية **Shamanism** الديانة القديمة للمغول، الذين كانوا، على رغم اعترافهم بإله عظيم قادر، لا يؤدون له الصلوات، وإنما كانوا يعبدون طائفة من الآلهة المنحطة، وبخاصة تلك الآلهة الشريرة التي كانوا يتقدمون إليها بالقرابين والضحايا، لما كانوا يعتقدونه فيها من السلطان والقدرة على إيذائهم، كما كانوا يعبدون أرواح أجدادهم القدامى التي كانوا يعتبرونها ذات سلطان عظيم على حياة أعقابهم. ولكي يوفق المغول بين هذه القوى السماوية والعالم السفلي، كانوا يلجئون إلى القسيسين، وهم الشامان **Shamans** والسحرة، أو إلى رجال الطب، الذين كانوا يعتبرونهم ذوي نفوذ خفي وسلطان غريب على عناصر الموتى وأرواحهم. ولم يكن دينهم معدوداً من تلك الأديان التي تستطيع أن تقاوم طويلاً جهود هذه الأديان الكثيرة الأتباع والأنصار ذات اللاهوت المنظم الذي يملك قوة الإقناع وسد حاجات العقل، وذات الهيئات المنظمة للمعلمين الدينين. ومن ثم تأثر المغول بمدنيات تلك الشعوب، وخرجوا عن بربرية بدواتهم الأولى، حين وجدوا أنفسهم جنباً إلى جنب مع هذه الأجناس ذات الديانات الراقية. وقد اتفق أن كانت الشعوب التي اختلط بها المغول على أثر فتوحاتهم، تضم بين أفرادها عدداً كبيراً من البوذيين والمسيحيين والمسلمين. وقد تنافس أتباع تلك الديانات الثلاث التبشيرية الكبرى لتحويل أولئك الفاتحين إلى دينهم. ولما هدأت ثائرة المغول الذين كانوا يدينون بالشامانية، وتركوا التخريب والتدمير اللذين امتازت بهما غزواتهم ظهروا بمظهر التسامح مع أهالي الديانات الأخرى، فأعفوا قسيسيها ودعاتها من الضرائب، كما منحوهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية. فكان قساوسة البوذيين يقومون بمناظرات دينية مع قساوسة المغول الشامانيين في حضرة جنكيز خان

(†) أثار تعيين أجتاي (٦٢٤-٦٣٩هـ/١٢٢٧-١٢٤١م) خليفة لأبيه جنكيز خان أتباع أخيه جغطاي لمخالفة ذلك لتقاليد المغول التي تقضي بأن يعين أكبر الأولاد سناً.

(١٢٠٦ -١٢٢٧ م)، كما كان البوذيون والمسيحيون وأئمة المسلمين محل العطف والرعاية في بلاد مانجوخان (١٢٤٨-١٢٥٧م) وقوبيلاي (١٢٥٧-١٢٩٤م)[١]. وفي عهد هذا الأخير بدأ المغول في بلاد الصين يذعنون للمؤثرات الفاعلة التي أحدثتها البوذية المنتشرة حولهم. حتى إذا جاء القرن الرابع عشر، يظهر أن الديانة البوذية كانت قد تسلطت على قلوب المغول وأصبحت ذات سلطان عظيم على نفوسهم[٢]. ويرجع الفضل في تحويل الناس إلى البوذية إلى رجال الدين **Shamans** في بلاد التبت الذين ظهروا أكثر الناس حماسة في هذا النشاط الذي يقوم على الدعوة إلى الإسلام. ولا يزال أهالي منغوليا حتى الوقت الحاضر يتمسكون بأهداب هذا الدين، كما هي الحال عند الكلموك **Kalmuks** الذين هاجروا إلى الروسيا في القرن السابع عشر الميلادي.

ومع أن البوذية استطاعت أخيراً أن تجعل لنفسها المكانة العليا في الجزء الشرقي من إمبراطورية المغول، لم يكن نفوذ الكنيسة المسيحية بحال قليل الشأن أول الأمر، فكان يجيش في نفوس رجالها آمال كبيرة وأطماع بعيدة في تحويل المغول إلى هذا الدين. ولقد حمل المبشرون النسطوريين في القرن السابع الميلادي تعاليم الدين المسيحي من الغرب إلى الشرق، عبر آسيا حتى شمال الصين. وكانت جماعاتهم المبعثرة لا تزال تقيم في هذه البلاد في القرن الثالث عشر. ويزعم بعض المؤرخين أن القسيس يوحنا المشهور **Prester john** الذي كان يحيط باسمه كثير من أساطير القرون الوسطي، كان رئيس القرايت **Kara'its**، وهم قبيلة مسيحية تتارية كانت تعيش جنوبي بحيرة بيكال. ولما غزا جنكيز خان هذه القبيلة، تزوج بإحدى بنات رئيسها إذ ذاك، على حين تزوج ابنه أجتاي من نفس هذه الأسرة. وأما كيوك بن أجتاي فإنه، وإن لم يعتنق الدين المسيحي، أظهر كثيراً من العطف على ذلك الدين الذي كان يدين بعقائده رئيس وزرائه وأحد كتابه. وكان القساوسة النسطوريون محل رعايته السامية، في الوقت الذي استقبل في بلاطه السفراء من قبل البابا إنوسنت الرابع **Innocent IV**[٣]. وكانت السلطتان المسيحيتان في الشرق والغرب تتطلعان إلى المغول، لمساعدتهما في حروبهما مع المسلمين. وكان **Hayton** ملك أرمينية المسيحي هو العامل الرئيسي في إقناع مانجوخان (١٢٤٨-١٢٥٧م) بإرسال تلك الحملة التي دمرت بغداد بقيادة هولاكو[٤] (١٢٥٦-١٢٦٥م)، الذي حملته زوجته المسيحية بما كان لها من نفوذ، على أن يظهر عطفاً شديداً للمسيحيين، وللنساطرة منهم بوجه خاص. ومن ثم اعتنق كثير من المغول الذين احتلوا بلاد أرمينية وجورجيا، الدين المسيحي، وعمدوا على أيدي مسيحي هذه البلاد[٥]. وقد ولدت الأقاصيص العجيبة التي كانت تشيد بذكر عظمة القسيس يوحنا وفخاره، والتي ألهبت خيال أهالي أوربا

---

(١) Wiliam of Rubruck, PP. 182 191, C. d' Ohsson tome p. ii. 488.

(٢) De Guignes, tome iii. Pp. 200, 203.

(٣) Id., tome iii. P. 115.

(٤) Id. P. 125. Cahun, p. 391.

(٥) Klaproth. P. 20.

الوسطى، الاعتقاد بأن المغول كانوا على المسيحية. وكان يزيد من قوة هذا الاعتقاد تلك الأخبار الباطلة التي وصلت إلى أوربا عن تحول بعض أمراء المغول على اختلافهم إلى المسيحية، وعن تحمسهم في الدعوة لهذا الدين والانتصار له. وكان من أثر ذيوع هذه الأخبار أن أرسل القديس لويس **St.Louis** ووليم روبروك **William Rubruck** سفيراً من قبله إلى الخان الأعظم يستحثه على مواصلة جهوده لنشر الدين المسيحي، على أنه سرعان ما تبين أن هذه الأخبار لم تستند إلى أي أساس من الصحة، على الرغم من أن وليم روبروك قد وجد أن المسيحية كانت محل التسامح في بلاط مانجو خان، وأن اعتناق عدد قليل من المغول هذا الدين، قد جعل القسيسين المسيحيين يعقدون الآمال على مواصلة نشر هذا الدين. ولكن ظهور الاختلافات الدينية بين المسيحيين من اللاتينيين والإغريق والنسطوريين والأرمن، وامتدادها إلى وسط معسكر المغول ذاته، قد جعل الأمل ضئيلاً في إحراز نجاح أكبر من ذلك النجاح. ومن المحتمل أن هذه الحاجة الملحة إلى قيام الاتحاد بين المبشرين بالمسيحية هي التي جعلت نجاح جهودهم بين المغول أمراً يسيراً جداً، حتى إنه بينما كانت الطوائف المسيحية تتناحر فيما بينها، كان كل من البوذية والإسلام يوطد قدمه في بلاد المغول. وقد دفعت أوهام بابا رومة ودعاويه العريضة أولئك الفاتحين لنصف العالم، والشديدي الأنفة والكبرياء، أن يعدلوا عما كانوا يحبون به رسله من ذلك العطف الذي مالوا إلى إظهاره لهم أول الأمر، كما ساعد غير ذلك من الأسباب على إخفاق حركة التبشير التي قامت بها الإرساليات الرومانية [١].

وأما النسطوريون الذين كانوا قد ظهروا في ذلك المضمار أولاً، فيظهر أنهم بلغوا درجة من الانحطاط والجمود أعجزتهم عن الاستفادة من هذه الحال. ويقول وليم روبروك[٢] عن النسطورين في بلاد الصين إنهم كانوا شديدي الجهل، وإنهم لم يستطيعوا حتى فهم كتب صلواتهم التي كانت مدونة بالسريانية. كما يرميهم هذا الكاتب بشرب الخمر والفسق والجشع، ثم يوازن بين حياتهم وحياة القسيسين من البوذيين موازنة ليست في مصلحتهم ألبتة. أما أسقفهم فكان لا يزورهم إلا لماماً، حتى لقد حدث أنه لم يزرهم إلا مرة واحدة في مدى خمسين سنة، وكان في هذه المناسبات يقوم برسم جميع الأطفال من الذكور حتى الأطفال الذين كانوا لا يزالون في المهد. ويقول وليم روبروك أيضا إن القسيسين كانوا يتجرون بالمناصب الدينية، ولا يبالون بجمع الثروات من وراء تعليم طقوس الكنيسة، ويؤثرون جمع المال على نشر تعاليم الدين[٣].

وفي الأجزاء الغربية من إمبراطورية المغول، حيث تطلع المسيحيون إلى هذه القوة الناشئة لتساعدهم في الحروب التي شنوها على المسلمين وتضمن لهم امتلاك الأراضي المقدسة، كان الحلف الذي أبرم بين المسيحيين

---

(١) D' Ohsson, tome ii pp. 226-7. Cahun, p.408, sq.

(٢) يقول يول yule عن هذا الكاتب: وقد أمدنا بعبارة تقدح في آداب رجال كنيستهم وأخلاقهم. وهي أحق بالتقدير من أمثال تلك الأحكام التي ينظر إليها المنشقون عادة، إذ إن عبارة Rubruquis تجعلنا نميل إلى الظن بأن الذي كتبها كان رجلاً قد استكمل ضروب الأمانة والذكاء. Cathay and the way Thither, vol. I, p. xcviii.

(٣) Wiliam of Rubeuck. pp.158-9.

وإيلخانات المغول في فارس قصير الأمد، إذ إن هذه الانتصارات التي أحرزها الظاهر بيبرس سلطان المماليك في مصر (١٢٦٠-١٢٧٧م)، ومحالفته مع بركة خان(†) (١٢٥٦-١٢٦٦م) قد دفع إيلخانات فارس إلى الاهتمام بمصالحهم الخاصة. وقد أساء إلى سمعة المسيحيين في غرب آسيا ما ارتكبه إخوانهم في دمشق وفي غيرها من مدن الشام من الفظائع في تلك المدة القصيرة التي أقامها بين ظهرانيهم مغول فارس الذين أولوهم عطفهم ورعايتهم(١).

عقبات في سبيل الإسلام: وطالما ارتكب أتباع هاتين الديانتين كثيراً من ضروب الوحشية في أثناء ذلك النضال الذي قام بين المسلمين في بلاد الشام. ولنضرب للقارئ مثلاً مما حدث في منتصف القرن الثالث عشر، كما رواه الجوزجاني الذي يزعم أنه سمع هذه الحكاية حين كان في دلهي، على لسان رجل يدعى السيد أشرف الدين، وكان قدم هذه المدينة من سمرقند: "ومن ثم حكى السيد الأجل أن أحد المسيحيين في سمرقند دخل في ساحة الإسلام، فحاطه أهل الورع من المسلمين في هذه المدينة بالرعاية، وأحلوه من أنفسهم محل الاحترام والإجلال، ووالوا عليه الخيرات. وإذا بأحد رجالات المغول من الكفار ببلاد الصين يصل إلى سمرقند، وكان كبير النفوذ عظيم الجاه، كما كان ذلك اللعين يميل إلى المسيحية؛ فجاء المسيحيون في هذه المدينة إلى ذلك المغولي، وبثوه شكواهم قائلين: "أن المسلمين يحرضون أولادنا على التحول إلى المسيحية، ويحولون بينهم وبين المسيح عليه السلام، ويدفعونهم إلى اعتناق دين المصطفى عليه السلام. وإذا لم يسد هذا الباب في وجه المسلمين تحول أبناؤنا جميعاً عن المسيحية. فدبر بما لك من قوة وسلطان حلا لقضيتنا. فأمر المغولي بإحضار الشاب الذي تحول إلى الإسلام، وحاولا إغراءه بالعدول عن دينه الجديد بالرفق والمال والثراء، ولكنه أبى أن يرتد عن دينه، وأن ينزع عن قلبه وروحه هذا الثوب الجديد، وهو عقيدة الإسلام. ومن ثم ضاق الحاكم المغولي بهذا الشاب، وأخذ يتحدث عن العقاب الصارم؛ فسلط كل ما في استطاعته من ألوان العقاب أو ما دبره من صنوف القسوة على هذا الشاب الذي لم يرتد عن دينه بسبب حماسته البالغة لدين الإسلام. ولم تستطع ضربة ذلك الكافر العنيد أن تجعل جرعة الدين اللذيذة تفلت من يده. ولما ظل الشاب ثابتاً على الدين الحق، ولم يكترث للوعد والوعيد الذين لقيمها من هذه الجماعة المفسدة، أمر المغولي اللعين بإنزال العقاب بهذا الشاب أمام الملأ؛ وقد فارق هذا العالم وهو في سعادة الدين – أجزل الله له المثوبة والأجر! وكان من أثر ذلك أن حل اليأس والخوف بجماعة المسلمين في سمرقند، ورفعت ظلامة مدعمة بشهادة الزعماء وثقات المسلمين الذين كانوا يقيمون بسمرقند، وتقدمنا بهذه الظلامة إلى معسكر بركة خان، وقدمنا بين يديه وصفاً لسيرة المسيحيين وأخلاقهم في تلك المدينة. وتجلت هذه الحماسة للدين الإسلامي في ذهن ذلك الحاكم على إنه دين مثالي، وأصبح الدفاع عن الحق ذا سلطان عظيم على ميوله، وبعد أيام تلقى بركة خان هذا السيد بمظاهر التكريم

(†) ملك القبيلة الذهبية.

(١) المقريزي: (٢) المجلد الأول، القسم الأول، ص ٩٨، ١٠٦.

واختار طائفة من الأتراك والأشخاص الذين يوثق بهم من زعماء المسلمين، وأمرهم أن يذبحوا جماعة المسيحيين الذين كانوا قد ارتكبوا ذلك الظلم الشنيع، وأن يبعثوا بهم إلى الجحيم. ولما صدر هذا الأمر إليهم، احتفظوا به، حتى إذا اجتمعت تلك الطائفة البائسة في الكنيسة، قبضوا عليهم جميعاً، وقتلوهم عن آخرهم، وبعثوا بهم إلى جهنم، وأحالوا الكنيسة أطلالاً بالية مره أخرى[١]. ويظهر أنه لم يكن من اليسير أن منافسة الإسلام في مستهل الحكم المغولي لغيره من الديانات القوية كالبوذية والمسيحية كانت عملاً بعيد المنال؛ إذ أن المسلمين كانوا قد قاسوا أكثر من غيرهم من ذلك الاضطراب الذي صحب غارات المغول؛ وأن معظم هذه المدن التي كانت حتى ذلك الحين مجمع السلطة الدينية وكعبة العلم في الإسلام في القارة الآسيوية، وقد أصبح معظمها أطلالاً دارسة، حتى أن الفقهاء وأئمة الدين الأتقياء كان نصيبهم القتل أو الأسر[٢]. وكان من بين حكام المغول الذين عرفوا عادة بتسامحهم نحو الأديان كافة من يظهر الكراهية للدين الإسلامي على درجات متفاوتة. فقد أمر جنكيز خان بقتل كل من يذبح الحيوانات على النحو الذي قرره الإسلام، ثم سار على نهجه قوبيلا بيلاي، فعين مكافآت لكل من دل على من يذبح بهذه الطريقة، واضطهد المسلمين اضطهاداً عنيفاً دام سبع سنين، حتى إن كثيراً من المعدمين وجدوا في سنّ ذلك القانون لجمع الثروة، واتهم الأرقاء مواليهم بهذه التهمة لكي يحصلوا على حريتهم[٣]. وقد عانى المسلمون أقصى ضروب العسف والشدة في عهد كيوك (١٢٤٦-١٢٤٨م) الذي ألقى بزمام أمور الدولة إلى وزيريه المسيحيين، والذي امتلأ بلاطه بالرهبان من المسيحيين [٤].

وقد أورد الجوزجاني، وهو مؤرخ معاصر، العبارة التالية، وهي تبين نوع المعاملة التي تعرض لها أحد فقهاء المسلمين في بلاط كيوك: "فقد روى بعض الثقات أن كهنة البوذية كثيراً ما كانوا يوغرون صدر ذلك الأمير على المؤمنين ويحملونه على اضطهادهم. وكان في هذه البلاد أحد أئمة المسلمين، وهو نور الدين الخوارزمي.. وقد التمس من كيوك بعض العلمانيين وقساوسة المسيحيين وفريق من كهنة البوذية من عبدة الأوثان، أن يستدعي ذلك الإمام ليناظره ويحاجوه، طالبين منه إقامة الحجة على تفوق الدين الإسلامي وإثبات رسالة محمد — وإلا كان مصيره القتل إذا أعيته الحجة. وقد أجابهم الخان إلى طلبهم وبعث في طلب الإمام.

---

(١) الجوزجاني ص ٤٤٨ -٤٥٠. Raverty, pp. 1288-90.

(٢) وقد بلغ سوء المعاملة الوحشية التي لقيها هؤلاء أن رائضي الخيول من أهالي الصين كانوا إذا عرضوا أشباحاً، أظهروا البشر والحبور في صلف وإعجاب بعرض صورة تمثل رجلاً مسناً ذا لحية بيضاء، يجره حصان قد ربط ذيله برقبة هذا الرجل. وإنما كان هؤلاء يفعلون ذلك ليظهروا للناس كيف كان يتصرف فرسان المغول في معاملتهم للمسلمين. (Howorth, vol. i. p. 159)

(٣) Raverty. d. 1146, Howorth, Vol. i. pp. 112.273.

ولم يبلغ هذا القانون إلا بعد أن امتنع التجار المسلمون من زيارة البلاط وتأثرت التجارة من ذلك القانون.

(٤) Howorth, vol. i. 165.

وطرحت على بساط المناقشة مسألة صحة دعوة محمد النبوة وسلوكه في حياته، مع موازنته بسلوك غيره من الأنبياء. ثم لما كانت أدلة هؤلاء الملاعين ضعيفة، خالية من قوة الحق، نفضوا أيديهم من تلك المساجلة بالبراهين والحجج ورسموا خطة من خطط الظلم والسخط على صفحات ذلك التدبير الذي عقدوا العزم على تنفيذه، فسألوا كيوك خان أن يأمر هذا الإمام بأن يسجد سجدتين وفق قواعد الشريعة الإسلامية وتعاليمها، حتى تتبين أمامهم وأمام الخان حركات عبادتهم غير المستملحة. فأمر كيوك ذلك الإمام والمسلم الآخر الذي كان معه بأداء الصلاة حسب الأوامر الدينية المعروفة عند المسلمين. فلما خر الإمام الورع والمسلم الذي كان معه على الأرض ساجدين، قام بعض الكفار الذين دعاهم كيوك، وأسرفوا في إيذائهم، وأخذوا يضربون رءوسهم في الأرض في شدة وعنف، واقترفوا معهم بعض الأعمال المخزية. على أن ذلك الإمام الورع لم يأبه بكل هذا العنت والمضايقة، وأدى الصلاة وآدابها من غير أن يقطعها. ولما انتهى الإمام من صلاته وسلم، شخص ببصره إلى السماء وقال ﴿**ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾[١]. ثم طلب إلى كيوك أن يأذن له بالانصراف؛ وعاد إلى بيته[٢].

وقد اضطهد أرغون (١٢٨٤-١٢٩١م) رابع إيلخانات المغول في فارس، المسلمين في بلاده، وصرفهم عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها في القضاء والمالية، كما حرم عليهم الظهور في بلاطه[٣]. وعلي الرغم من جميع المصاعب، أذعن هؤلاء المغول والقبائل المتبربرة[٤] آخر الأمر لدين هذه الشعوب التي ساموها الخسف وجعلوها في مواطئ أقدامهم. ولسوء الحظ ألا يلقي التاريخ إلا ضوءاً يسيرا على تقدم حركة الدعوة الإسلامية هذه، و لم يبق لدينا إلا قليل من البيانات الضافية عن إسلام بعض أشخاص كانوا أعظم شأناً. ولابد أن يكون هناك كثير من أنصار النبي قد انتشروا في طول إمبراطورية المغول وعرضها، مجاهدين في طي الخفاء لجذب الكفار إلى حظيرة الإسلام. ففي عهد أجتاي (١٢٢٩-١٢٤١م) نقرأ عن إسلام بوذي يدعى **Kurguz** وكان حاكماً على بلاد الفرس من قبل المغول[٥]. وفي عهد تيمور خان (١٢٢٣-١٢٢٨م) كان آنندا **Ananda** حفيد قوبيلاي (١٢٥٧-١٢٩٤م) وأميركان سو مسلماً متحمساً. كما دفع كثيراً من أهل تانجوت **Tangut** وعددا كبيراً من الجنود الذين كانوا تحت إمرته إلى اعتناق هذا الدين. وعلي الرغم من استدعائه إلى بلاط تيمور وبذل الجهد في ارتداده إلى البوذية، أبى إلا التمسك بدينه الجديد، فألقي به في

---

(١) سورة الأعراف آية ٥٥.

(٢) الجوزجاني ص ٤٠٤-٤٠٥ Raverty, pp. 1160. sqq

(٣) De Guignes, vol. iii. p. 265.

(٤) وفي القرن الثالث عشر كان ثلاثة أرباع المغول أتراكاً (Gahun, p. 279)

(٥) C.D. O'hsson, vol. iii. 121.

غياهب السجن، ولكنه لم يلبث أن أطلق سراحه بعد قليل خشية ثورة أهالي تانجوت الذين كانوا شديدي التعلق به[١].

ويقرر مؤلف كتاب "منتخب التواريخ" أن آنندا بنى في خان بالغ (وهي بكين الحالية) أربعة مساجد تسع مليون شخص في صلاة الجمعة، على أنه ليس ثمة ما يؤيد هذه الرواية أو غيرها من الروايات التي رواها هذا الكاتب عن انتشار الإسلام في بلاد الصين، من حيث إنه يمثل آنندا خلفاً لتيمور خان على عرش إمبراطورية المغول، ثم يمدنا بعبارة خرافية صرفة عن خلفائه الذين يشير إلى أن عدداً منهم أعلن إسلامه. مع أنه ليس لأحد من هؤلاء الخمسة وجود إلا في مخيلة الكاتب[٢].

أوائل المسلمين: وكان بركة خان (١٢٥٦-١٢٦٧م) أول من أسلم من أمراء المغول، وكان رئيساً للقبيلة الذهبية في الروسيا بين سنتي ١٢٥٦ و١٢٦٧م[٣]. وقد قيل في سبب إسلامه إنه تلاقى يوماً مع عير للتجارة آتية من بخارى. ولما خلا بتاجرين منهم سألهما عن عقائد الإسلام، فشرحاها له شرحاً مقنعاً انتهي به إلى اعتناق هذا الدين والإخلاص له. وقد كاشف أصغر إخوته أول الأمر عن تغييره لدينه واعتناقه الإسلام، وحبب إليه أن يحذو حذوه، ثم أعلن بعد ذلك اعتناقه لهذا الدين[٤]. على أن الجوزجاني قد ذكر أن بركه خان اعتنق الإسلام منذ طفولته. ولما شب وبلغ سن التعليم، حفظ القرآن على أحد علماء مدينة خوقند[٥] **Khodjand** ويذكر نفس المؤلف (الذي جمع تاريخه في حياة بركة خان) أن كل جيشه كان مسلماً، "كما يذكر بعض الثقات أنه قد جرت العادة بأن يحمل كل فارس في جيشه سجادة للصلاة، حتى إذا ما حان وقت الصلاة اشتغلوا بصلاتهم. كما لم يكن في جيشه شخص واحد يتعاطى أي مسكر. وكانت الطبقة الاجتماعية الراقية في بلاده تضم مشاهير العلماء من المفسرين ورجال الحديث والفقهاء وعلماء الكلام. وكان في حوزته عدد كبير من كتب الدين، كما كان معظم مجالسه ومناظراته مع العلماء، وكانت المناظرات الدينية منها تشغل أكثر مجالسه، وكان هو سنياً مغالياً شديد التسمك بدينه[٦]. وقد دخل بركة خان في حلف مع ركن الدين الظاهر بيبرس (١٢٦٠-١٢٧٧م) سلطان المماليك في مصر، الذي بدأ تلك العلاقات الوثيقة من جانبه، فقد

---

(١) رشيد الدين ص ٦٠٠-٦٠٢.

(٢) Blochet, pp. 74-7.

(٣) ومن الأهمية أن نلاحظ أن نجم الدين مختار الزاهد وضع لبركة خان في سنة ١٢٦٠م رسالة تؤيد بالبراهين رسالة النبي الدينية وتدحض ما ذكره المنكرون لهذه الرسالة، وتمدنا بوصف للمناظرات التي قامت بين المسيحيين والمسلمين (Steiuschenider, pp. 63-4)

(٤) أبو العازي ج ٢ ص ١٨١.

(٥) الجوزجانى ص٤٤٧ Raverty, pp. 1283-4

(٦) الجوزجانى ص ٤٤٧.6 Raverty, pp. 1285-

احتفى بشرذمة من جند القبيلة الذهبية يبلغ عددها المائتين. ولما لاحظ هؤلاء الجند العداء المستحكم بين ملكهم وبين هولاكو فاتح بغداد وهم الذين كانوا ينضون تحت لوائه، فروا إلى سورية، حيث يممون منها شطر مصر، وهناك استقبلوا بكل مظاهر الحفاوة والتكريم في بلاط بيبرس، الذي أقنعهم بصحة الدين الإسلامي واعتناقه[١]. وكان بيبرس نفسه في حرب مع هولاكو، وقد هزمه بيبرس وأخرجه من سورية منذ أمد قريب. وقد أرسل بيبرس اثنين من المغول اللاجئين وغيرهم من الرسل يحملون كتاباً إلى بركه خان. وقد نقل هؤلاء عند عودتهم إلى مصر، أن لكل أمير وأميرة في بلاط بركة خان إماماً ومؤذناً خاصاً، وأن الأطفال كانوا يحفظون القرآن في المدارس[٢]. وكان من أثر هذه العلاقات الودية التي قامت بين بيبرس وبركة خان، أن كثر الوافدون من رجال القبيلة الذهبية على مصر حيث اتخذوا الإسلام ديناً لهم[٣].

إسلام إيلخانات المغول: كان الإسلام أقل انتشاراً في بلاد الفرس، حيث أسس هولاكو أسرة إيلخانات المغول. ولكي يقوى على صد هجمات بركة خان وسلطان مصر، تحالف هولاكو مع القوات المسيحية في الشرق كملك أرمينية والصليبيين، وكانت زوجته المحببة إليه مسيحية، فعملت على استمالة زوجها نحو إخوانها في الدين، كما تزوج ابنه أباقا خان (١٢٦٥ – ١٢٨١م) من ابنة إمبراطور القسطنطينية. ومع أن أباقا نفسه لم يتخذ المسيحية ديناً له، امتلأ بلاطه بالقسيسين من المسيحيين، وأرسل السفراء إلى بعض أمراء أوربا؛ فكان يراسل القديس لويس ملك فرنسا، وشارل ملك صقلية، وجيمس ملك أرغونة يطلب إليهم التحالف معه على المسلمين، كما أرسل لهذا الغرض أيضاً بعثاً من ستة عشر سفيراً من المغول إلى مجمع ليون سنة ١٢٧٤م، حيث دخل رئيس أولئك السفراء في المسيحية وعمد مع بعض رفاقه. وقد طمع المسيحيون؛ فعلقوا الآمال على اعتناق أباقاخان المسيحية، ولكن الأيام أظهرت أن تلك الآمال لم تكن إلا سراباً خادعاً. وكان أخوه تكودار أحمد[٤] (١٢٨٢– ١٢٨٤م)، الذي اعتلى العرش من بعده، أول إيلخانات المغول الذين اعتقدوا الإسلام في فارس. وقد شب على المسيحية، لأنه (كما يحدثنا بذلك كاتب مسيحي من معاصريه[٥]، "تعمد في صباه وتسمى باسم نيقولا ولكنه دان بالإسلام عندما بلغ سن الرشد عن طريق اتصاله بالمسلمين الذين كان كلفاً بهم وأصبح مسلماً دنيئاً. ولما ارتد عن المسيحية، رغب في أن يسمى محمداً خان، وبذل قصاراه في تحويل كافة التتار إلى دين محمد وعقائده. ولما أظهروا صلابة في الارتداد عن دينهم، لم يجرؤ على حملهم على اعتناق الإسلام، وإنما لجأ إلى ذلك عن طريق بذل العطايا والمنح وألقاب الشرف؛ حتى إن عدداً

---

(١) المقريزي (٢): جـ١ ص١٨٠ – ١٨١، ١٨٧.

(٢) المقريزي (٢): جـ١ ص١٢١٥.

(٣) نفس المصدر ص٢٢٢.

(٤) أو تيكودار على ما يسميه وصاف الحضرة، وقد سمى أحمد بعد اعتناقه الإسلام.

(٥) Hayton. (Ramusio, tom. ii. P. 60, c.).

كبيراً من التتار دخل في عهده عقيدة المسلمين". وقد بعث تكودار أحمد بنبأ إسلامه إلى سلطان المماليك في مصر (قلاوون) في ذلك الكتاب: "إلى سلطان مصر. أما بعد، فإنه الله سبحانه وتعالى بسابق عنايته ونور هدايته؛ قد كان أرشدنا في عنفوان الصبا وريعان الحداثة؛ إلى الإقرار بربوبيته والاعتراف بوحدانيته؛ والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام، بصدق نبوته وحسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده وبريته ﴿**فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإسلام**﴾[1]. فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين؛ إلى أن أفضى إلينا بعد أبينا الجليل وأخينا الكبير نوبة الملك؛ فأضفى علينا من جلابيب ألطافه ولطائفه؛ ما حقق به آمالنا في جزيل آلائه وعوارفه؛ وجلى هذه المملكة علينا وأهدى عقليتها إلينا. فاجتمع عندنا في قوريليان (Quriltay على الأصح) المبارك – وهو المجتمع الذي تقدح فيه الآراء – جميع الإخوان والأولاد والأمراء الكبراء، ومقدمو العساكر وزعماء البلاد؛ والتقت كلمتهم على تنفيذ ما سبق به حكم أخينا الكبير؛ في إنفاذ الجم الغفير من عساكرنا التي ضاقت الأرض برحبها من كثرتها، وامتلأت الأرض رعباً من عظيم صولتها وشديد بطشها، إلى تلك الجهة، بهمة تخضع لها صم الأطواد، وعزمة تلين لها الصم الصلاد. ففكرنا فيما تمخضت زبد عزائمهم عنه واجتمعت أهواؤهم عليه، فوجدناه مخالفاً لما كان في ضميرنا من اقتفاء الخير العام، الذي هو عبارة عن تقوية شعار الإسلام، وأن لا يصدر عن أوامرنا ما أمكننا إلا ما يوجب حقن الدماء وتسكين الدهماء، وتجري به في الأقطار، رخاء نسائم الأمن والأمان، ويستريح به المسلمون في سائر الأمصار في مهاد الشفقة والإحسان، تعظيماً لأمر الله وشفقة على خلق الله، فألهمنا الله تعالى إطفاء تلك الثائرة، وتسكين الفتن الثائرة، وإعلام من أشار بذلك الرأي بما أرشدنا إليه: من تقديم ما يرجى به من شفاء مزاج العالم من الأدواء، وتأخير ما يجب أن يكون آخر الدواء. وإننا لا نحب المسارعة إلى هز النصال للنضال، إلا بعد إيضاح المحجة، ولا نبادر لها إلا بعد تبيين الحق وتركيب الحجة، وقوى عزمنا على ما رأيناه من دواعي الصلاح، وتنفيذ ما ظهر لنا به وجه النجاح. إذ كان الشيخ قدوة العارفين (كمال الدين عبد الرحمن)، الذي هو نعم العون لنا في أمور الدين، فأرسلناه رحمة من الله لمن (لبى) دعاه، ونقمة على من أعرض عنه وعصاه، وأنفذنا أقضى القضاة قطب (الملة) والدين، والأتابك البهاء الدين، اللذين هما من ثقات هذه الدولة الزاهرة، ليعرفوهم طريقتنا، ويتحقق عندهم ما ينطوي عليه لعموم المسلمين جميل نيتنا؛ وبيّنا لهم أنّا من الله تعالى على بصيرة، وأن الإسلام يجب ما قبله، وأنه تعالى ألقى في قلوبنا أن نتبع الحق وأهله... فإن تطلعت نفوس إلى دليل تستحكم بسببه دواعي الاعتماد، وحجة يتقون بها من بلوغ المراد، فلينظروا إلى ما ظهر من أمرنا مما اشتهر خبره، وعم أثره. فإنا ابتدأنا بتوفيق الله بإعلاء أعلام الدين وإظهاره، في إيراد كل أمر وإصداره، تقديماً لناموس الشرع المحمدي، على مقتضى قانون العدل الأحمدي، إجلالاً وتعظيماً، وأدخلنا السرور على قلوب الجمهور، وعفونا عن كل من اجترح سيئة واقترف، وقابلناه بالصفح، وقلنا: "عفا الله عما سلف؛ وتقدمنا بإصلاح أمور

(١) سورة الأنعام، آية ١٢٥.

أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس، وعمارة بقاع الدين والربط الدوارس؛ وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القائمة إلى مستحقيها بشروط واقفيها... وأمرنا بتعظيم أمر الحجاج، وتجهيز وفدها، وتأمين سبلها، وتيسير قوافلها؛ وإنا أطلقنا سبيل التجار المترددين على تلك البلاد ليسافروا بحسب اختيارهم على أحسن قواعدهم". وهو يلتمس مخالفة سلطان مصر، "بحيث تعمر تلك الممالك وتلك البلاد، وتسكن الفتنة الثائرة، وتغمد السيوف الباترة، وتحل العامة أرض الهوينى، وتخلص رقاب المسلمين من أغلال الذل والهون"(١)(†).

وإن من يدرس تاريخ المغول ليرتاح عندما يتحول فجأة من قراءة ما اقترفوه من الفظائع وما سفكوه من الدماء، إلى أسمى عواطف الإنسانية وحب الخير، التي أعلنت عن نفسها في تلك الوثيقة التاريخية التي كتبها تكودار أحمد إلى سلطان المماليك في مصر. والتي يدهش الإنسان لصدورها من مثل ذلك المغولي.

وقد أحفظ تكودار أحمد واضطهاده المسيحيين، المغول الذين كانوا شديدي الاتصال بهم برغم مخالفتهم لهم في الدين، وشكوه إلى قوبيلاى خان، متهمين إياه بأنه خالف بذلك سنن أجداده. وقد قامت في وجهه ثورة على رأسها ابن أخيه أرغّون الذي دبر قتله، ثم خلفه على العرش. وفي أثناء حكم أرغون (١٢٨٤ — ١٢٩١م) القصير، استرد المسيحيون مكانتهم من جديد، على حين لم يكن بد من أن يلقى المسلمون الاضطهاد، فصرفوا عن كافة المناصب التي كانوا يشغلونها القضاء والمالية، وحرم عليهم الظهور في بلاطه(٢).

وقد ظل خلفاء تكودار أحمد على وثنيتهم، حتى دخل غازان (١٢٩٥ — ١٣٠٤م) سابع الإيلخانات وأعظمهم شأناً، في الدين الإسلامي في سنة ١٢٩٥م، وجعله دين الدولة الرسمي في فارس، وفي عهد إيلخانات المغول الثلاثة الأخيرين الذين سبقوا غازان (§)، أمل المسيحيون آمالا كباراً في تحويل الأسرة الحاكمة في فارس إلى الدين الإسلامي، تلك الأسرة التي أظهرت نحوهم عطفاً شديداً، وأسندت إليهم كثيراً من مناصب الدولة الهامة. وكان بيدوخان، سلف غازان، الذي كان رأس الفتنة في فارس، والذي جلس على العرش في سنة ١٢٩٥م بضعة أشهر فقط، قد آثر الدين المسيحي، وجهد في وضع العقبات في سبيل انتشار الإسلام بين المغول، فحرم على كل شخص أن يدعو لذلك الدين أو أن ينشر عقائده بينهم(٣).

---

(١) وصاف الحضارة ٢٣١ – ٢٣٤.

(†) وقد ورد هذا الكتاب أيضاً في القلقشندى: صبح الأعشى جـ١ ص٦٥ – ٦٨، وهو مؤرخ في شهر جمادى الأولى سنة ٦٨١هـ (أغسطس سنة ١٢٨٢م)، وقد بعث به مع رسولين هما قطب الدين شيرازى وأتابك بهلوان. وقد رد قلاوون على إيلخان المغول بكتاب مؤرخ أول رمضان من السنة نفسها (ديسمبر سنة ١٢٨٢م)، وقد ورد هذا الكتاب في القلقشندى (جـ٧ ص٢٣٧ – ٢٤٢).

(٢) De Guignes, vol. iii, pp. 263-5.

(§) هؤلاء هم أرغون (١٢٨٤ – ١٢٩١م)، وجيخاتو (١٢٩١ – ١٢٩٥م) وبيدو (أبريل – أكتوبر سنة ١٢٩٥م).

(٣) C. d'Ohsson, tome iv, pp. 141-2.

وقد شب غازان على البوذية قبل اعتناقه الإسلام، وشيد عدة معابد للبوذية في خراسان. وكان يسر كثيراً بمصاحبة الكهنة الذين ينتمون إلى هذا الدين والذين كانوا قد وفدوا إلى فارس في جماعات كبيرة منذ بسط المغول سلطانهم في هذه البلاد[١]. ويظهر أن غازان كان بطبعه يميل إلى تقليب نظره في المسائل الدينية، لأنه درس عقائد الأديان المختلفة المنتشرة في زمانه وعتاد المقيمة ونظرات مع أئمة كل من هذه الأديان[٢]. وقد أيد رشيد الدين، وزيره العالم ومؤرخ عصره، بالبرهان صحة اعتقاده الإسلام، الذي أخذ على عاتقه المحافظة على شعائره في حماس وغيره طوال عهده، ولو أن معاصريه (وكثيراً ما ردد الكُتّاب الذين جاءوا فيما بعد هذه التهمة) أظهروا أنه إنما أذعن لإلحاح بعض الأمراء والمشايخ وتوسلاتهم[٣]. "وفضلاً عن ذلك، يسأل من يتصدى للدفاع عن عقيدة غازان الدينية: أي شعور خطير يمكن أن يثير اهتمام حاكم في مثل هذه القوة والنفوذ فيلهمه تبديل دينه؟ بل قل اهتمام أمير قام أسلافه الوثنيون بغزو العالم؟" على أن اعتقاد غازان الإسلام قد جذب إليه، بلا مراء قلوب الفرس عندما كان في نزاع مع بيدو على اعتلاء العرش. وقد عدل المغول من المسلمين الذين كانوا في جيش منافسه عن تأييد دعوى أخيهم في الدين. وكانت هذه هي الاعتبارات الحق التي تذرع بها نوروز في حث غازان على قبول دعوته إلى الإسلام. وكان نوروز أميراً مسلماً. مالأ غازان، وناداه بلقب الأمير وتنبأ بأنه سيظهر حول ذلك الوقت لحماية عقيدة الإسلام وإعادتها إلى سابق مجدها؛ كما أعلن أنه إذا اعتنق الإسلام، أصبح حاكم بلاد الفرس، وأن المسلمين إذا تخلصوا من نير المغول الوثنيين المؤلم، انتحلوا دعوته واعترفوا بأنه الدين الحق الذي يخلصهم من هلاك محقق، وباركوا آلاته الحربية ودعوا له بالنصر[٤]. وبعد قليل تردد جهر غازان بإسلامه، واقتفى أثره جنده وقواده: ووزع المنح على أفرادها وأهل العلم وزار المساجد ومقابر الصالحين، وظهر في كل أطواره بمظهر الحاكم المسلم المثالي. وقد شب أخوه أو لجايتو **Aljáytû** الذي خلفه في سنة ١٣٠٤م باسم محمد خدابنده[†] **Khudâbandah** على المسيحية دين

---

(١) Id. Ib. 148.

(٢) C.d'ohsson tome iv. P. 365.

(٣) Cahun, p. 434. Id. Ib. pp. 148, 354.

(٤) C. d'Ohsson, tome iv. Pp. 128, 132.

(†) ذكر ابن بطوطة (جـ١ ص١٤٣) أن اسمه مختلف فيه. وقد قيل خدا (بضم الخاء) ومعناها بالفارسية اسم الله، وبنده، ومعناها غلام أو عبد. وقيل خربنده (بفتح الخاء) ومعناها بالفارسية الحمار، وبنده ومعناها غلام أو عبد، فيكون عبد الله، أو غلام الحمار. وقد قيل إن سبب تسميته بهذا الاسم الأخير أن التتار يسمون الطفل باسم أول داخل إلى البيت عند ولادته. فلما ولد كان أول داخل الزمال (الزمال صاحب الزاملة، الزاملة ما يحمل عليه من الحيوان، ولعلمه يريد منا الحمار) فسمى خربنده. وذكر براون أن غازان لما تولى فر أو لجايتو وظل مشرداً يرعى الحمير في إقليم كرمان وهرمز؛ ولذلك أطلق عليه اسم خربنده أو راعى الحمير. وقيل أيضاً إن أبوي الطفل كانا يطلقان عليه اسماً قبيحاً حتى لا تؤثر فيه عيون الحساد، ولذلك سمى خربنده كما يسمى العرب أبناءهم بفهر

أمه، وعُمّد باسم نيقولا. على أنه لم يلبث أن أسلم بعد موت أمه، وهو لا يزال شاباً في مقتبل العمر، وذلك بتأثير زوجته[١].

ويذكر ابن بطوطة[٢] أن سيرة ذلك الأمير كان لها أثر كبير في نفوس المغول. ومن ذلك العهد غدا الإسلام الدين السائد في دولة إيلخانات فارس.

إسلام أسرة جغطاى: وإن ما لدينا من المعلومات عن تقدم الإسلام وانتشاره في إمبراطورية المغول الوسطى، التي كانت من نصيب جغطاي، لا يزال ضئيلاً. وكان كثير من أعقاب هذه الأسرة يستعينون في دولتهم بوزير من المسلمين على الرغم من أنه لم يبد أي ميل إلى الإسلام. وقد ضيق جغطاي على رعاياه من المسلمين بما سنه من القوانين الشديدة الحرج، التي ضيقت على شعائرهم الدينية، فيما يتعلق بذبح الحيوانات للطعام وفرائض الوضوء. ويذكر الجوزجاني أن جغطاي هذا كان ألد أعداء المسلمين من بين خانات المغول كافة. وقد بلغ من شدة عدائه لهذا الدين أنه لم يكن يرغب في أن ينطق أحد بكلمة مسلم في حضرته اللهم إلا إذا أريد بها التحقير والحط من شأنها[٣]. وقد ربت أرغنة **Orghana** زوجة قرا هولاكو **Qará-Húlágú** حفيد جغطاي وخليفته، ابنها على الإسلام، وتقدم باسم مبارك شاه في سنة ١٢٦٤م مطالباً بعرض خاقانية جغطاي، الذي كان مثار النزاع بين أمراء المغول. ولكن سرعان ما خلعه ابن عمه براق خان **Buráq Khán**. ويظهر أنه لم يكن لإسلامه أي أثر بين المغول؛ فإننا لو رجعنا في الواقع إلى أسماء أبنائه، لا نجد أحداً منهم قد

وكلب وصخر ومعاوية ونحو ذلك تفاؤلاً بأن يكون الولد في كبره صخراً أو كلباً على عدوه. وقال ابن الوردي (تاريخ الوردي ص٢٦٤) إن خربنده اسمه خدابنده، وأن ملكه شمل بلاد العراق وخراسان والعراق العجمي وأذربيجان وديار بكر.

(١) Hammer-Purgstall: Geschichte der llchanen, vol. ii. p.182.

لا يبعد أن تكون سبايا المسلمين قد قمن بدور هام في تحويل المغول إلى الإسلام. ويظهر أن المرأة شغلت مركزاً من مراكز الشرف والكرامة بين المغول. ويمكن أن نأتي بأمثلة كثيرة تؤيد أنه كان لها أثر ظاهر في الشئون السياسية. وقد تصدينا من قبل لذكر عدة حالات تبين مدى تأثير النساء في أزواجهن في المسائل الدينية – ويحدثنا وليم روبروك أنه شاهد بنفسه تأثير إحدى النساء المسلمات، وكيف وقف ذلك التأثير في سبيل نشر تعاليمه الدينية: "وفي عيد العنصرة أتى أحد المسلمين عندما أخذنا في شرح تعاليم الدين في أثناء حديثه معنا. فلما سمع عن نعم الله على الناس وعن التجسد وبعث الموتى ويوم الحساب ومحو الخطايا عن طريق التعميد، رغب في أن يعمد. ولكن، بينما كنا نعد العدة لتعميده، امتطى صهوة جواده على حين غفلة، قائلاً إنه لابد من أن يذهب إلى داره لاستشارة زوجته. وفي اليوم التالي قال لنا في أثناء حديثه معنا إنه لم يستطع أن يجرؤ على أن يعمد، لأنه لا يستطيع عندئذ أن يشرب لبن الفرس". (Rubruck pp. 90-1)

(٢) ابن بطوطة جـ ص٥٧.

(٣) الجوزجاني ص ٣٠١، ٣٦٧ .Ravery, pp. 1110, 1145-6

دخل في دين أبيه[1]. وقد قيل إن براق خان نفسه "قد أدركته البركة بتلقيه نور العقيدة" قبل موته في سنة ١٢٧٠م بأيام قليلة، وإنه تسمى باسم السلطان غياث الدين[2]. إلا أنه دفن حسب طقوس المغول القديمة و لم يدفن وفق شعائر الدين الإسلامي، وأن من أسلموا في عهده ارتدوا إلى وثنيتهم الأولى، و لم يتم انتشار الإسلام بين المغول في مملكة جغطاي إلا في القرن التالي لإسلام مبارك خان، وذلك على أثر إسلام طرماشيرين **Tarmáshirin** حول سنة ١٣٢٦م. وقد ظل المغول الذين اقتفوا أثر زعيمهم متمسكين في هذه المرة بدينهم الجديد. وعلى الرغم من ذلك، لم يتأصل الميل إلى الإسلام بعد في نفوس المغول، فإن بوزن **Buzan** الذي كان خان المغول في السنين العشر التالية (ولو أن صحة هذا التاريخ غير محققة)، لم يلبث أن طرد طرما شيرين من العرش واضطهد المسلمين[3]. على أننا لم نسمع عن ظهور أول ملك مسلم في كاشغر إلا بعد سنين قليلة. وكان ضعف أسرة جغطاي قد أتاح لهذه المملكة أن تستقل بحكم هذه البلاد. ويقول بعض المؤرخين إن إسلام تغلق تيمور خان **Tuqúq Timûr Khán** (١٣٤٧-١٣٦٣م) ملك كاشغر، كان على يد رجل من أهل الورع والتقوى في مدينة بخارى، يقال له الشيخ جمال الدين. وكان معه جماعة من التجار، وكانوا قد اعتدوا على الأراضي التي خصصها ذلك الأمير للصيد؛ فأمر بأن توثق أيديهم وأرجلهم، وأن يمثلوا بين يديه. ثم سألهم في غضب: كيف جرءوا على دخول هذه الأرض، فأجاب الشيخ بأنهم غرباء، ولا يعلمون أنهم يجوسون أرضاً محرمة. ولما علم الأمير أنهم من الفرس قال: إن الكلب أغلى ثمناً من أي فارسي، فأجاب الشيخ: "نعم! قد تكون أغلى ثمناً من الكلب لو أننا لم ندن بالدين الحق". ولما راع الأمير ذلك الجواب أمر بأن يقدم إليه ذلك الفارسي الجسور عند عودته من الصيد. ولما خلا به سأله ماذا يعني بهذه الكلمات، وما ذلك الدين؟ فعرض عليه الشيخ قواعد الإسلام في غيرة وحماس انفطر لهما قلب الأمير حتى كاد يذوب الشمع، وصور له الكفر بصورة مروعة اقتنع معها الأمير بضلال معتقداته وفسادها وقال: "ولكني إذا اعتنقت الإسلام الآن، فلن يكون من السهل أن أهدى رعاياي إلى الصراط المستقيم. فلتمهلني قليلاً؛ فإذا ما آلت إلى مملكة أجدادي، فعد إلي"؛ وذلك أن إمبراطورية جغطاي انقسمت في ذلك الوقت إلى إمارات صغيرة، وظلت على ذلك سنين طويلة حتى نجح تغلق تيمور **Tuqluq Timûr** في توحيد الإمبراطورية كلها تحت سلطانه، وجمع كلمتها كما كانت من قبل، وفي هذه الأثناء كان الشيخ جمال الدين قد عاد إلى بلده حيث مرض مرضاً شديداً، فلما أشرف على الوفاة قال لابنه رشيد الدين: "سيصبح تغلق تيمور يوماً ما ملكاً عظيماً، فلا تنس أن تذهب إليه وتقرئه مني السلام، ولا تخش أن تذكره بوعده الذي قطعه لي". و لم يلبث رشيد الدين إلا سنين قليلة حتى ذهب إلى معسكر الخان، وكان قد استرد عرش إمبراطورية آبائه، تنفيذاً لوصية أبيه؛ ولكنه لم يستطع أن يظفر بالمثول

---

(١) رشيد الدين١٧٣-٤ ، ١٨٨.

(٢) أبو الغازي جـ٢ص١٥٩.

(٣) رحلة ابن بطوطة ج ٣ ص٤٧.

بين يدي الخان برغم ما بذله من جهود. وأخيراً لجأ إلى هذه الحيلة الطريفة، ففي ذات يوم أخذ يؤذن في الصباح المبكر على مقربة من فسطاط الخان، فأقلق ذلك الصوت نوم الخان وأثار غضبه، فأمر بإحضاره ومثوله بين يديه. وهناك أدى رشيد الدين رسالة أبيه. ولم ينس تغلق تيمور وعده وقال: "حقاً! مازلت أذكر ذلك منذ اعتليت عرش آبائي، ولكن الشخص الذي قطعت له ذلك الوعد لم يحضر من قبل؛ والآن فأنت على الرحب والسعة". ثم أقر بالشهادتين، وأصبح مسلماً منذ ذلك الحين؛ "وأشرقت شمس الإسلام ومحت بنورها ظلام الكفر... ولكي ينشر هذا الدين بين رعاياه اتفق تغلق تيمور ورشيد الدين على أن يستقبل الملك الأمراء واحداً بعد واحد، ويعرض عليهم الإسلام، فمن قبله جُوزي الجزاء الحسن، ومن أباه ذُبح كما يذبح الوثنيون وعباد الأصنام" وكان أول من عرض عليه منهم، الأمير تولك **Tûlik**؛ فقال له الخان "ألا تدخل في الإسلام؟ " عند ذلك سالت عبرات الأمير وقال: قد دخلت في الإسلام "منذ ثلاث سنين على يد أحد رجال هذا الدين في كاشغر، وأصبحت مسلماً منذ ذلك الحين؛ ولكنى لم أصرح بذلك خوفاً منك" فنهض تغلق خان وعانقه؛ ثم جلس ثلاثتهم. وهكذا عرض الإسلام على سائر الأمراء، فقبلوه جميعاً، إلا واحداً منهم اسمه جراس **Jarás**؛ فقد أبى أن يدخل في هذا الدين، واقترح عقد امتحان في القوة الجسمانية بين الشيخ وخادمه وكان ضخم الجثة؛ وقد بلغ من شدة قوته أنه كان يستطيع أن يرفع بيديه جملاً ثنياً (ابن حولين)؛ فقبل الشيخ المبارزة وقال لذلك الأمير: "إذا لم أصرعه فلن أطلب إليك أن تدخل في الإسلام؛ وإذا قضت إرادة الله أن ينال المغول الشرف ببركة هذا الدين، فإنه سوف يهب لي، بلا ريب، قوة أستطيع بها أن أظهر على هذا الرجل. " وقد حاول تغلق وغيره من الذين اعتنقوا الإسلام جهدهم في أن يصرفوا ذلك الشيخ الورع عن تلك المبارزة، ولكنه أصر على ذلك. "واحتشد الناس وأتى بذلك الكافر ووقف كل منهما أمام الآخر، فتقدم الخادم في غير اكتراث اعتزازاً بقوته وبدا الشيخ صغيراً ضعيفاً جداً بجانب ذلك الرجل. ولم يكد يبدأ الصراع بينهما حتى وكز الشيخ الكافر وكزة قوية في صدره فسقط مغشياً عليه. وبعد قليل عاود الخادم المصارعة، ولكنه لم يكد ينهض حتى سقط على أقدام الشيخ وصاح بكلمة الإيمان. فأكبر الناس ذلك الانتصار وعلت أصوات الاستحسان من كل مكان. وفي ذلك اليوم قص ١٦٠,٠٠٠ رجل شعورهم ودخلوا في الإسلام. وأخذت الدهشة من الخان كل مأخذ، وبدد نور الإسلام غياهب الكفر" وأصبح الدين الإسلامي منذ ذلك الوقت دين سكان الحضر في الولايات الخاضعة لسلطان خلفاء جغطاي[1]. ولكن يظهر أن كثيرين من بدو المغول بقوا بعيدين عن حظيرة الإسلام حتى مستهل القرن الخامس عشر الميلادي، كما يتضح ذلك من الوسائل العنيفة التي كان يسلكها محمد خان، أمير مغالستان[2] حول سنة ١٤١٦م، لتحويل هؤلاء البدو إلى ذلك الدين. وكان

(١) أبو الغازى جـ٢ ص١٦٦-١٦٨. محمد حيدرص١٣-١٥.

(٢) لما انحلت قوة خانات جغطاي، غدا جزء من القسم الشرقي من مملكتهم مستقلاً استقلالاً عملياً تحت اسم مغالستان. وهى مملكة زراعية تلائم عادات رعاة البدو، وتسمى الآن تركستان الصينية.

محمد خان أميراً ثرياً حسن الإسلام، نهج منهج العدل وسلك سبيل المساواة بين الناس. ولم يفتر عن بذل هذه الجهود حتى أصبح معظم القبائل المغولية في عهده المبارك تدين بالإسلام. وقد عرف الناس هذه الوسائل الشديدة الحرج التي تذرع بها لحمل المغول على الدخول في الإسلام. مثال ذلك أنه كان إذا لم يلبس أحد المغول عمامة أنفذ في رأسه مسماراً من المسامير التي تستعمل في تركيب حدوة الحصان. وذاع استعمال هذا النوع من الوسائل الشديدة الحرج، جزاه الله خيراً[١]".

بل إن أمثال هذه الوسائل الصارمة لم يكن لها تأثير في حمل الناس كافة على قبول الإسلام؛ فقد ظهر في زمن متأخر يرجع إلى نهاية القرن التالي (السادس عشر الميلادي)[٢] أحد الدراويش، واسمه إسحاق ولي، ووجد مجالاً لتحويل كثيرين إلى الدين الإسلامي في كاشغر وياركند وخُتان، حيث قضى اثنتي عشرة سنة ينشر هذا الدين بينهم[٣]؛ كما عني أيضاً بنشر الإسلام بين أمم الكرغيز والقازاق؛ حتى أسلم منهم على يده مائة وثمانون؛ وهدم ثمانية عشر هيكلاً من هياكل الوثنيين[٤].

وقد حاولنا، فيما ذكرناه من قبل، أن نبين بعض الخطى التي خطاها المسلمون ليجذبوا إلى دينهم القبائل المتوحشة التي قضت على مراكز ثقافتهم. وبذلك بدأ الإسلام يتخلص تدريجياً من أطلال مجده السالف، ويتخذ مكانه من جديد باعتباره ديناً ذا سيادة، بعد أن مني بالتدهور والانحطاط أكثر من قرن. وفي أثناء الكفاح الذي احتدم بين أتباع الديانات المتنافسة لجذب المغول إلى دياناتهم؛ كان لاعتبارات المنافع السياسية، بلا ريب، دخل كبير في توجيه هذا الكفاح لمصلحة جماعة المسلمين. وقد أثارت مؤامرات العالم المسيحي في الغرب شك المسيحيين الذين نظروا إليهم على أنهم جواسيس يعملون لمصلحة قوة أجنبية. بيد أن بعض المغول الذين كانوا يدينون بعقائد المذهب النسطوري، استطاعوا بادئ الأمر أن يتقدموا بدعوى أحسن من الدعوى التي تذرع بها غيرهم. وهي أنهم قوم وطنيون، واستطاعوا بذلك أن يحملوا على المسلمين لأنهم أتباع دين أجنبي عنهم. فقد اتهم أرغون أحمد تكودار بخيانة شريعة آبائه بأن سلك سبيل العرب الذين لم يعرفهم أحد من أسلافه[٥]. وإن الثورة التي أدت إلى طرد طرماشيرين ونفيه استمدت قوتها من الشكوى بأن هذا الملك لم يحفل باليساق أو القوانين القديمة الخاصة بالنظم المغولية[٦]. ومع أن مصدر الكفاح قد ظل مثار الشك زمناً طويلاً، رسخت أقدام الإسلام في البلاد التي انتزعت منه وإن الوسائل التي أحرز بها هذا الدين ذلك النجاح، لمن

---

(١) محمد حيدر ص٥٧-٥٨.

(٢) كان ذلك في عهد عبد الكريم الذي كان خان كاشغر من سنة ٩٨٣ إلى سنة ١٠٠٣هـ (١٥٧٥-١٥٩٤م).

(٣) Martin Hartmann: Der Islamische Orient, Vol. i. p. 203 (Berlin,1899).

(٤) Id. P. 202.

(٥) Assmeni, tome iii , Part. ii. P. exvi.

(٦) ابن بطوطة جـ٣ ص٤٠.

المسائل التي يحوطها الغموض والإبهام، كما أن المعلومات القليلة التي ذكرناها، تضرب صفحاً عن ذكر كثير من تفاصيل هذه القصة، بيد أننا قد سجلنا ما يكفي للدلالة على بعض الأعمال التي أدت إلى تحولات فردية إلى هذا الدين. وقد أشرب آنندا روح الإسلام(١)، وتمتعت البقية الباقية من المؤمنين، وخاصة الأسرات التركية الإسلامية القديمة، بنفوذ لا يكاد يحس، بين المغول الذين استقروا بينهم. على أن هنالك من بين العوامل الفعالة التي ساعدت على نشر الدعوة، والتي كان لها أهمية خاصة في هذه السبيل، تأثير البير **Pir** وتلاميذه الروحيين وفي وسط ذلك الخور العميق الذي طغى على المسلمين بعد تدفق سبل الفتح المغولي، وجد هؤلاء ملجأهم الأول في التصوف. وقد أمد البير أو المرشد الروحي والطوائف الدينية — كطائفة النقشبندية التي ظهرت بمظهر النفوذ والقوة في القرن الرابع عشر الميلادي — الجماعة الإسلامية بحياة جديدة وبثوا فيها حماسة شديدة. "وعلى أيدي البير ودعاته غدا المسلم في آسيا أول الأمر عاملاً سلبياً لا يصدر في أعماله عن شعور ووجدان، ثم أصبح آخر الأمر مشايعاً لجماعة الدين القومي التي تناوئ حكم المغول الذي كان وقتاً ما أجنبياً متبرباً سوقياً(٢).

ولنعد الآن إلى الكلام على انتشار الإسلام بين أهالي القبيلة الذهبية. كانت هذه الطائفة من المغول تنزل في ذلك السهل الرئيسي الخصب الذي يرويه نهر الفلجا، حيث اتخذت على أحد ضفافه حاضرتها سيريه **Serai**، ومنها أرسل أمراء الروس الجزية إلى الخان؛ وكان لإسلام بركة خان الذي تكلمنا عليه من قبل، وما كان بينه وبين المماليك في مصر من الصلات الوثيقة أثر كبير في انتشار الإسلام بين أهالي هذه القبيلة.

ويظهر أنه قد حذا حذوه تدريجياً كثير من أفراد الطبقة الأرستقراطية وزعماء القبيلة الذهبية الذين كانوا من أصل مغولي. ولكن يظهر أيضاً أن كثيراً من بطون هذه القبيلة الذهبية قاوموا ذلك الدين وحالوا دون انتشاره بينهم، حتى إنهم فكروا في خلع بركة خان حين أعلن إسلامه، وعرضوا تاج المغول الذي اعتقدوا أنه أصبح غير جدير به على منافسة هولاكو. وبلغ من شدة هذه المقاومة أن انقسم المغول على أنفسهم، وظهرت بينهم قبيلة نوجاي **Nogais** كقبيلة منفصلة، واتخذوا هذا الاسم من **Nogay** الذي كان قائد قواد الجيوش المغولية في دولة بركة خان. ولما أصبح غيره من أمراء القبيلة الذهبية يدينون بالإسلام، ظل نوجاي متمسكاً بالشامانية، وغدا نقطة الاتصال بين كل من هؤلاء الذين أبوا أن يتحولوا عن ديانة المغول القديمة. على أن ابنة هذا القائد التي تزوجت من أحد الشامانيين لم تلبث أن دخلت في الإسلام بعد زواجها بقليل، وظلت على دينها الجديد، و لم يصرفها عنه سوء معاملة زوجها واحتقاره إياها(٣).

---

(١) رشيد الدين ص٦٠٠ س١.

(٢) Cahun, p. 410.

(٣) Howorth, vol. ii. P. 1015.

الإسلام في عهد القبيلة الذهبية: وقد قيل لإوزبك خان **Uzbek Khán**، الذي كان زعيماً للقبيلة الذهبية من سنة ١٣١٣ إلى سنة ١٣٤٠م، والذي اشتهر بتحمسه لنشر تعاليم الدين الإسلامي، وحرصه على تحويل كثير من الأهلين إليه: "اقنع بطاعتنا، وماذا يهمك من ديننا؟ ولماذا تترك دين جنكيز خان لتعتنق دين العرب؟ ولكن أوزبك نجح على الرغم مما لقيته جهوده من مقاومة شديدة، في جذب كثيرين وتحويلهم إلى هذا الدين الذي كان من أشد أتباعه حماسة وصلابة، وإليه يرجع الفضل في توطيد دعائمه وتثبيت أركانه في البلاد التي كانت تحت سلطانه(١). ومما يدل أيضاً على نفوذ أوزبك ما نجده في القبائل الإوزبكية في أواسط آسيا، التي اشتقت اسمها من اسمه والتي لا يبعد أن تكون قد تحولت إلى الإسلام في عهده. ويقال إنه وضع خطة لنشر الإسلام في كافة أرجاء بلاد الروسيا(٢)، ولكن هذه الخطة لم تصادف شيئاً من النجاح. وفي الواقع يظهر أن نفوذ المغول، مع أنهم كانوا أصحاب السيادة المطلقة في الروسيا مدة قرنين، كان قليلاً جداً في أهالي هذه البلاد، وأن هذا النفوذ كان أقل ما يكون في المسائل الدينية. أضف إلى ذلك أنه مما هو جدير بالملاحظة، على الرغم مما أظهره أوزبك من التحمس في نشر الإسلام وتفانيه في الإخلاص له، أنه كان كثير التسامح نحو رعاياه من المسيحيين. فقد منحهم الحرية التامة في إقامة شعائرهم الدينية من غير أن يتعرض لهم أحد بسوء، وذهب في تسامحه إلى أبعد من هذا، فسمح لهم بموالاة التبشير لدينهم ونشره في بلاده. ومن أهم الوثائق التي تسترعي الانتباه عن التسامح الإسلامي، ذلك العهد الذي منحه أوزبك خان المطران بطرس في سنة ١٣١٣م. وقد جاء فيه: "بمشيئة العلي القدير وعظمته ورحمته! من أوزبك إلى أمرائنا كبيرهم وصغيرهم وغيرهم. إن كنيسة بطرس مقدسة فلا يحل لأحد أن يتعرض لها أو لأحد من خدامها أو قسيسها بسوء، ولا أن يستولي على شيء من ممتلكاتها أو متاعها أو رجالها، ولا أن يتدخل في أمورها، لأنها مقدسة كلها. ومن خالف أمرنا هذا بالتعدي عليها، فهو أثيم أمام الله وجزاؤه منا القتل ولندع المطران ينعم بالأمان والبهجة؛ ولندعه (أو وكيله) يقرر وينظم كل مسائل الكنيسة بقلب سليم وفؤاد عادل قويم. وإننا نعلن في حزم أننا نحن وأولادنا وأمراء دولتنا وولاة أقاليمنا لن نتدخل بأي حال في شئون الكنيسة ولا في شئون المطران، ولا في شئون المدن والمراكز والقرى والأراضي المخصصة للصيد في البر والبحر، ولا في الأراضي والمراعي والصحاري، ولا في المدن والأماكن الداخلة في أملاكها الخاصة، ولا في الكروم والطواحين، ولا في مراعي الشتاء، ولا في أي شيء من ممتلكات الكنيسة وأمتعتها. ولندع بال المطران في راحة دائمة خالياً من كل تعب أو نصب، ولندع قلبه سليماً قويماً، ولندعه يصلي لله من أجلنا ومن أجل أولادنا وأمتنا، حتى إذا وضع يده على شيء مقدس، ثبتت عليه التهمة، وباء بغضب من الله، وكان جزاؤه القتل، حتى يلقى مصيره الرعب والفزع في قلوب الآخرين. وإذا فرض الخراج أو غيره من الضرائب: كالرسوم الجمركية، والمكوس، وضرائب الطرق والأراضي غير

---

(١) أبو الغازى جـ٢ ص١٨٤.

(٢) De Guignes, vol. iii. P. 351.

المزروعة، أو إذا أردنا حشد الجنود من بين رعايانا، فلا يجمع شيء بالقوة والإكراه من الكنائس التابعة للمطران بطرس أي لأي أحد من رجال الدين التابعين له: وكل ما يؤخذ من رجال الدين بالقوة والإكراه، يرد إليهم أضعافاً ثلاثة... ولتكن شرائعهم وكنائسهم وأديارهم ومعابدهم محل الاحترام والتعظيم. وكل من يتهم أو يحط من شأن هذا الدين، فلن يقبل منه أي عذر ولا أن يطلب العفو، بل يكون جزاؤه القتل. وسوف يتمتع أخوة القسيسين والشمامسة الذين يجلسون إلى مائدة واحدة وفي دار واحدة بنفس هذه المزايا والحقوق"(١).

ويمكن أن نستدل على أن هذا المرسوم لم يكن كلمات جوفاء أو مجرد "حبر على ورق"، وأن التسامح الذي وعد به هؤلاء المسيحيون قد أصبح حقيقة واقعة من هذه الرسالة التي بعث بها البابا يوحنا الثاني والعشرون **Pope;John xii** سنة ١٣١٨م إلى الخان، يشكر فيها للأمير المسلم ما أظهره من عطف على رعاياه المسيحيين، ويثني على هذه المعاملة الطيبة التي كان أوزبك يعاملهم بها(٢). ويظهر أن خلفاء أوزبك خان لم تدفعهم نفس الرغبة التي أظهرها هو في نشر الإسلام، ومن ثم لم يكن من المتوقع أن ينجحوا فيما أخفق هو فيه. وكان الروس إذا أدوا الضرائب المفروضة عليهم، تركت لهم الحرية في إقامة شعائرهم الدينية كيف شاءوا. وقد بلغ من تغلغل المسيحية في حياة الشعب أنه لم يعد هناك ما يعكر صفو هذه الحياة، وبذلك الجهود لتحويلهم عن دين آبائهم. ويرجع السبب في ذلك إلى أن المسيحية كانت الديانة القومية للشعب الروسي قرابة ثلاثة قرون، قبل أن يوطد المغول سلطانهم في الأراضي الروسية.

تاريخ الإسلام في روسيا: وقد حاول شعب آخر جذب الروس إلى الإسلام قبل ذلك بسنين كثيرة، ولكنه أخفق كذلك؛ وهؤلاء هم البلغار من المسلمين الذين وجدوا حول القرن العاشر الميلادي على ضفاف نهر الفلجا، والذين قد يرجع الفضل في إسلامهم إلى تجار المسلمين الذين كانوا يتاجرون في الفراء وسائر السلع التي كانوا يحصلون عليها من البلاد الشمالية. على أنه يظهر أن دخول البلغار في الإسلام لابد أن يكون قد تم قبل سنة ٩٢١م، حين أرسل إليهم الخليفة المقتدر (٩٠٨-٩٣٢م) (٢٩٥-٣٢٠هـ) رسولاً من قبله يقوم بتثبيتهم على الدين وتعليمهم مبادئ الإسلام وشعائره(٣).

وقد حاول هؤلاء البلغار تحويل فلاديمير **Vladimir** ملك روسيا في ذلك الحين (الذي تحدثنا الرواية الروسية)، أنه رأى أنه لم يكن بد من أن يختار ديناً آخر غير الدين الوثني الذي كان يدين به. ولم يقف في سبيل تحوله هو ورعاياه إلى هذا الدين إلا الختان وتحريم الخمر المستعملين عند المسلمين، وصرح أن الروس لا

---

(١) Karamzin, vol. iv. Pp. 391-4.

(٢) Hammer-Purgstall: Geschichte des Goldenen Horde in Kiptschak, p. 290

(٣) عن الباشغرد الذين ورد ذكرهم في ابن فضل وياقوت وشرح C.N. Fraehnio (Mémoires de l'Académie Imperiale des Sciences de St. Pétersbourg, tome viii. P. 626,1822).

يعدلون عنهما، لأنهما كانا من مباهج الحياة عندهم. وكذلك ابتلى بهذا الإخفاق اليهود الذين جاءوا من بلاد الخزر على بحر قزوين، واستمالوا ملك هؤلاء الروس إلى الديانة الموسوية[1]. وبعد أن أصغى فلاديمير إلى حججهم، سألهم أين بلدهم؟ فأجابوا: "بيت المقدس، ولكن الله شتت شملنا في كافة أنحاء العالم غضباً منه علينا؛ فصاح "إذاً فقد بؤتم بلعنة من الله؛ ومع ذلك فأنتم تريدون أن تعلموا غيركم. اذهبوا! فنحن لا نريد مثلكم ألا يكون لنا وطن". وكان أحسن ما أثر في نفس فلاديمير تلك الفكرة التي رسمها قسيس إغريقي، حين عرض صورة شاملة لتعاليم المسيحية، بعد أن نقد الديانات الأخرى نقداً موجزاً، بادئاً بخلق العالم وقصة فناء الإنسان، وانتهى بالمجامع السبع المسكونية التي اعترفت بها الكنيسة الإغريقية؛ ثم رسم الملك صورة ليوم الدين: ودخول الصالحين الجنة، وقذف الكفار في الجحيم، ووعده بميراث السماء إذا عُمّد. ولكن فلاديمير لم يكن يميل إلى الاندفاع في اختيار دين يحل محل دينه الوثني، ومن ثم جمع زعماء الروس في دولته. ولما أفضى إليهم ما سمعه عن الديانات المختلفة، سألهم أن يمدوه بنصائحهم: فأجابوا: "أيها الأمير! إن كل امرئ يمتدح ديانته؛ فإذا أردت أن تختار أحسنها، فابعث برجال عقلاء إلى البلاد المختلفة ليكشفوا لك أية أمة من الأمم تعظم الله بالطريقة المثلى التي تليق بمقامه الأسمى". لذلك اختار الأمير لهذا الغرض عشرة رجال اشتهروا بالحكمة وسداد الرأي. ووجد هؤلاء السفراء بين البلغار أماكن حقيرة المظهر، وصلوات تبعث على الكآبة، ووجوهاً واجمة، ووجدوا بين الألمان الكاثوليك حفلات دينية خالية من الأبهة والجلال. وأخيراً بلغوا القسطنطينية؛ فقال الإمبراطور: "دعهم يشاهدوا جلال إلهنا" ثم أخذوا إلى كنيسة أيا صوفيا، حيث كان البطريق، وهو مرتد ملابسه الرسمية، يحتفل بالقداس. وإن فخامة البناء، وملابس القسيسين الكهنوتية الجميلة، وزخارف المذابح، ورائحة البخور الزكية، وسكون الناس المنبعث عن الاحترام والخضوع، والاحتفال الديني السحري الذي يتجلى في هيبة وخشوع- كل ذلك ملأ قلوب الروس دهشاً وعجباً وقد بدا لهم أن هذه الكنيسة لابد أن تكون مقام العلي الأسمى، وأنه سبحانه أظهر للبشر مجده في ذلك المكان. ولما عاد الرسل إلى كييف، وصفوا سفارتهم للأمير، وتكلموا في احتقار عن ديانة النبي، ولم يكن لديهم ما يقولونه إلا القليل عن الديانة الرومانية الكاثوليكية، ولكنهم امتدحوا الكنيسة الإغريقية في حماسة وغيرة وقالوا: "إن كل رجل ذاق شربة حلوة، سوف يعاف من الآن لأي شراب مر المذاق. ومن أجل هذا، لا نرغب – بعد أن وقفنا على عقيدة الكنيسة الإغريقية – في أية ديانة أخرى". وقد استشار فلاديمير زعماء الروس مرة أخرى فقالوا له: لو لم تكن الديانة الإغريقية أحسن الديانات، لما اعتقدتها أبداً جدتك أولجا أحكم البشر. ومن ثم لم يعد فلاديمير متردداً. وفي سنة ٩٨٨م جهر بالمسيحية؛ وفي اليوم التالي لتعميده نبذ الأوثان التي عبدها أجداده؛ وأصدر مرسوماً يقضي بأن يذعن الروس كافة، سادة وعبيداً، أغنياء وفقراء للتعميد وفق طقوس الديانة المسيحية[2].

---

(١) أبو عبيد البكري س ٤٧٠-٤٧١.

(٢) Karamsin, tome i. pp. 259-71.

وهكذا أصبحت المسيحية ديانة الروس. فإنه بعد الفتح المغولي تجد الصفات القومية التي تميز بها الـــروس والتتار، الذين احتفظوا إلى الآن بعنصرين منفصلين أحدهما عن الآخر، وما أضمروه من كراهة مريرة للسلطات التتارية، وإخلاص الروس لدينهم، ونقص الغيرة الدينية عند التتار- نجد ذلك كله قد جعل الجـــنس المحكـــوم بعيداً عن اعتقاد ديانة هؤلاء الذين فتحوا بلاده. وقد زعم البعض أن تحريم الشريعة الإسلامية الخمـــور كـــان عقبة في سبيل اعتقاد أهالي الروسيا هذا الدين.

ويظهر أنه لم تكن هنالك حالات عن تحول بعض الروس إلى الإسلام، إلا بعد أن صدر في سنة ١٩٠٥ مرسوم ينص على التسامح الديني في كافة أرجاء الإمبراطورية الروسية، وما تلا ذلك من دعاية نشيطة قام بهـــا المسلمون. وإن ما حدث من هذه الحالات يعزى إلى قوة التأثير الناتجة من المساعدة المادية التي قدمها التتار إلى هؤلاء الداخلين في الإسلام، كما يعزى إلى القوة المعنوية التي تميز بها المسلمون أنفسهم[١].

و لم يكن تتار بلاد الروسيا مجتمعين غير عاملين على تقدم انتشار الإسلام في القـــرون الســـابقة، فـــإن السحنة الهلينية الواضحة التي تشاهد بين هؤلاء الذين يطلق عليهم اسم تتار القرم، أدت إلى الظن بأن هـــؤلاء المسلمين قد أدمجوا في مجتمعهم الأهالي من الإغريق والإيطاليين الذين وجدوهم قد استوطنوا شبه جزيرة القرم. كما نجد بينهم أسلافهم الذين دخلوا في الإسلام من الأهالي الوطنيين في هذه البلاد، ومن ســـكان مســـتعمرة جنوه[٢]. ويحدثنا أحد الرحالين في القرن السابع عشر الميلادي أن تتار القرم كانوا يبـــذلون جهـــدهم لحـــث مواليهم على الدخول في الإسلام، وأنهم جذبوا كثيرين منهم إلى هذا الدين، بما كانوا يعدونهم إياه من منحهم الحرية إذا استجابوا لرغباتهم[٣]. وكذلك نشطت الدعوة إلى الإسلام بين تتار القرم بعد أن صدر مرسوم حرية التدين في سنة ١٩٠٥ [٤].

ولا بأس من أن نشير هنا إشارة إلى التتار في لتوانيا، حيث استقرت جماعات صغيرة منهم منـــذ أوائـــل القرن الخامس عشر. وقد احتفظ هؤلاء المهاجرون المسلمون، الذين أقاموا بين الأهلين من المسيحيين، بـــدينهم القديم. ولكن يظهر أنهم (وقد يكون ذلك لأسباب سياسية) لم يحاولوا أن يعلموهم مبادئ هذا الدين؛ بيد أنهم اعتادوا أن يتزوجوا من اللتوانيات والبولنديات، التي نشأ أبناؤهن نشأة إسلامية، و لم يسمح لأيـــة مســـلمة أن تتزوج من مسيحي. وشجع كبار دوقات لتوانيا زوج النساء المسيحيات من رجال جنودهم التتارية، الـــذين قدموا إليهم هبات من الأرض، ومنحوهم مزايا أخرى[٥].

---

(١) Bovronikoff, P. 13.

(٢) Recjus, tome v. p.831. R. du M.M.,tome iii. PP. 76, 78.

(٣) Relation des Tartares, par Jean de Luca, p. 17. (Thevent, tome i.)

(٤) Islam and Missions, p. 257.

(٥) Gasztowtt, PP. 321-3,R du M.M xi.(1910), pp.287.sqq.

ومن أغرب الحوادث في تاريخ الدعوة إلى الإسلام، ما كان من تحول القرغيز في بلاد آسيا الوسطى على أيدي علماء التتار(الملليات) الذين نشروا الإسلام بينهم في القرن الثامن عشر، باعتبار أنهم دعاة من قبل الحكومة الروسية. وقد أخذ القرغيز ينضمون تحت لواء الروس حول سنة ١٧٣١م، وتبودلت الرسائل السياسية معهم كافة باللغة التتارية قرابة ١٢٠سنة، واهمين أنهم كانوا يشبهون تتار الفلجا من ناحية السلالة البشرية وهناك نوع آخر من سوء الفهم من ناحية الحكومة الروسية، وهو أن القرغيز كانوا مسلمين على حين كانوا في القرن الثامن عشر جميعاً، على وجه التقريب، يدينون بالشامانية، حيث كان عدد كبير منهم لا يزالون يدينون بهذا الدين حتى منتصف القرن التاسع عشر. وفي القرن الذي ضمت فيه بلادهم إلى الإمبراطورية الروسية، عدا قليل من خاناتهم وسلاطينهم، كانت لهم معرفة ما بالدين الإسلامي- وكانت هذه المعرفة على درجة كبيرة من الاختلاط والغموض. ولم يجد أحد مسجداً واحداً في أرجاء سهول القرغيز كافة، كما لم يكن هناك أية معلم ديني يقوم بتعليم دين النبي. ويدين القرغيز بدخولهم في الإسلام إلى هذه الحقيقة، وهي أن الروس الذين عدوهم مسلمين، أصروا على معاملتهم كما لو كانوا كذلك. وقد منحوا الأموال الضخمة لبناء المساجد، وأرسل عدد كبير من (الملليات) لإنشاء المدارس وتعليم الأطفال مبادئ الإسلام. وكان علماء القرغيز يتسلمون في كل يوم مقداراً صغيراً من النقود يقوم بنفقتهم، واستحث الآباء على إرسال أطفالهم إلى المدارس عن طريق الهدايا وغيرها من وسائل التشجيع والإقناع. ومن الأدلة التي لا تقبل الجدل على أن الدعوة الإسلامية قد شقت طريقها في سهول القرغيز من ناحية بلاد الروسيا، هذه الحقيقة الواقعة، وهي أن هؤلاء القرغيز خاصة، الذين كانوا أكثر اتصالاً بأوربا، هم الذين أصبحوا مسلمين أول الأمر. وقد أخذت الشامانية القديمة تسير حتى القرن التاسع عشر في بطء وتمهل، بين هؤلاء الذين طوفوا فيما جاور بلاد خيوة وبخارى وخوقند، مع أن هذه البلاد كانت بلاداً إسلامية عدة قرون[١].

وقد يكون هذا هو المثل الوحيد لحكومة مسيحية شاركت في نشر الإسلام وليس أقل غرابة من ذلك أن الحكومة الروسية في هذا العصر كانت تحاول أن تفرض المسيحية على رعاياها المسلمين في أوروبا، استمراراً لما بذلته من جهود في القرن السادس عشر على أثر فتح خانية قزان.

وفي مستهل القرن التاسع عشر، كان كثير من القرغيز الذين يقيمون في السهول الفسيحة الممتدة جنوباً من مقاطعة تبلسك إلى بلاد تركستان لا يزالون على الوثنية، واتصل بعض بالحكومة الروسية لإيفاد بعث تبشيري للدين المسيحي يقيم بين أظهرهم. ولكن الحكومة لم تجبهم إلى هذا الطلب بحجة أن "هؤلاء الناس كانوا من البربرية والوحشية بحيث لا يكون فهمهم للإنجيل أمراً ميسوراً. سرعان ما سارت لنشر الدعوة

(١) The Russian Policy regarding Central Asia. An Historical sketch, by prof. V. Grigorief. (Eugene Schuyler: Turkistan, vol ii. Pp. 405-6. 5th ed. London, 1876); Franz von Schwarz: Turkistan, p. 58. Freiburg 1910).

جماعات أخرى لا تعتمد على حسن نية أية حكومة، كما كانت أكثر غيرة وإدراكاً واحتلت هـذا الميـدان واجتذبت كافة قبائل القرغيز إلى الدين الإسلامي[١].

وبعد فتح قزان على أيدي الروس في القرن السادس عشر، تلا احتلال خانية التتار السابقة حركة رسمية للتبشير بالمسيحية، وعُمّد عدد من سكان الخانية الوثنيين، ونشط رجال الشرطة ورجال السلطات المدنيـة في تأييد أعمال رجال الكنيسة. بيد أنه، لما لم يكن القسيسون الروسيون يفهمون لغة هؤلاء الذين حولـوهم إلى الإسلام، والذين لم يلبثوا أن أهملوا شأنهم، لم يكن بد من الاعتراف بأن هؤلاء الذين تحولوا حديثاً "يحتفظـون في غير خجل أو حياء بكثير من العادات التتارية المرذولة، ولم يكونـوا يتمسـكون بالعقيـدة المسـيحية أو يعرفونها". ولما أخفقت العظات الروحية، أمرت الحكومة موظفيها بأن يلطفوا من هذه الحالة، ويحبسوا الناس، ويكبلوهم بالحديد، ويحولوا بذلك دون تعليم هؤلاء الذين لا يطيعون أوامر المطران برغم تعميدهم، ويثـيرون مخاوفهم من ناحية العقيدة التتارية.

وفي القرن الثامن عشر بذلت الحكومة الروسية جهوداً جديدة لتنصير القبائل الوثنية، والتتـار الـذين ارتدوا عن دينهم، وبذلوا كثيراً من ضروب الإقناع والإغراء لتعميدهم. ففي سنة ١٧٧٨ أمرت الإمبراطـورة كاترين الثانية بأن يوقع كل من هؤلاء الحديثي العهد بالمسيحية على إقرار كتابي يتعهدون فيه بترك خطايـاهم الوثنية، وتجنب كل اتصال بالكفار، والتمسك بالدين المسيحي وعقائده والثبات عليهما" على الرغم من هـذا كله، لم يكن هؤلاء الذين أطلق عليهم "التتار" المعمدون إلا مسيحيين اسماً، وسرعان مـا أخـذوا يحـاولون التخلص مما بذلت الكنيسة الأرثوذكسية من الجهود التبشيرية، وتركوا المسيحية، واعتنقوا الإسلام. ولم يكـن هذا الدخول في المسيحية إلا خطوة تمهيدية لدخولهم في عقيدة النبي.

وفي الحق أنه لا يبعد أن تكون أسماؤهم قد دونت في السجلات الرسمية باعتبارهم مسيحيين، ولكـنهم وقفوا في ثبات وقوة في وجه أية محاولة بذلت لتنصرهم. ويقول الكاتب في مقال شبه رسمـي نشـر في سـنة ١٨٧٢: "إنه لحقيقة تستحق الانتباه أن سلسلة طويلة من الارتداد الواضح تتفق مع بدايـة الإجـراءات الـتي اتخذت لتثبيت الداخلين في العقيدة المسيحية. ولهذا يجب أن يكون هناك سبب معقول لحالات الارتداد هـذه، في نفس الوقت الذي كان من المتوقع أن يحدث خلاف ذلك". ويظهر أن الحقيقة كانت تنطوي على أن هؤلاء التتار، لكونهم قد ظلوا دائماً مسلمين بقلوبهم، قاوموا التدابير الفعالة التي اتخذت لتجعل اعتنـاقهم المسـيحية الأسمى حقيقة واقعة بحال من الأحوال[٢]. ولكن في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، بـذلت جهـود لتنصير هذه القبائل الوثنية والإسلامية عن طرية إنشاء مدارس بينهم. وكانوا يؤملون من وراء ذلك أن يجـذبوا

---

(١) Islam and Mission, pp. 251-2, 255.

(٢) D. Mackenzie Wallace: Russia, vol. i. pp. 242-4. (London, 1877, 4th ed.) R. du M.M. vol. ix. (1909), p. 249. Bobrovnikoff, p.5. sqq.

إليهم شبيبة ذلك الجيل، إذ ظهر لهم أنهم إذا لم يفعلوا ذلك، كان من المحال أن يفوزوا بإدخال المسيحية بين التتار. ذلك أن "استمالة مواطني قزان – كما يقول أستاذ روسي – أمر صعب المنال، ولكننا نستجلب نفراً قليلاً من سكان القرى الواقعة في السهل، ونروضهم على مخافة الله، فإذا ما أصبحوا معنا فإنهم لن يعرضوا عنا أبداً"(١). ذلك أن القانون الجنائي الروسي كان يتضمن دائماً عقوبات صارمة لهؤلاء الذين حادوا عن الكنيسة الأرثوذكسية(٢)، ويعاقب كل شخص تثبت عليه تهمة تحويل مسيحي إلى الإسلام، بتجريده من كافة الحقوق المدنية، وبحبسه مع الأشغال الشاقة مدة تتراوح بين ثماني سنين وعشر. وبرغم أوامر الحكومة نجحت الدعاية الإسلامية في جذب القرى بأسرها إلى عقيدة الإسلام ولاسيما القبائل الروسية التي تقيم في الشمال الشرقي (٣).

وتعد مدينة قزان المركز الرئيسي لنشاط هذه الدعوة، وكان يطبع في كل سنة عدد كبير من المنشورات الإسلامية، في ذلك المكان، ويذهب المليات من الجامعة لتحويل الوثنيين في القرى وإعادة التتار، الذين كانوا قد ارتضوا التعميد، إلى الإسلام. وإن ازدياد عدد التتار المسيحيين الذين أخذوا في زيادة صفوف الإسلام، قد أثار الفزع في نفوس رجال الكنيسة الأرثوذكسية. ولكن جهودهم قد أخفقت في وقت نجاح المليات في هذه السبيل(٤). وقد دونت الأخبار كثيراً عن دخول الناس في هذا الدين أفواجاً، ولاسيما على أثر صدور مرسوم حرية التدين في سنة ١٩٠٥. مثال ذلك ما قيل من أن إحدى وتسعين أسرة اعتنقت الإسلام في قرية أتومقا **Atomva** في سنة ١٩٠٩(٥). وإن عدداً بلغ من الكثرة حول ٥٣,٠٠٠ نسمة أسلم بين سنتي ١٩٠٦، ١٩١٠(٦). وقد قيل إن أكبر الفضل في نجاح هذه الدعوى يرجع إلى مستوى الحياة الأخلاقية في المجتمع الإسلامي، الذي كان أكثر رقياً، كما يرجع أيضاً إلى شعور التآخي الذي كان يشيع في هذا المجتمع، والذي كان أكثر تماسكاً وقوة(٧). أضف إلى ذلك أن الأساليب التي لجأ إليها رجال الكنيسة الروسية وأيدها

---

(١) W. Hepworth Dixon: Free Russia. Vol. ii. P. 284. (London, 1870).

(٢) مثل ذلك أنه "في سنة ١٨٨٣، سبق فلاحو التتار بقرية أبوزوف **Apozof** إلى محكمة قزان، لأنهم تركوا المذهب الأرثوذكسي. وقد صرح المتهمون بأنهم كانوا يدينون بالإسلام على الدوام. وقد حكم على سبعة منهم بالأشغال الشاقة لاتهامهم بالكفر ونفى كثير من الذين ارتدوا عن دينه إلى سيبريا.

Anatole Leroy-Beaulieu: L'Empire des Tsars et les Russes, tome iii. P. 645. (paris, 1889-93).

(٣) D. Mackenzie Wallace: Russia, vol. i. p. 245.

(٤) Palmieri, pp. 85-6 R. du M.M., i, (1907), pp. 162. sq.

(٥) R.du M.M., ix (1909), p. 294.

(٦) Id. X. (1910) p. 413. Id. i. (1907), p. 273.

(٧) Id. Ix. P. 252.

الحكومة، لتجعل تلك الطبقة التي يطلق عليها التتار المسيحيون أكثر تمسكاً بالدين، قد جعلت العقيدة المسيحية أمراً غير مألوف لديهم[١]. هذا من جهة، ومن جهة أخرى سارت الدعوة الإسلامية قدماً في حماسة بالغة، "فقد كان كل مسلم ساذج أمي داعية إلى دينه، وعجزت القبائل الفقيرة الجاهلة الأمية من الوثنيين أو أشباه الوثنيين عن أن تقاوم هؤلاء الدعاة. وفي كثير من القرى التي عمد أهلها، انطلق الرجال في زمن الشتاء يحترفون الحياكة في القرى الإسلامية. وهناك يتحولون إلى الإسلام ثم يعودون إلى قراهم حُمساً يجلبون معهم أفكار إسلامية يكون لها أثرها في بيوتهم"[٢].

ومن أهم القبائل التي تأثرت بحركة الدعوة إلى الإسلام قبيلة الفوتياك **Votiaks** التي كان السواد الأعظم منها مسيحياً معمداً، بيد أن كثيراً منهم أصبحوا مسلمين في القرن الثاني عشر، وفي مستهل القرن التاسع عشر. ولا يزال تأثير الإسلام آخذاً في النمو، بين هؤلاء الذين يدينون بالمسيحية وبين هذه البقية اليسيرة، التي لا تزال على وثنيتها. وإن قبيلة الشيريمس **Cheremiss**، كالفوتياك، قبيلة من الفِنْ **Finns**[+] لا يزال ربعها على الوثنية، ولكن كثيرين منها كانوا قد أسلموا، ولا يبعد أن يبادر معظمهم إلى الدخول في هذا الدين. وقد تجلت حركة الشيريمس إزاء الإسلام في القرن التاسع عشر، ومع أن كثيرين منهم كانوا مسيحيين اسماً فإن قراهم بأسرها أسلمت برغم القوانين التي تحرم التحول إلى أي دين من الأديان عدا مذهب الكنيسة الأرثوذكسية[٣] وقد أصبحوا مسلمين باتصالهم المباشر بالباشغرد والتتار الذين كانت تشبه أسرهم وعاداتهم الاجتماعية أسرة هؤلاء وعاداتهم. وقد بدأت هذه الخطوات أحياناً بالتصاهر إلى المسلمين- مثال ذلك أن إحدى أسرات الشيريمس في بعض القرى تصاهر إلى بعض الباشغرد واعتنقت ديانته. ولما كان هؤلاء الذين أسلموا يلقون في قراهم عنتاً واضطهاداً بتسميتهم "الكلاب المختونين"، نراهم يهاجرون ويؤسسون مستعمرة جديدة على بعد أميال، كما نرى بعض ذوى اليسار من الباشغرد يعينونهم بالمال. ولكن لما كانوا يعدون وثنيين في السجلات الرسمية، لم يستطيعوا أن يحصلوا على تصريح ببناء مسجد. لذلك انتقل بعض أسرات من الباشغرد التي كانت في الأماكن المجاورة لهم إلى المستعمرة الحديثة، حتى يجعلوا عدد الأهلين بحيث يسمح لهم بالحصول على التصريح الرسمي المطلوب[٤]. وطالما اتخذ مثل هذه الخطوة في القرى الأخرى التي جاء المسلمون لاستيطانها والتصاهر إلى من فيها من الشيريمس[٥]. وكانت هنالك في أحوال كثيرة حركة واضحة لنشر الدعوة

---

(١) R. du M.M., ix. (1909), p. 294.

(٢) Bobrovnlkoff, p.12.

(+) وهي من أصل تيونوني كانت تسكن في الشمال الشرقي من أوربا.

(٣) Reclus, tome, v. pp. 746, 784.

(٤) Eruslanov, pp. 3, 6.

(٥) Id. Pp. 7-8.

– مثال ذلك أن قرية قرقول كانت في مستهل القرن التاسع عشر آهلة بالشيريمس المسيحيين. على أنه بعد منتصف هذا القرن بقليل، تحول بعض الأسرات إلى الإسلام على يد أحد الشيريمس بعد أن دخل في جماعة المليات، وخلفه في الدعوة بعد وفاته أحد الباشغرد من أهالي قرية أخرى. وبعد ذلك انتقل الذين دخلوا في الإسلام إلى قرى التتار والباشغرد، بعد أن احتل التتار أماكنهم، وبعد أن أصبحت القرية بأسرها تتارية في واقع الأمر. واحتفظ قليل من شبيبة الجيل بشيء من لغة الشيريمس وتصاهروا مع التتار وحدهم(١). وإذا تركنا هذا النشاط في تعليم الناس مبادئ الدعوة جانباً، وجدنا تأثير التتار في الكلام والعادات بين الشيريمس منتشراً انتشاراً ملحوظاً جداً فقد انتشرت لغة التتار بينهم، وجلبت معها أفكار الإسلام الأدبية والدينية. ويعد إدخال الزى التتري علامة على تفوق الثقافة. وإذا لم يرتد أحد أفراد الشيريمس الزي الذي يرتديه التتار، تعرض لسخرية أول تتاري يلتقي به أو لسخرية إخوانه من الشيريمس. وهذه الحركة الثقافية تجنح إلى انتحال ديانة التتار بصفة نهائية(٢). وقد قيل أن الشيريمس قد أصبحوا بعد إسلامهم على جانب عظيم من الحماسة لنشر دينهم الجديد، كما تلقوا معونة التتار الموسرين(٣)، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ينظر الروس إلى الشيريمس نظرة احتقار، ويعدونهم جنساً منحطاً، وينبذونهم بألقاب شائنة، حتى هؤلاء الشيريمس من المسيحيين الذين يقيمون بين أظهرهم(٤). ولا يزال نحو ربع عدد الشيريمس على الوثنية، ولكن المؤثرات الإسلامية كانت من القوة بينهم بحيث لا يبعد أن يصبح السواد الأعظم منهم مسلمين على مر الأيام(٥). أما الشوفاش **Ghuvash** الذين يبلغ عددهم المليون، فقد عمدوا بأسرهم تقريباً، ولا يزال نحو عشرين ألفاً منهم على الوثنية، ولكن الإسلام يضمهم إلى صفوفه تدريجاً، على حين أصبح بعض الشوفاش من المسيحيين مسلمين. وأصبحت البقية الباقية منهم واقعة تحت تأثير الإسلام. وقد نستدل على امتداد حماستهم نحو الذين دخلوا منهم في الإسلام من إحدى قرى الشوفاش المسيحية التي يمكن أن نتخذها مثلاً في هذا الصدد، فقد قضى قسيس سنوات كثيرة في جمع ثلثمائة روبل **Roubles** كانت ضرورية لإصلاح الكنيسة. وتحولت ثماني أسرات شوفاشية إلى الإسلام، فجمع المسلمون ألفي روبل في خلال بضعة أشهر لبناء مسجد(٦). وإن مثل هذا النشاط الحي ليعد صفة تتميز بها الدعوة الإسلامية التي كانت منبثة بين القبائل الوطنية في ذلك الحين. وكانت كل أسرة تقبل الإسلام تتلقى

---

(١) Id. Pp. 5-6.

(٢) Id. Pp. 9, 13.

(٣) Id. Pp. 17,20, 36.

(٤) Id. Pp. 39-9.

(٥) Bobrovnikoff, p. 22.

(٦) Id. PP. 21-2,31

المعونة عيناً أو نوعاً: فالبيت يبنى للفرد، ويباع الحقل والماشية وغيرها للآخر، فإذا أسلمت أسرات كثيرة في قرية من القرى، بنى لهم مسجد، وأسست مدرسة لأطفالهم(١).

الإسلام بين تتار سيبريا: وليس لدينا إلا تفصيلات يسيرة عن انتشار الإسلام بين التتار في سيبريا. ولم ترسخ قدم الإسلام في هذه البلاد إلا بعد النصف الأخير من القرن السادس عشر، ولكن دعاة المسلمين كانوا يشقون طريقهم من حين لآخر إلى سيبيريا، حتى قبل هذه الفترة، أملاً في اجتذاب الأهالي الوثنيين لقبول عقيدتهم؛ ولكن السواد الأعظم من هؤلاء الدعاة قد ماتوا موت الشهداء. وعندما انضوت سيبيريا تحت لواء الحكم الإسلامي، في عهد كوتشم خان، كشف أحد الشيوخ المسنين مقابر سبعة من هؤلاء الدعاة، وكان هذا الشيخ قد قدم من بخارى للبحث عنهم إذ كان يتطلع إلى معرفة شيء عن خشوع هؤلاء الشهداء وإخلاصهم في دينهم، واستطاع أن يدلي بأسماء هذا الفريق من الشهداء، وكانت ذكراهم لا تزال حتى القرن الأخير موضع تجلة واحترام لدى التتار في سيبيريا(٢). ولما أصبح كوتشم خان (الذي كان من سلالة جوجي خان، أكبر أبناء جنكيزخان) خاناً على سيبيريا (حول سنة ١٥٧٠)- وكان قد اكتسب حق تولية العرش، إما عن طريق قيامه بغزو البلاد، أو (على رواية أخرى) عن طريق دعوة الأهالي إياه لتولي العرش على أثر وفاة الخان السابق دون أن يعقب ذرية(٣)،- بذل قصاراه في تحويل رعاياه إلى الإسلام، وأرسل إلى بخارى في طلبه دعاة لمساعدته في هذه المهمة التي تنطوي على التدين والتقوى. وقد خلّف لنا أحد الدعاة الذين قدموا من بخاري أخباراً، وصف فيها خروجه مع أحد رفاقه إلى حاضرة كوتشم خان، على ضفة نهر إرتس **Irtish**. وهناك مات رفيقه بعد سنتين، وقفل هو راجعاً إلى وطنه لأسباب لم يتعرض هذا الكاتب لذكرها. ولم يلبث إلا قليلاً حتى عاد إلى بلاد كوتشم خان ثانية لاستئناف عمله وبصحبته رفيق آخر؛ وذلك حين عاود كوتشم خان بخارى بطلبه مداداً من الدعاة(٤). كذلك قدم دعاة من قزان إلى سيبيريا، ولكن تقدم تيار الغزو الروسي وقف جهود كوتشم خان التبشيرية، قبل أن ينجز منها شيئاً كثيراً، وخاصة عندما وقف كثير من القبائل التي تنضوي تحت حكمه يعارضون معارضة قوية كل المحاولات التي بذلها هذا الخان لتحوليهم إلى الإسلام.

بيد أنه على الرغم من أن الغزو الروسي وقف هذه الجهود، لم يتوقف تقدم الإسلام في هذه البلاد بحال من الأحوال، فقد دأب الملليات الآتون من بخارى وغيرها من مدن آسيا الوسطى، والتجار القادمون من قزان، على موالاة الدعوة إلى الإسلام في سيبيريا، وفي سنة ١٧٤٥ تسرب الإسلام لأول مرة إلى قبائل التتار التي

---

(١) Id. P. 13. Islam and Missions, p. 257.

(٢) G. F. Müller: Sammlung Russischer Geschichte, vol. vii. P. 191.

(٣) G. F. Müller: Sammlung Russischer Geschichte, vol. vii. P. 183-4.

(٤) Radloff. Vol. i. p. 147.

يطلق عليها **Baraba Tatrs** (وكانت مساكنهم بين نهري إرتس **Irtish** وأوب **ob**)؛ ومع أن كثيراً منهم كانوا حتى مستهل القرن التاسع عشر لا يزالون على الوثنية، أصبحوا الآن مسلمين بأسرهم[١] وقد سبق الكلام على إسلام القرغيز: وتاريخ معظم القبائل الإسلامية الأخرى في سيبيريا على جانب كبير من الغموض، وإن كان من المحتمل أن يكونوا قد أسلموا في عصر حديث. ومما هو جدير بالذكر، تلك الأغاني الشعبية التي يتغناها القرغيز، والتي تحتل مكانة كبيرة بين وسائل الدعاية الإسلامية في الوقت الحاضر. وقد تضمنت هذه الأغاني حقائق الإسلام الأساسية، مصوغة في أسلوب قصصي أسطوري، مما جعل هذه الحقائق تصل إلى قلوب عامة الشعب في سهولة ويسر[٢].

---

(١) Adrinzew.p.138. Radloff. vol. i. p. 241.

(٢) Radloff, vol; i. pp. 472, 497.

الباب التاسع

انتشار الإسلام في الهند

توزيع الأهالي المسلمين: تناول كثير من المؤرخين الأقدمين والمعاصرين على سواء، الكلام على غزوات المسلمين في الهند وتأسيس النفوذ الإسلامي ونموه في هذه البلاد، بيد أن أحداً لم يحاول إلى الآن أن يكتب عن تاريخ انتشار الإسلام في الهند، باعتباره شيئاً منفصلاً عن الانتصارات الحربية والأعمال الإدارية التي قام بها أشياع هذا الدين، وفي الحق أن مثل هذا العمل يجب أن يبدو أمراً مستحيلاً في نظر كثير من هؤلاء المؤرخين، فطالما كانت الهند البلد المختار الذي يدين بوجود الإسلام فيه، واستمرار ذلك الوجود إلى استقرار الشعوب الإسلامية الأجنبية الفاتحة، الذين نقلوا دينهم إلى ذرياتهم من بعدهم، ولم ينجحوا في نشره فيما وراء بيئتهم إلا عن طريق الاضطهاد والإكراه على التحول إلى هذا الدين. ومن ثم يزعم بعض أن روح الدعوة الإسلامية تعلن عن صورتها الحق فيما أحدثه محمود الغزنوي من مذابح البراهمة الوحشية، وفي اضطهادات أورنج زيب **Aurangzeb**(□). وفي حمل الناس على الختان، على أيدي حيدر علي، وتيبو سلطان ومن شاكلهما.

على أننا نجد من بين الستة والستين مليونا(†)، من مسلمي الهنود عدداً هائلاً لم يكن للقوة والعنف نصيب في تحويلهم أو في تحويل ذريتهم إلى الإسلام، بل كان للتعليم والإقناع وحدهما اللذين لجأ إليهما الدعاة المسالمون تأثيره الفعال في هذه السبيل. وإن هذه الطبقة من هؤلاء الذين تحولوا إلى هذا الدين لتؤلف في حد ذاتها جماعة معينة يمكن أن تتميز عن هذه الجماعة التي تحولت عن طريق الإكراه وعن غيرها من العناصر غير المتجانسة التي يتألف منها مسلمو الهند، ويمكننا أن نقسم هذه الجماعة العامة على وجه التقريب، إلى هؤلاء الذين ينتمون إلى جنس أجنبي، والذين جاءوا بهذا الدين معهم وأدخلوه في البلاد، وإلي هؤلاء الذين تحولوا من إحدى الديانات القديمة في البلاد بتأثير بواعث مختلفة وفي عصور متباينة من التاريخ، وتتألف الجاليات الأجنبية في الهند من طوائف أصلية ثلاث: الأولي، وهي أهمها من حيث العدد، هي طائفة المهاجرين الذين قدموا عبر حدود الهند الشمالية الغربية، والذين نجدهم في إقليمي السند والبنجاب بوجه خاص؛ والثانية هم بقايا أعضاء الطبقة الأرستقراطية أو جيوش الدول الإسلامية الذين أقاموا بكثرة في أعالي الهند وبدرجة أقل بكثير في هضبة الدكن. والطبقة الثالثة والأخيرة، هم هؤلاء الذين استوطنوا الساحل الغربي، ولا يبعد أن يكونوا من أصل عربي، وقد جاء الذين أسسوا هذه المستعمرات إلى بلاد الهند عن طريق البحر(١). ولكن عدد الأسرات، التي تنتمي إلى أصل أجنبي، والتي استوطنت بلاد الهند فعلاً، ليس كبيراً في أي مكان إلا في البنجاب وما يجاورها،

(□) اسم أحد ملوكهم ومعناه زينة العرش (أورنج = العريش، زيب = زينة).

(†) أصبح عدد مسلمي الهند اليوم أكبر مما ذكره المؤلف بكثير.

(١) Census of India, 1891. General Report by J. A. Baines, p. 167 (London, 1893).

وفي الحق أن أكثر من نصف مسلمي الهند قد تلقب بألقاب الشعوب الأجنبية المتميزة، مثل شيخ وبك وخان، بل بلقب سيد. بيد أن السواد الأعظم من هؤلاء المسلمين هم من سكان البلاد الأصليين أو من ذرياتهم الذين تحولوا إلى الإسلام، وتلقبوا بلقب الشخص الذي بلغ أعلى مرتبة بين هؤلاء الذين أسلموا على أيديهم، أو اندمجوا في الطبقة الأرستقراطية الإسلامية، حتى ولو كان صادراً عن بواعث أقل أهمية من ذلك(١). أما هذا القسم الثاني من هذه الجماعة – وهم أهالي البلاد الأصليون الذين تحولوا إلى الإسلام،– فإن تغيير دين فريق منهم، كان بعضهم من غير شك راجعاً إلى ما استخدم من وسائل العنف وضغط السلطات الرسمية، على حين دخل السواد الأعظم منهم في حظيرة الإسلام بمحض إرادتهم إلى حد بعيد. وإن تاريخ الحركات التي قام بها المسلمون لنشر الدعوة الإسلامية، والمؤثرات الاجتماعية التي أدت إلى تحول أهل بلاد الهند إلى الإسلام لم تلق إلى الآن إلا عناية يسيرة جداً. وإن معظم الكتب التاريخية التي نستطيع الرجوع إليها، والتي تتناول الكلام على المسلمين في الهند، سواء أكان مؤلفوها من الأوربيين أم من أهالي هذه البلاد لا تعدو أن تكون سجلات دونت فيها أخبار الحروب والحملات، وما أتاه الأمراء من أعمال، على حين لم يشيروا إلى الحياة في ذلك العصر، إلا بقدر يسير فإذا تصدوا لذكر شيء منها، صاغوه في صورة من التعصب وعدم التسامح الديني. على أننا نستطيع من دراسة أولياء المسلمين، ومن التقاليد المحلية، أن ندرك شيئاً من الأعمال التي قام بها دعاة المسلمين في سبيل نشر الدعوة، مستقلين تمام الاستقلال عن الحياة السياسية في البلاد. ولكن يحسن بنا، قبل أن نتناول الكلام على هذه الأعمال، أن نأتي بنبذة عما قامت به السلطات الرسمية من نشر الدعوة إلى الإسلام، وما قام به حكام المسلمين في سبيل نشر عقيدتهم.

حكام المسلمين وأثرهم في نشر الإسلام: بعد أن انتقل الرسول إلى جوار ربه بخمس عشرة سنة، أرسل العرب حملة إلى بلاد السند، وأخذ سيل الغزاة يتدفق على بلاد الهند من ناحية الشمال الغربي، واستمر ذلك إلى القرن الثامن عشر الميلادي، وكان بعض هؤلاء الغزاة من مؤسسي الإمبراطوريات العظيمة، وبعضهم الآخر لم يعدُ أن يكون قوماً مخاطرين. على حين أتى بعض بقصد السلب والنهب، وعادوا محملين بالغنائم والأسلاب، وبقي بعض آخر يؤسسون ممالك ظل أثرها إلى اليوم. ولكنا لا نعرف عن هؤلاء، إذا كانوا قد استصحبوا معهم أية بعوث أو دعاة لنشر الدعوة. ولكن ذلك لم يكن راجعاً إلى عدم اكتراثهم لدينهم، وأن مثل هذه الفكرة قد تجلت في ذهن كل من محمود الغزنوي وتيمور، وقد دون هذا الأخير فيما دونه عن نفسه بعد أن استولى على دهلي: "لقد قضيت خمسة عشر يوماً في دهلي، بين مظاهر الفرح والنعيم، أعقد مجالس البلاط الملكية، وأقيم الأسمطة العظيمة؛ ثم ذكرت أنني أتيت إلى هندستان لشن الحرب على الكفار. وقد بارك الله هذه الحملة، فجعل النصر حليفي والظفر يتبعني أنى ذهبت. ولقد انتصرت على خصومي، وقتلت بعض مئات الألوف من الكفار وعبدة الأصنام، ولطخت سيف الدعوة بدماء أعداء الدين. الآن وقد تم لي هذا النصر

(١) Id. PP. 126, 207.

المبين، أشعر أنه لا يحق لي أن أخلد إلى الراحة، بل أن ابذل جهدي لشن الحرب على كفار هندستان[١]. ومع أن تيمور يتحدث كثيراً عن سيفه الذي استعان به في نشر الدعوة، يظهر أنه لم يتذرع بأية وسيلة أخري أكثر مما فعله بإرسال الكفار إلى الجحيم. ويبدو أن معظم غزاة المسلمين قد سلكوا سبيلاً تشبه تماماً هذه السبيل. فباسم الله حطمت الأصنام، وقتل سدنتها. وهدمت معابدها، وبنيت مكانها مساجد في أغلب الأحيان. وفي الحق أن الإسلام قد عرض في الغالب على الكفار من الهندوس قبل أن يفاجئهم المسلمون بالقتال[٢]. وقد أملت الرهبة في بعض الأحيان على الناس أن يقبلوا إلى حين ما عرض عليهم للدخول في الإسلام، وأدت إلى حالات تحول إلى هذا الدين، تلك الحالات التي كانت قصيرة الأمد في الغالب على الأقل في الأيام الأولي من الفتح الإسلامي، ثم لم تصبح ذات تأثير بعد انسحاب الفاتحين، ومما يوضح لنا هذه الحالة قصة هردته **Hardatta** أحد ملوك[†] بُلندشهر **Bulandshahr**؛ فقد سرد لنا كاتب محمود الغزنوي كيف خضع له هردته، وذلك فيما كتبه هذا الكاتب عن تاريخ حملات محمود، قال: "وأخيراً (حول سنة ١٠١٠) (٤١٠هـ) وصل (محمود) إلى حصن باربا[٣] في بلاد هردات، وهو أحد رائيس **rá'is**، ومعناها "ملوك" في اللغة الهندية، ولما سمع هردات عن هذه الغزوة التي قام بها جنود الله المحميون الذين تدفقوا كأمواج البحر، تحيط بهم الملائكة من كل جانب، أن أخذ منه الغضب كل مأخذ، وارتعدت فرائصه، وخشي أن يخسر حياته بوقوعها تحت طائلة شريعة الله. لهذا رأى أن خير سبيل لنجاته أن يوافق على اعتناق دين الإسلام، ما دام سيف الله قد جرد من غمده وسوط العذاب قد رفع. لهذا تقدم مع عشرة آلاف رجل، وأعلنوا برغبتهم في التحول إلى الإسلام ونبذهم عبادة الأصنام"[٤].

ولا يبعد أن يكون هؤلاء الذين دخلوا حديثاً في الإسلام قد اغتنموا أول فرصة للارتداد عندما عرض عليهم ذلك إثر انسحاب الفاتحين، وهي ظاهرة نجد من تقدم من مؤرخي الهند المسلمين يوالون الشكوى منها. ذلك أنه عندما أغار قطب الدين أيبك على بران في سنة ١١٩٣م، تصدى له في عنف شندرازن، الذي كان راجا في ذلك الحين، والذي كان ينحدر من بيت هردته، وكان مجرد اسمه يدل على عقيدته الهندية، ولم نعد نسمع بعد ذلك عن وجود مسلمين تحت حكمه[٥].

---

(١) Elliot, vol. ii. P. 448.

(٢) دعا محمد بن القاسم أمراء الهنود إلى اعتقاد الإسلام، ولا يبعد أن يكون الغزاة الذين جاءوا بعده قد عملوا مثله على تنفيذ مبادئ الدين (Elliot, vol. i. pp. 175, 207)

(†) كلمة هندية معناها المدينة العالية

(٣) أوبران وهو اسم بلند شهر القديم.

(٤) Elliot, vol. 11. pp. 42- 3.

(٥) Gazetteer of the N. W. p, vol. iii. Part, ii. P. 85.

ولكن يظهر أن هؤلاء الفاتحين كان لديهم شيء يسير جداً مما نسميه "حب النفوس"، الذي يدفع الدعاة المخلصين إلى نشر الإسلام، والذي أتم مثل هذه الغزوات العظيمة في سبيل الإسلام. فقد بلغ من اشتغال أسرة الخلجيين **Khiljis** التي حكمت من سنة ١٢٩٠ إلى سنة ١٣٢٠م، وأسرة تغلق **Tughlaqs** التي حكمت من سنة ١٣٢٠ إلى سنة ١٤١٢م وأسرة اللوديين التي حكمت من سنة ١٤٥١ إلى سنة ١٥٢٦م، بالحروب، أنهم لم يستطيعوا في الغالب أن يحفلوا بالأغراض الدينية، وأنهم قد فكروا في فرض الضرائب واشتطاطهم فيها، أكثر من تفكيرهم في نشر الدعوة[١]. ولكن الحماسة الدينية لم تنقصهم نقصاً تاماً، فقد قيل إن الجكهر **Ghakkars** مثلاً، وهم شعب متبربر كان يسكن المقاطعات الجبلية شمالي البنجاب، وكانوا قد أثاروا متاعب جمة للغزاة الأولين، قد تحولوا إلى الإسلام بتأثير محمد الغوري في نهاية القرن الثاني عشر. وقد أسر الملك المسلم زعيمهم وحثه على اعتقاد الإسلام، وبعد أن أقر زعامته على هذه القبيلة، أعاده لتحويل أتباعه إلى هذا الدين. ولما كان كثير منهم ذوي إلمام يسير بدينهم القديم، كان من السهل أن يسود فيهم الإسلام[٢].

وقد شجع الخليجيون — كما يقول ابن بطوطة — على تحويل الناس إلى الإسلام، وسنوا عادة تقديم الشخص الذي أسلم حديثاً إلى السلطان، الذي كان يكسوه كسوة حسنة، ويعطيه قلادة وأساور من ذهب على قدره[٣]. ولكن الحكام في عهد الأسرات الإسلامية الأولى لم تكن لديهم الحماسة الكافية لنشر تعاليم الإسلام. ومن الصعب أن نجد أن في تاريخهم ما يشبه هذه العبارة التي دونها فيروز شاه تغلق (١٣٥١ — ١٣٨٨م) فيما كتبه عن تاريخ حياته قال: "لقد شجعت رعاياي الكفار على اعتقاد دين النبي، وأعلنت لهم أن كل شخص يردد هذه العقيدة ويصبح مسلماً، يعفى من الجزية أو ضريبة الرأس. ولما اتصل هذا النبأ بمسامع

---

(١) لم يعن الرواد الحربيون الذين أسسوا دولاً في شمال الهند، وأقاموا لهم ممالك في هضبة الدكن عناية تذكر بالمسائل الروحية، فلم يكن لدى معظمهم في الواقع أي وقت لنشر تعاليم الدعوة، إذ كانوا مشتغلين دائماً بالفتح أو الحروب الأهلية. وكانوا في الغالب من سوقة التتر أو المغول، ولم يكن دين محمد قد تمكن من نفوسهم، كما أنهم لم يتأثروا بحماسة الأجناس السامية الصادقة التي دفعت أول من رفعوا أول لواء عربي في الإسلام. فقد كانت الإمبراطورية التي أسسوها ذات صبغة حربية خالصة. وظلت هذه الإمبراطورية على هذه الحالة بتأثير ما أحرزوه في فتوحهم من بعض النجاح وما منوا به من خيبة بالنسبة إلى غيرهم في غزواتهم الروحية وكان لديهم من القوة ما يجعلهم يحولون دون أي شيء يشبه الاندماج الديني بين الهندوس، أو دون جمع القبائل وجعلها أمماً ولكنهم كانوا أبعد ما يكونون عن تحويل الهند إلى الإسلام، حتى إن دينهم لم يحصل على احتكار للمناصب الإدارية العالية بصفة كاملة نهائية، بين المسلمين أنفسهم. (Sir Alfred C. Lyall: Asjatic Studies, P. 289 (London, 1882))

(٢) Firishtah, vol. i. p. 184.

(٣) ابن بطوطة ج ٣، ص ١٩٧.

الناس، تقدم الهندوس زرافات ووحدانا، وسمح لهم بأن ينالوا شرف الإسلام؛ ومن ثم أخذوا يهرعون من كل حدب وصوب. ولما أسلموا، أعفوا من الجزية، ومنحوا الهدايا، ومظاهر التكريم(١).

ولما توطد النفوذ الإسلامي، وخاصة في عهد أسرة المغول، أصبح نفوذ الإسلام الديني بطبيعة الحال أكثر ثباتاً واستمراراً. حقاً إن هذه المؤثرات لتتجلى في الحركات الهندوكية التي تقول بوجود الله، والتي ظهرت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وقد زعم الأسقف لفروي **Lefroy**(†)، التي تتميز بالغموض والنسبية(†). "لما اصطدم الإسلام، مع ما عرف عنه من تمثيل قوي لحقيقة وجود الله وتلك الحقيقة التي انبعثت منها، وهي طابع الحق الذي يتميز بالثبات المطلق والمحسوسية البحتة — اصطدم بعقيدة الحلول التي تقوم على الغموض، وبما قامت عليه هذه العقيدة من نسبية، تبع ذلك بالضرورة أن الإسلام لم ينتصر في هذه المعركة فحسب، بل لقد غدا البلسم الشافي الذي سرى في شريان الحياة والفكر في بلاد الهند العليا. وسرعان ما أحيا عقولاً كثيرة وبث فيها حياة أكثر قوة ونشاطاً، تلك العقول التي لم تقبل من تلقاء ذاتها أن تتأثر بمثل هذا التأثير الفكري"(٢).

إسلام السرجابوت وغيرهم: وقد ظهر عامل التحول إلى الإسلام، عندما وقف اعتقاد الناس للديانة الوثنية عقبة دون التقدم بين رجال البلاط عند المسلمين. ومع أن روح التسامح، التي بلغت ذروتها تحت حكم "أكبر" الذي كان يدين بالفلسفة الانتفائية(†)، طالما مالأت الديانة الهندوكية، بل احترمت الأوقاف الحكومية الخاصة بهذه الديانة في أغلب الأحيان(٣). ومع أن خوف أكبر من عدم تأييد الجمهور له ورغبته في معالجتهم، قد أملت عليه سياسة عدم التدخل، وأنكرت أمثال هذه الأعمال العنيفة، وثورات التعصب الديني، التي كانت قد ميزت فترة الفتح والانتصار الأولى- مع هذا كله، جذبت أمثال هذه البواعث التي أملتها المنفعة الذاتية كثيرين من الذين تحولوا من الديانة الهندوكية إلى العقيدة الإسلامية. ولقد تحول كثير من أفراد القبائل الهندية "الراجابوت **Rajaputs** بهذه الطريقة، ولا تزال سلالتهم إلى اليوم بين الطبقة الأرستقراطية من ملاك الأراضي.

---

(١) Elliot, vol. iii. P. 386.

(†) مذهب وحدة الوجود panthelsm مذهب فلسفي يقول أنصاره إن الله والكون واحد، أي أن الله حال في كل شيء وفي كل جزء منه متحداً به حتى يجوز أن يطلق الله على كل شيء.

(†) النسبية المذهب الذي يقول إن المعرفة البشرية شخصية بحتة.

(٢) Mankind and the church, p. 286. London, 1907.

(††) يراد بهذه الفلسفة مذهب فرقة إغريقية ظهرت في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد، وتقول بعدم الانحياز لحزب ما، بل باختيار الحسن من كل الأحزاب.

(٣) Sir Richard Temple: India in 1880. p. 164. (London), Punjab States. Gazetteers. Vol. xxxvi, A. Bahalpur. P. 183.

وربما كان أهم هؤلاء ذلك الفرع الإسلامي الذي ينتمي إلي عشيرة بشوتي **Bachgoti**، وعلي رأسها شـــريف أوده **Oudh** الزعيم المسلم الأول. فقد روى في إحدى أساطيرهم أن الإمبراطور "بابر" أسرتيلك تشند **Tilok Chand**، الذي دان بالإسلام ليسترد حريته، على أن أسطورة أخرى ترجع تحوله إلى الإسلام إلى عهد همايون **Humáyûn**. ذلك أن هذا الأمير لما سمع بجمال زوجة تيلك تشند الفاتن، أمر رجاله فقادوها إليه مـــن أحـــد السواق. ولكن سرعان ما أنبه ضميره وردها إلى زوجها. وكان تيلك تشند قد استولى عليه اليأس، واعتقد أنه لن يراها أبداً، واعترافاً بهذا الجميل، اعتقد هو وزوجته الإسلام، "الذي يلقن الناس مثل هذه العفة التي تنطوي على كرم الأخلاق"(١). ويبدي أفراد القبائل الذين تحولوا إلى الإسلام حماسة بالغة. وكثيراً ما نراهم يقـــاومون شعائر دينهم القديم بطريقة تثير الدهشة. وفي مقاطعة بلندشهر **Bulandshahr**. مثلاً نرى أسرة مسلمة كبيرة تشتهر باسم لالخاني بتهان **Lálkhani patháne** لا تزال تحتفظ (مع استثناءات قليلة) بألقابها الهندية القديمة، وعادات أسراتها في الزواج، على حين لا تزال هناك فروع هندية من نفس هذه العشيرة تقييم معهـــا إلى الآن جنباً إلى جنب(٢). وفي مقاطعة مرزابور **Mirzapur** لا يزال أفراد قبيلة جهروار **Gaharwar**، الذين يـــدينون الآن بالإسلام، يحتفظون بنظمها وعاداتها وتقاليدها الهندوكية، ويصدرون أسماءهم الإسلامية بألقاب الشـــرف الهندوكية(٣).

تحول إلى الإسلام عن طريق الإكراه: وقد قيل إن الضغط الحكومي لم يكن قط أشد على الهندوس منه في عهد أورنج زيب **Aurangzeb**. وفي مقاطعات البنجاب الشرقية نجد حالات كثيرة يقال فيهـــا إن جـــد العشيرة الإسلامية التي تتكون من جماعة هذه القرية قد غير دينه في عهد هذا المتعصب، "لكـــي يخلـــص أرض القرية". وفي مدينة جرجاون **Gurgaon** القريبة من دلهي، نجد أسرة هندية تنتمي إلى بنياس **Banyas** الذي لا يزال يحمل لقب شيخ (الذي انتحله عادة الهندوس الذين تحولوا إلى الإسلام)، لأن أحد أفراد هـــذه الأســـرة، الذي انمحي نسبه الآن قد تحول إلى الإسلام ليخلص أملاك أسرته من المصادرة(٤). وأرغم كثيراً مـــن أفـــراد

---

(١) Gazetteer of the province of oudh, vol. i. p. 466.

(٢) Gazetter of the N. W.p., vol. xiv. Part ii. P. 46.

(٣) Id., vol. xiv. Pat ii. P. 119.

في مقاطعة كوتبور Cawnpore يحتفظ الفرع الإسلامي من أسرة دخيت Dikhit بالعادات الإسلامية في الـــولادة والزواج والوفاة. ومع أنهم لا يستطيعون تلاوة الصلاة المسماة نماز Namaz عادة، فإنهم يقيمون طقوسهم النسبية بالسجود. ولكنهم يعبدون جيجيك ديفي Checak Devi (إلهة الجدري والحصبة) في الوقت نفسه ليدرءوا عـــنهم مرض الجدري، ويحتفظوا بأواصر الصداقة مع إخوانهم الذين ينتمون إلى نفس طبقتهم القديمـــة، وهـــم الثكـــور Thakurs في الحوادث العائلية، ويسمون عادة بأسماء هندسية شائعة، (Gazetteerf of the N.W.P., vol. vi. P. 64).

(٤) Ibbetson, P. 163.

القبائل من ملاك الأراضي في مقاطعة كولبور على الدخول في الإسلام لهذا السبب نفسه[١]. وقد قيل في بعض حالات أخرى أن هذا الجد قد سيق أسيراً أو رهينة إلى دهلي. حيث أرغم على الختان والتحول إلى الإسلام[٢]. وينبغي أن نلاحظ أن مصدر هذا التحول الذي تم عن طريق الإكراه إنما هو وليد أسطورة قبلية أو محلية، وليس هناك إشارة (بقدر ما أمكنني الوصول إليه) إلى ذلك في العبارات التاريخية الخاصة بحكم أورنج زيب[٣]. ومما لا مشاحة فيه أن حكام المسلمين قد حولوا الناس إلى الإسلام بالقوة؛ ويبدو أنه من المحتمل أن ما اتصف به أورنج زيب من غيرة معروفة على عقيدته الدينية قد حمل كثيراً من الأسرات الإسلامية في شمال الهند (التي نسي تاريخ تحولهم) على أن تنسب تبديل عقيدتهم إلى هذه الغيرة. وهذا السبب هو أقرب الأسباب احتمالاً. وشبيه بهذا ما نراه في هضبة الدكن، حيث شارك أورانج زيب، حيدر علي وتيبو سلطان **Tipu Sulián** (وهم أشهر حكام المسلمين في العصر الحديث)، فيما شاع من إكراه أسرات مختلفة وطرائف من الأهلين، الذين يبدأ تحولهم إلى الإسلام بلا ريب إلى عهد أقدم من هذا بكثير، حيث لم يصل إلينا أية إشارة تاريخية عن الحوادث التي اكتنفت هذه المسألة[٤].

ولعل تيبو سلطان هو الحاكم المسلم الذي أخذ على نفسه مهمة تحويل الناس إلى الإسلام بالإكراه. ففي سنة ١٧٨٨م أذاع المنشور التالي على أهالي مليبار: بعد انقضاء أربع وعشرين سنة على غزو بلادكم، لا تزالون على عصيانكم وتمردكم، ولازلتم مصدر القلق والاضطراب. وفي الحروب التي نشبت في خلال فصلكم الممطر، كنتم أنتم السبب في استشهاد كثير من جندنا. وليكن هذا، فإن ما فات مات. وإني مستعد لأن أتناسي الماضي، وقد حان الوقت الذي يجب أن تعدلوا عن خطتكم، وتلزموا السكينة والهدوء، وتؤدوا ما عليكم من الضرائب كما يفعل الرعايا الأخيار. وما دامت المرأة فيكم لا تقنع برجل واحد، بل تعاشر عشرة رجال، وما دمتم تذرون أمهاتكم وأخواتكم ينغمسن في حمأة الرذيلة، فإن جميع الناس يولدون من سفاح، وما دمتم في علاقاتكم أكثر قحة من الوحوش الضارية، لذلك أرى لزاماً علي أن أنهاكم عن هذه العادات الأثيمة،

---

(١) Gazetteer of the N. W. P., vol. vi p. 64.

قارن أيضا ما ورد في نفس هذه المصدر vol. xiv. Part. Iii. P. 47 "إن الزراع المسلمين لم يكن عددهم كبيراً. وهم الآن مسلمون دخلوا حديثاً في الإسلام. ويرجع تاريخ تحول معظمهم إلى حكم أورنج زيب، ويصفونه بأنه كان أحياناً نتيجة للاضطهاد، وأحيانا أخرى وسيلة لتمكينهم من الاحتفاظ بحقوقهم إذا عجزوا عن أداء الخراج.

(٢) Ibbetson, p. 163.

(٣) حقاً قال فرشته Firishtah في وضوح: "ولقد بلغ من تحمسه لعقيدة محمد أنه كافأ الذين تحولوا إلى الإسلام بالإغداق عليهم، ولو أنه لم يؤثر عنه أنه كان يضطهد هؤلاء الذين يدينون بعقائد أخرى في الأمور الدينية. (The History of Hindostan, translated from the Persian by Alexander Dow, vol. iii. P. 361.) (London, 1812)

(٤) The Bombay Gazdtteer, vol. xxii. P. 322. vol. xxiii. P. 282.

وأنصح لكم أن تكونوا كسائر البشر، وإذا عصيتم أمري وخالفتم نصحي، فقد أقسمت قسماً حقاً غير حانث فيه ولا آثم، أن أحملكم على الصراط المستقيم، وأن أنيلكم شرف الإسلام أجمعين، وأن أسوق جميع عظمائكم كبيركم وصغيركم إلى مقر حكوميتي". وقد أشعل هذا المنشور نار الثورة في مليبار. ففي مستهل سنة ١٧٨٩، أعد تيبو سلطان جيشاً جراراً يتألف من عشرين ألف مقاتل لتنفيذ هذا المنشور بالقوة. وأصدر أوامر عامة بأن "كل شخص في هذه المقاطعة يجب أن يتشرف بالدخول في الإسلام من غير تمييز، وأن دُور الذين يفرون تخلصاً من هذا الشرف، يجب أن تحرق، وأن يقتفى أثرهم حتى يصلوا إلى مكامنهم، كما يجب أن تستخدم كافة وسائل الصدق والنفاق، والقوة أو الخداع، في حملهم جميعاً على تغيير دينهم. وعلي أثر ذلك اختتن آلاف من الهندوكيين، وحملوا على أن يأكلوا لحم البقر. على أن الجيوش الإنجليزية لم تلبث أن قضت على ما بقي من قوة تيبو سلطان في أواخر سنة ١٧٩٠م، ولقي هذا الحاكم حتفه في مستهل سنة ١٧٩٩ باستيلاء الإنجليز على سري رنجابتم **Seringapatem**(†). وأنكر معظم البراهمة والنيار **Nayars** الدين الإسلامي ورفضوه، وعادوا إلى دينهم القديم[١].

ويمكن أن نحكم على مبلغ ضآلة تأثير انتشار الإسلام بالإكراه من جانب الحكام المسلمين من هذه الحقيقة وهي: أنه حتى في المراكز التي يسود فيها النفوذ الإسلامي، مثل دهلي وأجرا؛ لا يكاد يعدو عدد المسلمين في العصور الحديثة على العشرة في المائة من سكان الإقليم الأول، على حين أن عدد المسلمين في الإقليم الثاني لا يكاد يبلغ ربع السكان[٢]. وهناك مثل بارز نسوقه على عدم أهمية تحويل الناس إلى الإسلام عن طريق الإكراه، ويتجلى هذا المثل في حالة بوده مَلْ **Bodh mal** راجا مجهولي **Raja of Majhaull** في مقاطعة جوركه بور **Gorakhpur**. فقد قبض عليه "أكبر" بسبب اختلاسه أموال الخراج، وحمل إلى دهلي حيث تحول إلى الإسلام وتسمي باسم محمد سليم. على أنه لما عاد، رفضت زوجته أن تسمح له بالدخول إلى قلعة أجداده: ولما جذبت عطف رعيته إلى جانبها على ما يظهر، حكمت بلاده في الوقت الذي كان ابنه بهواني مال **Bhawani Mal** قاصراً؛ وبذلك ظل الحكم في هذا البيت دون أن يتعرض له أحد من غير أفراده[٣]. وقد بقي إلى الآن بعض مخلفات عجيبة تدل على تفاهة تحول الناس إلى الإسلام بطريقة مماثلة، نلاحظها في بعض طقوس الطائفة الهندوكية التي يطلق عليها اسم بشنوئي **Bishnois**، ومن شعائرها الرئيسية إنكار جميع آلهتهم الهندوكية عدا وشنوا **Visnu**. وقد اعتادوا حديثاً أن يدفنوا موتاهم بدل إحراقهم بالنار، واتخذوا اسم "غلام محمد" وغيره من الأسماء الإسلامية، واستعملوا الصيغة التي يستعملها المسلمون في السلام. وقد فسروا انتحالهم

(†) تقع في ولاية ميسور جنوبي الهند، وقد أسسها حيدر على في القرن الثامن عشر.

(١) Innes, pp. 72-3, 190

(٢) Sir W.W. Hunter: The Religions of India (The Times, February, 25th 1888.).

(٣) Gazetteer of the N. W. P. vol. vi. P. 518.

هذه العادات الإسلامية بقولهم إنهم ذبحوا مرة قاضياً كان قد تدخل في طقوسهم الخاصة بـإحراق الأرامـل، فكفروا عن خطيئتهم باعتقادهم الإسلام. على أنهم قد رفضوا الآن إقامة هـذه الشـعائر مراعـاة للعـادات الهندوكية[١]. على أن بعض الحكام المسلمين لم يكونوا، على الرغم من ذلك، أكثر نجاحاً في إكـراه بعـض رعاياهم من الهندوكيين على قبول الإسلام، مما كانوا عليه في الحالات التي ذكرناها آنفاً، ومهما يكن مبلـغ الصدق فيما زعمه بعض الباحثين من أنه[٢] "من المحال أن ندنو حتى من الجانب الـديني الخـاص بموقـف المسلمين في الهند، من غير أن نتمثل مظهره السياسي أولاً: فإننا نجد بلا ريب أن الإسلام قـد أحـرز أعظـم انتصاراته وأطولها بقاء في نشر الدعوة في الأزمان والأماكن التي كانت فيها قوته السياسية أشـد مـا تكـون ضعفاً، كما كانت الحال في جنوب الهند وفي شرق البنغال، ولا بأس من أن نعرض هنا لبعض أمثال حركات الدعوة مبتدئين بجنوب الهند وهضبة الدكن، وبعد أن نعرض الكلام على تـاريخ السـند والكـتش **Cutch** وجوجرات، ننتقل إلى البنغال، وأخيراً نشير إلى بعض ما قام به الدعاة في خارج نطاق هذه الحدود الجغرافيـة التي تقدم ذكرها. أما هؤلاء الدعاة الكثيرون، فلم يدون المؤرخون عنهم إلا أخباراً قليلة، اللهم إلا ما ذكـروه عن أسمائهم ومجال أعمالهم؛ ومن ثم لا نجد في متناول أيدينا تفاصيل في هذا الصدد نظراً إلى ندرة أمثال هـذه الأخبار الخاصة بالدعوة بوجه عام.

الإسلام في جنوب الهند: ويرجع دخول الإسلام في جنوب الهند لأول مرة إلي القرن الثامن المـيلادي، حين قدم جماعة من اللاجئين من العراق، وكانوا يرجعون منشأهم إلى الملابلا **Mappillas** – واسـتقروا في هذه البلاد[٣]. وكان العرب والفرس يزاولون تجارة التوابل والعاج والأحجار الكريمة وغيرها بين الهند وأوربـا مئات كثيرة من السنين. وقد أدى ذلك إلى توالي تدفق النفوذ الإسلامي على الساحل الغربي من بـلاد الهنـد الجنوبية، وكان من أثر تدفق الأجانب المستمر على هذا الإقليم أن نشأ خليط من السكان يتألف بعض منه من الدم الهندي، وبعض آخر من الدم العربي أو الفارسي، وذلك في مراكز التجارة الواقعة على طـول السـاحل. ويبدو أن علاقات ودية وطيدة نشأت بين هؤلاء التجار المسلمين والحكام الهنود الذين بسطوا لهـم حمـايتهم ومدوا لهم المؤازرة والمعاضدة، نظراً إلى نشاط الحركة التجارية المتزايدة، وما تبع ذلك من رخاء البلاد الـذي كان نتيجة لبقاء هؤلاء التجار فيها[٤]. و لم تقف عقبات في سبيل نشر تعاليم الدعوة، ولقي الذين دخلـوا في

---

(١) Gazetteer of the N. W. P. vol. v. part i. pp. 302 – 3.

(٢) Sir Alfred C. lyall: Asiatic Studies, p. 236.

(٣) نجد على القبرة من مقابر Pantaláyini Kollam نقشاً يحمل تاريخ ١٦٦هـ (Innes, p. 439).

(٤) زين الدين، ص ٣٤ – ٣٥.

الإسلام من أهالي هذه البلاد الاحترام والتقدير اللذين لقيهما التجار الغرباء، مع أنهم كانوا قبل إسلامهم ينتمون إلى أحط طبقة في المجتمع[١].

وتصور الأخبار المنقولة عن دخول الإسلام في مليبار، كما أوردها مؤرخ مسلم عاش في القرن السادس عشر الميلادي، أن أسبق الدعاة كانوا جماعة من الحجاج في طريقهم لزيارة أثر قدم آدم في سيلان. فلما وصلوا إلى جرنجانور **Granganore** بعث الراجه في طلبهم، ووجد الشيخ شرف بن مالك بن حبيب، زعيم هذه الجماعة، وكان في صحبة أخيه مالك بن دينار، وابن أخيه مالك بن حبيب، الفرصة سانحة لأن يبسطوا له عقيدة الإسلام ورسالة محمد، فأدخل الله سبحانه في قلبه صدق النبي ﷺ فأمن به، ودخل في قلبه حب النبي ﷺ، وأمر الشيخ بأن يرجع هو وأصحابه إليه بعد زيارة قدم آدم عليه السلام[٢]. ولما عاد الحجاج من سيلان رحل الملك معهم خفية من سفينة كانت على أهبة الرحيل إلى ساحل بلاد العرب، تاركاً مملكته في أيدي نوابه. وهناك بقي وقتا ما. ولما أوشك أن يعود إلى بلاده، معتزماً بناء المساجد ونشر عقيدة الإسلام فيها، انتابه المرض ومات، وقد أوصي رفاقه وهو على فراش الموت، وشدد في الوصية، ألا يعدلوا عن رحلتهم التي أزمعوا القيام بها إلى مليبار لنشر الدعوة، وأن يساعدوهم على أداء مهمتهم، وأعطاهم كتباً إلى نوابه يوصيهم فيها بهم خيراً، وأمر رفاقه في الوقت نفسه أن يكتموا حقيقة موته، ولما تسلح شرف بن مالك ورفاقه بهذه الكتب أبحروا إلى جرنجانور، حيث أتاحت لهم رسالة الملك حفاوة كريمة ومنحة من الأرض عمروا عليها مسجداً. وقد عزم مالك بن دينار على الاستقرار في هذه البقعة، ولكن مالك بن حبيب سافر في رحلة ترمي إلى نشر الدعوة الإسلامية وبناء مساجد في كافة أرجاء مليبار. "فخرج مالك بن حبيب إلى "كولم" بماله وزوجته وبعض أولاده، وعمر بها مسجداً". ثم خرج منها بعد ما خلى زوجته فيها إلى هيلي ماراوي[٣] وكذا تستمر القصة، فتورد سبعة أماكن أخري بنى هذا الداعي فيها مساجد، ثم عاد أخيراً إلى جرنجانور. وقد زار كل هذه الأماكن أخيراً للمرة الثانية ليؤدي الصلاة في كل منها، ورجع إلى وطنه، شاكرا الله وحامداً له بظهور دين الإسلام في أرض ممتلئة كفرا[٤].

وليس هناك دليل على صحة هذه الرواية من الناحية التاريخية، على الرغم مما تتصف به من الإسهاب. ويضع الاعتقاد السائد تاريخ وقوع هذه الحوادث المدونة إلى الزمن الذي عاش فيه النبي. وقد ظن زين الدين في شيء قليل من الشك أن هذه الحوادث إنما وقعت بعد المائتين من الهجرة النبوية[٥]. ولكن ليس هناك ما يؤيد

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٦.

(٢) زين الدين، ص ٢١.

(٣) هي مدينة مدابي الحديثة.

(٤) زين الدين – ص ٢٣-٢٤.

(٥) المصدر نفسه ص ٢٥.

ترجيح أحد هذين التاريخين على الآخر، أو ما يؤيد رواية المابلا الشائعة الخاصة بوجود قبر أحد ملوك الهندوكيين في ظفار على ساحل بلاد العرب، وقد نقش عليه "عبد الرحمن السامري" قدم سنة ٢١٢هـ، وتوفي سنة ٢١٦"[١]. كما يحمل المسجد الذي بني في مدابي، والذي قيل إن الذي بناه هو مالك بن دينار، نقشاً تذكاراً لبنائه في سنة ١١٢٤م[٢].

على أن الأسطورة تحمل في الواقع الدليل على طابع المسالمة الذي اتسمت به مؤشرات نشر تعاليم الدعوة التي كانت قائمة على ساحل مليبار قروناً عدة. وكان الأفراد الذين قاموا بهذا العمل تجاراً من العرب خاصة. بيد أن ابن بطوطة يذكر كثيراً من علماء الدين الذين اتخذوا تعليم الدين حرفة، وقد جاءوا من بلاد العرب وغيرها، وقد قابلهم في مدن شتى على ساحل مليبار[٣]. وقد قيل إن رامورن، وكان أحد كبار أنصار التجارة العربية في قليقوط، شجع دخول الناس في الإسلام، ليجهز السفن العربية التي اعتمد عليها في إعلاء مكانته، كما قيل إنه أمر بأن يكون في كل أسرة من صيادي السمك في بلاده فرد أو أكثر من الذكور ينشئون تنشئة إسلامية[٤]. وفي مستهل القرن السادس عشر قدر عدد أهالي المابلا بأنهم كانوا يؤلفون خمس سكان مليبار، وأنهم كانوا يتكلمون بلغة الهندوكيين، ولم يتميزوا عنهم إلا بلحاهم الطويلة ولباس رأسهم الخاص، ولكن حين قدم البرتغاليون، كان من الممكن أن يدخل جميع أهالي هذا الساحل في الإسلام، بسبب ما حدث من كثرة تحول الناس إلى الإسلام، وما كان التجار المسلمين الذين جاءوا من سائر جهات الهند مثل جوجرات والدكن، ومن بلاد العرب وفارس، من نفوذ قوي[٥].

ولكن يظهر أنه ليس هناك خبر مدون عن الأفراد الذين قاموا بنصيب في نشر الدعوة اللهم إلا ما ذكره المؤرخ عبد الرزاق، الذي ترك لنا وصفاً لسفارته التي لم تصادف نجاحاً في بلاط زامورن ملك قليقوط. فقد

---

(١) Innes, p. 41.

(٢) Id. P. 398.

(٣) ابن بطوطة ج ٤، ص ٨٢، ٨٨ وغيرها.

(٤) Innes, p. 190.

(٥) Oboardo Barposa. P. 310 وكذلك زعم بعض أن سيلان لم تصبح مملكة إسلامية إلا بعد قدوم البرتغاليين، ذلك أنه قبل أن تظهر قوات البرتغاليين في البحار الهندية، كان تجار العرب سادة التجارة في هذه الجزيرة بلا منازع (حيث كانوا في الواقع قد كونوا مستعمرات تجارية قبل مولد النبي بقرون)، كما كانوا يوجدون في كل ميناء ومدينة، بينما جذبت سهولة التجارة جماعات كبيرة من وفود جديدة جاءت من مستعمراتها في مليبار. وهنا صنع تجار العرب ما كانوا يصنعونه في أي مكان، فتصاهروا إلى أهالي هذه البلاد، ونشروا دينهم على طول الساحل. ولكن يظهر أنه لم تقم هناك حركة فعالة صحيحة لنشر تعاليم الدعوة، بل لم يظهر السغاليون غير راغبين في اعتقاد الإسلام، كما يظهر أن معظم مسلمي سيلان في الوقت الحاضر ينتمون إلى أصول عربية. Sir james Emerson Tennent: Ceylon vol. i. pp. 631 – 3. (5th ed, London 1860)

أرسله الشاه روخ بهادر أحد ملوك الأسرة التيمورية في هذه السفارة سنة ١٤٤١، تلبية لنداء أحد السفراء، وكان قد أرسله زامورن ملك قليقوط إلى هذا الملك. وكان السفير نفسه مسلماً، وقد صور للسلطان أن إرسال رسالة خاصة إلى الزامورن أمر على جانب عظيم من السمو والأهمية، وطلب إليه أن "يدعو الزامورن لقبول الإسلام اتباعا لأمره تعالي ﴿**ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾[١]. وافتح مغلاق الظلمة والباطل الذي أوصد قلبه المظلم، ودع بهاء نور الإيمان، وسطوع ضياء الشمس يشرقان من نافذة روحه" وقد اختير عبد الرزاق[٢]. لهذه المهمة، فوصل إلى قليقوط بعد رحلة محفوفة بالمخاطر؛ ولكن يظهر أنه قوبل مقابلة جافة. وبعد أن مكث هناك نحواً من ستة أشهر، ترك الأغراض الأساسية، وقفل راجعاً إلى خراسان فوصل إليها بعد أن تغيب ثلاث سنين.

وهناك جماعة أخري من المسلمين في جنوب الهند، وهم الرفوتَان **Ravuttans**[٣]، الذين يعزون دخولهم في الإسلام إلى تعليم الدعاة الذين يمجدون قبورهم حتى الوقت الحاضر. وكان سيد نَتهر شاه[٤]. (٩٦٩ – ١٠٣٩م) أشهر هؤلاء الدعاة، وكان قد طوَف كثيراً في بلاد العرب وفارس وشمال الهند، ثم استقر في ترتشنابلي **Trichinopoly**، حيث قضى بقية حياته في العبادة وأعمال الخير، وحول عدداً كبيراً من الهندوكيين إلى عقيدة الإسلام وكثيراً ما يؤم الناس قبره ويعدونه مكاناً للحج. وقد أطلق المسلمون على ترتشنابلي اسم نتهر نجر، تيمناً باسم هذا الولي[٥]. وكان سيد إبراهيم شهيد (ويقال إنه ولد حول منتصف القرن الثاني عشر)، وضريحه على شاطئ نهر إراودي بطلاً محارباً، قاد حملة إلى مملكة بان ديان **Pandyan**، واحتل هذه البلاد اثنتي عشرة سنة تقريباً، ولكنه قتل أخيراً. على أنهم أنقذوا حياة ابنه تقديراً لحكم أبيه الحافل بالخير، ومنح قطعة من الأرض، ولا يزال أعقابه ينعمون بها إلى اليوم. وكان آخر هؤلاء الأولياء شاه الحميد (١٥٣٢–١٦٠٠)، وقد ولد في مانك بور في شمال الهند، وقضى معظم حياته في زيارة مشاهد الإسلام

---

(١) سورة النحل: آية ١٢٥.

(٢) مطلع السعدين، ورقة ١٧٣.

(٣) ونجد هؤلاء بصفة خاصة في مقاطعات مادوره، وتناولي Tinnevelly وكويم بتور Coimbatore وأركوت الشمالية North Arcot وأهالي نيل جيري Nilgiris من الذين يتكلمون لغة تامل Tamil (هي لغة يتكلم بها أهالي جنوب الهند).

(٤) وتنطق مجلة Imperial Gazetteer of India (vol. xxiv. P. 47) اسمه نادر شاه، ويطلق قادر حسين خان عليه اسم نثدولي.

(٥) Madras District Gazetteers. Tichinopoly, vol. p.338. (Madras, 1907). Qadir, Husayn Khán: south Indian muslmans p.36. (Maras, 1910).

المقدسة، وفي القيام برحلات لنشر الدعوة وخاصة في أرجاء جنوب الهند، واستقر أخيراً في ناجور حيث لا يزال أعقاب ابنه المتبني يتعهدون قبره[١].

وهناك جماعة أخرى من المسلمين في جنوب الهند؛ وهم الدودي كولا **Dudekulas**، يعيشون على تنقية القطن (كما يدل على ذلك اسمهم)، ونسج الأقمشة الخشنة، ويعزون دخولهم في الإسلام إلى بابا فخر الدين الذي يمجدون قبره في بينو كنده **Penukonda**. وتقول الأسطورة إنه كان في الأصل ملكاً على سيستان، ثم نزل عن عرشه لأخيه وأصبح من سُؤَّال الهنود المتدينين. وبعد أن حج إلى مكة والمدينة أمره النبي في الرؤيا بأن يذهب إلى الهند؛ وهنا قابل نتهر شاه ولي ترتشنابلي وتتلمذ عليه، فأرسله في صحبة مائتين من سؤال المتدينين في بعثه لنشر تعاليم الدين. وتستمر الأسطورة فتخبرنا أنهم استقروا أخيراً في بينو كنده على مقربة من معبد هندي. حيث لم يرحب راجا هذا المكان بوجودهم، ولكن بدلاً من أن يلجأ إلى القوة أجرى اختبارات كثيرة ليقف على ما إذا كان هذا الولي المسلم أو كاهن هذا الراجه أحق بالقداسة التي تؤهله لامتلاك المعبد. وفي اختباره الأخير أمر بكليهما أن يربطا في أكياس مملوءة كأساً، ثم يلقى بها في صهاريج. وقد رسب الكاهن الهندوكي و لم يظهر، ولكن بابا فخر الدين برهن على تفوق عقيدته بأن انتقل بمعجزة إلى تل في خارج المدينة. ومن ثم دخل الراجا في الإسلام، وحذا حذوه عدد كبير من سكان البلاد المجاورة، وتحول المعبد إلى مسجد[٢].

الإسلام في عهد حيدر علي وتيبو سلطان: ولا شك أن تاريخ الإسلام في جنوب الهند ظل دائماً يتسم بطابع السلام، ولكن لا يبدو أن تحول الهندوكيين وغيرهم إلى الإسلام عن طريق الإكراه، الذي ارتكب في الوقت الذي أصبح فيه النفوذ الإسلامي مطلقاً في عهد حيدر علي (١٧٦٧-١٧٨٢) وتيبو سلطان (١٧٨٢-١٧٩٩)، ويمكن أن يوازن بما كانت عليه الحال في تاريخ هذا الجزء من الهند الذي سبق هذا العهد. على أنه مهما يكن من أمر، فليس ثمة ما يدعو إلى الشك في أن تحويل الناس المطرد إلى الإسلام بالطرق السلمية كان من بين الطبقات السفلى[٣]، كان هي الحال في الوقت الحاضر حين يزداد دخول الناس من حين إلى حين من بين أفراد قبيلة تيان **Tiyans**، الذين يقال إنهم يكونون إحدى الجماعات التي تعد من أكثر الجماعات تقدماً في الهند، وجماعة مكهَ ون **Mukkuvans**، أي طبقة السماكين وكذلك من طبقة تشرومن **Cherumans**، أي حراث الأرض، وغيرها من طبقات الرقيق، الذي يخلصهم الإسلام من القيود التي تلحق بالمنبوذين في نظام الهند الاجتماعي. وقد يحدث كذلك أن يؤخذ الداخلون في الإسلام من بين النيار والأهالي المسيحيين. وفي بوناني

---

(١) Qadir Husayn Khán, pp.36-8.

(٢) Qádir Musayn khán, op. cit. pp.39-42, Madras District Gazetteers. Anantapur, vol. i, pp.193, Madras, 1905.

(٣) زين الدين ص٣٣ (ص٤)؛ ٣٦ (س١).

Ponnani، مقر الرئيس الروحي لجماعة المسلمين في مليبار. توجد رابطة يطلق عليها "منة الإسلام سبها"، أي مجلس منة الإسلام، حيث يلقن الذي يدخلون في هذا الدين شعائر دينهم الجديد، وتقدم المساعدات المادية إلى هؤلاء الذين ينتظمون في سلك التعليم. وكان متوسط عدد الذين قبلوا في هذا المعهد ممن تحولوا إلى الإسلام ٧٥٠ في خلال السنوات الثلاث الأولى من القرن العشرين(١). وقد بلغ من كثرة تحول الناس من الديانة الهندوكية أن ميول مسلمي الساحل الغربي، وكذلك الساحل الشرقي لبلاد الهند الجنوبية، كانت تجنح إلى الطابع الهندوكي أو الوطني. ويمثل السواد الأعظم منهم الآن، اللهم إلا في حالة بعض الأسر التي تنتمي إلى أصل أرقى، كل الصفات التي يتميز بها شعب أصيل في القومية، مع قليل جداً من الدم الأجنبي القديم الذي يجري في عروقهم(٢). وفي الأقاليم الواقعة على الساحل الغربي نجد طغيان التعصب الطبقي يمتاز بالجور والظلم. ولنأت بمثال واحد. ففي تراونكور **Travancore** لا يسمح لبعض الطبقات السفلى أن تقترب من البرهمي بأكثر من أربع وسبعين خطوة، كما يجب عليهم أن يصيحوا بصوت كصوت الخنزير وهم في الطريق إيذاناً بدنوهم. وهناك أمثلة كثيرة من هذا النوع للتدليل على صحة هذا القول. لذلك لا نعجب إذا رأينا الأهالي المسلمين يزداد عددهم بسرعة بسبب دخول الناس في الإسلام من بين هذه الطبقات السفلى الذين يحررون أنفسهم بذلك من مثل هذا الظلم الذي يحقر من شأنهم، والذين يرفعون منزلتهم ومنزلة ذرياتهم في المجتمع.

ويقال في الواقع إنه قد بلغ من ازدياد عدد المابيلا الذين يقيمون على الساحل الغربي بسبب من دخل في الإسلام من الطبقة الهندوكية السفلى، أن أصبح في الإمكان أن تتحول كافة الأجناس السفلى التي تقيم على الساحل الغربي إلى الإسلام في سنوات قليلة(٣).

في جزائر لكريف وملديف: وأغلب الظن أن الإسلام قد عبر من مليبار إلى جزائر لكديف وملديف (في خليج بنغالة) التي نجد كافة أهليها الآن مسلمين. ويدين سكان هذه الجزائر بدخولهم في الإسلام إلى تجار العرب والفرس، الذين استوطنوا هذه البلاد وتصاهروا إلى الأهالي ومهدوا بذلك السبيل لنشر تعاليم الدعوة في نشاط وقوة. وقد زعم بعض أن تاريخ تحول أول سلاطين جزائر ملديف من المسلمين، وهو أحمد شنورازه(٤)، كان حول سنة ١٢٠٠م. ولكن من المحتمل جداً أن تجار المسلمين كانوا قد أدخلوا دينهم إلى الجزيرة قبل

---

(١) Iunes, p.190. Census of Iudia. 1911. vol. xii. Part. I. p.54.

(٢) Report on the Census of the Madras Presidency, 1871, by W.R. Cornish, pp. 71,72,109. (Madras, 1874).

(٣) Report of the secoud Decennial Missionary conference held at Calcutta, 1832-3, (pp. 228, 233, 248) (Calcutta, 1883)

(٤) ابن بطوطة جـ٤ ص١٢٨. أقام ابن بطوطة في جزائر ملديف في سنتي ١٣٤٣-١٣٤٤م، وتزوج ابنة وزير، وكان حفيد السلطان داود، الذي كان حفيد السلطان أحمد شنورازه (جـ٤ ص ١٥١). ومن هذا البيان أخذنا هذا التاريخ وهو سنة ١٢٠٠م عن الحدس والتخمين.

ذلك بوقت لا يقل عن ثلاثة قرون، وأن خطوات هذا التحول لابد أن تكون من غير شك قد تمت تدريجاً[١]. بيد أنه لم تصل إلينا معلومات تفصيلية عن ذلك التحول.

وفي مالي **Male**، وهي مقر الحكومة، نجد ضريح الشيخ يوسف شمس الدين، أحد أهالي تبريز في إيران. وقد قيل إنه كان من دعاة الإسلام الذين أحرزوا نجاحاً في نشر الدعوة في هذه الجزائر، ولا يزال الناس يعظمون قبره، ويقومون دائماً على إصلاحه، كما دفن في نفس هذه الناحية من الجزيرة بعض مواطنيه الذين جاءوا للبحث عنه، وبقوا في جزائر ملديف حتى زمن وفاتهم[٢].

ويعزى دخول الإسلام في الأماكن التي تجاور جزائر لكديف إلى داع عربي، عرفه سكان الجزائر باسم مَمْباملايكا؛ ولا يزال قبره يشاهد في أندروتهة. ولما كان قاضي هذا المكان في الوقت الحاضر يدعي أن هذا الداعي هو جده السادس والعشرون، لا يبعد أن يكون هذا الداعي قد وصل إلى هذه الجزائر في وقت ما في القرن الثاني عشر[٣].

في الدكن: كذلك كانت منطقة الدكن مسرحاً لأعمال موفقة قام بها كثير من دعاة المسلمين، وقد أشرنا من قبل إلى أن تجار العرب كانوا قد زاروا منذ عصور مبكرة جداً المدن الواقعة على الساحل الغربي. ويروى أن جماعات كبيرة من العرب استقروا في القرن العاشر من مدن إقليم كان كن، وذلك عندما تزوجوا من نساء البلاد وعاشوا على شرائعهم وديانتهم[٤]. وفي عصر أسرتي ملوك بَنهمَني (١٣٤٧-١٤٩٠) وبيجابور (ص ١٤٨٩-١٦٨٦) دفع إلى الهجرة العربية روح جديد، فقام الدعاة مع التجار والجنود من ذوي الغنى واليسار يلتمسون القيام بغزوات روحية لأجل الدعوة إلى الإسلام، واكتساب الشعب الكافر في تلك البلاد بدعوتهم إلى الإسلام، وطلب الاقتداء بهم. ذلك أنه ليس لدينا خبر مدون عن حدوث تحول عن طريق القوة والإكراه في عهد أسرات الدكن المبكرة، التي يتميز حكمها بتسامح ديني بالغ[٥].

وقد وفد أحد دعاة العرب، واسمه بيرمهابير(†) خام دايت، على بلاد الدكن في عصر مبكر يرجع إلى سنة ١٣٠٤م. ونجد من بين الطبقات المستنيرة في بيجابور سلالات من الجين **Jains** تحولت على يديه[٦].

---

(١) H.C.P. Bell: The Maldive Islands, pp. 23-5, 75-8, 71 (Colombo, 1883).

(٢) Memoir on the Inhabitants of the Maldive Islands. By J. A Young and W. Christopher. (Trausactious of the bombay Geographical society from 1836 to 1838. P.74. Bombay, 1844.

(٣) Innes, pp. 485,492.

(٤) المسعودي جـ٢، ص٨٥ – ٨٦.

(٥) The Bombay Gazetteer, Vol. x.p. 132, vol. x.p.132, vol. Xvi. P.75.

(†) بير=مرشد، وماه = أكبر، ابير = ناسك.

(٦) Id. Vol. xxiii. P.282.

وحول نهاية هذا القرن نفسه، أدخل ولي مشهور من جلبرجه(□) **Gulbarga**، ويدعى سيد محمد حيسودراز(□)(١). عدداً من هنود مقاطعة بونا في الإسلام، كما تكللت أعماله بمثل هذا النجاح في منطقة بلجام أو بلجاوم **Belgaum** بعد عشرين سنة(٢). ولا يزال يقيم في دهانو، سلالة أحد أقرباء أعظم أولياء الإسلام، السيد عبد القادر الجيلاني ولي بغداد. وقد جاء إلى بلاد الهند الغربية حول القرن الخامس عشر، وبعد أن أدخل كثيراً من أهالي كان كن في الإسلام، توفي ودفن في دهانو(٣). وفي مقاطعة دهاروار جماعات كبيرة من عمال النسيج، كان أجدادهم قد تحولوا إلى الإسلام على يد هاشم بيرجوجرات، وكان المعلم الروحي لإبراهيم عادل شاه الثاني أحد ملوك أسرة بيجابور، وذلك حول نهاية القرن السادس عشر. وهؤلاء القوم لا يزالون ينظرون إلى هذا الولي بعين الرعاية والتجلة، ويحترمون ذريته احتراماً عظيماً(٤). ولا تزال سلالة ولي آخر، يدعي شاه محمد صادق سَرمست حسيني، تقيم في ناسك(□). وقد قيل إنه كان أكثر دعاة المسلمين توفيقاً في دعوته؛ فإنه بعد أن قدم من المدينة في سنة ١٥٦٨، تنقل في معظم جهات الهند الغربية، واستقر أخيراً في ناسك – وكان قد بدأ في هذه المقاطعة داع آخر من دعاة المسلمين، اسمه خواجة خوندمير حسيني، عمله في نشر الدعوة قبل ذلك التاريخ بخمسين سنة، ولاقى نجاحاً عظيماً في هذه السبيل(٥). وهناك داعيان عربيان آخران، يمكن الإشارة إليهما، وكان مسرح جهودهما التعليمية في مقاطعة بلجام، ويدعى أحدهما سيد محمد بن سيد علي، والآخر سيد عمر عيد روس بيش بان(٦).

حول مدينة الملتان: وهناك حركة أخرى لنشر الدعوة، يمكن أن يقال على وجه التقريب إنها كانت تتركز حول مدينة الملتان(٧). وكانت هذه المدينة في الأيام الأولى من الفتح العربي، أحد المراكز الأمامية للإسلام، حينما كان محمد بن القاسم قد أسس حكومة إسلامية كانت لها السيادة في السند (سنة ٧١٤م).

(□) اسم مدينة في هضبة الدكن تدخل في ممتلكات نظام حيدر أباد.

(□) كلمة فارسية معناها الطويل الشعر (جيسو = شعر، ودراز = طويل).

(١) ويطلق عليه أحياناً يسيد محدوم جيسودراز.

(٢) The Bombay Gazetteer, vol. xviii. P. 501; vol. xxi, pp. 218, 223.

(٣) Id. Vol. xiii. Part i. p. 231.

(٤) The Bombay Gazetteer, Id. Vol. xxii. P.242.

(□) اسم مدينة في غرب الهند، وهي مكان مقدس عند الهندوكيين.

(٥) vol. xvi. Pp. 75-6.

(٦) Id. Vol. xxi. P. 203.

(٧) في زمن الفتح العربي، كانت أملاك حاكم السند الهندوكي تمتد شمالاً حتى هذه المدينة التي لم تعد الآن داخلة في هذه الإمارة.

وفي خلال القرون الثالثة الأولى من الحكم العربي، كان طبيعياً أن يدخل كثير في دين الغزاة الفاتحين. وقد استجاب كثير من أمراء السند لدعوة الخليفة عمر بن عبد العزيز إياهم إلى اعتقاد الإسلام[١]. وتحدث البلاذري (الذي كتب بعد ذلك بمائة عام) عن شعب ساون داري **Sawandari**- وقد خضعوا لمحمد بن القاسم ومنحهم السلام على شريطة أن يرحبوا بالمسلمين ويمدوهم بإدلاء لمعرفة بلادهم – واعتبر هذا المؤرخ أنهم أقروا بالإسلام في عهده؛ وكثيراً ما تشير الرسائل الرسمية التي كتبها الفاتحون إلى دخول الكفار في الإسلام.

ويمكن أن نحكم على أن حالات التحول هذه كانت في جوهرها بمحض إرادة الذين أسلموا. من ذلك التسامح الديني، الذي أظهره العرب لرعاياهم الوثنيين بعد غزوتهم الأولى التي امتازت بشيء من العنف؛ مثال ذلك، أنه سمح لشعب برهمن آباد، وكانت مدينتهم قد فتحت عنوة، بإصلاح معبدهم الذي كان مصدر عيش البراهمة، وما كان لأحد أن يحرم من إقامة شعائر دينه الخاصة[٢]. وكان الفاتحون بوجه عام، لا يترددون في تخصيص حي من أحياء المدينة لأصحاب الديانات الأخرى، حيث وجدوا منهم الخضوع والتسليم؛ كما كانوا يسمحون للشعب بإقامة عقائده وشرائعه الخاصة.

في السند: وفي خلال المتاعب التي حلت بالخلافة في النصف الأخير من القرن التاسع الميلادي، آلت بلاد السند، وكانت الحكومة المركزية قد أهملت شأنها، إلى الانقسام بين عدد من صغار الأمراء، وكان أعظمهم نفوذاً أمراء الملتان والمنصورة وكان طبيعياً أن يضعف مثل هذا التفكك من قوة المسلمين السياسية التي كانت في الواقع قد أخذت في الاضمحلال في وقت أسبق من ذلك الوقت في هذا القرن نفسه. ففي عهد المعتصم (٨٣٣-٨٤٢م)، أعلن هنود سندان[٣]. أنهم مستقلون، ولكنهم أبقوا على المسجد الملتان في الاحتفاظ باستقلالهم السياسي، واحتاطوا لأنفسهم من أن يغزوهم أمراء الهنود الذين يجاورون بلادهم، وذلك بأن أنذروهم إذا هاجمهم هؤلاء الأمراء، أن يحطموا صنماً كانت تعظمه الهند وتحج إليه من أقاصي بلدانها[٤][٥] ولكن في اللحظة التي كان المسلمون فيها في انحلال من الناحية السياسية، كان الإسلام لا يزال يحرز نجاحاً متوالياً في نشر الدعوة. ويروي البلاذري[٦]. القصة التالية عن تحول أحد ملوك العسيفان إلى الإسلام، وهي بلاد تقع بين قشمير والملان وكابل. وكان أهل ذلك البلد يعبدون صنماً قد بني عليه بيت. فمرض ابن الملك، فدعى سدنة ذلك البيت، فقال لهم ادعوا الصنم أن يبرئ ابني، فغابوا عنه ساعة، ثم أتوه، فقالوا قد دعوناه وقد

---

(١) البلاذري ص ٤٤١ (في نهاية الصفحة).

(٢) Elliot. Vol.i.pp.185-6.

(٣) وربما كانت سندان في أبراسا، وهي مقاطعة كتش الجنوبية.

(٤) البلاذري ص ٤٤٦.

(٥) الأصطخري ص ١٧٣-١٧٤.

(٦) البلاذري ص٤٤٦.

أجابنا إلى ما سألناه. فلم يلبث الغلام أن مات. فوثب الملك على البيت فهدمه، وعلى الصنم فكسره، وعلى السدنة فقتلهم. ثم دعا قوماً من تجار المسلمين، فعرضوا عليه التوحيد، فوحد، وأسلم. وهناك أثر من آثار نشر الدعوة، يشبه ذلك المثل، أحدثته، من غير شك، تلك الجماعات المتعددة من تجار المسلمين الذين حملوا معهم ديانتهم إلى مدن في هندستان، يدين أهلها بالكفر. ويذكر جغرافيو العرب في القرنين العاشر والثاني عشر، أسماء كثير من أمثال هذه المدن، سواء ما كان منها على الساحل وفي الداخل، حيث بنى المسلمون مساجدهم. وكانوا آمنين في حماية أمرائهم الوطنيين الذين منحوهم حق الحياة في ظل شرائعهم الخاصة[1]. وكان تجار العرب في ذلك الحين وسطاء في التجارة بين السند وبلاد الهند المجاورة وبين العالم الخارجي. وجلبوا منتجات الصين وسيلان إلى موانى السند، وحملوها من هناك، عن طريق الملتان إلى تركستان وخراسان[2].

وكان يكون من الغريب لو أن هؤلاء التجار، وكانوا منبثين في المدن التي يدين أهلها بالكفر، أخفقوا في إظهار تلك الغيرة في نشر تعاليم الدعوة التي نجدها لدى التاجر المسلم في أي مكان. وأغلب الظن أن دخول أسرة سَمَه **Sammas** التي حكمت بلاد السند ١٣٥١ إلى سنة ١٥٢١م في الإسلام، كان يعزى إلى تأثير أمثال طوائف التجار هؤلاء. وبينما نجد المؤرخين يخصون عهد نندا بن بابينيه أحد أمراء هذه الأسرة، بالإشارة إلى أنه عهد "سلام وطمأنينة، حتى إن هذا الأمير لم يطلب إليه قط أن يركب للقتال، ولم يترل له عدو قط إلى ساحة الحرب"[3]. نجده يوصف في الوقت نفسه بأنه "معروف بعدالته وكثرة دخول الناس في الإسلام في عهده". لهذا يمكن أن تكون هذه الكثرة راجعة إلى شيء واحد، هو الوسائل السلمية في نشر الدعوة. وكان من أشهر هؤلاء الدعاة، الولي المشهور سيد يوسف الدين، أحد سلالة عبد القادر الجيلاني، وكان قد أمر في منامه أن يترك بغداد إلى بلاد الهند ويحول سكانها إلى الإسلام، وجاء إلى السند في سنة ١٤٢٢، وبعد أن اشتغل بالدعوة هناك عشر سنين، نجح في أن يجذب إلى الإسلام سبعمائة أسرة من عشائر لوهانه، التي حذت حذو شخصين منهم، هما سندرجي وهنس راج. فهذان قد دخلا في الإسلام، بعد أن رأوا من هذا الولي بعض الكرامات. ولما أسلما تسمى الأول آدم جي والثاني تاج محمد. ثم هاجر هؤلاء الأهالي فيما بعد، إلى كتش، بزعامة جد الأول، وهناك زادت جماعتهم بمن انضم إليها من الذين أسلموا من بين عشائر لوهانه في كتش[4].

كذلك كانت السند مسرحاً لأعمال البير صدر الدين، أحد دعاة الإسماعيلية، وكان زعيماً لفرقة الخوجة حول سنة ١٤٣٠. وقد جرت مبادئ هذه الفرقة على التوفيق والملائمة بين المذاهب والعقائد، لهذا

---

(١) ابن حوقل ص ٢٣٠ وما يليها. الإدريسي: (Géôhraphie d' Edrisi, traduite par P.A. Jaubert, vol. i.p.175 sqq.).

(٢) المسعود جـ١ ص٢٠٧.

(٣) Elliot, vol. i.p.273.

(٤) Sobmay Gazetteer, vol.i.p. 93.

تلقب صدر الدين بلقب هندي، وصرح بقبول بعض العقائد الدينية عند الهنود الـذين جـد في تحـويلهم إلى الإسلام، وأدخل بينهم كتاباً عنوانه دس أوتار الذي اعتبر فيه على الأوتار العاشر (المهدي العاشر) أو الصورة المجسدة من وشنو، وكان هذا الكتاب منذ البداية الكتاب المقدس الذي تعتمده فرقة الخوجة. ويقرءونه دائماً إلى جانب فراش الميت، كما يقرءونه في فترات خاصة في كثير من أعيادهم.

ويزعم هذا الكتاب أن مجسدات وشنو التسعة حقيقة من وجهة نظر أتباع هذه الفرقة، ولكنها تـنقص الحقيقة الكاملة، كما يجعلون طريقة الوشنوي الناقصة تعقيباً لمذهب الإسماعيلية الجوهري، وفكـرة التجسـد وظهور علي. أضف إلى ذلك أن هذا الداعي أول براهما على أنه محمد، ووشنو على أنه علي، وآدم على أنـه سيوا **Siva** وكان أول الداخلين في الإسلام على يد ألبير صدر الدين، هؤلاء جذبهم إلى هذا الدين من القـرى والمدن الواقعة في أعالي السند. وكذلك دعا إلى الإسلام في كتش **Cutch**. ومن هذه البقاع انتشرت مبـادئ هذه الفرقة جنوباً من طريق جوجرات إلى بمبي. والآن نجد جماعات الخوجات تقيم في جميع المـدن التجاريـة تقريباً، في الهند الغربية، وعلى ساحل المحيط الهندي(١).

على أن ألبير صدر الدين لم يكن أول دعاة الإسماعيلية الذين قدموا إلى الهند. فقد سبقه عبد الله، أحـد الدعاة الذي أرسل من اليمن حول سنة ١٠٦٧م. وقد قيل إنه كان واسع المعرفة اعتقد الناس أنـه صـاحب كرامات كثيرة؛ ولذا أقنع عدداً كبيراً من الهندوكيين بصدق دياناته(٢). وهناك داع إسماعيلي آخر، يقال لـه نور الدين، اشتهر عادة باسمه الهندي الذي اتخذه لنفسه، وهو نور ستاجر **Nur Satagar**، أرسل إلى بلاد الهند من ألموت، معقل زعيم الإسماعيلية الأكبر؛ وبلغ جوجرات في عهد الملك الهندي، سِـدْ هـاراج (١٠٩٤ – ١١٤٣م)(٣). وقد قيل إنه أدخل قبائل كنبي **Kanbis** وخوارويس أوخواروا **Kharwas** وكـوري **Koris** والطبقات المنحطة في جوجرات(٤).

وكما كان نورستاجر موضع تكريم واحترام باعتباره أول داع من دعاة الخوجات، كذلك يعتقد بعض أن عبد الله كان مؤسس فرقة البهرة، إحدى فرق الشيعة الكبرى الهامة التي ترجع إلى أصل هندي والتي تقيم في جموع كبيرة في مراكز حكومة بمباي التجارية الرئيسية. بيد أن آخرين يعزون شرف القيام بأول دعـوة مـن دعوات فرقة البهرة، إلى ملاً علي، الذي يورد أحد مؤرخي الشيعة أخباراً عما اتبعه هذا الملا من الوسـائل في

---

(١) Khojá Vrttánt, p. 208 sir Bartle frere: the Khojas: the Disciples of the Old man of the Mountain. Macmillan's Magazine, vol. xxxiv. Pp.433, 434. (London, 1876).

(٢) Bombay Gazetteer, vol. ix. Part. ii.26.

(٣) يزعم ك.ب. فضل الله لطف الله أن نور ستاجر قدم إلى الهند في زمن أحدث من ذلك فـي عهـد بهيمـا الثـاني (١١٧٩-١٢٤٢م) (Bombay Gazetteer, vol. ix. Part ii.p.88.)

(٤) Kholá Vrttant, p.154-8.

نشر الدعوة، على الوجه التالي: "لما كان شعب جوجرات في تلك الأيام مشركين، يسلمون زمام دينهم إلى شيخ مسن، ويطيعون تعاليمه طاعة عمياء، رأى ملاّ علي ألا حيلة إلا أن يسير إلى هذا الشيخ المسن، ويطلب إليه إن يتتلمذ عليه، وقصد بذلك أن يضع نصب عينيه ما لديه من حجج دامغة وبراهين ساطعة لعله يصبح مسلماً، فيستطيع بعد ذلك أن يحول سائر أتباعه إلى الإسلام. من ثم قضى الملا عدة سنين في خدمة هذا الشيخ، ولما عرف لغة القوم، قرأ كتبهم، وحصل معرفة بعلومهم وتمكن شيئاً فشيئاً أن يبسط لعقلية الشيخ المستنيرة حقيقة العقيدة الإسلامية، وحثه على الدخول في الإسلام. وبعد أن تحول الشيخ إلى هذا الدين، حذا بعض تلاميذه حذوه. وأخيراً علم كبير وزراء الملك في هذه البلاد، ما صار إليه الشيخ من التحول إلى الإسلام، فسار إليه ليطلع على أمره، و لم يلبث أن أذعن لإرشاده الروحي ودخل مثله في الإسلام. وظل الشيخ وكبير الوزراء، وسائر الذين اعتقدوا هذا الدين، يكتمون إسلامهم وقتاً طويلاً، وكانوا دائماً يحولون دون أن يصل خبر إسلامهم إلى مسامع الملك خوفاً منه. إلا أنه قد نمى إلى الملك آخر الأمر، أن كبير وزرائه قد اعتقد الإسلام، فشرع في تحري ذلك الخبر. وفي ذات يوم، قدم الملك إلى بيت هذا الوزير؛ دون سابق تنبيه، فوجده في صلاته، حانياً رأسه، فتضايق الملك من ذلك. وأدرك الوزير ما يرمي إليه الملك من هذه الزيارة، وأيقن أن نقمة الملك قد حلت عليه بما ساوره من الشكوك والريب التي أثارتها صلاته وما قام به من ركوع وسجود؛ ولكن إلهام الله ومعونته الإلهية قد هيّأ له ما ينساب المقام، فقال للملك، إنه إنما كان يفعل هذه الحركات لأنه كان يلاحظ ثعباناً في زاوية الجدار. فلما التفت الملك إلى الزاوية، الجدار ليرى مصداق قوله، أرادات العناية الإلهية أن يرى ثعباناً في تلك الزاوية، فقبل الملك عذر الوزير، وخلى ذهنه من كل الشكوك. كذلك أسلم آخر الأمر، ولكنه أخفى تغيير دينه لأسباب تتعلق بدولته. على أنه حين اقتربت ساعة وفاته، وصى بألا يحرق جسده كما جرت بذلك عادة المشركين. وكان من أثر ساعة وفاته، أنه عندما غزا السلطان ظفر جوجرات، وكان أحد أشراف السلطان فيروز شاه ملك دهلي كما كان محل ثقة هذا الملك، صحبه في هذه الغزوة بعض وجوه أهل السنة، وجروا على محاجه أهالي جوجرات ليعتقدوا المذهب السني، لهذا نجد بعض البهرة سنية على حين ظل السواد الأعظم منهم مخلصين لعقيدتهم الأولى"(١).

وهناك فرق صغيرة كثيرة في كتش وجوجرات يرجع دخولها في الإسلام إلى الإمام شاه بيرانه(٢)، الذي كان جاداً في أعمال الدعوة، مشتغلاً بها في خلال النصف الآخر من القرن الخامس عشر. وقيل إنه حول جمعاً هائلاً من زراع الهندوكيين إلى الإسلام بأن استسقى لهم، فمطرتهم السماء بعد أن كانوا في قحط فصلين متتابعين. وفي مناسبة أخرى، حدث أن التقى بجماعة من حجاج الهنود يعبرون من بيرانه في طريقهم إلى بنارس، فعرض عليهم أن يأخذهم إلى هناك فقبلوا وفي لحظة وجدوا أنفسهم في المدينة المقدسة، حيث اغتسلوا

---

(١) نور الله الشوشتري: مجالس المؤمنين. ورقة ٦٥. (India Office M. S. No 1400)

(٢) مدينة على بعد عشرة أميال جنوب غربي مدينة أحمد أباد.

في نهر الكنج. وأوفوا بنذورهم. حينئذ تنبهوا، فألقوا أنفسهم لم يبرحوا بيرانه، فاعتقدوا دين ذلك الولي الـــذي استطاع أن يصنع مثل هذه الكرامة. وتوفي في سنة ١٥١٢، ولا يزال قبره في بيرانـــه مثابـــة الحجـــاج مـــن الهندوكيين والمسلمين على سواء[١].

وكثير من مسلمي كتش، الذين ينحدرون من أصل هندي، يعظمون دارل شاه بير ويعدونـــه زعيمـــاً روحياً لهم، وكان اسمه الحقيقي ملك عبد اللطيف[٢]، ابن أحد أشراف محمود بيجَره (١٤٥٩-١٥١١)، الذي كان ملكاً شهيراً من ملوك أسرة جوجرات الإسلامية، كما تبدأ من عهده تلك الرواية المشهورة التي تـــؤرخ تحول كثير من الهندوكيين إلى الإسلام[٣].

في البنغال: على أن دعاة المسلمين في الهند قد لاقوا أعظم النجاح في البنغال خاصة، من حيث كثـــرة عدد الذين دخلوا في هذا الدين. وفي البنغال تأسست لأول مرة دولة إسلامية في نهاية القرن الثاني عشر علـــى يد محمد بختيار الخلجي، الذي فتح بهار والبنغال، واتخذ جور حاضرة الإمارة الأخيرة. وكان طبيعياً أن يساعد استمرار الحكم الإسلامي مدة طويلة، على انتشار الإسلام. ومع أن الحكم الهندي قد أعيد مرة عشـــر ســـنين على يد راجا كانس الذي عرف بتسامحه، الذي قيل إن حكمه كان محبباً إلى رعاياه المسلمين[٤] رفـــض ابنـــه جات مَل الديانة الهندوكية وأسلم. وبعد وفاة أبيه سنة ١٤١٤، استدعى كل موظفي الدولة وجمعهم، وأعلـــن إليهم رغبته في اعتقاد الإسلام، كما أعلن أنه إذا لم يأذن له كبار رجال الدولة باعتلاء العرش، كـــان علـــى استعداد لأن يتخلى عنه لأخيه. ومن ثم أعلنوا أنهم يرضون به ملكاً عليهم، أياً كانت الديانة الـــتي يعتقـــدها. وتبع ذلك أن دعى كثير من علماء الدين الإسلامي ليشهدوا أن الراجا قد نبذ ديانة الهندوكيين وجهر باعتقاد الإسلام. واتخذ لنفسه اسم جلال الدين محمد شاه، وتذكر الروايات أن كثيراً من حالات التحول إلى الإسلام قد تم في عهده[٥]. على أن كثيراً من هذه الحالات كانت راجعة إلى القوة والإكراه: ذلك أن عهده كان يتميز بأنه العهد الوحيد الذي لم تدون عنه على وجه الإجمال اضطهادات وقعت على رعايا الهندوكيين في خـــلال الخمسة قرون والنصف قرن من الحكم الإسلامي في البنغال الشرقية[٦].

---

(١) Bombay Gazetteer, vol.iv. part ii.pp.66-76.

(٢) Id, vol. v.p. 89.

(٣) Id. Vol. ii.p.378 vol. iii. pp. 36-7.

(٤) وكذلك Firishtah، ولكن انظر:

H. Blochmann: Contributions to the Geography and History of Bengal. (J.A.S.B., vol. Xiii, No. 1, pp.264-6-1878)

(٥) J.H. Ravenshaw: Gaur: Its ruins and inscriptions, p.99, london, 1878. Firishtah, vol. iv. P.337.

(٦) Wise, p.29.

على أنه طالما حدثت حالات من التحول إلى الإسلام في أزمان أخرى، بتأثير الحكومات الإسلامية وضغطها. كان راجوات خرك بور ينتمون إلى أصل هندوكي، ثم اعتقدوا الإسلام، لأن أحد قواد أكبر حين غزا ديارهم، كان قد سمح لهم بأن يحتفظوا بضياع أسراتهم، على شريطة أن يدخلوا في الإسلام، وقد حُرم الجد الهندوكي الأكبر لأسرة أسد علي خان، في جتاكانج(†)، مكانته في طبقته بأن أرغم على أن يشم رائحة لحم البقر، وأن يضطر إلى اعتناق الإسلام. وهناك أمثلة كثيرة أخرى من هذا النوع من الممكن تدوينها(١).

ونجد مرشد قولي خان. ابن أحد البراهمة الذين أسلموا، وكان قد ولاه الإمبراطور أورنج زيب حاكماً على البنغال في مستهل القرن الثامن عشر، يفرض قانوناً يقضي بأن أي موظف أو إقطاعي لا يؤدي الخراج الذي ألزم أداءه، أو يعجز عن تعويض ما يلحق البلاد من خسارة، يلزم الدخول في الإسلام هو وزوجته وأولاده. هذا إلى أن لهم قانوناً شائعاً يقضي بأن أي هندوكي سقط من مكانته في المجتمع بسبب ما اقترفه من مخالفة للقوانين، لا يستطيع أن يطلب إعادة النظر في قضيته إلا لدى الحكومة الإسلامية؛ فإذا رفضت الحكومة التدخل، حرم طريد القانون أية وسيلة لاسترداد مركزه في النظام الاجتماعي عند الهندوكين، وربما كان لا يجد علاجاً لموقفه إلا بالتحول إلى الإسلام(٢).

كذلك يظهر أن رواد الأفغان الذين استقروا في هذه الإمارة، كانوا على جانب من النشاط في نشر تعاليم الدعوة، ذلك أنهم، إلى جانب ما حصلوا عليه من الأطفال الذين ولدوا من النساء الهندوكيات، تعودوا أن يشتروا عدداً من الصبيان في أيام القحط، وينشئوهم على مبادئ الإسلام(٣). على أن مسلمي البنغال لا يقيمون في جماعات كبيرة مراكز الحكومة الإسلامية القديمة، ولكنهم يقيمون في الأرياف، أي في المقاطعات التي لا نجد فيها أثراً للجاليات إلى وفدت إليها من الغرب، وفي البقاع التي تقيم فيها الطبقات المنحطة من الهندوكيين، وطريدو المجتمع في كثرة وافرة(٤). وإن تشابه العادات بين هذه الطوائف المنحطة من الهندوكيين وبين أتباع النبي، وخصائص هذه الطوائف التي لا تزال تحتفظ بها، كما احتفظت بالتشابه الجسماني - كل ذلك يحمل دليلاً واحداً، كما يحمل على الاعتقاد بأن مسلمي البنغال هم القبائل الأصلية في هذه البلاد. وهنا لم يقف في سبيل تقدم الإسلام في شيء من النظم الدينية العنيفة، لا كما كانت الحال في شمال غربي الهند.

(†) مدينة ساحلية على مقربة من كلكتا.

(١) Census of India, 1901, vol. vi. Part i.170.

(٢) Census of India, 1901, vol. vi. Part i.p.30.

(٣) Caharles Stewart: The History Of Bengal, p. 176(London, 1813).

H. Blochmann: Conributions to the Geography and History of Bengal, (J. A. S. B. vol. xiii. No. 1. p. 220. 1873).

(٤) The Indian Evagelical Review, p.278. (January, 1883).

حيث لقي الغزاة المسلمون ديانة البراهمة زاخرة بحياة غضة، وقوة ناشئة بعد أن أحرزت النصر في صراعها مع البوذية، وحيث كان تأثير الإسلام، برغم الاضطهادات، قوة دافعة في وجه المعارضة التي أبداها الهندوكيون، واحتفظ بنفوذه عليهم في أقوى ساعات الشدة والتدهور. بيد أن دعاة المسلمين قد لقوا في البغال ترحيباً عظيماً من السكان الأصليين والطوائف المنحطة من أهالي البنغال الذين لم تتغلغل العقائد الهندوكية في نفوسهم، والذين كان حكامهم المعتزون بأنفسهم من الآريين، يحتقرونهم ويغضون من شأنهم. "فجاء الإسلام إلى هؤلاء الفقراء وصيادي السمك والقناصين والقراصين وحراثي الأرض من أفراد العشائر المنحطة، فأعلى منزلتهم ورفع من شأنهم. كان الإسلام عقيدة الجنس الحاكم كما كان دعاته ذوي غيرة، حملوا بشارة الوحدانية، والمساواة بين الناس إلى الأهالي المحتقرين المنبوذين. وقد جعلت هذه الآراء التي أدخلها هؤلاء الدعاة ارتداد الهندوكيين عن هذا الدين الجديد أمراً محالاً، كما جعلت المهتدي إلى الدين وذريته مؤمنين مخلصين إلى الأبد. وبهذه الطريقة، استقر الإسلام في أخصب الولايات الهندية وأغناها، تلك الولاية التي استطاعت أن تسد حاجة السكان الذين بدت كثرتهم في هذه الولاية أشد ما تكون سرعة وازدحاماً وقلما سجلت حالات التحول الإجباري إلى الإسلام. بيد أن ما أحرزه الإسلام من نجاح مستمر في البنغال السفلي لم يكن راجعاً إلى القوة والعنف، فقد راق الإسلام نظر الأهالي، كما انتزع السواد الأعظم من الذين تحولوا إلى هذا الدين من طبقة الفقراء. وأدخل في أذهانهم تصوراً أرقى لمعنى الإله، ومثلاً أسمى للأخوة الإنسانية، وقدم للعشائر المنحطة التي غصت بها البنغال والتي ظلت أجيالاً دنيئية وضيعة، أبعد ما تكون عن حظيرة الجماعة الهندوكية، منفذاً حراً، تنفذ منه إلى نظام اجتماعي جديد"[١].

وقد قيل إن ظهور جهود واضحة في نشر الدعوة في البنغال قد أيده ما جاء في بعض أساطيرهم عن حماسة أفراد لأجل دينهم، ولا تزال أضرحة بعض هؤلاء الدعاة مثابة تكريم وتشريف، يزورها كل سنة مئات من الحجاج[٢]. ومن أقدم هؤلاء الدعاة الشيخ جلال الدين التبريزي، الذي توفي سنة ١٢٤٤م، وكان تلميذاً للولي الأكبر شهاب الدين السهروردي وفي أثناء رحلته التي قام بها لنشر الدعوة في بلاد الهند، زار البنغال، حيث بنى له ضريح تكريماً له، ووقف لهذا البناء هبة خيرية قيمة. أما موقع قبره الحقيقي فغير معروف. وتنسب إليه كرامات كثيرة؛ منها أنه أدخل في الإسلام أحد باعة اللبن من الهندوكيين بنظرة واحدة[٣].

---

(١) Sir W.W. Hunter: the Religions of India (the times February, 25, 1888) See also, Wise, p.32.

(٢) Wise, p.37.

(٣) Blochmann, op. cit. p.200.

وفي القرن التاسع عشر نشطت حركة الدعوة إلى الإسلام في البنغال نشاطاً ملحوظاً، وأرسلت طوائف كثيرة نشأت في البداية بتأثير من الحركة الوهابية الإصلاحية، دعاتهم ينتقلون في هذه المقاطعة، يطهرون البلاد من بقايا العقائد الهندوكية القديمة ويوقظون الحماسة الدينية، وينشرون العقيدة الإسلامية بين الكفار(١).

الإسلام في جهات أخرى في الهند: بقي بعض أخبار عن دعاة المسلمين الذين قاموا بنشر الدعوة في أجزاء من الهند، غير تلك الأجزاء التي ذكرناها من قبل، لا بأس من ذكرها هنا. كان من أسبق هؤلاء الدعاة الشيخ إسماعيل، وكان من أشهر الأولياء الصالحين في بخارى، كما عرف بثقافته الدينية والدنيوية. وقد قيل إنه كان أول داع مسلم دعا إلى عقيدة الإسلام في مدينة لاهور التي كان قد قدم إليها سنة ١٠٠٥م. وقد تدفقت إليه جموع زاخرة ليستمعوا إلى مواعظه، وسرعان ما تزايد عدد الداخلين في الإسلام على يديه يوماً بعد يوم. وقد قيل إنه ما من كافر وفد عليه واتصل بشخصه، إلا تحول إلى عقيدة الإسلام(٢).

وقد قيل إن تحول سكان سهول البنجاب الغربية إلى الإسلام كان من آثار دعوة بهاء الحق الملتاني(٣)، وبابا فريد الدين البكبتاني الذي نبغ حول نهاية القرن الثالث عشر وبداية الرابع عشر(٤). ويذكر المؤلف الذي كتب سيرة هذا الولي الأخير بياناً عن ست عشرة قبيلة ظفر بهم الإسلام بفضل دعوته؛ ولكن هذا المؤلف، لم يمدنا لسوء الحظ بشيء من التفصيل فيما يتعلق بنوع العمل الذي قام به هذا الداعي(٥).

ومن أشهر أولياء المسلمين في الهند، وأحد رواد الإسلام في راجبوتانا، خواجة معين الدين خشْتي، الذي توفي في أجمير سنة ١٢٣٤م، وكان أحد أهالي سجستان شرقي فارس. وقد قيل إنه تلقى نداء للدعوة إلى الإسلام بين كفار الهند حينما كان في طريقه إلى المدينة لأداء فريضة الحج. فهنا تجلى له النبي في منامه، وخاطبه بقوله: "لقد عهد إليك الله القدير بلاد الهند، فاذهب إليها واستوطن أجميرا ولينتشرن دين الإسلام بعون الله في تلك البلاد بفضل تقواك وتقوى من يتبعونك". ولبى النداء، وشق طريقه إلى أجمير وكانت في ظل الحكم الهندوكي في ذلك الحين، وقد سادت عبادة الأوثان في كافة أنحاء هذه البلاد. ومن أسبق الذين تحولوا إلى الإسلام على يديه في هذه البلاد رجل يدعى يوحي، كان المربي الروحي للراجا نفسه. وقد جمع هذا الرجل حوله تدريجاً عدداً عظيماً من تلاميذه الذين انتشلتهم تعاليمه من صفوف الكفر، وذاعت شهرته زعيماً

---

(١) Wise, pp. 48-55.

(٢) غلام سرور: خزينة الأصفياء جـ٢ ص٢٣٠.

(٣) ورواية أخرى تسميه الشيخ بهاء الدين زكريا.

(٤) Ibbetson, p.163.

(٥) أصغر على جواهري فريدي (١٠٣٣م) ص ٣٩٥ (لاهور ١٨١٤).

روحياً، وجذب إلى مدينة أجمير جموعاً كبيرة من الهندوكيين الذين حثهم على اعتقاد الإسلام[١]. وقد قيل إنه أدخل في الإسلام وهو في طريقة إلى أجمير ما يقرب من ٧٠٠ شخص من مدينة دهلي.

وكان وصول سيد جلال الدين إلى تلك البلاد أهمية بالغة في تاريخ الإسلام في الهند. وقد قيل إنه ولد في بخارى سنة ١١٩٩م. وفي سنة ١٢٤٤، استقر هذا الداعي في أتش **Uch** التي تقع الآن في أراضي بهاول بور(†)، وحول جموعاً من أهالي البلاد المجاورة إلى الإسلام. وتوفي سنة ١٢٩١. وظل أعقابه الذين كان كثير منهم أولياء ينظر إليهم بعين الاحترام والإجلال، حفظة على ضريحه حتى الوقت الحاضر، واتخذوا من هذا المكان مركزاً لنفوذ ديني واسع النطاق. ويعتقد قوم أن جد هذا الولي، واسمه سيد أحمد كبير، ويعرف باسم مخدوم جهانيان، كان له أثر في تحول قبائل كثيرة من أهالي البنجاب[٢]. ويقع على بعد ميل من شرق أقش ضريح حسن كبير الدين بن سيد صدر الدين الذي كان معاصراً لجلال الدين. وقد قيل إن كلا الأب والابن قد أدخلا كثيراً من الناس في الإسلام، وقد بلغ من النفوذ الذي نسب إلى حسن كبير الدين، أنه قيل إن أي هندي كان يعتقد الإسلام، بمجرد نظرة يلقيها عليه هذا الوالي[٣].

وفي وقت متأخر كثيراً في هذا القرن نفسه، وفد على الهند أحد أهالي العراق الفارسي ويدعى أبا علي قَلَقنْدر، واتخذ مقامه في باني بت(†) **Panipat**، حيث توفي وقد أكمل المائة من عمره، وذلك في سنة ١٣٢٤م. وينتمي أفراد القبائل من مسلمي هذه المدينة، وكان عددهم حول ٣٠٠ من الذكور، إلى شخص يدعى أمير سنكه **Singh**، وكان قد تحول إلى الإسلام على يد هذا الولي. ولا يزال قبره مثابة تكريم وتشريف، يقصد إليه كثير من الحجاج.

ومن أمثال هذا الولي، رجل فارسي يقال له الشيخ جلال الدين، وكان قد قدم الهند حول النصف الأخير من القرن الرابع عشر واستقر في سلهت، في أسَام السفلى، بقصد تحويل أهالي هذه الجهات إلى الإسلام. وقد نال شهرة واسعة كرجل مبارك، وتكللت أعماله في نشر تعاليم الدعوة بنجاح باهر[٤].

---

(١) Elliot, Vol. ii. p.548.

(†) هي ولاية إسلامية في البنجاب ينتمي حكامها إلى الخلفاء العباسيين.

(٢) Punjab States Gaztteers. Vol. xxxvi. A. Bahwalpur State. (Lahore,1908) p.160 sqq وفي ص ١٦٢ أسماء بعض القبائل التي تنسب تحولها إلى الإسلام إلى مخدومي جهانيان.

(٣) Id. P.171

(†) مكان في الهند وقعت فيه ثلاث مواقع حاسمة، الموقعة الأولى هزم فيها بابر، إبراهيم لودهي في أبريل سنة ١٥٢١م، والموقعة الثانية هزم فيها جلال الدين محمد أكبر، هيمو البقال في سنة ١٥٥٦م، والموقعة الثالثة، وهي أشهرها هزم فيها أحمد شاه الدراني شب مرهته الهندوكي سنة ١٧٦١م.

(٤) ابن بطوطة جـ٤ ص ٢١٧، Yule, p.515

وفي سنوات أحدث من ذلك، نجد شواهد كثيرة تدلنا على أن الإسلام كان في طريقه إلى الانتشار في الهند، وفي نجاح عظيم جداً وقد دل النصف الثاني من القرن التاسع عشر بوجه خاص على نهضة عظيمة في نشاط الدعوة، فأصبح عدد الذين كانوا يدخلون في الإسلام سنوياً يتفاوت بين عشرة آلاف، وخمسين الفاً، ومائة ألف وستمائة ألف[١]. على أنه من العسير أن نحصل على معلومات دقيقة عن وصف الطابع الفردي الخاص الذي يتميز به نشاط الدعوة الإسلامية، وعن عدم وجود أي نظام مقتبس أو عن أي شيء يتعلق بأخبار الدعوة، وإن النجاح الذي لازم أعمال الدعاة المسلمين قد بولغ فيه أحياناً إلى حد بعيد. فمثلاً قيل إن رجلاً في البنجاب يدعى حاجي محمد قد أدخل ما يقرب من مائتي ألف هندوكي في الإسلام[٢]، وإن أحد المولويه في بنكلور **Bangalore** قد افتخر بأنه حول إلى الإسلام ما يقرب من ألف شخص من أهالي تلك المدينة وضواحيها في مدى خمسة أعوام. ولكن الذي لا شك فيه أنه كان هناك دعاة مسلمون اشتغلوا بأعمال الدعوة، في نشاط وتوفيق. وتنطبق الأمثلة الآتية على هذه الفترة التي أشرنا إليها.

أدخل مولوي بقا حسين خان، وهو داعية متنقل في البلاد، ٢٢٨ شخصاً في الإسلام، في مدى سبع سنين، وكانوا يقيمون في بمباي، وكان بور، وأجمير، ومدن أخرى. وحول مولوي حسن علي ٢٥ شخصاً إلى الإسلام، اثني عشر منهم من أهالي بونا، والباقي من حيدر أباد وجهات أخرى من الهند[٣]. وفي مقاطعة

---

(١) The Indian Evangelical Review, vol. xvi, pp. 52-3 (Calcutta, 1889-90) the contemporary Review, February 1889, p. 170 The spectator, October15, 1887, p.1382.

(٢) Garcin de Tassy: La langue et littérature hindoustanies de 1350. á 1869, p.343 (Paris, 1874).

(٣) أمدني مولوي حسن على بهذه المعلومات قبل وفاته سنة ١٨٩٦ ببضع سنين. وفيما يلي نذكر وصفاً طريفاً لحياته، ورد في بعض ما نشرته مجلة The Moslim Chronicle (٤ أبريل سنة ١٨٩٦) في نعيه: "كان معروفاً في حياته الخاصة والتعليمية بأنه فتى ذكر مفرط الذكاء، أحرز تقدماً كبيراً في حياته العلمية في مدى وقت قصير. واجتاز امتحان الدخول في سن مبكرة جداً، ومنح مكافأة دراسية ساعدته على نيل درجة البكالوريوس من الطبقة الأولى. ولكن لم يلبث أن دفعه طموحه الغريزي إلى البحث عن الحقيقة، إلى السفر إلى الخارج والتنقل في بلاد العالم فترك دراسته، وعاشر الناس على اختلاف نزعاتهم: فعاشر فقراء الهنود، وفرقة البنديين والمسيحيين، ودخل الكنائس، وجاس خلال الأدغال والأحراش والمدن دون أن يكون له ما يعينه إلا آماله وإخلاصه واعتماده المطلق على رحمة الإله الأعظم. وفي مدى سنة واحدة، تنقل في مختلف المناطق الدينية حتى قبل في سنة ١٨٧٤ وظيفة ناظر في إحدى مدارس باتنا.. ولما كان استعداده الفطري يؤهله لأن يكون داعياً إلى العقيدة الإسلامية، أحس بحنين خفي يدفعه ترك منصبه الذي كان يتقاضى منه مائة روبية شهرياً. فقدم استقالته، على كره من أصدقائه، وظل وقتاً يصدر جريدة شهرية "نور الإسلام"، وألقى محاضرات كثيرة في باتنا، ثم رحل إلى كلكتا حيث ألقى محاضرته باللغة الإنجليزية، وقد بلغ من تأثيرها في السامعين أن كثيراً من رجال الدين الأوروبيين أقروا بصدق الدين الإسلامي، وكاد أحد الكبراء المعروفين، وهو بابو يبين جندرا بال أن يدخل في الإسلام وقد دعاه أهالي دهاكه لزيارتهم، وهناك خلدت مواعظه ومحاضراته اسمه في قلوب المواطنين. وقد جعلت مؤلفاته، ورسائله،

خندش، في مقر حكومة بمباي ظفرت دعوة قاضي ناصر أباد، وهو سيد سفدر علي، بدخول جمع كبير من الصناع في الإسلام، وهم الذين زاولوا صناعة الحدادين أو القيون[١]. وحول سنة ١٨٧٠، تحول عدد من الأشخاص الذين كانوا يحترفون هذه الصناعة نفسها، وكانوا يؤلفون زمرة قليلة يبلغ عددها نحو ٢٠٠ شخص في مقاطعة ناسك، إلى الإسلام بطريقة عجيبة. وكان المبشرون المشيخيون[□] في ناسك يحاولون منذ وقت طويل تحويل أهالي ناسك عن العقائد الهندوكية. وبينما كان هؤلاء الأهالي مترددين بين اعتقاد المسيحية ورفضها إذا بأحد فقراء المسلمين من بمباي، وكان ملماً حسن الإلمام بعادات تفكيرهم، يشرح لهم مبادئ الإسلام، ويفلح في جذبهم إلى هذا الدين[٢].

وكان في باتياله[†]، مولوي عبيد الله، وهو أحد الذين دخلوا في الإسلام من البراهمة، وكان على جانب عظيم من الثقافة، وقد برهن على أنه داعية غيور على الإسلام. وعلى الرغم مما وضعه أقرباؤه في طريقه أول الأمر من عقبات، أحرز نجاحاً بلغ من عظمه أن الذين دخلوا في الإسلام على يديه، كادوا يملئون حياً بأكمله من أحياء المدينة. وقد كتب في الجدل مؤلفات، طبعت طبعات كثيرة، كانت موجهة إلى الديانتين المسيحية والهندوكية. وفي أحد هذه المؤلفات، يتحدث عن تحوله هو إلى الإسلام، بقوله: "أنا، محمد عبيد الله، بن منشي قُطامل، ساكن بابال **Payal** في ولاية بتياله، أعلن أن هذا العبد الفقير، كان في طفولته وفي أثناء حياة والده، أسير عبادة الأوثان، ولكن رحمة الله انتشلتني بيدها، وجذبتني إلى الإسلام. من ذلك أني انتهيت إلى معرفة الإسلام ونقائص الهندوكية، فرضيت الإسلام ديناً بقلبي وروحي، وعددت نفسي خادماً لرسول الله عليه السلام، وفي ذلك الوقت هدتني الفطنة، التي هي هبة الله، إلى أنه من فرط الحماقة والغباوة أن يتبع المرء عادات أجداده اتباعاً أعمى، فيضل بها، وألا يتأمل ويبحث في مسائل الدين والعقيدة، التي عليها تعتمد سعادتنا الأبدية أو شقاوتنا. وبهذه الأفكار أخذت في دراسة العقائد السائرة وبحثت كلا منها غير متحيز ولا محاب، فعرفت الهندوكية معرفة تامة، وتباحثت مع البنديت المتعلمين، وحصلت على معرفة تامة بالدين المسيحي، وقرأت كتب الإسلام وتباحثت مع علماء المسلمين. ووجدت في جميعها أخطاء وأباطيل، إلا الإسلام الذي تجلت لي مزيته جلاءً بيناً، ولزعيم هذا الدين، النبي محمد، من المزايا المعنوية، ما يعجز اللسان عن وصفه، وهو بمفرده

ومحاضراته المتوالية باللغتين الأردية والإنجليزية، في مختلف المدن والبلدان في الهند، له اسماً تاريخياً في العالم. وقد أصبح مائة رجل مسلمين عندما استمعوا إلى محاضراته وقرءوا كتبه. وتجلت حماسته في نشر الدعوة حتى آخر لحظة من حياته، حين سمعه بعض الناس خلسة وهو يقول على فراش الموت: "اترك دينك وصر مسلماً". فلما سئل في ذلك قال إنه يتحدث إلى أحد المسيحيين.

(١) Bombay Gazetteer, vol. xii.p. 126.

(□) نسبة إلى مشيخة الكنيسة.

(٢) Id. Vol. xvi. 81

(†) اسم ولاية هندية يسكنها السيخ.

الذي يعرف أصول الدين وقواعده، وتعاليمه الخلقية، وشعائره، كما يدركها إدراكاً تاماً، والحمد لله! إن هذا الدين قد بلغ من السمو أن كل شيء فيه يهدي الروح إلى الله. وبالجملة أصبح التمييز بين الحق والباطل، بفضل الله، متجلياً عندي تجلي الليل والنهار والظلمة والنور. ولكن مع أن قلبي استنار مدة طويلة، بنور الإسلام وفمي قد تعطر بالإذعان للعقيدة، كانت هواجس الشر والشيطان تكبلني بأغلال من بهجة هذه الحياة الفانية ودعتها، وكنت في حالة سيئة، بسبب الشعائر الظاهرية الخاصة بعبادة الأوثان. عندئذ نبهتني رعاية الله أخيرا "إلى متى تحتفظ بهذه الجوهرة التي لا تقدر بثمن، كامنة في صدفتها، وهذا الأريج المنعش مغلقاً في علبته؛ يجب أن تقلد عنقك هذه الجوهرة، وأن تنتفع بهذا الأريج". هذا إلى أن العلماء قد جهروا بأن من يكتم عقيدته في الإسلام، ويبقى على زي الكفار وعاداتهم، فإن مثواه جهنم. لهذا، ولله الحمد، بزغت شمس دخولي في يوم عيد الفطر من سنة ١٢٦٤م من أستار سحائبها، وأديت عباداتي جهاراً مع إخواني المسلمين"[١].

وقد اتخذ كثير من دعاة المسلمين وسائل المبشرين المسيحيين، من ذلك الوعظ في الطرقات، وتوزيع المنشورات، وغير ذلك من الوسائل. وفي كثير من المدن الكبرى في الهند، قد يوجد دعاة المسلمين يومياً يشرحون تعاليم الإسلام في بعض الطرقات العامة الرئيسية، ونجد هذه العادة شائعة جدا في بنكلور، وقد بلغ من محبة الشعب لأحد هؤلاء الدعاة، وكان إمام المسجد حول سنة ١٨٩٠، أن الهندوكيين أنفسهم كانوا يدعونه أحياناً ليلقي عليهم عظاته، وكان يدعو إلى الإسلام في الأسواق، وفي مدى سبع سنوات أو ثمان، ظفر باثنين وأربعين شخصاً دخلوا في هذا الدين، وفي بمباي، يدعو أحد الدعاة المسلمين إلى الإسلام، كل يوم تقريباً، على مقربة من السوق الرئيسية للمدينة، وفي كلكتا توجد مراكز كثيرة للدعوة إلى الإسلام، معدة على الدوام لهذا الغرض. وقد نجد بين الذين دخلوا في الإسلام من حين لآخر، بعض الأوربيين، ومعظمهم ممن اضطرتهم الظروف إلى الفقر والإعواز. على أن جمهور الداخلين في الإسلام من الهندوكيين[٢]. ونجد بعض الجمعيات الكثيرة التي أنشئت في السنين الأخيرة، في مراكز الحياة الإسلامية الرئيسية في الهند، تجعل من بين أهدافها إرسال الدعاة للدعوة إلى الإسلام في الأسواق. ومن أمثال هذه الجمعيات وأنجومان حماية إسلام بلاهور، وأنجومان حامي الإسلام بأجمير. وهذه الأنجومان بوجه خاص، تعين دعاة يتقاضون رواتب كفاء قيامهم بهذا العمل، ولكن كثيراً جداً من أعمال الدعوة في الأسواق، إنما يقوم بها أشخاص يشتغلون في مهنة أو عمل ما في أثناء ساعات النهار، ويخصصون أوقات فراغهم في المساء لهذا العمل الديني.

ويتجه كثير من الحماسة في الدعوة عند مسلمي الهنود إلى مناهضة ما يقف في سبيل الإسلام من الاتجاهات التعليمية التي يتزع إليها المبشرون المسيحيون وعاة آريه سماج **A rye Samáj**، ومن ثم كانت

---

(١) تحفة الهند، ص ٣ (دهلي ١٣٠٩هـ م).

(٢) The Indian Evangelical Review, 1884, p. 128. Garcin de Tasay: La Langue et la Littérature Hindoustanies ds 1850. p. 485. (paris, 1874) Garcin de Tassy: La Langue et la Littérature Hindoustanies en 1871. p. 12 (Paris 1872).

الجهود التي بذلت في هذه السبيل جهوداً دفاعية، أكثر من أن تكون متصلة اتصالاً مباشراً بنشر تعاليم الدعوة، كذلك يصرف بعض الدعاة عنايتهم، بوجه خاص، إلى تدعيم الأساس الذي وضع من قبل، ومحاولة تخليص إخوانهم في الدين من الجهال من خرافاتهم الهندوكية القديمة، وبث صورة من العقيدة، أنقى في نفوسهم. وإن أمثال هذه الجهود، ليست في كثير من الأحيان، إلا استمراراً لذلك النشاط القديم في الدعوة، وفي الحق أن ما قام به الدعاة في سبيل إدخال الناس في الإسلام كان في أغلب الأحيان عملاً ناقصاً مبتوراً، ويمكن أن يقال عن كثير من الذين تحولوا إلى الإسلام تحولاً إسمياً أنهم أشباه هندوكيين، فهم يراعون نظم عشائرهم القديمة، ويشاركون في الأعياد الهندوكية، ويقيمون كثيراً من الشعائر الوثنية، كذلك في بعض المقاطعات، في ميوات **Mewát** وكركاون **Curgaon** مثلاً، قد نجد جماعات كبيرة من المسلمين لا يعرفون من ديانتهم إلا اسمها، وليس لديهم مساجد، ولا يراعون أوقات الصلاة. وهذه هي الحالة، بوجه خاص، بين مسلمي القرى أو في الجهات التي يسكن فيها الأهلون بعيداً عن جمهور المؤمنين، أما في المدن، فإن وجود علماء الدين يساعد، إلى حد كبير، على مناهضة تأثير العقائد القديمة، ويعمل على تكوين صورة من الحياة الدينية، أكثر نقاءً، وأشد إدراكاً من الحياة السابقة. على أنه في السنين الأخيرة يمكن أن يقال بوجه عام، إن هناك حركة تستحق الذكر، قامت بين مسلمي الهنود، ترمي إلى أن يأخذوا أنفسهم بحياة دينية، أشد تمسكاً بشرائع الإسلام، كذلك كان لمدارس التبشير المسيحي أثر كبير جداً في حث بعض مسلمي الجيل الذي تلا ذلك الجيل على دراسة ديانتهم، وفي إثارة يقظة في الحماسة الدينية، وفي الحق، أن انتشار التعليم، بوجه عام، قد أدى إلى تمثل المبادئ الدينية تمثلا أكثر إدراكاً، وإلى زيادة عدد المعلمين الدينيين في المقاطعات المجاورة التي أهمل شأنها إلى الآن. وأياً كان منشأ حركة الدعوة الإصلاحية هذه، فإن من الممكن أن نلحظ قيام هذه الحركة في جهات مختلفة جداً من بلاد الهند، ففي مقاطعات البنجاب الشرقية مثلا، قامت نهضة دينية عظيمة بعد إعلان العصيان والثورة، وتنقل الدعاة في طول البلاد وعرضها، يدعون المؤمنين إلى نبذ شعائرهم الوثنية، ويبسطون لهم مبادئ العقيدة الخالصة. وكان من أثر ذلك أن بنيت الآن مساجد في معظم القرى التي يمتلك فيها المسلمون أي نصيب لا يستهان به، على حين أن الأهالي أخذوا يكفون الآن عن إقامة العبادات الوثنية التي كانت أكبر مظهر وأكثر علانية[1]. وكذلك في راجبوتانه، نجد القبائل الهندوكية التي كانت تدخل في الإسلام من حين إلى حين في المناطق الريفية، تصبح الآن أكثر محافظة على أصول الإسلام، وأشد مواظبة على إقامة شعائرهم الدينية، وتنبذ العادات القديمة، التي كانت حتى ذلك الحين تشارك جيرانها الوثنيين في المحافظة عليها، فقبيلة ميرات **Merats** مثلاً، تتبع الآن الطريقة الإسلامية في الزواج، بدلاً من النظم الهندوكية التي كانوا يتبعونها من قبل، كما أنهم نبذوا أكل لحم الخنزير[2]. وفي البنغال نهضة مماثلة تحدثنا عنها من قبل.

---

(١) Ibbetson, p. 184.

(٢) The Rajputana Gazetter, vol. i. p. 90 vol. ii. P. 47, (Calcutta. 1879) the Census of India, 1901. vi. P. 172.

ولكن مثل هذه الحركات وجهود الدعاة الفردية، لا تكفي مطلقاً لشرح سرعة ازدياد عـــدد مســـلمي الهند. وكان طبيعياً أن يؤدي ذلك إلى أن يتحرى المرء الأسباب الأخرى، أكثر من أن يتحرى الزيادة العاديـــة في عدد السكان[١]. تلك الأسباب التي ساعدت على زيادة عدد هؤلاء السكان زيادة هائلة، وإنا نجد الجـــواب في أحوال الحياة الاجتماعية عند الهندوكيين، وإن الإهانات والاحتقار الذي انصب على الطبقات المنحطة مـــن الهندوكيين على أيدي إخوانهم في الدين، والعراقيل التي لا يمكن التغلب عليها، والتي وضعت في سبيل أي فريق من هذه الطبقات يرغب في تحسين حالته، ليوضح لنا في هذه المفارقة العجيبة فوائد النظام الديني الذي لا يفرق بين منبوذ وغير منبوذ، والذي يهيئ مجالاً حراً للتمتع بأي مطمح. ففي البنغال مثلاً، يعتقد الإســـلام هـــؤلاء الذين يقومون بنسج القطن، والذين ينظر إليهم إخوانهم في الدين من الهندوكيين كما ينظر المـــرء إلى الســـفلة والطغام، في جماعات كبيرة ليتخلصوا من المركز الوضيع الذي انحدروا إليه[٢]. وهنالك مثل واضح جداً عـــن نوع مماثل في تاريخ الجزء الشمالي الشرقي لهذا الإقليم نفسه. فهنا في سنة ١٥٥٠ أسست قبيلة كوجه **Kecch** الأصلية أسرة بزعامة رئيسهم العظيم "حاجو" **Haju**، وفي عهد حفيده، لما وجد السواد الأعظم مـــن النـــاس الطبقات العالية تدخل في حوزة الهندوكية[٣]. وألفى جمهور الشعب نفسه محتقراً كالمنبوذين، دخلوا في الـــدين الإسلامي[٤].

وإن الخلاص الذي يقدمه الإسلام إلى الهندوكيين من ظلم الطبقات العليا، ليتضح بصورة عجيبة في إقليم تناولي **Tinnevelli** في نهاية القرن التاسع عشر، فإن طائفة منحطة جداً، وهي طائفة الشنار **Shanars**، قـــد أصبحت في السنين الأخيرة في رغد من العيش، وبني كثير من أفرادها دوراً جميلة، وادعوا أن من حقهـــم أن يتعبدوا في معابدهم التي كانوا قد أقصوا عنها إلى ذلك الحين، وتبع ذلك قيام هياج قاسى منه الشـــنار كثـــيراً على أيدي الهندوكيين الذين ينتمون إلى طبقة أعلى، ولجأوا إلى حظيرة الإسلام، وقد دخل ستمائة من الشـــنار في قرية واحدة في الإسلام، و لم يلبث أن اقتفى الناس أثرهم في أماكن أخري[٥]. ونستطيع أن نأتي بأمثلة كثيرة مشابهة من جهات أخري في الهند، فإن الهندوكي الذي نبذته طبقته بطريقة ما، وطردته تبعاً لـــذلك أســـرته وجماعته التي اعتاد أن يتنقل بينها، كان طبيعياً أن ينجذب نحو دين يقبل جميع الناس من غير تمييز، وأن يبوئه في المجتمع منزله تماثل في المستوي الاجتماعي، تلك المنزلة التي كان قد أقصي عنها، وإن مثل هذا التحول كـــان

---

(١) للوقوف على الأسباب التي كان لها أثر في زيادة عدد المسلمين راجـــع. The Census of India, 1901. vol. vi. P. 172.

(٢) E. T. Dalton. P. 324.

(٣) للوقوف على إدخال القبائل الأصلية في الهندوكية راجع: Sir Alfred Lyall: Asiatic Studies, pp. 102- 4.

(٤) E.T. Dalton, p. 89.

(٥) the Missionary Review of the world, N. S. vol. xiii, pp. 72 – 3 (New York, 1900)

يقترن في العادة بإيمان صادق بهذا الدين وعقائده، ولكن الرجال، الذين ربما كانوا لا يكترثون مطلقاً لعدد الآلهة أو أسمائها، تلك الآلهة التي دعوا لعبادتها، قد يحسون إحساساً جدياً بحرماتهم وطردهم من الهيئة الاجتماعية، وما نتج عن ذلك من ضياع حقوقهم في طبقتهم، ويصبحون مسلمين من غير أن يكون لهم شعور ديني، ولا بد أن يكون تأثير دراسة الأدب الإسلامي، واتصالهم بحكم العادة بالهيئة الاجتماعية الإسلامية، قد جعل الهنود يحسون ذلك التأثير بطريقة لم يشعروا بها، ففي راجبوتانة وبنديل كهَند **Bundelkhand**، كانت أمثال هذه النزعات التي تجنح إلى الإسلام ظاهرة في القرن التاسع عشر، بين أمراء راجه بوت[1]- ولو أن إمبراطورية المغول بقيت، لكان من المحتمل أن تؤدي هذه النزعات إلى تحول هؤلاء الأمراء نهائياً إلى الإسلام.

فإنهم لم يقتصروا على احترام أولياء المسلمين، بل عهدوا في تعليم أبنائهم إلى معلمين من المسلمين، وذبحوا الحيوانات وفق الشريعة الإسلامية، واشتركوا في الأعياد الإسلامية وهم يرتدون زي الفقراء، وصلوا كما يصلي المسلمون المتمسكون بدينهم، هذا من جهة ومن جهة أخرى، زعم بعض أن الأحوال الحاضرة تجعل ازدياد تحول الهندوكيين إلى الإسلام أمراً أكثر احتمالاً في عهد حكومة بعيدة كل البعد عن التحيز والمحاباة في المسائل الدينية، بخلاف ما كانت عليه الحال في ظل الممالك الإسلامية، حين ظفر الهندوكيين بتوحيد كلمتهم وزيادة قوتهم من جراء النزاع المستمر مع هؤلاء الأعداء المهاجمين[2]. كذلك كان الهندوكيين يذهبون زرافات ووحدانا لزيارة أضرحة الأولياء، في يوم إحياء ذكراهم، وكان الرجل الذي لم ينجب أطفالاً، يقدم أكف الضراعة إلى إله المسلمين، مدفوعاً بذلك الشعور الذي يدفع المشرك بأن لا يدع إلهاً من غير أن يلقي إليه بالمودة ويتقدم بالدعاء، فإذا ما استجيب دعاء أحدهم وقضيت حاجته، وأنجب ولداً، بر قسمه ودخل جميع أفراد الأسرة في مثل هذه الحالة (والأمثلة على ذلك كثيرة) في الإسلام[3].

وقد يكون حب المرأة المسلمة سبباً في تحول الهندوكي إلى الإسلام، إذ إن الشريعة الإسلامية تحرم تحريماً قاطعاً زواج المرأة المسلمة من الكافر. وإذا تبني المسلمون أطفالاً هندوكيين، تربوا على دين آبائهم الجدد، كما

---

(١) يتحدث سير ألفردليال (Asiatic Studies, p. 29) عن الميل الظاهر إزاء عقيدة الإسلام الذي كان يظهره بعض الزعماء الهندوكيين من حين إلى حين.

(٢) Gazetter of the province of Ondh. Vol. i. p. xix.

(٣) ولنأت بمثل واحد فقط – ففي غاتمور Ghátampur في مقاطعة كان فور، نجد أحد فروع أسرة كبيرة يدين بالإسلام، استجابة لقسم جدهم غاتم ديبوبيز Ghátam DeoBais، فإنه قد نذر، لما كان يدعو في ضريح أحد أو لياء المسلمين، وهو مدار شاه، أنه إذا استجيب دعاؤه، أن تنشأ نصف سلالته تنشئه إسلامية. وكانت عباد أولياء المسلمين شائعة جداً بين بعض أفراد الطبقة السفلى من الهندوكيين، حتى إن٢,٢٢٣,٦٤٣ هندوكي (أو ٥,٧٨% من مجموع سكان هذه المقاطعات) قد أثبتوا في تذاكر التعداد الذي أجري في سنة ١٨٩١ في الولايات الشمالية الغربية وفي أودة Oudh وحدها، أنهم من عبادة أولياء المسلمين. (Census of India, 1891, vol. xvi. Part. i. pp. 217, 244) (Allahabad, 1894) Gazetteer of the N. W. p. vol. xi. P.. 64, 238).

أن المرآة الهندوكية التي تتزوج ممن يتبع دين النبي، تعتقد في الغالب ديانة زوجها[١]. ولما كان من النادر أن يحدث العكس، استلزم ذلك زيادة عدد الهندوكيين، وكان الهندوكيون، الذين طردوا من طبقاتهم لسبب ما والفقراء الذين أصبحوا يعيشون على صدقات المسلمين، أو النساء أو الأطفال الذين دخلوا في حماية المسلمين إذا مات أباؤهم وأمهاتهم أو هجروهم (وطبعي أن تحدث أمثال هذه الحالات في أوقات القحط) – كل ذلك يكون مجرى مستمراً، ولو أنه صغير، يزيد في عدد الذين تحولوا إلى الإسلام من الهندوكيين[٢].

وطالما كانت هناك أحوال محلية تتناسب مع نمو الإسلام، مثال ذلك ما أشرنا إليه من قبل[٣]. من أي نمو في سيادة المسلمين كان في تيري **Teari** التي اتفق أن تساوى فيها عدد الهندوكيين وعدد المسلمين، وأن ذلك النمو كان يتبعه دائماً قيام المنازعات حول ذبح البقرة وغيره من الشعائر التي تسوء شعور الهندوكيين. وكان الهندوكيون يرحلون من القرية تدريجاً، غير تاركين وراء عقيدتهم إلا حراثي الأرض من الشمار في خدمة زراع المسلمين، وينتهي الأمر بهؤلاء إلى اعتقاد دين أسيادهم، و لم يكن ذلك منبعثاً من أي إيمان بصدقه، وإنما كان ذلك راجعاً إلى ما تجره عزلتهم عن إخوانهم في الدين من متاعب.

وكذلك نجد بعض الأمثلة البارزة لتحول الناس إلى الإسلام بين الطبقات الدنيا من الهندوكيين في المراكز الزراعية في أوده **Oudh**. ومع أن المسلمين في هذه المقاطعة يؤلفون عشر جميع السكان فقط، لا تزال الجماعات الصغيرة من حراث المسلمين يكونون "مراكز مبعثرة للثورة على الظلم الشائن الذي أسلم دينهم إليه هذه الطبقات الدنيا بصورة تبعث على اليأس والقنوط"(٤).

وإن المزايا التي يقدمها الإسلام لأمثال هذه الطبقات، كطبقتي الكوري **Koris** والجمار **Chamárs** اللتين بقيتا في أحط دركات المجتمع الهندوكي، والخلاص الذي نالوه عن طريق تحولهم إلى الإسلام، قد يفهم على أحسن وجه من هذه العبارة التي تصف حالتهم الاجتماعية باعتبارهم هندوكيين[٥]: "لقد بلغ الكوري والجمار، الذين يقومون بأعمال النسيج وقطع الجلود لسائر مواطنيهم؛ أحط دركات البؤس والانحلال ففي الولايات الشمالية تجد أكثر هؤلاء في الواقع أرقاء مستعبدين، ليس من السهل مطلقاً أن تتهيأ نفوسهم للإفادة من العلاج الذي تقدمه دور القضاء عندنا، ويهبطون من أطفالهم جيلاً بعد جيل كما تهبط قيمة السلعة

---

(١) وقد وردت أمثلة لمثل هذا التحول في: Census of India, 1901, vol. vi. Bengal, part. 1, Appendix ii.

(٢) Report on the census of the N.W.P. and oudh, 1881, by Edward. White, p. 62. (Allahabad, 1882).

(٣) Ibid. p. 63.

(٤) Gazetteer of the province of oudh, vol. i. p. xix.

(٥) Gazetteer of the province of oudh, vol. i. pp. xxiii-xxiv.

القديمة، وهم يمسكون المحراث للسيد البرهمي أو الشّتْري(†). الذي تحرم عليه كبرياء طبقته أن يمسه، ويعيشون مع الخنازير التي لا تقل قذارة عنهم في أحياء منعزلة بعيدة عن سائر سكان القرية، ولما كانوا دائماً يوشكون أن يموتوا جوعاً، فإن أشكالها الهزيلة السوداء، ذات التقاطيع غير المتجانسة، ووجوههم التي تعلن بغباوتهم، وعاداتهم القبيحة التي تبعث على الاشمئزاز لتصور حظهم العاثر الذي حكم عليهم بأن يكونوا أحط شأناً من الحيوان الذي يعيش بين الرجال الذين ينتمون إلى طبقتهم الاجتماعية، ومع ذلك فإن حالة خدام الإسطبلات النشطين، الذين يختارون من بين هؤلاء، والذين يحصلون على أجور طيبة، ويعيشون عيشة حسنة في كنف سادة من الأوربيين، لتدل على أنهم بعيدون عن أن تكون حالتهم عاجزة عن التحسن، وأن تغيير الدين هو الطريق الوحيد الممهد أمامهم للخلاص، وليس ثمة ما يدعو لأن يكونوا مخلصين لعقيدتهم الدينية التي كانوا يدينون بها".

وإن عدم وجود التعصب الطائفي، ليكون القوة الحقيقية للإسلام في الهند، ويمكن له من أن يجذب إليه عدداً كبيراً جداً من الهندوكية.

في قشمير والتبت: ولكن نتم ما رسمناه من الكلام على الإسلام في الهند، لا يزال لدينا بعض أخبار نوردها عن انتشار هذا الدين في قشمير، ومنها وراء حدود الهند إلى بلاد التبت، ومن بين جميع المقاطعات والولايات في الهند (بخلاف بلاد السند) تشتمل قشمير على أكبر عدد من المسلمين (أي بنسبة ٧٠%) بالنسبة إلى جميع السكان، بيد أن الحقائق التاريخية التي تفسر وجود عدد كبير جداً من المسلمين في هذه الولاية، والتي ترجع كلها تقريباً إلى أصل تبتي أو هندي، قليلة جداً لسوء الحظ. ولكن جميع الشواهد تهدينا إلى أن نعزو هذه الحقائق بوجه عام إلى حركة الدعاية المتصلة التي بدأها وقام على تنفيذها الفقراء والدراويش، وكان من بينهم بعض دعاة الإسماعيلية الذين أرسلوا من قلعة ألموت(١)(§).

ومن الصعب أن نقول متى بدأ التأثير الذي صبغ البلاد صبغة إسلامية لأول مرة، وقد قيل إن أول ملوك قشمير من المسلمين، وهو صدر الدين(٢). يدين بدخوله في الإسلام إلى أحد الدراويش، ويسمي بلبل شاه، وذلك في مستهل القرن الرابع عشر الميلادي، وكان هذا الولي هو المعلم الديني الوحيد الذي استطاع أن يكون أكثر قبولاً لديه من عقيدته الهندوكية، التي لم يكن راضيا عنها مقتنعاً بها. وحول نهاية هذا القرن نفسه

(†) ينقسم سكان الهند إلى خمس طبقات: البراهمة وهم طبقة العلماء ورجال الدين؛ والشتري وهم الجند، ويش أو بيش، وهم التجار ورجال الأعمال، وشمدر، وهم الطبقة الدنيا؛ وجندال، وهم لا يفترقون عن الحيوانات، ولا يختلط بعض أفراد هذه الطبقات ببعض بحال من الأحوال.

(١) Khojá vrttánt, p. 141.

(§) أسسها الحسن الصباح على مقربه من بحر قزوين في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي).

(٢) وتقول رواية أخرى إن اسمه شمس الدين. راجع محمد حيدر، ص ٤٣٣ (هامش رقم ٢).

(١٣٨٨م) لقي تقدم الإسلام أعظم رواج بقدوم سيد على الهمذاني أحد الفارين من مدينة همذان مسقط رأسه في فارس، حيث كان قد أثار سخط تيمور، وقد صحبه سبعمائة سيد، وأسسوا أماكن للتنسك في جميع أرجاء البلاد، ويظهر أنه كان من تأثيرهم أن تحقق قبول الناس لهذا الدين الجديد، على أنه يظهر أن قدومهم قد أثار كذلك روحاً قوياً من التعصب الديني، إذ إن السلطان سكندر **Sikandar** (١٣٩٣ – ١٤١٧م) نال اسم بنث شكن **Butchikan** لتخريبه الأصنام والمعاهد الهندوكية، وقام وزيره الأول، وكان هندوكياً قد تحول إلى الإسلام، باضطهاد عنيف في وجه منتحلي ديانته القديمة، ولكن بعد وفاته أصبح التسامح الديني قاعدة جرت عليها المملكة[١]. وحول نهاية القرن الخامس عشر قدم من بلاد العراق أحد دعاة المذهب الشيعي، ويسمي مير شمس الدين، واستطاع بمعونة تلاميذه ومريديه أن يظفر بعدد كبير من الذين أسلموا في قشمير.

ولما أصبحت قشمير في عهد أكبر إحدى ولايات إمبراطورية المغول، قوي النفوذ الإسلامي بطبيعة الحال، وقدم كثير من رجال العلم إلى هذه البلاد، وفي عهد أورنج زيب، تحول راجا كشتوار، أحد رؤساء راجه بوت إلى الإسلام بفضل الكرامات التي أظهرها شخص يدعي سيد شاه فريد الدين. ويظهر أن تحوله إلى الإسلام قد تبعه دخول السواد الأعظم من رعاياه في هذا الدين، ولا نزال نرى على طول الطريق التي أحرز فيها أباطرة المغول نجاحاً في فتوحهم في بلاد قشمير راجوات من ذراري الراجه بوت من المسلمين[٢].

وإلي شمال قشمير والشمال الشرقي منها، نري خليطاً من جنس التبت يقطنون ولايتي بلتستان **Baltistan** ولداخ **Ladakh**، وقد استقر الإسلام بينهم قروناً عدة، ولكن تاريخ دخوله في هذه البلاد والطريقة التي دخل بها غير معروفة لدينا، ويروي مسلمو بلتستان قصة إخوة أربعة قدموا من خراسان، ونهضوا بالدين، بيد أنه يظهر أنه ليس هناك رواية تتعلق بأقدم الدعاة إلى الإسلام في هذه البلاد[٣]. ويظهر أن الإسلام كان حتى منتصف القرن التاسع عشر يحرز تقدماً، ولكن التشجيع الذي قدمه مهراجه رنبير ستكهه **Maharaja Ranbir Singh** لأتباع الديانة البوذية قد وقف في سبيل هذا الاتجاه. وفي لداخ عدد من مولدي الطبقات يطلق عليهم اسم أرغونيون **Arghons**[٤]. من أمهات تبتيات وآباء مسلمين من التجار الذين قدموا إلى ليه **Leh** وحثوا نساء التبت اللاتي تزوجوا منهن على قبول الإسلام وهؤلاء الأرغونيون مسلمون جميعاً، وهم كآبائهم يتزوجون من نساء التبت. ويقال إن عددهم يزداد بسرعة أكثر من العنصر التبتي الخالص[٥]. كذلك نقل تجار قشمير الإسلام إلى بلاد التبت الأصلية، ونجد أمثال هؤلاء التجار يستوطنون جميع المدن

---

(١) Firishtah, vol. iv. Pp. 464, 469.

(٢) F. Drew: the Jummoo and Kashmir Territories. Pp. 58, 155. (London, 1875).

(٣) Drew, op. cit. p. 359.

(٤) انظر ما ورد عن هذه الكلمة في yule: marco – polo, vol. i. p. 290.

(٥) Ahmad sháb: Four Years in Tibet, pp. 45, 74 (Benares, 1906).

الرئيسية في التبت، ويتزوجون من نساء تبتيات، وكن في الغالب يعتقدون دين أزواجهن، ويقال الآن إن هناك عدداً كبيراً يبلغ ألفي أسرة مسلمة في لهاسه **Lhasa**[١]. وكذلك شق الإسلام طريقه من التبت من إمارة يونان[٢]. وفي سو- جنك **Su – Ching** على حدود ولاية زي – شوان **Sze – Chwan** والتبت، دخل في الإسلام فريق من بين سكان بلاد التبت[٣]. ويقال أيضا إن المؤثرات الإسلامية قد أتت من فارس[٤]. ومن تركستان[٥].

---

(١) Broomhall, p. 206.

وقد أذاع تو ون سو Tu wen – siu، زعيم ثورة بانتهي panthey من سنة ١٨٥٦ إلى سنة ١٨٧٣، وكان السلطان الفعلي على نصف ولاية يونان yunnan ست عشرة سنة، منشوراً في لهاسه نفسها في بداية هذه الثورة ليكسب إمدادات من المسلمين (Id. P. 132).

(٢) Mission d'Ollone, pp. 207, 226, 233.

(٣) Broomhall p. 206.

(٤) A. Bastian: Die Geschichte der Indo – chinen, p. 159 (Leipzig, 1866).

(٥) R. du M.M., tome i, p. 275 (1907).

الباب العاشر

انتشار الإسلام في الصين

بواكير الإسلام في الصين: روي عن النبي ﷺ أنه قال: "اطلبوا العلم ولو في الصين"[١]. مع أنه ليس ثمة شاهد تاريخي يدل على أن هذا الكلام قد جاء على لسان الرسول، فليس من المستحيل أن يكون الرسول قد عرف اسم هذه البلاد، وذلك لأن الصلات التجارية بين بلاد العرب والصين كانت قد توطدت قبل مولده بزمن طويل. فكانت حاصلات الشرق، التي تتلقاها بلاد الشام وموانئ البحر الأبيض، تمر بنسبه هائلة عن طريق بلاد العرب. وفي القرن السادس الميلادي كانت بين الصين وبلاد العرب تجارة هامة عن طريق سيلان. وفي بداية القرن السابع كانت التجارة بين الصين وبين فارس وبلاد العرب لا تزال واسعة الانتشار، حيث كانت مدينة سيراف، الواقعة على الخليج الفارسي، وهي السوق الرئيسية للتجار الصينيين. وقد ورد ذكر العرب لأول مرة في التواريخ[٢] الصينية في ذلك الوقت الذي ابتدأ فيه حكم دولة تانج **Tang** (٦١٨-٩٠٧م)؛ وتشير هذه التواريخ إلى نشأة القوة الإسلامية في مدينا، كما تتحدث بإيجاز عن التعاليم الدينية للعقيدة الجديدة.

أما تاريخ كوانجتنج **Kwangtung** فيذكر قدوم أول من جاء من المسلمين إلى الصين على النحو الآتي: "في عهد دولة تانج **Tang** وفد على كنتن **Canton** عدد كبير من الغرباء من مملكة أنَّام **Annam** وكمبوديا **Combodia** ومدينا وبعض بلاد أخرى. وكان هؤلاء الغرباء يعبدون الله، وليس لهم في معابدهم تمثال ولا صنم ولا صورة. وكانت مملكة مدينا قريبة من مملكة الهند، وفيها نشأت ديانة هؤلاء الغرباء التي تختلف عن ديانة بوذا. وكانوا لا يطعمون لحم الخنزير ولا يشربون الخمر، ويعتبرون الذبائح التي لا يذبحونها بأيديهم طعاماً نجساً. ويطلق عليهم الآن اسم هوى هوى **Hui Hui** [٣].. ولما استأذنوا الإمبراطور وحصلوا منه على إذن بالإقامة في كنتن، بنوا دوراً جميلة من طراز يختلف عن ذلك الذي كان في بلادنا وكانت لهم ثروة عظيمة ودانوا بالطاعة لرئيس انتخبوه بأنفسهم"[٤]. ومن المحتمل جداً، على الرغم من قلة الشواهد التاريخية الصريحة[٥]، أن الإسلام دخل

---

(١) كنز العمال المجلد الخامس ص ٢٠٢

(٢) Bretschneider (2).P.6.

(٣) انظر أصل هذا الرسم في Deveria,P.311;Mission D,ollone,P.420 SQQ

(٤) DE Thiersant, vol. i. PP.19-90

(٥) وفيما يلي، ينبهنا دلون D'ollone إلى التشكك في معرفتنا بالإسلام في الصين: "لا ندري شيئاً عن الإسلام في الصين، ولا تعرف بدقة كيف انتشر في الإمبراطورية، ولا عدد من ظفر بهم من الذين دخلوا في الإسلام، ولا ما إذا كانت مبادئه خالصة، ولا نعرف شيئاً عن نظامه، ولا ما إذا كانت له صلات ببقية العالم الإسلامي (Mission d'ollone, p. i.) وقد جمع شفر Schefer ما كتبة العرب والفرس عن الصين في:
"Notice sur les relations des peuples musulmans avec les chinois"

الصين أول ما دخل مع التجار الذين كانوا يسلكون الطريق البحري القديم. ولكن أسبق النصوص التي يمكن أن نثق بصحتها تشير إلى علاقات سياسية تبادلوها براً عن طريق بلاد الفرس. وعندما توفي يزدجرد آخر ملوك آل ساسان في فارس، استنجد ابنه فيروز بالصين لتنصره على العرب الغزاة[1]؛ غير أن إمبراطور الصين أجاب بأن بلاد الفرس كانت من بعد الشقة وطول المسافة بحيث لا يستطيع أن يرسل إليه الجيوش المطلوبة؛ ولكن قيل أنه بعث إلى البلاد العربية سفيراً يدافع عن قضية الأمير الهارب – ومن المحتمل أيضا أن يكون الإمبراطور قد أوصى سفيره بأن يتبين مدى الاتساع والقوة في الدولة الجديدة التي كانت قد نشأت في الغرب. وقيل إن الخليفة عثمان أرسل أحد القواد العرب ليرافق السفير الصيني في عودته سنة ٦٥١م، فأكرم الإمبراطور وفادة أول سفير من المسلمين بعث إليه، وفي عهد الوليد (٧٠٥-٧١٥م) (٨٦-٩٦هـ) نجد القائد العربي المشهور، قتيبة بن مسلم الذي ولاه الخليفة على خراسان، يعبر نهر سيحون ويشرع في سلسلة من الحملات الناجحة، أخضع فيها على التوالي بخارى وسمرقند ومدناً أخرى، ومضى قدماً في فتوحاته حتى وصل إلى الحدود الشرقية للإمبراطورية الصينية. وأرسل قتيبة، في سنة ٧١٣م، رسلاً إلى الإمبراطور، فصرفهم (كما تذكر بعض الروايات العربية) ومعهم هدايا ثمينة، وبعد سنين قليلة، تذكر التواريخ الصينية سفيراً يدعى سليمان، أوفده الخليفة هشام سنة ٧٢٦م إلى الإمبراطور هزوان تسنج **Hswn Tsung**. واكتسبت هذه العلاقات السياسية، التي قامت بين الدولتين العربية والصينية، أهمية جديدة في أواخر عهد هذا الإمبراطور حين طرده أحد الغاصبين من عرشه فتنحى عنه لابنه سوتسنج **Su Tsung** (٧٥٦م)، فطلب هذا الأخير النجدة من الخليفة العباسي المنصور: وأجابه الخليفة إلى هذا الطلب بأن أرسل إليه قوة من الجيوش العربية، نجح بمساعدتهم في استرجاع عاصمتيه سنينفو **Si-ngan-fo** وهوننفو **Ho-nan-fu** من أيدي الثوار. وفي نهاية الحرب، لم ترجع هذه القوات العربية إلى بلادها، بل تزوجت واستقرت في الصين. ويعزى هذا التصرف الذي كان من جانبهم، إلى أسباب متعددة؛ فتصورهم رواية من الروايات بأنهم رجعوا إلى وطنهم، ولكنهم لما لم يسمح لهم بالبقاء فيه بحجة أنهم مكثوا مدة طويلة في بلاد تأكل لحم الخنزير، عادوا ثانية إلى الصين، وتقول رواية أخرى إنهم كانوا، في كنتن؛ على أهبة الإبحار إلى بلاد العرب، وفي ذلك الوقت عيّرهم الناس بأنهم أكلوا لحم الخنزير في أثناء الغزو. وكان من أثر ذلك أنهم رفضوا أن يعودوا إلى وطنهم ويعرضوا أنفسهم لخطر مثل هذه الاتهامات من قومهم، وحين حاول حاكم كنتن أن يجبرهم على الرحيل، انضموا إلى إخوانهم في الدين من تجار العرب والفرس، وسلبوا المتاجر الهامة في المدينة؛ فأنقذ الحاكم نفسه بالالتجاء إلى سورها،

(١) Chavannes P.172.

ولم يتمكن من العودة إلا بعد أن حصل من الإمبراطور على إذن لهذه الجيوش العربية بأن تقيم في هذه البلاد، وخصصوا لهم أراضي، ودوراً في مدن مختلفة حيث استقروا وتزوجوا من نساء البلاد(١).

الإسلام في عهد دولة تانج: وكان من الشائع بين مسلمي الصين أن أول من دعا إلى الإسلام في بلادهم أحد أخوال النبي، وكانوا يعظمون قبره المشهور في كنتن؛ إلا أنه لا يوجد لهذه للأسطورة أي سند تاريخي، ويظهر أنها نبتت في زمن متأخر(٢). ولا شك أن ظهورها كان نتيجة لرغبتهم في أن يربطوا تاريخ الدين في بلادهم؛ ما أمكنهم، بعصر النبوة – ذلك العصر الذي كان مصدرا خصباً للأساطير في البلاد النائية عن مراكز التاريخ الإسلامي(٣). أما فيما يتعلق بوجود مسلمين في الصين، وعلى الأخص وجود تجار منهم في الموانئ، في عهد دولة تانج؛ فهناك الدليل الواضح على ذلك. إذ يقول المؤرخ الصيني لهذه الفترة (٧١٣ – ٧٤٢ م) إن برابرة الغرب دخلوا المملكة الوسطى جماعات، كالطوفان، جاءت من مسافة تبعد ألف فرسخ على الأقل، وأتت من أكثر من مائة مملكة، تحمل معها كتبها المقدسة كأنها الجزية، فأخذت هذه الكتب ووضعت في بهو في القصر الإمبراطوري، خصص لترجمات الكتب المقدسة والكتب القانونية(§). وعلى هذا النحو انتشرت منذ ذلك الحين العقائد الدينية لتلك الأقطار المختلفة، وأخذ بها الناس في إمبراطورية تانج(٤). وقد كتب أحد الجغرافيين العرب، حوالي سنة ٨٥١ م يصف هذه الجاليات العربية والمساجد التي سمح لهؤلاء التجار ببنائها لإقامة شعائرهم الدينية(٥)، فقال إنه لم يصل إلى علمه أن أحداً من الصينيين اعتقد الإسلام. ولكنه، وقد لاحظ نفس الملاحظة على الهند، ربما أخطأ في استقاء معلوماته عن الصين كما أخطأ في استقاء معلوماته عن الهند(٦). ولكن من المؤكد أن ليس هناك دليل واضح على أن المسلمين في الصين قاموا بأي نشاط في نشر تعاليم الدعوة، والواقع أن ما ذكر عنهم جميعاً حتى عصر فتوح المغول، في القرن الثالث عشر الميلادي، كان قليلاً للغاية.

---

(١) Ds Thiersant, vol. i. pp. 70-1.

(٢) ناقش برومبول Broomhall هذه الأسطورة مناقشة وافية: Islamin in china, chap, iv, vii.

(٣) وعلى هذا النحو يدعى أهالي ختان Khotan أن أول من نقل الإسلام إلى أرضهم هو جعفر ابن عم النبي (Grenard: Mission Dutreuil de Rhins, t. iii. P. 2) وتعزو عشائر الجام في كمبوديا Cambodia دخولهم في الإسلام إلى أحد أعمام محمد.(R. du. M. M., vol. ii.p.138).

(§) أي الكتب الدينية التي اتفق علماء المسيحيين على صلاحيتها وصحتها.

(٤) De Thiersant, vol. 1.p. 153.

(٥) Reinand: Relation des Voyages faits par les Arabes et les Persans dans l'Inde et á la Chine, i, pp. 13, 64, (Paris. 1845).

(٦) Id. P. 58.

أثر الفتوح المغولي: وقد تمخضت فتوح المغول عن حركة هجرة واسعة النطاق هاجر فيها المسلمون على اختلاف قومياتهم من عرب وفرس وأتراك وغيرهم إلى الإمبراطورية الصينية[١]. فجاء بعضهم إلى الصين تجاراً أو صناعاً وجنوداً أو مستعمرين، وجيء بآخرين أسرى حرب واستقر عدد كبير منهم في هذه البلاد بصفة دائمة، وتطوروا إلى طائفة كبيرة مزدهرة، فقدت جنسها الأول شيئاً فشيئاً بالزواج من نساء صينيات. وقد تقلد عدة مسلمين مناصب رفيعة تحت إمرة حكام المغول. مثال ذلك، عبد الرحمن الذي اختير سنة ١٢٤٤ رئيساً على بيت مال الدولة، وحول حق تقدير الضرائب المفروضة على الصين[٢]. وكذلك عمر شمس الدين المشهور بالسيد الأجل وكان من أهالي بخارى، عهد إليه قوبيلاي خان، عندما اعتلى العرش سنة ١٢٥٩، في إدارة بيت مال الإمبراطورية الصينية؛ ثم أصبح حاكماً ليونّان **Yunnan**، بعد أن فتحت هذه الولاية وضمت إلى الإمبراطورية الصينية[٣]. ومات السيد الأجل في سنة ١٢٧٠، وترك بعد وفاته شهرة بأنه كان حاكما فطناً عادلاً؛ إذ بنى في مدينة يونان معابد لأتباع كنفشيوس بقدر ما بنى فيها من المساجد[٤].

وقد مثلت ذرية السيد الأجل دوراً هاماً في توطيد دعائم الإسلام في الصين فكان حفيده هو الذي حصل من الإمبراطور في سنة ١٣٣٥ على الاعتراف بأن الإسلام "هو الدين الحق الخالص" – وهو اسم ظل الإسلام يحمله حتى يومنا هذا – وأذن الإمبراطور في سنة ١٤٢٠ شخص آخر من سلالة السيد الأجل بأن يبني مساجد في العاصمتين، ستيانفو **Si-Ngan-fu** ونانكن **Nan-kin**[٥]. وقد اتخذ مؤرخو الصين، في عهد قوبيلاى خان، من عدم تعيينه موظفين من الصين بدلاً من مهاجري الترك والفرس ذريعة للشكوى من هذا الملك[٦]. وانجذب أمثال هؤلاء الترك والفرس إلى شمال الصين، لما كان يشغل السيد الأجل من مكان رفيع، ولما أوجدته فتوح المغول من تيسير في الصلة بين الصين والغرب. ومن المحتمل أن تكون هذه الجماعات الإسلامية المتفرقة، التي تكاثرت في معظم ولايات الصين بنسبة كبيرة، قد أخذت تتكون نتيجة لهذا الهجرات. وقد لاحظ ماركوبولو **Marco Polo** الذي تمتع بعطف قوبيلاي خان، وعاش في الصين من سنة ١٢٧٥ إلى سنة ١٢٩٢، وجود مسلمين

---

(١) ونعرف، من مذكرة راهب صيني تجول من سنة ١٢٢١ إلى سنة ١٢٢٤ خلال آسيا الوسطى حتى وصل فارس، أن الصينيين أيضاً هاجروا نحو الغرب، في البلاد التي فتحها الإسلام، حيث كانوا يحلون في بيئة نفوذه الديني؛ ويقول هذا الراهب في حديثه عن سمرقند "إن الصناع الصينيين يعيشون في كل مكان". (Bretschneider (1), vol. p. 78)

(٢) Howorth, vol. 161.

(٣) للإطلاع على تراجم السيد الأجل، انظر: R. du M. M., viii. p. 344. sqq. Andxi. P. 3 sqq. Mission d'Ollone, p 52 sqq.

(٤) Broombhall, p. 127.

(٥) Mission d´Ollone, pp. 435-6.

(٦) Howorth, vol. i. p. 257.

من جهات شتى من يونان[١]. ويقول مؤرخ معاصر لماركوبولو، أنه في بداية القرن الرابع الميلادي، كان جميع سكان تاليفو Talifu، حاضرة يونان، من المسلمين[٢]؛ وكذلك ابن بطوطة، الذي زار عدة مدن ساحلية في الصين، حول منتصف القرن الرابع عشر، يحدثنا عن الترحيب الحار الذي لقيه من إخوانه في فدين[٣]، ويقرر أن "في كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناهم، ولهم فيها المساجد لإقامة الجُمعات وسواها، وهم معظمون محترمون"[٤].

الإسلام في عهد دولة منج: ويظهر أن المسلمين في الصين كانوا حتى ذلك العصر يعدون طائفة أجنبية، ولكنهم بعد زوال دولة المغول في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي، لم يتلقوا زيادة جديدة من الخارج نتيجة لسياسة العزلة التي اتخذتها حينذاك الحكومة الصينية؛ ولما كان الأمر على هذا النحو، من انقطاع الصلة بينهم وبين إخوانهم في الدين الذين يقيمون في أقطار أخرى، وأخذوا في معظم بقاع الإمبراطورية يتحولون شيئاً فشيئاً إلى الاندماج في العامة من أهالي البلاد، وذلك بالزواج من نساء صينيات، وتعود عادات أهل الصين وأخلاقهم. وقدم إليهم مؤسس دولة منج **Ming** الجديدة، وهو الإمبراطور هنج وو **Hung Wu** كثيراً من الامتيازات، وتدل كثرة المساجد التي بنيت على انتعاشهم خلال الفترة التي قضتها هذه الدولة في الحكم (١٣٦٨ - ١٦٤٤ م).

وقد نمى ملوك هذه الدولة صلاتهم الودية بأمراء المسلمين الذين كانوا يقيمون على حدود الصين الغربية، كما أكثروا من تبادل السفراء مع الأمراء التيموريين. ويعتبر أحد هؤلاء ذا أهمية في تاريخ نشر الدعوة الإسلامية، وهذا هو الشاخ رخ بهادر، الذي انتهز سنة ١٤١٢ فرصة قدوم سفير صيني إلى قصره في سمرقند، وضمن رده على الإمبراطور الصيني دعوة إلى الإسلام، وذلك بأن أرسل مع رسوله، الذي صحب السفراء الصينيين في عودتهم، رسالتين، كانت أولاهما باللغة العربية، وهذا نصها:

"بسم الله الرحمن الرحيم! لا إله إلا الله، محمد رسول الله. قال رسول الله محمد عليه أفضل السلام: لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا ينصرف من خذلهم ولا يطاع من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك. لما أراد الله تعالى أن يخلق آدم وذريته، قال: كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق لأعرف، فعُلِمَ أن حكمته جلت قدرته، وعلت كلمته، من خلق نوع الإنسان، إيثار العرفان، وإعلاء أعلام الهدى والإيمان. وأرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ولو كره المشركون، ليعلم الشرائع والأحكام، وسنن الحلال والحرام. وأعطاه القرآن المجيد معجزة، ليفحم به المنكرين، ويقطع لسانهم عند المنازعة والخصام، وأبقى بعنايته الكاملة، وهدايته الشاملة،

---

(١) Marco Polo, vol. 1. pp. 219, 274: vol. ii.p. 66.

(٢) رشيد الدين (Yule 's Cathay p. 9)

(٣) رحلة ابن بطوطة، المجلد الثالث، ص ٢٧٥، ٢٨٣ (طبع أوروبا)

(٤) نفس المرجع ص ٢٥٨.

أثاره إلى يوم القيامة؛ ونصب بقدرته في كل حين وزمان، وفرصة وأوان، في أقطار العالمين، من الشرق والغرب والصين، ذا قدرة وإمكان، وصاحب جنود مجندة وسلطان، ليروج أسواق العدل والإحسان، ويبسط على رءوس الخلائق أجنحة الأمن والأمان ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر والطغيان ويرفع بينهم أعلام الشريعة الغراء، وأزاح من بينهم الشرك والكفر بالتوحيد في الملة الزهراء. فوفقنا الله تعالى بسوابق لطفه، ولواحق فضله، أن نسعى في إقامة قوانين الشريعة الطاهرة، وإدامة قواعد الطريقة الزاهرة؛ وأمرنا بحمد الله أن نفصل بين الخلائق والرعايا، في الوقائع والقضايا، بالشريعة النبوية، والأحكام المصطفية، ونبني في كل ناحية، المساجد والمدارس، ونعمر الخوانق والصوامع والمعابد، كي لا يندرس أعلام العلوم ومعالمها، وينطمس آثار الشريعة ومراسمها، ولأن بقاء الدنيا الدنية وسلطتها، واستدامة آثار الحكومة وإيالتها بإعانة الحق والصواب، وإماطة أذى الشرك والكفر عن وجه الأرض، لتوقع الخير والثواب. فالمرجو والمأمول من ذلك الجانب وأركان دولته، أن يوافقونا في الأمور المذكورة ويشاركون في تشييد قواعد الشريعة المعمورة". أما الرسالة الأخرى التي كتبت بالفارسية فالدعوة فيها إلى اعتقاد الإسلام أكثر صراحة، وليس فيها التنميق البلاغي الذي رأيناه في الرسالة العربية: "لما خلق الله الأعظم، بحكمته البالغة وقدرته الكاملة، آدم (عليه السلام) جعل بعض أبنائه أنبياء ورسولاً. وأرسلهم إلى الخلق يدعوهم إلى الحق. وأنزل على بعض هؤلاء الأنبياء كإبراهيم وموسى وداود ومحمد (عليهم السلام) كتاباً وعلمهم شريعة، وأمر أهل زمانهم أن يتبعوا شريعة كل منهم ودينه. ودعا هؤلاء الرسل جميعاً الناس إلى دين التوحيد وعبادة الله، ونُهوا عن عبادة الشمس والقمر والنجوم، والملوك والأصنام، ومع أن كلاً من هؤلاء الرسل كانت له شريعة خاصة، فإنهم كانوا جميعاً متفقين على توحيد الله العظيم. ولما صار أمر الرسالة والنبوة إلى محمد المصطفى ﷺ نسخت كل الشرائع الأخرى. وهو نبي آخر الزمان ورسوله، وواجب على العالم بأسره – أمراء وسلاطين ووزراء وأغنياء وفقراء وصغار وكباراً – أن يعلمون بشريعته، وأن يتركوا كل الملل والشرائع السابقة. هذه العقيدة الصادقة الصحيحة تسمى الإسلام. ومنذ سنوات خلت، تهيأ جنكيز خان للقتال، وأرسل أبناءه إلى بلاد وممالك مختلفة – فأرسل جوجي خان إلى حدود سراي، وقرم ودشت قفجاق، حيث أسلم بعض الشاهات، من أمثال أوزبك وجاني خان وأرس خان، وعملوا بشريعة محمد ﷺ؛ وأصبحوا بذلك مسلمين، وانتقلوا إلى الدار الآخرة سعداء بشرف الإسلام، ومن هؤلاء الملك الصادق غازان وألجايتوا سلطان والشاه سعيد الحظ أبو سعيد بهادر – وغيرهم بعدهم حتى ولي العرش والدي المكرم أمير تيمور كوركان. وقد عمل والدي كذلك بشريعة محمد (عليه السلام) في كل البلاد التي حكمها، ونعم المسلمون، طوال عهده، برخاء شامل. والآن وقد انتقلت إلى يدي، بلطف الله وفضله، ممالك خرسان وما وراء النهر والعراق وغيرها وغيرها، فإن حكم البلاد في كافة أرجاء المملكة بموجب الشريعة المطهرة النبوية؛ أمر بالمعروف ونهي عن المنكر. وأبطل يرغو وزالت قواعد جنكيز خان. ومنذ ذلك الحين صار يقيناً ومحققاً أن الخلاص والنجاة في يوم القيامة، والسلطان

والدولة في الدنيا، سببها إيمان الفرد وإسلامه وعناية الله تعالى، ومن الواجب علينا أن نعامل رعيتنا بعدل وإنصاف. وإني لأرجو بفضل الله تعالى وكرمه أن تعلموا أنتم أيضا بشريعة محمد رسول الله (عليه السلام)، وأن تقووا الإسلام فتنالوا بدلاً من سلطان الدنيا سلطان الآخرة"[١].

وليس ببعيد أن تكون هاتان الرسالتان قد خلقتا القصة، التي نشأت في عصر متأخر، والتي روت أن أحد أباطرة الصين قد تحول إلى الإسلام[٢]. وقد روى هذه القصة، مع غيرها من القصص، تاجر مسلم يدعى سيد علي أكبر، قضى سنوات قليلة في بكين، في نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القران السادس عشر؛ ويتحدث عن عدد كبير من المسلمين الذين كانوا قد استقروا في الصين؛ فكان في مدينة كنجنفو **Kenjanuf** عدد كبير يبلغ ثلاثين ألف أسرة من المسلمين؛ فلم يؤدوا الضرائب، وتمتعوا بكرم الإمبراطور، الذي منحهم هبات من الأرض؛ ونعموا بالحرية المطلقة في إقامة شعائر دينهم الذي كان الصينيون ينظرون إليه نظرة احترام وتقدير، وترك أمر التحول إلى الإسلام حراً؛ وكان في العاصمة نفسها أربعة مساجد كبيرة، وما يقرب من تسعين مسجداً غيرها في الولايات الأخرى من الإمبراطورية، وقد بنيت كلها على نفقة الإمبراطور[٣].

في عهد دولة منشو: ثورة المسلمين: ولم يكن هناك حتى قيام دولة منشو **manchu** سنة ١٦٤٤ خبر عن أية ثورة قام بها المسلمون، بل يظهر أنهم كانوا راضين كل الرضا بما كانوا يتمتعون به من حرية دينية. ولكن سرعان ما قامت الصعاب على أثر قيام السلطة الجديدة، فثار المسلمون في ولاية كنسو **kansu** سنة ١٦٤٨، وكانت هذه هي أول مرة تسلح فيها المسلمون وثاروا على الحكومة الصينية. على أنه لم يكد يأتي القرن التاسع عشر حتى أصبحت أية ثورة من هذا النوع تجر على المسلمين عواقب وخيمة: أو تقطع العلاقات الودية التي قامت منذ البداية بين مسلمي الصين وحكامهم. وتتجلى وجهة النظر الرسمية التي كانت تنظر بها الحكومة الصينية إلى هذه الصلات في القرار الذي نشره الإمبراطور ينج تشن **Yung Chen** سنة ١٧٣١:- "في كل ولاية من ولايات الإمبراطورية، يوجد منذ قرون كثيرة مضت عدد كبير من المسلمين، يؤلفون جانباً من الشعب، أعتبرهم كأبنائي وأنظر إليهم كما أنظر إلى بقية رعيتي تماماً، ولا أفرق بينهم وبين الذين لا يدينون بالإسلام. وقد تسلمت من بعض الموظفين ظلامات سرية ضد المسلمين، سببها أن ديانتهم تختلف عن ديانة غيرهم من أهل الصين، وأنهم لا يتكلمون بلغة الصين، ويلبسون لباساً يختلف عما يلبسه سائر الأهالي. وهم متهمون بالعصيان والغطرسة والميول الثورية، وقد طلب مني أن أتخذ ضدهم تدابير صارمة. فلما بحثت هذه الظلامات والاتهامات لم أجد لها أساساً من الصحة. والواقع أن

---

(١) عبد الرازق السمر قندي: مطلع السعدين ومجمع البحرين، ورقة ٣٠٦١.(Blochet. Pp. 249-52)

(٢) Zenker, pp. 798- 9. Mélanges Orientaux, p. 65. (Fublication de I''Ecole des Langues Orientales Vivantes, Sér. il. T. q) (Paris, 1883).

(٣) Schefer, pp. 29-30.Zsnker, p. 796.

الدين الذي اتبعه المسلمون، إنما هو دين أجدادهم، والحق أن لغتهم ليست كلغة بقية الصينيين، ولكن ما أكثر اللغات في الصين. أما فيما يتعلق بدور عيادتهم ولباسهم وطريقتهم في الكتابة – وكلها مختلفة عما عند غيرهم من أهل الصين. فهذه مسائل لا أهمية لها مطلقاً، وما هي إلا عادة من عادات المسلمين. إنهم يتحلون بالأخلاق الفاضلة كغيرهم من الرعية، وليس هناك ما يدل على ميلهم إلى الثورة. من أجل ذلك كانت رغبتي أن تطلق لهم الحرية في إقامة شعائر دينهم، الذي يهدف إلى تعليم الناس التمسك بالحياة الفاضلة وتأدية واجباتهم الاجتماعية والمدنية. إن هذا الدين يحترم النظم الأساسية للحكومة، فماذا نستطيع أن نطلب منه أكثر من هذا؟ فإذا ظل المسلون بعد ذلك يتصفون بما يتصف به الرعايا الأخيار المخلصون، فأبسط لهم رعايتي بقدر ما أبسطها إلى أبنائي الآخرين. لقد ظهر منهم مدنيون وعسكريون ارتقوا إلى أعلى المناصب. وهذا أقوى دليل على أنهم تطبعوا بطباعنا وتعودوا عاداتنا، وتعلموا كيف يلائمون بين أنفسهم وبين شرائع كتبنا المقدسة. إنهم يجتازون امتحاناتهم في الآداب كما يجتازها أي إنسان آخر. ويقومون بما يفرضه عليهم القانون من تضحية. وقصارى القول أنهم أعضاء خلص في الأسرة الصينية العظيمة وأنهم يجدّون دائماً في أداء واجباتهم الدينية والمدنية والسياسية. وحين ينظر القضاة قضية مدنية، لا تعنيهم ديانة المتخاصمين، فليس هناك إلا قانون واحد لرعيتي. فمن عمل صالحاً كوفئ عليه، ومن عمل سيئاً حق علية العقاب"[١].

بعد ذلك بثلاثين سنة، أظهر خليفته الإمبراطور كين لنج **k'lien lung** دلائل واضحة على عطفه على المسلمين وذلك بأن رفع، شأن اثنين من بيكوات الأتراك كانا قد ساعدا مساعدة فعالة على إخماد ثورة في الشمال الغربي من الإمبراطورية، وفي كاشغرا، كما أظهر عطفه ببناء قصور لهم في بكين؛ وكذلك شيد مسجداً ليصلي فيه بيكوات الأتراك الذين يزورون القصر الإمبراطوري، وليصلي فيه أسرى الحرب الذين جيء بهم من كاشغرا إلى العاصمة. وكان بين هؤلاء الأسرى فتاه جميلة، أصبحت جارية للإمبراطور، ونالت حظوة عنده. ويقال إنه في سبيل حبها بنى هذا المسجد تجاه قصره مباشرة، كما بنى قبة في فناء قصره، فتمكنت الجارية من أن تشاهد منها أبناء وطنها وهم يصلون، وأن تشاركهم في عبادتهم. وقد بنى هذا المسجد من سنة ١٧٦٣ إلى سنة ١٧٦٤، وهو يحتوى على نقش مكتوب بأربع لغات، كتب الإمبراطور نفسه النص الصيني من هذا النقش[٢].

وبعد أن قمع الثورة في زنجاريا **zungaria** نقل إليها هذا الإمبراطور **K'ien Lung** نفسه في سنة ١٧٧٠ عشرة آلاف مهاجر عسكري من جهات أخرى من الصين، وتبعتهم أسرتهم وغيرهم من الناس، ليعمروا البلاد، ويقال إنهم جميعاً دخلوا دين المسلمين الذين كانوا يقيمون فيما حولهم[٣]. على

---

(١) De Thiersant. Tome. i, 154-6.

(٢) Broomhall, p. 92 sqq. Devéria: Musulmans et Manichéens chinols. (J. A. qme. Sér., tome x. p. 447 sqq).

(٣) De Thiersant, tome i. pp. 162-4.

أنه ليس لدينا ما نذكره عن مثل هذا التحول الجماعي إلى الإسلام، هل حدث أيضاً في بقاع أخرى من الإمبراطورية؟ ولكنه من العسير، وإن كان عدد السكان في تلك الولايات التي استقر فيها المسلمون الغرباء أكبر منه في سائر الولايات[١]، أن تفسر وجود عدد كبير من الأهالي المسلمين في كل ولاية من ولايات الصين بأنه إنما يرجع إلى الهجرات الأجنبية ونمو السكان نمواً طبيعياً[٢]. وليس من المحتمل أن يكون مسلمو الصين، الذين نعموا بالحرية الدينية وبحماية بعض الأباطرة لحريتهم، قد تجردوا طوال القرون الكثيرة التي عاشوها في الصين، ومن تحمسهم لنشر تعاليم الإسلام ذلك التحمس الذي يلاحظه الباحثون المحدثون على ذريتهم في عصرنا هذا[٣]. وإلى مثل هذا النشاط المباشر في الدعوة إلى الإسلام يعزى إسلام يهود من الصينيين، بدأ استيطانهم لهذه البلاد من عصر مبكر فشغلوا وظائف في الحكومة وامتلكوا ضياعاً واسعة؛ ولكن جزءاً كبيراً منهم تحول إلى الإسلام في نهاية القرن السابع عشر[٤]. ولابد أن هذا النوع من الدعوة إلى الإسلام كان في غاية الرزانة والوقار، والواقع أنه كان هناك أساليب علنية أخرى في الدعوة أثارت شكوك الحكومة، كما يتضح من التقرير الذي أرسله حاكم ولاية خوانسي **Se – khwang** إلى الإمبراطور كين لنج سنة ١٧٧٣. وهذا نصه: "إن لي عظيم الشرف أن أحيط جلالتكم علما بأن مغامراً يدعى هانفوين **Han – Fo – Yun** من ولاية خوانشى قبض عليه بتهمة التشرد. فلما سئل عن عمله، اعترف بأنه قضى عشر سنوات يطوف بشتى ولايات الإمبراطورية كي يستطلع أحوال ديانته. وقد وجدنا في إحدى حقائبه ثلاثين كتاباً، كتب بعضها بنفسه، وكتب بعضها بلغة لا يفهمها أحد عندنا. وتمجد هذه الكتب ملكاً من ملوك العرب يدعى محمداً في أسلوب مسرف يدعو إلى السخرية وحين قدمنا هذا الضال الذي ذكرناه من قبل للتعذيب، اعترف أخيراً بأن الغرض الحقيقي من رحلته أن يدعو لهذا الذين الزائف الذي يتعلمونه من هذه الكتب، كما اعترف بأنه قضى في ولاية شنسى **Shen-Si** مدة أطول مما قضاه في أية ولاية أخرى. لقد اختبرت هذه الكتب بنفسي فوجدت بعضها مكتوباً بلغة أجنبية؛ ولهذا لم أستطع فهمها: أما بعضها الآخر الذي كتب باللغة الصينية فرديء جداً، ويمكن أن أضيف إلى ذلك أنها كانت أيضاً تبعث على السخرية لما فيها من مغالاة في مدح أشخاص، من المؤكد أنهم ليسوا أهلاً لهذا المدح، لأني لم أسمع بهم حتى مجرد السماع. وربما كان هانفويون الذي تقدم ذكره أحد الثوار من كنسوا **Kan-Su** ولا شك أن مسلكه

---

(١) يذكر برومهول Broomhall في الفصل الثاني عشر من كتابه "الإسلام في الصين" "Islam in China" أن مجموعهم يتراوح بين خمسة وعشرة ملايين نسمة. أما دلون d'Ollone فإنه يخفض هذا العدد إلى أربعة ملايين نسمة.

(٢) يقال إن المسلمين الصينيين أكثر إنسالاً من غيرهم من الصينيين، ويقدر التعداد الصيني، الذي يحصي الأفراد حسب الأسر، ستة أفراد للأسرة من الصينيين المسلمين وخمسة أفراد للأسرة من الصينيين غير المسلمين. (Broomhall, pp. 197, 203)

(٣) Vide infra, pp. 309-310.

(٤) Clark Abel: Narrative of a journey in the interior of China. P. 361.(London, 1818).

يدعو إلى الريبة إذ ماذا كان يريد أن يعمل في هذه الولاية التي طاف بها مدة السنوات العشرة الأخيرة في حياته؟ وإني عازم على بحث هذه المسألة بحثاً جدياً. وفي هذه الأثناء ألتمس من جلالتكم، أن تأمروا بإحراق صحائف الطباعة، التي في حوزة أسرتهم، وبالقبض على من حفروها، وبالقبض أيضاً على من ألفوا هذه الكتب التي أرسلتها إلى جلالتكم، رغبة في الوقوف على ما ترونه في هذا الأمر"[١].

بين المسلمين ومواطنيهم في الصين: وإن هذا التقرير ليشهد على نشاط واحد، على الأقل، من دعاة المسلمين في القرن الثامن عشر الميلادي، كما يدل على أن نمو الإسلام، وهو ما لاحظه هناك رسل الجزويت[٢] في القرن الثامن عشر، لا يحتمل أن يكون ضعيف الصلة بالدعوة الصريحة إلى الإسلام، كما زعم بعضهم. ويعزو دوهلد **Du – Halde** الزيادة في عدد المسلمين، في فصل من الفصول القليلة التي خصصها للمسلمين في كتابه الضخم[٣]، إلى ما اعتاده من شراء الأطفال أيام المجاعات. "لقد استوطن المسلمون مدة تربو على ستمائة سنة، في مختلف الولايات، حيث يعيشون في هدوء تام، لأنهم لا يقومون بأية جهود كبيرة لنشر عقيدتهم وكسب مسلمين جدد، ولأنهم في الأزمان الماضية لم يزد عددهم إلا عن طريق التحالف مع الصينيين والزواج منهم. ولكنهم سائرون، منذ سنين، في تقدم ملحوظ بفضل مالهم من ثروة. فهم يشترون الأطفال الوثنيين حيثما كانوا؛ ولا يجد آباء هؤلاء الأطفال غضاضة في بيعهم، لعجزهم دائماً عن توفير القوت لهم. وفي أثناء المجاعة التي خربت ولاية تشنتنج **Chantong**، اشترى المسلمون ما يربو على عشرة آلاف من هؤلاء الأطفال. وتزوج المسلمون بالصينيات، ويشترون لهم الدور، أو يبنون لهم في المدينة أحياء مستقلة، بل قرى بأكملها؛ وحصلوا شيئاً فشيئاً على مثل هذا النفوذ في جهات عدة، حتى إنهم لم يتيحوا لأي شخص لا يذهب إلى المسجد أن يعيش بين ظهرانيهم. وبمثل هذه الوسائل تضاعف عددهم إلى حد كبير، خلال القرن الماضي".

وشبيه بهذا ما حدث في المجاعة التي اجتاحت ولاية كوانجتنج **Kwangtung** سنة ١٧٩٠، إذ اشترى المسلمون فيما يقال، عدداً كبيراً يبلغ عشرة آلاف طفل كان آباؤهم من الفقر بحيث لم يستطيعوا الإنفاق عليهم، فرغبوا في التخلص منهم إنقاذاً لأبنائهم من الهلاك جوعاً؛ وقد تربى كل هؤلاء على دين الإسلام[٤]. وقد زار القاهرة في سنة ١٨٩٤ صيني مسلم من ولاية يونان، يدعى سيد سليمان، فذكر عندما قابله مندوب إحدى الصحف العربية[٥]، أن عدد الذين يدخلون في الإسلام كل عام، بهذه الطريقة، يفوق الحصر والعد. وشهد مسيو دلون **M. D'Ollone** بما يشبه ذلك، ويقرر أن عادة شراء

---

(١) De Thiersant, tome ii. pp. 361-3.

(٢) كتب أحد رسل الجزويت من بكين في سنة ١٧٢١ يقول "إن طائفة المسلمين تتسع شيئاً فشيئاً". (Lettres édifiantes et curieuses, tome xix. P. 140).

(٣) J.B.du Halde: Description Geographique. Historique, chronologique, politique et physique de I' Empire de la China, tome iii. P. 64 (Paris, 1735).

(٤) Anderson, p. 151. Grosier tome iv. P. 507.

(٥) ثمرات الفنون، ١٧ من شوال، ص ٣ (بيروت سنة ١٣١١هـ).

الأطفال هذه أيام المجاعات، منتشرة حتى الآن بين المسلمين في جميع أنحاء الصين؛ وعلى هذا النحو اشتروا أطفال المسيحيين الذين قتلهم الملاكمون **Boxers** في سنة ١٩٠٠، ونشئوهم على الإسلام[١]..

ويميل المسلمون في الصين إلى أن يعيشوا جماعة في مدن وقرى مستقلة، أو يكّونوا لأنفسهم في المدن أحياء إسلامية منفصلة؛ حيث لا يبيحون لأي شخص لا يذهب إلى المسجد أن يقيم بينهم[٢]. ومع أنهم يعيشون على هذا النحو من العزلة إلى حد ما، نراهم حريصين على أن يتجنبوا الظهور العلني بأي مظهر خاص من مظاهر الشعائر الدينية الإسلامية، التي قد تضايق جيرانهم، كما نراهم حريصين على ألا يثيروا تعصب مواطنيهم من الصينيين. والمسلمون يلتزمون في حياتهم العادية ما هو شائع حولهم من عادات وطبائع فهم يتخذون ضفائر الرأس والملابس الصينية المعروفة، كما جرت العادة بأن يلبسوا العمامة في المساجد فقط. وكذلك يتجنب المسلمون هناك بناء مآذن عالية، في أي مكان يبنون فيه، تفادياً من إثارة تعصب الصينيين[٣]. بل إن مساجدهم كانت في معظم الأحيان تتفق مع المعمار الصيني، فكانت في الغالب لا تتميز بشيء عن معابد الصينيين[٤] أو مساكنهم العادية. وقد فرض القانون أن يكون في كل مسجد لوح للإمبراطور، منقوش عليه "عاش الإمبراطور الخالد إلى الأبد". وكان المسلمون يسجدون أمامها جرياً على العادة الصينية المتبعة، وكانت لهم حيل عديدة في التخلص من ذلك، إرضاء لضمائرهم وتفادياً من الاتهام بالوثنية[٥]. حتى في بلاد التتار الصينية، التي كان مباحاً فيها للمسلمين امتياز خاص يخول لهم أن يعيشوا غير مندمجين في غيرهم، وأن يكونوا طائفة منفصلة، كان كبار الموظفين من المسلمين يرتدون الزي المخصص لمناصبهم، ويرسلون شواربهم، وجدائل شعرهم، ويقومون في أيام العطلة بما كان مفروضاً على الموظفين من شعائر الولاء المعهودة، لصورة الإمبراطور، وذلك بأن يسجدوا لها ثلاث سجدات[٦]. وكذلك كان جميع أصحاب المناصب من المسلمين وغيرهم من الموظفين، في الولايات الأخرى، يؤدون في الأعياد الشعائر الخاصة بوظائفهم في معابد كنفشيوس. والواقع أن المسلمين احتاطوا كل الحيطة كي لا يظهر دينهم بمظهر المعارض لدين الدولة، وقد نجحوا، من أجل هذا، في تجنب الكراهية التي كان الصينيون ينظرون بها إلى أصحاب الديانات الأجنبية، كاليهودية والمسيحية. بل كان المسلمون يصورون ديانتهم لمواطنيهم من الصينيين على أنها متفقة مع تعاليم كنفشيوس، مع فارق واحد، هو أن المسلمين يسيرون وفق تعاليم أجدادهم في الزواج، والجنازات، وغسل الأيدي قبل وجبات الطعام، وتحريم الخنزير

---

(١) Mission d'Ollone, p. 279. R. du M. M., tome ix. Pp. 577, 578.

(٢) . Broomhall. P. 226 Grodier, tome iv. P. 508.

(٣) Vasil'ev, p. 15.

(٤) Broomhall, p. 237.

(٥) Broomhall, pp. 186-228.

(٦) Arminius Vambéry: Travels in Central Asia, p. 404. (London, 1864)

والخمر والدخان ولعب الميسر[١]. وكذلك كانت مؤلفات المسلمين الصينيين تمجد كتب كنفشيوس وغيرها من الكتب الصينية، وتشير ما استطاعت؛ إلى ما هنالك من الاتساق بين ما في هذه الكتب الصينية وبين تعاليم الإسلام[٢].

كذلك كانت الحكومة الصينية، تعطي المسلمين من رعاياها دائماً (عدا أوقات الثورة) نفس الحقوق والامتيازات التي كان ينعم بها سائر أفراد الشعب فلا تغلق في وجوههم وظيفة من وظائف الدولة؛ بل يتمتعون، بالوظائف حكاماً للولايات، وقواداً للجيش، وقضاة ووزراء للدولة، بالثقة والاحترام من الحكام والشعب جميعاً. وقد ظهرت أسماء المسلمين في التاريخ الصيني، كموظفين مشهورين في الدولة من الناحية الحربية أو المدنية، بل اشتهروا أيضاً في الفنون الصناعية، والعلوم كالرياضة والفلك[٣].

ويقال كذلك إن المسلمين الصينيين رجال أعمال أذكياء، وتجار ناجحون؛ فهم يحتكرون تجارة لحوم البقر ويزاولون تجارات أخرى بنجاح عظيم[٤]. وهكذا نجدهم على صلة بكل ناحية من نواحي الحياة القومية، ونجد لديهم كل فرصة للقيام بالدعاية، ولكن البعثات المسيحية القليلة، التي اهتمت بهذا الموضوع، ترى أن هؤلاء المسلمين لا تدفعهم حماسة خاصة في نشر تعاليم الإسلام[٥]. وإن ما هو ثابت من أن عدداً كبيراً من المسلمين الصينيين، يستطيع الواحد منهم أن يعين اسم أول من أسلم من أجداده لدليل على استمرار عملية التحول إلى الإسلام[٦]. ومن الواضح أن المسلمين لم يكن مباحاً لهم أن يدعوا إلى دينهم في الطرقات، كما يفعل البروتسنانت[٧]، ولكنهم (كما رأينا من قبل)[٨] لا يخفقون في اغتنام الفرصة إذا ما سنحت لهم، كي يزيدوا من عدد طائفتهم. ومن كتب المسلمين الدينية كتاب "الهداية إلى قواعد الدين الصحيح"، (نشر في كنتن سنة ١٦٦٨)، وهو كتاب يثني على نشاط الدعوة إلى الإسلام، ويشير إلى هؤلاء الذين دخلوا في هذا الدين حديثاً من بين الوثنيين[٩]. ويتعلم المحدثون في الإسلام قواعد هذا الدين الأساسية في كتب منظومة[١٠]. ويعزو سيد سليمان، إسلام كثيرين في السنين الأخيرة، إلى تأثير كتب المسلمين الصينيين[١١]. ويقال إن المعهد الإسلامي في هوتشو

---

(١) Vasil'ev, p. 16.

(٢) De Thiersant tome ii. pp. 367-372.

(٣) ثمرات الفنون من ٢٨ شعبان ص٢. De Thiersant tome i. p. 247

(٤) Broomhall. P. 224.

(٥) Duhalde, loo cit. Broomhall, p. 282

(٦) Mission d' Ollone pp.210-431.

(٧) Broomhall, p. 274, 282.

(٨) P. 307.

(٩) Broomhall, p.231-2.

(١٠) W.J. Smith, p. 175. Mission d'Ollone, p. 407 sqq.

(١١) ثمرات الفنون نفس الإشارة المذكورة سابقًا

Hochow بولاية كنسو **Kansu** يعلم طلبة العلوم الدينية النظرية، ثم يعودون إلى ولايتهم، إذا ما أتموا دراستهم لينشروا هناك دينهم[١] كما يقال إنهم بدءوا عملهم هذا في أكثر من حواضر عشر ولايات، أعدوا من فيها من المليات للترويج للإسلام[٢]. ويحول الضباط الحربيون إلى الإسلام كثيراً من الجنود الذين يعملون تحت رياستهم، وكذلك يستغل أصحاب المناصب من المسلمين سلطتهم التي يتمتعون بها في الظفر بمسلمين جدد، ولكن لما كانوا كثيري التنقل من مكان إلى مكان آخر لم يستطيعوا أن يحدثوا مثل هذا التأثير العظيم الذي أحدثه الضباط المسلمون[٣]. وقد تحدث كذلك حالات من التحول إلى الإسلام لم تكن نتيجة للدعوة الصريحة إليه. من ذلك أن رحالة تركياً زار بكين في سنة ١٨٩٥، فذكر أنه رأى هناك ثلاثين مسجداً. كان أحدهما، في الأصل، معبداً لأسرة أحد الصينيين الأثرياء؛ وقد أنقذ المفتي وأُهناد (عبد الرحمن) حياة هذا الثري، في أثناء ثورة الملاكمين **Boxers**؛ فدخل الثري في دين مخلصه اعترافاً له بالجميل[٤]. وكانت في الأعوام الأخيرة، بعوث من الترك وغيرهم من المسلمين تزور الصين، وقد حاولت أن تبث في المسلمين الصينيين معرفة بدينهم تكون أوفى وأشمل؛ كما حاولت أن تثير فيهم حماستهم، ولكن يبدو أن جهود هذه البعوث لم تثمر إلا قليلاً[٥].

وفى سنة ١٨٦٧، عبر كاتب روسي[٦]. في كتاب هام كتبه عن الإسلام في الصين، عن الفكرة التي تقول بأن الإسلام مهيأ لأن يصبح الدين القومي للإمبراطورية الصينية، ولأن يقلب تبعاً لذلك، الأوضاع السياسية في العالم الشرقي رأساً على عقب.

وقد مر ما يقرب من نصف قرن على سماع هذه النبوءة المزعجة؛ ولكن شيئاً من ذلك لم يحقق هذه التكهنات؛ بل على العكس من ذلك يبدو أن الإسلام كان في خلال القرن الماضي آخذاً في التأخر أكثر من أن يكون آخذاً في التقدم، منذ أن أدت المذابح الكثيرة التي صحبت قمع الثورات الوثنية التي ظهرت في يونان من سنة ١٨٥٥ إلى سنه ١٨٧٣، وثورة تونجان التي ظهرت في ولاية كنسو وشنشى من سنه ١٨٦٤ إلى سنة ١٨٧٧ ومن سنة ١٨٩٥ إلى سنة ١٨٩٦ إلى نقص عدد الأهالي من المسلمين ملايين من الأنفس[٧]. وقد أعطى قيام الجمهورية الجديدة المسلمين الصينيين حرية في العمل (الدعوة)، لم تكن معروفة في ظل أية حكومة سابقة، ولكنه لا يزال من سبق الحوادث أن تعرف إلى أي حد يمكنهم أن يغتنموا الفرص التي تتيحها لهم أوضاع الحياة الجديدة. وإن نشر تعاليم الإسلام في الصين الذي مازال يسير هناك بقدر ما تسمح به الظروف، ليدل على أمل في التوسع لا يزال وطيداً.

---

(١) Broomhall, p. 240.

(٢) The Missionary Review of the World, vol xxv. P. 786 (1912).

(٣) Mission d'Ollone p. 431.

(٤) R. du M. M., iii p. 124 (1907).

(٥) Broomhall , pp. 242, 286, 292 sqq.

(٦) Vasil'av, pp. 3, 5, 14, 17.

(٧) وللوقوف على ثبت أكبر إسهاباً للثورات انظر: Mission d'Ollone, p, 436.

مع أنه قد انقضت أربعة قرون على الوقت الذي استطاع فيه مسلم رحالة[1] في الصين أن يناقش احتمال دخول الإمبراطور في الإسلام ودخول رعيته من بعده، فإنه لا يزال من الممكن أن يقرر المسلم الصيني في هذا الجيل أن أبناء دينه في هذه البلاد يتطلعون في ثقة إلى ذلك اليوم، الذي ينتصر فيه الإسلام في طول الإمبراطورية الصينية وعرضها[2].

(١) سيد علي أكبر، ختاي ناما ص ٨٣ "إذا اعتقد إمبراطور الصين الإسلام، فلا مفر من أن تعتقد رعيته الإسلام كذلك، لأنهم جميعاً يقدسونه إلى حد أنهم يصدقونه في كل ما يقول. فإذا ما قوي هذا الضوء المنبعث من الغرب فإن كفار الشرق سوف يدخلون في الإسلام زرافات ووحدانا، دون أن يبدوا معارضة لأنهم مجردون من كل تعصب في المسائل الدينية".

(٢) ثمرات الفنون ٢٦ من شوال ص ٣ (١٣١١).

الباب الحادي عشر
انتشار الإسلام في إفريقية

العرب في شمال إفريقية: إن تاريخ الإسلام في إفريقية الذي يستغرق فترة تقرب من الثلاثة عشر قرنًا، والذي ينتظم ثلثي هذه القارة الواسعة، بما فيها من مختلف القبائل وشتى الأجناس، ليضع مشاكل بعينها في طريق بحث الموضوع بحثًا منظمًا، إذ يستحيل علينا أن نصور انتشار الإسلام في كافة أرجاء القارة تصويرًا دقيقاً يقوم على نظام تاريخي. وقد عالجنا في فصل سابق الصلة بين انتشار الإسلام وبين الكنائس المسيحية في مصر وبقية إفريقية الشمالية، ثم بينه وبين كنائس بلاد النوبة وبلاد الحبشة، أما في هذا الباب فنريد بعد أن نتتبع تقدمه بين الوثنين في إفريقية الشمالية أولاً، ثم في السودان وعلى طول الساحل الغربي ثانيًا، وأخيرًا على طول الساحل الشرقي ومستعمرة الكاب[1].

إسلام البربر: وإن ما لدينا من أخبار انتشار الإسلام في الشعوب الوثنية في شمال إفريقية، لا يكاد يزيد إلا زيادة طفيفة على تلك الحقائق القليلة التي ذكرناها من قبل عن زوال الكنيسة المسيحية. لقد قاوم البربر الجيوش العربية مقاومة عنيفة، ويظهر أن استعمال القوة في تحويلهم إلى الإسلام كان له أثر أكبر مما استخدم في سبيل هذا التحويل من وسائل الإقناع والترغيب. فكانوا كلما سنحت لهم الفرصة، ثاروا على الدين كما ثاروا على حكم الغزاة الذين فتحوا بلادهم، حتى ليقرر المؤرخون العرب أن مرات ارتداهم عن الدين بلغت اثنتي عشرة مرة[2]. وفي تاريخ الكفاح الطويل بين العرب والبربر، إشارات قليلة بسيطة عن دخول الأخيرين في الإسلام. ويظهر أن إسلام البربر في بعض الأحيان إنما كان يدفع إليه علمهم بأنه لا فائدة من التمادي في مقاومة الجيوش العربية. فحين وقف البربر في وجه الغزاة سنه ٧٣٠ آخر وقفة لهم، تنبأت الكاهنة[3]، وكانت نبيتهم وزعيمتهم المقدامة، أن النصر سيتحول عنهم. وأرسلت أبناءها إلى معسكر القائد العربي، وأوصتهم بأن يسلموا ويقفوا في صف الأعداء. أما هي فقد اختارت لنفسها أن تموت وهي تحارب في جانب مواطنيها في المعركة الكبرى التي حطمت قوة البربر السياسية، وأخضعت إفريقية الشمالية للعرب. وعقد الصلح بين الفريقين على شريطة أن يقدم البربر اثني عشر ألف محارب إلى صفوف الجيش العربي، وتكون من هؤلاء البربر جيشان، وضع كل منهما تحت إمرة واحد من أبناء الكاهنة[4]. وبتلك الحيلة، نعني إدخال البربر في جيوش العرب، أمل قواد المسلمين أن يدخلوهم في الإسلام، وبذلك بأن يطمعوهم في الغنائم.

---

(١) وهناك خريطة نفيسة تبين توسع الإسلام في إفريقية، في مجلة:
"The International Review of Missions" vol. i. P. 552.

(٢) Fournel, vol. i. P. 271.

(٣) واسمها غير معروف.

(٤) Fouruel, vol. i. P. 224.

وكان الجيش المؤلف من سبعة آلاف من البربر، والذي أبحر من إفريقية سنة ٧١١م ليفتح أسبانيا بقيادة طارق وكان هو نفسه بربرياً، يتألف من أشخاص كانوا قد دخلوا في الإسلام حديثاً. وقيل إن دخلوهم في الإسلام كان عن يقين ثابت. وقد اختير العلماء والفقهاء من العرب ليقرءوا ويفسروا لهم آيات القرآن الكريم. ويعلموهم كل ما فرضه الدين الجديد من واجبات[١]. وأظهر موسى، فاتح إفريقية العظيم، حماسة نحو إعلاء شأن الإسلام، بأن خصص جزءاً كبيراً من المال الذي كان يعطيه إياه الخليفة عبد الملك: ليشترى أمثال هؤلاء الأسرى إذا ما تعهدوا بأن يظهروا أنهم جديرون بأن يكونوا أبناء أوفياء للإسلام. "فكان كلما وجد عدداً من الرقيق، معروضاً للبيع، عقب أي انتصار: اشترى كل الذين يظن أنهم سيعتقدون الإسلام راغبين: والذين كانوا من أصل كريم، والذين يظهرون، إلى جانب ذلك؛ بمظهر الشباب العامل النشيط. وكان أول الأمر يعرض على هؤلاء أن يعتقدوا الإسلام، فإذا ما تحولوا إلى خير الأديان، بعد صقل مداركهم وتهيئتهم لاستقبال الحقائق السامية، وكان تحولهم إليه صادقاً، استخدمهم على سبيل تجربة كفاياتهم، فإذا أثبتوا استعداداً ومواهب طيبة أعتقهم في الحال، وعينهم في مراكز هامة في جيشه، ورقاهم حسب كفاياتهم؛ وإذا كان العكس، ولم يظهروا صلاحية في أعمالهم، أعادهم إلى مستودع الأسرى التابع للجيش، ليتخلص منهم حسب العادة المتبعة عندهم، وهي أن ينتزعوا بالسهام ما فيهم من فساد[٢].

أما معرفة إلى أي حد كان إسلام البربر سطحياً، فيمكن أن نحكم على ذلك مما حدث حين عين عمر بن عبد العزيز الورع في سنة ١٠٠هجرياً (٧١٨م) إسماعيل بن عبد الله والياً على شمال إفريقية، وأرسل معه عشرة من الفقهاء ليفقهوا مسلمي البربر في أمور دينهم، فلم يكن يظهر حتى ذلك الوقت أنهم كانوا يعلمون أن دينهم الجديد يحرم عليهم شرب الخمر. ويقال إن الوالي الجديد أظهر نشاطاً عظيماً في دعوة البربر إلى قبول الإسلام، ولكن الحكم بأن جهوده كللت بالنجاح، بحيث لم يبق واحد في البربر لم يدخل الإسلام، حكم لا شك غير صحيح[٣]. وذلك لأن تحويل البربر إلى الإسلام كان من غير شك عمل قرون عديدة؛ بل إنهم يحتفظون حتى الوقت الحاضر بكثير من نظمهم الفطرية التي تتعارض مع الشريعة الإسلامية[٤]. ولم ترسخ قدم الإسلام بينهم إلا بعد أن اتخذ شكل حركة قومية، وأصبح مرتبطاً بتولي دول البربر الحكم، تلك الدول التي دخل في عهدها كثير من البربر في حظيرة الإسلام، وكانوا من قبل يعدون قبول هذا الدين رمزاً على ضياع الاستقلال السياسي. أما عن التغيرات المختلفة التي طرأت على حالة البربر السياسية، فليس هنا مجال الحديث

---

(١) المقرى ص ٢٥٣.

(٢) المقرى جـ١ (p. ixv.).

(٣) Furnel, vol, I, p. 270.

(٤) والوقوف على ذلك وعلى حركات الهرطقة التي كشفت عن بقايا الدين البربري القديم، انظر:
Goldxihetr، Meterrialen zur Keuntniss der Almhadenbewegung in Nordafrika (ZDMG، vol. xii، p. 37 sqq)

عنها، ولكن الذي يستحق أن نخصه بالذكر في تاريخ الدعوة إلى الإسلام، هو ظهور المرابطين، باعتباره حركة قومية عظيمة جذبت عددا كبيرًا من قبائل البربر نحو الاندماج في الأمة الإسلامية. وفي مستهل القرن الحادي عشر الميلادي نجد يحيى بن إبراهيم شيخ قبيلة صنهاجة، إحدى قبائل الصحراء، يبحث في المراكز الدينية في إفريقية الشمالية، في أثناء عودته من حج بيت الله بمكة، عن معلم تقي متفقه، يصحبه إلى أبناء قبيلته الجهلة المظلمين داعياً إلى الإسلام؛ فوجد في أول الأمر أن من العسير أن يعثر على رجل يرضى بترك اعتكافه العلمي ويستهين بمخاطر الصحراء، ولكنه أخيراً وجد في عبد الله بن ياسين الشخص الذي يليق لهذا العمل، إذ كان فيه من الإقدام ما يكفي للقيام بمثل هذه الرسالة الشاقة، وكان تقياً زاهداً في حياته، متفقهاً في الدين والشريعة وغيرها من العلوم. وإذا رجعنا إلى القرن التاسع الميلادي وجدنا أن دعاة الإسلام شقوا طريقهم بين بربر الصحراء، وأقروا فيهم دين النبي؛ ولكن هذا الدين لم يجد هناك من القبول إلا قليلاً. وقد وجد عبد الله بن ياسين أنه حتى الذين أقروا بالإسلام كانوا يهملون شعائرهم الدينية إهمالاً شديداً؛ ويستسلمون لكل ألوان العادات المرذولة. فكرس نفسه، متحمساً، لهدايتهم إلى الصراط المستقيم؛ وتفقيههم في أمور دينهم؛ ولكن العنف الذي زجرهم به عن رذائلهم، وحاول بواسطته أن يصلح سلوكهم، حول عواطفهم عنه، فدفعه في الغالب إخفاقه في رسالته إلى أن يهجر هذا الشعب العنيد ويقصر جهوده على هداية السودان إلى الإسلام. ولما استُحث على ألا يترك عملاً كان قد زاوله من قبل، لجأ مع من جمعتهم حوله دعوته من تلاميذ، إلى جزيرة في نهر السنغال، حيث بنوا بها رباطاً أسلموا أنفسهم فيه لعبادة متصلة. أما هؤلاء البربر الذين كانوا أكثر استعداداً للتدين، والذين حملهم على التوبة تفكيرهم في الرزيلة التي أخرجت معلمهم المتدين من بينهم، فجاءوا خاضعين إلى جزيرته يلتمسون منه العفو، ويتلقون تعاليمه في حقائق الدين المخلصة. وعلى هذا النحو تجمعت حوله هناك يومًا بعد يوم جماعة من تلاميذه أخذت في النماء، وكانت على الأخص من لمتونه وهي فخذ من قبيلة صنهاجة، أخذت أخيراً في الزيادة حتى بلغت حوالي ألف شخص. بعد ذلك رأى عبد الله بن ياسين أن الوقت قد حان للخروج إلى محيط أوسع للعمل، فطلب إلى أتباعه أن يعبروا عن شكرهم لله على هذا التنزيل الذي أنعم به عليهم وذلك بأن ينقلوا العلم به إلى غيرهم من الناس: "أخرجوا على بركة الله تعالى وأنذروا قومكم. وخوفوهم عقاب الله، وأبلغهم حجته. فإن تابوا وأنابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا عما هم عليه فخلوا سبيلهم؛ وإن أبوا ذلك وتمادوا في غيهم ولّجوا في طغيانهم استغثنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا". ومن ثم ذهب كل رجل إلى قبيلته وعشيرته فوعظهم أن يتوبوا ويصدقوا، ولكنهم لم ينجحوا في هذه السبيل: كذلك أخفقت جهود عبد الله بن ياسين نفسه، الذي ترك رابطته لعله يجد رؤساء البربر في ذلك الوقت أقوى رغبة في الإصغاء لدعوته. وأخيراً، قاد أتباعه في سنه١٠٤٢م، الذين سماهم بالمرابطين – وهو اسم مأخوذ من نفس المادة وهي الرباط[1] أي الخلوة التي اتخذها في جزيرته بنهر السنغال – وهاجم القبائل المجاورة وأرغمهم

(١) وللوقوف على هذه الكلمة انظر:
Doutté. Notes sur L´Islam maghribin (Revue de I´histoire des religions, tome. Xii. P. 24-6).

على قبول الإسلام. وقد بدا لقبائل الصحراء، أن النجاح الذي حالف ابن ياسين في غاراته الحربية، كان حجة أقوى على إقناعهم من جميع تعاليمه، وسرعان ما تقدموا طواعية إلى اعتقاد دين كفل لجيوش أتباعه مثل هذه الانتصارات الباهرة. ومات عبد الله بن ياسين في سنه ١٠٥٩، ولكن الحركة التي كان قد بدأها لم تمت بموته، بل جاءت قبائل كثيرة من البربر الوثنيين لتزيد في جموع أبناء وطنهم المسلمين، واعتقدوا الإسلام على أنه القضية التي كافحوا من أجلها، وتدفقوا من الصحراء على إفريقية الشمالية، ثم فرضوا سيادتهم آخر الأمر على أسبانيا كذلك[١].

ولا يبعد أن تكون الحركة القومية الكبرى التي نشأت بين قبائل البربر. وأعني بها ظهور الموحدين في بداية القرن الثاني عشر الميلادي، قد جذبت إلى المسلمين بعض القبائل التي كانت بعيدة عن الإسلام حتى ذلك الحين. وقد قرب ابن تومرت، مؤسس دولة الموحدين، إن العامة عقائد هذه الطائفة في التوحيد، وهي التي تمسكوا بها، وكان ذلك عن طريق ما ألفه من كتب باللغة البربرية شرح فيها قواعد الإسلام الأساسية، من وجهة نظره الخاصة، كما أباح للقومية البربرية امتيازًا أبعد من هذا، إذ أمر أن يكون آذان الصلاة باللغة البربرية[٢]. ومع هذا، ظل بعض قبائل البربر على الوثنية حتى نهاية القرن الخامس عشر[٣] الميلادي، إلا أن الاتجاه العام كان بطبيعة الحال سائرًا نحو اندماج هذه الجماعات الصغرى في الجماعات الإسلامية الكبرى. وقد شهد القرن السادس عشر الميلادي نشأة حركة نشيطة، في نشر تعاليم الدعوة في بلاد المغرب، كانت ترجع إلى رد الفعل الذي أحدثته انتصارات المسيحيين في أسبانيا وإفريقية الشمالية. وقد أمدت هذه الحركة نظام المرابطين بدافع قوي، وخرجت جموع كبيرة منهم من الربط في جنوب مراكش ليقوموا بحملة إرشاد سلمية في كافة أنحاء بلاد المغرب، مجددين عقيدة هؤلاء المسلمين الذين فتر إيمانهم، ومحولين إلى الإسلام جيرانهم من الوثنيين[٤]. وقام اللاجئون من أسبانيا بنصيبهم في حركة نشر تعاليم الدعوة إلى الإسلام هذه، كما أشرنا إلى ذلك من قبل (ص١١٣) إذ جاءوا لمساعدة الأشراف أو أبناء إدريس بن عبد الله، الذين كانوا قد فروا إلى مراكش هرباً من غضب هارون الرشيد[٥]. ومن الصحراء الكبرى، ذاعت معرفة الناس بالإسلام أول الأمر بين زنوج السودان. ويكتنف الغموض تاريخ هذه الحركة القديم، ولكن يظهر أن هناك شيئاً من الشك في أن البربر هم أول من أدخل الإسلام في البلاد التي يرويها نهر السنغال والنيجر، حيث اتصلوا بممالك وثنية كان

---

(١) ابن أبي زرع ص ١٦٨-١٧٣. A. Müller, vol ii. Pp. 611-13.

(٢) ابن أبي زرع ص ٢٥٠. Goldziher, p. 71.

(٣) Le Oaficanus, (Ramusio, tom. i. p. 11.).

(٤) Doutté, xi, p. 354; xii pp. 26-7.

(٥) Depont et Coppolani, p. 127, sqq.

بعضها (مثل غانة **Ghana** وصنغاي **Songhay**) عريقًا في القدم[١]. وكانت لمتونة وجدالة القبيلتان البربريتان اللتان تنتميان إلى عشيرة صنهاجة تتميزان بصفة خاصة بحماستها الدينية في تحويل الناس إلى الإسلام[٢]، وبجهودهم أثرت حركة المرابطين في قبائل السودان الوثنية. وكان عهد يوسف بن تشفين مؤسس مراكش (١٠٦٢م) وثاني أمراء دولة المرابطين، حافلاً جداً بدخول الناس في الإسلام. وأخذ كثيرون من الزنوج الذين كانوا تحت حكمه يتعلمون مبادئ محمد[٣]. وفي سنة ١٠٧٦م طرد البربر الذين ظلوا وقتاً ما ينشرون الإسلام في مملكة غانة، الأسرة الحاكمة التي يحتمل أنها كانت أسرة فلبي **Fulbe**، وأسلمت هذه المملكة القديمة عن بكرة أبيها؛ وفي القرن الثالث عشر الميلادي فقدت استقلالها واحتلها المندنجو **Mandingos**[٤].

أما عن دخول الإسلام في مملكة صنغاي **Songhy** القديمة التي يقال إنها وجدت في عهد مبكر يرجع إلى سنة ٧٠٠م، فلم يذكر لنا التاريخ إلا أن أول ملك مسلم كان يسمى زاكسى **Za-kassi**، وكان الملك الخامس عشر من أسرة زا؛ وقد أسلم في سنة ٤٠٠هـ (١٠٠٩-١٠١٠م) واصطلح على تسميته في لغة سنغاي باسم مسلم دام **Muslim-Dam** ويدل هذا الاسم على أنه دان بالإسلام بمحض إرادته لا عن طريق الإرغام، ولكن لم يرد أي ذكر عن المؤثرات التي دان لها بإسلامه[٥].

في السودان الغربي: وفي هذا القرن نفسه تأسست على النيجر الأعلى مدينتان قدر لهما في القرون المتعاقبة أن تؤثر تأثيراً قوياً في تقدم الإسلام في السودان الغربي –إحداهما مدينة جني **Genne**[٦] التي تأسست سنة ٤٣٥ هـ، (١٠٤٣-١٠٤٤م)[٧] والتي قدر لها أن تصبح مركزاً تجارياً هاماً، والأخرى مدينة تمبكتو **Timbuktu** وهي مركز هام لتجارة القوافل مع الشمال، وقد تأسست هذه المدينة حول سنة ١١٠٠. وقد أسلم كنبرو **Kunburu** ملك جني حول نهاية القرن السادس الهجري (أي حول سنة ١٢٠٠م)، فحذا

---

(١) لا مجال هنا لتناول نشأة التاريخ السياسي للممالك المختلفة من السودان الغربي؛ وقد بحثت هذا الموضوع ليدى لوجارد Lady Lugard، وهو مؤلف على نحو أكثر ملاءمة للقراء الإنجليز وذلك في كتاب عنوانه:

"A Tropical Dependency. An Outline of Ancient History of the Western sudan، with an Account of the Modern Settlement of Northern Nigeria." London، 1905.

وانظر كذلك: H.f. Hetmolt: the World 's History, vol iii. Chap. Ix. London، 1903.

(٢) Blau, p. 322.

(٣) Leo Africanus. Ramusio, tom. i. pp. 7, 77.

(٤) Meyer, p. 91.

(٥) السعدي تاريخ السودان (باريس ١٨٩٨) ص٣.

(٦) ويقال لها جنى أو دينية.

(٧) ويتبع مير Meyer رأى بارت Barth، ويضع تاريخ السودان (ص ١٢) تاريخ هذه المدينة قبل ذلك بحوالي ثلاثة قرون.

حذوه سكان المدينة، ويقال إن كنبرو لما عزم على اعتقاد الإسلام جمع كل العلماء في مملكته، وكان عددهم يبلغ ٤٢٠٠ عالماً (ومهما يكن هذا العدد مبالغاً فيه فإن الرواية تبين لنا فيما يظهر أن الإسلام تقدم تقدماً عظيماً في البلاد التابعة لهذا الملك). ثم طلب إلى هؤلاء العلماء أن يدعوا الله كي ينصر مدينته، ومن بعدها هدم قصره وبني في مكانه[١] مسجداً عظيماً[٢]. وكانت تمبكتو إلى جانب شهرتها بالتجارة، مدينة إسلامية منذ البداية، "ما دنستها عبادة الأوثان، ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن"[٣]. وبعد ذلك بسنين صارت ذات شأن كمركز للتعاليم الإسلامية والتقوى، وتوافد عليها الطلبة وعلماء الدين في جموع كبيرة، مدفوعين بما كانوا يلاقونه فيها من تشجيع ورعاية. وقد أثنى ابن بطوطة الذي تنقل في هذه البلاد في أواسط القرن الرابع عشر على الزنوج لحماستهم في أداء عبادتهم وفي دراسة القرآن، ويخبرنا هذا الرحالة أنه إذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلى لكثرة الزحام[٤].

وفي عصره كانت أقوى ولاية في السودان الغربي هي ولاية ملى **Melle** أو مالي **Malli**، وكان أمرها قد علا قبل ذلك بقرن، بعد فتح غانة على أيدي المندنجو، وهم من أعظم أجناس إفريقية رقيًا: ويذكر عنهم ليو الإفريقي **Leo Africanus**[٥] أنهم أكثر جميع الزنوج مدنية وأشدهم ذكاء وأجدرهم بالاحترام، ويمتدح الرحالون المحدثون صناعتهم ومهارتهم وأمانتهم[٦]. وكان هؤلاء المندنجو من أنشط الدعاة إلى الإسلام الذي انتشر بواسطتهم بين الجماعات المجاورة لهم[٧].

وكما جاء في تاريخ كانو **Kano Chreonicle** كانت قبائل المندنجو هي التي عرفت قبائل الحوصة **Hausa** بالإسلام، وليس تاريخ ذلك محققاً[٨]، كما هو الشأن في معظم التواريخ المتصلة بتاريخ

---

(١) ويورد فليكس ديبوا Flėix Dubois فكرة عن هذا المسجد وعن إعادة بنائه، وكان قد خربته جماعة شيخو أحمد حول سنة ١٨٣٠، وذلك في بحثه: Tombouctou la mystérieuse. Chap. Ix.

(٢) السعدي تاريخ السودان ١٢-١٣.

(٣) نفس المرجع ص ٢١.

(٤) ابن بطوطة جـ ٤ ص ٤٢١ – ٤٢٢.

(٥) Ramusio, tome. i.p.78.

(٦) ويصفهم ونوود ريد Winwood Reade بأنهم شعب طويل القامة، حسن المنظر مشرق اللون، مسلمون متدينون، يملكون الجياد وقطعان الغنم الكثيرة، ولكنهم أيضاً يزرعون القطن، والفول السوداني، وأنواعاً مختلفة من الغلال. وقد سررت كثيراً بلطفهم وسجاياهم الكريمة، ومظهر نسائهم الجاد المحتشم، ونظافة قراهم وهدوئها. W. Winwood Reade: African Sketchook, vol. i. 303.

(٧) Waitz, Iler Theil, pp. 18-12.

(٨) ويضع بالمر (ص٥٩) دخول الإسلام إلى كنو بين سنتي ١٣٤٩، ١٣٨٥، وتضع رواية أخرى من تواريخ الحوصة بداية عهد أول ملوك زوزو من المسلمين حول سنة ١٤٥٦.
Journal of the African Society, vol. ix. P.161.

ولايات قبائل الحوصة؛ وذلك لأن قبائل الفلاني **Fulne**، التي فتحت هذه الولايات في بداية القرن التاسع عشر الميلادي، أتلفت معظم سجلاتها التاريخية. ولكن أهمية اعتناق الحوصة للإسلام لا يمكن أن نبالغ فيها؛ فهم أصحاب نشاط وذكاء، وقد أكسبتهم مهارتهم الفائقة في التجارة نفوذًا كبيرًا بين شتى القبائل التي اتصلت بهم، فأصبحت لغتهم هي لغة التجارة في السودان الغربي. وحيثما ذهب تجار الحوصة – وهم منتشرون من ساحل غينيا **Guinea** حتى القاهرة – نقلوا معهم الدين الإسلامي. وسنتحدث في الصفحات التالية عن نشاطهم في الدعوة للإسلام. أما فيما يتعلق باعتناق الحوصة أنفسهم هذا الدين فإن الشواهد التاريخية تكاد تكون منعدمة تمام الانعدام(١)، كما هو الحال فيما يتعلق بظهور ولايات الحوصة السبع، وملحقاتها(٢)؛ ويظهر أحد دعاة الإسلام الذين بعثوا إلى كانوا **Kano** وكتزنا **Katsena** كان بلا شك أستاذاً مثقفاً ورعاً وكان من تلمسان، ذلك هو محمد بن عبد الكريم بن محمد المجيلي، الذي نبغ حول سنة ١٥٠٠م(٣). ومن الممكن أن تكون الحوصة قد تأثرت في إسلامها بهذه الموجة الكبيرة من السيطرة الإسلامية التي سرت من مصر صوب الجنوب في القرن الثاني عشر الميلادي(٤). ويفخر تجار كردفان وتجار السودان الشرقي على وجه العموم، بأنهم ينحدرون من العرب الذين شقوا طريقهم إلى هذه البلاد بعد سقوط الخلافة الفاطمية سنة ١١٧١. ولكن من المحتمل أنه كان هناك أيضاً ألوان من النفوذ الإسلامي، وقد أتى هذا النفوذ من الشمال الشرقي وتطرق إلى إفريقية الوسطى. ومن مصر، انتشر حتى دخل كانم **Kanem**، وهي مملكة واقعة إلى الشمال والشمال الشرقي لبحيرة تشاد؛ وبعد أن اعتقد أهلها الإسلام بقليل أصبحت دولة ذات أهمية كبرى وبسطت سلطانها على قبائل السودان الشرقي إلى حدود مصر وبلاد النوبة. ويقال أن أول ملوك كانم من المسلمين حكم إما حول نهاية القرن الحادي عشر أو في النصف الأول من القرن الثاني عشر(٥) الميلادي. ولكن التفصيلات التي لدينا عن انتشار الإسلام من الشمال الشرقي أندر حتى في تلك التفصيلات التي ذكرناها من قبل عن تاريخ دويلات السودان الغربي، وإن مجرد ذكر تواريخ تحول ملوك هذه الدويلات إلى الإسلام وتأسيس دولة إسلامية، لا يمدنا إلا بأخبار قليلة؛ ولكن حقيقة واحدة تبرز لنا واضحة من هذا السجل التاريخي الهزيل، تلك هي البطء الشديد في تحول الناس هناك إلى الإسلام. وإن بقاء جموع كبيرة من عبدة الأوثان يعيشون في الأقاليم التي مرت عليها

---

(١) وكما في سائر جهات العالم الإسلامي، تضع الرواية أول دخول الإسلام في عهد المؤسس؛ ونذكر اسم الفزاري، أحد صحابة النبي المشهورين، باعتباره رسولاً إلى شعوب الخوصة.

J. Lippert, Sudanca. MSOS, iii. dart 3 ،p.204 Berlin ,1900.

(٢) وللوقوف علي أنواع هذه الولايات المختلفة انظر .Meyer, p.27

(٣) Mischlich & Lippert.pp.138-9.

(٤) Meyer Ioc.cit ويضع أرتين باشا (ص٦٢) بداية تدفق العرب المسلمين في عهد مبكر يرجع إلي القرن الثامن.

(٥) Becker, Geschichte des östlichen Sudan p. 162-3. Blau, p. 322. Oppel, p. 289.

وفي نهاية القرن الرابع عشر، نقل عمر بن إدريس قاعدة بلاده إلي غرب بحيرة تشاد في منطقة برنو، وهي التي أصبح اسم مملكة كانم معروفاً بها منذ ذلك الحين.

قرون وهي تحت الحكم الإسلامي، ليدلنا فيما يظهر على أن نفوذ الإسلام ظل محصوراً في المدن طويلاً، و لم يتخذ طريقه إلى الجماعات الوثنية إلا تدريجًا. والواقع أن النفوذ الإسلامي لم يصادف مقاومة عنيدة كتلك التي جعلت جماعة البمبارا **Bambara** الوثنية يحتفظون بوثنيتهم، مع أنهم (وقد سكنوا السنغال الأعلى والنيجر الأعلى) كانوا محاطين مدة قرون بسكان من المسلمين.

وقد حاول مرابط يدعى عُمَرو كبا **Umaru Kaba**، أن يحول البمبارا إلى الإسلام فأخفق، وكان ذلك في أوائل القرن العشرين. وقد أسس هذا الرجل جمعية إخوان دينية جديدة، كانت على صلة بالقادرية، فلما أخفق في جذب أبناء دينه وجه اهتمامه إلى البمبارا الوثنيين، وحاول أن يدخلهم في الإسلام ويضمهم إلى جماعته. ويظهر أنه كان في طريقه إلى النجاح، وكان قد حول إلى الإسلام من قبل قرية وثنية في ولاية سنسندنج **Sansanding**، حين طرد رئيس الولاية هذا الداعي خارج حدود ولايته، وأمر من دخلوا حديثًا في الإسلام من البمبارا أن يرجعوا إلى عقائدهم الدينية القديمة[1].

حيثما كان التزاوج بين أمثال هذه الأجناس وبين غيره كالعرب والبربر الذين أكثروا من هذا التزاوج، كان الاندماج في المسلمين يسير سيراً منتظمًا، يضاف إلى ذلك ما كان هناك من نشاط في الدعوة قامت به تلك القبائل وهي الفلاني والحوصا والماندنجو- التي امتازت بحماستها في سبيل دينها مما ساعد على نمو المجتمع الإسلامي ولو لم تكن تلك الحروب الطاحنة التي جعلت كل دويلة إسلامية تقضي على الأخرى. فنهضت قبيلة مالي **Malle** على أنقاض غانة في القرن الثالث عشر الميلادي وحطمت صنغاي غانة في أوائل القرن السادس عشر الميلادي، وخُربت صنغاي بدورها بعد ذلك بقرن على أيدي العرب. لما دالت هذه الدول الإسلامية من جراء المذابح الكثيرة التي تميزت بها الحرب في السودان. استردت الوثنية كثيراً من مكانتها التي كانت قد فقدتها؛ وكما كان الحال في المسيحية، كان ذلك في العالم الإسلامي، إذ كانت هناك فترات تدهورت فيها الحماسة في الدعوة، ورضي المسلمون في بعض أجزاء السودان أن يتركوا الوثنية التي كانت تكتنفهم دون أن يمسها أي نشاط في نشر تعاليم الإسلام.

وفي القرن الرابع عشر الميلادي هاجر العرب التنجور من تونس إلى الجنوب؛ واخترقوا البرنو **Bornu** ووداي **Wadai** حتى وصلوا إلى دارفور، وجاء غيرهم من الشرق فيما بعد[2]. وقد لقى أحدهم ويدعى أحمد حفاوة عظيمة من ملك دارفور الوثني الذي تعلق به فجعله مشرفاً على شئون بيته واستشاره في كل المناسبات. وإن خبرته بأساليب الحكم كانت أكثر رقياً من تلك التي كانت في دارفور، مكنته من أن يدخل إصلاحات على كل من شئون بيت الملك الاقتصادية وحكومة الدولة. ويقال إنه أخضع لسياسته الحكيمة الزعماء

(١) Maurice Delafosse p. 87.

(٢) Becker, Geschichte des östlichen Sudan, pp. 161-2.

المتردين، وقسم الأراضي بين فقراء السكان ليضع حداً للإغارات الداخلية، وبذلك أدخل على المملكة شعوراً بالطمأنينة والرضا لم يعرفوه من قبل. ولما لم يكن للملك وريث من الذكور زوج ابنته من أحمد، وعينه خليفة له، وقد أيد هذا الاختيار أن الناس ضجت باستحسانه. واستمرت هذه الدول الإسلامية، التي تأسست على هذا النحو حتى القرن الحاضر، وكانت أسباب الحضارة التي أحدثها هذا الزعيم وذريته قد اقترنت من غير شك ببعض نشاط في نشر تعاليم الدعوة، ولكن يظهر أن هؤلاء العرب المهاجرين لم يبذلوا إلا جهداً يسيراً جداً في سبيل نشر دينهم بين جيرانهم الوثنين. ومن المؤكد أن دارفور لم تدخل في الإسلام إلا بجهود أحد ملوكها ويدعى سليمان؛ وقد بدأ حكمه سنه ١٥٩٦[١]، ولم ترسخ قدم الإسلام في الممالك الأخرى، والواقعة بين كردفان وبحيرة شاد كوداي وباغرمي، إلا في القرن السادس عشر. وكان أول ملوك باغرمي من المسلمين السلطان عبد الله الذي حكم من سنه ١٥٦٨ إلى سنه ١٦٠٨ ولكن مملكة وادي كانت المركز الرئيسي للنفوذ الإسلامي في ذلك الوقت، وقد أسسها عبد الكريم حول سنة ١٦١٢م، ولم تسلم عامه باغرمى إلا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر[٢].

ولكن تاريخ الدعوة الإسلامية في إفريقية إبان القرن السابع عشر والثامن عشر ضئيل جداً، بل لا أهمية له إطلاقا إذا ما قارناه بالنهضة العظيمة في نشاط الدعوة خلال القرن الحاضر. وكان مسلمو إفريقية في حاجة إلى مؤثر قوي يوقظ عزائمهم الخاملة، فقد كانت حالتهم في القرن الثامن عشر، فيما يظهر، حال فتور ديني تقريبًا، وكانت نهضتهم الروحية راجعة إلى تأثير الحركة الوهابية في أواخر القرن الثامن عشر؛ ومن هنا جاء ما تصادفه في الأزمان الحديثة من بعض الأخبار التي تتعلق بحركات نشر تعاليم الدعوة بين الزنوج تلك الأخبار التي لم تبلغ من التفاهة والضآلة ما بلغته الأخبار التي سردناها من قبل، ولكنها تمدنا بتفصيلات شافية عن ظهور عدة أعمال هامه في الدعوة وتقدمها.

ونفديو: وحول نهاية القرن الثامن عشر ظهر من بين جماعة الفلالي[٣]، رجل معروف يدعى الشيخ عثمان دنْفُدْيو[٤]، عرف بأنه مصلح ديني وداع محارب. وقد ذهب من السودان إلى مكة لأداء فريضة الحج، فعاد من هناك مليئاً بالحماسة والغيرة من أجل الإصلاح والدعوة للإسلام. وتأثر بمبادئ الوهابيين، الذين كانت قوتهم آخذة في النماء في الوقت الذي زار فيه مكة، فأنكر الصلاة على روح الميت وتعظيم من مات من

---

(١) R.C. Slatin Pasha: Fire and Sword in the Sudan, pp.38,40-2.London,1896.

(٢) Westerman.p.623.

(٣) القلبي (مفردها بول) اسم أطلقه هذا الشعب علي نفسه؛ ويطلق عليهم جيرانهم أسماء مختلفة تربوا على المائة، أشهرها فلا وفارني .Meyer,p. 28

(٤) Oppel ,. 292 Meyer, pp. 36-7 Westerman, pp.621-30.

الأولياء، واستنكر المبالغة في تمجيد محمد نفسه: وهاجم في نفس الوقت رذيلتين كانتا منتشرتين في السودان، هما شرب الخمر وفساد الخلق.

وحتى ذلك الوقت كانت جماعه الفلاني تتألف من عدة قبائل صغيرة متناثرة تحيا حياة رعوية، وقد دانت هذه الجماعة بالإسلام في وقت مبكر، وكانت لا تزال حتى ذلك الحين قانعة بتأليف مستعمرات من الرعاة والزراع في مختلف بقاع السودان. وإن ما لدينا من أخبارهم في مستهل القرن الثامن عشر، ليصورهم لنا في صورة أناس مسالمين، نشيطين في أعمالهم، ويتحدث عنهم أحد الذين زاروا[1] موطنهم على نهر الجمبيا سنة ١٧٣١، فيقول: "في كل دولة أو بلد على كل جانبي النهر توجد جماعة ذات بشرة سمراء، يدعون الفولز (أي الفلاني)، وهم يشبهون العرب ومعظمهم يتكلم العربية، لأنهم يتعلمونها في مدارسهم، ولأن القرآن، وهو أيضًا شريعتهم، مكتوب بهذه اللغة. وإلمامهم على وجه العموم أكثر بالعربية من إلمام أهل أوربا باللاتينية، إذ إن معظمهم يتكلمها مع أن لهم لغة غير مهذبة تسمى فولى. ويعيشون قبائل أو عشائر، ويبنون لأنفسهم مدنًا، ولا يخضعون لأي ملك من ملوك البلاد التي يقيمون فيها، مع أنهم يعيشون في أراضي هؤلاء الملوك، وذلك لأنهم كانوا إذ أسيء إليهم، في قوم يعيشون بين ظهرانيهم، هدموا مدنهم وارتحلوا إلى قوم آخرين. ولهم رؤساء من أنفسهم يحكمونهم حكمًا معتدلاً إلى حد أن كل عمل تقوم به الحكومة يبدو كأنه عمل الشعب أكثر من أن يكون عمل فرد من الأفراد. وهذا النوع من الحكومات يدار دولابه في سهوله ويسر، لأن الأهالي أصحاب طبيعة هادئة، ولأنهم تعلموا جيدًا ما هو عدل وما هو حق، وحتى إن من يقترف الشر منهم يكون موضعاً لكره الجميع.. وهذه الجماعة على جانب كبير من النشاط والاقتصاد، يزرعون من القمح والقطن أكثر مما يفي بحاجتهم، ويبيعونه بسعر معتدل، ويشتهرون بالكرم إلى حد أن مواطنيهم يعتبرون أن من نعم الله عليهم أن تكون بجانبهم بلد من بلاد فولى، فوق هذا أكسبهم سلوكهم حداً من الشهرة يجعل من العار أن يعمالهم أحد معاملة غير كريمة. ومع أن إنسانيتهم تعم جميع الناس فشفقتهم بأبناء جنسهم مضاعف، وإذا علموا أن أي فرد من جماعتهم قد أخذ رقيقاً اتحد الفلاني جميعاً وحرره. ولوفرة الغذاء عندهم لا يدعون أبدا واحدًا منهم يقاسى الحاجة؛ بل إنهم يعولون المسن والأعمى والأعرج ويساوون بينهم وبين الآخرين. وقلما يغضبون. ولم أسمع مطلقاً واحدًا منهم يسب الآخر، ومع هذا فلم تكن وداعتهم صادرة عن حاجه إلى الشجاعة، إذ إنهم شجعان كأي شعب في إفريقية، وهم مهرة جداً في استعمال أسلحتهم، وكانوا يستخدمون أسلحة تتكون من الزغايات واليطغانات القصيرة، والقوس والنشاب، بل يستخدمون البنادق في بعض الأحيان ... وهم مسلمون متمسكون بدينهم، ومن النادر أن يشرب أحدهم الخمر أو أي مشروب أقوى تأثيرًا من الماء".

---

(١) Francis Moore, pp.75-7.

وقد وحد دنفديو هذه الجماعات المنفصلة، المتناثرة في شتى أقاليم الحوصا، وجعل منهم جماعة قوية. وفي سنه ١٨٠٢ حدثت أول ثورة من مملكة جوبر التي كانت لا تزال الوثنية والتي بسطت نفوذها على أقصى الشمال من بلاد الحوصا، وقد حاول ملك جوبر أن يعوق قوة الفلاني المتزايدة في بلاده فأدى ذلك إلى أن رفع دنفديو علم الثورة، وسرعان ما وجد نفسه على رأس جيش قوى، لم يتعرض به للقبائل الوثنية وحدها ويفرض عليها الإسلام، بل تعرض أيضاً لولايات الحوصا الإسلامية، فسقطت هذه الولايات واحدة بعد أخرى، وأصبحت كل أراضي الحوصا تحت حكم دنفديو قبل وفاته سنه ١٨١٦. ولا يزال قبره في سوكوتو **Sokoto** مثابة تعظمها جموع كثيرة من الزائرين. وقد قسم دنفديو مملكته بين ولديه، اللذين زادا كذلك في توسيع حدود بلاد الفلاني ومدينة أدماوا، التي أسست سنه ١٨٣٧ على أنقاض عدة ممالك وثنية تعتبر حداً لفتوحاتهم نحو الجنوب الشرقي. وكانت مدينه إلورن **Ilorin**، في بلاد اليوروبا **Yoruba**، التي تأسست في عهد دنفديو، هي الحد الجنوبي الغربي لإمبراطورية بول **Pul**. وقد ظلت السيطرة على هذه البلاد طوال القرن التاسع عشر في أيدي الفلاني، على تفاوت في التوفيق والنجاح في الحكم، وظهروا بمظهر القسوة والتعصب في الدعوة إلى الإسلام، حتى قام الحكم البريطاني في نيجيريا سنه ١٩٠٠.

وقد ساعد دخول القانون والنظام في نيجيريا الجنوبية على نشر الدعوة إلى الإسلام، كما كانت الحال في جهات إفريقية الأخرى التي أصبحت تحت الحكم الأوربي. فاستطاع مسلمو الحوصا، الذين ينتسب بعضهم إلى الطريقة التجانية، أن ينتقلوا في البلاد بحرية، وأن ينفذوا إلى القبائل الوثنية التي كانت حتى ذلك الحين تمنع، في تعصب وصلابة، تطرق كل المؤثرات الإسلامية إليها. ويقال إن الإسلام في مملكة اليوروبا بوجه خاص ترسخ قدمه بسرعة. وهناك أسطورة عن محاولة قام بها أحد دعاة الإسلام في هذه البلاد، في وقت مبكر إلى القرن الحادي عشر أو الثاني عشر الميلادي، ولكن هذه المحاولة لم تنجح. كان هذا الرجل من الحوصا جاء إلى مدينة إيف **Ife** حاضرة مملكة اليوروبا الوثنية وجعل يدعو الناس ويتلو عليهم آيات من القرآن، وكان لا يستطيع أن يتكلم لغة البوربا بطلاقة، فلم يكن بد من أن يردد على سامعيه في لهجة أجنبية قوله "هلم نعبد الله الذي خلق الجبال والوهاد وخلق كل شيء وخلقنا". وكان يقول بذلك من وقت لآخر دون أن ينجح في كسب فرد واحد يتحول إلى الإسلام، وقد مات هذا الرجل بعد وصوله إلى المدينة إيف بأشهر قليلة. وبعد موته وجدوا المصحف معلقًا على مشجب في حائط حجرته فصار أهل هذه البلاد يقدسونه على أنه من وثن[1]. وحيث أخفق داعية هذا الدين القديم نجد المحدثين من أبناء دينه ينجحون نجاحًا رائعًا. وفي فترة الفوضى التي سبقت الاحتلال البريطاني كانت غالبية المسلمين تقيم في مدن كبيرة تكتنفها الأسوار، ولكنهم يستطيعون في ظل الطمأنينة والأمن الجديد أن يستقروا في القرى، على مقربة من أعمالهم الزراعية. وعلى هذا النحو أخذ نفوذ الإسلام يزداد اتساعاً في هذه البلاد. وكما كانت الحال في شرق إفريقية الألمانية، ثبت أن

(١) R. E. Dennett: Nigerian Studies ,pp.12, 75.(London, 1910).

وجود مسلمين في جيش هذه البلاد قد ساعد على نشر الإسلام. وغالباً ما كان المجندون من الوثنيين يعتنقون الإسلام كي يتجنبوا سخرية الناس ويظفروا باحترامهم[١]. وكذلك نلحظ في مملكة إيجيبو **Ijebu**، في نيجيريا الجنوبية، حركة حديثة جدا للدعوة إلى الإسلام على أن الإسلام لم يدخل في هذا الجزء من نيجريا إلا في سنة ١٨٩٣، وفي سنة ١٩٠٨ كانت هناك بلدة بها عشرون مسجداً وأخرى بها اثنا عشر مسجداً[٢]. ويمكن أن نلاحظ سرعة انتشار الإسلام هذه على طول ضفتي نهر النيجر في نيجريا الجنوبية بوجه خاص؛ ويقرر أحد مبشري المسيحيين ما يأتي: "عندما غادرت هذه البلاد في سنة ١٨٩٨ كان هناك قليل من المسلمين بأسفل إده **Iddah**[٣]، ولكنهم الآن منتشرون في كل مكان، ما عدا أسفل أبو **Abo**، وعلى هذا النحو من السرعة التي نلحظها في تقدم الإسلام. سيكون من النادر أن نجد قرية وثنية على ضفتي النيجر في سنة ١٩١٠" [٤].

محمد عثمان الميرغني: وهكذا كان في هذا الجزء من إفريقية نشاط كبير في الدعوة إلى الإسلام قام به رجال لم يمتشقوا الحسام في سبيل تحقيق غايتهم، – أعني بذلك تحويل الوثنيين إلى الإسلام. وعلى هذا الأسلوب كان يسير الذين يتبعون بعض المبادئ الدينية الإسلامية الجليلة، تلك المبادئ التي كانت تكون الصفة الغالبة على النشاط الديني في إفريقية الشمالية. وقد حققت جهود دعاة الإسلام نتائج عظيمة خلال القرن التاسع عشر؛ ومع أن كثيراً من أعمالهم لا شك أنها لم تدون قط، لا يزال لدينا أخبار عن بعض الحركات التي بدأها هؤلاء الدعاة. ومن أسبق تلك الحركات حركة يعزى قيامها إلى سي أحمد بن إدريس[٥]، الذي كان يتمتع بشهرة واسعة كمعلم ديني في مكة من سنة ١٧٩٧ إلى سنة ١٩٣٣، وكان الزعيم الروحي لجماعة الخضرية، وقد أرسل قبل موته سنة ١٨٣٥ أحد أتباعه. ويدعى محمد عثمان الأميرغني، في رحلة إلى إفريقية لنشر تعاليم الإسلام. ولما عبر البحر الأحمر إلى القصير، شق طريقه حتى بلغ النيل. وهنا بين جماعات إسلامية انحشرت جهوده بصفة عامة في ضم أعضاء إلى الطائفة التي كان ينتسب إليها؛ ولكنه لم يصادف في رحلته إلى أعالي النهر نجاحاً كبيراً حتى وصل إلى أسوان، ونجحت رحلته من أسوان حتى دنقلة نجاحاً تاماً؛ وقد أسرع النوبيون إلى الدخول في الطائفة التي كان ينتسب إليها محمد عثمان هذا وأثرت في هؤلاء الناس تلك الآبهة الملكية التي تحيط به تأثيراً فعالاً؛ كما جذبت إليه كراماته في نفس الوقت عدداً كبيراً من الأتباع. وفي دنقلة ترك محمد عثمان وادي النيل ليذهب إلى كردفان، حيث مكث زمناً طويلاً، وهنا بدأ عمله في نشر الدعوة بين الكفار. وكانت قبائل كثيرة في هذه البلاد وحول سنار لا تزال على الوثنية؛ وقد نجحت دعوة محمد عثمان

---

(١) Islam and Missions, pp.71-3.The Moslem World pp. 296-7, 351.

(٢) Church Missionary Review (1908, p.640).

(٣) بلدة علي النيجر، جنوبي الحدود الشمالية لنيجريا الجنوبية.

(٤) Church Missionary society Intelligeneer 1902, p. 353.

(٥) Rinn, p. 403- 4.

بين هؤلاء القوم نجاحًا رائعًا جدًا، وعمل على توطيد نفوذه فيهم بأن تزوج ببضع زوجات منهم، فتولى نسله منهن بعد أن مات في سنة ١٨٥٣م، نشاط الطائفة التي أسسها وتسموا أمير غنية[١] نسبة إليه.

وقبل أن يقوم محمد عثمان برحلته، التي دعا فيها إلى الإسلام بسنين قلائل، كانت جنود محمد علي، مؤسس الأسرة التي كانت تحكم مصر حينذاك، قد أخذت توسع من فتوحاتها في السودان الشرقي وشجعت الحكومة المصرية رسل المذاهب الوثنية العديدة في مصر على القيام بدعاية في هذه البلاد التي عرفوها حديثاً، عسى أن تساعد أعمالهم على تهدئة الحال في هذه البلاد، فواصلوا نشر الدعوة في تلك الأراضي التي استولوا عليها حديثًا حيث قاموا بأعمال صادفت نجاحًا كبيرًا، حتى إن ثورة السودان الحديثة بزعامة المهدي قد عزيت إلى الحماسة الدينية التي أثارتها دعوتهم[٢].

القادرية والنجانية: وفي غرب إفريقية كانت هناك طائفتان تعملان بصفة خاصة على نشر الإسلام هما القادرية والنجانية. وقد تأسست الأولى، وهي أوسع الجماعات الدينية الإسلامية انتشارًا، في القرن الثاني عشر على يد عبد القادر الجيلاني، ويقال إنه كان أشهر أولياء المسلمين كافة وأعظمهم هيبة[٣]- ودخلت القادرية في إفريقية الغربية في القرن الخامس عشر على أيدي مهاجرين من توات **Tuat**، وهي واحة في النصف الغربي من الصحراء؛ فاتخذوا من ولاته **Walata** أول مركز لطريقتهم، ولكن أحفادهم طردوا عن هذه المدينة فيما بعد فلجئوا إلى تمبكتو وأقاموا في جهة نائية شرقي ولاته. وفي مستهل القرن التاسع عشر نجد النهضة الروحية الكبيرة التي كانت تؤثر في العالم الإسلامي تأثيرًا عميقًا تدفع بالقادرية الذين كانوا يقيمون في الصحراء الكبرى وفي السودان الغربي إلى حياة ونشاط جديدين، ولم يمض زمن طويل حتى وجدنا فقهاء مثقفين، وجماعات صغيرة من المزيدين قد انتشروا في أرجاء السودان الغربي من السنغال إلى مصب النيجر. وتقوم المراكز الرئيسية لتنظيم دعوتهم في كنكا وتمبو **Timbo** بجبال (فوتا جالون) ومسردو **Musrdo** (الواقعة في بلاد المانديجو **Mandingo**)[٤]. وكانت هذه المدن تؤلف مراكز النفوذ الإسلامي وسط شعب وثني رحب بالقادرية باعتبارهم كتاباً وفقهاء وكتاب تمائم ومعلمين. وتسلطت القادرية على من كان يحيط بها شيئاً فشيئاً. وسرعان ما تطور الدخول في الإسلام من حالات فردية إلى جماعة صغيرة من هؤلاء الذين أسلموا كان يرسل منهم في أغلب الأحيان من هم معقد الرجاء إلى المراكز الرئيسية للطائفة لإتمام دراستهم، بل كانوا يبعثون إلى مدارس القيروان أو طرابلس، أو إلى جماعات فاس والأزهر بالقاهرة[٥]. وربما قضوا في هذه البلاد عدة سنوات،

---

(١) Le Chatelier (1), pp. 231-3.

(٢) Le Chatelier (2), pp. 89-91.

(٣) Rinn, p. 175.

(٤) Bonet-Maury, p. 439.

(٥) Bonet-Maury, p. 230.

حتى يتقنوا دراستهم الدينية ثم يعودون إلى أوطانهم مزودين تزوداً تاماً للاشتغال بنشر العقيدة بين مواطنيهم. وعلى هذا النحو تسربت نواة الإسلام إلى عبدة الأوثان والأصنام، وانتشرت العقيدة تدريجياً انتشاراً عظيماً بصفة مستمرة وتم ذلك بخطوات غير محسة في الغالب. وكان المعلمون حتى منتصف القرن التاسع عشر، يؤسسون المدارس في السودان ويشرفون عليها؛ وكان هؤلاء المعلمون قد تربوا في كنف القادرية ونظامهم الذي أقاموه على طريقة منظمة مستمرة في دعوة القبائل الوثنية. وكان نشاط هذه الجماعة في الدعوة ذا طابع سلمي للغاية، يعتمد كل الاعتماد على الإرشاد وعلى أن يكون الواحد منهم قدوة لغيره، كما كان يعتمد على مبلغ تأثير المعلم منهم في تلاميذه، كما يعتمد على انتشار التعليم(١). وبهذه الخطة برهن دعاة القادرية في السودان على أنهم أوفياء لمبادئ مؤسس الجماعة ولتقاليدها العامة. وذلك لأن أهم المبادئ التي كانت تسيطر على حياة عبد القادر هي حب الجار والتسامح ومع أن الملوك وأصحاب الثراء كانوا يرادفون له هداياهم كان كرمه البالغ يجعله دائماً في فقر ولا نجد في كتبه ولا في مواعظه ما يدل على سوء نية أو عداوة نحو المسيحيين. وكان كلما تكلم على أهل الكتاب، لم يزد على أن يعبر عن أسفه على ما هم فيه من باطل، ويدعو الله أن ينير لهم السبيل. وقد أوصى تلاميذه بهذا السلوك السمح الذي كان صفة بارزة في أتباعه في جميع العصور(٢).

أما النجانية التي تنتسب إلى طائفة نشأت في بلاد الجزائر حول نهاية القرن الثامن عشر، فقد سارت منذ قامت في السودان حول منتصف القرن التاسع عشر على نفس أساليب القادرية في الدعوة، وساعد تعداد مدارسهم في الغالب على نشر العقيدة؛ ولكن النجانية، التي كانت تختلف عن القادرية، لم تتورع عن اللجوء إلى السيف، يستعينون به على نشر خطتهم في تحويل الناس إلى الإسلام. وإذا ما قدرنا نشاط هؤلاء في الدعوة إلى الإسلام في إفريقية الغربية تقديراً صحيحاً فإنه يؤسفنا أن نجد شهرة جهادهم أو حروبهم الدينية قد طغت على نجاح الدعاة المسلمين، على الرغم من أن أعمال الأخيرين كانت أجدى على انتشار الإسلام من إنشاء دويلات صغيرة قصيرة الأجل. ونجد أخبار الحملات وخاصة عندما كانت تناول المشروعات أو خطط الغزو التي قام بها الجنس الأبيض، تسترعي بطبيعة الحال انتباه الأوربيين أكثر من أن تسترعي انتباههم الأعمال السليمة التي كان يقوم بها دعاة المسلمين ومعلموهم. ولكن تاريخ أمثال هذه الحركات له تلك الأهمية، وهي أن الغزو – كما كان يحدث دائماً في حالة الإرساليات المسيحية أيضاً – قد فتح ميادين جديدة لنشاط الدعوة وجعلهم يعتقدون بوجود آفاق واسعة من البلاد لا يزال أهلها على الوثنية

أما أولى الحركات الحربية التي قام بها أفراد النجانية في نشر الدعوة، فتعزى نشأتها إلى الحاج عمر الذي كان قد دخل في الجماعة على يد أحد زعمائها الذي تعرف عليه في مكة. ولد الحاج عمر سنة ١٧٩٧ على مقربة من مقربة من بودور **Podor** على السنغال الأدنى، ويظهر أنه كان رجلاً كريم السجايا، ذا نفوذ

(١) Le Chatelier (2), pp. 100.9.

(٢) Rinn, p. 174.

شخصي، ومظهر يوحي بالسيطرة والقوة. وكان ابنا لأحد المرابطين وتثقف ثقافة دينية متينة، واشتهر بعلمه وورعه حين خرج إلى الحج سنة ١٨٢٧، ولم يعد من الحج إلى وطنه إلا سنة ١٨٣٣، حيث نشط في نشر تعاليم التجانية وهاجم أبناء دينه لجهلهم مهاجمة عنيفة، وخاصة شيوخ القادرية الذين أثار تساهلهم وتراخيهم بنوع خاص سخطه وغضبه. وقد عبر الحاج عمر السودان الأوسط فظفر بكثير من الأتباع، وكرم كمهدي جديد، وما أن وافت سنة ١٨٤١ حتى كان قد بلغ جبال فوتاجالون، حيث سلح أتباعه وبدأ سلسلة من الحملات في نشر تعاليم الدعوة بين القبائل التي كانت لا تزال على الوثنية، وكانت تقيم حول النيجر والسنغال. وفي إحدى هذه الغزوات لقى حتفه في سنة ١٨٦٥. ولم ينجح ابنه أحمد وشيخو، في ضم الولايات في مملكة أبيه إلا سنوات قلائل، ثم صدعتها المنازعات الداخلية وقدوم الفرنسيين، وانتقلت أراضيها إلى حكم فرنسا(١).

ذكرنا من قبل طرفاً عن دخول الإسلام في هذا الجزء من إفريقية. كانت البذرة التي بذرها هناك عبد الله بن ياسين وأصحابه تتغذى من الصلة المستمرة مع تجار المسلمين ومع عرب واحة الحوض وغيرهم. ويحدثنا رحالة في القرن الخامس عشر كيف جاهد العرب في تعليم رؤساء الزنج شريعة محمد، مبينين لهم أنه من العار عليهم، أن يكونوا رؤساء يعيشون من غير أن تكون لهم أية شريعة من الشرائع الإلهية، وأن يفعلوا ما فعلت الجماعات المنحطة التي عاشت من غير أن تكون لها شريعة على الإطلاق. ومن هنا، قد يظهر أن هؤلاء الدعاة الأول استغلوا الطابع الذي تميز به الدين الإسلامي، ودستور الحكم فيه ليؤثروا في عقول هؤلاء غير المتحضرين(٢).

ولدينا تفاصيل أوفى عن حركة من هذا النوع ذاته أحدث من تلك، قامت في جنوب سنغامبيا، على يد أحد الماندنجو ويدعى صمودو، وقد اشتهر باسم صمدو، وهو جندي وثني موسر ولد حول سنة ١٨٤٦، وأصبح مسلماً في عهد مبكر من تاريخ حياته، وأسس إمبراطورية في جنوب سنغامبيا في البلاد التي يرويها نهر النيجر الأعلى ورواندە. وقد كتب أحد مؤرخي هذه البلاد بالعربية عن سيرة سمرى، كتابة تمدنا ببعض تفاصيل ممتعة عن أعماله، ويبدأ كالآتي:

"هذه قصة الإمام أحمد صمدو، أحد أفراد الماندنجو... لقد أنعم الله عليه بعونه منذ أخذ في زيارة الوثنيين عبدة الأصنام، أولئك الذين يعيشون بين البحر وبلاد وسولو، وكان يزورهم بقصد دعوتهم إلى إتباع دين الله، الدين الإسلامي. ولتعلموا يا من تقرءون هذا أن الإمام صمودو وجه همته أول الأمر إلى بلدة تدعى فولندية. ولما كان يعمل بالكتاب والشريعة والسنة أرسل رسلاً إلى ملك هذه البلدة ويدعى سنديدو، يدعوه

(١) Oppel, pp. 292-3. Blyden, 10 Le Chatelier (3), p. 167 sqq.

(٢) Delle Navigationi di Messer Alvise da ca Mosto A, D. 1454. Ramusio, tome i. p, 101.

إلى الإذعان لحكومته، ونبذ عبادة الأصنام، وإلى عبادة الإله الواحد العلي الحق الذي تنفع عبادته خلقه في هذه الدنيا وفي الآخرة، ولكنهم أبوا الخضوع، ففرض عليهم الجزية كما أمر بها القرآن، ولكنهم ظلوا في عماوتهم وصممهم، فجمع الإمام للجهاد قوة صغيرة تقرب من خمسمائة رجل، كانوا شجعاناً أشداء، وحارب هذه المدينة فأعانه الله ونصره عليهم، وقد طاردهم بخيله حتى سلموا. أنهم لن يعودوا إلى وثنيتهم، وذلك لآن كل أولادهم الآن في مدارس يحفظون فيها القرآن، ويلمون فيها بأطراف من الدين والتهذيب. والحمد لله على هذا"(١). وليس من الممكن في هذا المقام أن نتتبع فتوحاته التي تميزت بكثرة المذابح والتخريب. وقد بلغ أحمد صمودو أوج قوته حول سنة ١٨٨١، وبعد ذلك بقليل دخل في نزاع مع الفرنسيين، فأسروه سنة ١٨٩٨ بعد سلسلة من الغزوات القاسية، ومات في سنة ١٩٠٠، ومع أن فتوحاته انتهت بالقضاء على جموع كبيرة من الوثنيين ذبحهم القساة، وتظاهر آخرون بقبول الإسلام بدافع الخوف، يظهر أنه لم يكن يهدف إلى نفس هذا الغرض الديني الواضح الذي كان سيهدف إليه الحاج عمر(٢). وقد خلف للمرابطين من القادرية مهمة الدعوة، فبذلوا بما عرف عنهم من التقاليد التي ساروا عليها في التسامح، مجهوداً كبيراً ليخففوا من أعماله القاسية(٣)(٤). وفتحوا المدارس في المدن التي كانت قد غلبت على أمرها وهناك وضعوا نظام جماعتهم، وعلموا من داخلوا في الإسلام حديثاً كما سعوا في نفس الوقت إلى جذب مسلمين جدد.

أما فيما يتعلق بهذه الحركات العسكرية في الدعوة إلى الإسلام، فمن المهم أن نلاحظ أن الانتصارات الحربية وفتح البلاد لم تكن أهم ما ساعد على تقدم الإسلام في هذه المناطق؛ إذ اتضح أن ما قام به الحاج عمر من تحويل الناس إلى الإسلام بالقوة قد نسى سريعاً فيما عدا هذه المناطق الصغيرة التي بقيت في أيدي خلفائه بصفة نهائية. وعلى الرغم من عظمة انتصاراته المؤقتة وحماسة جيوشه، لم يبق لهذه الدعوة المسلحة إلا آثار يسيرة جدا(٥). أما الأهمية الحقيقية لهذه الحركات في تاريخ الدعوة الإسلامية في غربي إفريقية فهي ما أثاره هؤلاء من حماسة دينية، تجلت في نشاط الدعوة الواسع النطاق بين الشعوب الوثنية، ذلك النشاط الذي كان ذا طابع سلمي خالص. و لم تكن هذه الحروب الدينية إذا ما نظرنا إليها نظرة صحيحة، إلا أحداثاً عارضة في النهضة الإسلامية الحديثة. و لم تكن بحال ما صفة تميز القوى وألوان النشاط التي كانت تؤثر تأثيرًا حقيقياً في نشر الدعوة الإسلامية في إفريقية: والواقع أنه لو لم يتبع هذه الحروب نشاط متميز في نشر الدعوة، لدلت على أنها لم تكن ذات أثر فعال على الإطلاق في خلق مجتمع إسلامي خالص والواقع أن الحروب الهدامة والقسوة

---

(١) Bleden, Christianity, Islam and negor Race pp. 357- 60.

(٢) تناول Le Chatelier (3), هذه المسألة بالتفصيل ص ٢٢٥ وما بعدها.

(٣) Le chatelier (3), p 237. لم يتدخل سموري في المسألة الدينية تدخلاً مباشراً وقد وصل L. G. Binger إلى هذه النتيجة نفسها، عن طريق معرفته الشخصية بسموري. Le Péril de L' Islam, p. 20 Paris, 1906.

(٤) Le Chatelier (3). pp. 238-40.

(٥) Le Chatelier (2). pp. 112. r. du M. M., vol xii. P. 22.

الغاشمة من جانب الفاتحين من أمثال الحاج عمر وسموري ورسل التيجانية بصفة خاصة، جعلت عقيدة الإسلام مكروهة كرهاً شديداً من قبائل السودان الوثنية في البلاد التي يرويها السنغال والنيجر. ويكاد يتخذ هذا العداء الذي أضمرته هذه القبائل للدين الإسلامي صورة حركة قومية. ولكن برغم هذا ساعدت هذه الدعوة الإسلامية على نشر الإسلام في نواح كثيرة من غينيا وسنغامبيا، هذه الجهات التي كان التجار الفلانيون[1] في بلاد الحوصا يحملون إليها معارف دينهم في رحلاتهم التجارية المتكررة، ونجحوا خلال القرن الماضي والقرن الحالي في الظفر بجموع كبيرة دخلت في الإسلام. ومما هو جدير بالذكر نشاط هؤلاء الدعاة من القادرية وتجار المسلمين الذين كسبوا لدينهم مسلمين جدداً أدخلوهم في دينهم منذ جلب الاحتلال الفرنسي السلام إلى البلاد. وإن تغلغل الدين في السودان الفرنسي بالطرق السلمية وكذلك تغلغله في أجزاء أخرى من إفريقية كانت قد دخلت حديثاً تحت سلطان النفوذ الأوربي، قد لقي تيسيراً بفضل ما أظهره الموظفون الفرنسيون من الاحترام والتقدير للطبقات المتعلمة، وكلها بطبيعة الحال من المسلمين، وما أظهره هؤلاء الموظفون من احتقار سافر للعادات المنحطة والخرافات التي كانت متفشية بين عبدة الفتش الوثنيين[2].

السنوسية: لكن نشاط نشر تعاليم الدعوة الذي قامت به الفرقة السنوسية لم يكن مقترناً بحال ما بعمل من أعمال العنف والحرب، ولم يستخدم في خدمة الدين إلا كل وسائل السلام والترغيب. وفي سنة ١٨٣٧ أسس سيدي محمد بن علي السنوسي الفقيه الجزائري فرقة دينية تهدف إلى إصلاح شأن الإسلام ونشر العقيدة الإسلامية. ولم يمت السنوسي سنة ١٨٥٩ حتى كان قد نجح في تأسيس دولة دينية بقوة عبقريته الصافية دون أن يريق الدماء. ويدين أتباعه بالطاعة والولاء لهذه الدولة التي يوسع خلفاه حدودها كل يوم[3]. ويلتزم أفراد هذه الجماعة القيام بأوامر القرآن في دقة بما يتفق وأكثر مبادئ التوحيد المطلق، تلك المبادئ التي تجعل التعبد لله وحده وتحرم التضرع للأولياء وزيارة قبورهم تحريماً تاماً. وقد أوجبوا على أنفسهم أن يمتنعوا عن شرب القهوة والتدخين، وأن يتجنبوا كل اتصال باليهود أو المسيحيين، وأن يساهموا بنصيب معين من دخلهم يضاف إلى أموال الجماعة، إذا لم يستطيعون أن يكرسوا أنفسهم لخدمتها، كما أوجبوا على أنفسهم أن يقفوا كل نشاطهم على تقدم الإسلام، وأن يقاوموا في الوقت نفسه أي لون من ألوان الخضوع للنفوذ الأوربي. وتنتشر هذه الطائفة في إفريقية الشمالية كلها، وتنثر زواياها حول بلاد شمال إفريقية من مصر إلى مراكش، كما تمتد إلى الداخل في واحات الصحراء وفي السودان. وكان مركز تنظيمها في واحة جغبوب[4] في الصحراء الليبية

---

(١) وقبائل الفلاني جميعها مسلمون متحمسون، فحيثما وجدوا، تجد مسجداً. Haywood, p. 200

(٢) Le Chatelier (3), pp. 231, 273, 303. Westermann, pp. 632-3.

(٣) محمد بن عثمان الحشائشي ص ٨٤ وما بعدها.

(٤) وفي سنة ١٨٩٥، هاجر إلى كفره سيدي المهدي، وهو ابن محمد السنوسي وخليفته، لأنها كانت أكثر توسطاً من جغبوب (محمد بن عثمان الحشائشي من ص ١١١ – ١١٥) ولكنه توغل فيما يعد جنوباً إلى منطقة بوركو

بين مصر وطرابلس. وفي هذه القرية كان يتعلم كل عام مئات من الدعاة ثم يرسلون إلى كافة أجزاء إفريقية الشمالية دعاة للإسلام. وكانت زواياهم الفرعية (ويقال إنها بلغت ١٢١ زاوية) تتلقى من زاويتهم الرئيسة في جغبوب التعليمات والأوامر في كل المسائل المتعلقة بتدبير وتوسيع هذه الدولة الدينية الكبرى، التي كانت تضم، في نظام رائع، آلافاً من أشخاص ذوى جنسيات وقوميات متباينة، ولو لم يكن الحال على هذا النحو لفرقت بينهم الفوارق الجغرافية الشاسعة والمنافع الدنيوية. ولما كان النجاح الذي تحقق على أيدي دعاة هذه الجماعة المتحمسين النشيطين عظيماً، لم يقتصر وجود أتباعهم على كل إفريقية الشمالية من مصر إلى مراكش وفي أرجاء السودان وسنغامبيا وبلاد الصومال كافة، بل نجدهم كذلك في بلاد العرب والعراق وجزائر أرخبيل الملايو[١]. ومع أن السنوسية كانت في أول أمرها حركة إصلاح داخلية في الإسلام نفسه، أصبحت إلى جانب ذلك حركة لنشر تعاليم الدعوة وأصبحت عدة قبائل إفريقية كانت من قبائل وثنية أو مسلمة إسلاماً اسمياً بحتاً من أتباع الإسلام المتحمسين منذ أن حل فيهم دعاة السنوسية ومن هذا النوع من النشاط نذكر على سبيل المثال، ما بذله دعاة السنوسية من جهد ليدخلوا في الإسلام هذا الفريق من قبيلة بيلي **Baele**، (وهي قبيلة تسكن بلاد إنيدى **Ennedi** الجبلية شرقي بوركو)، الذي كان لا يزال على الوثنية، بل إنهم حملوا حماستهم الدينية إلى البقية الباقية من هذه القبيلة حين وجدوا أن معرفتهم بالإسلام سطحية، وكانوا مسلمين إسماً[٢]، كما أن السنوسية حينما نزلوا بين شعب التيدا **Tedas** في بلاد تيبستي **Tibesti** بالصحراء جنوبي واحة فزان، نجحوا في إدخالهم في الإسلام بعد أن كانوا مسلمين إسماً[٣].

يضاف إلى هذا أن دعاة السنوسية يقومون بدعاية نشيطة في بلاد الجلا **Galla** فيرسلون إليها كل عام دعاة جدداً من هرر، حيث تتمتع السنوسية هناك بنفوذ كبير، ومنهم كل الرؤساء في بلاط الأمير تقريباً بدون استثناء[٤]. ويستعين دعاتهم على نجاح جهودهم في نشر تعاليم الدعوة بفتح المدارس، وقد ظفروا من استيطانهم في واحات الصحراء –وخاصة في وادي **Wada** – بزيادة كبيرة في عددهم، وذلك بشراء عبيد كانوا يعلمونهم في جغبوب فإذا ما رأوا أنهم قد تعلموا مبادئ الفرقة تعليماً كافياً، أعتقوهم وأعادوهم إلى أوطانهم كي يدخلوا إخوانهم في الإسلام[٥]. وعلى أنه قد يظهر أن نفوذ هذه الجماعة في طريقه الآن إلى الانحلال[١].

Borku وتبستي Tibesti، حيث توفي سنة ١٩٠٢. وكان رئيس الجماعة في سنة ١٩٠٨ سيدي أحمد، أحد أقرباء مؤسس الجماعة،

J. C. E. Falls: Drei Jahre in der Libyschen Wüste, p. 274 frelburg, 1911.

(١) Riedel (1), pp. 7, 59, 162.

(٢) G. Nachtigal: sahara and Sudan, vol. ii. P. 175. Berlin, 1879-81.

(٣) Duveyrier, p. 45.

(٤) Paulitstchke, p. 214.

(٥) H. Duvevrie: La Confférie musulmane de sidi Momammed Ben Ali Essenousi, passim paris, 1886. Louis Rinn. Marabouts et Khouans, pp, 481- 513.

ومع أن هذه الأخبار التي دونت عن جهود المسلمين في الدعوة إلى الإسلام بين قبائل السودان الوثنية ضئيلة، فإنها ذات أهمية بالنظر إلى النقص العام في الأخبار الخاصة بانتشار الإسلام في هذا الجزء من إفريقية. ولكن بينما تعوزنا الشواهد التاريخية الثابتة، نجد المسلمين الذين يقيمون بين ظهراني عبدة الأوثان والأصنام ويمثلون ديانة وحضارة أرقى، شاهداً حياً على الأعمال التي قام بها دعاة المسلمين في سبيل نشر الدعوة، كما أنهم يختلفون (وخاصة على الحافة الجنوبية الغربية من منطقة النفوذ الإسلامي) اختلافاً بيناً عن القبائل الوثنية التي أفسدت أخلاقها تجارة الخمور الأوربية. وقد أوضح رحاله حديث[٢] هذه المفارقة عندما تكلم عن حالة الانحلال التي وصلت إليها قبائل النيجر الأسفل: "بينما كانت الباخرة تسير بي صعداً في بلاد النهر (يعني النيجر)، لم أجد إلا قليلاً من التغير للمناظر التي شاهدتها في الأميال المائتين الأولى، لأن الوثنية وأكل لحوم البشر وتجارة الخمور قد ازدهرت كلها في وحدة مؤتلفة. ولكني لما تركت ورائي المنطقة الساحلية المنخفضة، فألفيتني على مقربة من الحدود الجنوبية لما يسمونه السودان الأوسط، لاحظت تحسناً مطرداً في المظهر الأخلاقي عند الأهلين واختفت الوحشية، وتبعتها الوثنية في هذا السبيل. وزالت تجارة الخمور إلى حد بعيد، على حين صارت ملابسهم أكبر وأكثر احتشاماً، وأصبحت النظافة عندهم عادة، على حين دل مظهرهم الخارجي على وقار زائد وأدب جم. وقد دل كل شيء على أن هناك نواة لمبدأ أكثر رقياً إلى حد ما. ومن الواضح أن هذا المبدأ كان يؤثر تأثيراً عميقًا في طبيعة الزنجي ويجعل منه إنسانًا جديدًا. ولعلك تدهش لو علمت أن هذا المذهب هو الإسلام. ولما مررت بلكوجا **Lokoj** عند ملتقى نهر بنوي **Benué** بالنيجر تركت ورائي المراكز الأمامية لنشر الدعوة الإسلامية، فلما دخلت السودان الأوسط وجدتني في دولة أحسن نسبياً في طريقة حكمها، خاصة بجماعه نشيطة من التجار الأذكياء، وأناس مهرة في صناعه المنسوجات، والنحاس، والجلد والواقع أنهم شعب تقدم تقدماً عظيماً في مراقي الحضارة والمدنية).

ولكي نقدر نشاط الدعوة الإسلامية في إفريقية الزنجية **Nigritia** تقديرًا صحيحًا، يجب أن لا يعزب عن أذهاننا أنه بينما كان الداعي المسلم على السواحل وامتداد الحدود الجنوبية لمنطقة النفوذ الإسلامي، ممهد الطريق لدينه فإنه كان لا يزال متروكاً وراءه هناك مجال واسع للدعاية الإسلامية في البلاد الداخلية التي تمتد نحو الشمال والشرق، على الرغم من أن الإسلام رسخت أقدامه في هذه البلاد منذ زمن بعيد. وكانت هناك جماعات من الفرنج، وهم الجنس الزنجي التي كانت له السيادة على سنار، يدين بعضهم بالإسلام وبعضهم الآخر بالوثنية. وقد حاول تجار مسلمون من بلاد النوبة أن يدخلوا هؤلاء الوثنيون في الإسلام[٣].

N. Slousch: Les Senoussiya en Tripolitaine. R. du M. M. vol i. p, 169- sqq.

وللوقوف على ثبت بمراجع الحركة السنوسية، انظر: Der Islam, iii, bd. 141-2, 312.

(١) R. du M. M. vol, i. p. 181, vol. viii. Pp. 64-5.

(٢) Joseph Thomosn (2), p. 185.

(٣) Oppel, p. 303.

أما قبيلة جوكون **jukun** الوثنية[١]، التي زالت دولتها، وكانت قوية يوماً ما قبل أن يسير الفلاني في سبيل الفوز والغلبة، فقد ناهضت النفوذ الإسلامي الزاحف، مع أن وزير ملكهم كان أجنبياً يختار دائماً من المسلمين، وكانت جاليات من الحوصه وغيرهم من المسلمين تستقر بين ظهرانيهم. ولكن هؤلاء المستوطنين من المسلمين لا يصادفون نجاحًا في أن يدخلوا في الإسلام أحداً من بين الجوكون الذين كانت تقاليد مجدهم القديم تجعلهم يتمسكون بعقيدتهم القومية، وكانت زعامتها الروحية تتمثل في شخص ملكهم[٢].

ولعله من اليسير أيضًا أن نحصي كثيرًا من عشائر السودان وسنغامبيا، ما زالت تحتفظ بعادتها وعقائدها الوثنية، أو تكسو هذه العادات والعقائد بستار من شعائر الإسلام، على الرغم من أن أتباع النبي كانوا (في معظم الأحوال يحيطون بهم منذ قرون. ولا يزالو الكنو **Konnohs** وهم فرع من قبيلة الماندنجو الكبيرة، يدين معظمهم بالوثنية، و لم يتقدم الإسلام بينهم إلا في السنين الأخيرة[٣]. وكان من أثر ذلك أن الحماسة العظيمة في مهمة نشر الدعوة والتي تجلت بين مسلمي هذه الجهات في خلال القرن الحالي، لم تجد مجالاً واسعاً يمكنها من إظهار نشاطها. ومن ثم جاءت الأهمية في تاريخ الدعوة إلى الإسلام في هذه القارة، ثم أهمية حركة الإصلاح في الإسلام ذاته ونهضات الحياة الدينية، وهي مسائل لفتنا النظر إليها من قبل.

الإسلام على الساحل الغربي من إفريقية: أما الساحل الغربي من إفريقية فهو ميدان آخر لمشروع الدعوة الإسلامية، حيث وجد الإسلام نفسه أمام شعب ضخم لم يكن قد أسلم بعد، على الرغم من أنه ازدهر على ساحل غينيا، وفي سيراليون وليبريا، تلك البلاد التي نجد عدد المسلمين في ليبيريا أخيراً أكثر من عدد الوثنيين. وهناك ملاحظة من أسبق ما لوحظ على نشاط الدعوة الإسلامية في الدول المجاورة لسريليون، نجدها في التماس لحل شركة سيريليون **Sierra Lone Company** أمر مجلس العموم بطبعه، في الخامس والعشرين من مايو ١٨٠٢؛ وهذا نصه: "منذ مدة لا تزيد عن سبعين عاماً، استقرت جماعة صغيرة من المسلمين في بلاد الماندنجو، وكما هي العادة عند فقهاء هذا الدين (الإسلام) فتحوا مدارس تدرس فيها اللغة العربية والعقائد التي جاء بها محمد وجروا على عادات المسلمين وخاصة عدم بيع أبناء دينهم بيع الرقيق، وقد أقاموا لأنفسهم شرائع استخرجوها من القرآن واستأصلوا ما كان هناك من عادات تساعد على تخريب الساحل من السكان. وعلى الرغم من وجود كثير من الاضطرابات القومية، جلبوا من البلاد حضارة بلغت درجة عظيمة نسبيًا، كما جلبوا إليها الاتحاد والطمأنينة. وكان من أثر ذلك، أن زاد السكان زيادة سريعة، وانتقل إلى أيدهم شيئاً فشيئاً كل النفوذ في تلك الجهة من البلاد التي يقيمون فيها. أما هؤلاء الذين تعلموا في مدارسهم فإنهم يسيرون نحو الثراء والقوة في البلاد المجاورة للماندنجو، ويعودون ومعهم قسط وافر من الدين والشريعة. وهناك رؤساء آرون ينتحلون الأسماء التي اتخذها هؤلاء المسلمون لأنفسهم بسبب ما يقترن بها من احترام وتوقير، ويبدو أنه

---

(١) وتقع في ولايئة مورى Muri في نيجريا الشمالية.

(٢) Journal of the African Soc. Vol vii, pp, 379-81.

(٣) Haywood, p. 33.

من الممكن أن ينشر الدين الإسلامي في أمن وسلام انتشاراً سلمياً، في كل المنطقة التي تقع فيها مستعمرة الماندنجو، حاملاً معه تلك المزايا التي تتغلب فيها يظهر دائماً، على خرافات الزنوج"[١]. ويظهر أن الإسلام لم يجد له منفذ في بلاد مندي **Mandi** التي تقع على بعد مائة ميل تقريباً جنوبي سيراليون، إلا في القرن الحاضر، ولكنه الآن يتقدم تقدماً ثابتا. "ولا يقوم هناك بالدعوة أية جماعة خاصة من الدعاة تفرغت لهذا الغرض، بل كل مسلم هناك داعية نشيط. وإذا ما اجتمع في مدينة ستة رجال منهم، وأقل من ذلك أو أكثر، وعزموا على أن يقيموا فيها فترة من الزمن، سارعوا إلى بناء مسجد وأخذوا ينشرون الدعوة، فهم يتقدمون أولاً إلى رئيس المدينة ويحصلون منه على الموافقة على عملهم الذي يقصدون إليه، وربما ظفروا بوعد منهم أن يصبح مشايعاً لهم ويعلمونه صلاتهم بالعربية، أو يحفظونه منها القدر الذي يستطيع أن يحفظه أو يعيه. ويمدونه بالصيغ والشعائر التي تستعمل في الصلاة ويحرمون عليه تناول المشروبات الروحية- وسواء روعي هذا الشرط أم لم يراع أصبح الرجل مسلماً"[٢]. وعلى ساحل غنيا تنتشر المؤثرات الإسلامية بوجه خاص على أيدي تجار الحوصا الذين نجدهم في كل المدن التجارية على هذا الساحل؛ وكلما أنشئوا لهم مقراً، أسرعوا إلى بناء مسجد، وأثروا في السكان والوثنين في مسلكهم القائم على الورع وثقافتهم المتفوقة؛ وقد دخلت في الإسلام قبائل بأجمعها من عبدة الأوثان دون أن يبذل المسلمون أية جهود خالصة يستوجبها إغراؤهم، وإنما كان ذلك نتيجة لاقتدائهم بما يرون أنه حضارة أرقى من حضارتهم[٣].

أما أشنتي **Ashanti** فكان فيها نواة لمجتمع إسلامي يرجع وجوده فيها إلى سنه ١٧٥٠، ولما كان دعاة الإسلام قد لقوا ترحيبًا من أهالي هذه البلاد وظفروا بنفوذ كبير في البلاط، جدوا في العمل منذ ذلك الحين مع نجاح بطيء لكنه محقق[٤]، واستطاعوا بواسطة مدارسهم أن يسيطروا على عقول الجيل الأحدث، ويقال إن هناك علامات واضحة على أن الإسلام ستصير له الغلبة في أشنتي إذ دخل فيها كثير من الرؤساء[٥]. وفي دهومي **Dahomey** وساحل الذهب يتقدم الإسلام كل يوم تقدمًا جديدًا، حتى حين لا يعتقد شيوخ القبائل الوثنية أنفسهم الإسلام نجدهم يبيحون لأنفسهم، في أوقات كثيرة، أن يصبحوا تحت تأثير دعاة هذا الدين، الذين يعرفون كيف يستغلون هذا النفوذ للدعوة بين عامة الناس[٦]. وفي هذا الجزء من القارة تعتبر دهومي وأشنتي أهم الدول التي لا تزال يحكمها حكام وثنيون، ويقال إن تحولهما إلى الإسلام لا يحتاج إلى زمن

---

(١) Claude George: The Rise of British West Africa, pp. 120-1 London, 1902.

(٢) Islam and Missions, pp. 73- 4.

(٣) Lippett: Uber die Bedeutung der Haussanation für unsere Togound. Kamerunkolonie. P. 200. MSOS, Band. X. 1907, Abteilung III.

(٤) Waitz: 11er. Theil, p. 250

(٥) C. S. Salomon, p. 801.

(٦) Pierre Bouche p. 256.

قصير[١]. ويوجد قرابة ١٠٠٠٠مسلم في **Lagos**[§]، كما أن كل المراكز التجارية في الساحل الغربي تضم بين سكانها جماعات إسلامية من القبائل الزنجية الراقية، من أمثال الفلاني والماندنجو والحوصا. وحين يهبط رجال هذه القبائل إلى مدن الساحل، وهم يأتون إليها جماعات ضخمة، إما تجاراً وإما جنوداً يخدمون في جيوش السلطات الأوربية، لا يعجزون بحال عن أن يؤثروا في زنجي الأراضي الساحلية، وذلك بما لهم من جرأة وروح استقلالية. ويري زنجي الساحل أن أحكام الأوربيين والموظفين والتجار يحترمون الذين يؤمنون بالقرآن أينما كانوا، وأن هؤلاء المؤمنين لا يختلفون عنه في الجنس أو المظهر، ولا في الزي أو الطباع اختلافاً بعيداً يستحيل معه أن يدخل في زمرتهم، بل إن هؤلاء المؤمنين فضلاً عن ذلك قد منحوه حظاً من امتيازاتهم على شريطة أن يدخل في دينهم[٢]. وإذا ما أظهر الزنجي الوثني، مهما كان خاملاً مغموراً، رغبته في قبول تعاليم الإِسلام بادروا بضمه إليهم، فيصبح واحداً منهم متساوياً معهم. وليس قبوله في أخوة المسلمين امتيازاً يمنحونه إياه متبرمين، ولكنه امتياز يمنحه إياه عن رغبة وحرية، دعاة ذو غيرة وحماسة في نشر تعاليم الدعوة. ولهذا فمن مصب السنغال حتى لاجوس، في مسافة تبلغ ألفي ميل يندر فيما يقال أن نجد مدينة ذات أهمية على ساحل البحر ليس فيها مسجد واحد على الأقل ومعه دعاة نشيطون يعملون في أغلب الأحيان جنباً إلى جنب مع معلمي المسيحية[٣].

الإِسلام على الساحل الشرقي من إفريقية: ولننتقل الآن إلى تاريخ انتشار الإِسلام على الجانب الآخر من قارة إفريقية، ذلك الجانب الذي كان سكانه وثيقي الصلة بالأرض التي نشأ فيها الإِسلام. على أن الحقائق التي دونت عن المواطن الأولي التي استقر فيها العرب على الساحل الشرقي ضئيلة جداً، ويذكر أحد الكتب التاريخية العربية، وكان قد وجده البرتغاليون في مدينة كلوا **Kiloa**[٤] حين اجتاحها دون فرنسيسكو داميدا **Don Francisco d Almeïda** في سنة ١٥٠٥، أن أول من هاجر كانوا جماعة من العرب نفوا لأنهم اتبعوا تعاليم خارجية على الدين، كان يقول بها شخص يدعي زيداً[٥]، من سلالة النبي، وقد سموا إموزيديج (وربما قصدوا بذلك أمة زيدية) نسبة إليه. ولا يبعد أن يكون زيد الذي أشير إليه هنا هو زيد بن علي حفيد الحسين، كما هو أحد أحفاد علي ابن عم محمد (عليه السلام)، وقد ادعى في عهد الخليفة هشام أنه الإمام المهدي، وأشعل نار الثورة بين حزب الشيعة، ولكنه هزم وقتل سنة ١٢٢ هـ (٧٤٠م)[٦].

---

(١) Blyden, p. 357.

(§) ويبلغون الآن ربع مليون، وأغلبهم من المهاجرين والتجار

(٢) C.S. Salamon, p. 887.

(٣) Blyden. P. 202,. Westermann, pp. 633-4.

(٤) تقع على جزيرة على مسافة ٢° جنوبي زنجبار.

(٥) De Barros, Dec. i. Liv. Cap. iv. P. 211.

(٦) ابن خلدون جـ٣ ص ٩٨- ١٠٠.

ويظهر أن هذه الجماعة عاشت في خوف عظيم من سكان البلاد الأصليين الوثنيين، ولكنها نجحت بالتدريج في بسط مواطنها على طول الساحل، حتى جاءتها جماعة أخرى من المهاجرين الذين قدموا من الشاطئ العربي للخليج الفارسي، من مكان لا يبعد عن جزيرة البحرين. وجاء هؤلاء في سفن ثلاث بزعامة سبعة إخوة، هاربين من اضطهاد ملك لاساه (الإحساء)[١]، وهي مدينة قريبة من موطن قبيلتهم. وأول مدينة بنوها هي مقدشيو التي ارتفعت فيما بعد إلى تلك القوة التي جعلتها سيدة على كل عرب الساحل. ولكن لما كان المستوطنون الأصليون وهم الأموزيديج من حزب يختلف عن حزب اللاجئين الجدد، حيث كان الأولون من الشيعة والآخرون من أهل السنة، أبوا أن يخضعوا لسلطة حكام مقدشيو، وارتدوا إلى الداخل حيث اندمجوا في السكان الأصليين وتزوجوا معهم وتطبعوا بطباعهم وتخلقوا بأخلاقهم[٢].

وقد أنشئت مقديشيو حول منتصف القرن العاشر وظلت أقوى مدينة على الساحل زهاء سبعين سنة، حينما أدى قدوم مهاجرين آخرين من الخليج الفارسي، إلى إنشاء وطن آخر ينافسها على بعد منها من ناحية الجنوب. وكان زعيم هؤلاء المهاجرين يدعى علياً، وهو أحد الأبناء السبعة لأحد سلاطين شيراز ويدعى حسناً: ولما كانت أمه حبشية: ازدراه إخوته، وعاملوه معاملة قاسية، جعلته يصمم على أن يهجر وطنه ويبحث عن موطن في مكان ما. لهذا أبحر من جزيرة أرمز **Ormuz** ومعه زوجته وأولاده وجماعة صغيرة من أتباعه، وسار متجنباً مقدشيو، التي ينتمي سكانها إلى مذهب ديني يختلف عن المذهب الذي ينتمي إليه، فمضي في طريقه صوب الجنوب، إذ سمع أن الذهب يوجد في ساحل زنجبار، وأسس مدينة كلو، وهناك استطاع أن يحتفظ بمركز مستقل، وأن يكون متحرراً من تدخل أسلافه المقيمين بعيداً عنه في الشمال[٣].

وبهذه الطريقة ظهر عدد من المدن العربية على طول الساحل الشرقي من خليج عدن حتى مدار الجدي على حافة المنطقة التي كان جغرافيو العرب في العصور الوسطي يطلقون عليه اسم بر الزنج. وأياً كانت الجهود التي بذلها المستوطنون المسلمون في تحويل الزنج إلى الإسلام، فالظاهر أنه لم يبق لنا سجل عنها. وهناك قصة غريبة محفوظة في مجموعة رحلات قديمة، لا يبعد أنها كتبت في أوائل القرن العاشر، تصور لنا الإسلام بأنه دخل في إحدى هذه القبائل على يد ملكها نفسه. ذلك أن سفينة تجارية عربية أقصتها الريح عن طريقها في سنة ١٩٢٢م وأرستها إلى بلاد الزنج الذين يأكلون لحم البشر، حيث توقع البحارة موتاً محققاً؛ ولكن حدث لهم عكس ما توقعوه، إذ تلقاهم الملك لقاء رحيماً ورحب بهم ترحيباً كريماً عدة شهور، باعوا في خلالها بضاعتهم بشروط مربحة؛ ولكن التجار ردوا عليه كرمه بخيانة شائنة، فأوثقوه هو وحاشيته حين ركبوا السفينة يودعونهم. وحملوهم معهم إلى عمان رقيقاً، وبعد سنوات قليلة طوحت الريح بهؤلاء التجار أنفسهم إلى نفس

---

(١) من الممكن أن تكون الكلمة محرفة من الحسا. انظر ابن بطوطة جـ٢ ص ٢٤٧- ٨.

(٢) J. de Barros: Dec. i. Liv. Viii cap. Iv. Pp. 211-12.

(٣) De Barros, id, pp. 224-5 Sce Also Justue Strandes: Die Portugiesienziet von Deutsch-und Englisch- Oslafrika, p. 81 sqq. Berlin, 1899.

الميناء فعرفهم الأهالي وطوقوه بقواربهم، فسلموا أنفسهم متوقعين الموت في هذه المرة فصلى كل منهم على الآخر صلاة الموت. ثم أخذوا إلى حضرة الملك حيث تبينوا في دهش وعجب، أنه الملك نفسه الذي عاملوه معاملة جد مخزية قبل ذلك ببضع سنين وبدلاً من أن يقتص منهم بأي نوع من القصاص لمسلكهم الغادر، أبقى على حياتهم، وتركهم يبيعون بضاعتهم، ولكنه رفض الهدية الثمينة التي قدموها إليه رفضاً ينطوي على التقريع. وقبل أن يبرحوا تقدم واحد منهم في جرأة إلى الملك وسأله أن يقص قصة فراره. فوصف لهم كيف أخذ رقيقاً إلى البصرة، ومنها إلى بغداد، حيث أسلم وتفقه في الدين؛ فلما هرب من مولاه لحق بقافلة من الحجاج كانت ذاهبة إلى مكة، وبعد أن أدى مناسك الحج، وصل إلى القاهرة وصعد في النيل صوب بلاده، فوصل إليها أخيراً بعد أن تجشم كثيراً من الأخطار، ووقع في الرق أكثر من مرة. ولما عاد إلى مملكته من جديد، علم قومه دين الإِسلام؛ "وأنا اليوم فرح مسرور لما مَنَّ الله به عليِّ وعلى أهل دولتي من الإِسلام والإيمان ومعرفة الصلاة والصيام والحج والحلال والحرام، وبلغت ما لم يبلغه أحد في بلاد الزنج وعفوت عنكم لأنكم السبب في صلاح ديني... فعرفوا المسلمين أن يأتونا فإنا نحن قد صرنا إخواناً لهم، مسلمين مثلهم"(١).

ومن هذا المصدر نعلم أنه حتى في هذه الفترة المبكرة، كانت جموع كبيرة من تجار العرب، تختلف إلى هذه البلاد الساحلية. ولكن على الرغم من وجود صلة دامت قرون بين أهليها وبين المسلمين، كان تأثرهم (فيما عدا أهالي السومال) بالإسلام قليلاً قلة ملحوظة. وحتى قبل الفتوحات البرتغالية، وفي القرن السادس عشر، يظهر أن ما تم من حالات قليلة من تحول الناس إلى الإِسلام كان كله مقصور على الحدود الساحلية. وكذلك بعد أن تدهور النفوذ البرتغالي في هذا الجزء من العالم، وعاد هناك الحكم العربي تحت إمرة سادة عمان، وإلى أن جاء القرن العشرون، كان من العسير أن تبذل أية جهود في نشر معارف الإِسلام بين قبائل الجهات الداخلية، عدا قبائل الجلا وقبائل السومال. ويقول رحاله حديث: "لم أر في خلال الرحلات الثلاث التي قمت بها في شرقي إِفريقية الوسطى، شيئاً يحمل على الظن بأن الإِسلام هناك قوة تصبغ البلاد بصبغة من الحضارة والمدنية، مهما كانت القوة الحية في هذه الدين، فإنها ظلت مستكنّة، ولم يكن العرب، ولا أحفادهم في هذه البلاد دعاة إسلام وليس هناك بعثات تدعو إِليه، وإِنما قنع أهل مسقط بأن يسير عبيدهم، إلى حد ما، وفق شعائر الدين. وقد تركوا قبائل إِفريقية الشرقية، الذين كانوا في الواقع في جهلهم المطلق راضين فيما يظهر بأن يظلوا سعداء في جهلهم. وتظهر عدم قابليتهم للحضارة ظهوراً جلياً في هذه الحقيقة الغريبة: وهي أنهم اتصلوا خمسه قرون بشعب نصف متحضر، ولم يترك فيهم ذلك أقل أثر للصفات الراقية التي كان يتصف بها جيرانهم – ولم تنبت وتظهر بذرة واحدة صالحة طوال هذه السنين"(٢). واستسلم العرب في شمال إفريقية

---

(١) كتاب عجائب الهند أو

Livre des Merveilles de l'Inde, publié par P. A. van der Lith. 51-60 Leider، 1883.

(٢) Mohammedanism in Central Afric, by Joseph Thomson. P. 877.

الشمالية كل الاستسلام سعيًا وراء التجارة وصيد الرقيق، فأظهروا فتوراً في ترقية شؤون دينهم، فكان الفارق كبيراً بين نشاطهم وبين ما أظهره إخوانهم في الدين نحو نشر الدعوة في أجزاء أخرى من إفريقية.

الإسلام في أوغندا: على أن هناك حالة جديرة بالذكر نستثنيها، وهي نشاط نشر الدعوة الذي قام به تجار من العرب أتيح لهم أن يدخلوا أوغندا في النصف الأول من القرن التاسع عشر؛ ومن المحتمل أنهم عرفوا أن قوة روح الحرية في أهل بجندة جعلت قنص الرقيق من بينهم أمراً مستحيلاً، ولهذا سعوا إلى كسب ثقتهم عن طريق تحويلهم إلى دينهم. وأسلم كثيرون من أهل بجنده في عهد الملك موتزا **Mutesa**، ولكن زيارة استانلي لهذا الملك في سنه ١٨٧٥ أدت إلى دخول إرساليات مسيحية في السنة التالية، واضمحلت قوة المسلمين في هذه الدولة بالزيادة السريعة في عدد المتنصرين وقيام الحماية الإنجليزية هناك(١).

ولكن لا يزال في أوغندا عدد من المسلمين يشغلون مراكز هامة، ومن المقرر أن دخول الولاية الشرقية في الإسلام أمر ممكن. ويقال أن عدداً ضخما من ذوي النفوذ في بلاد بوسوجا **Busoga** الغنية، الواقعة في شمال أوغندا، والتي تخضع لإنجلترا، قد دخل في الإسلام عام ١٩٠٦(٢). ومع هذا الاستثناء، كان الإسلام في إفريقية الاستوائية الشرقية حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر منحصراً في البلاد الساحلية وما يتاخمها من البلاد، وقد يبدو تفسير ذلك، في أنه لم يكن في مصلحة جلاب الرقيق أن ينشروا الإسلام بين القبائل الوثنية التي يأخذون من بينهم ضحاياها التاعسين، إذ لو تحولت هذه القبائل إلى الإسلام، لتآخت معهم في الدين، ولا استحالت الإغارة عليهم واسترقاقهم(٣).

الإسلام في إفريقية الشرقية: ولما منعت تجارة الرقيق لانتشار الحكم الأوربي في إفريقية الاستوائية الشرقية، تلا ذلك توسع كبير في نشاط الدعوة الإسلامية، وتوطد السلام والنظام في الجهات الداخلية، ومدت السكك الحديدية وأنشئت الطرق، وحينئذ استطاع التاجر المسلم أن يشق طريقه في مناطق كانت مغلقة في وجهه حتى ذالك الحين. وقد اختارت إدارة هذه البلاد موظفيها من بين أكثر سكان المسلمين ثقافة؛ فأنشأت حكومة إفريقية الشرقية (الألمانية) آلافًا من الوظائف، أسندتها إلى موظفين من المسلمين، استغلوا نفوذهم في إدخال قرى بأجمعها في الإسلام(٤). وكان معلمو مدارس الدولة مسلمين كذلك، وفي وقت مبكر يرجع إلى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، لوحظ أن معلمي المدارس من السواحلية، يقومون بنشاط حي ناجح في نشر الدعوة بين أهالي بندئي ووديجو **Bondéi and the Wadigo** (الذين يسكنون في الداخل على مسافة

---

(١) Roscoe. P. 229 sq.

(٢) Zwemer, p. 236 ويذكر جيردنر Gairdner (ص ٢٦) أن عدد المسلمين يبلغ ٢٠٠,٠٠٠ من مجموع السكان البالغ عددهم أربعة ملايين، ولكنه لم يبين من أي مصدر استقى هذه الأرقام، ويذكر روسكو (ص ٦) أن مجموع سكان أوغنده لا يتجاوز مليوناً واحداً تقريباً.

(٣) Richer pp. 146-7, 154. Merensky, p. 156. Klamroth, p. 4.

(٤) R. du M. M., vol. ix. 1909. p. 322.

قصيرة من الساحل) في إفريقية الشرقية الألمانية[١]. ولكن نشاط هذه الحركة الجديدة من نشر الدعوة أصبح يسترعي النظر إلى حد كبير في الجهات الداخلية[٢] في مستهل القرن العشرين، وخاصة بعد القضاء على ثورة ١٩٠٥ في إفريقية الشرقية الألمانية. وقد سايرت حركة التوسع في نشر الدعوة هذه بصفة خاصة، السكك الحديدية والطرق التجارية الكبيرة. فانتشرت في خط مستقيم عبر إفريقية الشرقية الألمانية حتى حدودها الغربية على بحيرة تنجانيقا، وانتشرت نحو الشمال من سمبارا **Usambara** إلى مقاطعة كلمنجارو، ونحو الجنوب حتى بحيرة نياسا[٣] وكان الذين قاموا بنشر هذه الدعوة من التجار، وخاصة أهالي الساحل، من السواحلية والجنود وموظفي الحكومة[٤]. وينظر الوثنيون هناك إلى قبول الإسلام على أنه دليل على الترقي إلى الحضارة ومنزلة اجتماعية أرفع مما هم فيها؛ ويقال إن الازدراء الذي كان ينظر به المسلمون إلى الوثنيين طالما كان عاملاً حاسماً في تحويلهم إلى الإسلام[٥]. ونستطيع أن نتخذ مثالاً لتأثير هذا الإحساس من سمبارا الغربية، التي قيل أنها كانت لا تزال في سنة ١٨٩١ موحدة في وجه الإسلام، وكان شعور الرؤساء والشعب كليهما شعورا عدائياً نحو المسلمين، فكانوا يكرهونهم ويخافونهم باعتبارهم تجار رقيق؛ ولكنه لما انتهى عهد تجار الرقيق وأنشئت إدارة منظمة كان أول من عين من الموظفين كلهم تقريباً من المسلمين. وقد أثر هؤلاء في الزعماء والشخصيات المهمة التي اتصلت بهم إلى حد أن الدخول في الإسلام كان هو التصرف الصحيح للذين اشتغلوا في الدوائر الرسمية، وبذلك نجحوا في أن يُدخلوا في الإسلام بعضًا من الزعماء أعظم من هؤلاء الذين نجدهم قد أثروا فيما بعد مثل هذه التأثير في زعماء أقل منهم منزلة[٦]. ويظهر أن هناك شواهد قليلة على نشاط دعاة محترفين أو نشاط أية فرقة من الفرق الدينية، ولكن الشواهد لا تعوزنا على وجود جهود منظمة في نشر الدعوة، كتلك الجهود التي قام بها معلم، ذكر أنه كان يزور منطقة في بلاد كلمنجارو كل أسبوع زيارة منظمة، وظل على ذلك خمسة شهور يدعو إلى الإسلام، وقد رحب بجهوده الأهالي الذين كان يقيم لهم ولائم يقدم لهم فيها طعام الأرز وغيره[٧]. ومما يلفت النظر في هذه الدعوة الحماسية أن الدعاة لم يقصروا اهتمامهم على الوثنين وحدهم، بل سعوا أيضاً لكسب متحولين إلى الإسلام من بين الأهالي المسيحيين[٨].

وقد شق الإسلام طريقه إلى نياسالاند من الساحل الشرقي أيضاً، ودخلها على أيدي النخاسين من العرب وحلفاؤهم الياوس **Yaos**، الذين جاء أجدادهم من مكان قريب من الساحل الشرقي، حيث كانوا قد

---

(١) Oscar Bamann: Usarmhar and seine Nachbargebiete, pp. 114, 153. Berlin, 1891.

(٢) Becker, Islam in deutsch-Ostaefrika, 10.

(٣) Id. p. 13 sqq. Klamroth, Id. 14- 28.

(٤) Id. p. 53.

(٥) Klamroth, pp. 21, 25, 54.

(٦) Id. pp. 23-4.

(٧) Klamroth, p. 26.

(٨) Id. p. 67.

اعتقدوا الإسلام منذ زمن بعيد. ويقال أنه من النادر أن نرى الآن عربياً في نياسالاند، ولكن الياوس يؤلفون قبيلة من أقوى القبائل الوطنية، وينظرون إلى الإسلام على أنه دينهم القومي. ومع أنه لا تبدو هناك دعوة منظمة، انتشر الإسلام بسرعة فائقة إبان العقد الأول من القرن العشرين، وكان انتشاره بين القبائل التي تعد من أشد القبائل ذكاء في نياسالاند(١).

قبائل الجلا والسومال: سجل الإسلام مثل هذا النجاح بين قبائل الجلا والسومال. وقد ذكرنا من قبل استيطان الجلا بالحبشة؛ ومن المحتمل أن هؤلاء المهاجرين، الذين ينقسمون إلى سبع قبائل، تسمى بالولو جلا، وهو اسم الجنس الذي ينتمون إليه، كانوا جميعاً وثنين في وقت إغارتهم على هذه البلاد(٢)، ولا يزال جزء كبير منهم على الوثنية حتى يومنا هذا وبعد أن استقروا في الحبشة لم يلبثوا أن تأقلموا فيها، واتخذوا لأنفسهم، في كثير من الأحيان، لغة سكان البلاد الأصليين وتعودوا عادتهم وتطبعوا بطبائعهم(٣).

أما قصة دخولهم في الإسلام فيكتنفها الغموض. فبينما يقال أن بعضهم أدخلوا كرهاً في الديانة المسيحية، نجد أن عدم وجود أية سلطة سياسية في أيدي المسلمين يدحض إمكان القيام بأي نشاط في تحويل الناس إلى الإسلام على هذا النحو. وفي القرن الثامن عشر قيل إن معظم الذين في الجنوب يعتقدون الإسلام، أما الذين كانوا في الجهات الشرقية والغربية فمعظمهم وثنيون(٤). وتشير أخبار أحدث من تلك إلى زيادة أخرى، في عدد أتباع النبي. وفي سنة ١٨٣٧ تنبأ مونتسينجر **Munzinger** بأن كل القبائل الجلا ستدخل في الإسلام في مدة قصيرة(٥). وإذ قد قيل عنهم "إنهم متعصبون جداً"، فإنا نستطيع أن نستنتج أنهم لم يكونوا بحال ما غير متحمسين أو متراخين في اعتقادهم هذا الدين(٦). ولا شك أن هذا الرجل المعتق الذي ينتمي إلى الجلا والذي قابله داوتي **Daughty** في خيبر قد أظهر درجة عظيمة من الحماسة نحو دينه. وكان هذا الرجل قد انتزع من بلده في طفولته وبيع بيع الرقيق في جدة؛ فلما سأله داوتي: ألا يزال يضمر السخط نحو هؤلاء الذين

---

(١) Becker: Islam in Deutsch-Ostafrika, p. 14. The Moslem World. Vol ii. P. 3 sqq

(٢) ويظهر في حقيقة الأمر أن وصفاً حبشياً معاصراً لهذه القبائل في كتاب:
Geschichte der Galla. Bericht eines abessinischen Mönches über die invasion der Galla in sechzehnten Jahrhundert. Text und Uberstzung hrsg. Von A. W. Schleichler Berlin، 1893.

يصور هذه القبائل على أنهم وثنيون، على الرغم من أنه لم يرد عن ديانتهم أخبار مفصلة على أن ركلوس Reclus tome x.p. 330 يزعم أنهم كانوا مسلمين وقت قيامهم بالغزو.

(٣) Henry Salt: A Voyage to Abyssinia, p. 299. London, 1814.

(٤) James Bruce: Travels to discover the source of the Nile, 2nd ed. Vol. iii. P. 248. Edinbrgh, 1805.

(٥) Munzinger, p. 408.

(٦) J. L. Krapf: Resen in Ost-Africa, ausgeführt in den Jahren 1837-55, vol. i. p. 106. Kornthal, 1858.

سرقوه وأسلموا حياته للعبودية في أقاصي الأرض، أجاب: "إن شيئاً واحداً قد عوضني،- وهو أني لم أعد غارقاً في الجهل بين عبدة الأوثان! ما أعجب عناية الرحمن! تلك التي جئت بفضلها إلى بلاد الرسول هذه، وتوصلت بها معرفة الدين!"(١). "آه! ما أشد حلاوة الإيمان! صدقني أيها الرفيق العزيز، إنه أمر يعجز كل قلب عن الإفصاح عنه، كم أتمنى أن يهديك الله إلى تلك المعرفة السماوية؛ ولكني موقن أن الله سيرعاك حتى لا تهلك قبل أن تدخل في هذا الدين. حقاً ما أجمل أن أراك مسلماً، وأن تصبح واحداً منا؛ ولكني أعرف أن الأجل بيد الله. يفعل ما يشاء(٢)".

وبعض السكان، في قبائل الجلا التي تقيم في بلاد الجلا الصميمة، مسلمون (إذ كانت بعض القبائل قد تحولت إلى الإسلام حول ١٥٠٠)(٣)، وبعضهم الآخر وثنيون، ما عدا تلك القبائل على حدود الحبشة مباشرة، والتي أرغمها ملك هذه البلاد على انتحال المسيحية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر(٤)، والمسلمون بين الجبال قلة، أما في السهول، فقد صادف دعاة الإسلام نجاحًا رائعًا، ولقيت تعاليمهم قبولاً من الناس أخذ ينمو نموًا سريعًا في خلال القرن الماضي. ويذكر أنطونيو ستشى **Antonio Cécchi** الذي زار مملكة ليمو الصغيرة في سنة ١٨٧٨، قصة عن إسلام أبا باغيبو(٥) **Abba Baghiob**، والد الأمير الذي كان يحكم إذ ذاك، على أيدي مسلمين ظلوا عدة سنين يجدون في نشر الدعوة في هذه البلاد في زي التجار. وقد حذا حذوه رؤساء ممالك الجلا المجاورة ورجال حاشيتهم، وظفرت العقيدة الجديدة بعدد من العامة كذلك، واستمرت تتقدم بينهم، ولكن السواد الأعظم منهم كان يتشبث بعبادته القديمة(٦). وقد لقى هؤلاء التجار ترحيباً حارًا في بلاط رؤساء الجلا، لما وجدوه هناك من سوق لاستبدال حاصلات البلاد التجارية بسلع مستوردة من المصنوعات الأجنبية. ولما كان هؤلاء التجار يرتحلون إلى الساحل مرة واحدة كل عام أو مرة فقط كل عامين، وكانوا يقضون كل ما بقي من الوقت في بلاد الجلا، لذلك كانت لديهم فرص كثيرة عرفوا جيداً كيف ينتهزونها للعمل في نشر الدعوة الإسلامية، وحيثما وضعوا أقدامهم كان من المؤكد أن يظفروا بعدد كبير من الداخلين في الإسلام في مدة قصيرة من الزمن(٧). وقد دخل الإسلام هنا في نزاع مع مبشرين مسيحيين من

---

(١) Arabia Deserta, vol. ii. P. 168.

(٢) Id. vol. ii. P. 109.

(٣) Morié, vol. ii. P. 248.

(٤) Reclus, tome x.p. 309. Basset, pp. 270-1.

(٥) عندما أنشأ الرومان الكاثوليك إرسالية بين قبائل الجلا في سنة ١٨٤٦، قال لهم أبا باغيبو: "لو أنكم قدمتكم منذ ثلاثين سنة، لاعتقدت دينكم، بل لاعتقده جميع بنى وطني؛ ولكن تحقيق ذلك الآن من المحال". Massaja, vol, iv. P. 103.

(٦) De Zella alle frontiere del Caifa, vol ii. P. 160. Rome, 1836-7 Massaja, vol. iv. P. 103; vol. vi. P. 10.

(٧) Massaja, vol.iv. p. 102.

أوربا، صادفت جهودهم نجاحاً قليلاً جداً[١]، على الرغم مما ظفروا به من تنصير نفر قليل – وحتى الذين نصرهم الكردينال ما ساجا **Cardinal Massaja** فإنهم (بعد أن طرد من هذه البلاد) إما أسلموا، أو انتهوا إلى عدم الإيمان لا بالمسيح ولا بالله[٢]، – بينما حقق الدعاة المسلمون نجاحًا مستمرًا، وشقوا طريقهم بعيداً نحو الجنوب، وعبروا نهر وابي[٣]. وكانت غالبية قبائل الجلا التي تقيم في غرب بلاد الجلا لا تزال وثنية قبيل نهاية القرن التاسع عشر، ولكن يبدو أن عبادة الطبيعة القديمة بين الذين كانوا في أقصى الغرب، ونعني بهم الليجا[٤]، كانت في طريقها إلى التدهور؛ وقد جعل تأثير الدعاة المسلمين الآخذ في النمو ودخل كل قبائل الليجا في حظيرة الإسلام في مدى سنوات قليلة، أمراً محتملاً[٥].

وإن إفريقية الشمالية في الوقت الحاضر لتمثل لنا حقاً صورة لنشاط ذي حيوية وحماسة رائعتين في نشر الدعوة من جانب المسلمين. وتفد من بلاد العرب عدة مئات من الدعاة كل عام. هم أيضاً أكثر نجاحاً في جهودهم بين قبائل السومال منهم بين الجلا[٦]. ولابد أن يكون القرب الشديد بين السومال وبلاد العرب قد جعل الأولى، في زمن مبكر، مسرحاً لنشاط الدعوة الإسلامية؛ ولكن يظهر لسوء الحظ أن ما دون عن أخبار هذا النشاط قليل. وقد ذكر ابن حوقل[٧] أن أهالي زيلع كانوا مسيحيين في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، ولكن أبا الفداء يتحدث عنهم في النصف الأول من القرن الرابع عشر على أنهم مسلمون[٨]. ومن المحتمل أن تجاراً من العرب اللاجئين إلى السومال هم الذين حملوا الدين عبر البحر. وتشيع لدي السوماليين أسطورة تقول بأن عربياً عريقاً في الأصل، أجبر على أن يغادر بلاده فعبر البحر إلى عدن، حيث دعا إلى الدين الإسلامي بين أجدادهم[٩]. وفي القرن الخامس عشر جاءت من حضرموت جماعة تتألف من أربعة وأربعين عربياً يدعون إلى الإسلام، فنزلوا في بربرا على البحر الأحمر، ومن هناك انتشروا في بلاد السومال ليدعوا إلى الإسلام. وقد شق أحدهم، وهو الشيخ إبراهيم أبو زرباي طريقه إلى مدينة [illegible]رر حول سنة ١٤٣٠، واكتسب

---

(١) يقول ستشى وهو يتحدث عن إخفاق الإرساليات المسيحية: "يجب البحث عن سبب هذا في انتشار الإسلام هنا، في هذه السنوات الأخيرة، الذي حمله مئات من رجال الدين والتجار المسلمين، الذين لم يعوزهم المال واللياقة والتمكن من اللغة" Op. eit. Vol ii. P. 342.

(٢) Id. p. 343.

(٣) Reclus, tome xiii. P. 834.

(٤) يوجد الليجا من خط طول ٩° إلى ٩,٣٠° ومن خط عرض ٣٤° ٣٥° إلى ٣٥ شرقًا.

(٥) Reclus, tome. X. p. 350.

(٦) Panlitschks, pp. 330-1.

(٧) ابن حوقل ص ٤١.

(٨) أبو الفدا جـ١ القسم الأول ص ٢٣١– ٢٣٢.

(٩) Doeuments sur l'histoire, la géographie et le commerce de Afrique Orientala, secuellis par M. Guillan. Deuxiéme partie, tome i. p. 399. paris, 1856.

هناك كثيرين من الذين تحولوا إلى الإسلام، ولا يزال قبره موضع تعظيم في هذه المدينة. وهناك بالقرب من بربرة جبل لا يزال يسمى جبل الأولياء تخليداً لذكري هؤلاء الدعاة، الذين يقال إنهم كانوا يجلسون هناك في خلوة مقدسة قبل أن ينتشروا في طول البلاد وعرضها لتحويل الناس إلى الإسلام(١). وقد ساد الإسلام شيئاً فشيئاً في جميع أنحاء إفريقية الشمالية الشرقية، ولكن تزايد نفوذ الإمبراطور منليك واحتلاله هرر في سنة ١٨٨٦ أدى إلى تحول عدد معين من الأهالي إلى المسيحية(٢).

في مستعمرة الكاب الساحلية: ولكي نستكمل هذه الوصف الخاص بانتشار الإسلام في إفريقية، لا يبقى إلا أن نشير إلى هذه الحقيقة، وهي أن الدين قد شق طريقه إلى أقصى الجنوب من هذه القارة، ونعني مستعمرة الكاب. ومسلمو الكاب هؤلاء الذين هم من سلالة أهل الملايو، جاء بهم الهولنديون(٣) إلى هذه البقعة أما في القرن السابع عشر أو الثامن عشر(٤)، وهم يتكلمون لهجة محرفة من لغة البوير، مع خليط كبير من اللغة العربية، وبعض كلمات إنجليزية وكلمات من لغة الملايو. وهناك كتاب صغير عجيب، مؤلف بهذه اللهجة ومكتوب بحروف عربية، وقد نشره وزير المعارف التركية في القسطنطينية سنه ١٨٧٧، ليستعمل كتيباً صغيراً لتعليم قواعد الدين الإسلامي(٥). وإن الأسماء الهولندية الصرفة التي يتسمى بها بعضهم، وملامح الوجه التي تلاحظ في كثير منهم، ليدل على احتمال أنهم تلقوا في مجتمعهم في وقت ما بعض أشخاص من أصل هولندي، أو أن بدمائهم على الأقل مزيجا كبيرًا من الدم الهولندي. وكذالك اكتسبوا بعض متحولين إلى الإسلام من بين الهوتنتوت **Hottentots**. و لم يكتب عنهم الرحالون الأوربيون(٦). بل إخوانهم في الدين، حتى الأيام الأخيرة، إلا مذكرات قليلة. وفي سنه ١٨١٩ لفت كوليروك الأذهان إلى نمو الإسلام، في بعض مذكرات ممتعة كتبها عن مستعمرة الكاب، قال: " يقال إن الإسلام يتقدم بين العبيد السود والأحرار من أهالي الكاب، ونعني بذلك، أن الذين تحولوا من الوثنية إلى الإسلام من بين الزنوج والسود على خلاف أنواعهم كانوا أكثر عددًا

---

(١) R. F. Buiton: First Footprints in East Africa, pp. 76, 404. London, 1356.

(٢) R. du M. M., vi. p. 283. 1908.

(٣) كان الرجاء الصالح في حوزة الهولنديين من سنة ١٦٥٢ إلى سنة ١٧٩٥؛ ولما استردوه بعد صلح أميان Peace of Ameins في سنة ١٨٠٢، احتلها البريطانيون من جديد بمجرد نشوب الحرب مرة أخرى.

(٤) وكان من بين هؤلاء الشيخ يوسف، وهو معلم دين ذو نفوذ عظيم في جاوة وآخر أبطال استقلال بتنام. وفي سنة ١٦٩٤ ساقه الهولنديون سجين دولة إلى مستعمرة الكاب، هو وعائلته، وكثير من أتباعه. ولا يزال ضريحه يعد مكانًا مقدسًا.

G. M. Teal: History and Ethnography of Africa south of the Zambesi، vol. ii. P. 263. London، 1909.

(٥) M. J. de Goeje: Mohammedansche Propaganda, pp. 2,7. Overgedrukt uit de Nederiandsche spector, No. 51, 1881.

(٦) وقد نبه شخص يدعى كامبيل الأذهان إليهم في سنة ١٨١٤.

William Adams: The Modern Voyager and Traveller, vol. i. p. 93. London. 1834.

من الذين تحولوا من الوثنية إلى المسيحية، وهذا على الرغم من الجهود القوية التي يبذلها مبشرون أتقياء، وقد ثبت أن النفور الشديد الذي أبداه السادة من تعميد عبيدهم كان سببًا من أسباب هذا التحول؛ وقد نشأ ذلك من بعض أفكار خاطئة أو من فرط تخويفهم من الحقوق التي ينالها العبد الذي يُعَمّد. ولا شك أن العبيد متأثرون بفكرة بقاء هذا النفور، و لم يكن من النادر أن يجيب العبد إذ ما سئل عن بواعث تحوله إلى الإسلام، بإنه يجب أن يكون له دين، وأنه لم يسمح له بأن يتنصر. والتعصب في هذا الأمر أخذ في الزوال، وقد قلت الآن معارضة هؤلاء السادة في تنصير العبيد عما كان من قبل. وقد ثبت أن السادة أخذوا يدركون أن العبيد لا يسيئون استعمال التعاليم التي يتلقونها في واجبتهم الدينية. وهناك جموع آخذة في الزيادة على أيدي المبشرين (ويوجد في كل بلد من البلدان الرئيسية) وواحد ممن كرسوا جهودهم على تثقيف العبيد ثقافة دينية، ويأمل المبشرون ألا تكون جهودهم غير مثمرة. ولكن الداعية المسلم حول جموعاً أكبر بمجهود أقل من مجهود المبشرين"[١]. وفي خلال الخمسين سنة الأخيرة كان يزور المسلمين في مستعمرة الكاب جماعة من بلدان أخرى من إخوانهم في الدين المتحمسين، وقد أثاروا الآن اهتمامهم بالتعليم أكثر مما مضى، وبعثوا بينهم حياة دينية أعمق من تلك التي كانوا يحبونها، ويقال إنهم يقومون بدعوة حماسية، وخاصة بين الأهالي السود في الكاب، وأنهم حصلوا على نجاح محقق[٢]. وإن حركة نشر تعاليم الدعوة هذه قوية في الجزء الغربي من مستعمره الكاب خاصة. ويقال إن هناك حركة سائرة في طريق التنفيذ لتأسيس كلية في كلير مونت **Claremont** بجوار مدينة الكاب، وأنها ستصبح مركزاً لنشر الدعوة الإسلامية. ومن الوسائل التي تستغل الآن تبني الأطفال الشاردين أو المهملين وتنشئتهم على دين الإسلام[٣]. ويحج فريق منهم كل عام إلى مكة، حيث يعين لهم شيخ خاص للإشراف عليهم[٤]. وكذلك يقال إن عمال الهنود الذين يأتون للعمل في حقول ماس في إفريقية الجنوبية دعاة للإسلام.

ولما كانت جزيرة مدغشقر في مكان منعزل، على بعد يتراوح مابين ٢٢٠ ميلاً و٥٤٠ ميلاً من الأراضي الأصلية، فإنها تستدعي انتباهاً خاصًا. وإن القبيلة الوحيدة التي أسلمت هي قبيلة انتيمورونا **Antaimorona**، التي تحتل جزء من الساحل الجنوبي الشرقي، ولا شك أن تحولهم إلى الإسلام كان على يد دعاة من بلاد العرب، ولكن الوقت الذي تم فيه التحول مجهول لنا تماماً، وربما أرجعته الأساطير إلى عهد

(١) Sir T. E.Colebrooke: The Life of H. T. Colebrooke, p. 335. London, 1873.

(٢) F.Coilliard: Au Cap de Bonne Espérance. Journal des missions evangéliques, avril 1899,) p. 265.

(٣) Kumm, p. 233.

(٤) C.Snouck Hurgronje (3), vol. ii. Pp. 296-7.

الرسول نفسه، ولكنا لم نحصل إلا في القرن السادس عشر[١] على معلومات موثوق بها عن المسلمين في هـذه الجزيرة، وذلك فيما كتبه الجغرافيون من الطليان والبرتغاليين[٢].

أساليب الدعاة في نشر الدعوة: ومن هذا الوصف التاريخي المجمل نستطيع أن نرى الأساليب السلمية كانت الطابع الغالب على حركة نشر الدعوة الإسلامية في إفريقية، مع أن الإسلام كثيراً ما أشـهر السـيف كأداة يستعين بها على تقدم فتوحاته الروحية، نجد أن مثل هذا الالتجاء إلى القوة وسفك الدماء كان يسبقه في معظم الحالات جهود سلمية في نشر الدعوة، كان الداعية يتعقب الفاتح ليكمل النقص في تحويـل النـاس إلى الإسلام. والحق أن نجاح الرواد المسلمين نجاحًا دنيويًا سهل إلى حد كبير جداً نجاح الإسلام في جهات كثـيرة من إفريقية، كما سهله تأسيس دولة إسلامية على أنقاض دولة وثنية. وإن النار وسفك الدماء طالما ميزا خطـة الجهاد، التي دبرت لاستئصال شأفة الكفار. وإن كلمات الشاب المسلم الذي كان من برنـو والـذي قابلـه الكابتن بورتن **Burton**[٣] في قصر الملك أبيكوتا **Abeokuta**، لتعبر بدون شك عن مطـامع كثـيرين مـن مسلمي إفريقية: "أعطنا هذه البنادق وهذا البارود. ندخل في الحال هذه الكلاب في الإسلام". ويتردد صـدى هذه الكلمات في الرسالة التي يوردها منجوبارك[٤] **Mango Park** باعتبارها مرسلة من ملك فوتـه تـورو **Futah Toro** المسلم إلى جاره الوثني: "بهذه السكين سيترل عبد القادر ويحلق رأس دامل، إن دخل دامل في الإسلام؛ وبهذه السكين الثانية سيدق عنق دامل إن أبى يدخل هذا الدين، فاختر لنفسك".

ولكن بقدر ما يمكن أن يعزى الإسلام إلى البسالة الحربية التي قام بها أمثال هؤلاء المتعصبين، لدينا الدليل القاطع الذي شهد به الراحلون وغيرهم على الدعوة بالطرق السلمية وقيام الداعي المسلم بأعمال تنطوي على الرفق والأناة، تلك الأعمال التي عملت في سبيل انتشار الإسلام سريعًا في إفريقية الحديثة، أفضل مما عمـل أي أسلوب من أساليب العنف. وربما استأصل الإسلام حقاً شأفة مقاوميه بالأساليب الأخيرة، ولكنه عن طريـق الأولى بصفة خاصة أنجز عملية تحويل الناس إلى الإسلام، ولعل نشاط التحول لا يزال يتقـدم في كثـير مـن الأقاليم الساحلية والداخلية[٥]. وحيثما شق الإسلام طريقه، نجد هناك الداعي المسلم حاملاً الدليل لعقائد هذا الدين، – فالتاجر سواء كان من العرب أو من البول أو الماندنجو، يجمع بين نشر الدعوة وبيـع السـلعة، وإن مهنته وحدها لتصله صلة وثيقة مباشرة بأولئك الذين يريد أن يحولهم إلى الإسلام، وتنفي عنه كل ما يحتمل أن

---

(١) Jacques Bonzon: Les Missionaires de l'Islam en Afrique. Revue Chrétienne, tome xiii. P. 295. paris, 1893.

(٢) G. Ferraud, Les musulmans á Madagascar. Pp. 19, 50 sqq. 138. Paris, 1891. Id. Les Migrations Musulmanes et Juives á Madagsaéar. Revue de l'Histoire des religions, vol. iiii. P. 381 sqq.

(٣) Richard F. Burton (1), vol. i. p. 256.

(٤) Travels in the Interior of Africa. Chap. Xxv. Adfin.

(٥) D.J. East pp. 118-20 W. Winwood Reade, vol, i. p. 312 Blyden, pp. 13, 202.

يتهم به من دوافع شريرة، وإذا ما دخل مثل هذا الرجل قرية وثنية فسرعان ما يلفت الأنظار بكثرة وضوئه، وانتظام أوقات الصلاة والعبادة، التي يبدو فيها كما لو كان يخاطب كائناً خفياً. وإن ما يتحلى به من سمو عقلي وخلقي ليفرض احترامه والثقة به على الأهالي الوثنين، الذين يبدو لهم في نفس الوقت استعداده ورغبته في مدهم بمزاياه ومعارفه السامية؛- والحاج الذي عاد من مكة مليئاً بالحماسة من أجل نشر العقيدة؛ التي يقف عليها كل جهوده، متنقلاً من مكان إلى آخر، يعيش على صدقات المؤمنين الذين يحملون الدليل على الحق بين جيرانهم الوثنيين- وطالب العلم الذي يلقى تكريماً باعتباره رجل علم تفقه في الدين والشريعة الإسلامية، بل أحياناً يزاول الطب، أو على الأقل يكون ذا مهمة عظيمة باعتباره كاتب تعاويذ- وآيات من القرآن، تطوى في قطع من الجلد أو القماش وتعلق على الأذرع أو حول العنق، وهي مهمة يستطيع أن يستغلها كوسيلة لإكثار عدد المتحولين إلى الإسلام مثال ذلك أنه حينما تطلب منه هذه التعاويذ النساء العواقر أو اللتي فقدن أولادهن أطفالاً، يفرض عليهن، شرطاً لنجاح هذه التعاويذ، أن ينشئن أطفال المستقبل على الإسلام[1]. هؤلاء المعلمون الدينيون أو المرابطون أو الألوفا **Alofas** كما يطلق عليهم بحسب اختلاف أسمائهم، يحظون بأوفى نصيب من التقدير. وفي بعض قبائل إفريقية الغربية تضم كل قرية داراً لاستقبالهم، ويعاملون بأعظم مظاهر الاحترام والتقدير، ففي دارفور يحتلون أعظم مكانة بعد هؤلاء الذين يشغلون مناصب الحكومة، كما يحتلون بين المندنجو مكانة أعظم شاناً وينالون احتراماً يلي احترام الملك، ويعتبر الرؤساء التابعون لغيرهم أقل منهم هيبة. وفي تلك الدولة التي اتخذ فيها القرآن أساساً للحكم في كل المسائل المدنية، تحتاج الدولة لخدماتهم احتياجًا شديدًا لكي يفسروا معاني القرآن. وقد بلغ من إجلال الناس لأشخاص هؤلاء المعلمين، أنه لا يتعرض لهم أحد حين يجوثون خلال إمارات لا يعادي بعضها بعضًا فحسب، بل يتقاتلون مع بعض في حرب فعلية. ويبجلهم الناس مثل هذا التبجيل، لا في البلاد الإسلامية وحدها، بل في القرى الوثنية، التي يؤسسون فيها مدارسهم، حيث يحترمهم الناس باعتبارهم معلمي أبنائهم، ويعتبرونهم واسطة بينهم وبين الله سواء في الحصول على حاجاتهم، أو في درء المصائب وصرفها عنهم[2]. وقد درس كثير من هؤلاء المعلمين في مساجد القيروان وفاس وطرابلس[3] وغيرها من مراكز الثقافة الإسلامية؛ ولكنهم درسوا بصفة خاصة في الجامع الأزهر بالقاهرة. ويهرع الطلاب إلى هذا الجامع من كل بقاع العالم الإسلامي، ومن بينهم في الغالب جماعة من زنوج إفريقية،- وطلبة من دارفور ووادي وبرنو، بل يشق فريق من المسلمين طريقه سيراً على الإقدام من أقاصي الساحل الغربي؛ فإذا ما أتموا دراستهم في الدين والشريعة الإسلامية، صار كثيرون منهم دعاة بين أهالي بلادهم الوثنين. وينشئ هؤلاء الدعاة في المدن التي يزورونها مدارس يختلف إليها الأطفال الوثنيون والمسلمون على

---

(١) Bishod Crowther on Islam in Western Africa (Church Missionay Intelligencer, p. 254, April, 1888).

(٢) D. J. East, pp. 112- 13. Blyden, p. 202.

(٣) ويقال إن ما يربو على ألف داع من دعاة الإسلام، يغادرون طرابلس كل سنة للعمل في السودان. (Paulitschke, p. 331)

سواء، فيحفظون القرآن ويتفقهون في عقائد الإسلام وشعائره، فإذا ما نجح الداعي المسلم، على هذا النحو، بما له من حظ موفور من العلم والمعرفة الساميتين، فإنه لا يتوانى عن أن يؤثر تأثيرًا كبيرًا في الأهالي الذين جاء يعيش بينهم، ويساعده على ذلك أن عاداته وطباعه في الحياة تشبه عاداتهم وطباعهم في كثير من الوجوه. وما دام التاجر قد مهد له الطريق من قبل فلا يرتاب فيه الأهالي: وبالتزاوج مع السكان الذين يرحبون بدخوله في نظامهم الاجتماعي، يتوطد نفوذه ويستقر، وهكذا تنشر بينهم معارف الإسلام شيئا فشيئاً وبطريقة طبيعية إلى أبعد حد.

وقد زاد من تيسير جهود الداعي في نشر الدعوة أن الاعتقاد بوجود الله مع إنكار الوحي والأديان **Deism**، وهو أساس الشعور الديني عند كثير من عبدة الأوثان، يمكن أن يتحول، في سهولة، إلى عقيدة التوحيد عند المسلمين، وكذلك الحال في بعض مظاهر أخرى في فلسفتهم الدينية. وهكذا نجد أن نظرتهم العامة في الحياة وكثيراً من شرائعهم الدينية قابلة لأن تصطبغ بصبغة إسلامية، وأن تتحول إلى نظام الدين الجديد دون إجراء تغيير كبير(١).

وإن نزول المسلمين من بلاد وثنية هو كذلك إيذان بفتح باب للتجارة أوسع مدى وانتشاراً، وبالاتصال بمراكز إسلامية تجارية كبيرة من أمثال جني أو سجو **Sego** أو كانو **Kano**؛ كما أن هؤلاء المسلمين قدموا إلى الأهالي نصيبًا من مزايا هذه الحضارة المادية مع الدين الإسلامي. ومن ثم "قد يكون الداعية بين القبائل الزنجية غير المتحضرة على ثقة دائماً من الاستجابة السريعة، فهو يستطيع أن يمدهم بكثير من الحقائق المتعلقة بالله والإنسان تصل إلى القلب وتنمي الإدراك، بل يستطيع إلى جانب ذلك أن يمنحهم ترخيصًا بالدخول في وحدة اجتماعية سياسية؛ تخولهم حق الحماية والمساعدة في مسافة تمتد من المحيط الأطلسي إلى سور الصين. وحيثما يستطيع المسلم أن يجد هناك داراً إسلامية يجد الأسود الذي تحول إلى الإسلام والذي يستطيع أن يردد أركان عقيدته الإثنى عشر واثقًا من المأوى والقوت والنصيحة؛ وسرعان ما يجد نفسه، في بلاده، عضوًا في طبقة ذات نفوذ إن لم يكن في الطبقة السائدة. ويبدو أن هذا هو السر الحقيقي في نجاح الدعاة المسلمين في إفريقية الغربية. أما عدد المتحولين إلى الإسلام، فإنه كان كبيرًا، سريعًا في التحول، وذلك لسبب واضح هو أن الداعي المسلم كان منذ اللحظة الأولى التي يعترف فيها المتحول إلى الإسلام بالعقيدة، يسير سيراً عملياً على المبادئ القائمة على إخاء المؤمنين جميعًا وتساويهم أمام الله، وهى مبادئ يشترك فيها الإسلام مع المسيحية؛ غير أن هذا الداعي المسلم، بصفة عامة، أسرع وأحسم في القيام بهذا العمل من المبشر المسيحي الذي يشعر في أغلب الأحيان بأنه مضطر إلى المطالبة بدليل قوي على إخلاص المتنصر قبل أن يصافحه مصافحة التآخي في

---

(١) وللوقوف على بحث مستفيض لنقط هذا الاتصال، انظر:

Forget، p. 28 sqq. Merensky، p. 155.

المسيحية، والذي كان دائمًا يثير تعصباً جنسيًا لم يكن محتملاً أن يزول في جيل واحد، حيث كان يعد المسيحي الأبيض، طوال أجيال، سيدًا، كما كان يعد الوثني الأسود عبداً"(١).

ومن المهم، أيضًا، أن نلاحظ أن لون الزنجي وجنسه لم يحملا بأية حال إخوانه الجدد في الدين، على أن يتعصبوا عليه. ولا شك أن نجاح الإسلام قد تقدم في إفريقية الزنجية **Nigritia** تقدمًا جوهريًا بسبب عدم كل إحساس باحتقار الأسود – وفي الحق يظهر أن الإسلام لم يعامل الأسود قط على أنه من طبقة منحطة، كما كانت الحال، لسوء الحظ، في كثير من الأحيان، في العالم المسيحي(٢).

وإن هذه الملاحظة لتفسر إلى حد ما نجاح المسلم إذا ما قورن بالإرساليات المسيحية بين الشعوب الزنجية، ويتضح في أغلب الأحيان أن الأسود المتنصر يميل إلى الإحساس بأن أبناء دينه من الأوربيون ينتمون إلى لون من الحضارة لا يلائم طبائعه في الحياة، على حين يشعر في المجتمع الإسلامي بأنه أكثر تعلقاً به واطمئنانا إليه. وقد أجاد أحد المشاهدين المحدثين توضيح ذلك في الرسالة الآتية: "إن الإسلام على الرغم من تقصيره لا يتطلب من وجهة نظر أهل نيجريا؛ أن يفقد أحدهم قوميته باعتبار أن ذلك شيء يصحب الدخول في الإسلام، ولا يستلزم تغيرات انقلابيه في الحياة الاجتماعية. يستحيل تحقيقها في المرحلة الحاضرة من تطور أهل نيجريا؛ ولا هو يقود نفوذ الأسرة ولا سلطه الجماعة. وليست هناك هوة بين الداعي إلى الإسلام والمتحول إليه. فكلاهما متساوي أحدهما مع الآخر، لا نظرياً، بل عملياً، أمام الله. وكلاهما إفريقي؛ وهما من أبناء أرض واحدة. وينفذ مبدأ التأخي الإنساني تنفيذاً عمليا، ولا يعني الدخول في الإسلام أن ينصرف الداخل فيه عن شؤونه وأسرته وحياته الاجتماعية، ولا عن احترامه لسلطان حكام بلاده الأصليين... وليس هناك من لا

---

(١) Sir Bartle Frere (1), pp. 18-19.

(٢) E.W. Blyden, pp. 18-24. E. Allégret, p. 200. Westermann, pp. 644-5.

وفي مناظرة شائقة جداً، وإن كانت قد نسيت الآن، أمام الجمعية الأنثروبولوجية بلندن، حول موضوع "جهود المبشرين بين المتبريرين"، ذكرت حالة مبشر مسيحي في إفريقية، تزوج زنجية لذلك كان الشعور ضده، قوياً إلى حد أنه وجد نفسه مضطراً إلى مغادرة المستعمرة. أما الداعي المسلم فإنه يشتغل بدعوته غير متأثر بأمثال تلك المساوئ.

(Journal of Authropological Society of London, vol, iii. 1865).

وقد أجاد شخص كان نفسه زنجياً في توضيح الفارق بين الطريقة التي تقدم بها كل من المسيحية والإسلام إلى الإفريقيين، وذلك في العبارات الآتية: – "بينما تنسب البعوث التبشيرية قيام قساوسة من الوطنيين إلى عصر غير معين، نجد الدعاة المسلمين ينفذون إلى قلب إفريقية، ويصلون في سهولة إلى الوثنيين، ويحولونهم إلى الإسلام. وبذلك أصبح الزنوج اليوم ينظرون إلى الإسلام على أنه دين السود، والمسيحية على أنها دين البيض ويرون أن المسيحية تدعو الزنجي إلى الخلاص، ولكنها تضعه في مكان منحط إلى حد أنه يقول في نفسه وقد استولى عليه القنوط: ليس لي نصيب ولا حظ في هذا الدين. أما الإسلام فإنه يدعو الناس إلى الخلاص ويقول له: إن بلوغك أسمى الدرجات الممكنة إنما يتوقف عليك. ومن ثم أقبل الزنجي بدافع من الحماسة على هذا الدين بروحه وجسده"

L'islam et le christianisme en Afrique d'aprés un Africain. Journal des Mission Évangiliques. 63e année, p. 207. Paris, 1888.

يعجب بسلوك المسلم النيجيري ووقاره – بل بسلوك مسلمي إفريقية الغربية عامة؛ وأن هيئة الرجل العامة لتنم عن شعور بالقومية واعتزاز بالجنس، يخيل إليك أنه يقول: إن كلا منا يختلف عن الآخر، ولكننا جميعا بشر. وإن انتشار الإسلام الذي تشهده اليوم نيجيريا الجنوبية ليؤثر بصفة خاصة تأثيراً اجتماعياً. ويمنح الإسلام هؤلاء الذين يتصلون به منزلة أرقى وفكرة أسمى عن مكانة الإنسان من العالم المحيط به ويحررهم من ربق ألف من الأوهام الخرافية"(١).

وقد ورد في الروايات الإسلامية أن موسى كان رجلاً أسود، كما قد نتبين ذلك من الآيات القرآنية: **﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾** "سورة طه: آية ٢٢" **﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾** "سورة الأعراف: آية ١٠٥– ١٠٦". والقصة الآتية التي وصلت إلينا عن العصر الذهبي للدولة العباسية، مهمة باعتبارها شاهداً على شعور المسلمين نحو السود. كان إبراهيم بن المهديّ، أخو هارون الرشيد وابن إحدى الجواري، قد نصب نفسه خليفة في بغداد، ولكن المأمون الذي كان يحكم إذ ذاك (٨١٩م) هزمه وعفا عنه. ويقص إبراهيم قصة مقابلته مع الخليفة على النحو الآتي: قال لي المأمون وقد دخلت عليه بعد العفو عني: أنت الخليفة الأسود؟ فقلت: يا أمير المؤمنين! أنا الذي مننت عليه بالعفو؛ وقد قال عبد بني الحسحاس:

أشعار عبد بني الحسحاس قمن له عند الفخار مقام الأصل والورق

إن كنت عبدًا فنفسي حرة كرمًا أو أسود الخلق إني أبيض الخلَق

فقال لي: "ياعم! أخرجك الهزل إلى الجد". وأنشد :

ليس يزري السواد بالرجل الشهم ولا بالفتى الأديب الأريب

إن يكن للسواد فيك نصيب فبياض الأخلاق منك نصيبي(٢)

وعلي هذا النحو، سرعان ما يصبح الأسود المتحول إلى الإسلام مع المؤمنين على قدم المساواة، ولا يحول دون ذلك لونه أو جنسه أو أية ملابسة من ملابسات الماضي. ولا شك أن ما كان يلقاه السود الوثنيون من ترحيب المسلمين بدخولهم في الإسلام، هو الذي كان يرغبهم في الانضمام إلى مجتمع ديني تتطلب حضارته التي تفوق حضارتهم أن يؤثروا التخلي عن كثير من عاداتهم وطباعهم البربرية؛ ومما يساعد في نفس الوقت مساعدة كبيرة جداً على تفسير نجاح هذا الدين، أن مجرد الدخول في الإسلام يدل ضمناً على الترقي في الحضارة، وأنه خطوة جد متميزة في تقدم القبيلة الزنجية عقلياً ومادياً. وكانت القوى المحشودة جنباً إلى جنب مع العقيدة الإسلامية، تبلغ من القوة والبأس إلى حد أن البربرية والجهل والخرافة الدينية، تلك الأمور التي كان الدين يجد في القضاء عليها، لا تجد إلا فرصة يسيرة في إطالة المقاومة. وقد اتضح ما تقدمه حضارة إفريقية

---

(١) E. D. Morel: Nigeria, its people and its problems. pp. 216- 17. London, 1911.

(٢) ابن خلكان جـ ١ ص ١٨.

الإسلامية إلى الزنجي الذي تحول إلى الإسلام، وضوحاً يبعث على الإعجاب في العبارات الآتيـــة: "إن أقـــبح الرذائل وهي أكل لحوم البشر، وتقديم الإنسان قرباناً، ووأد الأطفال أحياء ـــ تلك الرذائل التي نجد ما يـــبرر الاعتقاد بأنها كانت في وقت ما منتشرة في كل إفريقية، ولا يزال في بقاع كثيرة منها، حتى تلك الجهات الـــتي لا تبعد عن ساحل الذهب وعن مواطننا، – قد اختفت فجأة وإلى الأبد. والمساكنون الذين كانوا يعيشون حتى ذلك الوقت عراة بدءوا يرتدون الملابس بل يتأنقون في ملابسهم؛ والمساكنون الذين لم يغتسلوا قط من قبـــل، بدءوا يغتسلون، بل يكثرون من الاغتسال؛ لأن الشريعة المقدسة تأمر بالطهارة، وهو فرض لا ينطـــوي علـــى تأثير قوي جداً في غرائزهم التي جبلوا عليها. ويميل النظام القبلي إلى فسح المجال لأساس أوسع نطاقاً، وبعبارة أخرى إلى اندماج القبائل بعضها في بعض لتصير أمماً، وبازدياد النشاط والمعرفة تصير الأمـــم إمبراطوريـــات. ونستطيع أن نورد كثيراً من أمثال هذه الحالات من تاريخ السودان والبلاد المتاخمة له في خلال مئـــة الســـنة الأخيرة. ومتى أثيرت الروح الحربية على هذا النحو، فإن المراكز التي تنبعث منها نار الحرب تصبح أقل عـــدداً وأكثر انعزالاً منها قبل. وفي هذه الحالة تكون الحرب أحسن تنظيماً كما تكون متأثرة بصورة من صور التقيد؛ وهم لا يثيرون القتال دون سبب من الأسباب. وقل السلب المطلق الذي لا يقوم على تفرقة بين من يسلبونهم، كما أصبح تأمين الناس على أملاكهم وأرواحهم أكثر من ذي قبل وتنشأ مدارس أولية [1] كتلك المدارس التي وصفها مونجو بارك **Mungo Park** منذ قرن مضي. حتى لو أن هذه المدارس اقتصرت على تعليم تلاميـــذها تلاوة القرآن، لكانت ذات قيمة في نفسها، وقد تكون خطوة في سبيل ما هو أعظم منها بكثير. وقد أصـــبح المسجد الجيد البناء النظيف، بما فيه من أذان للصلاة خمس مرات في اليوم، وقبلة تتجه إلى مكة وإمام وصـــلاة جمعة، مركزاً للقرية بدلاً من دار عبادة أوثان أو اليويو **Juiu** ذات المنظر البشع. وقد طغت عبادة الله الواحـــد القهار، الكائن في كل مكان، العليم، الرحيم، على كل ما لقن الأهالي عبادته من قبل، طغياناً لا حـــد لـــه.

---

(١) "إن أول دروس الأطفال في القراءة عبارة عن مختارات من القرآن، أما التفاسير وغيرها من الكتب التـــي ألفـــت حول القرآن، فإنها تغذي الدراسات المتقدمة بموضوعات رئيسة. وقد أنشئت منذ قرون مـــدارس، مـــن مختلـــف الدرجات، في بلاد داخلية مختلفة يسكنها الزنوج، تحت سلطة القانون؛ وفيها يتعلم النـــاس حتـــى الفقـــراء الـــذين يتعلمون على نفقة الخزانة العامة، ويتعهد فيها الأكفاء بدراسات طويلة من تعليم منظم، سنوات كثيرة. وليس نظام الدراسة فيها مقصوراً دائماً على اللغة العربية أو على مؤلفات كتاب العرب. وقد بسط عدد من اللغـــات القوميـــة للكتابة؛ فترجمت كتب من العربية، وألفت كتب بتلك اللغات القومية، وكذلك فتحت مدارس تعلم فيها اللغات القومية
Condition and Character of Negroes in Africa. By Theodore Dwight. (Methodist Quarterly Review, January, 1869)

ويذكر الدكتور بليدن Blyden (pp.206-7) الكتب الآتية على أنها كتب يقرؤها المسلمون في إفريقيـــة الغربيـــة: مقامات الحريري، وترجمات أرسطو وأفلاطون إلى العربية، وترجمة عربية من أبقراط، والترجمة العربية للعهـــد الجديد والمزامير التي تنشرها جمعية الكتاب المقدس الأمريكية وللوقوف على كتب المسلمين في إفريقية الشـــرقية أنظر:

Becker: Islam in Deutsch Ostafrika, p. 18 sqq.

وبلغت اللغة العربية، وهي اللغة التي تكتب بها دائماً الكتب الدينية الإسلامية، حداً يفوق كل وصف من الغنى والجمال. وإذا ما تعلموا هذه اللغة، أصبحت لغة التخاطب بين قبائل نصف القارة. وتستخدم كمقدمة لدراسة الأدب، بل هي أدب في ذاتها. وهي إلى ذلك لغة شرعية وقانون مكتوب حلت محل نـزوات شـيخ القبيلـة الاستبداديةـ وهذا تغير يعتبر في ذاته تقدماً هائلاً في الحضارة. وظهرت صناعات وتجارة، لا كالتجارة الصامتة التي تقوم الإشارات فيها مقام اللغة في التفاهم، ولا كالمبادلة البدائية في الخامات، تلك المبادلة التي نعرف مـن هيرودوت أنها وجدت في إفريقية منذ أقدم العصور، ولا كالمقايضة بالودع، أو البارود أو الطباق أو الخمـر، تلك المقايضة التي لا تزال تستخدم على طول الساحل وسيلة أساسية من التبادل، ولكنها صـناعات تنطـوي على مهارة فائقة، وتجارة منظمة نظاماً محكماً. وظهرت هذه المدن الكبيرة في أرض الزنوج بتأثير هذه الصناعة والتجارة وتأثير الحكومات الأكثر استقراراً التي جاء بها الإسلام، وهي مدن نجد أن الرحالين الأوربيين حـين وصفوها أول الأمر لم يستطيعوا إلا أن يهملوا مجرد وجودها. وإني لا أستطيع القول بأن الـدين هـو العلـة الوحيدة في هذا النجاح النسبي. وإنما أقول إنه ملائم لهذا النجاح ودافع إليه. وقد ساعدت الأحـوال الجويـة والمؤثرات الأخرى المختلفة على الوصول إلى هذه النتيجة؛ ولكن ما الذي يحمل إفريقية الوثنية، حيث توجـد الظروف التي تتشابه كثيراً مع تلك، على أن تقارن بين حالتها وبين هذا النجاح؟ أما فيما يتعلق بالفرد، فمـن المسلم به من كل الوجوه أن الإسلام يمد السود الذين أسلموا حديثاً بالنشاط والعزة والاعتماد علـى الـنفس واحترام الذات، وهذه كلها صفات يندر جداً أن نجدها في مواطنيهم الوثنيين أو المسيحيين[1].

وقد كتبنا هذه العبارات السابقة التي اقتبسناها قبل تقسيم الجزء الأكبر من إفريقية بين حكومات أوربـا المسيحية -إنجلترا وفرنسا ألمانيا وقتذاك- ولكن طابع الحضارة الإسلامية الغالب لم ينقطع عن التأثير في العقلية الزنجية أو عن العمل باعتباره أحد المؤثرات التي تساعد على تحويل عبدة الأوثان الإفريقيين إلى الإسلام، ولمـا مست هؤلاء الثقافة الأوربية فجأة، مضوا قدماً في طريق الحضارة، ولكنهم، وقد عجزوا عن أن يقيموا جسراً على البرزخ الذي يفصلهم عن حكامهم الأجانب، وجدوا في الإسلام ثقافة ملائمة لحاجاتهم وجديرة بتكييف مطالبهم ومطامحهم[2]. ولذلك، كان بعيداً كل البعد على انتشار السيادة الأوربية أن تعوق نشـاط الـدعاة المسلمين، بل إن انتشار هذه السيادة قد ساعد إلى حد كبير على تقدم الإسلام. وقد ساعد دخول السـلام في بلاد نهكتها من قبل حروب مهلكة أو غارات جلاب الرقيق، ثم قيام أساليب الحكم والإدارة المنظمة والزيـادة في تيسير المواصلات بإنشاء الطرق ومد السكك الحديدية ـــ ساعد كل ذلك على ترويج التجارة، ومن التجار والدعاة المسلمين النشيطين من أن يبسطوا تأثيرهم في مناطق لم تطأها الأقدام من قبل، وأن يجولوا في الأراضي المألوفة وهم أكثر أمناً وطمأنينة. زد على ذلك أن منع تجارة الرقيق أزال عقبة من العقبات الكبـيرة في سـبيل

---

(١) Mohammedanism in Africa, by R. Bosworth Smith (The Nineteenth Century, December 1887, pp. 798- 800)

(٢) Le Chatelier, (3), p. 348.

انتشار الإسلام في إفريقية الوثنية، لأنه كان من مصلحة العرب وغيرهم من تجار الرقيق المسلمين ألا يضيقوا مجال أعمالهم بالتآخي في الإسلام مع ضحاياهم[١]. والآن تدخل في الإسلام من القبائل الوثنية التي لم يصل إليها نشاط الدعوة أيام تجارة الرقيق. وقد ساعدت الحكومات الأوروبية على الوصول إلى هذه النتيجة بتوظيف المسلمين في الوظائف الثانوية في الإدارة المدنية (حيث لم يكن هناك أشخاص متعلمون إلا بين المسلمين) وبتوظيف مسلمين في مدارس الحكومة، وجمع جيوشها من بين القبائل الإسلامية؛ وعلى هذا النحو زادوا من شهرة الإسلام في نظر الإفريقيين الوثنيين – وهي فرصة لم يتوان المسلمون عن استغلالها لمصلحة عقيدتهم[٢].

وليس في القول بأن الإسلام إنما يتقدم بقوة السلاح[٣] إلا قليل جداً من الحقيقة؛ بل الأمر على العكس من ذلك فتقسيم إفريقية بين السلطات الأوروبية التي انتزعت السيف من أيدي الرؤساء المسلمين الذين كانوا تحت حكمهم حينذاك، قد هيأ للدعوة إلى الإسلام أن تصادف النجاح بعد قرون من الإخفاق.

---

(١) Forget, p. 95. Merensky, p. 156.

"كانت المنفعة تعود على المسلمين من استغلال سكان البلاد أكثر من تلك التي كانت تعود عليهم من نشر العقيدة بينهم. فلو أنهم أدخلوا شعوب إفريقية في الإسلام عن طريق الأساليب الروحية، لأصبحوا إخوانهم في الدين، وتساووا معهم في الحقوق. ولحرمت عليهم سرقتهم واستعبادهم، أو تسخيرهم في أعمال العبيد".

(٢) Westermann, p. 643. L. de Contenson,, p. 244. Kumm, p. 122.

(٣) وعلى ذلك، يقول مرنسكى، حين يناقش إخفاق الإسلام في السيطرة على جميع إفريقية بعد مضي قرون من الاحتلال: "نرى أن السبب الرئيسي لهذه الظاهرة الغريبة في العلاقات، هو أن قوة الإسلام الظاهرية عند المسلمين، تساير انتشار الإسلام، ويقف أحدهما إلى جانب الآخر، كما أنهما متداخلان، يتمشيان معاً نهوضاً وانحطاطاً" (P. 156).

الباب الثاني عشر
انتشار الإِسلام في أرخبيل الملايو

بين الملايو والعرب والهند: يمدنا تاريخ أرخبيل الملايو في خلال الأعوام الستمائة الأخيرة بفصل من أهم الفصول في قصة انتشار الإِسلام، بفضل ما بذله الدعاة المسلمون في جزر الهند الشرقية، أو في بعضها على الأقل. وفي بدء الدعوة، لم يكن بد من أن ينفذ الدعاة، أعمالهم في كل لون من ألوان هذه الدعوة، دون مساعدة أو معاضدة من جانب حكام البلاد، وإِنما نفذت بقوة الإقناع وحدها، وصادفهم في سبيل ذلك معارضة شديدة في كثير من الأحيان، ولا سيما من جانب الأسبان. ولكن الدعاة والوا جهودهم بنشاط لا يعرف الملل برغم كل الصعاب، وبألوان من النجاح متباينة، وأنجزوا أعمالهم (وخاصة في الوقت الحاضر) أينما كانت هذه الأعمال جزئية أو ناقصة.

ومن المحال أن نعرف على وجه التحقيق التاريخ الدقيق لأول دخول الإِسلام في أرخبيل الملايو. وربما حمله هناك تجار العرب في القرون الأولى للهجرة، وذلك قبل أن تصل إلينا أية معلومات تاريخية عن حدوث أمثال هذه المؤثرات في تلك البلاد بزمن طويل. ومما جعل هذا الغرض أكثر احتمالاً، ما نعرفه من أن العرب زاولوا مع بلاد الشرق تجارة واسعة النطاق منذ عصور مبكرة جداً. ففي القرن الثاني من الهجرة، كانت تجارتهم مع سيلان كلها في أيديهم. وفي مستهل القرن السابع الميلادي لقيت تجارتهم مع الصين، عن طريق سيلان، رواجاً عظيماً حتى لقد وجدنا تجار العرب، في أواسط القرن الثامن يقيمون في كانتون في جموع غفيرة. وفي الفترة التي بين القرنين العاشر والخامس عشر، حتى قدوم البرتغاليين، كان العرب سادة التجارة مع الشرق دون منازع[1]. لذلك نستطيع أن نزعم في شيء من التأكيد المقبول، أنهم لابد أن يكونوا قد أسسوا مستعمراتهم التجارية في بعض جزائر أرخبيل الملايو، كما فعلوا ذلك في الأماكن الأخرى في عصر مبكر جداً. ومع أننا لا نجد ذكراً لهذه الجزائر في مؤلفات جغرافيي العرب قبل القرن التاسع[2]، نجد في حوادث سنة ٦٨٤م في الإخبار الصينية المدونة حسب السنين، خبراً عن زعيم عربي، يظن من التعليقات المتأخرة أنه كان زعيم مستعمرة عربية على ساحل سومطرة الغربي[3].

على أن الدعاة لابد أن يكونوا قد وفدوا كذلك على أرخبيل الملايو من جنوب الهند، نستدل على ذلك من بعض خصائص معينة وجدت في العقيدة الإِسلامية التي اعتقدها سكان هذه الجزائر ويتبع السواد الأعظم

---

(١) Niemann. P. 357.

(٢) Reinaud: Géographie d' Aboulféda, tome i. P. Cccxxxix.

(٣) Groneveldt, pp. 14, 15.

من مسلمي الأرخبيل المذهب الشافعي، الذي يسيطر في الوقت الحاضر على سواحل كورومانديل وملبيار كما كانت الحال كذلك حول منتصف القرن التاسع عشر، عندما زار ابن بطوط هذه البقاع[1]. فإذا قدرنا أن المسلمين في البلاد المجاورة ينتمون إلى المذهب الحنفي استطعنا أن نفسر ذيوع تعاليم المذهب الشافعي بشيء واحد هو الزعم بأن هذه التعاليم قد جُلبت إلى هناك من ساحل مليبار الذي كان التجار الآتون من جاوة يترددون على موانيه، كما كان يتردد عليها التجار القادمون من الصين واليمن وفارس[2]. كذلك لابد أن يكون التشيع قد جاء إلى هناك من الهند أيضًا، أو من فارس ولا تزال آثاره قائمة في جاوة وسومطرة. ونعلم مما ذكره ابن بطوطة أن سلطان سَمُدرة (□) المسلم قد دخل في صلات ودية مع بلاد دهلي؛ وكان من بين علماء الفقه الذين خصهم هذا السلطان المتدين بالرعاية قاضٍ من شيراز وآخر من أصبهان[3]. ولكن قبل هذا الوقت بزمن طويل، كان التجار المقيمون في الدكن، الذين قامت الحركة التجارية على أيديهم بين الدول الإسلامية في الهند وأرخبيل الملايو، قد استقروا في جماعات كبيرة في الموانئ التجارية الواقعة في هذه الجزائر، حيث ألقوا بذور الدين الجديد[4].

أساليب نشر الدعوة: ويرجع الفضل في وجود الأهالي المسلمين، الذين وجدنا ذكرهم في الأخبار التاريخية الأولى التي تشير إلى الإسلام في هذه الجهات، إلى تلك الجهود التي بذلها تجار العرب والهنود في نشر تعاليم الدعوة. فإنهم بعد أن استقروا في مراكز التجارة، تصاهروا إلى سكان البلاد، ومن ثم كوَّن أولائك النسوة الوثنيات وعبيد أسراهن نواة الجماعة الإسلامية التي لم يأل أفرادها جهداً في زيادة عددهم. ويمدنا الوصف التالي للوسائل التي اتخذها الدعاة من هؤلاء التجار في جزائر الفليبين، بصورة لما كان قد صنعه من غير شك، تجار المسلمين في الأجيال المثيرة السابقة: "كان أقوم السبل لإدخال دين المسلمين إلى هذه البلاد، أن اتخذوا لغة القوم وكثيراً من عادات الأهالي، وتزوجوا من نسائهم، واشتروا عبيداً ليرفعوا من قيمتهم الشخصية، ونجحوا آخر الأمر في أن يدخلوا أنفسهم في زمرة الزعماء الذين يتبوءون أرفع مكانة في الدولة، وعملوا يداً واحدة على نحو أكثر حذقاً وتناسقاً مما كان يصنعه الأهالي، فزادوا من قوتهم شيئاً فشيئاً. ولما كانوا يمتلكون عدداً من العبيد، ألفوا فيما بينهم نوعاً من الحلف، وأسسوا ضرباً من الحكومات الملكية جعلوها وراثية في أسرة واحدة. ومع أن مثل هذا الحلف قد أمدهم بقوة عظيمة، أحسوا الحاجة إلى التراضي على شروط ودية مع الطبقة الأرستقراطية القديمة. كما أحسوا الحاجة إلى أخذ الضمان لحريتهم من هذه

---

(١) ابن بطوطة جـ٥ ص ٦٦، ٨٠.

(٢) Veth (3). Vol. P. 231. ابن بطوطة جـ٤ص ٨٩

(□) اسم مدينة سومطرة القديم، ويقال إنه سنسكريتي الأصل معناه البحر.

(٣) ابن بطوطة جـ٤ ص ٢٣٠، ٢٣٤.

(٤) Snouck Hurgrouje (1), pp. 8-9.

الطبقات التي لم يكن في وسعهم أن يستغنوا عن تأييدها"[١] "ولابد أن يكون المسلمون الذين استوطنوا أرخبيل الملايو، على اختلافهم قد وضعوا بطريقة تشبه تلك التي تحدثنا عنها أساساً سياسياً واجتماعياً ثابتاً لجهودهم في سبيل نشر تعاليم الدعوة. إنهم لم يفدوا على هذه البلاد غزاة؛ كما فعل الأسبان في القرن السادس عشر، ولم يستخدموا السيف أداة لتحويل الناس إلى الإسلام بل لم يدَّعوا لأنفسهم حقوق جنس أسمى يتمتع بالغلبة والسيادة، لكي يحطوا بذلك شأن السكان الأصليين ويسلبوا حقوقهم، بل قدموا في زي التجار، واستخدموا كل ما لديهم من ذكاء أسمى ومدينة أزهر في سبيل دينهم، أكثر من أن يكونوا قد استخدموا ذلك وسيلة لتوسيع نفوذهم الشخصي أو لتنمية ثرواتهم[٢]. أما وقد قررنا بصفة عامة الوسائل الثانوية التي اتخذوها في نشر الدعوة، فلنتتبع بالتفصيل جهودهم في نشر تعاليم هذه الدعوة في الجزائر المختلفة.

الإسلام في سومطرة: تصور لنا الروايات أن الإسلام دخل إلى سومطرة من بلاد العرب. على أنه ليس هناك أساس تاريخي صحيح لمثل هذا الاعتقاد، ويظهر أن الشواهد كلها تشير إلى أن الهند هي المنبع الذي استقى منه أهالي سومطرة معرفتهم بالعقيدة الجديدة. كانت العلاقات التجارية الفعالة، قد قامت منذ قرون بين الهند وأرخبيل الملايو، ولا يبعد أن يكون أول دعاة في سومطرة تجاراً من الهنود[٣]. على أنه ليس لدينا أخبار تاريخية عن أعمالهم، وتنسب أخبار الملايو شرف أول دعوة في مدينة أتجيه **Atjeh**، شمال غربي سومطرة، إلى عربي يدعى عبد الله عارف قيل أنه زار الجزيرة حول منتصف القرن الثاني عشر، وقيل إن أحد تلاميذه، برهان الدين، حمل معرفة العقيدة إلى الساحل الغربي حتى بريامان **priaman**[٤]؛ ولما كان هذا الخبر غير موثوق بصحته؛ فإنه مع ذلك قد يوضح وجود بعض النشاط في نشر تعاليم الدعوة حول هذه الفترة. ذلك أن أخبار مؤرخي الملايو الخاصة بأتجيه تجعل سنة ١٢٠٥ تاريخًا لاعتلاء جيهان شاه العرش؛ وهو الذي تزعم الروايات أنه مؤسس الأسرة الإسلامية. وقد قيل إنه كان أجنبياً؛ من الغرب[٥]؛ وإنه قدم إلى هذه السواحل ليدعو إلى عقيدة النبي ﷺ. وقد أدخل كثيرين في هذا الدين، وتزوج امرأة من أهالي هذه البلاد، فرحبوا به ملكاً عليهم وتلقب بلقب سري بَدُوكا سلطان، وهو لفظ خليط من السنكريتية والعربية. والراجح أن العقيدة الجديدة ظلت وقتاً ما مقصورة على الموانئ التي اتصل بها تجار المسلمين؛ وإن تقدم هذه العقيدة في داخل البلاد كان

---

(١) Hadre Gainza, quoted by C. Semper, p, 67.

(٢) Crawfurd (2), vol. ii. P. 265.

(٣) Snouck Hurgroje: L'Arabie ef les Indes Néerlandaises. Revuede l' Histoire des Religions, vol. ivii. P. 69 sqq.

(٤) De Hollander, vol. i. P. 581. Veth (1), p. 60.

(٥) قد تنطبق هذه الإشارة الغامضة إما على بلاد العرب وفارس وإما على الهند. ولكن إذا كانت شخصية جيهان شاه هذه حقيقية، فلا يبعد أن يكون قد قدم من كوروماندل أو ساحل الملبار.
Chronique du Royaume d'Atcheh, traduite du Malay par Ed. Dulaurier, p. 7.

أكثر بطئًا، فهنا لم يكن بد من أن تصطدم العقيدة بالمؤثرات الهندوكية القوية التي اتخذت لها مركزًا في مملكة منانجكباو.

ويتحدث ماركوبولو، الذي قضى خمسة أشهر على ساحل سومطرة الشمالي في ١٢٩٢م. عن جميع السكان باعتبارهم عبدة أوثان، اللهم إلا في مملكة برلاك الصغيرة على الزاوية الشمالية الشرقية من الجزيرة: حيث كان سكان المدن وحدهم مسلمين كذلك، لأن "تجار العرب، كما ينبغي أن تعلم، قد بلغ من كثرة ترددهم على هذه المملكة، أنهم أدخلوا الأهالي في شريعة محمد"، أما سكان المرتفعات فكلهم وثنيون أو متوحشون يأكلون لحوم البشر(١). أضف إلى ذلك أن أحد أخبار الملايو التاريخية يقول إن أول من ضرب المثل في اعتقاد الإسلام ثم حذا رعاياه حذوه، هو السلطان على مغايت شاه، وكان قد حكم أتجيه من سنة ١٥٠٧م إلى ١٥٢٢ م(٢). ولكن لا يبعد أن يكون شرف أول حاكم مسلم للدولة قد نُسب إلى هذا السلطان لاعتباره مجداً يضاف إلى الحاكم الذي أسس عظمة أتجيه، وأخذ في بسط نفوذه على البلاد المجاورة. كما لا يبعد أن يكون الأصوب أنه أحدث أثرًا في إنعاش حياة رعاياه الدينية، أو أنه بث روحًا جديدة في هذه الحياة، لا أن يكون قد أمدهم بأول معرفة بعقيدة النبي. فقد رسخت قدم الإسلام في سومطرة قبل ذلك الوقت بزمن طويل. وتخبرنا الروايات التي تتحدث عن مدينة سمدرة، أن شريف مكة أرسل بعثة لتحويل شعب سومطرة إلى الإسلام. وكان قائد الجامعة رجلاً يدعي الشيخ إسماعيل. وكان أول ما وصلوا إليه من الأمكنة في هذه الجزيرة، بعد أن تركوا مليبار، بلدة باسوري **Pasuri** (وربما كانت على مسافة قليلة من جنوب الساحل الغربي)، وبفضل دعوتهم اقتنع شعب هذه البلدة باعتقاد الإسلام. ثم تقدموا شمالاً حتى لمبري **Lambri**؛ ثم أخذوا يساحلون الجزيرة حتى وصلوا إلى الجانب الآخر منها، وأبحروا من هناك حتى وصلوا إلى آرو **Aru** على الساحل الشرقي من جهة الجنوب، وهي تقابل ملقا تقريباً. وفي كلتا هاتين البقعتين، تكللت جهودهم بنجاح كذلك. وفي آرو، تحروا الطريق إلى سمدرة، وهي مدينة على الساحل الشمالي من الجزيرة، ويظهر أنها كانت هدفاً لدعوتهم، فوجدوا أنهم قد تجاوزها. ومن أجل ذلك قفلوا راجعين إلى برلاك **Parlak**، حيث كان ماركوبولو قد وجد جماعة من المسلمين قبل ذلك بأعوام قليلة؛ وبعد أن ظفروا بمسلمين جدد في هذه البقعة كذلك، استأنفوا رحلتهم إلى سمدرة. وكانت هذه المدينة، والمملكة التي تسمت باسمها، قد تأسست أخيرًا على يد شخص يدعي مراسيلو **Mara Silo**. وقد أقنعه الشيخ إسماعيل باعتقاد الإسلام فاتخذ لنفسه اسم الملك الصالح، وتزوج من ابنة برلاك فأنجب منها ولدين؛ ولكي يترك لكل منهما ولاية بعد وفاته، أسس هذه المدينة الإسلامية ومملكة باسي **Pasei**، وهي كذلك على الساحل الشمالي(٣).

---

(١) Marco Polo, vol. Ii. P. 284.

(٢) Veth (1), p. 61.

(٣) Yule's Marco Polo, vol. ii. Pp. 294, 303.

ولا يبعد أن يكون الملك الظاهر الذي وجده ابن بطوطة حاكمًا في سمدرة عندما زار هذه الجزيرة في سنة ١٣٤٥م، أكبر هذين الولدين. وقد أظهر هذا الملك أعظم ما تتجلى به المملكة الإسلامية من أبهة، وامتدت بلاده مسيرة أيام كثيرة على طول الساحل، كان مسلماً من أهل السنة، غيوراً على دينه، مولعاً بعقد المناظرات مع الفقهاء وعلماء الدين. وكان بلاطه مقصد الشعراء ورجال العلم. ويذكر لنا ابن بطوطة اسمي قاضيين، كانا قد أتيا إليه من فارس، كما يذكر اسم أمير كان ورد رسولاً على السلطان في دهلي -وهذا يدلنا على أن سومطرة كانت من قبل على اتصال بكثير من أرجاء العالم الإسلامي. كذلك كان الملك الظاهر قائدًا عظيمًا، وقد أعلن الحرب على الوثنيين الذين يقيمون في البلاد المجاورة حتى أذعنوا لحكمه وأدوا له الجزية[١].

وكان الإسلام من غير شك قد أحرز في ذلك العهد تقدماً عظيماً في سومطرة، وبعد أن توطدت دعائمه على طول الساحل، أخذ يشق طريقه إلى المناطق الداخلية. وكانت دعوة الشيخ إسماعيل وجماعته قد آتت ثمارًا وافرة؛ فقد تحدث رحالة صيني، زار هذه الجزيرة في سنة ١٤١٣، عن بلدة لامبري، فقال إن عدد الأسرات التي كانت تقيم فيها ألف أسرة، كلهم مسلمون، و"على جانب عظيم من كرم الأخلاق"، وكان الملك آرو وشعب مملكته يعتقدون جميعاً هذا الدين نفسه[٢]. وقد حدث، إما في نهاية القرن نفسه أو في القرن الخامس عشر، أن وجد دين النبي أشياعاً من مملكة منانجكباو العظيمة، التي امتدت أراضيها يومًا ما من الساحل، وعلى جزء عظيم من الجزيرة يقع شمالي خط الاستواء وجنوبه[٣]. وعلى الرغم من أن قوتها كانت لذلك العهد قد انحلت إلى حد بعيد، ظلت تضع عقبات كبيرة، باعتبارها معقلاً قديمًا من معاقل الهندوكية، في سبيل تقدم الدين الجديد. ومع هذه الحقيقة، كان تأصل الإسلام في نفوس رعايا هذه المملكة آخر الأمر أقوى منه في نفوس السواد الأعظم من سكان المنطقة الداخلية من هذه الجزيرة[٤]. ومن الواضح البين، أن هؤلاء، وهم أوسط شعوب الجزيرة مركزًا، لم يكن بد من أن يكونوا بأسرهم أسرع دخولاً في الإسلام من سكان كثير من سائر المقاطعات التي كانت أشد اتصالاً بالمؤثرات الأجنبية. ولا يزال السواد الأعظم من سكان بلاد البتك **Batak**، إلى اليوم، على الوثنية، بيد أن الإسلام قد ظفر ببعض آثار فيهم، مثال ذلك فريق يعيشون على حدود أتجيه؛ دخلوا في الإسلام على يد جيرانهم المسلمين[٥]، وفريق آخر يسكنون في جبال إقليم راو **Rau**

---

(١) ابن بطوطة جـ٤ ص ٢٣٠- ٢٣٦.

(٢) Groeneveldt, p. 94.

(٣) وفي أوج قوتها، امتدت من ٢° شمالاً إلى ٢° جنوبًا على الساحل الغربي، ومن ١° شمالاً إلى ٢° جنوبًا على الساحل الشرقي، ولكنها في القرن السادس عشر، فقدت سيطرتها على الساحل الشرقي (De Hollander, vol. i. P. 3).

(٤) Marsden, p. 343.

(٥) J. H. Moor (Appedix, p. 1)

على خط الاستواء؛ تحولوا مثلهم إلى الإسلام[١]. كذلك عرفت حالات من إسلام البتك على الساحل الشرقي، وكانوا على اتصال وثيق بسكان الملايو[٢].

و لم تُجْد الجهود النشيطة التي بذلتها أسرة بدري **Padris** المتعصبة (ص ٣١٢) لفرض الإسلام على البتك بحد السيف، فخربوا بلادهم وقتلوا كثيرًا منهم. ولكن هذه الوسائل العنيفة لم تجذب أحدًا إلى الإسلام. على أنه، عندما أخمدت الحكومة الهولندية حركة البدري وضمت إلى أملاكها الجزء الجنوبي من بلاد البتك، أخذ الإسلام ينتشر بالوسائل السلمية، وخاصة عن طريق الجهود الحماسية التي بذلها الموظفون المرءوسون من الأهالي الذين جاء بهم النظام الجديد والذين كانوا جميعًا من سكان الملايو المسلمين[٣]، وكذلك عن طريق نفوذ التجار الذين طوفوا البلاد، والذين حذا حذوهم في نشر الدعوة جماعة (الحاجي) وغيرهم من علماء الدين المعروفين. ومن الحقائق الواضحة، أن البتك كانوا قد أبدوا معارضة عنيدة في دخول الإسلام بينهم قروناً عديدة، مع أنهم كانوا يحاطون بمجموعتين من السكان المسلمين المتعصبين، وهما الأتشينيون في الشمال وأهل الملايو في الجنوب، قد استجابوا في السنين الأخيرة للجهود السلمية التي بذلت لإدخالهم في الإسلام، وأظهروا حماسة في هذه السبيل. ويظهر أن من الممكن إيجاد تفسير لذلك، فيما اعترى صفاتهم القومية الحاجزة المنيعة، من ضعف ووهن، بسبب الاحتلال الهولندي، والغزو الذي عرض بلادهم للمؤثرات الأجنبية التي دلت على بداية عصر جديد في تطورهم الثقافي، كما نجد تفسير ذلك أيضًا في تلك الخطوات السديدة التي تقدم بها أئمة هذا الدين الجديد، الذين عرفوا كيف يلائمون بين تعاليمهم وعقائد البتك الراهنة، وتقاليدهم المتأصلة في نفوسهم[٤]. ويظهر أن تأسيس الإرساليات المسيحية بين البتك في سنة ١٨٩٧ قد زود الدعوة الإسلامية في هذه البلاد بباعث لا يستهان به، بل يظهر أن هذه الإرساليات قد مهدت السبيل لنجاح تلك الدعوة؛ فقد قيل إن قريتين من قرى البتك، وكان جميع أهليها قد تنصروا، انتقلتا جمعًا واحد إلى الإسلام، بعد تنصرهما بزمن قصير[٥].

ولا يزال في سومطرة الوسطى، عدد كبير من الأهالي الوثنيين على الرغم من أن السواد الأعظم من السكان مسلمون. ولكن هؤلاء على جانب عظيم من الجهل بديانتهم، اللهم إلا إذا استثنينا عددًا قليلاً من

---

(١) Marsden, p. 355.

(٢) Godsdienstige vershijnselen en toestanden in Oost-Indië. (Uit de Kolouiale Verslagen van 1885 en 1887.) Med. Zendelinggen, vol. Xxxii. Pp. 175- 6. 1888.
وفي سنة ١٩٠٩، كان المجموع الكلي للبتك ٩٠٠، ٥٠٠ شخص. منهم ٣٠٠,٠٠٠ كانوا لا يزالون على الوثنية، على حين كان ١٢٥ ألف مسلمين و ٨٠ ألف مسيحيين.
(R.du p. M. M, vol. Viii. P. 183)

(٣) J. Warneck: Die Religion der Batak, p. 122 (Leipzig 1909).

(٤) G. R. Slmon: die Propaganda des Haibmondes. Ein Beitrag zur Skizzierung des Islam Unterden Batakken pp. 425, 429, 30. Allgemeine Missions –Zeitschrift, vol. Xxvii. 1900.

(٥) R. du. M. M.,vol. Viii. 1909, p. 183.

جماعة الحاجي والمعلمين. بل إننا نجد بين شعب كورنتجي وهم في معظمهم يشايعون الإسلام ويتحمسون له، بعض الطوائف من الأهالي لا يزالون يعبدون آلهة أجدادهم الوثنيين[١]. على أن الجهود تبذل في سبيل نهضة دينية، كما أن دعاة المسلمين يقومون بغزوات جديدة بين الوثنيين ولا سيما على طول الساحل الغربي[٢]. وفي مقاطعة سيبروك **Sipirok** أدخل معلم ديني، وكان قد لزم المسجد في المدينة التي كانت تحمل اسم هذه المقاطعة مدة ربع قرن، جميع أهالي هذه المقاطعة في الإسلام، اللهم إلا المسيحيين الذين كانوا يعيشون هناك، وكانوا في الغالب من سلالة الأهالي الذين كانوا عبيداً من قبل[٣]. وقد أفلحت حركة حديثة لنشر الدعوة، قامت في العقد الأول من القرن العشرين، في اجتذاب كثير من مسيحي هذه المقاطعة إلى الإسلام، بل في اجتذاب فريق ممن يعيش في وسط المحيط الذي تجلى فيه نفوذ الإرسالية المسيحية[٤].

وتصور الروايات أن الإسلام دخل إلى بالمبنج **Plaembang** حول سنة ١٤٤٠ على يد ردن رحمت، وسنذكر فيما بعد نبذة عن نشاطه في الدعوة (ص ٤١٩). ولكن يظهر أن المؤثرات الهندية كانت متأصلة ثابتة في هذه المنطقة، وأن تقدم الدين الجديد كان بطيئاً. وقد قيل إن مسلمي بالمبنج كانوا حتى القرن التاسع عشر، يعرفون القليل عن دينهم، إلا ما كان من طقوسه الشكلية، اللهم إلا سكان الحاضرة الذين كانوا يتصلون بالعرب كل يوم[٥]. ولكن قد يظهر أن في العقد الأول من القرن العشرين، كان هنالك نهضة للحياة الدينية، ودعاية آخذة في النمو، إذ إن تقارير الحكومة الهولندية الخاصة بالمستعمرات قد لفتت الأنظار إلى اطراد انتشار الإسلام بين الوثنيين من أهالي مقاطعات بالمبنج على اختلافها[٦].

ومن جاوه، حُمل الإسلام لأول مرة إلى مقاطعات لمبونج **Lampong** التي تكون أقصى حدود سومطرة الجنوبية، وذلك على يد سيد هذه المقاطعات، ويدعى منَك كَمله بومى. وحول نهاية القرن الخامس عشر، عبر مضيق سُندا **Sunda** إلى مملكَة بنتام على ساحل جاوه الغربي، تلك المملكة التي كانت انتحلت تعاليم الدعاة المسلمين قبل أن يزورها هذا الزعيم بسنوات قليلة. وهنا أسلم هذا الرجل أيضًا، وبعد أن أدى فريضة الحج إلى مكة، نشر تعاليم عقيدته الجديدة التي اعتقدها بين مواطنيه[٧]. وقد أحرز هذا الدين تقدمًا لا يستهان

---

(١) A.L. van Hassalt, pp. 55, 68.

(٢) Med Ned. Zeudelinggen, id. P. 173. Koloniaal Verslag van 1911. p. 26; 1912, p. 17. iii.

(٣) Uit het Koloniaal Versiag van 1839. Med. Ned. Zendelinggen, vol xxxiv. P. 168. 1890.

(٤) Koloniaal Verrsiag van 1910, p. 30.

(٥) De Hollander, vol. i, p. 703.

(٦) Koloniaal Verslag van 1904, p. 80; 1965. p. 46; 1909, p.47; 1910. p. 33; 1911, p. 29; 1912, p. 21.

(٧) Canne, p. 510.

به بين أهالي لمبونج، ولهم مساجد في معظم قراهم، ولكن الخرافات القديمة لا تزال قائمة في أجـزاء المنطقـة الداخلية[١].

وفي مستهل القرن التاسع عشر، قامت في سومطرة نهضة دينية، ولم تكن عادمة التأثير في ترويج دعايـة للإسلام أبعد مدى وأعظم أثراً، وفي سنة ١٨٠٣ رجع ثلاثة من جماعة الحاجي من مكة إلى وطنهم سومطرة، وكانوا في أثناء وجودهم في المدينة المقدسة، قد تأثروا تأثيراً عميقًا بالحركة الوهابية الـتي قامـت لإصـلاح الإسلام، فأصبحوا الآن يتوقون إلى أن يدخلوا مبادئ هذا الإصلاح بين مواطنيهم، وإلى إن يبثوا فيهم حيـاة دينية أكثر صفاء وأشد غيرة. ومن ثم أخذوا في الدعوة إلى التشدد في التوحيد الذي تقول به الطائفة الوهابيـة، وحرموا التوسل إلى الأولياء وشرب الخمر والميسر وسائر الأعمال التي تتعارض مع القرآن. وجعلوا عدداً مـن بين إخوانهم في الدين والأهالي الوثنيين على سواء يدخل في مذهبهم. وأخيراً أعلنوا الجهاد على البتك، ولكـن الحركة فقدت صبغتها الأصلية وانحطت فأصبحت حرباً وحشية دامية ترمى إلى الغزو، وذلك بوقـوع هـذه الحركة في أيدي قوم لا وازع لهم يطمحون إلى الشهرة. وفي سنة ١٨٢١ وقع هؤلاء الذين يطلق عليهم جماعة البدري **Padris** في نزاع مع الحكومة الهولندية، ولم تأت سنة ١٨٣٨ حتى سقط آخر معـاقلهم وكسـرت شوكتهم[٢].

في شبة جزيرة الملايو: ويرجع جميع أهالي الملايو الذين يقيمون في شبه جزيـرة الملايـو أصـلهم إلى هجرات أتت من سومطرة، ولا سيما من منانجكباو تلك المملكة المشهورة التي ذكرناها من قبل، والتي يقـال إنها كانت في يوم ما أقوى الممالك في الجزيرة، ولا يزال بعض رؤساء الولايات الداخلية، في الجزء الجنوبي من شبة جزيرة الملايو، يتقلدون مناصبهم من هذا المكان. أما معرفة الفترة التي تمكنت فيها هذه الجاليات من قلب سومطرة في داخل شبه الجزيرة، فهذا أمر يدخل في باب الحدس والتخمين؛ ولكن يظهر أن سنغابور وأقصـى الحدود الجنوبية من شبه الجزيرة، قد تلقت هجرة من هذه الهجرات في أواسط القرن الثاني عشر، وهـي الـتي أسس أحفادها ملقا بعد ذلك بقرن تقريبًا[٣]. وسرعان ما أصبحت هذه المدينة مدينة كبيرة زاهرة، لما تميزت به من موقع مناسب في طريق التجارة الآتية من الشرق. وهناك قليل من الشك في أن تجـار المسـلمين الـذين استوطنوا هنا، هم الذين أدخلوا الإسلام في هذه البلاد[٤]. وتعزو أخبار مؤرخي الملايو عن ملقا تحـول هـذه المملكة إلى الإسلام إلى عهد أحد ملوكها وهو سلطان محمد شاه وكان قد اعتلى العرش سنة ١٢٧٦م. وقـد

---

(١) Marsden, p. 301.

(٢) Niemann, pp. 356-9.

(٣) J.H. Moor, p. 255.

(٤) منذ أقبل هؤلاء الهنود، ونحن نعتبرهم عربًا فرسًا، والجوجراتيون (الذين استقروا في البلاد بسبب التجارة) قد قـام نفر منهم بتحويلنا إلى دين محمد. ولما كان نفر من أهل البلاد هنا قد أقبلوا على هذا الدين، لـم يلبـث هـذا "الوبـاء الجهنمي" أن وصل إلى ملقا. De Barros, dec. ii. Liv. Vi. Cap. i. P. 15.

قيل إنه حكم هذه البلاد سنوات قليلة، قبل أن ترسو سفينة بقيادة سيدي عبد العزيز إلى شواطئ ملقا وآتية من جدة، وأن هؤلاء القادمين قد أقنعوا الملك بتغيير عقيدته وترك اسمه الوطني، وقد اتخذ لنفسه اسماً يحمل اسم النبي[١]. ولكن طابع هذه الوثيقة التاريخية العام يجعل الثقة بها والاطمئنان إلى صحتها موضع شك إلى حد بعيد[٢]، على الرغم من أنه من المحتمل أن يكون تاريخ حادثة هامة كتلك الحادثة، قد يكون موضع ملاحظة دقيقة (كما حدث ذلك في جهات كثيرة من أرخبيل الملايو) من شعب يعتز بذكر الحادثة، ويعدها فاتحة عهد جديد من تاريخهم. ويذكر مؤرخ برتغالي تاريخاً متأخراً عن ذلك التاريخ ويقول إنه حدث في سنة ١٣٨٤، كما يقول إنه كان قاضياً، قدم من بلاد العرب في هذه السنة، وبعد أن حول الملك إلى الإسلام سماه محمداً أسوة بالنبي وأضاف كلمة شاه إلى اسمه[٣].

وفي أخبار قويدة، وهي إحدى ولايات شبه جزيرة الملايو، في أقصي الشمال رواية عجيبة وصلت إلينا عند دخول الإسلام إلى هذه المملكة، حول سنة ١٥٠١م[٤]، وإليك هذه الرواية (وقد حذفنا منها بعض الحوادث من خوارق العادات): قدم عالم عربي يدعى الشيخ عبد الله، إلى قويدة، وزار الراجه، وسأل عن ديانة البلاد، فأجابه الراجه "ديني ودين رعيتي كلها، هو الذي وصل إلينا من الشعب القديم. إننا جميعًا نعبد الأصنام". فقال الشيخ: "إذن أما سمعتم جلالتكم قط شيئاً عن الإسلام، والقرآن الذي أنزله الله على محمد، ونسخ به كل الديانات الأخرى، وتركها في حوزة الشيطان؟" فقال الراجه: "إذن أرجو منك، إن كان حقاً ما تقول، أن تعلمنا هذا الدين الجديد، وتهدينا بنوره". وتهلل الشيخ عبد الله تهلل الحماسة المقدسة لسؤال الراجه إياه هذا السؤال، واحتضن الشيخ الراجه، ثم فقهه في الدين. ولما اقتنع الراجه بتعاليم الشيخ، أرسل في طلب آنية الأرواح (التي طالما عكف عليها) وأفرغ ما فيها على الأرض بيديه. بعد ذلك أمر أن تحضر كل الأصنام التي في قصره، فجمعت بين يديه أكوام من أصنام الذهب والفضة والطين والخشب؛ وكسرها الشيخ عبد الله قطعًا بسيفه وبفأس، وأحرقت الأجزاء في النار. وطلب الشيخ إلى الراجه أن يجمع كل نساء القلعة والقصر. فلما قدمن جميعا في حضرة الراجه والشيخ، تعلمن عقائد الإسلام. وكان الشيخ مهذباً لطيف المعشر، كما كان جذاباً رقيقاً في لغته، حتى إنه جذب إليه قلوب ساكني القصر. و لم يلبث الراجه أن أرسل في طلب وزرائه الأربعة المسنين. ولما دخلوا البهو، استولى عليهم الدهش حين رأوا شيخاً يجلس إلى جوار الراجه. فأبان لهم الراجه المهمة التي جاء من أجلها هذا الشيخ. وعندئذ أظهر الزعماء الأربعة استعداداهم للاقتداء بجلالته، وقالوا: "إننا نأمل أن يعلمنا الشيخ عبد الله كذلك". ولما سمع هذا الأخير هذه الكلمات، احتضنهم، وقال لهم

---

(١) Aristide Marre: Maláka. Histoire des rois malays des Maláka. Traduit et extrait du Livre des Annales malayses, intilé en arabe salálet al Selátyue, p. 8. Paris, 1874.

(٢) Carawford (1), pp. 241- 2.

(٣) De Barros, Dec. Iv. Liv. ii. Cap. 1.

(٤) يتحدث باربوسة Barbosa فيما كتبه سنة ١٥١٦، عن تجار مسلمين كثيرين، كانوا يختلفون إلى ميناء قويدة. Ramusio, tom. i. P. 317.

إنه يأمل، لكي يبرهنوا على إخلاصهم، أن يستدعوا شعبهم بأسره إلى هو الاستقبال، ويحضروا معهم كل الأصنام التي تعودوا أن يعبدوها والأصنام التي انتهت إليهم عن طريق آبائهم الأولين. وأجيب الشيخ إلى طلبه، وأحضرت في الوقت المحدد كل الأصنام التي كان الشعب يحتفظ بها، وهناك حطمت وحرقت أصبحت رماداً تذروه الرياح. ولم يأسف واحد منهم على ما أصاب آلهتهم الزائفة من الخراب والدمار، وكانوا جميعاً فرحين مستبشرين بدخولهم في حظيرة الإسلام. ثم سأل الشيخ عبد الله الوزراء الأربعة: "ما اسم أميركم؟" قالوا: "اسمه برا اونج نخا وانحسا. قال الشيخ" فدعونا نستبدل باسمه اسماً بلغة الإسلام ". وبعد تبادل الرأي طلب الراجه نفسه أن يحول اسمه إلى السلطان مُزْلف الشاه لأن الشيخ قد أكد أنه اسم مشهور وأنه ورد في القرآن[1].

والآن بنى الراجه المساجد في البقاع الأهلة بالسكان، وأمر بان يُلحق بكل مسجد أربعة وأربعون شخصاً على الأقل من السكان، على أن يكونوا جماعة تقيم في المسجد وتعكف على العبادة، لأن أي عدد أقل من ذلك قد يكون غير كاف لتأدية الواجبات الدينية، ومن ثم بنيت المساجد وألحقت بها طبول كبيرة تُدق لدعوة الناس إلى صلاة الجمع. وظل الشيخ عبد الله وقتاً ما، يفقه الناس في الدين، وانثالوا عليه من جميع سواحل قويدة ومقاطعاتها وما جاورها، وتعلموا على يديه صيغ الإسلام وشعائره.

وقد وصلت أخبار تحول سكان قويدة إلى الإسلام على يد الشيخ عبد الله، إلى أتجيه فأرسل إليهم سلطان هذه البلاد، ورجل يدعى الشيخ نور الدين، وهو داع عربي، كان قد قدم من مكة بعض كتب ورسالة، وهذا نص الرسالة: "هذه الرسالة من سلطان أتجيه ونور الدين إلى أخينا سلطان قويدة والشيخ عبد الله اليمني الذي يقيم الآن في قويدة. أرسلنا إليكم كتابين من كتب الدين، حتى تتأكد دعائم العقيدة الإسلامية، ويتعلم الناس واجباتهم وشعائر دينهم تعلماً كاملا" وأرسل الراجه والشيخ عبد الله رسالة يردان فيها على هذه الرسالة ويشكرانهما على ما انعما به عليهما ومن ثم ضاعف الشيخ عبد الله جهوده وبنى زوايا في كل القرى على اختلافها بالإضافة إلى ما فيها من المساجد، ليكون الانتفاع عاماً وعلم الناس كل أحكام الدين وشعائره. وكان الراجه وزوجته ملازمين للشيخ، يتعلمان قراءة القرآن. وبحث هذان الزوجان عن امرأة من نسل الراجات لتكون زوجة للشيخ. ولكن لم يرغب أحد في أن يهب ابنته زوجة للشيخ، لأن هذا الرجل المقدس كان يوشك أن يعود إلى بغداد، وأنه كان لا ينتظر إلا أن يفرغ من تعليم شخص تعليماً كافياً يقوم مقامه بعد مغادرته البلاد. وكان للسلطان في ذلك الحين ثلاثة أولاد: راجه معظم شاه، وراجه محمد شاه، وراجه سليمان شاه؛ وهذه الأسماء كان الشيخ عبد الله قد أخذها من القرآن وخلعها على هؤلاء الأمراء الذين أسدى هذا الشيخ النصح إليهم بأن يصطنعوا الصبر والأناة، وألا يسرع إليهم الغضب في معاشرتهم عبيدهم والطبقات الدنيا، وأن ينظروا بعين الشفقة والعطف إلى عباد الله أجمعين، وإلى الفقراء والمعوزين[2].

---

(١) مزلف لم ترد في القرآن بهذه الصيغة، وربما كانت الإشارة إلى قوله تعالى (سورة الشعراء: آية ٩٠): وأزلفت الجنة للمتقين.

(٢) A translation of the Keddau Annalis, by Lieut-Col. James Low, vol. iii. Pp. 474-7.

ولا يزعمن زاعم أن أعمال الشيخ عبد الله قد كللت بنجاح تام، لأننا نعلم من أخبار أتجيه أن أحد سلاطين هذه البلاد، وكان قد غزا قويدة في سنة ١٦٤٩، قد نصب نفسه "لأن يؤسس الإسلام في البلاد تأسيساً أقوى ثباتاً ويخرب معابد الليار **Lair** " أي هياكل الأصنام[١]. وعلى ذلك، كان قد مضى قرن ونصف قرن قبل أن تستأصل شأفة الوثنية من هذه البلاد.

وليس لدينا أخبار أخرى مفصلة في تاريخ تحول أهالي شبه جزيرة الملايو إلى الإسلام، ولكننا نجد في أماكن كثيرة أضرحة دعاة العرب الذين كانوا أول من دعوا بينهم إلى هذه العقيدة، تلقى من هؤلاء الناس تعظيماً[٢] وقد أدت معاشرتهم الطويلة للعرب ومسلمي ساحل الهند الشرقي إلى جعلهم محافظين شديدي التمسك بفروض دينهم، واشتهروا بين الناس بأنهم خير من يقتدى به من مسلمي الأرخبيل. كما أدى اتصالهم المستمر بالهندوكيين والبوذيين والمسيحيين والوثنيين من سكان بلادهم، إلى جعلهم في الوقت نفسه على جانب من التساهل والتسامح. وهم شديدو التمسك بالمحافظة على صوم رمضان وتأدية فريضة الحج إلى مكة. ويرون دائماً أن المنافع الدينية التي ينالها الناس، إنما هي في الوقت نفسه، سعادة دنيوية لهم. وإذا وجدوا قرية بها أكثر من أربعين منزلاً، ورأوا أن سعتها تستلزم تنظيمها وتعيين موظفين دائمين للقرية، جعلوا من بين أفرادها هؤلاء، الموظفين داعياً يعظ الناس في الدين. وقد بنوا بطريقة رسمية مسجداً وأسسوه [٣].

في سيام: وفي الشمال، حيث تتاخم ولايات منطقة سيام، أثر الإسلام تأثيراً لا بأس به بين أهالي سيام من البوذيين. ويطلق على من دخلوا في الإسلام منهم السمسم **Samsams**، وهم يتكلمون لغة هي رطانة مزيجة من لغتي الشعبين جميعاً[٤]. كذلك أدخل في الإسلام فريق من القبائل المتوحشة في شبه الجزيرة[٥].

وإن تاريخ انتشار الإسلام في الهند الصينية يحوطه الغموض والإبهام. ولا يبعد أن يكون تجار العرب والفرس قد ادخلوا دينهم إلى المدن الساحلية منذ القرن العاشر، ولكن يعزى أهم توسع لهذا الدين إلى هجرات أهل الملايو التي بدأت في نهاية القرن الرابع عشر[٦].

في جاوة: والآن، يجب أن نرجع إلى وراء قروناً كثيرة، لنتتبع تاريخ تحول جاوة إلى الإسلام. ولاشك أن الدعوة إلى مبادئ الإسلام وإذاعتها في أهالي هذه الجزيرة، كانت كلها نتيجة لما قام به أفراد من زعماء الجاليات الصغيرة منذ وقت طويل؛ فلم يكن في جاوة قوة إسلامية مركزية تشع آثارها في مصلحة الدين الجديد، أو تفرض قبول هذا الدين بالوسائل الحربية. بل على العكس من ذلك أصبح دعاة المسلمين في هذه

---

(١) Id. P. 480.

(٢) Newbold, vol. i. P. 252.

(٣) Mc Nair, pp. 266-9.

(٤) J. H. Moor, p. 242.

(٥) Newbold, vol. ii. Pp. 106, 396.

(٦) R. du. M. M., tome ii. 1907. pp. 137-8.

البلاد على ارتباط بالحضارة الهندوكية، التي كانت قد تغلغلت أصولها في أعماق حياة تلك البلاد، ورفعت الجاويين إلى مستوي عال من الثقافة والرقي، ويظهر ذلك أكثر وضوحاً في النظم والقوانين التي تختلف عن نظم بلاد العرب وقوانينها اختلافاً جوهرياً. بل ولقد أخفقت الشريعة الإسلامية إلى الآن في توطيد دعائمها توطيداً كاملاً، حتى في الأماكن التي تتغلب فيها سيطرة الإسلام. وهنالك صراع دائم بين أنصار عادات الملايو القديمة، وجماعة الحاجي الذين عادوا بعد أن أدوا فريضة الحج في مكة، متحمسين متشددين في المحافظة على الشريعة الإسلامية. ومن ثم كان لابد أن يخطوا عمل التحول إلى الإسلام خطوات بطيئة جداً. ويمكن أن نقول في تأكيد مقبول إنه في الوقت الذي نجد فيه أن من الممكن أن نلخص جانبًا من تاريخ هذه الحركات التي قامت على نشر تعاليم الدعوة مما شابه من الأساطير والتقاليد، نرى لزاماً أن يبقى كثير من هذا التاريخ مجهولاً لدينا جهلا تاماً. ونجد أن في أخبار الملايو، التي تفيدنا فيما تمدنا به من وصف لأول الداعين إلى هذا الدين، أن ما كان يدخل، من غير شك في عمل أجيال كثيرة، وما كان يجب أن يستمر في خلال قرون شتى، نراه ينحصر في نطاق سنوات قلائل؛ وتكتسب أسماء قليلة معروفة، كما يحدث غالباً في التواريخ الشعبية، الشهرة والثقة، وهي في الحقيقة ترجع إلى ما قام به أسلافهم المجهولون من أعمال قوامها الصبر والأناة[1]. زد على ذلك أن الأعمال الهادئة العفة التي قام بها كثير من هؤلاء الدعاة، لم تكن على الأرجح لتسترعي انتباه المؤرخ الذي كان بطبيعة الحال يصوب عنايته أولاً قبل كل شيء إلى أعمال الملوك والأمراء ومن كان على صلة وثيقة بهم. ونحن إذ نفقد تلك المعرفة العظمى، لا مفر من أن نرضى بتلك الحقائق التي وصلت إلينا.

لذلك نرى أن نورد في الصفحات التالية صورة موجزة عن تأسيس الدين الإسلامي في هذه الجزيرة، كما نصورها الأخبار القومية التي لا شك أنها، على الرغم من امتلائها بالتناقض والخرافات تقوم على أساس تاريخي؛ ويدلنا على ذلك ما نقش على مقابر الشخصيات الهامة التي ذكرت في هذه الأخبار، وعلى آثار المدن القديمة ونحو ذلك. لهذا لا بأس من أن نقبل الأخبار الآتية، مع افتقارها إلى دليل يثبت صحتها، على أنها صحيحة في جوهرها، على أن نأخذ الحذر الذي سبقت الإشارة إليه، من نسبة آثار فائقة مفرطة إلى جهود أفراد في نشر تعاليم الدعوة.

كان أول من قام بالمحاولة الأولى لإدخال الإسلام إلى جاوة، رجل من أهالي هذه الجزيرة حول نهاية القرن الثاني عشر. وقد ترك أول ملوك باجاجاران **Pajajaran**، وهي ولاية في الجهة الغربية من الجزيرة، ولدين: أما أكبرهما فقد آثر أن يزاول التجارة، وباشر بعثة تجارية ذاهبة إلى بلاد الهند، تاركاً أخاه الأصغر الذي خلفه على العرش في سنة ١١٩٠، وتلقب بلقب برابو موندنج ساري **Prabo Munding Sari**. وفي أثناء تطواف ذلك الابن الأكبر لقي بعض تجار العرب فدخل في الإسلام على أيديهم واتخذ لنفسه اسم حاجي بروا.

---

(١) Snouck Hurgronje (1), p. 9.

ولما عاد إلى وطنه، بمعونة أحد دعاة العرب حاول أن يدخل أخاه والأسرة المالكة في دينه الجديد. ولكن جهوده لم تصادف نجاحاً، فهرب إلى الأدغال خوفاً من الملك ورعاياه الكفار، و لم نسمع عنه شيئاً بعد ذلك[١].

وفي النصف الأخير من القرن الرابع عشر، تكوّنت حركة للدعوة نالت نجاحاً أعظم على يد شخص يدعي مولانا ملك إبراهيم، وقد رسا على ساحل جاوة الشرقي مع إخوانه في الدين، واستقر قريباً من بلدة جريسك **Gresik**، وهي قبالة جزيرة مادورة. ويقال إنه كان يرجع نسبه إلى زين العابدين أحد أبناء أحفاد علي، وإنه كان ابن عم راجه تشرمن **Cherman**[٢]. وهنا شغل نفسه في القيام بتحويل الناس إلى الإسلام وأحرز نجاحاً في هذه السبيل؛ وسرعان ما جمع حوله فئة قليلة من المؤمنين. وأخيراً اتصل بابن عمه، راجه تشرمن الذي قدم إلى هذه البلاد أملاً في أن يحول راجه مملكة ماجاباهيت **Majapahit** الهندوكي إلى الإسلام وأن يعقد معه حلفاً بعرض زواج ابنته عليه. فلما وصل أرسل ابنه، صادق محمد، إلى ماجاباهيت ليحدد وقتاً للمقابلة، على حين شغل هو نفسه ببناء مسجد وتحويل السكان إلى الإسلام. وكان من أثر ذلك أن تمت مقابلة الأميرين، ولكن قبل أن يتمكن من موالاة ذلك التأثير الذي بلغوه في ذلك الحين، تفشي مرض بين شعب راجه تشرمن، فقضى على ابنته، وثلاثة من أبناء أخيه، كان قد صحبهم معه، وفريقاً عظيماً من رجال حاشيته؛ ومن ثم عاد هو إلى مملكته. وقد جعلت هذه الكوارث عقلية راجه ماجاباهيت تتحامل على هذا الدين الجديد، الذي كان ينبغي، كما قال هذا الراجه، أن يكون من الأصوب حماية معتنقيه، وكان من أثر ذلك أن أخفقت البعثة. على أن مولانا إبراهيم، تخلف ليتعهد مقابر[٣] ذويه وإخوانه في الدين، أما هو فقد قضى نحبه بعد ذلك بإحدى وعشرين سنة، وذلك سنة ١٤١٩، ودفن في جريسك حيث لا يزال المسلمون يعظمون قبره ويعدونه أول رسل الإسلام إلى جاوة.

ويذكر أحد مسلمي الصين، وكان قد صحب سفارة إمبراطور الصين إلى جاوة في وظيفة مترجم، قبل موت مولانا إبراهيم بست سنوات، أي في سنة ١٤١٣، قدوم إخوانه في الدين في هذه الجزيرة تحت عنوان "وصف عام لسواحل المحيط "، حيث يقول: "في هذه البلاد ثلاثة أنواع من الشعب: الأول المسلمون الذين جاءوا من الغرب واستقروا هنا؛ وزيهم وطعامهم نظيف مناسب. والثاني الصينيون الذين هربوا واستوطنوا هنا. وما يأكلون ويستخدمون بديع جداً كذلك، وكثير منهم قد اعتقدوا الدين الإسلامي وحافظوا على تعاليمه. والثالث الأهالي الذين على جانب عظيم من القبح والفظاظة، وهم يجيئون ويذهبون حفاة حاسري

---

(١) Veth (3) vol. 1.p. 215 Rafflesed of 1830, vol ii. Pp. 103, 104, 183.

(٢) موقع تشرمن غير محقق؛ ويظن فيث Veth (3), vol. i. P. 230. أن من الممكن أن يكون في بلاد الهند؛ ولكن روفائير Rouffaer in p. 115 يسرد أسبابًا جيدة للتدليل على أن هذا البلد يقع في سومطرة.

(٣) وقد أورد J. F. G. Brumund ص ١٨٥ وصفًا للحالة الراهنة لتلك المقابر، ولا يزال يرى على واحدة منها آثار نقش مكتوب بحروف عربية.

الرؤوس، ويعتقدون في الشياطين في خشوع وتبتل ولكون بلادهم معروفة بذلك أطلق عليها في كتب البوذية بلاد الشيطان"[١].

والآن نقترب من الفترة التي أصبح فيها لحكم المسلمين السيادة في الجزيرة، بعد أن تسرب دينهم إليها بما يقرب من قرن. وهنا نرى لزاماً أن ندخل في تفصيلات التاريخ، على نحو أكثر دقة نوعاً ما، لكي نبين أن ذلك لم يكن نتيجة أية حركة قوامها التعصب الديني، أثارها العرب، بل نتيجة ثورة قام بها أهالي البلاد أنفسهم[٢]، الذين (مع أنهم بطبيعة الحال اكتسبوا القوة من وراء ارتباطهم برباط دين مشترك) حرصوا على أن يجمعوا كلمتهم لينتزعوا السلطة العليا من أيدي مساكنيهم الوثنين، لا بالدعوة إلى حرب دينية، ولكن عن طريق ما وجهه أحد المطالبين بالعرش من الطامحين، وكان قد لحقه ظلم، من تحذير وإنذار، فأراد التشفي والانتقام[٣].

ونستطيع أن نصف الحالة السياسية في الجزيرة كما يلي:- كانت الإمارات الوسطى والشرقية من الجزيرة، وكانت أكثر الإمارات ثروة وعمراناً، وأبعدها تقدماً نحو المدنية، تحت سلطان دولة ماجاباهيت الهندوكية. وفي أقصى الغرب، نجد تشريبون **Cheribon** وإمارات أخرى كثيرة، صغيرة، مستقلة؛ حين كان سائر الجزيرة، ويشمل كل المقاطعات الواقعة في أقصى حدودها الغربية، خاضعاً لملك باجاجاران.

كان ملك ماجاباهيت قد تزوج من ابنة أمير تشامبا **Champa**، وهي ولاية صغيرة في كامبوديا شرقي خليج سيام[٤]. ولما كانت تغار من إحدى جواري الملك الحظيات، بعث الملك بهذه الجارية إلى ابنه دمر **Arya Damar** حاكم بالمنج **Palembang** في سومطرة حيث أنجبت منه ابناً اسمه رادن بتاه **Raden Patah**، وقد رُبي على أنه أحد أبناء الحاكم، وقدر لهذا الطفل بعد سنوات (كما سنرى) أن يقدم على انتقام فظيع من جراء المعاملة القاسية التي لقيها من أمه. وكانت بنت أخرى من بنات أمير تشامبا قد تزوجت من عربي كان قدم إلى تشامبا للدعوة إلى الإسلام[٥]. ومن هذا الزواج، ولد رادن رحمت **Raden Rahmat** الذي اعتنى والده بتربيته على الدين الإسلامي، ولا يزال الجاويون يعظمونه باعتباره أعظم رسل الإسلام إلى بلادهم[٦]. ولما بلغ

---

(١) Groenveldt, pp. vii. 49-50.

(٢) Kern, p. 21.

(٣) Veth (3), vol. i. pp. 233-42. Raffles, vol. ii. Pp. 113. 33.

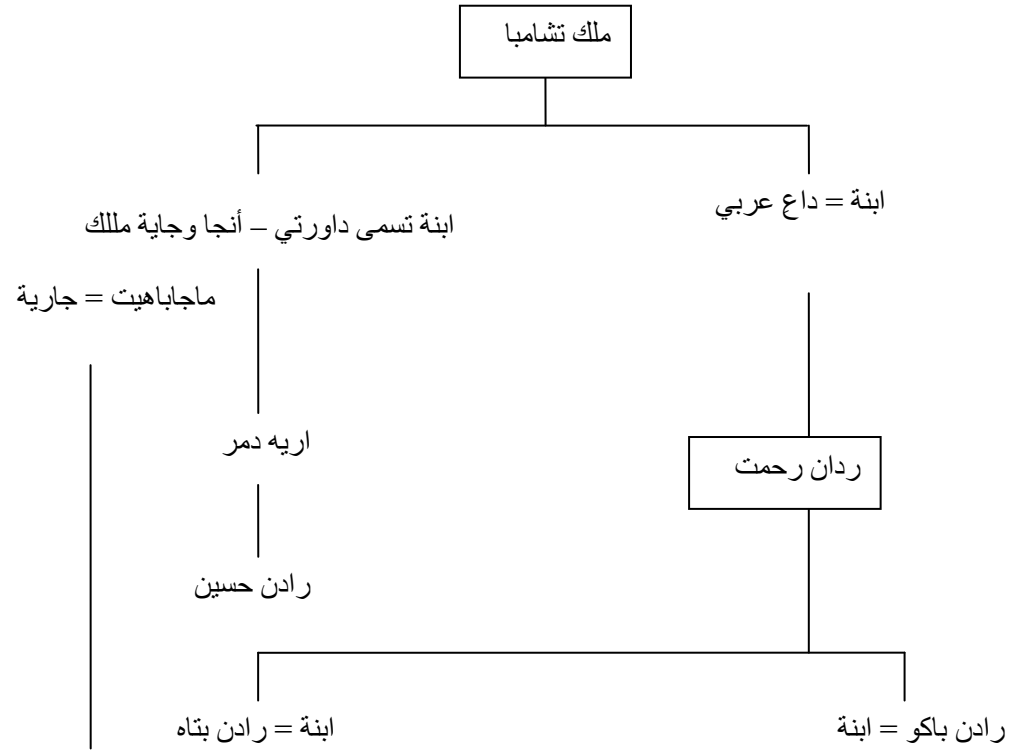
(٤) على أن روفائير يضع تشاميا هذه، لا في كمبوديا ولكن على ساحل اتجيه الشمالي، ويذكر أنها هي جومبا Djeumpa الحديثة. (Encyclopaedia van N. –J., vol. iv. P. 206).

(٥) لا تزال بقايا المآذن والمقابر الإسلامية ماثلة في تشامبا. (Bastian, vol. i. Pp. 498-9)

(٦) ويوضح جدول الأنساب الآتي صلات القرابة هذه، كما أشير في نصوص هذا الكتاب، إلى قرابات أخرى فيما بعد.

العشرين من عمره، بعث به أبواه ومعه رسائل وهدايا إلى عمه ملك ماجاباهيت. وفي طريقه، مكث شهرين في بالمبنج، ضيفاً على أريه دمر الذي كاد أن يقنعه رادن رحمت اعتقاد الإسلام، إلا أنه لم يجسر على أن يجهر بإسلامه خوفاً من الشعب الذي كان متمسكاً أشد التمسك بتقاليده القديمة. وواصل رحلته حتى بلغ جريسك حيث رحب به أحد دعاة العرب، واسمه الشيخ مولانا جُمادى الكبرى، باعتباره رسول الإسلام المنتظر إلى جاوة الشرقية، وتنبأ بأن يكون زوال الوثنية على يديه، وبأن أعماله ستكلل بدخول كثير من الناس في هذا الدين. وقد قوبل في ماجاباهيت بترحاب عظيم، من ملك تشامبا وأميرتها. وعلى الرغم من أن الملك كان نفسه غير راغب في الدخول في الإسلام، حمل لرادن رحمت مودة واحترامًا، حتى إنه عينه حاكماً على ثلاثة آلاف أسرة في أميل **Ampetl** على الساحل الشرقي، على مقربة من جريسك إلى الجنوب، وسمح له بأن يقيم شعائره الدينية وأن يدخل من يشاء في الإسلام. وبعد وقت قصير، جذب إلى الإسلام معظم هؤلاء الذين كانوا تحت سلطته.

ومنذ ذلك الحين، كانت أمبل مقر الإسلام الرئيسي في جاوة، وذاعت شهرة الحاكم الذي كان يعمل في حماسة بالغة للدعوة إلى دينه، وطبقت شهرته الآفاق. ومن ثم قدم إلى أمبل شخص يدعي مولانا إسحاق، ليمد له يد المساعدة في تحويل الناس إلى هذا الدين، وعهد إليه في مهمة نشر الإسلام في مملكة بلمبنجن



Balambangan في أقصى الحدود الشرقية لهذه الجزيرة. وهنا شفى ابنة الملك التي كانت مصابة بمرض عُضال، فوهبها أبوها البار زوجة لهذا الشيخ. واعتقدت دين الإِسلام وتحمست له، وأباح أبوها لنفسه أن يتلقى تعاليم الإِسلام، ولكنه حين حثه مولانا على أن يجهر بهذا الدين كما كان قد وعده ذلك إذا شفيت ابنته على يديه، طرده من مملكته، وأمر بأن يقتل الطفل الذي كانت ابنته توشك أن تضعه، ولكن الأم بعثت الطفل خفية إِلى جريسك إِلى أرملة مسلمة غنية[1]، فربته كأحسن ما تربي الأم ابنها، وعلمته حتى بلغ الثانية عشر من عمره، فأسلمته إِلى رادن رحمت ليتعهده ويرعاه. وبعد أن عرف قصة هذا الطفل، سماه رادن باكو، وبعد وقت، زوجه من ابنته كذلك. بعد ذلك بني رادن باكو مسجداً في جيري **Giri** في الجنوب الغربي من جريسك، حيث أدخل في الدين آلاف من الناس وبلغ من عظم نفوذه أن عينه ملك ماجاباهيت، بعد وفاة رادن رحمت حاكماً على أمبل وجريسك[2]. وفي هذه الأثناء، تألفت بعوث دينية من جريسك. واستقر ولد رادن رحمت من جهات شتي من الساحل الشمالي الشرقي، وذاعت شهرتهم بفضل حماستهم الدينية، وإدخال كثير من سكان هذه الجهات في الإِسلام. كذلك أرسل رادن رحمت داعياً، يدعى الشيخ خليفة حسين، إِلى جزيرة مادورة المجاورة، حيث بنى مسجداً وكسب كثيراً من الناس للإسلام.

والآن نرجع إِلى أريه دمر، حاكم بالمبنج (انظر ص ٣١٨). ويظهر أنه ربى أبناءه على الدين الذي خشي هو أن يجهر به، وحينذاك أرسل رادن بتاه، عندما بلغ العشرين من عمره، مع أخيه في الرضاعة، رادن حسين، وكان أصغر منه بسنتين، إِلى جاوة حيث نزلا في جريسك. ورفض رادن بتاه أن يصحب أخاه في الرضاعة إِلى ماجاباهيت، لأنه كان يعلم تمام العلم منبته ونسبه، ساخطاً على المعاملة القاسية التي كانت أمه قد لقيتها، ولكنه بقي في أمبل مع رادن رحمت، على حين واصل رادن حسين سفره إِلى الحاصرة حيث اختفى، ووكل إليه أمر مقاطعة من المقاطعات، وأصبح فيما بعد قائد الجيش.

في هذه الأثناء، تزوج بتاه من حفيده رادن رحمت، وكوّن مؤسسة في مكان يدعي بنتره **Bintara**، وكان يتميز بقوته الطبيعية العظيمة في وسط بقعة مليئة بالآجام، غربي جريسك. ولم يكد يسمع ملك ماجاباهيت عن هذه الجالية الجديدة، حتى بعث برادن حسين إِلى أخيه يستقدمه إِلى الحاضرة، ويطلب إليه بتقديم الطاعة للملك. وقد حمله رادن حسين على أن يفعل ذلك، فذهب إِلى البلاط حيث فطن الناس في الحال إِلى مشابهته الملك، وحيث قوبل بترحاب، وعين رسمياً حاكماً على بنتره. ولما كان لا يزال يتحرق إِلى الانتقام ويجنح إِلى تخريب مملكة والده، عاد إِلى أمبل، حيث أفضى بخططه إِلى رادن رحمت. وحاول هذا الأخير أن يلطف من غضبه، مذكرًا إياه أنه لم يلق قط على يدي أبيه ملك ماجاباهيت، إلا كل لطف ورعاية، وأنه في الوقت الذي كان فيه الأمير على جانب عظيم من العدل واكتساب محبة الناس، أبى عليه دينه أن يعلن حربًا أو

---

(١) يحفظ الجاويون ذكرى هذه المرأة في شرف عظيم، وكثير منهم يفدون للصلاة على ضريحها. انظر Barunmund, p. 186.

(٢) Veth (3), vol. i. Pp. 235-6

يلحق به أذى بحال من الأحوال. على أن بتاه لم يقتنع بتلك النصائح (كما يتضح ذلك فيما بعد)، فعاد إلى بنتره، وكانت في ذلك الحين تزداد أهميتها وبكثرة سكانها يوماً بعد يوم، على حين كانت جماعات كبيرة من الأهالي في البلاد المحيطة تدخل في الإسلام. وكان قد وضع خطة لبناء مسجد عظيم؛ ولكن بعد أن بدأ بناء المسجد بوقت قصير، وصلت الأخبار بأن رادن رحمت قد أصيب بداء عياء. فأسرع رادن بتاه إلى أمبل، حيث ألفى رؤساء الدعوة إلى الإسلام يجتمعون حول فراشه، وينظرون إليه باعتباره زعيماً لهم. وكان من بينهم والدا رادن رحمت، وقد تقدم ذكرهما (ص ٣١٩)، ورادن باكو الذي كان يقيم في جيري وخمسة أشخاص آخرين. ولفظ ردان رحمت نفسه الأخير بعد أيام قليلة، فزالت بذلك العقبة الوحيدة الباقية التي كانت تقف في سبيل خطط ردان بتاه الانتقامية، وصحبه الزعماء الثمانية عائدين إلى بنتره حيث أعانوه على إتمام بناء المسجد[١]. وقد أخذوا عهداً على أنفسهم أن يساعدوه في محاولته ضد ماجاباهيت. وارتبط الأمراء المسلمون جميعاً بهذا الحلف، عدا ردان حسين الذي ظل مخلصاً لسيده هو وأتباعه جميعاً. وأبي أن يدلي بدلوه مع إخوانه في الدين الثائرين.

وتبع ذلك حملة طويلة الأمد، لا حاجه لنا بنا للدخول في تفصيلاتها، ولكن في سنة ١٤٧٨[٢] بعد أن نشب قتل مستحر دام سبعة أيام. هُزم ماجاباهيت، وحلت السلطة الإسلامية محل السيادة الهندوكية في جاوة الشرقية. وبعد ذلك بوقت قصير، حوصر ردان حسين وأتباعه في مكان حصين، واضطر إلى التسليم، وسيق إلى أمبل، حيث قابله أخوه مقابلة لطيفة. وهرب عدد كبير من الذين ظلوا مخلصين لديانتهم الهندوكية القديمة في سنة ١٤٨١ إلى جزيرة بالي، حيث لا تزال عبادة سيوه هي الديانة السائدة[٣]. ويظهر أن آخرين كونوا

---

(١) لا يزال هذا المسجد قائماً، وينظر إليه الجاويون على أنه من أقدس الآثار في جزيرتهم.

(٢) ويبدو أن هنالك قليلاً من الشك في أن هذا التاريخ مبكراً جداً، وإن دراسة المصادر البرتغالية تشير إلى هذه النتيجة، وهي أن ماجاباهيت لم ينهزم إلا بعد ذلك الحين بأربعين سنة. Rouffaer, p. 144

(٣) وقد قاوم شعب بالي، حتى الوقت الحاضر، معظم الجهود الحماسية التي بذلها المسلمون لحث هذا الشعب على قبول دين الإسلام، على الرغم من دخول الناس في نفس الدين من حين إلى حين، ومن تكوين جماعة إسلامية صغيرة من الأهالي يبلغ عددها نحو ٣٠٠٠ نفس، من جملة السكان الذين يربو عددهم على ٨٦٢٠٠٠ نفس. وكان موقع الجزيرة الملائم للأهداف التجارية، يجذب دائماً إلى شواطئها عدداً من الغرباء، كانوا في أغلب الأحيان يتخذون من الجزيرة مقرا ثابتًا. وبينما نجد بعض هؤلاء الغرباء المستوطنين يحرصون دائماً على أن يكونوا بمنأى من أهالي البلاد، نرى آخرين منهم يتعاقدون معهم على الزواج، وكان من أثر ذلك أن اندمجوا في جمهور الأهالي. وإلى جهود هؤلاء، يرجع الفضل فيما أحرزه الإسلام من هذا التقدم المؤكد، وإن كان تقدماً بطيئًا جداً. ويقال إن مسلمي بالي يؤلفون جماعة نشيطة مزدهرة، زاخرة بالغيرة على ترقية دينهم، تلك الجماعة التي تؤثر –على الأقل– في جيرانهم الوثنيين، على الرغم من أن هذه الجماعة لم تصادف نجاحاً في إقناعهم بنبذ طعامهم المحبب وهو لحم الخنزير، من أجل عبادة الله. Liefrinck, pp. 214-3.

ممالك صغيره بقيادة أمراء بيت ماجاباهيت الذي ظل وقتاً ما على وثنيته، بعد أن سقطت قاعدة الهندوكين الكبيرة.

ولقد ظل أهالي جاوة الوسطي على وثنيتهم وقتا طويلاً، حتى في ظل رؤساء المسلمين، وكان تقدم الإسلام نحو الجنوب من المراكز الأولى للدعوة على الساحل الشمالي نتيجة عمل قرون. ويتجلى بوضوح تأثير عقيدتهم الهندوكية القديمة حتى الوقت الحاضر، في الأفكار الدينية لأهالي جاوة الوسطي من المسلمين. ومن الأدلة الواضحة على تلك الجذور العميقة التي ألقتها الديانة الهندوكية في هذه الجهة من الجزيرة، تلك الحقيقة، وهي أن الرجوع إلى كتب القوانين الهندية ومجموعة قوانين مانو بوجه خاص، لم تتقهقر أمام مجموعة القوانين التي كانت أكثر تمشياً مع روح التشريع الإسلامي، إلا في سنة ١٧٦٨[١].

دخل الإسلام إلى الجهات الشرقية من الجزيرة بعد ذلك بسنوات قلائل، وربما كان ذلك في أوائل القرن التالي، بسبب نشاط الدعوة الذي أظهره الشيخ هور الدين إبراهيم أحد أهالي تشريبون. وقد كسب لنفسه شهرة عظيمة لشفائه امرأة كانت مصابه بالجذام. وكان من أثر ذلك أن آلافاً من الناس جاءوا إليه ليتعلموا شعائر الدين الجديد. وقد حاول من جاوره من الزعماء أن يناهضوا هذه الحركة أول الأمر. ولكنهم لما وجدوا أن معارضتهم لا طائل تحتها سمحوا لأنفسهم أن يَجْروا مع التيار، ودخل كثير منهم في الإسلام[٢]. وأرسل الشيخ نور الدين إبراهيم التشريبوتي، ابنه مولانا حسن الدين، يدعو إلى الإسلام في بنتام، أكثر ولايات الجزيرة انحرافًا نحو الغرب، وإحدى ملحقات مملكة باجاجاران الوثنية. وهنا تكللت جهوده بنجاح عظيم، بين الداخلين في الإسلام الذين كانوا طائفة من النساك، يبلغ عددهم ٨٠٠ وتذكر أخبار هذه الجهة من البلاد، بنوع خاص، أن الأمير الشاب قد كسب هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام على يديه، بوسائل الإقناع اللطيفة وحدها، وليس بحد السيف[٣]. بعد ذلك ذهب مع أبيه إلى مكة لتأدية فريضة الحج، وعند عودته، بسط نفوذه على ساحل سومطرة القريب من بلاده، دون أن يمتشق سلاحًا، واجتذب الذين دخلوا في الإسلام على يديه بالوسائل السلمية وحدها[٤].

ولكن يظهر أن تقدم الإسلام غربي جاوة كان أبطأ بكثير منه في شرقيها. فقد تبع ذلك أن قام نزاع طويل بين عُبّاد الإله سيوه وأتباع النبي، ولا يبعد أن تكون مملكة باجاجاران الهندوكية، التي يظهر أنها باشرت السيادة على الإمارات في الجهة الغربية من الجزيرة، في وقت واحد من تاريخ جاوة، لم تصل إلى نهايتها إلا في أواسط القرن السادس عشر[٥]، على حين ظلت طوائف وثنية أخرى أقل عددًا، باقية حتى عصر أحدث من

---

(١) Encyclopaedie van N-1, vol. ii.p. 523.

(٢) Veth (3), vol, i, pp. 245, 284.

(٣) Raffles, vol, ii. P. 316.

(٤) Veth (3), vol. i. Pp. 285-6.

(٥) Id.pp. 305, 318-9.

ذلك بكثير[1] — بل ظل بعضها حتى الوقت الحاضر. ولإحدى هذه الطوائف، وتسمى البدوي **Baduwis**، تاريخ ذو أهمية خاصة. وهم ذرية قوم من أشياع الدين القديم، هربوا بعد سقوط باجاجاران إلى الغابات ومخابئ الجبال ليتمكنوا من موالاة إقامة شعائر دين أجدادهم. وفي عصور أحدث من ذلك، عندما أذعنوا لحكم سلطان بتنام المسلم، سمح لهم أن يواصلوا إقامة شعائرهم الدينية، على شريطة ألا يسمح لهم بزيادة الجماعات التي تجهر بالعقيدة الوثنية[2]. ومن الغريب أن يقال إنهم لا يزالون يحافظون على هذه العادة، على الرغم من أن الحكم الهولندي قد توطدت دعائمه في جاوة مدة طويلة، وأنه يحررهم من ضرورة الإذعان لما اتفقوا عليه منذ القدم. وهم يحددون عددهم تحديداً دقيقاً، بحيث لا يتجاوز أربعين أسرة، فإذا زادت الجماعة على هذا الحد، وجب على أسرة أو أكثر أن يتركوا النطاق الداخلي الذي يقيمون فيه، ويستقروا بين الأهالي المسلمين في إحدى القرى المحيطة بهم[3].

ولكن على الرغم من أن عمل التحويل إلى الإسلام في غرب جاوة كان أبطأ منه في سائر جهات الجزيرة، كان انتصار الإسلام على العبادة الوثنية التي حل هذا الدين محلها، أتم منه في المقاطعات التي كانت أسرع في الانضواء تحت حكم واجبات ماجاباهت، وإنما يرجع ذلك بنوع خاص، إلى تلك الحقيقة، وهي أن الديانة الهندوكية لم تكن قد تغلغلت بين الشعب في هذه البقعة، كما تغلغلت في وسط الجزيرة. والشريعة الإسلامية هنا قوة حيوية، كما أن الحضارة التي جلبت من بلاد العرب إلى هذه البلاد، قد اتسقت مع الحكومة وحياة الشعب. وقد لاحظنا أن مسلمي غربي جاوة، في الوقت الحاضر، وهم الذين يدرسون ديانتهم دراسة تامة ويؤدون فريضة الحج في مكة يؤلفون في العادة، أشد طبقات الأهالي نجابة ورفاهية[4].

ولقد رأينا من قبل أن طوائف كبيرة من الجاويين ظلوا على وثنيتهم قروناً بعد قيام الممالك الإسلامية في الجزيرة. وجميع أهالي جاوة في الوقت الحاضر مسلمون، عدا قلة ليس لها شأن يذكر. ومع أن كثيراً من الخرافات والعادات قد بقي بينهم من أيام أجدادهم الوثنيين، لا يزال الميل يتجه دائماً إلى إرشاد التفكير والسلوك على مدى تعاليم الإسلام. وقد سارت جهود التحويل إلى الإسلام تلك المدة الطويلة قدماً في هدوء وتدرج، كما يرجع نمو الولايات الإسلامية في الجزيرة إلى تاريخها السياسي أكثر من أن يكون راجعاً إلى تاريخها الديني، ذلك أن ما أحرزه الدين من تقدم كان نتيجة أعمال الدعاة أكثر من أن يكون نتيجة أعمال الأمراء. وفي الوقت الذي كان مسلمو جاوة يتآمرون على الحكومة الهندوكية ويضعون حكم البلاد في أيديهم بالقوة والعنف، كانت تدبر ثورة لا تحمل في طياتها إلا طابع الهدوء. في سائر أجزاء الأرخبيل، عن طريق

---

(١) ويذكر رحالة كان في جاوة في سنة ١٥٩٦ مملكتين أو ثلاث ممالك وثنية، يسكنها عدد كبير من الأهالي الوثنيين. Niemann, p. 342.

(٢) Raffles, vol. Ii. Pp. 132- 3.

(٣) Metzger, p. 279.

(٤) L. W. C. Van den Berg (1), pp. 35-6. C. Poensen, pp. 3-8.

الدعوة إلى الإسلام التي قام بها الدعاة الذين كانوا يحرزون نجاحًا بطيئًا، ولكنه كان مؤكدًا، فيما بـــذلوه مـــن جهود في نشر تعاليم الدعوة، ولتوجه عنايتنا أولاً إلى تاريخ حركة الدعاية هذه في جزائر ملوكَس.

في ملوكس: ولابد أن تكون تجارة القرنفل قد أدت إلى ارتباط أهل ملوكس بسكان الجزائر في النصف الغربي من الأرخبيل منذ أزمان مبكرة جدًا، ونشر الجاويون الذين دخلوا في الإِسلام، وأهل الملايو الآخـــرون الذين قدموا إلى هذه الجزائر للتجارة، دينهم بين سكان الساحل(١). ويرجع رفاق مجلان **Magellan** هـــذا إلى قصة عجيبة، عن الطريقة التي أدخل بها هؤلاء الرفاق عقائدهم الدينية بين أهالي ملوكس: "بدأ ملـــوك هـــذه الجزائر(٢)، قبل قدوم الأسبانيين بسنوات قليلة يعتقدون خلود الروح، و لم يقتنعوا إلا بحجة واحدة، وهي أنهـــم كانوا قد رأوا طائرًا صغيرًا رائع الجمال لا نظير له على الأرض، ولا على أي شيء يتعلـــق بـــالأرض. وقـــد أخبرهم المسلمون الذين كانوا يزاولون التجارة في هذه الجزائر، أن هذا الطائر الصغير قد ولد في الجنـــة، وأن هذه الجنة هي المكان الذي تستريح فيه أرواح الموتى. ولهذا السبب، انضم السادة إلى طائفة المســـلمين لأنهـــا تعدهم أشياء كثيرة عجيبة في هذا المكان الذي تستريح فيه الأرواح(٣).

ويظهر أن الإسلام بدأ يحرز تقدمًا لأول مرة في هذه البقعة في القرن الخامس عشر. وقد أذعـــن ملـــك تيدور الوثني لما قدمه إليه عربي يدعى الشيخ منصور من إقناعه، واعتقد الإسلام مع كثير من رعاياه. وأبـــدل باسم الملك الوثني، تجيريلي ليجاتو **Tjireli Lijatu** اسم جمال الدين؛ كما سمى أكبر أبنائه منصوراً على اســـم معلمهم العربي(٤). وكان هذا الأمير الأخير هو الذي أكرم وفادة البعثة الأسبانية التي وصلت إلى تيدور في سنة ١٥٢١، بعد أن لاقى مجلان حتفه المشئوم بزمن قصير. ويسميه بيجافتا، مؤرخ هذه البعثة، باسم ريا ســـلطان موزر **Raia Sultan Mauzor**، ويقول إن عمره كان يزيد على خمس وخمسين سنة، وإنه لم يمض أكثر مـــن خمسين سنة على قدوم المسلمين للإقامة في هذه الجزائر(٥).

---

(١) De Barros, Dec. iii. Liv. V. Cap. V. Pp. 579- 80. Argensola, p. II. B.

(٢) في هذه الفترة، كان أهل ملوكس في أغلب الأحيان، في ظل حكم الأمراء الأربعة، نعنـــي بـــذلك أمـــراء ترنـــات Ternate وتيدور Tidor، وجيلولو Gilolo وباتجان Batjan. وكان الأول أعظمهـــم نفـــوذًا بكثيـــر، وامتـــدت ممتلكاته إلى ترنان والجزائر الصغيرة المجاورة، وجزء من هليماهيرا Halemahera، وجانب عظيم من جزائـــر سليبيس Celebes، وأمبوينا، وبنده Bonda. وبسط سلطان تيدور نفوذه على تيدور وبعض الجزائـــر الصـــغيرة المجاورة. جزء من هليماهيرا، والجزائر الواقعة بينها وبين غينا الجديدة، ويقترن بذلك الســـاحل الغربـــي لغينيـــا الجديدة، وقسم من سرام Ceram. ويظهر أن أراضي سلطان جيلولو كانت تنحصر فـــي الجـــزء الأوســـط مـــن هليماهيرا وفي جزء من ساحل سرام الشمالي، بينما حكم سلطان باتجان أجزاء أهمها باتجان ومجموعة أوبي De Hollander, vol. i. P. 5

(٣) Massimiliano Transilvano. Ramusio, tom. i. P. 351.D.

(٤) P.J.B. C. Robidé van der Aa, p. 18.

(٥) Pigafetta, tome i. Pp. 365, 368

ويظهر أن الإسلام قد رسخت قدمه في جزيرة ترنات المجاورة قبل ذلك بوقت قصير. فقد أخبر سكان هذه الجزيرة البرتغاليين، الذين قدموا إلى هذه الجزيرة في نفس السنة التي وصل فيها الأسبان إلى تيدور، أن الإسلام كان قد دخل في بلادهم منذ أكثر منن ثمانين سنة بزمن وجيز(١).

ويروي البرتغاليون كذلك(٢)، أن سلطان ترنات كان أول زعماء ملوكس الذين أصبحوا مسلمين. وتحكي أسطورة دخول الإسلام إلى هذه الجزيرة كيف أثار أحد التجار، ويدعي داتو ملا حسين، حب الاستطلاع في نفوس الشعب عندما رأوه يتلو القرآن بصوت عالٍ على مشهد منهم. وقد حاولوا تقليد الحروف المكتوبة في المصحف، ولكنهم عجزوا عن قراءتها، فسألوا التاجر كيف تمكن من قراءتها، على حين عجزوا هم عن أن يفعلوا ذلك. فأجاب أن من الواجب عليهم أولاً أن يؤمنوا بالله ورسوله. ومن ثم أعربوا عن رغبتهم في قبول تعاليمه، وانتهوا إلى الدخول في العقيدة(٣). وقد قيل إن سلطان ترنات الذي تبوأ أرفع مكانة بين الحكام المستقلين في هذه الجزائر، قام برحلة إلى جريسك في جاوة، ليعتقد الدين الإسلامي هناك في سنة ١٤٩٥(٤). وقد ساعده فيما بذل من جهود لنشر الدعوة شخص يدعى باتي يُتاه **Pati Putah**، وكان قد قام برحلة من هيتو في أمبوينا إلى جاوة ليتعلم عقائد الدين الجديد، وينشر معارف الإسلام بين شعب أمبوينا بعد عودته(٥). على أنه يظهر أن الإسلام لم يخط أول الأمر نحو التقدم إلا خطوات بطيئة، وأنه لقي معارضة كبيرة من سكان هذه الجزائر، الذين تشبثوا بخرافاتهم وأساطيرهم القديمة في حماسة وغيرة، حتى إن الوثنية القديمة ظلت فترة من الزمن مشوبة بتعاليم القرآن، جاعلة عقول الشعب في حالة مستمرة من القلق(٦). كذلك جعلت غزوة البرتغاليين تقدم الإسلام أبطأ مما قد يكون لو أن هذه الغزوة لم تحدث. فقد طردوا القاضي، الذي وجدوه يفقه الناس في عقائد محمد، ونشروا المسيحية بين الأهالي الوثنيين، ولقوا في ذلك شيئًا من النجاح، وإن كان قصير الأمد(٧). ذلك أنه عندما استغل أهل ملوكَس انصراف البرتغاليين الذين اشتغلوا بمتاعبهم الوطنية الخاصة، في النصف الأخير من القرن السادس عشر، وحاولوا التخلص من سلطانهم، دبروا اضطهاداً عنيفًا في وجه المسيحيين الذين استشهد كثير منهم، وارتد آخرون منهم عن ديانتهم، حتى لم يعد للمسيحية ذلك الشأن الذي كان لها من قبل(٨). ومنذ ذلك الحين، هيأت مناهضة سلطة المسيحيين صدراً أرحب لقبول المعلمين

---

(١) "كلما تقدموا في البلاد أتيح لنا الوقت للتعليم من أهل البلاد سر هذه العقيدة، وكانت قد دخلت البلاد منذ نيف وثمانين سنة" J. de Barros. Da Asia, Dec iii. Liv. V. Cap. V. P. 580.

(٢) Id. Ib.

(٣) Simon, p. 13.

(٤) Boskmayer, p. 39.

(٥) Simon, p. 13.

(٦) Argensola, pp. 3-4.

(٧) Id. p. 15 B.

(٨) Id. pp. 97, 98.

المسلمين الذين جاءوا من الغرب في جموع تزداد شيئًا فشيئًا[١]. وقد أجهز الهولندي على المسيحية في ملوكس بطرد الأسبان والبرتغاليين من هذه الجزائر في القرن السابع عشر، ومن ثم حمل الآباء اليسوعيون البقية الباقية القليلة من مسيحي ترنات معهم إلى جزائر الفيليبين[٢]. ومن هذه الجزائر، انتشر الإسلام في سائر ملوكس، مع أن الذين دخلوا في الإسلام كانوا مقصورين فترة من الزمن على سكان الساحل[٣]. وقد جاء معظم الذين دخلوا في الإسلام من بين سكان الملايو الذين يؤلفون جميع أهالي الجزائر الصغرى، ولكنهم يسكنون في الأراضي الساحلية، من الجزائر الكبرى وحدها، على حين يسكن الألفور **Alfurs** في المناطق الداخلية. ولكن الذين دخلوا في الإسلام في عصور حديثة قد أخذوا من بين هؤلاء الألفور كذلك[٤]. بل كان هنالك في عهد مبكر جداً، في سنة ١٥٢١، ملك مسلم لولاية جيلولو **Ciolo** على الجانب الغربي من الطرف الشمالي لجزيرة هليماهيرا[٥]. وفي أزمان حديثة، أدى وجود قوانين خاصة، سنت لمصلحة دين الدولة، إلى تسهيل تقدم الدين الإسلامي، إلى حد ما، بين الألفور الساكنين في المناطق الكبرى، من هذه القوانين أنه إذا ثبت أن أي فرد منهم كان يعاشر فتاة مسلمة معاشرة غير شرعية، وجب عليه أن يتزوجها، وأن يدخل في الإسلام، وأن أية امرأة من الألفور تتزوج من مسلم وجب أن تعتقد دين زوجها. وقد يكفر المرء عما يقترف من آثام يعاقب عليها القانون، بالتحول إلى الإسلام. وإذا أريد شغل منصب شاغر من مناصب الرؤساء، فإنه لا ينظر إلى مؤهلات المرشح القانونية، بقدر ما ينظر إلى استعداده لاعتقاد الإسلام[٦].

في بورنيو: وعلى هذا النحو، ينحصر المسلمون في بورنيو غالبًا على الساحل، مع أن الإسلام قد كسب نفوذاً في الجزيرة في عهد مبكر، أعني في مستهل القرن السادس عشر وحول هذا الوقت، اعتقد هذا الدين شعب بنجرماسين **Banjarmasin**، وهي مملكة على الجانب الجنوبي، كانت خاضعة لمملكة ماجاباهيت الهندوكية، حتى دالت في سنة ١٤٧٨[٧]. ويرجع الفضل في دخولهم في الإسلام إلى إحدى الولايات الإسلامية التي قامت على أنقاض مملكة ماجاباهيت[٨]. والقصة هي أن شعب بنجرماسين طلب المساعدة لقمع إحدى

---

(١) Id. p. 158. حيث يطلق على ترنات "هذا المصب الذي كانت التيارات تنحدر إليه من كل صوب، والذي تنبعث منه كل مذاهب الكفر، وخاصة عقيدة محمد البغيضة. ومنذ عام ١٥٨٥، حين دخل الهولنديون هذه البحار، لم تكف هذه العقيدة عن الانتشار وكسب الأنصار واجتذاب قباطنة القراصنة، هؤلاء الرؤساء الذين كانوا يحملون معهم خبرات آسيا، ويخلفون مكانها هذه العقيدة، ويحولون إليها هذه النفوس".

(٢) ولا تزال سلالتهم في ولاية كافيتيه Cavité في جزيرة لوزن .Luzon. Crawfurd (1), p. 58.

(٣) W.F, Andriessen, p. 222.

(٤) T. Forrest, p. 68.

(٥) Pigafetta. Ramusio, vol. i. p. 366.

(٦) Campen, p. 346. Koloniaa Verslag van 1910, p. 56; 1911, p. 52.

(٧) Dulaurier, p. 528.

(٨) تقع دمك Damkaعلى ساحل جاوة الشمالي، وتقابل جنوبي بورنيو.

الثورات، وأن هذه المساعدة قدمت لهم على شريطة أن يعتقدوا الدين الجديد، ومن ثم قدم عدد من المسلمين من جاوة، وقضوا على الثورة، وعملوا بهذا الشرط فتحولوا إلى الإسلام[١]. وعلى الساحل الشمالي الغربي، وجد الأسبان ملكًا مسلمًا في بروناي **Brunai**، عندما بلغوا هذا المكان في سنة ١٥٢١[٢]. وبعد ذلك بقليل، أعني في سنة ١٥٥٠، دخل الإسلام إلى مملكة سوكَدنه[٣] **Sukadana**، في الجانب الغربي للجزيرة، على أيدي العرب الذين جاءوا من بالمبنج في سومطرة[٤]. وأبى الملك الحاكم أن يترك دين آبائه، ولكن يبدو أن الدين الجديد، في غضون الأربعين سنة التي انقضت قبل موته (في سنة ١٥٩٠) قد أحرز تقدمًا كبيرًا، وأصبح خليفته على العرش مسلمًا، وتزوج بنت أمير من أمراء الجزيرة المجاورة، التي كان الإسلام فيها قد توطدت دعائمه توطدًا ظاهرًا منذ وقت طويل[٥]، ويتحدث رحالة[٦] في عهده، زار الجزيرة في سنة ١٦٠٠ عن الإسلام باعتباره الدين الشائع على طول الساحل. على أن سكان المنطقة الداخلية، كما يخبرنا، كانوا جميعًا وثنيين — وأكثرهم في الواقع لا يزال على وثنيته حتى الوقت الحاضر. ويظهر أن تقدم الإسلام في مملكة سوكدنة قد لفت الآن أنظار مركز العالم الإسلامي إلى تلك البقعة النائية، وفي عهد الأمير الذي خلفه، قدم شخص يدعى الشيخ شمس الدين من مكة يحمل هدية تتألف من نسخة من القرآن، وخاتم مرصع بحجر يمني كبير، مع كتاب ذكر فيه أن هذا الذائد عن الدين، قد مُنح لقب شرف سلطان محمد صفي الدين[٧].

وفي النصف الأخير من القرن الثامن عشر، قيل إن إحدى القبائل التي تسكن في الداخل، وتسمى قبيلة إيدان **Idaans**، وكانت تقطن في المنطقة الداخلية من شمال بورنيو، كانت تنظر إلى مسلمي الساحل نظرة ملؤها الاحترام والتقدير، باعتبار أنهم يعتقدون ديانة لم يدن بها أفراد هذه القبيلة أنفسهم[٨]. ويخبرنا دلرايمبل **Dalrymple**، الذي استقى معلوماته عن قبيلة إيدان التي تقيم في بورنيو، في أثناء زيارته إلى سولو **Sulu** من سنة ١٧٦١ إلى ١٧٦٤، أن أفراد هذه القبيلة "يكنّون أسفًا صادقًا على جهالتهم، وفكرة وضعية عن أنفسهم لهذا السبب عينه، ذلك أنهم، عندما كانوا يأتون إلى دور المسلمين أو سفنهم، نراهم يظهرون لهم أشد ألوان

---

(١) Hageman, pp. 236-9.

(٢) Pigafetta, Ramusio, tom. i. pp. 363-4.

(٣) De Hollander, vol. ii. P. 67. كان قد أسس هذه المملكة، جالية قدمت من المملكة ماجاباهيت الهندوكية وربما كانت قد وقعت بطبيعة الحال تحت تأثير النفوذ الإسلامي بعد تحول الجاويين إلى الإسلام.

(٤) Dozy (1), p. 386.

(٥) Veth (2), vol. i. p. 193.

(٦) Oliver de Noort. Histoire général des voyages, vol. xiv. Xiv. P. 225. The Hague, 1756.

(٧) وقد توفى صفي الدين حول سنة ١٦٧٧، ولا يبدو أن أباه قد اتخذ لنفسه اسماً إسلامياً، وهو لا يعرف –على الأقل إلا باسمه الوثني، بنم بهان جيري كوسوما.
Netscher, pp. 1415. Panembahau Giri- Kusuma.

(٨) Thomas Forrest, p. 371.

التبجيل والاحترام، باعتبارهم ذوي عقول أسمى من عقولهم، ولأنهم يعرفون خالقهم. وهم لا يجلسون في المكان الذي ينام فيه المسلمون، ولا يضعون أصابعهم في نفس التشونان أو علبة الفلفل، ولكنهم يأخذون قليلاً منها في خضوع بالغ؛ وهم، في كل مثال، يعبرون، بأشد ميولهم وإشاراتهم ضعة وحقارة، عما يضمرونه من تعظيم للإله الذي لا يعرفونه، بما يظهرونه من احترام وتوقير لهؤلاء الذين عرفوا ذلك الإله"(١). ويلوح أن هذا الشعب قد اعتقد الإسلام منذ ذلك الحين(٢)؛ وهذا من الشواهد الكثيرة التي تدل على التأثير القوي الذي أحدثه الإسلام في القبائل التي بلغت أحط درجات المدنية، وقد تحدث حالات من الدخول في الإسلام، من حين إلى حين، بين الجاليات المختلفة، كالعرب، والبوجى **Bugis**، وأهالي الملايو، والصينيين (الذين كانوا قد استوطنوا هذه البقاع منذ القرن السابع)(٣)، والعبيد الذين دخلوا إلى هذه الجزيرة من أقطار مختلفة، حتى إن مسلمي بورنيو في الوقت الحاضر، يكونون جنساً خليطًا من كثير من العناصر(٤). وكان كثير من هؤلاء الغرباء لا يزالون على وثنيتهم، عندما قدموا لأول مرة إلى بورنيو، وكانوا أرقى حضارة من قبائل الدياك **dyaks** الذين غزاهم هؤلاء الغرباء، وطردوهم إلى الداخل حيث لا يزال السواد الأعظم منهم على وثنيته، اللهم إلا في الجانب الغربي للجزيرة، حيث تعتقد الإسلام قبائل قليلة العدد من الدياك من حين إلى حين(٥). وعندما كان الوثنيون من قبائل الدياك يغيرون عقيدتهم، كان الأعم الأغلب أنهم كانوا أكثر خضوعاً للمؤثرات الإسلامية، منهم للتبشير المسيحي؛ أو كانوا يدخلون أولاً في المسيحية، ثم يتحولون إلى الإسلام، ويبذل المسلمون جهوداً تنطوي على الحماسة، لاكتساب الداخلين في الإسلام من بين الدياك الوثنيين والمسيحيين على سواء(٦).

في سليبيس: على هذا النحو، نجد الدين الإسلامي ينمو نمواً بطيئاً في جزيرة **Celebes**، بعد أن نبت بين سكان الساحل، وشق طريقه ببطء نحو الداخل. على أنه لم يعتقد الإسلام إلا الجانب الأرقى مدنية من السكان. وينقسم هذا الجانب إلى قبيلتين: قبيلة مكسر **Macassars** والبوجى **Bugis**، الذين يسكنون في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة، هذا إلى إن البوجى كذلك، يكونون نسبة كبيرة من أهالي الساحل في أشباه الجزائر الأخرى. ولا يزال الأهالي الذين يقيمون في داخل الجزيرة على وثنيتهم، عدا الجنوب الغربي لشبه الجزيرة، حيث يعتقد الإسلام جميع السكان تقريباً، وأكثر سكان الداخل من الألفور، وهم شعب منحط في مستوى الحضارة، ويكون السواد الأعظم من سكان الشمال والشرق والجنوب الشرقي من أشباه الجزائر. وفي أقصى أول أشباه الجزائر هذه، أي في ميناهسا **Minahassa**، دخل الناس في المسيحية في جموع كبيرة، و لم

---

(١) Essay towards an account of Sulu, p. 557.

(٢) B. Banciera, p. 161.

(٣) J. Hageman, p. 224.

(٤) Veth (2), vol. i. p. 179.

(٥) De Hollander, vol. ii.P. 61.

(٦) Coolsma, P.556 Koloniaal Verslag van 1911,pp.38,41,1912.p.30.

يشق المسلمون طريقهم إلى هذه البقعة إلا بعد أن رسخت أقدام البرتغاليون في هذه الجهة من الجزيرة، ونجد الألفور الذين حولهم البرتغاليون إلى الكاثوليكية الرومانية، ينقلبون بروتستانتيين على يد الهولنديين، الذين قام مبشروهم بأعمالهم في ميناهسا، ولقوا نجاحاً عظيماً جداً في هذه السبيل. ولكن الإسلام يشق طريقه في بطء بين القبائل الوثنية من الألفور في جهات شتى من الجزيرة، سواء في المقاطعات التي تديرها الحكومة الهولندية مباشرة، أو في تلك التي كانت تحت ظل حكم الرؤساء الوطنيين[1]. وعندما زار البرتغاليون الجزيرة لأول مرة، حول سنة ١٥٤٠، لم يجدوا إلا قليلاً من الغرباء المسلمين في جوا **Gowa** قاعدة مملكة مكسر، وكان أهلوها لم يدخلوا في الإسلام بعد، ولم يأخذ الناس في الدخول في الإسلام بصفة عامة إلا في مستهل القرن السابع عشر، وتاريخ هذه الحركة ذو أهمية خاصة، لأننا نلتمس فيها إحدى الحالات القليلة، التي كانت تتنافس فيها المسيحية والإسلام لاكتساب ولاء الشعب الوثني. من ذلك ما يقصه مصنف قديم عن إحدى حوادث هذا النزاع بطريقة الإعجاب: "ينظر البرتغاليون إلى كشف قطر على هذا النحو من الأهمية، على أنه مسألة، ذات شأن عظيم، وقد اتخذت التدبيرات لكسب عواطف هؤلاء القوم الذين وجد أن غزوهم أمر ليس من السهولة بمكان على أنهم كانوا، من جهة أخرى، على استعداد لأن يقبلوا المعروف، وينقلبوا قوماً صالحين، كحلفائهم، بالمعاملة الطيبة. وكان الشعب أشجع بل أحسن فهماً وإدراكاً من السواد الأعظم من الهنود. ولذلك أخذوا بوجه عام يدركون، بعد مناقشة قصيرة مع الأوروبيين، أن ديانتهم خالية من أي معنى أو مغزى، ولم يكن قليل منهم ممن كان قد دخل في المسيحية برعاية دون انطونيو جلفانو **Don Antonio Glavano** (حاكم مُلوكّس) قد عرفوا تعاليم المسيحية معرفة كاملة، بحيث يتسنى تعليمهم ديناً جديداً. على أن الشعب بأسره، قد أنكر خرافاته القديمة على وجه العموم، وأصبح يؤمن بالله دفعة واحدة. ولكنهم لم يقنعوا بذلك، فقرروا أن يرسلوا، في وقت واحد إلى ملقه يطلبون قساوسة المسيحيين، والى أتشين[2] يطلبون أئمة في الشريعة الإسلامية، وعقدوا النية على أن يعتقدوا ديانة أول من يقدم عليهم من الذين أرسلوا إليهم. ولكن يظهر أن دون رويس بريرا **Don Ruis Perera** الذي كان حاكم ملقه في ذلك الحين، كان يعوزه بعض الاهتمام بشئون الدين، إذ أحدث تأخيراً كبيراً لا مبرر له، في إرسال القساوسة المطلوبين هذا من جهة، ومن جهة أخرى، لم تكد ملكة أتشين، وهى مسلمة متعصبة، تتلقى خبراً عن استعداد أهالي جزيرة سليبيس وميلهم، حتى بادرت إلى إرسال سفينة مملوءة بأئمة الشريعة، الذين وطدوا دعائم دينهم بين سكان الجزيرة توطيداً قوياً في زمن قصير. وبعد فترة من الزمن قدم القساوسة المسيحيين، وحقروا من شأن الشريعة الإسلامية تحقيراً مريراً، ولكن دون جدوى، فقد اختار أهالي سيليبس ديانتهم، ولم يعد في الإمكان حملهم على تغييرها. والحق أن أحد ملوك الجزيرة، وكان قد اعتقد المسيحية من قبل تشبث بدينه، وتحول معظم رعاياه إليه ولكن السواد الأعظم من

(١) Med. Ned. Zendelinggen, vol. xxxii. P. 177; vol, xxx. p.170.

(٢) أي أنجيه.

أهالي سليبيس، ظلوا مسلمين، وهم كذلك إلى اليوم كما أنهم أشد حماسة لدينهم من أهالي أية جزيرة من جزر الهند الشرقية[١].

وقد قيل أن هذه الواقعة حدثت في سنة ١٦٠٣[٢]. وإن كثرة الإشارة إليها في الآداب المعاصرة تجعل الشك في صحتها التاريخية أمراً محالاً[٣]. وفي ولاية تلو الصغيرة **Tallo**، شمالي جوا، التي كانت دائماً حليفة لها، لا يزال يُرى ضريح أحد مشاهير الدعاة إلى مكسر، واسمه خطيب تونجال. وقد برهن أمير هذه الولاية، على أنه أشد أبطال الدين الجديد حماسة وغيرة، وعن طريق نفوذه اعتقد الإسلام كل القبائل التي تتكلم لغة مكسر على وجه الإجمال. ولم تكن نتيجة هذه الحركات ذات طابع سلمى بحت، فقد انجرف أهالي مكسر في تيار حماستهم لدينهم الذي اعتقدوه حديثاً، ليقوموا بمحاولة لفرضه على جيرانهم من البوجي. وعرض ملك جوا على ملك بوني **Boni** أن يعتبره مماثلاً له من جميع الوجوه لو أنه عبد الإله الحقيقي وحده. وشاور ملك بوني شعبه في الأمر فقالوا له: (لم نحارب بعد، ولم ننهزم بعد). وقد ذاقوا عاقبة الحرب، وحلت بهم الهزيمة وكان من أثر ذلك أن اعتقد الملك الإسلام، وأخذ من ناحيته يحاول أن يفرض عقيدته على رعاياه، كما حاول أن يفرض هذه العقيدة على ما جاوره من الولايات الصغيرة، بالقوة والإكراه. ومن الغريب أن يقال إن الشعب طلب معونة ملك مكسر، فأرسل رسلاً يطلبون إلى ملك بوني أن يجيب عن الأسئلة الآتية: – هل فعل الملك ما فعله من الاضطهاد بوحي خاص من النبي؟ – أم فعل ذلك تلبية لنداء عادة قديمة؟ — أم فعل ذلك جرياً وراء لذته الخاصة ؟ فإن كان السبب الأول، فإن ملك جوا يتوق إلى معرفة تفصيل ذلك؛ وإن كان السبب الثالث، فعلى ملك بوني أن يكف، لأن هؤلاء الذين ظن أنهم يظلمهم، أنما هم أصدقاء جوا. ولم يجب ملك بوني عن شيء من هذه الأسئلة، وسير أهالي مكسر جيشاً عظيماً إلى تلك البلاد، وتغلبوا عليه في ثلاث معارك متتالية. وأرغموه على مغادرة البلاد وحولوا بوني إلى إمارة. وبعد أن ظل شعب بوني خاضعاً ثلاثين عاماً، رفعوا لواء العصيان في وجه مكسر بمساعدة الهولنديين، وادعو زعامة قبائل سليبس، بدلاً من سادتهم السابقين[٤]. ولا شك أن الدعوة إلى الإسلام كانت تسير بين البوجى فيما يظهر تدريجياً وفي بطء[١]، ولكن لم

---

(١) AComplete History of the Rise and Progress of the Protugeze Empire in the East Indies. Collected chiefly from their own Writers. John Harris: Navigantium atque Itainerantium Bibliotheca, vol.i. p. 682. London, 1764.

(٢) Crawfurdl (1), p. 91. وتذكر The Encyclopaedia van N.1- vol. i. p. 216 أن تاريخ هذه الواقعة هو سنة ١٦٠٦.

(٣) راجع ما كتبه فرناندیه نفاريت، وهو قسيس أسباني ذهب إلى جزائر الفيليبين في سنة ١٦٤٦ وذلك في Collection of Voyages and Travels, p. 236 London, 1752 وراجع ما كتبه تافرنيير Tavernier الذي زار مكسر سنة ١٦٤٨ في Travels in India, p. 193. London, 1678 وراجع: Itinerarium Orenale R.p. F. philippi á SSma. Trinitate Carmeiliae Discalceati ab ipso conscriptum, p. 267. Lugdnni, 1649.

(٤) Crawfurd, vol. ii. Pp. 285-9.

يكادوا يعتقدون الدين الجديد حتى أثار هذا الدين، فيما يظهر روح العمل فيهم، كما أثار العرب من قبل (ولو أن هذا النشاط الذي أوقظ حديثاً في كل من هاتين الحالتين كان يتحول إلى اتجاهات مختلفة كل الاختلاف)، وخلق منهم القوم الذين نراهم الآن قوماً كانوا من قبل أشجع الناس، وأكثر سكان الأرخبيل مزاولة للتجارة واشتغالاً في الملاحة[٢]. فهم يشقون طريقهم بسفنهم التجارية، إلى كافة أنحاء الأرخبيل، من ساحل غينيا الجديدة إلى سنغافورة، وقد أدخلت جالياتهم المتنوعة، التي ميزت قبائل البوجي أنفسهم في تكوين هذه الجاليات تمييزاً خاصا، دين الإسلام إلى كثير من الجزائر الوثنية: مثال ذلك، أن إحدى مستعمراتهم كانت مؤسسة في ولاية تنبسط على جزء كبير من ساحل فلورز الجنوبي حيث أحرزوا النجاح، بعد أن اختلطوا بالأهالي الأصليين، الذين كان جانب منهم يتألف من الرومان الكاثوليك، في تحويل كل سكان هذه الولاية إلى الإسلام[٣].

كذلك ربط البوجي في بلادهم الأصلية، جزيرة سيليبس، بين الجهود في نشر تعاليم الدعوة، وأعمالهم التجارية، وقد نجحوا، في مملكة بولانج مونجندو **Bolaäng - Mongodou** في شبة الجزيرة الشمالي[٤] في خلال القرن الحالي، في أن يضموا إلى الإسلام عدداً من الأهالي المسيحيين الذين يرجع تاريخ تحولهم إلى الإسلام إلى نهاية القرن السابع عشر. وكان أول ملك مسيحي لمملكة بولانج – مونجندو يعقوب منوبو **Jacobous Manopo** (١٦٨٩ – ١٧٠٩) وفي عهده انتشرت المسيحية انتشاراً سريعاً. بسبب نفوذ شركة الهند الشرقية الهولندية وتبشير رجال الكنيسة من الهولنديين[٥] وكان جميع خلفائه مسيحيين حتى سنة ١٨٤٤، عندما اعتقد الإسلام الراجة الحاكم في ذلك الحين واسمه يعقوب مانويل منوبو، وكان دخوله في الإسلام بداية سلسلة من الجهود في نشر تعاليم الدعوة، التي كانت قد أحرزت تقدماً منذ بداية هذا القرن. ذلك أنه حدث حول ذلك الوقت، أن الجهود الحماسية التي قام بها بعض تجار المسلمين – البوجى وغيرهم – قد ظفرت بفريق تحولوا إلى الإسلام في إحدى المدن الساحلية لمملكة مونجندو الجنوبية ومن هذه المدينة ذاتها، أخذ داعيان من التجار، يقال لهما حكيم بجوس وأمام تويكو، ينشران دينهما في سائر أنحاء المملكة. وكان أول ما قام به، أن

---

(١) "ويظهر أنه لم تبذل جهود غير عادية في مصلحة الدين الجديد، مدة طويلة. ويتميز شعب سليبيس، دون سائر القبائل في الجزائر الشرقية، بأنه يمقت البدع، ويلتزم العادات القديمة في اعتقاد وتشبث. وهذه الصفات تدل، لأول وهلة، على أنها أشد العقبات التي تقف في سبيل انتشار الإسلام، ولا يبعد أن يكون هذا هو السبب الذي أخر اعتقاد الناس هذا الدين الجديد تلك الفترة الطويلة حتى استطاع أن يتسرب إليهم عن طريق تسربله برداء القديم" Crawfurd (2), vol. ii. P. 387.

(٢) Crawfurd (1), p. 75. de Hollander, vol. ii. P. 212.

(٣) De Hollaneer vol. ii. P. 666. Riedel (2), p. 67.

(٤) وتقع شرقي ميناهسا بين خطى طول ٤٥° ١٢٤° و ٢٠ ١٢٣°، وقد قدر عدد سكانها تقديراً يتراوح بين ٣٥,٠٠٠، ٥٠,٠٠٠ De Hollander, vol. ii. P. 247.

(٥) Wiken(1), pp. 42-4.

أدخلا في الإسلام بعض العبيد، والنساء الوطنيات اللائي تزوجوا منهن. وقد حث هؤلاء أصدقائهم وأقاربهم على اعتقاد الدين الجديد شيئاً فشيئاً. ومن مونجندو انتشر الإسلام إلى مملكة بولانج الشمالية. وفي هذه البقعة، في سنة ١٨٣٠، كان الأهالي جميعاً إما مسيحيين أو وثنيين، عدا جاليتان أو ثلاثاً من المسلمين. ولكن سرعان ما أحرز دعاة الإسلام المتحمسون من البوجى والعرب الذين ساعدوهم على أداء أعمالهم الخاصة بنشر الدعوة، نجاحاً واسع النطاق. ولم يتسلح المسيحيون الذين كانت معرفتهم بعقائد دينهم تافهة للغاية، والذين كان إيمانهم ضعيفا جدًا، تسلحاً تامًا بأسلحة الجدل لكي يواجهوا هجمات العقيدة المنافسة. ولما كانت الحكومة الهولندية تنظر إلى هؤلاء المسيحيين نظرة الاحتقار، ورؤساء الكنيسة يهملون من شأنهم ويكادون ينبذونهم، بدأوا يتطلعون إلى هؤلاء الغرباء الذين تزوج بعضهم من نسائهم واستقروا بينهم، وأصبحوا أصدقائهم. ولما تقدمت مهمة التحويل إلى الإسلام في تلك البلاد، أصبح تردد هؤلاء البوجى والعرب عليها أكثر — وكان من قبل نادر الوقوع — كما أصبح نفوذهم في تلك البلاد يزداد زيادة كبيرة جداً، حتى لقد بلغ من عظمه أن تزوج عربي، حول سنة ١٨٣٢، ابنة الملك كورنيلوس متربو **Cornilius Manopo**، وكان يدين هو نفسه بالمسيحية، وحول هذا الوقت نفسه هجر كثير من الرؤساء، وفريق من أعظم الناس نفوذاً بينهم، دين المسيحية واعتقدوا الإسلام. وعلى هذا النحو، وكان الإسلام قد توطدت أركانه في مملكته، قبل أن يصبح الراجه يعقوب مانويل منوبو مسلماً في سنة ١٨٤٤. وكان هذا الأمير قد طلب مراراً إلى السلطات الهولندية في مندو **Mando** أن تعين خلفاً ليعقوب بستيان، المعلم المسيحي — الذي كان موته خسارة فادحة للطائفة المسيحية — ولكن دون جدوى. ولما علم من نائب الحكومة الهولندية في مندو أنها على حياد تام من حيث ديانة الشعب، وأنه لا يعنيها أن يكون شعب ولايته مسيحيين أو مسلمين، ماداموا مخلصين، صرح أمام الملا أنه قد أصبح مسلماً، وحاول كل وسيلة لحمل رعيته على الدخول في هذا الدين نفسه. واستغل أحد دعاة العرب وقوع زلزال شديد في السنة التالية، فتنبأ بخراب بولانج مونجندو، إذا لم يبادر شعبها إلى الدخول في الإسلام. وهرع كثيرون من فزعهم إلى أتباع هذه النصيحة، ومد الراجه وأشرافه يد المساعدة للدعاة وتجار العرب، الذين لم يكونوا على الدوام يستخدمون أرق الوسائل وأنبلها في معاملة الذين تراخوا عن هذا الدين. على أن نصف الأهالي تقريباً لا يزالون على وثنيتهم، وإن كان تقدم الإسلام بينهم، على بطئه، مستمراً في صورة مؤكدة[1]. ولا يبعد أن تكون جزيرة سمبوا **Sambawa** القريبة كذلك، قد تلقت معرفتها بهذا الدين من سليبيس، عن طريق الدعوة التي قام بها الدعاة من مكسر بين سنتي ١٥٤٠، ١٥٥٠. وأن جميع السكان الذين نالوا حظاً أرقى من المدينة والحضارة مؤمنون صادقون، ويقال أنهم أشد تمسكاً في إقامة فرائضهم الدينية من أي شعب من الشعوب الإسلامية التي تجاورهم. ويرجع ذلك بنوع خاص إلى حركة تجديدية بعثها شخص يدعى حاجى علي، بعد انفجار جبل تمبورا في سنة ١٨١٥، تلك الكارثة المفزعة التي نجمت عن ذلك

(١) Wiken(2), pp. 276-9. Koloniaal Verslag van 1910, p. 52; 1911, p. 47.

فاستغلت لإثارة الشعب على أن يحافظوا على مبادئ دينهم على نحو أقوى، وأن يهتدوا إلى حياة أكثر ورعاً وتديناً[١]. ولا يزال الإسلام في الوقت الحاضر يوالي اجتذاب مسلمين جدد في هذه الجزيرة[٢].

كذلك يرجع الفضل في تحويل السسك **Sasaks** الذين يسكنون في جزيرة لمبوك **Lombok** المجاورة إلى الإسلام، إلى الدعوة التي قام بها البوجي، الذين يكونون مستعمرة كبيرة في هذه البقعة، وقد قدموا إما عن طريق عبور المضيق من سمبوا، أو من سيليبيس رأساً. ومهما يكن من شيء، فإن التحويل في الإسلام، فيما يظهر، قد حدث بطريقة سلمية[٣]، وينقسم أهالي لمبوك قسمين متميزين، السسك والبلينون. أما الجماعة الأولى، وهي عبارة عن السسك المسلمين، سكان الجزيرة الأصليين فإنها تفوق الجماعة الثانية عدداً، إلا أنهم أصبحوا، حول منتصف القرن الثامن عشر، تحت حكم البلينيين، وسرعان ما وجدوا أفواجاً من جيرانهم الهندوكيين يجتاحون جزيرتهم[٤]. وكان حكم البلينيين جائراً للغاية وقد بذلوا جهوداً — لم تصادف نجاحاً كبيراً — لحمل رعاياهم المسلمين على اعتقاد الديانة الهندوكية. وحاول السسك، دون جدوى أن يتخلصوا من نير هؤلاء الحكام الجائرين، ولجئوا إلى الحكومة الهولندية أكثر من مرة، قبل أن تجلب حملة سنة ١٨٩٤ تباشير السلام إلى الجزيرة، وأن تقيم إدارة منظمة في ظل الحكم الهولندي. وقد جلبت الحكومة الجديدة معها عدداً كبيراً من الموظفين الوطنيين من المسلمين، الذين يستخدمون نفوذهم في مصلحة دينهم، ومن ثم كان من المتوقع أن تكون إحدى نتائج الغزو الهولندي للمبوك، إمداد الإسلام بروح قوية دافعة في هذه الجزيرة[٥].

في الفيليبين: ونجد في جزائر الفيليبين صراعاً بين المسيحية والإسلام لكسب ولاء السكان، وهذا الصراع يشبه في طابعه ما حدث في سليبيس إلى حد ما، إلا أنه أكثر عنفاً وشدة، فقد اشتبك فيه الأسبان والمسلمون في نزاع عنيف دام، حتى القرن التاسع عشر. وليس من المحقق أن تقف على الزمن الذي وصل فيه الإسلام إلى هذه الجزائر لأول مرة[٦]. وتصور لنا أخبار مندناو **Mindanao**، أن الإسلام دخل إلى هذه الجزائر من جوهور **Johore** في شبه جزيرة الملايو، على يد شخص يدعى شريف كابونجسوان، الذي استقر مع عدد من الإتباع في الجزيرة، وتزوج هناك. ويقال أنه أبى أن ينزل إلى الشاطئ حتى يعده هؤلاء الذين قدموا للقائه

---

(١) Zollinger (2), pp. 12, 169.

(٢) Med. Ned. Zendeliaggen, xxxii, p. 177; xxxiv. P. 170.

(٣) Zollinger (1). P. 527.

(٤) ويذكر دي هولاندر De Hollander في سنة ١٨٨٢ أن عاد البلينيين ٢٠,٠٠٠، وعدد السسك ٣٨٠,٠٠٠ (vol. i. 489).

(٥) Encyclopaedia van Z-1. vol. ii. Pp. 432-4, 524 W. Cool: With the Dutch in the East An outline of the military operations in Kompok, 1894. London, 1897.

(٦) يقول كابتن توماس فورست، فيما كتبه سنة ١٧٧٥، إن العرب قدموا إلى جزيرة مندناو وبثلاثمائة سنة؛ وإن ضريح أول عربي؛ وكان أحد أشراف مكة؛ لا يزال يرى– وهو عبارة عن "كومة فجة من أحجار المرجان الصخرية" .pp. 201-313

عند وصوله، أن يعتقدوا الإسلام. وتوحي هذه الأخبار القديمة بأن نزول كابونجسوان على الشاطئ، ودخول شعب مندناو في الإسلام قد حدث أول الأمر في غاية الهدوء والسكينة. ولكنه بعد أن وطد سلطته، أخذ يغزو من جاوره من الزعماء والقبائل، فقبلوا ديانته عندما أذعنوا لسلطانه(١). وقد وجد الأسبان، وكانوا قد اهتدوا إليهم في سنة ١٥٢١، أن أهالي الجزائر الشمالية قوم همج يعبدون رموزاً ساذجة من الأوثان، على حين وجدوا قبائل إسلامية أكثر رقياً وحضارة(٢). في جزائر مندناو وسولو. وقد قاوم أهالي سولو على وجه الإجمال، كل الجهود التي بذلها المسيحيون في الغزو والتبشير، حتى نهاية القرن التاسع عشر، مقاومة ناجحة، إلى حد أن المبشرين الأسبان يئسوا من الاستمرار في القيام بأعمال التبشير(٣). ويرجع نجاح الإسلام إلى حد بعيد، إذا وزن بالمسيحية، إلى الصورة المختلفة التي عرضت بها هاتان الديانتان على أهالي هذه البلاد. وقد انطوى اعتقادهم المسيحية على فقد الحرية السياسية كلها، والاستقلال القومي، ومن هنا أصبح الناس ينظرون إليها على أنها رمز العبودية. وقد قدر للوسائل التي اتخذها الأسبان لنشر دينهم أن تجعل هذا الدين منذ البداية غير محبب لدى الشعب. وكان عنفهم وتعصبهم على طرفي نقيض مع سلوك التسامح الذي ظهر به دعاة المسلمين، الذين تعلموا لغة الشعب، وانتحلوا عاداته، واصهروا إليه. وبفنائهم في عامة الشعب. لم يدعوا لأنفسهم كافة الحقوق التي تقتصر على جنس متميز عن سائر الأجناس، ولا رموا الأهالي بأنهم في مستوى طبقة منحطة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، كان الأسبان يجهلون لغة الأهالي وعاداتهم وأحوالهم، وقد أدى فساد أخلاق هؤلاء الأسبان، بل شحهم وجشعهم، إلى جعل دينهم مبغضاً إلى النفوس، كما كان المقصود من نشر دينهم استخدامه أداة لتقدمهم السياسي(٤). لهذا فإنه ليس من العسير أن ندرك المعارضة التي أظهرها الأهالي إزاء دخول المسيحية، التي لم تصبح في حقيقة الأمر إلا ديانة الشعب في تلك الجهات حيث كان السكان من الضعف، أو كانت الجزيرة من الصغر، بحيث مكنوا الأسبان من إخضاع البلاد إخضاعاً تاماً. ولم يكن بد من أن يرغم المسيحيون من الأهالي، بعد دخولهم في المسيحية على أداء واجباتهم الدينية خوفاً من العقاب، كما أنهم عوملوا معاملة أطفال المدرسة سواء بسواء(٥). وكانت مملكة مندناو الإسلامية، حتى زمن احتلال

---

(١) N.N. Saieeby: Studies in Moro History. Law and Religion, pp. 24-5. 53-5. Manilla, 1905.

(٢) Relatione di Ivan Gaetan del discoprimento dell, Isole Moiveche, Ramusie, tom. i. p. 375 E.

(٣) "وقد ظهر أنهم من العناد لرحمة الله والبعد عن عقيدته بحيث أصبح من المستحيل تقريباً أن يتحولوا إلى النصرانية" Cartas de los pp. de la Companîa de Jesus de la Mission de Filipinas, 1879, quoted by Moutero y Vidal, tom. i. p. 21.

(٤) Crawfurd (2), vol. ii. Pp. 274-280.

(٥) وهم قليلو العناية بتأدية واجب المسيحية التي تلقوها، ولم يكن بد من أن يرغمهم على أدائه بتحذيرهم من العقاب، وأن يسوسهم كما يساس أطفال المدارس"
Relatiod des Isles Philippines, Faite par un Religleux, p. 7. (Thevenot, vol. i)

الأمريكيين جزائر الفلبين، ملجأ لهؤلاء الذين رغبوا في التخلص من الحكومة المسيحية البغيضة[١]. وقد كوّنت جزيرة سولو، كذلك، مع أنها أدخلت اسمياً في حوزة الأسبان منذ سنة ١٨٧٨ مركزًا إسلامياً آخر مناهضاً للمسيحية، كما وجد به المرتدون من الذين يتكلمون اللغة الأسبانية[٢].

في سولو: وليس لدينا شاهد تاريخي معين، يبين المدة التي قضاها سكان جزائر سولول في الإسلام، قبل قدوم الأسبان. وتذكر أخبار سولو اسم الشريف كريم المخدوم باعتباره أول داع إلى الإسلام في هذه الجزائر، ويقال إنه كان عربياً، ذهب إلى ملقه حول منتصف القرن الرابع عشر، وأدخل السلطان محمد شاه وشعب ملقه في الإسلام. وقد واصل رحلته شرقاً، حتى وصل إلى سولو حول سنة ١٣٨٠، واستقر بوانسا **Bwanasa** [٣] قاعدة سولو القديمة، حيث بنى له الأهالي مسجداً وتقبل كثير من الرؤساء تعاليمه. وقد قيل أنه زار كل جزيرة في الأرخبيل تقريباً، وأنه أدخل في الإسلام ناساً في أماكن كثيرة. ويقال أن ضريحه في جزيرة سبوتو **Sibutu**[٤]؛ كما يقال إن الداعي الذي جاء بعده هو أبو بكر، وقد ذكر كذلك أنه عربي، وأنه بدأ نشاط دعوته في ملقه، وأنه شق طريقه إلى بالمبنج وبروناي **Brunai**، ووصل إلى سولو حول سنة ١٤٥٠، وبنى مساجد وقام بدعاية ناجحة. وقد زوجه الراجه بجندا **Baginda**، ملك بوانسا المسلم، من ابنته، وجعله وريثه. وإلى أبي بكر يرجع الفضل في تنظيم حكومة سولو وسن قوانينها على أسس إسلامية قويمة، بقدر ما كانت تسمح به العادات المحلية[٥]. وعلى الرغم من أنهم دخلوا في الإسلام منذ زمن بعيد، فإن إن المسلمين من أهالي سولو بعيدون عن التمسك بدينهم. وفي الحق أن مؤثرات العبيد المسيحيين، على اختلافهم، وكانوا قد نقلوها معهم من جزائر الفيليبين في غاراتهم التي كانت تقوم على النهب والسلب، كانت في العادة من القوة بحيث زعم بعض الباحثين[٦] "أنهم كانوا قد اعتُرف بأنهم مسيحيون قبل ذلك بوقت طويل، ولكن على تقدير أن مثل هذا التغيير لدينهم، عن طريق إلقاء تأثير قوي غلاب إلى رجال الدين المسيحي، لابد أن يقوض دعائم سلطة هؤلاء العبيد، ويمهد الطريق إلى نقل ممتلكاتهم إلى الحكم الأسباني. وهذه حادثة قد عممتها التجارب القاتلة في قوة وعنف، وكل الشعوب المحيطة التي انتحلت العقيدة المسيحية في تهور واستهتار". أضف إلى ذلك، أن

---

(١) "وفي مندناو، عند قبائل تاجال التي تسكن في الشرق، عندما أراد هؤلاء التاجال أن يتخلصوا من نير السادة الكاثوليك البغيض تجمعوا وزاد عددهم يوما بعد يوم، والتفوا حول رؤساء الأسرات الوطنية. وكان هنالك أكثر من ٣٦٠ ألف من المسلمين، يعترفون بأن القرآن دستورهم الوحيد. وقد قدم دعاة المسلمين في الصين والهند رؤساء دينيين، ومعلمين للأهالي، بدلاً من اليسوعيين الذين طردوا من الجزيرة، ومن الذين يمثلون الديانة الرسمية. وعلى ذلك جدد هؤلاء المسلمون الدعوة التي بدأها العرب الفاتحون" (A.ie Chatelier (2), p. 45).

(٢) Montero y Vidal, vol. i. p. 86.

(٣) على بعد ثلاثة أميال إلى الغرب من جولو، قاعدة البلاد الحالية.

(٤) M. Saleeby: The History of sulu, pp. 150, 158-9. Manila, 1908.

(٥) Id. pp. 150, 162-3.

(٦) J. H. Moor: Appendix, p. 37.

مسلك العدوان الذي ظهر به قساوسة الأسبان الذين أقاموا بعثة تبشيرية في سولو، قد خلق في نفوس الأهالي نفوراً شديداً من الديانة الأجنبية[١].

ومنذ احتل الأمريكيون جزائر الفيليبين، أصبح التأثير الإسلامي محدوداً إلى حد كبير، وهو الآن ينحصر في جزيرة بلوان **Palawan**، وساحل مندناو الجنوبي، ومجموعة جزائر سولو[٢]. ولكن يقال إنه يجد في نشر دعوته بين الجزائر الشمالية، وإنه بدأ نشاط الدعوة حتى في مانيلا **Manila**. ويقال إن أحوالاً معينة قد ساعدت على نجاحه، ولا سيما تلك الحقيقة، وهي أن أهالي جزائر الفيليبين يتحاملون على المسيحية، بسبب المساوئ التي أدت بهم إلى حمل السلاح في وجه رهبان الأسبان[٣].

بين البيوان: وقد قوبل الإسلام، كما ذكرنا من قبل، بأسمى آيات القبول من شعوب أرخبيل الملايو الذين يتمتعون بحضارة أرقى، كما أنه لم يرسخ إلا قليلاً عند الشعوب التي هي أشد انحطاطًا وتأخرًا. ومن أمثلة هؤلاء، البيوان **Papuans** في غينيا الجديدة، وفي الجزائر التي تقع إلى الشمال الغربي منها، نعني بذلك الوايجيو **Waigyu** والميسول **Misool**، والوايجما **Waigama** والسلوتي **Salawatti**. وكانت هذه الجزائر، بالإضافة إلى شبه جزيرة أونين **Onin**، إلى الشمال الغربي من غينا الجديدة، خاضعة في القرن السادس عشر لسلطان باتجان[٤]، أحد ملوك ملوكس. وبفضل نفوذ حكام باتجان من المسلمين، اعتقد زعماء البيوان في هذه الجزائر الإسلام[٥]. ومع أن عامة الشعب في المنطقة الداخلية قد ظلوا على وثنيتهم حتى الوقت الحاضر، فإن سكان الساحل مسلمون. ولا شك أن إسلامهم يرجع بنوع خاص إلى تأثير هؤلاء الذين جاءوا من ملوكس واستقروا في هذه البلاد[٦]. وفي غينا الجديدة نفسها، يظهر أن فئة قليلة جداً من البيوان قد اعتقدوا الإسلام. وقد دخل هذا الدين إلى الساحل الغربي (وربما إلى شبه جزيرة أونين) على أيدي تجار المسلمين، الذين أذاعوا دينهم في السكان في عهد مبكر يرجع إلى سنة ١٦٠٦[٧]. ولكن يظهر أنه لم يصادف نجاحًا كبيرًا في خلال

---

(١) Dalrymple, p. 549.

(٢) R. du M. M,vii. Pp. 115- 16 1909.

(٣) The Missionary Review of the World N.S., vol. xiv. P. 877. New York, 1901.

(٤) وأول من اعتنق الإسلام من أمراء باتجان كان شخصًا يدعى زين العابدين، وكان يحكم في سنة ١٥٢١، عندما قدم البرتغاليون إلى ملوكس للمرة الأولى.

(٥) Robidé van der as, pp. 350, 252-3.

(٦) Id. p. 147. وقد ورد عن جزيرة ميسول: "إن كل سكان الساحل مسلمون.. وسكان الجبل وثنيون" Id. p. 53 وورد عن جزيرة سلوتي Salawatti: ويجهر فريق صغير من السكان بعقيدة محمد. على أن السواد الأعظم يتألف من قبيلة ببوان الوثنية. وقد تحول عدد قليل منهم إلى الدين الإسلامي أو اعتنقوا مبادئه ظاهريًا Waigyu Id. p. 143 وقد دخل في الإسلام بعض البيوان من جزيرة جيبي، بين وايجيو وهاليماهيرا، على يد المسلمين المستوطنين الذين جاءوا من ملوكس. Grawfud (1), p. 143.

(٧) Rodidé van der Aa, p. 352.

القرون التي خلت منذ ذلك الحين[١]. وأبدي البيوان نفوراً شديداً من الدخول في الإسلام، كذلك النفور الذي أبدوه في قبول تعاليم المبشرين المسيحيين الذين قاموا بأعمال التبشير بينهم منذ ١٨٥٥ ولم يصادفوا نجاحاً كبيراً في هذه السبيل. وقد اتهم مسلمو الجزائر المجاورة بأنهم يحتقرون البيوان احتقاراً شديدا بحيث لا يستطيعون أن يبذلوا جهوداً لنشر الإسلام بينهم[٢]. على أن هناك اسم أحد الدعاة، ويدعى الإمام دِكر (ربما ذكر)؛ وكان قد قدم من إحدى الجزائر على الجنوب الشرقي من سرام **Ceram** حول سنة ١٨٥٦، وأدخل الإسلام إلى جزيرة أدى الصغرى **Adi**، جنوبي شبة جزيرة أونين. وبعد أداء رسالته، عاد إلى وطنه، بعد أن قاوم إلحاح السكان الذين طلبوا إليه أن يستقر بينهم[٣]. وقد روت الأخبار أن تجار المسلمين من سرام وجرام قد أدخلوا فريقاً في الإسلام من بين الوثنيين من خلال العقد الأول من القرن العشرين[٤]. وتبذل جهود هائلة لتحويل البيوان في جزائر كي **Kei** المجاورة إلى الإسلام. وقد قيل إنه كان من الصعب أن نجد في منتصف القرن التاسع عشر، أن فريق من المسلمين على هذه الجزائر، لا نستثني إلا سلالة المهاجرين من جزائر بنده. وقبل ذلك بقليل، كان الدعاة من سرام قد نجحوا في إدخال عدد في الإسلام، بيد أنه قلما كانت تراعى تعاليم الإسلام بينهم، فقد أباحوا لأنفسهم أكل اللحوم المحرمة وشرب المسكرات على أنه قيل إن النساء كن أشد تمسكا بأهداب الدين من الرجال، حتى إن بعولتهن كانوا إذا رغبوا في أن يبيحوا لأنفسهم أكل لحم الخنزير، فعلوا ذلك سراً، لأن نساءهم كن لا يسمحن بجلبه إلى المنازل[٥]. وقد لوحظ في سنة ١٧٨٧، أنه كانت هنالك نهضة في الحياة الدينية بين أهالي جزائر كي، كما كان عدد المسلمين يكثر يوماً بعد يوم. وقد برهن تجار العرب من مادورة وجاوة وبالي على أنهم دعاة متحمسون للإسلام، ولم يدعوا وسيلة إلا حاولوها لجذب الداخلين في هذا الدين. وكانوا يدعمون حجتهم بالتهديد والعنف تارة، وبالرشا تارة أخرى. وقيل إن

---

(١) على أن كابتن فورست يخبرنا في سنة ١٧٧٥ أن "كثيراً من البيوان قد انقلبوا مسلمين" Voyage to New Guinea, p. 68

(٢) Robidé van der Aa, p. 71

"وقد بلغ من شدة قسوة طبيعة كل من أفراد قبيلة بابو (مفردها بيوان) أنه لم يكن يشعر بالحاجة إلى اعتناق دين من الأديان. ولم تكن هناك عقيدة أخرى. ولم تكن هناك غير الديانة المسيحية تستطيع أن تجد إلى نفسه سبيلاً لو قدر للإسلام النجاح، إذا بذل شيء من الجهد بين هذه الشعوب. وبقدر ما ظهر لي خلال رحلات خمس قمت بها في هذه البلاد، لم يقم شعب تيدور ولا شعب سرام أم غيرهما قط بأي مجهود جدي لإدخال عقيدة محمد هنا.. وقد نعد رؤساء قليلين جداً فقط من أمثال راجات أمبات أوف وويجيو، رسلواتي، وميسول ووايجما، من هؤلاء يجهرون بهذا الدين، وذلك بسبب تخلفهم إلى تيدور عدة مرات باعتبارهم بابوانيين. ولم يحاول أحد قط أن يدخل الإسلام بين الأهالي الأصليين. ولا يبعد مطلقاً أن يكون ذلك راجعاً إلى احترامهم ذلك الدين، الذي يعدونه فوق مستوى البابواتيين بكثير".

(٣) Robidé van der Aa, p.319.

(٤) koloniaal Verslag van 1906, p. 70; 1911, p. 52.

(٥) The Journal of the Indian Archipelago, vol. vii. Pp. 64, 71. Singapore, 1853.

العادة قد جرت بأن يتقاضى كل من يدخل حديثاً في الإسلام ما يساوى مائتي فلورين (§) من الهدايا، على حين كان الزعماء يتسلمون مبلغاً هائلاً يساوى ألف فلورين[١]. وفي نهاية القرن التاسع عشر، قيل إن نحواً من ٨٠٠٠ من سكان جزائر كي كانوا مسلمين من بين مجموع سكان هذا الجزائر الذي يبلغ ٢٣٠٠[٢].

دعاة المسلمين: التجار وطبقة الحاجي: وإن الصورة العامة التي رسمناها من قبل عن انتشار الإسلام من الغرب إلى الشرق عن طريق أرخبيل الملايو، لا تؤلف إلا جانباً قليلاً من تاريخ أعمال الدعوة إلى الإسلام في هذه الجزائر. وكثير من حقائق هذا التاريخ لم يدون بأكمله، وإن ما يمكن أن نلتقطه من التواريخ الوطنية، ومؤلفات الرحالين الأوربيين، والموظفين والدعاة، إنما هو متفرق ناقص في جوهره. على أن هناك شواهد كافية تدلنا على وجود جهود سلمية في الدعوى لنشر عقيدة الإسلام في خلال السنوات الستمائة الأخيرة. حقاً إن السيف كان يمتشق أحياناً لتأييد قضية الدين، ولكن الدعوة والإقناع، وليس القوة والعنف، كانا هما الطابعين الرئيسين لحركة الدعوة هذه. وإن النجاح الرائع هو الذي أحرزه التجار بنوع خاص، الذين كسبوا السبيل إلى قلوب الأهالي، بتعلم لغتهم، وانتحال أخلاقهم وعاداتهم، وأخذوا في رفق وتدرج، ينشرون معارف دينهم بأن بدأوا يحولوا إلى الإسلام، نساء البلاد اللائي تزوجوا منهن، والأشخاص الذين ارتبطوا معهم بعلاقات تجارية. وبدلاً من أن يعتزلوا الأهالي في أنفة وكبرياء، امتزجوا شيئاً فشيئاً في عامة الشعب، واستخدموا كل ما يتميزون به من تفوق في العقلية والحضارة في القيام بأعمال التحويل إلى الإسلام، واصطنعوا لمبادئ دينهم وطقوسه، شروطاً حاذقة، ومخارج ماهرة، كانوا يرونها لازمة لتقريب هذا الدين إلى أذهان الشعب الذي كانوا يرغبون في جذبه إليهم[٣]. وفي هذا الواقع "كان دعاة المسلمين – كما قال عنهم بكل **Buckle** – على جانب عظيم من الحكمة والروية"[٤].

وإلى جانب التجار، كانت هنالك جموع ممن يصح أن نسميهم الدعاة المحترفين –وهم الفقهاء، والقضاة والحجاج. وكان الحجاج، في السنين الأخيرة، نشطين في نشر تعاليم الدعوة بنوع خاص، وذلك بحث مواطنيهم على لون من الحياة الدينية، أكثر نشاطاً، وأشد تمسكًا، وبتطهيرها من بقايا عادات الوثنية ومعتقداتها. وإن عدد الذين يذهبون إلى مكة لأداء فريضة الحج من كل جهات الأرخبيل آخذ في الزيادة على الدوام، وتبع ذلك نمو التأثير الإسلامي والفكرة الإسلامية نموًا مناسباً. وقد حاولت الحكومة الهولندية، حتى منتصف القرن التاسع عشر، أن تضع العراقيل في سبيل الحجاج، فأصدرت أمرًا بأنه لا يجوز لأحد أن يؤدي

(§) عملة تساوي عشرة قروش تقريباً.

(١) G. W. W. C. Baroa von Hoëvell, p. 120. Krieger, p. 436.

(٢) Encyclopaedie van N-1, vol. ii. P. 210.

(٣) Crawfurd (2), pp. 275. 307.

(٤) Buckle's Miscellaueous and Poshumous works, edited by Helen Taylor, vol. i. p. 594. London, 1872.

فريضة الحج إلى المدينة المقدسة إلا إذا حصل على جواز سفر، وكان لابد أن يدفع للحصول عليه ١١٠ فلورين. وكل من يخالف هذا الأمر، يلزم عند عودته بأن يدفع غرامة تساوي ضعفي هذا المبلغ[١]. ومن ثم لا نعجب أن نجد عدد الحجاج في سنة ١٨٥٢ ينخفض حتى يصل إلى السبعين. ولكن هذا الأمر لم يلبث أن ألغي في هذه السنة نفسها، وأخذ عدد الحجاج يزداد منذ إلغائه زيادة ثابتة.

وبلغ متوسط عدد الحجاج في خلال العقد الأول من القرن التاسع عشر ٧٠٠٠ – وفي خلال العقد الأول من القرن العشرين ٧٣٠٠[٢]؛ ولكن العدد يتفاوت كثرة سنة فأخرى. وكان أكبر عدد سجل من جزائر الهند الهولندية ١٤,٢٣٤ في سنة ١٩١٠[٣].

ولاشك أن مثل هذه الزيادة تعزى بنوع خاص إلى زيادة تيسير المواصلات بين مكة وأرخبيل الملايو؛ ولكن هذا، كما لاحظ ذلك أحد المبشرين المسيحيين، "لا يقلل بحال من أهمية تلك الحقيقة، ولا سيما أن الحجاج، الذين نما عددهم بسرعة فائقة، لم يفقدوا بحال من الأحوال من صفاتهم ما حصلوا عليه من كثرة عددهم. فالأمر على خلاف ذلك، يوجد الآن بينهم كثير من هؤلاء أكثر إلماماً وأشمل معرفة بمبادئ الإسلام، وأشد تشرباً بالتعصب الإسلامي وكراهية الكفار، منهم قبل أن يؤدوا فريضة الحج"[٤] وتحمل تقارير الحكومة الهولندية والمبشرين المسيحيين، دليلاً لا مراء فيه على تأثير هؤلاء الحجاج، وحماستهم في نشر تعاليم الدعوة، وكانوا يعودون إلى أوطانهم مصلحين ودعاة في وقت واحد[٥]. وإلى جانب الحجاج الذين كانوا يقنعون بمجرد زيارة البقاع المقدسة، وتأدية الشعائر اللازمة وهؤلاء الذين يقضون وقتاً أطول هناك لإتمام دراساتهم الدينية، نجد في مكة، في الوقت الحاضر، جالية كبيرة من أهالي الملايو، الذين اتخذوا مقامهم في المدينة المقدسة إلى الأبد وهؤلاء على اتصال دائم بمواطنيهم في أوطانهم. وكانت جهودهم في الغالب فعالة في تطهير الإسلام في أرخبيل الملايو من شوائب العادات الوثنية ووسائل التفكير الوثني التي بقيت من العهود القديمة. كذلك طبعت في مكة مجموعة كبيرة من الكتب الدينية باللغات المختلفة التي يتكلمها مسلمو الملايو، وأرسلت إلى كل جهات الأرخبيل. وفي الواقع أن تأثير مكة في الحياة الدينية في هذه الجزائر، كما قيل بحق، كان أقوى منه في تركيا أو الهند أو بخاري[٦].

---

(١) Neimann, pp. 406-7.

(٢) C. Snouck Hurgronje: De hadji-dolitiek der Insische Regeering, p. 12. Overdruk uit onze Eeuw, 1909.

(٣) Ip: Notes sur le muvement du pélerinage de la Mecque aux Indes Néerlandaises. R. du. M. M., vol. xv. Pp. 409, 412.

(٤) Roport of Centenary Conference on Protestant Missions. Vol. i. p. 21. Niemann, p. 407.

(٥) Med. Ned. Zendelinggen. Vols xxxii. Xxxiv. Passim.

(٦) Snouck Hurgronje (3), vol. ii. Pp. xv. 339- 393. Encyclopaedie van N. -1, vol ii, pp. 576-9.

وكما كان من الممكن أن نتوقع إذا تأملنا هذه الحقائق، نجد في السنين الأخيرة نهضة عظيمة جداً في نشاط الدعوة في أرخبيل الملايو[١]، وأصبح الحجاج العائدون من مكة، سواء كانوا تجاراً أم معلمين دينيين، دعاة إلى الإسلام في البقاع التي كانوا يتصلون فيها بالأهالي الوثنيين. أضف إلى ذلك أن الجماعات الدينية بسطت نظامها على أرخبيل الملايو، بل لقد وجدت أحدث هذه الجماعات عهداً، وهي السنوسية، أتباعاً لها في أقصى هذه الجزائر[٢]؛ ومما يدل على تأثيرها أن كثيراً من سكان الملايو يتسمون باسم سنوسي، على حين كانوا في مكة يبدلون أسماءهم الوطنية بأخرى عربية[٣].

وقد أفهم المبشرون المسيحيون الحكومة الهولندية بأنها تساعد على انتشار الإسلام. ومهما يكن من شيء، فإن من المحقق أن الذي سهل مهمة الدعاة المسلمين هو تلك الحقيقة، وهي أن لغة الملايو، التي لا يكاد يتكلمها إلا المسلمون، قد اتخذت اللغة الرسمية للحكومة الهولندية إلا في جاوة. ولما كان موظفو الدولة من الهولنديين (من غير العسكريين) قد ألحقوا في كل مكان بجمع حاشد من المسلمين الذين كانوا موظفين مرءوسين، ورجالاً في الهيئة السياسية، وكتبة، ومترجمين، وتجاراً، حملوا الإسلام معهم إلى كل مكان ينزلون فيه. وكان حتماً على كل الأشخاص الذين يربطهم بالحكومة عمل ما، أن يتعلموا لغة الملايو، وقلما كانوا يتعلمونها دون أن يصبحوا مسلمين في الوقت نفسه، وعلى هذا النحو، اعتقد الأهالي ذو النفوذ والسلطان الإسلام، وبادرت البقية الباقية إلى الإقتداء بهم[٤]. وبذلك يعمل الإسلام في الوقت الحاضر على طرد الوثنية من أرخبيل الملايو في سرعة.

---

(١) مثال ذلك القادرية والنقشبندية والسماقية.
C.Snouck Hargronje (2), p. 186. Id. (3), vol. ii. P. 372, etc.

(٢) J. G. F. Riedel (1), pp. 7, 59, 162.

(٣) Snouck Hurgronje (3), vol. ii. P. 323.

(٤) Hauri, p. 313. Encyclopaedie van N-1, vol.ii. p. 524.

الباب الثالث عشر

خاتمة

دعاة المسلمين – عدم وجود هيئة منظمة لهم: في العالم المسيحي الحديث، تتمثل مهمة التبشير في الجمعيات التبشيرية، والموكلين بالتبشير كفاء أجور يتقاضونها، والتبرعات، والتقارير والصحف، ويبدو أن "مشروع التبشير" تسمية غير صحيحة متى كان مجرداً من هيئة مؤلفة تأليفاً منظماً بصفة مستمرة. وقد روعي في تأليف هيئة الكنيسة المسيحية، منذ بدء تاريخها، نشر التعاليم المسيحية بين الكفار. وكان مبشروها، في أغلب الأحيان، قساوسة ورهباناً، يعينون لهذا الغرض بانتظام. وقد توافرت جماعات الأديار (منذ قيام جماعة بندكنت فالجماعات التي جاءت بعدها) والجمعيات التبشيرية التي نجدها في أزمان أحدث عهداً، على اتجاه خاص ينحصر في ترقية إدارة المهمة المسيحية التي اعترف منذ البداية بأنها إحدى واجبات الكنيسة الأساسية. أما في الإسلام فإن عدم وجود أي لون من ألوان الكهنوت أو أية هيئة دينية منظمة أياً كانت، قد جعل نشاط الدعوة عند المسلمين يتجلى في صور مختلفة تمام الاختلاف عن تلك التي تظهر في تاريخ البعوث التبشيرية المسيحية. فليس هنالك جمعيات للدعوة[1]، ولا موكلون مدربون لهذا الغرض، كما أنه قلما نجد مواصلة الجهود في هذه السبيل. ويظهر أننا لا نستثنى إلا جماعات الإسلام الدينية، التي يشبه نظامها، إلى حد ما، نظام جماعات الأديار في العالم المسيحي. ولكن حتى في تلك الجماعات الإسلامية، نجد أن عدم وجود فكرة من نظام الكهنوت، أو أية نظرية ترى فصل المعلم الديني عن عامة المؤمنين، أو ترى ضرورة العكوف على تأدية الوظائف الدينية، والتصريح بها – كل ذلك يجعل الاختلاف الأساسي في النظامين، يظل قائماً في كل مكان، في وضوح وجلاء.

المهمة ملقاة على عاتق الأفراد: ومهما تكن المساوئ التي نجمت من حاجة المسلمين إلى طبقة كهنوتية تختص بنشر العقيدة، فقد وجدوا ما يعوضهم عنها في ذلك الشعور الناشئ عن المسئولية التي ألقيت على كواهل المؤمنين من الأفراد. ولما لم يكن هنالك واسطة بين المسلم وربه، كانت مسئولية خلاصه الشخصي ملقاة على كاهله وحده، وكان من أثر ذلك أن أصبح المسلم، كما جرت العادة، أكثر تشدداً واهتماماً في أداء واجباته الدينية، وأشد تحملاً للمتاعب في سبيل تعلم مبادئ دينه وشعائره. وبذلك يؤثر، وقد رسخت في ذهنه أهمية هذه المبادئ وتلك الشعائر لنفسه؛ أن يصبح رمزاً لخلق الداعي إلى دينه بين يدي الكافر، ولم يكن الساعي في نشر تعاليم الدعوة، يحيل من أدخله في الدين إلى بعض معلمي دينه الثقات، الذي ربما يقبل الرجل حديث العهد بالإيمان في زمرة المسلمين من الناحية الشكلية، ولم يكن بحاجة إلى الخوف من الرقابة الكنسية

---

(١) لم تبدأ هيئات منظمة على غرار الجمعيات المسيحية التبشيرية في الظهور إلا في القرن العشرين، وقد أوردنا طرفاً منها في ملحق ٣ من هذا الكتاب.

لارتكاب خطيئة(§) قارون. وعلى ذلك مهما تكن المبالغة عظيمة في القول، ومهما ردد الباحثون القول(١)، بأن كل مسلم داعية إلى دينه، يبقى هذا القول حقيقياً. وفي الحق أن قليلاً من المسلمين المتمسكين بدينهم تمسكاً صحيحاً، الذين يتصلون بالكفار يومياً يهملون ما أوصاهم به نبيهم ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾(٢). ومن ثم نجد، إلى جانب أرباب الدعوة المحترفين، – وهم المعلمون الدينيون الذين كرسوا وقتهم ونواحي نشاطهم كله في مهنة الدعوة – أخباراً تاريخية لنشر العقيدة الإسلامية تتضمن سجلاً بأسماء رجال ونساء من جميع طبقات المجتمع، من الملك(٣) إلى الفلاح، ومن كل الصنائع والحرف، قاموا بأعمال ابتغاء نشر دينهم،– والتاجر المسلم، على خلاف أخيه المسيحي، يظهر بنوع خاص بمظهر النشاط في أمثال تلك الأعمال. ونجد في ثبت يتضمن أسماء دعاة الهنود، نشر في صحيفة إحدى جمعيات لاهور(٤) الدينية الخيرية، أسماء معلمي مدارس، وكتاب للحكومة في مصلحتي القنال والأفيون، وتجار (وفيهم أحد العملاء في عربات النقل بالجمال)، ومحرر إحدى الصحف، ومجلّد كتب، وعامل في مطبعة. فقد خصص هؤلاء الناس ساعات فراغهم بعد إنجاز عملهم اليومي، للدعوة إلى دينهم في الطرقات وأسواق المدن الهندية، ملتمسين اجتذاب مسلمين جدد من بين المسيحيين والهندوكيين جميعاً، الذين كانوا يجادلونهم ويحملون على عقائدهم.

ومما يثير اهتمامنا ما نلاحظه من أن نشر الإسلام لم يكن من عمل الرجال وحدهم، بل لقد قام النساء المسلمات أيضاً بنصيبهن في هذه المهمة الدينية، فيرجع الفضل في إسلام كثير من أمراء المغول إلى تأثير زوجة مسلمة. ولا يبعد أن يكون مثل هذا التأثير سبباً في إسلام كثير من الأتراك الوثنيين، عندما كانوا قد أغاروا على الأقطار الإسلامية. وقد أنشأ دعاة السنوسية الذين قدموا لنشر دعوتهم بين التوبو، شمالى بحيرة شاد، مدارس للبنات، واستغلوا ما كانت تحدثه النساء من نفوذ قوي بين القبائل (كما كان لهن هذا النفوذ بين جيرانهن من البربر)، فبذلوا جهودهم لجذبهن إلى صفوف الإسلام(٥). وفي إفريقية الشرقية الألمانية، دخل في الإسلام هؤلاء الأهالي الوثنيون الذين كانوا يتركون أوطانهم ستة أشهر أو أكثر، للعمل في السكك الحديدة أو الزراعية، على أيدي نساء مسلمات، تعاقدوا معهن على زواج مؤقت، فإن أولاد النساء كن يرفضن أن

(§) مثل يضرب في حالة إرتكاب إثم كبير.

(١) "ويظهر أن الميل إلى نشر تعاليم الدعوة عند كل مسلم، مهما كان محباً للدنيا، أمر غريزي إلى حد ما" Snouck Hurgronje, Revue de I'Histoire des Religions, vol. ivii. P. 66.

إن المسلم داعية بطبيعته.. وهو يقوم بالدعوة بجهده وحسابه الخاصين

Munzilnger, p. 411. snouck Hurgronje (1), p. 8; Lüttke (2), p. 30; Julius Richter; p. 152 Merensky, p. 154.

(٢) سورة النحل: آية ١٢٦.

(٣) راجع الرسالة الهامة التي وجهها مولاى إسماعيل، شريف مراكش إلى الملك جيمس في سنة ١٦٩٨، يدعوه إلى الإسلام Revue de I'Histoire des religions, vol. xivii. P. 174, sqq.

(٤) أنجومان حمايت إسلام كاما هوارى رسالة، ص٥–١٣ (لاهور أكتوبر سنة ١٨٨٩).

(٥) Duveyrier, p. 17.

يتعاملن في شيء مع كافر لم يختتن بعد، فكان بعولتهن يتجنبون ذلك العار الذي كان يلحق مثل هذا اللقب، بأن يختتنوا وبذلك يقبلون الدخول في الجماعة الإسلامية[١]. وقد قيل إن تقدم الإسلام في بلاد الحبشة، في خلال النصف الأول من القرن الماضي، كان راجعاً، إلى حد كبير، إلى ما بذله النساء المسلمات من الجهود، وخاصة نساء الأمراء المسيحيين، الذين لم يكن بد من أن يتظاهروا بالتحول إلى المسيحية، عندما يتزوجون، ولكنهم نشئوا أبناءهم على شعائر الإسلام، وبذلوا كل ما استطاعوا في سبيل تقدم ذلك الدين[٢]. وتقيم على حدود الحبشة الغربية قبيلة وثنية تسمى البُرُن **Boruns**، وقد دخل بعض أفراد هذه القبيلة، وكانوا قد انتظموا في سلك فصيلة من الزنوج، تحت لواء الحكومة المصرية الإنجليزية في السودان في الإسلام، على أيدي نساء الجنود السود، في الوقت الذي كانت فيه الكتيبة راجعة إلى الخرطوم[٣]. ويقال إن نساء قزان التتريات بوجه خاص ذوات غيرة، باعتبارهن داعيات إلى الإسلام[٤]. ولا تمنع المتمسكة بدينها، من أن تحتل مكانها إلى جانب الولي من الرجال في زمرة الداعيين إلى العقيدة إذا اتفق أنها كانت امرأة. وإن أسطورة النساء المقدسات، اللائي ينتمين إلى علي، واللائي يقال إنهن طرن في الهواء من كربلاء إلى لاهور، وإنهن ظفرن بأول من تحول من الهندوكية إلى الإسلام[٥]؛ بفضل تأثير حياة الصلاة والصوم، التي كن يحيينها في تبتل وخشوع، كان من الصعب أن يكون لها أصل تاريخي: لو أن تأثير أمثال أولاء النساء المقدسات كان أمراً مجهولاً تماماً. ومن أضرحة القاهرة التي لقيت أوفى نصيب من التعظيم، ضريح السيدة نفيسة، حفيدة الحسن (الذي مات شهيداً وهو ابن علي)، وهى التي أثارت إعجاب الإمام الشافعي نفسه، أحد من عاصروها من العظماء، بتفقههها في الإلهيات، والتي رفعتها تقواها؛ وتقشفها إلى مصاف الأولياء الصالحين. ويروى أنها عندما استقرت في مصر اتفق أنها أقامت بجوار أسرة من أهل الذمة، وكانت لهم بنت مصابة بداء عضال، بحيث لم تستطع أن تحرك أطرافها، ولم يكن بد من أن ترقد على ظهرها طوال اليوم. ولزم الأمر أن يذهب والدا هذه الفتاة المسكينة إلى السوق ذات يوم، فطلبا إلى جارتهما المسلمة أن تتفقد ابنتهما أثناء تغيبهما. وباشرت نفيسة هذا العمل الإنساني؛ وهى مفعمة بالحب والرحمة. ولما ذهب والدا هذه الفتاة المريضة إلى السوق، سمت نفيسة بروحها، وابتهلت إلى الله أن يشفي هذه المريضة البائسة. ولم تكد تفرغ من دعائها حتى استعادت الفتاة المريضة تحريك أطرافها وأصبحت قادرة على أن تذهب للقاء أبويها عند عودتهما. وملأ الشكر والامتنان قلوب أفراد الأسرة جميعاً؛ فانتهوا إلى الدخول في ديانة تلك المرأة التي أسدت إليهم هذا الفضل[٦].

---

(١) Klamroth, p. 12.

(٢) Massaja, vol, xi. Pp. 124 – 5.

(٣) Artin, p. 119.

(٤) R. du M.M., ix. 1909, p. 252.

(٥) غلام سرور: خزينة الأصفياء، جـ٢، ص٢، ٤٠٧ – ٤٠٨.

(٦) Goldziher, vol. ii, pp. 303 - 4

حتى المسلم الأسير، يغتنم الفرص في المناسبات لدعوة آسريه أو إخوانه في الأسر إلى دينه. وقد تسرب الإسلام إلى أوربا الشرقية أول الأمر بفضل ما قام به فقيه مسلم، سيق أسيراً، ربما في إحدى الحروب التي نشبت بين الدولة البيزنطية وجيرانها المسلمين، وجيء به إلى بلاد بتشنج **Pechenegs**[1] في مستهل القرن الحادي عشر. وقد بسط بين يدي كثير منهم تعاليم الإسلام، فاعتقدوه في إخلاص، حتى إنه أخذ في الانتشار بين هذا الشعب. أما سائر البتشنج الذين لم يكونوا قد قبلوا دين الإسلام، فقد ارتابوا من تصرف مواطنيهم، وانتهى بهم الأمر إلى نشوب القتال بينهم. وقاوم المسلمون، وكان عددهم يبلغ نحواً من اثني عشر ألفاً، هجمات الكفار في نجاح، مع أن هؤلاء كانوا أكثر منهم عدداً بما يزيد على الضعفين. ودخلت فلول المهزومين دين المنتصرين. ولم تأت نهاية القرن الحادي عشر، حتى كان الشعب بأسره قد اعتقد الإسلام؛ وكان من بينهم مسلمون تعلموا الفقه والتوحيد[2]. وفي عهد الإمبراطور جهانجير (١٦٠٥ – ١٦٢٨) كان هنالك عالم سُني من علماء التوحيد يدعى الشيخ أحمد مجدد، وقد تميز بقدرته على مجادلة الشيعة في عقائدهم بنوع خاص. ولما كان هؤلاء مقربين إلى البلاط في ذلك الحين، نجحوا في إيداعه السجن بتهمة تافهة. وفي خلال السنتين اللتين قضاهما في الحبس، أدخل في الإسلام عدة مئات من عبدة الأوثان الذين كانوا يرافقونه في هذا السجن نفسه[3]. وفي سنوات أحدث من ذلك، قضت الحكومة البريطانية بنفي أحد مولوية الهود إلى جزائر أندمان نفياً مؤبداً، لأنه كان قد قام بنصيب فعال في مؤامرة دبرها الوهابيون سنة ١٨٦٤؛ وهناك، أدخل هذا المولوي في الإسلام قبل وفاته كثيراً من المحكوم عليهم. وفي إفريقية الوسطى، حكم البلجيكيون على زعيم عربي بالإعدام، فقضى ساعاته الأخيرة، وهو يحاول أن يدخل في الإسلام ذلك المبشر المسيحي الذي كان قد أرسل إليه ليزجى إليه التعزيات الدينية[4].

عوامل نجاحهم: وإذا كان المسلمون قد بلغوا مثل هذه الحماسة في نشر الدعوة إلى حد أنهم كانوا على استعداد للتحدث عنها في مناسبة وفي غير مناسبة، – كما يقول دواتي في حصافة ودقة ملاحظة، "حديثهم دائماً (في غير زندقة) الدين، وفي هذا الحديث ما يذكرهم بما ترتاح إليه نفوسهم من التقوى والورع"[5]،– فلنسرد الآن بعض العوامل التي ساعدت على نجاحهم.

---

(١) احتل البتشنج في ذلك الحين البلاد التي تقع بين الذانوب الأدنى والدون، وكانوا قد هاجروا إليها من شواطئ نهر أورال في نهاية القرن التاسع. Karamsin, vol. i. pp. 180-1

(٢) أبو عبيد البكرى (توفي سنة ١٠٩٤م) ص ٤٦٧ – ٤٦٨.

(٣) غلام سرور: خزينة الأصفياء جـ١، ص٦١٣.

(٤) D. Crawford: Thinking Blaack, p.202. London, 1913.

(٥) Douhty, vol. ii.p.39.

في مقدمة هذه الأسباب بساطة العقيدة الإسلامية[1]، لا إله إلا الله، محمد رسول الله. وكل ما يطلب من الذي يدخل في الإسلام، قبول هاتين الشهادتين. وإن تاريخ العقائد الإسلامية كله، ليخفق في عرض أية محاولة من جانب المقامات الدينية، لحمل جمهرة المؤمنين على الأخذ بأية إشارة منطوية في عبارات أكثر تدقيقاً وتعقداً. إن هذه العقيدة البسيطة لا تتطلب تجربة كبيرة للإيمان، ولا تثير في العادة مصاعب عقلية خاصة، وإنها لتدخل في نطاق أحط دركات الفهم والفطنة. ولما كانت خالية من المخارج والحيل النظرية اللاهوتية، كان من الممكن أن يشرحها أي فرد، حتى أقل الناس خبرة بالعبارات الدينية النظرية. ويعبر الشطر الأول من هذه العقيدة عن مبدأ يكاد يقبله جميع الناس على أنه فرض لابد منه، على حين يقوم الشطر الثاني منها على فكرة علاقة الناس بالله وهى مسألة تكاد تكون عاملة شاملة كذلك، بمعنى أن الله تعالى، في فترات من تاريخ العالم، قد وهب بعض تجليه على الخلق، على لسان أنبياء ملهمين. ولا يستطيع أي فرد أن يوضح ذلك، أعني الطابع العقلي للعقيدة الإسلامية، وما جنته من هذا الطابع من الفائدة في نشر الدعوة، توضيحاً يبعث على الإعجاب، بأكثر مما وضحه البروفسور مونتيه في العبارات التالية:

"الإسلام في جوهره دين عقلي، بأوسع معاني هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية. فإن تعريف الأسلوب العقلي **Rationallsm** بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق، ينطبق عليها تمام الانطباق. والحق إن محمداً الذي كان متحمساً لدينه، كما كان كذلك يمتلك غيرة الإيمان، ونار الإقناع، تلك الصفة القيمة التي بثها كثير جداً من أتباعه — قد عرض حركته الإصلاحية على أنها وحي وإلهام: على أن هذا النوع من الوحي ليس إلا صورة من العرض والتفسير، وإن لدينه كل العلامات التي تدل على أنه مجموعة من العقائد قامت على أساس المنطق والعقل. وتتلخص العقيدة الإسلامية من وجهة نظر المؤمنين في الاعتقاد بوحدانية الله ورسالة نبيه، أما من وجهة نظرنا نحن الذين نحلل عقائده تحليلاً لا روح فيه، فنعتقد في الله وفي الحياة الآخرة. وهذان المبدأن هما أقل ما ينبغي للاعتقاد الديني، وهما أمران يستقران في نفس الرجل المتدين على أساس ثابت من العقل والمنطق، ويلخصان كل تعاليم العقيدة التي جاء بها القرآن وإن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهي على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة في الدين وفي نشاط الدعوة إلى الإسلام. ومما لا سبيل إلى إنكاره أن كثيراً من عقائد اللاهوت ونظمه، وكثيراً من الخرافات كذلك، من عبادة الأولياء إلى استخدام المسابح والتعاويذ قد طعم به الجذع الرئيسي للعقيدة الإسلامية. ولكن على الرغم من التطور الخصب، بكل ما في هذه الكلمة من معنى، لتعاليم النبي، حفظ القرآن منزلته من غير أن يطرأ عليه تغيير أو تبديل، باعتباره النقطة الأساسية التي بدأت منها تعاليم هذه العقيدة، وقد جهر القرآن دائماً

---

(١) وقد أكثر مراتشى Marracci هذا القول في القرن السابع عشر بقوله: لو قارن كافر بين أسرار الحالة الطبيعية البسيطة التي فاقت طاقة الذكاء البشرى أو التي هي، على الأقل، من الصعوبة بمكان، إن لم تكن مستحيلة وبين عقيدة القرآن؛ لا نصرف عن الأولى في الحال، وأسرع إلى الثانية في ترحيب وقبول". ...Alcorani textus translatus, p.9 patavli, 1698

بمبدأ الوحدانية، في عظمة وجلال وصفاء لا يعتريه التحول، ومن العسير أن نجد في غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا. وإن هذا الإخلاص كمبدأ الدين الأساسي، والبساطة الجوهرية في الصورة التي يصاغ فيها هذا الدين والدليل الذي كسبه هذا الدين من اقتناع الدعاة الذين يقومون بنشره اقتناعاً يلتهب حماسة وغيرة؛ إن هذا كله يكون الأسباب الكثيرة التي تفسر لنا نجاح جهود دعاة المسلمين. وكان من المتوقع لعقيدة محددة كل التحديد، خالية كل الخلو من جميع التعقيدات الفلسفية، ثم هي تبعاً لذلك في متناول إدراك الشخص العادي، أن تمتلك، وإنها لتمتلك فعلاً، قوة عجيبة، لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس"(١).

ويرى الأسقف لفروي **Lefroy** أن "سر القوة الخارقة للعادة التي أظهرها الإسلام في أزهر عصوره في فتوحاته وتقدمه" كامن في إدراك هذا الدين وجود الله، أكثر منه في وحدانيته، قال: "ليس قولنا إن الله واحد بأعظم من قولنا إنه موجود- بمعنى أن وجوده هو حقيقة الكون المطلقة – وأن إرادته هي العليا – وأن سيادته مطلقة – وأن قوته لا تحد... وهذا معناه الإيمان بأن هنالك إرادة مطلقة عليا لا تقاوم في وسط كل ما يغمر الكون من الاختلال والاضطراب والفساد الذي يحمله في صورة من الظلمة والوحشة تبعث على الفزع والرهبة، كما أن معناه الإيمان بأن الرجل مسير طوع هذه الإرادة، يظهرها، ويلتزم الطاعة لها، - ولو أنه من الضروري أن يأخذ في سبيل إظهار هذه الإرادة بأسباب بسيطة بدائية جداً – وهذا هو الذي أمد جحافل المسلمين بوسائل الفتح التي لا تقهر، تلك التي بعثت فيهم روحاً من الانقياد الحربي والنظام العسكري، كما بعثت فيهم ازدراء الموت، الأمر الذي ربما لم نعرفه قط في أي نظام سابق. وهذا هو الذي يعطينا في كلمة، حسب ما نجده متمثلاً في أية روح صادقة فعالة بين المسلمين، ذلك العمود الفقري لأخلاقهم، أعني ذلك الثبات في العزيمة والقوة في الإرادة، وذلك الصبر الذي لا يعرف سبيلاً إلى الشكوى، والاستسلام لأشد المصائب وأصعبها، - كل ذلك قد ميز خير أنصار العقيدة وجمَّلهم"(٢).

وإذا قيل الذي يدخل في الإسلام هذه العقيدة البسيطة وتعلمها، لم يكن بد عندئذ من أن يتعلم فرائض الدين الخمس:(١) النطق بالشهادتين (٢) وإقام الصلوات الخمس في أوقاتها (٣) وإيتاء الزكاة (٤) وصوم رمضان (٥) والحج إلى مكة.

وطالما اعترض بعض الناس على أداء هذا الغرض الأخير باعتباره بقية غريبة من بقايا الوثنية، ظلت من جملة تعاليم النبي التي تدعو إلى الوحدانية، ولكي ينبغي ألا يعزب عن الأذهان أن الحج قد اقترن بإبراهيم، في نظر النبي هي إعادة دين إبراهيم. ولكن فوق ذلك كله، - وهنا تكون أهميته العليا في تاريخ نشر الدعوة في الإسلام، - ينظم الحج اجتماع المؤمنين في كل سنة، على اختلاف شعوبهم ولغاتهم، من كافة أنحاء العالم، للصلاة في ذلك المكان المقدس، الذي يولون وجوههم شطره في كل ساعة من ساعات عبادتهم الخاصة في

---

(١) Edouard Montet: La propaganda chrétienne et ses adversaries musulmans, pp.17-18. Paris,1890.

(٢) Mankind and the Church, p. 283, London, 1907.

أوطانهم النائية. و لم تستطيع أية محاولة يقوم بها عباقرة أي دين أن تتصور وسيلة أحسن من هذه الوسيلة تطبع في عقول المخلصين معنى حياتهم المشتركة، وأخوتهم التي ارتبطت بروابط الدين. وفي ذلك المكان، حيث نجد عملاً سامياً من أعمال العبادة المشتركة، ترى زنجي من ساحل إفريقية الغربي يلتقي بالصيني من أقصى الشرق، ويتعرف التركي الرقيق المهذب على أخيه المسلم من أهل الجزائر المتوحشين الذين يسكنون أبعد أطراف بحر الملايو. وفي هذا الوقت نفسه تتطلع قلوب المؤمنين في كافة أنحاء العالم الإسلامي، في عطف وحنين، إلى إخوانهم الأسعد حظاً منهم، الذين تجمعوا في المدينة المقدسة، فيحتفلون في أوطانهم بعيد الأضحى، أو كما (يسمى في تركيا ومصر) عيد البيرام أو العيد الكبير. وإن زيارتهم المدينة المقدسة قد أصبحت في نظر كثير من المسلمين، التجربة التي حثتهم على الجهاد في سبيل الله، وقد أوردنا في الصفحات السابقة إشارات متتابعة إلى ما قامت به طبقة الحاجي من نصيب فعال في أعمال نشر الدعوة.

وإلى جانب نظام الحج، نجد إيتاء الزكاة فرضاً آخر يذكر المسلم دائماً بقوله تعالى ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾[1] — وهى نظرية دينية تتحقق على صورة رائعة تبعث على الدهش في المجتمع الإسلامي، وقلما تعجز عن أن تتجلى في أعمال الشفقة إزاء المسلم الجديد. ومهما يكن جنسه ولونه وأسلافه، فإنه يقبل في زمرة المؤمنين، ويتبوأ مكانه على قدم المساواة مع أقرانه المسلمين.

على أنه ليس من الصواب، ما زعمه بعض الكتاب الأوربيين من أنه إذا كان عبد الرجل المسلم كافراً، فإن تحوله إلى الإسلام يؤدي إلى تحرير رقبته. ذلك أن الشريعة الإسلامية تقتضي بأن دخول العبد في الإسلام، لا يؤثر في حالة العبودية التي كان عليها من قبل[2]. وتختلف حالة العبد المسلم اختلافاً كبيراً تبعاً لأخلاق مولاه. ولكن الحرية هي جزاء التحول إلى الإسلام في كثير من الحالات. وإن العقول الورعة التقية لتعترف حتى في الاسترقاق بهداية الله إلى الدين الحق، كما يروى عن الزنوج الساكنين في بلاد النيل الأعلى، الذين لقيهم داوتي في بلاد العرب: "لا يوجد في نفوس أولئك الإفريقيين أي حقد من أنهم صُيروا عبيدا.. حتى ولو أن سُرَّاق البشر القساة قد انتزعوهم من ذويهم. وكان العملاء الذين يدفعون ثمنهم، يتخذونهم في بيوتهم، ويختتن الذكور منهم — وإن الذي حرر أرواحهم، الحنين الطويل إلى أوطانهم، هو أن الله قد تفقدهم في ملمتهم؛ إنهم يستطيعون أن يقولوا إن نعمة الله قد تداركتهم منذ أن دخلوا بفضلها في الدين المنقذ، لذلك يرون أنهم في بلد خير من بلادهم، فهم في ذلك البلد عتقاء الله، وهم في بقاع تحيا حياة أكثر مدنية، وهم في تربة الحرمين الشريفين، وفي بلد محمد — لذلك يشكرون لله أن بيعت أجسادهم يوماً ما بيع الرقيق!"[3].

---

(١) سورة الحجرات: آية ١٠.

(٢) W. H. Macnaghten: Principles and Precedents of Moohummudan Law, p. 312. Madras, 1882.

(٣) Arabia Deserta, vol. i.pp. 554-5

كذلك نجد أداء الصلوات الخمس كل يوم على جانب عظيم من التأثير سواء في جذب الناس أو الاحتفاظ بالمسلمين منهم. وقد أحسن مونتسكيو[١] في قوله: "إن المرء لأشد ارتباطاً بالدين الحافل بكثير من الشعائر، منه بأى دين آخر أقل منه احتفالاً بالشعائر، وذلك لأن المرء شديد التعلق بالأمور التي تسيطر دائماً على تفكيره". إن دين المسلم يتمثل دائماً في مخيلته؛ وفي الصلوات اليومية، يتجلى هذا الدين في طريقة نسكية خاشعة مؤثرة، لا تستطيع أن تترك العابد والمشاهد كليهما غير متأثرين. يتحدث سعيد بن الحسن، أحد يهود الإسكندرية، الذي اعتقد الإسلام في سنة ١٢٣٨م، عن مشهد صلاة في الجمعة في مسجد باعتباره عاملاً حاسماً في تحوله إلى الإسلام. في خلال مرض شديد كان قد انتابه، رأى في المنام أن صوتاً يأمره بأن يجهر بالإسلام. "وعندما دخلت المسجد"، (ويستمر في حديثه إلى أن يقول) ورأيت المسلمين يقفون صفوفاً كأنهم الملائكة، سمعت هاتفاً يقول، هذه هي الجماعة التي أخبر الأنبياء (صلوات الله عليهم!) بقدومها. ولما ظهر الخطيب مرتدياً عباءته السوداء، استولى علي شعور عميق من الرهبة... ولما ختم خطبته بالكلمات، إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون، ولما بدأت الصلاة، أحسست بقوة تدفعني إلى النهوض، لأن صفوف المسلمين بدت أمامي كأنها صفوف الملائكة، الذين يتجلى الله القدير في سجداتهم، ثم سمعت هاتفاً يهتف بي: "إذا كان الله قد تحدث مرتين إلى بني إسرائيل في كل العصور، فإنه يتحدث إلى هذه الجماعة في كل وقت من أوقات الصلاة؛ وأيقنت في نفسي أني خلقت لأكون مسلماً"[٢].

فإذا استطاع رينان أن يقول: "ما دخلت مسجداً قط، دون أن تهزني عاطفة حادة، أو بعبارة أخرى، دون أن يصيبني أسف محقق على أنني لم أكن مسلماً"[٣]، كان من اليسير أن ندرك كيف أن منظر التاجر

---

(١) De l'Esprit des Lois, livre xxv. Chap.2.

(٢) Goldziher, Said b. Hasan d'Alexandrie Revue des Études Julves, tome xxx, pp.17-18. Paris, 1895.

(٣) Ernest Renan: L'Islamisme et la Science. P. 19. Paris, 1883.

وقد أكد ذلك كثير من الملاحظين، ولكن حسبنا في هذا المقام أن تنقل كلمات أسقف مسيحي مشهور: ما من فرد يتصل بالمسلمين لأول مرة إلا أخذ بمظهر دينهم هذا... وحيثما يمكن أن توجد، في الطريقة العامة، أو في محطة السكة الحديدية؛ أو في الحقل؛ فإن من أكثر الأشياء شيوعاً أن ترى الرجل منهم، يترك في اللحظة التي يقوم فيها بأداء أعماله أيا كانت، بدون أدنى تأثر بالرياء أو الظهور؛ وفي سكينة وتواضع، لكي يؤدي صلواته في أوقاتها المحددة. وأكثر من ذلك أنه ما من فرد رأى يوماً ساحة الجامع الكبير يوم الجمعة الأخيرة من شهر رمضان، وهى غاصة بما قد يربو على ١٥٠٠٠ مصلٍ، وكلهم جميعاً منهمكون في صلاتهم، مظهرون أعمق آيات الإجلال والخشوع في كل إشارة يبدونها، إلا تأثر تأثراً عميقاً بهذا المشهد، أو أخذ فكرة عابرة عن تلك القوة التي ينضوي مثل هذا النظام تحت لوائها، على حين نجد النظام الدقيق الذي يتجلى في دعوة الناس اليومية إلى الصلاة، عندما يؤذن الداعي في وقت السحر، قبل أن يتنفس الصبح ؛ أو بين ضوضاء ساعات العمل وضجيجها؛ أو عندما يرخي الليل سدوله كذلك، مفعماً بتلك الرسالة ذاتها".

المسلم في صلاته، وسجداته الكثيرة، وعبادته للإله الذي لا يراه، في سكينة واستغراق، قد يؤثر في الإفريقي الوثني، الذي وهب إدراكا قوياً للقوى الخفية، كما يقترن هذا الإدراك عادة بدرجة منحطة من المدنية. وقد يحفز حب الاستطلاع على البحث بطبيعة الحال. وإن معارف الإسلام التي عرفها الناس على هذا النحو قد تجذب أحياناً فرداً يدخل في الإسلام، كان من الممكن أن ينصرف عنه لو أنه قدم إليه على صورة لا يرغب فيها، باعتبارها هبة حرة. ولا حاجة إلى القول بأن صيام شهر رمضان جزء من دليل ثابت يدحض النظرية القائلة بأن الإسلام نظام ديني يجذب الناس عن طريق مراودتهم في ملذاتهم الشخصية، وكما قال كارليل: "إن دينه ليس بالدين السهل: فإنه بما فيه من صوم قاس، وطهارة، وصيغ معقدة صارمة وصلوات خمس كل يوم، وإمساك عن شرب الخمر، لم يفلح في أن يكون ديناً سهلاً".

ولكن هؤلاء المسلمين يعنون بتلك الفرائض وغيرها من الشعائر الدينية. ولكن من غير أن يثقلوا بها كواهلهم، أو تجعلهم مغمورين في الحياة، نجد أركان العقيدة الإسلامية تلقى دون انقطاع، تعبيراً ظاهراً في حياة المؤمن؛ ومن ثم نجدها، بعد أن أصبحت متشابكة مع نظام حياته اليومية تشابكاً لا سبيل إلى الفكاك منه، تجعل المسلم الفرد إماماً ومعلماً لعقيدته، أكثر، إلى حد بعيد، مما هي الحال مع أنصار معظم الديانات الأخرى[1]. ولما كانت عقيدته مصوغة في مثل هذه اللغة الموجزة البسيطة، كانت لا تطلب من الذكاء إلا قليلاً؛ وإن تحدد هذه الطقوس وواقعيتها ودقتها ليدع المؤمن لا يتخالج في نفسه الشك فيما هو مكلف بأدائه؛ فإذا أدى هذه الواجبات، اطمأن وجدانه إلى أنه قد أنجز كل أوامر الشرع. وقد نجد إلى حد بعيد، في هذه الوحدة التي تربط بين النظامين العقلي والطقسي في هذا الدين، سر السيطرة التي أحدثها الإسلام على عقول الناس. "فإذا أردت أن تجذب إليك جماهير كبيرة من الناس، لقنهم الحقيقة في صورة حاسمة، دقيقة واضحة، وفي أسلوب مرئي محس"[2].

ومن الممكن أن نورد كثيراً من الظروف الأخرى التي ساعدت على نجاح الدعوة إلى الإسلام – وهي ظروف تتعلق بأزمان معينة وبلاد خاصة. ويمكن أن نذكر من بين هذه الظروف تلك الفائدة التي تستمدها أعمال الدعوة الإسلامية من هذه الحقيقة، وهي أن هذه الدعوة كانت إلى حد كبير في أيدي التجار، وخاصة في إفريقية وبلاد أخرى غير متمدنة، حيث نرى الأجنبي موضع الريبة والشك بطبيعة الحال من أهالي هذه البلاد. ففي حالة التاجر، نجد مهنته المعروفة التي لا ضرر فيها، تضمن له مناعة من أي إحساس بمثل هذه الريبة، على حين نرى خبرته بالناس والأخلاق، وحنكته التجارية في معاملة الناس تنيلانه قبولاً حسناً، وتزيلان

Dr. G. A. Lefary: Mankind and the Church, pp. 287-8. London,, 1907.

(١) "وقد يلاحظ المرء ويعجب بذلك اللون من الاعتزاز النبيل بالنفس، الذي يتمسك به المسلمون، في المتوسط، في دينهم". Bishop Lefory: Mankind and the Church, p. 289.

(٢) B. Kuenen: National Religions and Universal Religions, p. 25. London, 1882.

ذلك الشعور بالضيق الذي قد ينشأ بطبيعة الحال من وجود الغريب. وهو لا يقع في تلك المساوئ التي تعرقل مهمة الداعي المحترف، الذي يكون معرضاً لأن يتهم ببعض الدوافع الشريرة، من جانب الشعب الذي نجد درجة خبرته وأفقه العقلي محدودين، والذي يرى أن فكرة أي شخص يتحمل أخطار سفر طويل، ويطرح جانباً كل المشاغل الدنيوية لغرض واحد، هو أن يظفر بقوم يدخلهم في دعوته، أمر غامض لا سبيل إلى تفسيره، بل من جانب قوم من العالم أكثر تمدناً وحضارة على أتم استعداد للشك في إخلاص هؤلاء الذين عهد إليهم في نشر الدعوة من المأجورين.

وتختلف الظروف جد الاختلاف، حينما لم يكن هنالك من سبيل من أن يظهر الإسلام في مظهر الضارع المتوسل في البلد الغريب، ولكنه يمثل دين الجنس الحاكم في عزة وكبرياء. وقد بيَّنا في الصفحات السابقة أن نظرية العقيدة الإسلامية تلتزم التسامح وحرية الحياة الدينية لجميع أتباع الديانات الأخرى، أولئك الذين يؤدون الجزية كفاء حمايتهم. وعلى الرغم من أن صفحات التاريخ الإسلامي قد تلوثت بدماء كثير من الإضطهادات القاسية، ظل الكفار، على وجه الإجمال، ينعمون في ظل الحكم الإسلامي بدرجة من التسامح لم نكن نجد لها مثيلاً في أوربا حتى عصور حديثة جداً. وإن التحويل إلى الإسلام عن طريق الإكراه محرم، طبقاً لتعاليم القرآن: **﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾** "سورة البقرة: آية ٢٥٦". **﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾** "سورة يونس: آية ٩٩، ١٠٠"، وإن مجرد العديد والكثير جداً من الفرق والجماعات المسيحية في الأقطار التي ظلت قروناً في ظل الحكم الإسلامي، لدليل ثابت على ذلك التسامح الذي نعم به هؤلاء المسيحيون، كما يدل على أن الاضطهادات التي كانوا يدعون إلى معاناتها بأيدي الطغاة والمتعصبين، إنما كانت ناتجة من بعض ظروف خاصة وإقليمية، أكثر من أن تكون منبعثة عن مبدأ مقرر من التعصب(١).

---

(١) مثل ذلك ما حدث في عهد المتوكل من اضطهاد، كان نتيجة لرد فعل المذهب السني على كل الأشكال التي تنحرف عن العقيدة التي يدين بها عامة الناس: وما حدث في فارس وفي جهات أخرى من آسيا، حول نهاية القرن الثالث عشر، من الانتقام من سلوك الغطرسة والإهانة الذي ظهر به المسيحيون في ساعة تقدمهم ونفوذهم في ظل المغول الأولين. (المقريزي)، (٢) جـ١ القسم الأول ص٩٨، ١٠٦ ويقول السمعاني Tom, iii. Pars, ii. P. c. حين يتحدث عن الأسباب التي أدت إلى اضطهاد المسيحيين في ظل الحكم الإسلامي: "كثيرا ما أثارت المنازعات المتبادلة بين المسيحيين أنفسهم، وتصريحات رجال الدين وكبرياء قادتهم، وسلطة أقطابهم العاتية، عاصفة من الاضطهاد، وخاصة المجادلات بين الأطباء والكتاب بصدد السيطرة المطلقة على أمتهم". وفي خلال الحروب الصليبية. طالما وقع مسيحيو الشرق في تهمة العمل على ممالأة الغزوات التي قام بها إخوانهم في الدين من المسيحيين الذين وفدوا من الغرب. وفي تركيا الحديثة، نجد حركة استقلال اليونان، وما أثارته هذه الحركة من العواطف الدينية في أوربا المسيحية، ساعدت على جعل نصيب الشعوب المسيحية الخاضعة؛ أشق مما كان يمكن أن يكون لو أنهم لم يتهموا بالخيانة ونفورهم من حاكمهم المسلم. وقد أوضح دى جوبينو De Gobineau فكرته إيضاحاً قوياً جداً فيما يتعلق بمسألة تسامح الإسلام حين قال: "إذا انفصلت العقيدة الدينية عن الضرورة السياسية

وفي أمثال تلك الأزمان التي حدث فيها الاضطهاد، كان ضغط الظروف يدفع كثيراً من الكفـــار إلى أن يصبحوا – من الناحية الشكلية على الأقل – مسلمين، ويمكن إيراد كثير من الأمثلة عن أفـــراد أكرهـــوا في مناسبات خاصة عن الإذعان لدين القرآن. ولكن مثل هذا التعسف لم يكن بموافقة الشرع الإسلامي في شيء، سواء منه الديني والمدني. وقد ذكرنا من قبل (التمهيد ص٢٠) الآيات القرآنية التي تنهي عن الإكراه في الدين، وتوصي بالدعوة باعتبارها الوسيلة الشرعية الوحيدة لنشر هذه العقيدة، ويؤيد هذا المبدأ نفسه ما قرره الأئمـــة من المسلمين. ولما هرب موسى بن ميمون، الذي كان قد تظاهر بالدخول في الإسلام في عهد الموحدين، الذين كان حكمهم ينطوي على التعصب الديني، إلى مصر، وأعلن هنالك أمام الملأ أنه يهودي، اتهمه أحـــد فقهـــاء المسلمين من أسبانيا، بالارتداد عن الإسلام، وطلب بأن يوقع عليه أقصى عقوبة يقضى بها الشرع لهذا الجـــرم. ولكن القاضي الفاضل، عبد الرحيم بن علي[١]، وهو من أشهر قضاة المسلمين، وكبير وزراء صـــلاح الـــدين العظيم، ألغى هذا الحكم، وأعلن بصفة جازمة، أن رجلاً قد أرغم على الدخول في الإسلام، لا يصح شرعاً أن يعد مسلماً[٢]. وبهذه الروح نفسها، نجد غازان (١٢٩٥-١٣٠٤م)، عندما اكتشف أن عبدة البوذيـــة الـــذين كانوا قد دخلوا في الإسلام في مستهل حكمه (حينما خربت معابدهم) لم يتحولوا إلى هذا الدين إلا تظـــاهراً ونفاقاً، يسمح لجميع هؤلاء الذين كانوا جد راغبين في العودة إلى التبت، حيث يستردون حريتهم مرة أخرى بين مواطنيهم البوذيين، ويتبعون ديانتهم القديمة[٣]. ويقص لنا تافرنيير قصة مماثلة عن بعض يهود أصفهان الذين كان الحاكم قد اضطهدهم اضطهاداً شديداً إلى حد أنه "جعلهم يتحولون إلى الإســـلام بـــالقوة والخديعـــة كلتيهما؛ ولكن الملك (الشاه عباس الثاني) (١٦٤٢-١٧٦٧) أدرك أن القوة والرهبة وحداهما قد أرغمتـــاهم على هذا التحول، فإذن لهم أن يستردوا ديانتهم وأن يعيشوا في هدوء وأمان"[٤]. وتدلنا قصة ذكرها رحالة[٥]

التي طالما تحدثت وعملت باسمها؛ فإننا لا نجد ديناً أكثر تسامحاً، بل يمكن أن يقال على وجه التقريب، أكثر بعـــداً عن الاكتراث للعقيدة الفردية من الإسلام. هذا التكوين الآلي قوي إلى حد أننا إذا استثنينا الحالات التي كان كيـــان الدولة الواقع في خطر يحمل الحكومات الإسلامية على اتخاذ كل الأساليب للوصول إلى توحيد العقيدة، فقـــد كـــان التسامح إلى أقصى حد هو القاعدة المستمدة من الأصول الإسلامية.. لا يجوز أن تقف عند ألوان القسوة والعنـــف اللذين ارتكبا في أية مناسبة. وإذا نظرنا إليها عن قرب؛ لن نتردد في معرفة أن أسبابها كانت سياسية محضـــة أو راجعة إلى الأهواء البشرية، أو إلى المزاج المسيطر على الحاكم أو في الشعوب. إن الفعل الديني لم يلجأ إلى هذه الوسائل إلا من حيث هي حجة ولكنه في الواقع لا يدخل في نطاقها .A. de Gobineau (1), pp. 24-5

(١) للوقوف على ترجمة حياته انظر ابن خلكان جـــ٢ ص١١١ – ١١٥.

(٢) ابن العبري (٢) ص٤١٧ – ٤١٨.

(٣) C. d'ohsson, vol. iv. P. 281.

(٤) Tavernier (1), p. 160.

(٥) Viaggio di losafa Barbero nella. Persia. Amusio, vol. ii. P. III.

في فارس يرجع إلى عهد أقدم من ذلك بكثير، إلى سنة ١٤٧٨ كيف عكف أحد حكام المسلمين، في تلك الأزمان المضطربة، على القضاء على صورة من التعصب من هذا النوع نفسه في شدة وعنف. بينما كان تاجر أرمني موسر جالساً في حانوته ذات يوم، قدم عليه حاجي[١]، كان مشهوراً بالتقوى والصلاح، وألح عليه أن يدخل في الإسلام، وينبذ المسيحية. ولما أعرب التاجر عن نيته في أن يظل ثابتاً على دينه، وقدم له صدقة، رغبة في أن يتخلص منه، أجابه بأنه لا يريد صدقته، وإنما يريد أن يتحول إلى الإسلام. وأخيراً ضاق الحاجي ذرعاً بإصرار التاجر على الرفض، فاختطف فجأة سيفاً من يد أحد المشاهدين، وضرب التاجر على رأسه ضربة قاضية، ثم لاذ بالفرار. ولما سمع حاكم المدينة الخبر، استشاط غضباً، وأمر بأن يقتفى أثر القاتل ويودع في السجن. ويجيء بالمذنب بين يدي الحاكم، فطعنه بيده طعنة قضت عليه وأمر بأن تلقى جثته نهباً للكلاب، وقال: "ماذا! أبهذه الطريقة ينتشر دين محمد؟". ولما أرخى الليل سدوله أخذ عامة الشعب هذه الجثة وحرقوها، ومن ثم ثار سخط الحاكم لهذا التحقير لأوامره. فأسلم هذا المكان إلى عساكره ينهبونه ثلاث ساعات أو أربعاً، ثم فرض غرامة إمعاناً في العقاب. وكذلك استقدم إلين ابن التاجر وعزاه ولاطفه بعبارات طيبة رقيقة، حتى الحاكم المجنون (٩٩٦- ١٠٢٠م) (٣٨٦ — ٤١١هـ) الذي حملت اضطهاداته كثيراً من اليهود والمسيحيين على أن يتركوا دينهم ويدخلوا في الإسلام، قد سمح فيما بعد لهؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام عن غير رغبة أن يعودوا مرة أخرى إلى دينهم، وأن يعيدوا بناء أماكن عبادتهم المخربة[٢]. ولما كان المسيحيون الشرقيون يلقون إهمالاً من جانب إخوانهم المسيحيين في الغرب، وكانوا في الأغلب الأعم عزلاً من أي سلاح، كما كانوا غير محميين على الإطلاق؛ كان يكون من السهل على أي حاكم من حكام الإسلام الأقوياء، أن يستأصل شأفة رعاياه المسيحيين، أو ينفيهم من بلادهم، كما فعل الأسبان بالعرب، والإنجليز باليهود مدة أربعة قرون تقريباً. وكان من الممكن تماماً أن ينفذ سليم الأول (في سنة ١٥١٤) أو إبراهيم (في سنة ١٦٤٦) تلك الفكرة البربرية التي تصوروها للقضاء على رعاياهم المسيحيين، كالذي صنعه الأول من ذبح ٤٠٠٠٠ شيعي لتدعيم وحدة العقيدة الدينية بين رعاياه المسلمين. وإن طبقة المفتي الذي صرفوا أذهان سادتهم عن مثل هذا الغرض الذي ينطوي على القسوة، إنما فعلوا ذلك باعتبارهم أئمة الشريعة الإسلامية والتسامح الإسلامي[٣].

---

(١) لو أنه يقصد حقاً الحاجى بقوله آزى.

(٢) المكين ص٢٦٠ وعلى هذا النحو، أصدر المقتدر (٩٠٨ – ٩٣٢م) (٢٩٥ – ٣٢٠هـ) الذي ولي الخلافة قبل الحاكم بنحو قرن، أوامره بإعادة بناء بعض الكنائس في الرملة بفلسطين، وكان المسلمون قد خربوها في أثناء شغب لم يدون التاريخ سببه. (سعيد بن البطريق جـ٢ ص٨٢) ويذكر أبو صالح إعادة بناء كثير من الكنائس والأديار الكبيرة في مصر، وكانت إما قد خربت في زمن الحرب (أي خلال غزوة الغز والأكراد في سنة ١١٦٤) (ص٩١، ٩٦، ١١٢، ١٢٠)، أو دمرت بأيدي المتعصبين (ص٨٥ –٨٦، ١٨٢، والمقريزي منقولة في ملحق ص٣٢٧– ٣٢٨)، أو آلت إلى الفناء (ص٥، ٨٧، ١٠٣ – ١٠٤).

(٣) A. de la Jonquiére, pp. 203, 313, 312.

أضف إلى ذلك أنه على الرغم من أن المبدأ الذي وجد قبولاً عظيماً في ألمانيا في القرن السابع عشر[١] — وهو أن لكل منطقة دينها الخاص — لم يقبله قط أي عاهل مسلم، فمن الواضح أن هذه الحقيقة، وهي أن الإسلام دين الدولة لم تعجز في أنها قد أحدثت بعض التأثير في زيادة عدد أنصاره. وإن الأشخاص الذين لم تتغلغل العقيدة الدينية في نفوسهم قد يكونون على استعداد للتأثر باعتبارات المنافع الدنيوية، وقد يقوم الطموح والمصلحة الشخصية مقام بواعث أكثر قبولاً واستحساناً للتحول إلى الإسلام. وقد شكا القديس أوغسطين من مثل ذلك في القرن التاسع، فذكر أن كثيراً من الناس دخلوا في الكنيسة المسيحية، لا لشيء إلا لأنهم أملوا في الحصول على بعض المنافع المادية باعتقادهم المسيحية، قال: "ما أكثر الذين لا يسعون إلى المسيح إلا لغرض واحد، هو أن يجنوا من وراء ذلك منفعة لهم، حسب ما تقتضيه ظروف كل منهم؛ يكون لأحدهم مهمة ما فيسعى إلى رجال الدين ليحظى منهم بالكلمة الصالحة؛ ويهرع آخر إلى الكنيسة يطلب منها الحماية من زميل له، أكثر منه عتاداً وقوة، قد ضيق عليه الخناق، ويرمي آخر بذلك إلى توسيط زميل له بعض الجاه والسلطان، لمصلحته الشخصية. ولهذا حجته، ولذاك حجته. إن الكنيسة تمتلئ كل يوم بأمثال هؤلاء"[٢].

زد على ذلك أيضاً، أن الإسلام لابد أن يكون قد بدا في نظر القبائل المتبربرة وغير المتمدنة التي شاهدت مجد الإمبراطورية العربية وعظمتها في أوج قوتها، بمثل ذلك التأثير والسحر اللذين بدت بهما المسيحية حين عرضت على برابرة أوربا الشمالية، وعندما وجدوا المسيحية في الإمبراطورية تلك المسيحية المهذبة التي تعتمد على الأبهة وجلال النفوذ والسلطان دينا لبس التاج إلى جانب الملوك، وقد يتفوق عليهم في السيطرة في بعض الأحيان"[٣].

ومما يجب أن تزيده على ما تقدم، هذا التأثير البطيء الدائم، الذي أحدثه الاتصال اليومي بالحياة الإسلامية والتفكير الإسلامي مما جعل حتى أحد الكتاب النساطرة في القرن الثاني عشر، يضيف كلمات التبجيل والتقديس إلى اسم النبي والخلفاء الأولين كلما عرض لذكرهم[٤]، ويسترل رحمة الله على عمر بن عبد العزيز[٥]. وفي عصور حديثة يشكو المبشرون المسيحيون من أن نظام التعليم العام في مصر في ظل الاحتلال

---

(١) E. Charvériat: Histoire de la Goerre de Trente Ans, tome, ii. Pp. 615, 625, Paris,1878.

(٢) In loannis Evangelium Tractatus, xxv.§ 10.

(٣) C. Merivale: The Conversion of the Northern Nations, p. 102. London, 1866.

(٤) مارى سليمان (س ٤، ١٣،٦) وعلى ذلك أعرب العالم المارونى يوسف سمعان السمعانى في القرن الثامن عشر، عن فزعة من مثل هذا الإذعان لإحساس المسلمين بقوله "لقد مدح محمداً وأنصاره، والأمر الذي لا يمكن أن يذكر دون أن تقشعر منه الأبدان؛ هو أنه ذكر اسم النبي... مع القول المضاف "عليه السلام" ذلك القول الذي لا يبعث على الدهش؛ كما جرت بذلك عادة المسلمين..Assemani, Tom.iii, pars.I.P.585

(٥) مارى بن سليمان ص ٦٥ س ١٦

البريطاني، ذلك النظام الذي "يضطر الأولاد المسيحيون غالباً بمقتضاه إلى أن يجلسوا ويستمعون للقرآن والدين "أي الدروس الدينية" وهما يدرَّسان لرفاقهم المسلمين على حين لا يوجد مكان يمكن عزلهم فيه"[١]، إنما يميل إلى منح المسلمين نفوذاً راجحاً على إخوانهم التلاميذ المسيحيين. ومن أنشط أتباع محمد عبده المفتي الأخير رجل كان في الأصل طالباً قبطياً يدرس الطب، ثم تحول إلى الإسلام بتأثير التعليم الديني الذي كان قد سمعه يلقن في ساعات الدرس بالمدرسة[٢].

ولكن سرد أمثال هذه البواعث التافهة يفسر كل حالات التحول إلى هذا الدين أو إلى غيره من الأديان. وينبغي ألا تجعلنا هذه البواعث بغض النظر عن العوامل الأخرى في حياة الدعوة إلى الإسلام التي كان لتأثيرها طابع ديني أكثر تميزاً ووضوحاً. وفي مقدمة هذه العوامل تأثير حياة الورع والتقوى التي يحياها المسلمون. وقد يبدو ذلك غريباً في نظر جيل تعود أن ينظر إلى الإسلام على أنه مستودع لكل ألوان الرذيلة؛ ومع ذلك لا مراء في أن كثيراً من المسيحيين في عصور أقدم من ذلك، اتصلوا بمجتمع إسلامي حي، وتأثروا تأثراً عميقاً بما تجلى في هذا المجتمع من فضائل. وإذا كانت هذه الفضائل قد أثرت كذلك في الرحالة وفي الغريب، فلا شك في أنه كان لها بعض التأثير في جذب الكافر الذي أصبح يتصل بهم اتصالاً يومياً. من ذلك نجد ركلدوس دى مونت كروسيس **Ricoldus de Monte Cruscis** وهو مبشر دومينقاني زار الشرق في نهاية القرن الثالث عشر، ينطلق بالثناء على المسلمين الذين كان قد اشتغل بين أظهرهم، يقول: "استولى علينا الدهش، كيف أن أعمالاً تتصف بمثل هذا الكمال يمكن أن تحيا في ظل شريعة تصطبغ بمثل هذه النزعة الإلحادية. لهذا نستعيد الآن في إيجاز أعمال العرب تلك المتصفة بالكمال.. من ذا الذي لا يعجب إذا تأمل جيدا أية عناية فاقة بالدراسة يمكن أن توجد بين العرب، أي إخلاص في الصلاة، وآية رحمة بالفقير، وأي تبجيل لاسم الله والأنبياء والأماكن المقدسة وأي وقار في أخلاقهم، وفي معاملتهم للغرباء، وأية مودة تربط بين جنسهم[٣]؟ وعلى هذا النحو امتدح وليم بتي اف نيوبره **Wiliam Petit of Newburgh** حول نهاية القرن الثاني عشر، رزانة العرب باعتبارها مظهر من تعاليهم نبيهم، وموحية إليهم بمعنى من التفوق الخلقي على المسيحيين، قال: "ولما كان محمد يبغض السكارى والنهمين في جميع أنحاء الأرض، فإنه قد علمهم العفة والقناعة، وقبح الطيب من الطعام، ونهاهم عن شرب الخمر إلا في أعياد محددة قليلة. ولذلك نرى العرب، وإن كانوا حقيقة مستسلمين لشهواتهم الجنسية، متبعين في ذلك —كما قيل —سنة ذلك الذي أغواهم، إلا أنه من المحزن أن نقول أنهم أكثر عفة وأرجح مترلة من رجالنا المسيحيين. وهم آخذون علينا، يالله العار! قذارتنا بسبب نهمنا وإدماننا تناول المسكرات. ولما سمح صلاح الدين أخيراً، أثناء اختباره أحوال شعبنا، وكان صلاح الدين المعول الهدام لاسم المسيحيين منذ

---

(١) Methods of Mission Work amang Moslems. P. 62.

(٢) Id. Pp. 61-4.

(٣) Laurent. P. 131.

عشر سنوات خلت، إنهم يستخدمون بعض الأطباق عند تناول الطعام، يروى أنه قال إن أمثال هذه الآنية تعد عاراً على الأرض المقدسة. ومن ذلك يتضح أن مظهر مجدنا يثير علينا العرب الذين يباهون باقتصادهم، كما أنه يشجعهم، كأن لسان حالهم يقول "قد نبذ الله السكارى، فلنقف آثارهم، ونلق القبض عليهم، ما داموا لا يجدون منقذاً لهم[1].

وأدب الصليبين غني بمثل هذا التقدير للفضائل الإسلامية كما تلقى الأتراك العثمانيون في أيام حكمهم الأولى في أوربا، كثيراً من تقدمات المدح والثناء من أفواه المسيحيين، كما بينا ذلك في أحد أبواب هذا الكتاب.

وهنالك في الوقت الحاضر عاملان رئيسيان (فوق ما ذكرنا آنفاً مما يصح أن يؤيد وجهة نظرنا) يعملان على تنشيط الدعوة في العالم الإسلامي. أولهما انتعاش الحياة الدينية التي يبدأ تاريخها من حركة الإصلاح الوهابية في القرن الثامن عشر، وعلى الرغم من أن هذا الانتقال الجديد قد فقد كل معنى سياسي في خارج حدود نجد زمناً طويلاً نرى تأثيرها من حيث هي نهضة دينية ملموساً في كافة أنحاء إفريقية والهند وأرخبيل الملايو، حتى إلى الوقت الحاضر، كما أحيت كثيراً من الحركات التي أحرزت قصب السبق بين أقوى المؤثرات في العالم الإسلامي. وقد أوضحنا في الصفحات السابقة كيف أن كثيراً من البعوث الإسلامية الحديثة، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتلك الحركة الواسعة النطاق، وإن ما أثارته هذه الحركة من حماسة متقدة، وما سكبته في النظم الدينية القائمة من حياة جديدة، وما بنته في الدراسة الدينية النظرية وتنظيم الشعائر المنسكية من روح دافعة — إن ذلك كله قد عمل على إيقاظ روح الإسلام الفطرية التي جبلت على نشر تعاليم الدعوة، كما عمل على الإبقاء عليها.

وهناك عامل آخر يسير مع هذه الحركة الإصلاحية جنباً إلى جنب، وهو من نوع يختلف عن هذه الحركة جد الاختلاف — ذلك أنه، ولن نذكر إلا وجهة واحدة من هذا الاختلاف، في الوقت الذي نجد فيه الحركة الوهابية تناهض الحضارة الأوربية مناهضة عنيفة، نرى العامل الثاني يترع نوعاً ما إلى التفكير الحديث، ويقدم صورة الإسلام بما يتمشى مع هذه النزعة، – ذلك هو حركة الوحدة الإسلامية التي تسعى إلى ربط جميع شعوب العالم الإسلامي برباط مشترك من المودة والتعاطف. وعلى الرغم من أن هذا لا يساوي بحال العامل الآخر في الأهمية، نجد هذا الاتجاه إلى التفكير، يهب روحاً قوية تدفع إلى القيام بأعمال نشر الدعوة؛ وإن الجهد الذي يحقق في الحياة الدنيا المثل الإسلامي الأعلى في أخوة المؤمنين كافة لينعكس على مثل العقيدة العليا المكملة؛ وإن معنى وحدة شاملة، وحياة مشتركة تجري في هذه الشعوب، لينفخ في قلوب المؤمنين روحاً وحياة، ويخلق فيها الجرأة على التحدث بين يدي الكفار.

---

(١) Historia Rerum Anlicarum Willeimi Parvi de Newburgh, ed, Hans Claude Hamilton, vol. ii. P. 158. London, 1856.

أما معرفة ما ستحدثه هاتان الحركتان من تأثير أبعد مدى في حياة الدعوة الإسلامية فإن المستقبل وحده كفيل ببيان ذلك. على أن مجرد نشاطهم في الوقت الحاضر دليل على أن الإسلام لم يمت. و لم يكن النشاط الروحي للإسلام، كما زعم عدد كبير جداً من الناس، متمشياً مع سلطانه السياسي[1]. بل على العكس من ذلك، نجد فقدان السلطة السياسية والانتعاش المادي، يعمل على إبراز أجمل الصفات الروحية التي تعد أصدق البواعث التي تحفز على القيام بأعمال الدعوة. وقد تعلم الإسلام منافع الشدائد، ولما كان بعيداً كل البعد عن الانحدار إلى الرخاء المادي لكونه نذير انحلال هذا الدين، كان من المهم أن تلك البلاد الإسلامية الخالصة، التي عاشت أطول وقت في ظل الحكم المسيحي، تتجلى كأشد ما تكون نشاطاً في القيام بنشر تعاليم الدعوة. ويظهر مسلمو الهند والملايو من الحماسة والغيرة في نشر الدين ما لا نجده في تركيا أو في مراكش.

(١) وقد عَبَّر فردريك دينسون موريس عن فكرة من أكثر الأفكار التي تتعلق بهذه العقيدة تداولاً وشيوعاً حين يقول:"من الثابت أن الإسلام لم يكن يصادف نجاحاً إلا عندما كان يهدف إلى الغزو"

The Religions of the World, p. Cambridge, 1852.

ملحق (١)
رسالة الهاشمي إلى الكندي يدعوه إلى الإسلام

فيما يلي نص رسالة الهاشمي يدعوه بها إلى الإسلام:

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فقد افتتحت كتابي إليك بالسلام عليك والرحمة تشبهاً بسيدي وسيد الأنبياء محمد رسول الله ﷺ، فإن ثقاتنا ذوي العدالة عندنا. الصادقين الناطقين بالحق، الناقلين إلينا أخبار نبينا عليه السلام، قد رووا لنا عنه أن هذه كانت عادته، وأنه كان ﷺ إذا افتتح كلامه مع الناس يبادئهم بالسلام والرحمة في مخاطبته إياهم، ولا يفرق بين الذمي منهم والأمي، ولا بين المؤمن والمشرك، وكان يقول إني بعثت بحسن الخلق إلى الناس كافة، و لم أبعث بالغلظة والفظاظة، ويستشهد الله على ذلك، إذ يقول: "بالمؤمنين رءوف رحيم"[١]. وكذلك رأيت من حضرته من أئمتنا الخلفاء المهتدين الراشدين رضي الله عنهم أجمعين، أنهم كانوا لفضل أدبهم، وشرف حسبهم، ونبل همتهم وكرم أخلاقهم، يتتبعون أثر نبيهم ﷺ، ولا يفرقون في ذلك ولا يفضلون فيه أحداً، فسلكت ذلك المنهج، واحتذيت تلك السبل، وأخذت ذلك الأدب المحمود، فابتدأتك في كتابي هذا بالسلام والرحمة، لئلا ينكر عليّ منكر يقع إليه كتابي هذا.

"والذي حملني إليك وحثني على ذلك؛ إذ كان سيدي ونبيي محمد ﷺ يقول محبة القريب ديانة وإيمان. على أني كتبت طاعة لرسول الله ﷺ، ولما أوجبه لك عندنا حق خدمتك لنا، ونصحك إيانا، وما أنت عليه من محبتنا، وتظهره من مودتنا، والميل إلينا، وما أرى أيضاً من إكرام سيدي وابن عمي أمير المؤمنين أيده الله لك، وتقريبه إياك، وثقته بك، وحسن قوله فيك. فرأيت أن أرضي لك ما قد رضيته لنفسي وأهلي وولدي مخلصاً لك النصيحة ومبذلها[٢]، كاشفاً عما نحن عليه من ديانتنا هذه التي ارتضاها الله لنا ولجميع خلقه، ووعدنا عليها حسن الثواب في المعاد، والأمن من العقاب في المآب... فرغبت لك فيما رغبت فيه لنفسي، وشفقت عليك لما ظهر لي من كثرة أدبك وبارع علمك وحسن تهذبك وجميل مذهبك وشرف حسبك وتقدمك على الكثير من أهل ملتك، أن تكون مقيماً على ما أنت عليه من ديانتك هذه فقلت: أكشف له عما مَنَّ الله به علينا، وأعرفه ما نحن عليه بألين القول وأحسنه متبعاً في ذلك ما أذن الله به، إذ يأمرني ويقول جل ثناؤه: **﴿ولاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾** "سورة ٢٩آية ٤٦". فلست أجادلك إلا بالجميل من الكلام، والحسن من القول، واللين من اللفظ، لعلك تنتهي وترجع إلى الحق، وترغب فيما أتلوه عليك من كلام الله جل جلاله، الذي أنزله على خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم، نبينا محمد عليه الصلاة والسلام. و لم أيأس من ذلك،

---

(١) تمام الآية: "لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ".

(٢) كذا في الأصل؛ ولعله محرف عن (باذلها).

بل رجوته لك من الله الذي يهدى من يشاء، وسألته أن يجعلني سبباً في ذلك، ووجدت الله تبارك وتعالى يقول في محكم كتابه: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾ "سورة ٣ آية١٧"، ويقول الله أيضاً مؤكداً لقوله الأول ﴿**ومن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ ديناً فَلَن يُقْبَلَ منْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ منَ الخَاسِرِينَ**﴾ "سورة ٣ آية ٧٩"، ثم أكد ذلك تبارك وتعالى أمراً قاطعاً إذ يقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ "سورة٣ آية ١٠٢".

"وأنت الرجل (عافاك الله من جهل الكفر، وفتح قلبك لنور الإيمان) – تعلم أني رجل أتت عَلَيَّ سنون كثيرة، وقد تبحرت في عامة الأديان، وامتحنتها وقرأت كثيراً من كتب أهلها، وخاصة كتبكم معشر النصارى" (وهنا يعدد الأسفار الهامة من العهدين القديم والجديد (التوراة)، وكيف درس الفرق المسيحية المختلفة). "ولقيت جماعة من الرهبان المعروفين بشدة الزهد وكثرة العلم، ودخلت عماراً[1] وديارات وبيعاً كثيرة، وحضرت صلواتهم.. ورأيت ذلك الاجتهاد العجيب، والركوع والسجود بإلصاق الخدود بالأرض، وضرب الجبهة، والتكيف إلى انقضاء صلواتهم خاصة في ليالي الآحاد وليالي الجمع وليالي الأعياد. التي يسهرون فيها منتصبي الأرجل بالتسبيح والتقديس والتهليل الليل كله، ويصلون ذلك بالقيام نهارهم أجمع، ويكثرون في صلواتهم ذكر الأب والابن والروح القدس، وأيام الاعتكاف التي يسمونها أيام البواعيث، وقيامهم فيها حفاة على المسوح والرماد، باكين بكاء كثيراً متوتراً بانهمار دموع من الأعين والجفون، منتحبين بشهيق عجيب. ورأيت عملهم القربان، كيف يحفظونه بالنظافة في خبزهم إياه، ودعائهم عند عمله الدعاء الطويل، مع التضرع الشديد عند إصعاده على المذبح في البيت المعروف في ببيت المقدس، مع تلك الكؤوس المملوءة خمراً. ورأيت أيضاً ما يتدبر به الرهبان في قلاليهم أيام صياماتهم الستة، أعني الأربعة الكبار والاثنين الصغيرين وغير ذلك... فهذا كله كنت له حاضراً، ولأهله مشاهداً، وبه عارفاً عالماً. ورأيت أيضاً مطارنة وأساقفة مذكورين بحسن المعرفة وكثرة العلم، مشهورين بشدة الإغراق في الديانة النصرانية، مظهرين غاية الزهد في الدنيا، فناظرتهم مناظرة نصفة، طالباً للحق، مسقطاً بيني وبينهم اللجاج والمراء والمكابرة بالسلطة، والصلف والبذخ بالحسب. وأوسعتهم أمنا أن يقوموا بحجتهم، ويتكلموا بجميع ما يريدونه، غير مؤاخذ لهم بذلك، ولا متعنّت عليهم في شيء، كمناظرة الرعاع والجهال والسقاط والعوام والسفهاء من أهل ديانتنا، الذين لا أصل لهم ينتهون إليه، ولا عقل فيهم يُعولون عليه، ولا دين ولا أخلاق تحجبهم عن سوء الأدب؛ وإنما كلامهم العنت والمكابرة والمغالبة بسلطان الدولة، بغير علم ولا حجة. وكانوا إذا أنا ناظرتهم وسألتهم مسألة بحث عن عقولهم واعتقادهم وتخرجهم، يصدقونني عن أمرهم ولا يكذبون في شيء مما كنت أسائلهم عنه وأجادلهم فيه، وكنت قد عرفت من بواطنهم مثل الذي قد عرفته من ظاهرهم، فكتبت إليك (أصلحك الله!) بهذا الشرح، وعَدَوتُ

(١) هو جمع عمر؛ بضم العين؛ بمعنى البيعة والكنيسة. ولم تجد له في اللسان ولا التاج جمعاً.

ما عَدَوْته بعد الاستقصاء والبحث الشديد والامتحان له على طول الأيام، لئلا يظن بي أني غبي بالأمور، وليعلم من وقع إليه كتابي هذا أني عارف بجميع أحوال النصارى حق المعرفة.

"فأنا الآن (متَّع الله بك!) أدعوك بهذه المعرفة كلها مني بدينك الذي أنت عليه وبطول المحبة إلى هذا الدين الذي ارتضاه الله لي وارتضيته لنفسي، ضامناً لك به الجنة ضماناً صحيحاً، والأمن من النار، وهو أن تعبد الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يتخذ له صاحبة ولا ولداً ولم يكن له كفواً أحد... وهي الصفة التي وصف نفسه جل وعز بها، إذ كان ليس أحد من خلقه أعلم به من نفسه. فدعوته إلى عبادة الإله الواحد الذي هذه صفته، ولم أزد في كتابي هذا على ما وصف به نفسه (جل اسمه وتعالى ذكره، علواً كبيراً عما يشركون!) فهذه ملة أبيك إبراهيم صلوات الله عليه، فإنه كان حنيفاً مسلماً. ثم أدعوك "حفظك الله إلى الشهادة والإقرار بنبوة سيدي وسيد ولد آدم، وصفي رب العالمين وخاتم الأنبياء محمد... الذي أرسله الله بشيراً ونذيراً إلى الناس كافة **﴿بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾** "سورة ٩ آية٣٣". فدعا الناس أجمعين، أهل الشرق والغرب، وأهل البر والبحر، والجبل والسهل، بالرحمة والرأفة وطيب القول وحسن الخلق واللين. فاستجاب هذا الخلق كلهم إلى دعوته بالشهادة له أنه رسول الله رب العالمين إلى من يريد انتصاحاً، وأقر الأنام كلهم طائعين مذعنين لما عرفوا من الحق والصدق من قوله وصحة أمره، وما جاء به من البرهان الصريح والدليل الواضح، وهو هذا الكتاب المنزل عليه من عند الله، والذي لا يقدر أحد من الإنس والجن أن يأتي بمثله، وكفى به دليلاً على دعوته، وأنه دعا إلى عبادة إله واحد فرد صمد، فدخلوا في دينه وصاروا تحت يده غير مكرهين ولا مجبرين، بل خاضعين معترفين مستنيرين بنور هدايته متطاولين باسمه على غيرهم ممن جحد نبوته وأنكر رسالته ورد أمره مقاوماً ومتعالياً، فمكن الله لهم في البلاد وأذل لهم رقاب الأمم من العباد، إلا من قال بقولهم وتدين بدينهم؛ وشهد على شهادتهم، فحقن بذلك دمه وماله، وحرمته أن يؤدي الجزية عن يد وهو صاغر. (وهنا يعدد تعاليم الإسلام المختلفة، كالصلوات الخمس وصوم رمضان والجهاد، ويشرح عقيدة بعث الموتى، ويوم الدين، ويصف مناعم الفردوس وأهوال الجحيم). "فأما نحن فقد ذكرناك، فإن أنت آمنت وقبلت ما يتلى عليك من كتاب الله المنزل انتفعت بما ذكرناك، وكتبنا به إليك، وإن أبيت إلا المقام على كفرك وضلالك وعنادك للحق، كنا نحن قد أجرنا، إذ عملنا بما أمرنا به وكان الحق هو المنتصف منك إن شاء الله. (وهنا يعدد فروض الدين المختلفة ومزايا المسلم ويختم ذلك بقوله): "فقد تلوت عليك من قول الله تبارك وتعالى، وهو قول الحق، لا خلف لوعده، ولا تكذيب لقوله فيما سلف من كتابي هذا، ما في أقله كفاية. فدع ما أنت عليه من الكفر والضلال والشقاوة والبلاء، وقولك بذلك التخليط الذي تعرفه ولا تنكره وهو قولكم بالأب والابن والروح القدس وعبادة الصليب التي تضر ولا تنفع، فإني أربأ بك عنه وأجل فيه علمك وشرف حسبك عن خساسة، فإني وجدت الله تبارك وتعالى يقول **﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ به وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾** "سورة ٤ آية٤٨"، وقال جل ذكره **﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن**

يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلّه مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة: ١٧) **﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾** (المائدة: ٧٢-٧٣)؛ **﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾** (المائدة: ٧٤-٧٦). فدع ما أنت فيه من تلك الضلالة، وتلك الحمية الشديدة الطويلة المتعبة، وجهد ذلك الصوم الآزم الصعب والشقاء الدائم، والبلاء الطويل الذي أنت منغمس فيه، الذي لا ينفع ولا يجدي عليك إلا إتعابك بدنك وتعذيبك نفسك، وأقبل داخلاً في هذا الدين القيم، السهل المنهج، الصحيح الاعتقاد، الحسن الشرائع، الواسع السبيل، ارتضاه الله لأوليائه من عباده، ودعا جميع خلقه إليه من بين الأديان كلها، تفضلاً منه عليهم به، وإحساناً إليهم بهدايته إياهم، ليتم بذلك نعماه عندهم.

"فقد نصحت لك يا هذا وأديتُ إليك حق المودة وخالص المحبة، إذ أحببت أن أخلطك بنفسي، وأن أكون أنا وأنت على رأي واحد وديانة واحدة. فإني سمعت ربي يقول في محكم كتابه **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾** "سورة ٩٨ – آية٦ -٨" وقال الله في محكم كتابه في موضع آخر، **﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾** "سورة٣ آية ١١٠" وأشفقت عليك (أبقاك الله!) أن تكون من أهل النار، الذين هم شر البرية، ورجوت أن تكون بتوفيق الله إياك من المؤمنين، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، هم خير البرية، ورجوت أن تكون من هذه الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس، فإن أبيت إلا إلظاظاً ولجاجاً وجهلاً وتمادياً في كفرك وطغيانك الذي أنت فيه، ورددتَ علينا قولنا و لم تقل ما بذلناه لك من نصيحتنا، حيث لم نردْ منك على ذلك جزاء ولا شكراً، فاكتب بما عندك من أمر دينك، والذي صح في يدك منه، وما قامت به الحجة عندك، منا مطمئناً، غير مقصر في حجتك ولا مكاتم لما أنت معتقده، ولا فرق ولا وجل، فليس عندي إلا الاستماع للحجة منك، والصبر والإقرار بما يلزمني منه طائعاً غير منكر، ولا جاحد ولا هائب، حتى نقيس ما تأتينا به وتتلوه علينا، وتجمعه إلى ما في أيدينا ثم نخبرك بعد ذلك على أن تشرح لنا علته، وتدع الاعتلال علينا بقولك أن الفزع حجبك وقطعك عن بلوغ الحجة، واحتجت أن تقبض لسانك، ولا تبسطه لنا ببيان الحجة، فقد أطلقناك وحجتك، لئلا تنسبنا إلى الكبرياء وتدعي علينا الجور والحيف، فإن ذلك غير شبيه بنا.

فاحتجَّ عافاك الله بما شئت، وتكلم بما أحببت وانبسط في كل ما تظن أنه يؤديك إلى وثيق حجتك، فإنك في أوسع الأمان، ولنا عليك أصلحك الله، إذا أطلقناك هذا الإطلاق، وبسطنا لسانك هذا البسط، أن تجعل بيننا وبينك حكماً عادلاً لا يجور، ولا يحيف في حكمه وقضائه، ولا يميل إلى غير الحق إذا ما تجنب دولة الهواء[1] وهو العقل الذي يأخذ به الله عز وجل ويعطي فإننا قد أنصفناك في القول وأوسعناك في الأمان، ونحن راضون بما حكم به العقد لنا وعلينا اذ كان في القول وأوسعناك في الأمان، ونحن راضون بما حكم به العقد لنا وعلينا إذا كان ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (سورة: البقرة آية ٢٧٥)، وما دعوناك إلا طوعاً وترغيباً في ما عدننا وعرفناك شناعة ما أنت عليه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته"

ويمكن أن يكون هنالك قليل جداً من الشك في أمر واحد فيما يتعلق بهذه الوثيقة، وهو أنها قد وصلت إلينا في حالة ناقصة، وأنها لقيت على أيدي النساخ المسيحيين تشويهاً وتحريفاً. وإن ما نكاد نراه من عدم وجود ما يدحض تلك العقائد المسيحية الحاسمة دحضاً تاماً، كعقيدة الثالوث المقدس، وما نجده من الإشارات إلى أمثال تلك الهجمات في رد الكندي على هذه الرسالة ليدل بالتأكيد على إسقاط تلك العبارات التي قد تكون قد آلمت القراء المسيحيين[2].

(١) كذا في الأصل – والصواب الهوى.

(٢) وعلى هذا النحو؛ نجد الناشر الأسباني الذي نشر الرسائل الجدلية التي تبودلت بين ألفار و "المذنب" (وهو مسيحي تحول إلى اليهودية) يضيف الملاحظة الآتية عقب الرسالة الخامسة عشرة: "إن أربعة عشر سطراً من هذه الصحيفة قد انمحت بحيث لا يمكنك قراءة كلمة واحدة منها. وقد قطع صاحب الكتاب الصحيفة التالية؛ حتى لا تقرأ أباطيل المذنب". Migne, Part. Lat., tom. Cxxtf p. 483.

ملحق (٢)

كتب الجدل بين المسلمين وأتباع الديانات الأخرى

على الرغم من أنه لم يكن للإسلام طريقة منظمة للدعاية، ولا جمعيات دينية، ولا وسائل من هذا القبيل للقيام بأعمال الدعوة، لم يكن هنالك أي نقص في عروض الدين المعقولة التي قدمت إلى الكفار، وخاصة إلى المسيحيين واليهود. وليس من غرضنا أن نورد وصفاً مفصلاً عن تلك العروض في هذا المقام، ولكن المهم أن نوجه انتباهنا إلى وجودها، وحسبنا أن نفعل ذلك لتزيل الخطأ الشائع الذي يقول أن التحول الجمعي هو الصفة الغالبة في انتشار الإسلام، وإن الإقناع الفردي لم يؤلف أي جانب من مشروعات الدعوة التي قام بها الدعاة المسلمون. ونجد بواكير الجدل الإسلامي ضد الكفار في القرآن ذاته؛ ولكن منذ القرن التاسع الميلادي تبدأ سلسلة طويلة من الرسائل المنظمة في الدفاع عن صحة الديانة الإسلامية، وقد ظلت قوية نشيطة حتى الوقت الحاضر. وأن عدد أمثال هذه المؤلفات التي وجهت ضد العقيدة المسيحية، كان أكبر بكثير مما كتبه المسيحيون في تفنيد الإسلام، وقد استخدم فريق من أقدر مفكري المسلمين أقلامهم في كتابة هذه المؤلفات، منهم أبو يوسف بن إسحاق الكندي (٨١٣- ٨٧٣) م والمسعودي (المتوفي سنة ٩٥٨م) وابن حزم (٩٩٤- ١٠٦٤) والغزالي (المتوفي سنة ١١١١م) وغيرهم. ومن الطريف أيضاً أن نلاحظ أن عدة من المرتدين كتبوا يبررون تغيير دينهم ويدافعون عن العقيدة الإسلامية، منهم ابن جزلة في القرن الحادي عشر، ويوسف اللبناني والشيخ زيادة بن يحيى في القرن الثالث عشر، وعبد الله بن عبد الله في القرن الخامس عشر، ودرويش علي في القرن السادس عشر، وأحمد بن عبد الله وهو إنجليزي ولد في كمبردج في القرن السابع عشر وغيرهم وهؤلاء الأخيرون كانوا جميعاً مسيحيين قبل أن يتحولوا إلى الإسلام؛ أما المرتدون من اليهود أيضاً، مع أنهم كانوا أقل عدداً، فقد كانوا من بين الذين كتبوا دفاعاً عن الإسلام. وإلى جانب ما دون في الهند من كتب إسلامية كثيرة للرد على الدين المسيحي، نجد عدداً هائلاً من المؤلفات الجدلية للرد على الهندوكية: أما أن المسلمين كانوا على هذا النحو من النشاط في سائر الأقطار الوثنية، فليس لدى معلومات عن ذلك.

وسيجد القارئ ذخيرة وافية من المعلومات عن آداب الجدل الإسلامي في الكتب التالية:

Moritz Steinshneider; Polemische und apolgetische Litteratur in arabischer, Sprache, zwishchen Muslimen, Christen und Juden. Leipzeg, 1877; Martin Schreiner: Zur Geschichte cer polemik Zwischen Juden und Muhammedanern Z.D.M.G., vol.42, p. 591 ff. 1888; W. A. Shedd: Islam and the Oriental Churches. Pp. 252-3; Carl Güterbock: Der Islam in Lichte der byzantinischen polemik. Berlin, 1912.

ملحق (٣)

جمعيات الدعوة الإسلامية

إن تأليف الجمعيات لمباشرة الدعاية في طريقة منظمة منهجية، تطور حديث العهد في تاريخ الدعوة الإسلامية- كما هي في الواقع حديثة نسبياً في تاريخ الإرساليات المسيحية. وقد يبدو أن أمثال جمعيات الدعوة الإسلامية هذه، قد تألفت على مثال يقوم على الخبرة والمعرفة لهيئات منظمة مماثلة في العالم المسيحي؛ وهى ليست في ذاتها أشد الدلالات تمييزاً لروح الدعوة في الإسلام. وفي العالم الغربي نجد قليلاً جداً يمكن ملاحظته في هذا الصدد. ويظهر أنه لم تكن هنالك آية محاولة قد بذلت لتكوين مثل هذه الجمعية قبل النصف الأخير من القرن التاسع عشر، و لم يكلل أسبق الجهود في هذه السبيل إلا بقليل من النجاح. وعندما كتب هـــ.م ستانلي في سنة ١٨٧٥ في الصحافة الإنجليزية يحث على إرسال بعث مسيحي إلى موتزا ملك أوغنده، أدت العناية الواسعة النطاق التي وجهها الناس إلى دعوة ستانلي إلى تأليف جمعية في القسطنطينية لنشر الدعوة الإسلامية في تلك البلاد. ولكن أحداً من الدعاة المسلمين لم يرسل قط إلى أوغنده، وحوَل نشوب الحرب الروسية التركية في سنة ١٨٧٨ أنظار الأتراك عن أي مشروع من هذا القبيل[١]. وقد تبين إخفاق مماثل في تأسيس عمل منظم لنشر الدعوة، عندما حددت الحكومة المصرية الإنجليزية في السودان مناطق النفوذ للجمعيات التبشيرية المسيحية المختلفة في المقاطعات التي كان أهلها وثنيين. وقد ادعى بعض مسلمي القاهرة أن جزءاً من الأراضي يجب أن يخصص لأتباع الإسلام؛ ومن ثم أجابت الحكومة بأن كل ما تستطيع عمله أن ترسل دعاة مسلمين، وأن تقدم إليهم نفس التسهيلات التي قدمتها للمبشرين المسيحيين.

ولكن المسألة كان يعوزها التنظيم الأساسي، فتعرضت للإهمال[٢]، وفى سنة ١٩١٠ أسس الشيخ رشيد رضا، صاحب مجلة المنار، جمعية القاهرة، كانت تهدف إلى تأسيس كلية (تسمى الدعوة والإرشاد) لتدريب دعاة وجدليين للدين الإسلامي، وإرسالهم بادئ الأمر إلى بلاد الوثنيين والمسيحيين، بل إلى البلاد الإسلامية التي تبذل فيها الجهود لإقناع المسلمين بالتخلي عن عقيدتهم[٣].

على أن أعظم توسع لأمثال هذه الهيئات المنظمة كان في بلاد الهند. ومن المحتمل أن تعد أنجومان حمايت إسلام في لاهور من أحسن الهيئات المنظمة، ولكن مهمة الدعوة لا تؤلف من مجال نشاطها الواسع إلا جانباً يسيراً، ولهذا لا نستطيع أن نصفها بأنها جمعية لنشر الدعوة نقية بسيطة. وكان الغرض الأصلي الذي

---

(١) Richter, pp. 164-5.

(٢) Artin. P. 35.

(٣) The Moslem world, vol. i. p. 441. R. du M. M. vol. p. 374; xviii. Pp. 216, 224.

تأسس من أجله أنجومان حامي إسلام في أجمير هو أن تجيب على الاعتراضات التي وجهها إلى الإسلام أعضاء أريه سماج؛ بيد أنه من بين أغراضها الدعوة إلى الإسلام، وتزويد المسلمين الجدد بالطعام واللباس[١]. وقد قصرت أنجومان وعظ إسلام، كما يدل على ذلك اسمها، جهودها على الدعوة إلى هذا الدين، على حين كان مولوي بقا حسين خان (ص٢٤١) كاتم سرها، وقد نشر ثبوتاً بأسماء من ظفرت بهم هذه الجمعية من الذين دخلوا في الإسلام – كما فعلت كذلك أنجومان تبليغ إسلام (وكانت ترمي إلى تحويل الهندوكيين الذين لم يمكن الاتصال بهم إلى الإسلام) التي أنشئت في حيدر أباد (بالدكن)، ولكن يظهر أن كلا من هاتين الجمعيتين لم تعمر طويلاً[٢]. ومن بين الجمعيات التي أنشئت في القرن العشرين، مدرسة إلاهيت في كونبور لتدريب الدعاة ونشر الرسائل دفاعاً عن الإسلام ورداً على الحملات التي توجه إليه. وإن أنجومان أشاعت وتعليم إسلام في بطالة بالبنجاب، لتهدف إلى أغراض مماثلة. ولكن أنجومان هداية الإسلام في دهلي تعد أعظم هذه الهيئات المنظمة، وينضم إليها عدد كبير من الجمعيات الأخرى يبلغ أربعاً وعشرين جمعية[٣]، في جهات مختلفة من الهند. وترسل هذه الأنجومان الدعاة للدعوة إلى عقائد الإسلام ولعقد مناظرات مع غير المسلمين، كما تقوم بنشر الكتب الجدلية، وخاصة في الرد على الهجمات التي يوجهها أعضاء آريه سماج.

---

(١) Rajputana Herald, April 17, 1889.

(٢) Mohammedan World of Today, p. 183.

(٣) ورد ثبت بأسماء هذه الجمعيات في ص١٩ من: The Annual Report for the year 1328 H

مراجع الكتاب

١- مراجع عربية وفارسية – مذكورة بالإشارات المختصرة

ابن أبي أصبيعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء. القاهرة ١٢٩٩هـ.

ابن أبي زرع: روض القرطاس. باريس ١٨٦.

ابن الأثير: كتاب الكامل في التاريخ. ليدن ١٨٥١ – ١٨٧٦.

ابن إسحاق: سيرة سيدنا محمد رسول الله ﷺ رواية أبي محمد عبد الملك بن هشام. جوتنجن ١٨٥٩.

ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروفة برحلة ابن بطوطة. باريس ١٨٥٣ – ١٨٥٨.

ابن حوقل: المسالك والممالك والمفاوز والمهالك. ليدن ١٨٧٣.

ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والبربر. بولاق ١٨٦٧.

ابن خلكان: Biographical Dictionary, translated by Baron Mac Guckin de Slane (Paris, 1843-71).

ابن سعد: كتاب الطبقات الكبير، نشره سخاو. ليدن ١٩٠٥ – ١٩٢١.

ابن سعد: Die Schreiben Muhammads und die Gesandtschaften an ihn. (skizzen und Vorabeiten von J. Wellhausen. Viertes Heft. Berlin, 1889)

ابن العبري: Gregorii Barhebraei Chronicon Ecclessiasticum, ed (1) J.B. Abbeloos et T.J.Lamy. (Lonvin, 1872-77)

(٢) أبو الفرج، تاريخ مختصر الدولة طبعة الصالحاني (بيروت ١٨٩٠).

(٣) Gregorii Abulpharagii Sive Bar – Hebrei Chronicon Syriacum, ed et vert. p.J. Bruns et GG. Kirsch (Lipsiae, 1789)

أبو شامة: Arabische Quellenbeiträge zur Geschichte der Kreuzzüge Ubersetzt und herausgegeben von E.P. Georgens und R. Röhricht Erster Band: Zur Geschichte Salah ad. Din's. (Berlin, 1879)

أبو صالح: تاريخ ابي صالح (أكسفورد ١٨٩٥).

أبو عبيد البكري: Fragments de géographes et d'historiens Arabs et persans, inédits, relatifs aux anciencs peuples du Caucase et de la Russie meridionale, traduits par C.Defremery. (J.A. iv me série. Tome xiii, 1849)

أبو الغازي: Histoire des Mogils et des Tatares par Aboul-Gházi Behâdour Khan، traduite per le Baron Desmaisons. (st. petersburg, 1871-4)

أبو الفدا: Géorgraphie d'Aboulféda traduite par M. Reinaud. (Paris, 1848)

أبو يوسف: كتاب الخراج. القاهرة ١٣٠٢هـ.

أحمد بن يحيى المرتضى: المعتزلة مشتق من كتاب الملل والنحل نشره السير توماس أرنولد ليبزج ١٩٠٢.

الإدريسي: صفة المغرب والأندلس، نشره دوزي ودي غريه. (ليدن ١٨٦٦)

الأزدي: فتوح الشام لمحمد بن عبد الله الأزدي البصري، نشره و.ن. ليز Lees كلكته ١٨٥٤.

الأصطخري: كتاب المسالك والممالك. نشره دي غريه.
(Bibliotheca Geographorum Arabicourm I. Leiden. (1870)

أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار. نشره. ديرينبورغ، القسم الثاني.

(Publication de I'École des Langues Oreintales Vivantes, ii. me. Ser. Otm xii ii me. Partie). (Paris, 1886).

البلازدي: فتوح البلدان. ليدن ١٨٦٦.

بهاء الدين بن شداد: سيرة السلطان الملك الناصر صلاح الدين. بتافيا ١٧٣٢.

تاريخ السودان: لعبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عام السعدي، نشره هوادس. باريس ١٨٩٨.

التيجاني: Voyage du Scheikh Et-Tidjani dans la régence de Tunis, pendant les années 705, 707 et 708 de I' Hégire (1306-1309); traduit de I'arabe par M Alphonse Rousseau (J.A. iv me. Serie, tome xx, 1852)

الجوزجاني: منهاج سراج الجوزجاني، طبقاتي ناصري نشره و.ناوليز (كلكته ١٨٦٤).

رشيد الدين: جامع التواريخ تاريخ مبارك غازاني نشره بلوشيه (سلسلة جيب التذكارية حـــ xviii (لندن ١٩١١)

زين الدين المعبري المليباري: تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتكاليين. لشبونة ١٨٩٨.

سعيد بن البطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والصديق. باريس ١٩٠٦-١٩٠٩.

سايرس (ابن المقفع) أخبار بطاركة الإسكندرية (بيروت ١٩٠٤)

سيد على أكبر: Toris chapiters du Khitay Naméh. Texte persan et traduction francaise par Charles Shcefer (Mélanges Orienaux. Publications de I'École des Langues Orientales Vivantes. II a série. Vol. ix. Paris, 1883)

صليبيا بن يوحنا: المجدل، طبع مع ترجمة لاتينية بعناية جسموندي. (روما ١٨٩٦).

الطبري: تاريخ الرسل والملوك (نشره دي غويه. ليدن ١٨٨٥ — ١٨٩٣)

عبد الرازق السمرقندي: مطلع السعدين ومجمع البحرين (India Office Ms. No. 2704)

عبيد الله: تحفة الهند، دهلي ١٣٠٩هـــ.

عرب فقيه: فتوح الحبشة، نشرة رينيه باسيه. باريس ١٨٩٧-١٩٠٩.

عمرو بن متى: المجدل، طبع مع ترجمة لاتينية بعناية جسموندي (روما ١٨٩٦)

غلام سرور: خزينة الأصفياء (لاهور. غير معروف تاريخ الطبع)

فرشه (محمد قاسم): History of the Rise of the Mohamedan power in India, translated from the Persian of Mohamed Kasim Fershta by John Briggs. (London,1829)

ابن النديم: كتاب الفهرست، نشرة فلوجل. (ليترج ١٨٧١ — ١٨٧٣)

ماري بن سليمان: المجدل، طبع مع ترجمة لاتينية بعناية جسموندي (روما ١٨٩٩).

محبوب المنبجي: العنوان الكامل بفضائل الحكمة (بيروت ١٩١٢)

محمد بن عثمان الحشائشي: Voyage au pays des Senoussia, traduit par V. Serras et Lasram (Paris, 1903)

محمد حيدر: تاريخ رشيدي. نقله إلى الإنجليزية ن. إلياس و... دينيسون روس (لندن ١٨٩٥).

المسعودي: مروج الذهب. باريس ١٨٦١-١٨٧٧.

المقريزي: (١) A Short history of the Copts, translated from the Arabic by S. C.Malan. (London, 1873)

(٢) Histoire des Sultans Mamlouks de I'Egypte traduite per M. Quatermére. (Paris, 1837-45)

المقري: نفح الطيب، ترجمة Pascual de Gayangos (لندن ١٨٤٠ — ١٨٤٣)

المكين: تاريخ المسلمين (بتافنا ١٦٢٥)
النرشخي: أخبار بخارى (باريس ١٨٩٢)
الهداية: ترجمة تشارلس هاملتون (لندن ١٧٩١)
ياقوت: معجم البلدان (ليبزج ١٨٦٦ – ١٧٨٣)
يحيى بن آدم: كتاب الخراج، ليدن ١٨٩٦.

مراجع إفرنجية

(عناوين المراجع التي ذكرت مرة واحدة في هذا الكتاب قد اكتفينا بإيرادها كاملة في الهوامش)

As (P.J.B. Robidé van der): Reizen naar Nederlandsch Nieuw – Guinea, met Geschied en Aardrijkundige Toelichtinger. (The Huge, 1879)

Abh. F. d. k. d. m. hrsg. V.d. D M G: Abhandlungen für die Kunde doe Morgenlandes Herausgegeben von der Deutdhen Mor-genländischen Gesellschaft. (Liepzig).

Allégret (E.): L'Islamisme en Afrique. (Revue Chrétienne, iiime eér., tome xiv. (paris, 1901)

Alvar: (1) Alvari Corubensis Epistolae. (Migne, Patr. Lat. Tome. Cxxi)
(2) Indiculus Luminosus. (id. Ib.)

Alvarez: Viaggio nella Ethiopia al prete lanni fatto par Don Francesco Alvarez: Portughese. (1502-27) (Ramusio.tome i.)

Amari (Michele): Storia dei Muslmani di Sicilia. (Florence, 1854-72).

Amélineau (E.) Etude sur le Christiansime en Égypte auseptéme siécle, (Paris, 1887).

Anderson (John): Chinese Mohammedans (Journal of the Anthropological Institute of Great Britain and Ireland, vol. i. London, 1872).

Andriessen (W.F.): De Islam in Nederlandsch Indié (Vergen) van den Dag. Amsterdam, 1889)

Argensola (B. Leonardo de): Conquista de las Islas Malucas. (Madrid, 1609).

Arminjon (Pierre): Étrangers et protégés dans I'empire ottoman. (Paris, 1903).

Artin (Yacoub Pasha): England in the Sudan, translated by George Robb. (London, 1911).

Ashoth (J.de): An official tour throught Bosnis and Herzegovins (London, 1890).

Assemani (J.S.): Bibliotheca Orientalis Clementino – Vaticana (Rome, 1719-28).

Barbaro: Viaggio di losafa Barbaro nella peria. (Ramusion Tom ii.).

Barbier de Meynard (A.C): Un document turc sur la Circassie (Centenaire de I'École des Langues Orientales Vivantes. Recueil de Mémoires pnblié par les profersserurs de I'École. (Paris, 1895).

Barbosa (Odoardo): Libro di Odorado Barbosa Portoghese dell' Indie Orientali, 1561, (Ramusio, Tom. i.).

Barros (J.de): Da Asia (Lisbon, 1777-8)

Basset (René): Études sur I'Histoire d'Éthiopie. (Paris, 1882).

Bastian (A.): Die Völker des östichen Asian. (Leipzig, 1886).

Baudier (Michel.): Histoire Générale de la Religon des Tures. (Rouen, 1641).

Baudissin (W.W. Graf von): Eulogius und Alvar Ein Abshnitt spanischer Kirchengeschichte aus der Zeit der Maurenherrschaft (Leipzig, 1872).

Baumgarien (Martin): The travels of (A collection of Voyages and Traveles). London, 1752.

Becker (C.H.) (1): Materialien zur Kenntnis des Islam in Deutch Ostafrika. (Der Islam, vol. ii. Strassburg, 1911).
(2) Popyri Schott – Reinhardt 1., herausgegebeu und erklärt. (Veröffentlichungen aus der Heidelberger papyrus Sammlung, iii) (Heidelberg, 1906).
(3) Zur Geschichte des östlichen Sudan. (Der Islam, vol. i.Strassburg. 1910).
Bake (T.C): Routes in Abysssinia. (J.R. Ggr. Soc., vol. xiv. 1844).
Belin: Fetwa relatif á la condition des Vimmiz et particuliérement de, Chrétiens eu pays musulmons, depuis I'établissement de I'slamisme Jusqu'au milieu de viic siécle de I'hégire, traduit de l'arabe par M. Belin. (J.A. ivme série, Tome xviii, 1851).
Bell (H.I): Greek Papyri in the British Museum. Catalouge, with Texts, Vil - iv . The Aphrodito Popyri, edited, by H.L.Bell. with an appendix of Coptic Papyri, edited, by W.E. Crum. (London, 1910).
Bellew (A.W.) The races of Afghanistan. (Calcutta, 1880).
Benedict of Peterborought: Gesta Regis Henrici Secundi Bendicti Abbastis. Edited by William Stubbs. (London, 1367).
Berg (L.W, C. van den): (1) De Mohammedaansche geestelijkeid en de geestelijk gaedern op java en Madeara. (Ts. Ind. T. l-vk vol.xxvii, 1881).
(2) Le Hadhramout et les Colonies Arobes dans I'Archipel Indien. (Batavia, 1885).
Bijdr. t. d. t. l en vlk: Bijdragen tot de Taal-en Volkenkunde van Nederlandsch – Indië, uitgegeven dor het Konilijk Instituet Voor de Taal., Land-en Volkenkunde van Nederlandsch – indië. ('s Gravenhage).
Bizzi: Relations della visito fatta de me, Marino Bizzi, Arcivescovo d'Antivari, nelle parti de la Turchla, Antivari, Albania e Servia alle Santitá di Nostro Signore papa paolo Quinto. 1610. (Bibliotheca Barberine, Rome. Nr lxiii. 13)
Blau: Chronick der Sultâne von Bornu, bearbeitet von Otto Blau. (ZDMG., vol. 6. 1852).
Blochet (Ei): Introduction á I'Historie des Mongols de Fedl Allah Rashid ed. Din. ("E.J.W. Gibb Memorial" Series. Xii)
(London, 1910).
Blount: A voyage into the levant; a brief relation of a journey lately performed by Master Henry Blount, Gentlemn. 1634-36. A collection of Voyages and Travels. (London, 1745).
Blunt (W.S): The Future of Islam. (London 1883).
Blayden (E.W): Christianity, Islam and the Negro Race. (London, 1833).
Bobrovnikoff (S.): Moslems in Russia. (The Moslem World, vol. i. (London). 1911.
Bokemeyer (H.): Die Molukkken (Leipzig, 1888).

Bonaventura di S. Antoio: Information di Fra Bonaventura di S. Antonio, Reformato di S. Francesco, Missrio d'Albauia, (Assisi li 30 Luglio, 1652) (Pibliotheca Chigiana, Rome. G. iii., 94).
Bonet-Maury (G): L'Islamisme et le Christianlsme en Afriqe. (Paris, 1916)
Boushe (Pierre): La Côte des Esclaves et le Dahomey. (Paris, 1885).
Bretschneider (E): (1) Mediaval Researches from Eastern Asiatic Sources. (London,1888).
(2) On the knowledge possessed by the Ancient Chinese of the Arabs and Arabian Colonies (London, 1871).
Broomhall (Marshall): Islam in China (London, 1910).
Brosset (M.F.): Histoire de la Géorgie. (St. Petersburg. 1849-58).
Brumund (J.F.G.): Bijdragen tot de kennis van het Hindaeisme op Java. (Verth. Bat. Gen. van K., en W.Deel xxxiii. 1868).
Budge (E.A) Wallis: The Egyptian Sudan, its history and monuments. (London,1907).
Burchard: Burchardi de Monte Sion Descriptio Terrae Sanliae. (Peregrinatores Medii Aevi Quatour. Ed. J. C. M. Laurent Lipsiae,1864).
Burckk hardi (J. L.): (1) Travels in Nubia. (London, 1819).
(2) Travels in Syra and the Holy Land. (London, 1882).
Burton (Richars F.): (1) Abeokuta and the camaroon Mountains. (London, 1893).
(2) First Footprints in East Africa (London. 1856).
Busbecq (Augier Ghislende) Omniaquaeextant (Amstelodami, 1660).
Busiuello (P.): Historisch Nachrichten von der Regierungsart der osmanischen Monarchie. (Leipzig, 1778).
Caetani (Leone, Principe di Teano): Annali dell'Islam. (Millano, 1905).
Cahun (Léon): Introduction a` I'histoire de I'Asie. Turcs et Mongols. (Paris, 1896)
Campen (C.F.N.): Nalezingen op het opstel over de godsdiens tbegrippen der Halemaherasche Alfaeren. (Ts, ind. T. I. vk. Deel xxviii. 1883)
Canne (H.D.): Bijdroge tot de Geschidenis der Lampengs. (Ts. Ind. Ti – I – vk. Deel xi. 1852).
Cantacuzenos: Trattato di Theodoro Spendugino Cantacusion de costumi de Turchi. (Venice, 1573)
Chavannes (E): Documents sur les Tou-Kiue Sures Occidentaux (Sbornik Trudov Orchonskoy Expedicii. Vi St Petersburg (1903)
Chiragh Ali: Mauiavi Chergh Ali: A Critical Exposition of the popular Jihád (Bombay, 1885)
Chwolsohn (D.): Die Ssbier und der Ssabismus (St. Petersburg, 1856)
Chytraeus (David) Oratlo de statu ecclesiarum hoc tempore in Graecia, Asia, Africa, Ungeria, Boë, oa. Etc (Wittebergae, 1580)
Clark (E.L.): The Races of European Turkey. (New York, 1878)

Comuleo: Intrutioni al Revdo Don Alessanro Comulco Archiprete di S. Girolamo di Roma mandato de papa Clemente Ottavo al Gran Duca di Moscovia, et altri principi, et potentali delle parti Settentrionali. Con una Relatione del Medesimo Comuleo fetta á S. Santitá sopra le cose del Turco. (Bibliotheca Barberina, Rome. Nr. lviii. 33)
Contenson (L.de): Chrétiens et Musulmans. (Paris,1901)
Coolsma (S.): De Zendingeeuw voor Nederlandsche Oost-Indië. (Utrecht, 1901)
Cornaro (F.): CretaSacra, authore Flaminio. Cornello (Venice, 1755)
Ciawfurd (John): (1) A Descriptive Dictionary of the Indian Islands and adjacent Countries. (London, 1856)
(2) History of the Indian Archiaelago (Edinbur, 1820)
Creasy (Sir Edwards): Histor of the Ottoman Turks. (London 1878)
Crisio: Summario della Relation della visita di Albania, fatta per ordine della dac. Congne de Don Marco Crisio Sacerdote Abanese.
1651. (Bibliotheca Chigiana, Rome. G. iii. 94)
Crusius (Martin): Turcograecia. (Basileae, 1584)
Darlymple (A): Essay towards and account of Sulu. (Journal of the Indian Archipelago and Eastern Asia. Vol.iii. Singapore, 1849)
Dalton (E.T.): Descriptive Ethnology of Benall. (Calucutta, 1872)
Delafosse (Maurice): Les conferies muslumanes et le maraboutisme dans les pays du Sénégal et du Niger. (Renscignements coloniaux et Documents publiés par le Comité de I'AfriquenFrancasie et le Comité du Marco. No 4. Paris, 1911.
Depont (Octave) et Coppolani (Octave): Les confrériesies religieuses musulmanes. (Alger, 1897)
Devéria (Gabriel): Origine de I'Islamism en Coine. Centenaire de I'École des langues Orientalel Vivantes. Recuell de Mémoires Publié par les professeures de I'École (Paris, 1895)
Dobschütz (E.von): Die confessionellen Varhältneese in Edessa unter der Arabeaherrchaft. (Zeistschrift für wissenschaftiche Theologie. 4ler Jahr5ang, 1898)
Döllinger (J.J.T): Mohammed's Religion nach ihrer innequen Entwicklung und ihrem Einfluusse auf das Leben der Völker.
(Munich, 1838)
Dorostamui (Athanasius): Neueste Beschreibung derer Griechis. Chen Christen in der Türckey, aufgesetzt von Jacob Elssnr. (Berlin, 1737)
Doughty (CharlesM): Travels in Arabia Deserta. (Cambridge, 1737)
Dousa: Georgii Dousae de itinere suo Contantinopolitano epistola. (Lugduni Batevorum, 1599)
Doutté (E): Notes sur I'Islam maghribin. (Revue de I'Histoire des Religions; XL, XLI. Prris, 1899, 1900)
Dozy (R. P.A.): (1) Essai sur I'histoiae de I'Islamisme. (Leyde. 1897)
(2) Histoire des Musulmansd'Espagne. (Leyde, 1861)

(3) Recherches sur I'histoire et la littérature de I'Espagne pendant le moyen âge, 3me éd. (Leyde, 1881)
Driesche (G.C. von den): Historische Nachricht von der Rom. Kasyerl. Gross-Botséhaft nach Constantinopel, welche… der Graf Damian Hugo von Virmondt rühmlichst verrichtet.
(Nürnberg, 1723)
Dulaurier (M.E): Addition au memoire intitulé liste des pays qui relevient de I'empire javanai2 de Madjapahit. (J.A. iv me série, Tome xiii. 1849)
Duveyrier (H.): La coufërie musulmane de Sidi Mohamed Ben 'Ali Es-Senoûsi. (Paris, 1886)
East (D.J.): Western Africa. (London, 1844)
Elias of Bisibis: f. Beathen: Fragmente Syrischer und arabischer Historiker. (Abn. F.d K. d. M. hrsg. V. d. DMG. Vol. iii. No. 3.1884)
Eiliot (Sir H.M): The history of India, as told by its own historians. The Muhammaden period Edited by prof. John Dowson (London, 1872-7)
Encyclopaedia van Nederlandsch – Indië, met medwerking van verschillende ambtenaren, geleerden en officieren, samengesteld door P.A. van der lith en J.F. Senelleman.
(Liden 1889-1905)
Enhuber (J.B.): Dissertatio de haeresi Elipandi et Felicis. (Migne, part. Lat. Tom. Ci.)
Eulogius: Memoriale Sanctorum (Migne, part. Lat., Tom. Cxv)
Evans (A.J.) Through Bosnia and the Herzegovina. (London, 1876)
Farlati (Dantel): Illyricum Sacrum. Venice, (1769-1819)
Finaly (G).: A History of Greece. From its Conquest by the Romans to the present time (Oxford, 1877).
Forget (D.A): L'Islam et le Christianism dans I'Afrique Centrale. (Paris, 1900)
Fournel (Henri): Les Berbers. Étude sur la conquûte de I'Afrique par les Arabes (Paris, 1875)
Frere (Sir Bartle): (1) Estern Africa as a field for Missionay Labour. (London, 1874)
(2) Indian Missions. 3rd. ed. (London, 1874)
Gaetan: Relatione di Ivan Gaetan del discoprimento dell' Isole Molucche.(Ramusio. Tome, i.)
Garner: (W.H.T.): The Reporach of Islam. (London, 1909)
Garnett (L.M.J): The Women of Turkek and their Folklore the Jewish and Moslem Women. (London, 1891).
Gasztowtt (Thadée) La pologne et l'Islam. (Paris, 1907)
Gazetter of the Bombay presidency. (Bombay, 1877-1904).
Gazetter of the North – Western Provinces of India. (Allahabad, 1874 – 84)
Gazerteer of the province of Gudh. (Lucknow, 1877)
Gazetter of Rajputana. (Calcutta, 1879)
Georgieviz (Bartholomaeus): De Turcerum Moribus Epitome. (1598)

Georirenes (Josph): A Description of the present state of Semos, Nicaria) patmos and Mount Athos. (London, 1678)
Gerlach (Stephan): Tage-Bush der von zween … Römischen Kaysern…. an die Ottommanisch pforte … abgefertigten.. Gesandtschaft. (Frankfurt, 1674)
Gfrörer (A.F.): Byzantinische Geschichten, hrgs. Von J. B. Wueiss. (Graz, 1872-7)
Gibbon (Edward): The History of the Decline and fall of the Roman (Empire) London, 1881.
Gmelin (M.F.): Christensclaverei und Rene5atenthum unter den Volkern des Islam. (Berlin, 1873)
Gobineau (A.de): (1) Les Religions et les philosophies dens I'Asia Centerale. (Paris, 1865)
(2) Trois Ans en Asie. (Paris, 1859)
Goldziher (Ignaz): Muhammedanische Studien. (Halle, 1889-90)
Gotteil (R.J.H): Dhimmis and Moslems in Egypt. (Old Testament and Semitie Studies in memory of William) Rainey Harper, vol. ii. (Chicago, 1980)
Grenard: J.L. Dutreuil de Rhins. Mission Scientifique dans La Haute Asie, 1890-1895.
IIme partie. Le Turkestan et le Tibet, Étude ethnographique et Sociologique, par F. Grenard. IIIme partie. Historie, Linguistipue, Archeólogie Géographie, par F. Grenard (Paris, 1898)
Grenard: La légende de Satok Boghrakhân et I'histoire, par M.F. Generad. Journal Asiatique. Ixme serie, tome xv. (paris, 1900)
Groeneveldt (W.P.): Notes on the Malay Archipelago and Malacca, compiled from Ckhinese sources (Verh. Bat Gen. Van K. en W.Deel xxxix. 1880)
Grosier (J.B.G.A.): Da la Chine. Ou description général de cet empire. (Paris, 1819)
Guignes (C. L. J. de): Histoire general des Huns, dws Turcs, des Mogols, (Paris, 1750-8)
Hackett (J): A History of the Orthodox church of Cyprus. (London, 1901)
Hageman (j): Bijdrage tot de Geschiedenis van Borneo. (Ts. Ind. T-1. vk Deel vi 1856)
Hammer – Purgstall (Joseph von):
(1) Geschichte des Osmanis. Chen Reiches. (pesth, 1827-35)
(2) Des Osmanischen Reichs Staatsverfassung und Staats – verwaltunh. (Wien, 1815)
(3) Geschichte der Goldenen Horde in Kipstchak (Pesth, 1840)
(4) Geschichte der llcheanen. (Darmatadt, 1842-3)
Haneberg (B): Das muslimicshe Kridgrecht. (Munich, 1871)
Hasselt (A.) L. von: Volksbeschrijving van Midden – Sumatra. (Leiden, 1882)
Hauri (J): Der Islam in Seinem Eninfluss auf das Leben seiner (Bekenner. Leiden, 1883)

Hay wood (A.H.W): Through Timbuctu and across the Great Sahara, (London, 1912)
Hefele (C.J.): Beiträge zur Kirchengeschichte, Archäologie und Liturgik, (Tübingen, 1864)
Helfferich (Adolf): Der Westgothisch Arianismus und die Spanisch Ketzer Geschichte. (Berlin, 1860)
Hertzberg (G.F.): Geschich, der Byzantiner und des Osmanischen Reiches., (Berlin, 1882-3)
Hill (Aaron): Full and Just Account of the present State of the Ottoman Empire. (London 1709)
Hoevell (G. W. W. C. Baron von): De Kei-eilanden, (Ts, ind, t, -1, -en vk. Deel xxxiii, 1890)
Hollander (J. J. de): Handleiding bij de Becefening der Land-en Volkenkunde van Nederlandsch Oost-Indië. (Breda, 1884)
Hoveden: Chronica Magistri de Hovedene, edited by William Stubbs. (London, 1968-71)
Howorth Sir H.H.: History of the Mogols. (London, 1876-80)
Hurgronje C. Snouck: (1) De beteckenis van den Islam voor zjjn ebelijders in Oost – Indië, (Leiden, 1883)
(2) De Sjottarifjah – Secte. Med Ned. Zendelinggen. Vol. xxxii. 1888.
(3) Mekka. The Hague, 1888-9
Ibbeston D.C.J: The Musulmans of the Panjab (Indian Evangelical Review. Vol. x. Calcutta, 1684).
Informatione del Segretario de Proganda fide circa la Missione d'Albania de fratri Riformati de S Franceco (Bilbliothica Chigiana, Rome G iii 94).
Innes (C.A): Malabar and Anjen50: by C.A. Innes, edited by F B Evans Madras District Gazetteers. (Madras, 1809)
Isnberg C.M.: Abessinien. Bonn, 1844.
Ishok of Romgla: Chronique de Michel le Grand traduite sur la version arménienne du prêtre Iskôk par Victor Lanhlois (Venise, 1838)
Isidori Pascensis Chronicon (Migne, part lat, Tom. Xevi)
Islam and Missions, bein papers read the second Missionary Conference on behalf of the mohammeden World at Luchnow January 23-28, 1911, edited by E.M. Wherrx, S. M.Zwemer, C.G. Mylrea (New York, etc, 1911)
J.A: Journal Asiatique (Paris)
J.A.S.B.: Journal of the Asiatic Society of Bengal (Calcutta)
J.R.Ggr Soc: Journal of the Royal Geographical Society (London)
Jascques de vitry: Jacobi de Vitriaco Libri Duo Quorum prior Orientalis, sive Hierosolymitanae: Alter, Occidentalis Historiae nomine inscribiture Operá D Francisci Moschi editi (Duaci 1597)
Jadrinzew (N): Sibiern: Geographische, ethnorgraphische und historisch Studien, bearbeitet von Ed. Petri (Jena, 1886)
Jessup (H.H.): The Mohammedan Missionary Question. (Philadelphia,1897)

John Of Groz: Vita Loannis Abbastis Gorziensis, auctore lonne Abbate S. Arnulfi. (Migne, part Lat, Tom cxxxvii).
John of Nikiu: Chronique de Jeau, Evêque de Nikio. Publie et traduit par H.Zotenberh (otices et extraits des Manuscrits de la Bibliothéque National Tome xxiv. Premiére partie paris, 1883)
Joinville: (Euvres de Jesn. Sire de Joinvelli, ed N. de Wailly (Paris, 1867)
Josellian (Plato): A short History of the Gorgian Church, translated by S.C. Malan (London,1866)
Kanitz (F.): Die fortschreitende Arnautisirung und Mohameda – nisirung Alt-Serbiens (Oesterreichishc Monatsschrift für den Orient Vienna, March, 1888)
Karamsin (N.M.): Histoire de I'Empire de Russie (Paris 1819-26)
Keane (A.H.): Asia. Edited by Sir Richard Temple, (London 1882)
Kern (H.): Over den inloed der Insische, Arabische en Europeesche beschaving op de volkeu van den Insischen Archipel (Leiden,1883)
Khoja Vrttant by Sachedina Najiani (Ahmedabad, 1892)
Klamroth (M.): Der Islam in Deutchostafrika Berlin 1912.
Klaproth (J.von): Apercu des enterprises des Mongols en Géorgie et en Arme nie dans le xii, siécle, (J.A.Séri ii., Tome xxi. 1833)
Krehl (Ludolf): Das Lebed das Muhammed, (Liepzig, 1884)
Kremer (A.von): (1) Culturegeschichte des Orients unter den Chalifen, (Vienna, 1875)
(2) Culturgeschichtliche strefizüge auf dem Gebiete des Islams (Leipzig. 1873)
(3) Geschichte der herrschenden Ideen des Islams, (Leipzig, (1896)
(4) Notizen gesammelt auf einem Ausfluge nach plamyra, (Sitzb. D, Akad, d, Wiss, Hhilos-hist, Cl. Vol. v 1850)
Kriger (Maximilian): New Guinea, (Berlin, 1899)
Kritopoulos (Metrophanes): Metrophanis Critoduli Confessio, (E.J. Kimmel: Monumenta Fide. Ecclesiae Orientalis, Pars II.)
(Jenae,1850)
Kumm (H.K.W.): Khont – hon – nofer, the Lands of Ethiopia, (London, 1910)
Kyriakos (A. Domedes): Geschichte der orientalischen Kirchen von, 1453-1898 (Leipzig, 1902)
La Jonquiére (A.de): Histoire de I'Empire Ottoman (Paris 1881)
La Saussaye (P.D.) Chantepie de: Lehrbuch der Religions' geschichte, Freiburg (1.B. 1887-9)
Lammens (Henri): Études sur le regne du Calife Omaiyada (Mo'awia ler) Uiniversité Saint-Joseph, Beyrouth (Syrie) Mélanges de la Faculté Oriedtale, I. (Beyrouth, 1906)
Lane (E.W.): The Manners and Customs of the Modern Egyptians. 5th ed (London 1860)
Laurent (J.C.M): Peregrinatores Medii Aevi Quatour, Lipasiae, (1864).
Lazer (Victor): Die Südrumanen der Türkei und der angranzed n Linder, (Bukarest,1910)

Le Chatelier (A.): (1) Les Confréies muslmanes (du Hedjaz) (Paris, 1887)
(2) L'Islam au xixe siécle, (Paris, 1888)
(3) L'Islam dans I'Afrique Ocbidentale (Paris, 1899)
Le Quien (Micheal): Oriens Christiadus. (Paris, 1740)
Lea (H.C.): The Moriscos of spain: Their conversion and expulsion
Leake (W.M.): Researches in Greece. (London, 1814)
Leo Africanus: Della Descrittione dell' Africa, par Giovani Lioni Africano, (Romusio, Tom,i.)
Leslie (Gaultier de): L'Amvassade á la porte Ottomane, ordonnée par sa Majesté Impériale, Léopold I, executée par Gauliter de Lesli, comte du S, Empire, (1665-66) Rycout, Tome ii.)
Liefrinck (F.A.): Bijdrage tot de kennis van het eiland Bali, (Ts. Ind. T-1, -vk. Deel xxxiii, 1890)
Littmann (Endo): Bemerkungen über den Islam in Nordabessinien, (Der Islam, vol, I, Strassburg, 1910)
Low (Col, James): A Translation of the KeddahA nnals. (Journal of the Indian Archipelago and Eastern Asia, Sinapore, 1849)
Luca (Jean de): Relations des (Tartares Thevenot)
Ludolf de Suchem: Ludolphi, Rectoris Ecclisae parochialis in Suchem, de Itinere Terrae Lanctae Liber, herausgegeben von F. Deycks. (Stuttgart.1051)
Lüttke (Moritz.): (1) Aegyptens neue Zeit. (Leipkig, 1878)
(2) Der Islam and scine Völker. (Güterslon, 1878)
Luitprandi (Pseudo) Chronicon. (Migne, part. Lat, Tom, cxxxvi)
Lyall (Sir Alfred C.): Asiatic studies. (London, 1882)
MSOS: Mittheilungen des Saminars fur Orientalische Sprachen Berlin.
Macarius (Patriarcsh of Antioch): Travels of from the Arabic of the Archdeacon Paul, translated by F. C. Belfour. (London, 1829-34)
Mackenzie (G.Muir) and Irby (A.P.): Travels in the Slavonic Provinces of Turkey – in – Europe, (London, 1867)
Mackenzie (K. R. B): Schamyl and Circassia Chiefly from materials collected by Dr. Friedrich Wanger, edited by (London, 1854)
McNair (F). Perak and the Malays, (London, 1878)
Marden (William): History of Sumatra (London, 1811)
Marsigli (L.F) Stato Militare dell' Imperio Ottomanno. (Amesterdam, 1732)
Mas Latri (J.M. J. L. de.): (1) Hisitoire de I'ilie de Chypre souse le régne des princes de la maison de luisgnan. (Paris, 1852-61)
(2) Relation et commerce de I'Afrique septentrionale avace les nationnes chrétiennes au moyen âge. (paris, 1886)
Massaja (Guglielmo): I miei trentacinque anni de missione nell Alta Etiopia. (Roma, 1845-93)
Massimiliano Transilvano: Epistola di, della ammirabile et stupenda nauvigatione fatta per gli Spangnuoli! O anno MDXIX. Attorno il mondo

(Ramusio, Tome. I,) Med, Ned. Sendelingen: Madedeelingen van wage hel Naderlandsche Zendelinggenootschap. (Rotterdam)
Menavino (G.A.): Vita et Leghe Turchesca, (Venice, 1537)
Meuzel (Theoder): Das Krops der Janitscharen. (Beiträge zur Cenntnis des Orients. Band i. jahrbuch der Münchner Orientalischen. Gesellschaft, 1920-3. Berlin)
Merensky (A): Mohammedanismus und Chirstenum in Kampfe um die Negerlander Afrikas. (Allgemeine Mission – Zeitschrift, Band xxi. Gütersolh. 1894)
Methods of Mission Work among Moslems, Being those papers read at the First Missionary Conference on pehalf of the Mohammden World held at Cairo April 4th – 9th, 1906, and the discussions thereon, which by order of the Conference were not to bi isuued to the public, dut were to be privately printed for the use of missionaries and the friends of mission (New York, etc. 1906)
Metzer (E): Die Baduwis auf Java, (Globus, Band xliii Braunschweig, 1383)
Meyer (P.C): Erforschungsgeschichte und Staatenbildagen das Westsudan, (Ergänzungsheft No, 121 zu "Petermanns Mit. Teilungen," (Go'ha, 1897)
Michael the Elder: Chronique da Micael le Syrien, patriarche Jacobit d'Antioche 1166-1199, éditée.. par J.B. Chabot (Paris, 1899-1901)
Migne, Parf Gr: Patrologia Graca Paris, 1857-66.
Migne, Patr, Lat: Patrologia Latina Paris 1844-45.
Millman H.H: History of Latin Christianty London 1872.
Mischlich und Lippert: Beitráge zur Geschichte der Hausstaaten von A Mischlich, Mit Einletung von Julius Lippert, (M. S. O. S. VI. 1903, Abtheilung III)
Misson d'Ollone: Recherches sur les Muslmans Chinois par le commandant D'Ollone, le capitaine De Fleurelle, le capitaine Lepage, le lieutenant De Boyve, Étude de A.Vissiére. Note de F.Blochet et de drivers savants (Paris 1711)
Mohammeden World: The Mohaameden World of to – day being papers read at the First Missionary Conference on behalf of the Mohammedan World held at Cairo, april 4th – 9th, 1906.
(New York, etc, 1906)
Moneteroy Vidal (D.José): Historia de la Pirateria Malayo – maho metana en Mindano,Joló y Borneo, (Madrid, 1888)
Moor (J.H.): Notices of the Indian Archiperlago. (Singapore 1837)
Moore (Francis) Travels in the Island parts of Africa. (The World displayed; or a curious collection of voyages and travels. (London,1760)
Morgan (J.): Mohamedism explained. (London, 1723 – 5)
Morié (L.J.); Hsitoire de I'Ethiopie. (Paris, 1904)
Moslem World (The), a queterly review of current eveues, literrtner, and thought among Mohammedans, and the progress of Christian Mission in Moslem lands. (London, 1911)
Muller (August)' Der Islam im Morgan und Abendland. (Berlin, 1885-7)

Muller (G.F.); Sammlung Russischer Geschichte. (St. Petersburg 1761)
Muir (Sir Willian): (1) The Caliphete; its rise, decline and fall. (London 1891)
(2) Life of Mahomet. (London, 1858 – 61)
Munzinger (Werner); Abessinien. (peteman's Mitthelungen. Gotha, 1867)
Neander (A.); (1) General history of the Christen Religion and Church.
(London, 1851-8)
(2) Memorials of Christian life (London, 1852)
Metscher (E.): Kronljk van Sambas en van Soekadana, (T ind) t-1. –vk, Deel I,
(1852)
Newbold (T.J.): Political Account of the British Settements in the Straits of
Malacca (London 1839)
Nicholson (Reynold A.): A. Literary History of the Arabs, (London 1907)
Niemann (G.K.): Inleiding tot de Kennis van den Islam (Rotterdam, 1861)
Ohsson (C.d.): Histoire des Mongolos (The Hague, 1834-5)
Ohsson (M.d): Tableu général de I'Empire Othoman. (Paris. 1820)
Oliver (L.) La Bosnie et I'Herzégovine, ouvrage publié sous la direction da louis
Olivier. (Paris, n d)
Oppel (A): Die religiöse Varháltnisse von Afrika. (Zeitschrift der Gesellschaft
für Erdkundde zu Berlin, vol. xxii, 1887)
Orderici Vitalis Historia Ecclesiastica. (Migne, Patr. Lat. Tom. Clxxxviii.)
Palmer (H.P.); The Kano Chronicle, translated with an introduction (Journal of
the royal Antropological Institute, vol, xxxviii, 1908)
Plamieri (Aurelio): Die Polemik des Islam Aus dem Italienisch übersetzt von
prop, Valentin Hozer. (Salzurg, 1902)
Panciera (B): I Musulmani (Florence, 1877)
Pashley (Robert); Travels in Crete. (London, 1837)
Paulitschke (Philipp); Harer, Eorshcungerseise nach den Sâmal und Galla-
ländern Ost – Afrikas (Leipzig, 1888)
Pavy; (Eurvres de Mgr, 1. A-A. Pavy Evéquê (d'Alger Paris 1858)
Perceval (A.P. Gussin de): Essai sur I'histoire des Arabes avant 1'Islamisme,
penant I'épouqe de Mahomet, et Jusqu'á la réduction de toutes les trubs sous la
loi musulman (Paris, 1847-8)
Perrot (Georges): L'ile de Créte. (Paris, 1867)
Phrantzes (Georgios): Annales, ed, B G Niebuhr (Bonnae, 1838)
Pichler (A.): Geschichte der protestanismus in der orientalis chen Kirche im 17,
Jahrhundert, order Der Patriarch Cyrilius Lucaris und seins Zéit. (Munich, 1862)
Pigafetta (M.Antonio): Viaggio alorno il monde fatto et descritto per. (Romusio,
tom, i)
Pitzipios (J.G): L'Église orientale, (Rome, 1855)
Plowden (W.C): Travels in Abyssinia and the Galla Country (London 1868)
Poesnsen (C.): Brieven over den Islam uit dh Binnenlanden van Java. (Leiden,
1886)

Polo (Marco): The Bosk of the East, translated and edited by sir Henry Yule, Third Edition. Revised by Henri Cordier. (London, 1903)
Prutz (H).: Kuturgeschichte der Kreuzzüge (Berlin, 1883)
R. du. M. M.: Revue du Monde Musulman, publié par la Mission sieutifique de Marco. (Paris)
Rabbath (Antoine): Documents fnédits pour servir á I'Histoire du christiannisme en Orient Tome premier (Paris, 1905)
Radolff (W.): Aus Siberien, (Lepzig, 1884)
Raffles Homas Stamford: The History of Java (London, 1817)
Ramusio (G.B.): Navigationi et Viaggi, (Venice, 1559)
Raverty; Tabakat-I Nasiri; a general history of the Muhammadan Dynastries of Asia, by Minhaj – ud – Din, abu – 'Umar –I' Us man. (London 1881)
Reade (W.Winwood); Afircan Sketch Book (London, 1873)
Reclus (Elisée); NouvelleGéographieUniverelle. (Paris, 1876-91) Renaud, see أبو الفدا
Ranaudot (E); historia Patriarcharum Aloxandrinorum Jabitarum (Paris, 1713)
Report of Centenary Conference of the protestant Missions of the World, held in London, 1888, edited by Rev, J.J. Jonhston (London, 1889)
Rev, col,int: Revue Coloniale Internationale (Amesterdam)
Richter (J): Die Propagenda das Islam als Wegbestrieterin der modernen mission, (Missionswissenschaftliche Studien Festschrift zum 70, Geburtsag des Herrn prof Dr, Gustav Warneck) (Berlin, 1904)
Riedel (J.G.F): (1) De Sluik – en – Kroesharige Rassen tusschen Selebes en Paupa (The Hahue, 1886)
(2) The Island of Flores or Pulan Bunga. The Tribs between Sika and Manggaraai. (Rev, co lint Tome ii 1886)
Riun (Louis): Marabouts et Khouan (Aligers, 1884)
Resocoe (John): The Baganda, (London, 1911)
Ross (Alexander): A Needful Caveat' or Admonition, for them desire to know what use may be made of, or if there be danger in Reading the Alcoran. The Alcoran of Mohame, Translated out ot Arabic into French, by Sieur de Ryer, …….. and newly Englished, for the satisfaction of all that desire to look into the Turkish Vanities. (London, 1688.)
Ruffaer (G.P.): Het tijdperk van godsdienstovergahg 4400-1600 in den Maleishen Archen Archipel. (Bijdr. T.d t-1. en vlk., dl, 50. 1899)
Ruburk: The journey of William of Rubruck to The Estern parts of World, 1253-55, as narrated by hirr self, Translated.. by William Woodvill Rockhill. (Hakluyt, Society – Second Series. No, iv) (London, 1900)
Rüppell (Eduard): Reise in A byssinien, (Frankfurt am main, 1838)
Rycaut (Sir Paut): Histoire de l'élat présent de I'Empire Ottman, traduit de l'Angleis de Monsier Ricaut, par M. Broit (Amsterdam, 1672)

Sachau (Eduard): Uber den zweiten Chalifen Omar Ein Charakter – bild aus der ältesten Geschicie des Islams. Sitzunggsburichte der Königlichen Preussishen Akademie der Wissen – (schaften Berlen, 1902)
Sacy (Le Bon Silvestre de): Exposé de la Religion des Druzes (Paris, 1838)
Salmon (C.S): British Policy in West Africa (Contemporary (Review, 1882)
Samson: Samsonis Abbstis Cordubensis Apologeticus, Liber, (Henrique Florez: Espana Sagrada, Tom xi) (Madrid, 1747-74)
Sansovino (Francesco): Historia Universale del l'Origine et Imperio de Turcki (Venice, 1573)
Schack (A.F.Graf von): Posie und Kunst der Araber in (Spanien und Sicilien Stutgart, 1887)
Schefer (C): Notice sur les relations des peoples musluman avec les Chinois, deduis l'extension de l'Islamisme Jusqu' á la fin XVe siécle (Centenaire de I'École das Langues Orientales, Vivantes, 1795-1895. Recueil de Mémoires publiés par les Professeurs de L'École. (Paris, 1895)
Scheffler (Johannes): Turchen – Schrifft: von den Urscachen der türckischen ueberziehung and Zertretung pes Volckes Gottes, 1664.
Schiltberger (Hans): Reisebuch, herausgegben von V. Langmantel, (Tubingen 1885)
Semper (C): Die Philippinen und ihre Bewohner. Würzburg, 1869.
Shedd (W.A): Islam and the Oriental Churches. Philadphia 1904. Silbernagle (Isidor): Verfassung und gegenwártiger Bastant sámtlicherKirchen das Oriants 2te Auflage (Regensburg. 1904. Limon (G): Islam und Christentum im Kamp f um die Eroberung der animistischen Heidenwelt, Beobachtungen aus der Mohammed – anermission in Niederländischlndien (Berlin 1910)
Sitz d, Akad, d, Wiss, Philos-hist Cl,: Sitzungberichte der philosophische – historischen Classe der Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften Vienna.
Smith Thomas: Remarks upon the Manners, Religion and Government of the Turks (London 1678)
Sjmith W.J. The present phases of the Mohammedan Question, The Churchman London (Jan, 1888)
Spons Jascop: Reisen durch Italien, Dalmatien, Griechenland und die Morgenländer. (Nürnberg, 1713)
Sprenger A.: Das Leben und die Lehre des Mohammed (Berlin, 1861)
Steinschneider Moritz: Polemische und apologetesche Litteratur in arablicher Sprache, zwischen Muslimen, Chrtslen und Juden. (Leipzig, 1877)
Stirling – Maxwell Sir William: Don John of Austria (London 1883)
Tavernie (J. B.) (1) The six voyages (London, 1677)
(2) Travels in India London 1878
(3) A. New Relation of the Inner – Part of the Grand
Seignor's Leraglio (London 1677)
Thevenot M.: Relations de divers voyages curiex paris 1696.
Thiersent P. Dabry de: Le Mahmométisme en Chine (Paris 1878)

Thomas of Mârga: The Book of Governors: The Historia Monostica of Thomas. Bishop of Margâ A.D. 840 edited by E.A. Wallis Budge (London, 1893)
Thomson Joseph: (1) Mohammedansin in Central Africa, Contemporary Review, Dec. 1886.
(2) Note on the African Tribes of the British Empire the Journal of the Anthropological Institute of Great Britain and Ireland, vol. xvi. (London, 1887)
Tournefort J.P: A Voyage into the Levant (London, 1741)
Ts. Ind. T. -1 vk: Tijdschrift voor indsche Taal -, Land'en volkkenkunde Batavia.
Turchicae Spurcitae et perfidiae Suggillatio et Confutalio (Paris, 1516)
Vambéry (Arminius): (1) Geschichte Bochara's (Stuttgart, 1871)
(2) Sketches of Central Asia (London, 1868)
Vasil'ev (V.P): Spread of Mohammedan Faith in China (St Petersburg, 1867)
Veuiero: Descritione dell' Impirio Turchesco del Revermo Monsere Maffeo Veniero, Arcivescovo di Corfú (R D Marci Bibliotheca, Venice. Classe vii (Cod 882)
Verh. Bat. Gen. Van K. en W.: Verhaudelingen ven het Bataviaassch Genootschap van Kunsten en Wetenschappen (Batavia)
Veth (P.J): (1) Atchin en zijne betrekkiogen tot Nederland (Leiden, 1873)
(2) Borneo's Wester – Afdeeling (Zaltbommel 1854)
(3) Java, geogradhisch, ethnologisch, historisch, Tweede Druk Bewerkt door J.F. Snelleman en J.F. Niermeyer (Haarlem, 1896-1907)
Vivien de Saint – Martiu, L: Nouvean Dictionnarie de Géographie. Universelle. (Paris, 1879-95)
WZKM: Wiener Zeitschrift jür die Kunde des Morgenlandes
Waitz Theodor: Anthropologie der Naturvölker (Leipzig, 1860)
Wansleben (J.M): Histoire de l' êlise d' Alexandrie (Paris, 1677)
Wassaf: Geschichte; Persisch herausgegebsn und deutchh über setzt von Hammer Purgstall (Pienna, 1856)
Weil (Gustav): Geschichte der Chalifen (Mannhaim, 1846- 51)
Wellhausen J.: Skizzen und Vorarbeiten (Berlin, 1885- 99)
Westermann D.: Islam in the West and Central sudan (The international Review of Missions, vol. i. Edinburgh 1912)
Wetzer und Welte's Kirchenlaxicon Zweite Auflage. Freiburg im Brelsgau, 1885 sqq.)
Whishaw (B. and E. M.): Arabic Spain (London, 1912)
Wilken N. P. en (1) Gedachten over het stichten einer ziner zending in Sshwars (J.A.) Bolaäng- Mongondou. Med Ned Zendelinggen vol xi, 1867.
(2) Het Heidendom en de Islam in Bolaäng -Mongondou (id.id.)
Wise Jame2: The Mohammadans of Eastern Bengel (J. A. S. B. vol. ixiii. Part iii. 1894)
Wright Willam: A short History of Syriac Literalure. (London, 1894)

Wüstenfeld F.: Die Geschichtschrelber der Araber and ihre Werke. (Göttingen, 1882)
Yule(H): Cathay and the Way thither (London, 1866)
ZDMG: Zeitsschrift der deutschen morgeländischen Gesells (Chaft, Leipzig).
Zenker (J.T.): Das chinesische reich nach den türkischen Khaatainame (Z.D.M.G.vol. xv. Leipzig 1861).
Zmaievich: Notize universali dello stato di Alania e dell' operato da Monsig, Vincenzo Zmaievic, arcivescovo di Antivari, esaminate nell congregationi Generali di propaganda fide di 4 Debr, 1703. 12 Febr 1704. (Bibliotheca Barberina. Rome. Nr L. 126.
Zollinger (H.): (1) The Island of Lombok Journal of the Indian Archipelago, vol. v (Singapora 1851).
(2) Verslag van ecue reis naar Blma en Soembawa. Verth. Bat. Gen van K. en W. Deel xxiii 1850).
Zwemar (S.M.): Islam: A. Challeugo to faith (New York, 1908).